جامعة فيلادلفيا  كلية الآداب والفنون

ثقافة الخوف

مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر

24 - 26 نيسان (إبريل) 2006

بحوث محكّمة

(1)

تحرير ومراجعة

صالح أبو أصبع   عزالدين المناصرة

محمد عبيد الله

ثقافة الخوف

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧ / ٤ / ٨٩٠)

٨٩٠

مؤتمر فيلادلفيا الدولي : المؤتمر العلمي لكلية الآداب والفنون
(الحادي عشر : نيسان ٢٠٠٦ جرش)

ثقافة الخوف / تحرير صالح ابو اصبع ،
عز الدين المناصرة ، محمد عبيد الله . - جرش :
جامعة فيلادلفيا ٢٠٠٧ .
(   ) ص .
ر.إ : ٢٠٠٧ / ٤ / ٩٠٨

❖ تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



مطبعة الخط العربي
Arabic line printing press
Telefax : +962 6 5062347

جامعة فيلادلفيا
كلية الآداب والفنون

ثقافة الخوف

مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر
24-26 نيسان (أبريل) 2006

بحوث محكّمة
(1)

تحرير ومراجعة

صالح أبو أصبع عزالدين المناصرة
محمد عبيد الله

منشورات جامعة فيلادلفيا
2007

الفهرس

مـدخـل

الباب الأول :الإطار المفاهيمي والفكري

الباب الثاني : ثقافة الخوف في الإطار السياسي

الباب الثالث : ثقافة الخوف بين العرب والغرب

تقديم

أ.د.مروان كمال

يضم هذا المجلد أبرز البحوث والأوراق التي قدمت ضمن وقائع **مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر (المؤتمر العلمي لكلية الآداب والفنون)**. وقد انعقد المؤتمر في رحاب جامعة فيلادلفيا في الفترة من 24-26 نيسان (إبريل) 2006، وتميز المؤتمر كما أرادت له الجامعة باستقطاب عدد كبير من العلماء والباحثين من مختلف البلدان العربية، إضافة إلى المشاركة الدولية التي يسعى المؤتمر إلى التوسع التدريجي فيها عاما بعد عام.

يحمل هذا الكتاب عنوان (ثقافة الخوف) وهو العنوان الذي حملته الدورة الحادية عشرة من مؤتمر فيلادلفيا الدولي، بعد عشرة عناوين سابقة تقع جميعها في أفق حضاري وثقافي واحد، يعنى في عمومه بقضايا الأمة وبمشكلاتها وأزماتها، ليمثل المؤتمر محاولة نوعية في ربط البحث العلمي والجهد الأكاديمي بالمحيط العربي وهموم إنسانه، وينهض من خلال ذلك بتوفير البيئة المناسبة لعلماء الأمة وللمهتمين بشأنها أن يتحاوروا ويتناقشوا برويّة وحرية ومعرفة مختلف القضايا المزمنة التي تؤثر في الواقع العربي بل مستقبل الأمة بأسره.

ناقش المؤتمر في دوراته السابقة العناوين الهامة التالية: الذات والآخر، التفاعل الثقافي، تحليل الخطاب العربي، العولمة والهوية، الحداثة وما بعد الحداثة، الحرية والإبداع، العرب والغرب، الحوار مع الذات، استشراف المستقبل، ثقافة المقاومة، وصولا إلى: ثقافة الخوف وأخيرا: ثقافة الصورة، وهو عنوان المؤتمر الثاني عشر الذي تستعد الجامعة لانعقاده فيما تدفع هذا المجلد للنشر على أمل أن تصل رسالة المؤتمر ومعها جزء من رسالة الجامعة إلى المجتمع كله، بل للقارئ والباحث العربي في كل مكان يمكن أن يصل إليه الكتاب، وفي ذلك توسيع لدائرة الإفادة من المؤتمر وأوراقه ومناقشاته، بحيث لا تقتصر على المهتمين مباشرة بأمره بل تتعمم على نطاق واسع فيفيد منه الباحثون والقراء كلما بحثوا أمر الخوف وثقافته المفزعة المعطلة للإبداع والتميز.

وعندما نتأمل هذه الجهود المميزة التي تظهر في هذه البحوث ندرك أهمية معاينة ظاهرة الخوف ومختلف التجليات المتفرعة عنه، ونحسب أن هذه المحاولة العلمية هي صورة من صور مجابهة الخوف ومقاومة ثقافته التي تؤثر سلبا في التوجه إلى الإبداع وفي بناء المستقبل المنشود. وسيجد القارئ في هذه البحوث وقفات علمية رصينة تواجه الخوف وتتحدى ثقافته، فتعاين مفاهيمه وأطره الفكرية، وحضوره في الذاكرة التاريخية وفي الحاضر، وتومئ إلى إمكانية التخفيف من تأثيراتها وسلبياتها لصالح انطلاق القوى المتحررة المنطلقة نحو التغيير ونحو التنمية الشاملة التي تنعكس إيجابا على كل وجوه حياة الإنسان ووجوده.

وسيجد القارئ أن الكتاب قد رتّب في أبواب متتابعة من المدخل الشامل الذي ضم كلمات الافتتاح وكلمات ممثلي الضيوف، ثم سيجد سبعة أبواب تتوزع بينها مادة الكتاب بحسب محاورها وموضوعاتها: الإطار المفاهيمي والفكري، ثقافة الخوف في الإطار السياسي، ثقافة الخوف بين العرب والغرب، تجليات ثقافة الخوف في الإعلام، تجليات ثقافة الخوف في الآداب، تجليات ثقافة الخوف في الفنون، ثقافة الخوف في الإطار النفسي. وهو تناول شامل يغني الظاهرة من وجوه شتى، ويقدم أضواء ساطعة على هذا العنوان الهام كما خططت له الجامعة. ويقدم في ختام الأمر مرجعا أساسيا للمكتبة العربية بأسرها.. وهو إسهام نحس تجاهه بالرضى لأنه يمثل بعض ما أرادته جامعة فيلادلفيا ضمن توجهاتها الفكرية والثقافية وضمن رغبتها الدائمة في خدمة الثقافة العربية كلها.

مـدخـل

كلمة راعي المؤتمر	معالي العين ليلى شرف
كلمة رئيس الجامعة	أ. د. مروان كمال
كلمة رئيس اللجنة المنظمة	أ. د. صالح أبو أصبع
كلمة	أ. د. دومينيك شوفاليه
كلمة	أ. د. أحمد برقاوي
البيان الختامي	

كلمة معالي العين
السيدة ليلى شرف - راعي المؤتمر

معالي الأستاذ الدكتور مروان كمال رئيس الجامعة

سعادة الأستاذ الدكتور صالح أبو أصبع عميد كلية الآداب والفنون

الأستاذ الدكتور أحمد برقاوي ممثل المفكرين المشاركين

الضيوف الكرام

طلاب جامعة فيلادلفيا

مرة أخرى تستقبل جامعة فيلادلفيا نخبة من المفكرين العرب وغير العرب من المهتمين بثقافتنا، لدراسة موضوع فكري له صلة مباشرة بالواقع العربي وله أثره في مسيرة التنمية العربية ونوعيتها وتوجهاتها.

لقاؤكم اليوم هو الحادي عشر في سلسلة لقاءات تنظمها كلية الآداب والفنون منذ عام 1995، وقد طرحت هذه السلسلة العديد من المواضيع، في محاولة لتحليلها وفهمها علّنا نَصِلُ إلى الطريق الصحيح للتعامل معها والإفادة من إيجابياتها، أو معالجة سلبياتها.

اليوم يطرح مؤتمركم أمامكم "ثقافة الخوف" بعد أن كان قد مرّ في سنوات سابقة بعشرة مواضيع أخرى من بينها "ثقافة المقاومة"، "استشراف المستقبل"، "الحوار مع الذات"، "العرب والغرب"، "الحرية والإبداع" وغيرُها من المواضيع التي تُلحُّ على حاضرنا.

أيها الأخوة والأخوات،

إن الثقافات العريقة، الضاربة جذورُها في تاريخٍ طويلٍ من الازدهارِ حينا والتراجعِ حيناً آخر، تحمل الكثير من الأبعاد الحضارية المتألقة الإيجابية، التي ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية وتقدم البشرية، ولكنها تحمل أيضاً أعباء كثيرة ورواسب سلبية قد لا تظهر في عهود ازدهارها وتبقى ساكنة في الأعماق، ولكنها تطفو على السطح في فتراتِ تراجع الحضارات.

هكذا "ثقافة الخوف" هجعت يوم تألق حضورنا الحضاري وحملنا شعلة التقدم الإنساني واطلّت برأسها يوم تراجعنا وانكفأنا على الذات.

أزعم أن ثقافة الخوف متجذرة فينا، وأن الهياكل الأبوية السلطوية من بين عدد من العوامل الأخرى متأصلة في تراثنا التربوي والاجتماعي والسياسي، وقد عالج عدد من المفكرين العرب هذه الظاهرة الخطيرة. فنحن نخاف الأب والمعلم والحاكم والمجتمع، والغير، ونخشى التغيير ونتحفظ على أي تجديد وبالنتيجة نفقد حرية الفكر وحرية الرأي والتعبير، نقيّد القدرة على المبادرة والإبداع، نفقد الديمقراطية ونواجه محاولات التغيير والإصلاح بالرفض، وفي أحسن الحالات بالتوجس، ونفضّل الانكفاء إلى الرحم الحضاري القديم نحتمي فيه من خطر الجديد، مقتعين أنفسنا أن ما صلح بالأمس وتعودنا عليه هو ما يصلح لنا اليوم، وفي كل ذلك نفقد القدرة على التطور والتقدم والإقدام وبالتالي يتعثر انتقالنا من حال إلى حال.

فعسى أن تفتح مداولاتكم نوافذ جديدة على هذه الظاهرة المُقْعِدة، ولعلكم تستثيرون حواراً فكرياً واسعاً وحيوياً في مجتمعاتنا العربية يقودنا إلى معالجة جذور هذا التراجع المتسارع الذي نعيش. أتمنى لكم التوفيق وأرحب بكم في فيلادلفيا التي ستبقى دائماً مرتع المفكرين الأحرار ودعاةِ الحرية والتطور والمؤمنين بالتقدم نحو مستقبل عربي مشرق.

وفقكم الله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الأستاذ الدكتور مروان كمال

رئيس الجامعة

معالي السيدة ليلى شرف، رئيس مجلس الأمناء، وراعي المؤتمر

السادة الضيوف والحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نلتقي اليوم في مناسبة سنوية نعتزّ بها، ونحرص على استمرارها، وهي مناسبة افتتاح أعمال مؤتمر فيلادلفيا الدولي (المؤتمر العلمي الحادي عشر لكلّية الآداب والفنون). وهذا العام وصل المؤتمر إلى دورته الحادية عشرة، مما يعني أنه قطع شوطاً مناسباً من التطور والتراكم على المستوى التنظيمي والعلمي، وعلى مستوى السمعة العلمية الطيبة التي خلّفها، من خلال اتّساع المشاركة العربية والدولية في أعماله، حتى غدا واحداً من أبرز المؤتمرات المرموقة والمنتظمة التي تعقد على المستوى العربي كلّه.

أيها السادة، الإخوة الضيوف

نعتزّ بكم، ونقدّر لكم ما بذلتموه من جهد ومشقة من أجل أن تواصلوا معنا مسيرة هذا المؤتمر الذي ننظر إليه ضمن إيماننا بالدور العلمي والتنويري لجامعة فيلادلفيا على المستوى الوطني والعربي والدولي، في صورة حلقات متتابعة من التأثير والفاعلية. وما كان لهذا المؤتمر أن يواصل نجاحاته لولا مساهماتكم فيه وحرصكم على تعميق مسيرته وتطويرها. وقد غدا لهذا المؤتمر أسرة كبيرة ممتدة على مستوى العالم العربي، تتمثّل في مئات العلماء والمفكرين والباحثين ممن ساهموا في دورات سابقة، وهذا العام تتزايد هذه الأسرة بحضورِكم وبإسهامكم العلمي الرّصين. وإذا كان المؤتمر قد حقق قدراً مُرْضياً من النجاح على المستوى العربي، فإننا نطمح إلى توسيع المشاركة الدولية عاماً بعد آخر، خصوصاً أنه صار يحمل اسم (مؤتمر فيلادلفيا الدولي) منذ الدورة العاشرة، وهذا العام نعتز بمشاركة باحثين من عدد من الدول الإسلامية والأجنبية، ولكن طموحنا أن يتوسع هذا المؤتمر تدريجياً ليغدو أحد المنابر العالمية التي يتحاور من خلالها

المفكرون والباحثون من الشرق والغرب، من الشمال والجنوب، ليكـون أحـد جـسور الحوار الحضاري والثقافي في مواجهة أفكار الهيمنة والصدام الحضاري التـي ترتفـع نبرتها في أيامنا الراهنة.

أيها السادة

ينعقد مؤتمركم هذا العام تحت عنوان عريض هو: ثقافة الخوف، إنه عنوان إشكالي يخبّئ مسببات ونتائج وملابسات كثيرة، لكنّها في مجملها من العوامل التي تعيـق تقـدم المجتمعات ككل، ومما يسهم في تراجع دور المؤسسات العلمية: الخوف بامتداداته علـى المستوى الفردي والاجتماعي، وعلى ما فيه من تداخل السياسي بالثقـافي، والمـوروث بالمعاصر، يؤدي في النهاية إلى تدمير بيئة الإبداع العلمي، عبر تعطيل قـدرة الفـرد، وإعاقة المبادرة والجرأة والحرية مما نعدّه شـرطاً سـابقاً للتقـدم والتنميـة ومـشاريع الإصلاح. ولا شك أن مجتمعات كثيرة يمكن تسميتها بالمجتمعـات المـذعورة، ومـن ضمنها معظم مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وأوّل مفاتيح تنميتها وإخراجها من مآزقها تطوير البيئة العلمية والثقافية التي تسمح للبحث أن ينظر في أسباب تعاظم هذه الظاهرة، التي اتسعت وغدت ثقافة أو شبه ثقافة، مما يعني أيضاً أن مقاومتها والتخفيف منها ليس أمراً هيناً أو سهلاً، ولكنه على صعوبته شرط سابق لتمكين أمتّنا مـن الانطـلاق نحـو مستقبل أفضل للأجيال القادمة التي لا نريد لها أن تنشأ ضـمن هـذه البيئـة المعوّقـة والمعطِّلة للتقدم والتنمية والإبداع.

السادة الحضور

الضيوف الكرام

ستناقشون خلال أيام المؤتمر محاور متعددة مما يرتبط بعنوان المؤتمر، وآمـل أن تشخّص مساهماتكم العلمية طبيعة (ثقافة الخوف) وأن تقترح طريقاً لمستقبل حرّ آمن.

وفي الختام، أرحب بكم ضيوفاً على الجامعة وعلى الأردن، متمنياً لكم إقامة طيبة بـين أهلكم وإخوتكم، كما أشكر أيضاً الجهود المخلصة التي بذلتها اللجنة المنظمة على مـدار العام الجامعي، وصولاً إلى هذه اللحظة المباركة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة أ. د. صالح أبو أصبع
رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر
عميد كلية الآداب والفنون

معالي العين ليلى شرف رئيس مجلس الأمناء

معالي الأستاذ الدكتور مروان كمال رئيس الجامعة

الضيوف الكرام، الزملاء والزميلات، أبنائي الطلبة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ثقافة الخوف حلقة من حَلَقات البحث التي تطرحها كلية الآداب والفنون لدراسة الثقافة وتأثيرها وعلاقتها الجدلية في محاور حياتنا المعاصرة. وفي المؤتمر العاشر ناقشنا (ثقافة المقاومة) وها نحن نفسح المجال للباحثين لدراسة (ثقافة الخوف)، تاركين الحرية للباحثين لدراسة هذا الموضوع آملين أن يدرسوه – بلا خوف – كما اعتاد الباحثون في مؤتمراتنا السابقة أن يفعلوه في فيلادلفيا، جامعة الحوار الحر البناء والهادف والملتزم.

السادة الحضور

يأخذ هذا المؤتمر أهميته من طبيعة عنوانه، والناظر إلى أوضاعنا العربية لا يمكنه أن يغمض جفنيه عن حجم الخوف الذي يلامس حياتنا، ويحفر وجوده على مستوى الفرد ومستوى الجماعة وصولاً إلى التأثير في الأمة بأسرها، وهناك في وطننا العربي (وخصوصاً في فلسطين والعراق) أشكال من البطش والترويع والتجويع تخلق الخوف والذعر غير المسبوق على مستوى الشعوب.

ويبدو لي أن التركيز على ظاهرة الخوف قد بات اليوم جزءاً أساسياً في أدبيات الأمم المتحدة، في صورة توجه إنساني يحوّل مفهوم الأمن من مفهوم الأمن القومي إلى مفهوم الأمن الإنساني مع التركيز على التحرر من الخوف والتحرر من الحاجة وهذا يتسق مع المفهوم القرآني الذي جاء في سورة قريش:

بسم الله الرحمن الرحيم: ((فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف))

أيها الحفل الكريم

التزمت، اللجنة المنظمة في هذا المؤتمر بالتحكيم المسبق للبحوث ولذا فقد تم قبول 65 بحثاً وهي تمثل نحو55% من البحوث التي وصلت اللجنة المنظمة.

وسوف يستمر هذا التوجه في المؤتمرات القادمة للتحكيم المسبق للبحوث التي تصل المؤتمر، وسيتم نشر البحوث التي أجيزت للنشر فقط.

أيها الحفل الكريم

ينعقد هذا المؤتمر والجامعة تخطو خطوات راسخة نحو الالتزام بمعايير النوعية والتعليم المتميز وتشجيع البحث العلمي، وما كان لهذا التوجه أن يكون لولا الرؤية النافذة لمجلس أمناء جامعة فيلادلفيا ورئيس المجلس معالي العين ليلى شرف ورئيس جامعتنا معالي الأستاذ الدكتور مروان كمال، وهنا لا يفوتنا أن نوجه التحية لهم جميعاً لدعمهم غير المحدود لهذا المؤتمر، ولسعيهم الدائم نحو تعزيز مسيرة الجامعة والدعم الموصول للعملية التعليمية والبحثية.

أيها الحفل الكريم

اسمحو لي أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى ممثلي وسائل الإعلام الذين ما فتئوا يشاركوننا الدور والمسئولية في نقل وقائع المؤتمر، ويساهمون في جعل هذا المؤتمر متاحاً للجمهور.

واسمحو لي بأن أشكر تلك المؤسسات الوطنية التي ساهمت في دعم هذا المؤتمر إيماناً منها بأهميته وجدواه، وأخص بالذكر: جريدة الغد، بتلكو الأردن، المجموعة العربية الأوروبية، إلبا هاوس.

وفي الختام أشكر فريق المؤتمر في جامعة فيلادلفيا الذي عمل بروح جماعية من أجل إنجاح هذا العمل وقد لقي هذا الفريق الدعم كله من دوائر الجامعة المختلفة.

إزاء المخاوف المعاصرة

من القوميات العربية إلى النداءات الإسلامية الموحدة

من حوار الثقافات إلى الروحانية

أ.د. دومينيك شوفاليه

جامعة السوربون

"إنّ المخاوف التي يجلبها خطأ نزع سلاح بلدكم هي خطرة أيضاً فكلما تقدم عدوكم تجاهكم وجدكم أضعف" كما يقول ماكياڤل في "خطاب حول عشرية تيت ليف الأولى"، الكتاب الثاني، الفصل الثلاثون، مكتبة البلياد، صفحة 599.

هل الشرق العربي يغرق أم أنه يحيا من جديد؟

هل الصعوبات الاجتماعية والسياسية لا تفضي إلاّ إلى تهييج المنافسات العشائرية والمواجهات الطائفية؟

هل وفرة رؤوس الأموال المتداولة لا تغذّي إلاّ الفساد ولا تزيد الأغنياء إلاّ غنى؟

أين تضع الشعوب آمالها ومثلها العليا المنادية بالمساواة؟

إن شعورنا بأننا نعيش نهاية حقبة يولد لدينا غالباً الخوف الجماعي. إن الشغب الشعبي في الشرق الأوسط ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية وتغذيها قنوات متعددة منها النعرات الطائفية، كما أن النزاع المسلّح سواءً كان داخلياً أم دولياً يزيد التوتّر بين الأديان والهويات الثقافية المختلفة.

إن الاستخدام واسع النطاق للمعلومات والاتصالات الفورية ينشر اليوم في حياتنا الرعب ويحتقر الإجراءات الموجهة لإخافة الخصم أو سكان البلد. إن المسؤولين عن هذه الأضرار سواءً كانوا مجموعات مسلحة مشتتة، لكنها منظمة، أم مجموعات منظمة إنما يخضعون غالباً لدولة ما.

هل يخلق هذا الوضع المأساوي الزعزعة في روابطنا الأخوية الإنسانية؟

هل يؤدي إلى الإبداع السلمي ويساهم في الاعتراف بحقيقة اختلافنا؟

في ظل العولمة التي نعيشها وفي ظل إعادة الهيكلة الإقليمية التي نخضع لها فقد أصبحت هوياتنا الشخصية محط اتهام. إذاً فهي تدافع عن نفسها.

كيف؟ ولأي هدف؟

هل هي لرفض الآخر والسيطرة عليه؟ أم هي لتقبله ولبناء مستقبل معه يحترم فيه كل فرد؟

إزاء كل هذه الأسئلة فإن الأدلة تفرض نفسها: فالطوباوية ينتج عنها مسرحية الحياة الهزلية الحقيقية، وفي هذه الحالة فالحقيقة غالباً ما تكون جهنمية بالنسبة لغالبية البشر، ومع ذلك فهي لا تفضّل بالضرورة الواقعية الأخلاقية عند الذين يستفيدون من النعيم المادي. من جهة أخرى فالطوباوية لا تتعهّد بالجنة للجميع إلاّ وفق بعض الشروط.

لقد علمتنا الخبرة بأن الطوباويات تؤدّي غالباً إلى أنظمة حكم سياسي جماعي وإلى الاستبداد.

إن الولايات المتحدة تمتلك أقوى جيش في العالم لذا فإن الخطر الإديولوجي الرئيسي يأتي إذن من التبرئة الإنجيلية التي تثيرها الإدارة الأمريكية الحالية التي يضمّ لها المحافظون الجدد ادّعاءات صهيونية، أما بالنسبة للتيارات الإسلامية فهي تشعل خوف المسلمين من الآخر الغربي.

هل عدم رص الصفوف الذي أثنى عليه مؤتمر باندونغ عام 1955 كان سراباً؟

إن القومية العربية لم تجد لها أصداء في الدول العربية منذ خمسة وأربعين عاماً وكذلك الوطنية بأشكالها المختلفة.

إن التضامن يعبر عن نفسه في الوطن العربي بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وقد نشط خصوصاً عند المهاجرين والمهاجرين من المدن وعند النخبة المعارضة. إن الاختلافات القطرية واللاهوتية والفلسفية تؤثر على سلوك الجماعة المتعلق باستمرارية التقاليد الثقافية، ويؤثر أيضاً على بنى التجدد الاجتماعي والمدني المعاصر. هذه الاختلافات تخلق المعارضة والعقبات، وتقود بالتالي إلى المواجهات كما في العراق وغيرها.

هل ننسى هذا التضامن؟

إن الاختلاف في حضن الدين الواحد والتعايش السلمي بين الأديان لنفس الحضارة يفرض نفسه أيضاً على العلاقات بين الحضارات والأديان والفلسفات. إن الأوضاع السياسية والاجتماعية الداخلية لها دائماً آثارها على العلاقات الدولية.

إن تحليل كل أبعاد العقل وأشكال الحياة في المجتمعات يجب أن يحثّ البشر على احترام الدور الذي يقومون به وذلك بتهيئة كل وسائل التقارب الديني، فالرجل الذي يعمل بيديه ويخترع الإشارة والكلام، ويطوّر فكرته بكتابتها، يريد بذلك أن يفسّر خضوعه للطبيعة وعلاقته بالكون. إن التربية الروحية لم تتوقف يوماً عن التعبير عن هذه الرغبة الشعبية.

أصدقائي الأعزاء، أتمنى عليكم وعلى الشباب بخاصة أن يأخذوا على عاتقهم تبنّي الإبداع الإنساني مستفيدين من هذه الاختلافات الثقافية، وللوصول لهذا الهدف الرئيسي يجب أن تتحدوا الصعاب.

أما بالنسبة لي، فإنني الآن أستاذ عجوز، إنني شيخ، سأموت أنا وسينتهي العالم الذي عشت به.

(ترجمة: د. محمد الغزو)

الأيديولوجيا والخوف

أ.د. أحمد برقاوي

جامعة دمشق

الأيديولوجيا خطاب سلطوي بامتياز، إنها بحد ذاتها سلطة قاهرة ملزمة تخلق لدى معتقديها دافع المناهضة عنها أمام خصومها. الخطاب هنا – أي أيديولوجياً – قد أخذ ملامح واضحة لا لبس فيها رغم غموض الأفكار فيه. إنه منظومة من مفاهيم سياسية واجتماعية وأخلاقية وفلسفية أحياناً ودينية يؤمن بها فرد أو جماعة دون السؤال، دون أي امتحان للصدق والصحة، فيأخذ الخطاب الأيديولوجي هنا سمة المقدس، الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه.

ولما كانت الأيديولوجيا دائماً، أو في الغالب، واعدة، تحققها في المستقبل، فليس هناك أي امتحان حاضر لصدق أطاريحها. إنه هناك في زمان آتٍ لا أحد يعلم متى تحققه. إن لحظة الإيمان في الأيديولوجيا هي التي تمنحها سلطة مخيفة. فتصبح كل أيدويولوجيا هي أيديولوجيا خوف، إن شئت قل أيديولوجيا تخيف نوعين من البشر: النوع الذي يؤمن بالأيديولوجيا والنوع الذي يرفضها ولكن يخاف الإعلان عن هذا الرفض.

أما النوع الأول الذي رأى مرة في الأيديولوجيا حقيقة مطلقة، وبالتالي سلطة مطلقة يجد نفسه في خوف من التحرر الذاتي أمام هذه السلطة. ولأن الأيديولوجيا غالباً ما تتعين في مؤسسة ما فإن لهذه المؤسسة: سلطة مادية وأخلاقية تمنحها لها سلطة الأيديولوجيا. إن لديه جهاز أوصاف إخافة لا يحب أحد أن تطلق عليه مثل هذه الأوصاف: منحرف، مزيف، مرتد، خائن، انتهازي، عديم الوفاء، متذبذب، منذعر لماضيه، جبان.

والمتتبع لحالات الانزياح عن الأيديولوجيا التي قام بها نفر من المتمردين عليها، والناظر إلى الأوصاف التي ألصقت بهم يدرك حجم الخوف الذي يعتري كل من يحاول القيام بالانزياح عن الأيديولوجيا المُمأسسة في تنظيم أو حزب أو دولة. وحجم الخوف مرتبط بطبيعة الأيديولوجيا المُمأسسة.

ففي التنظيم السري ذي الأيديولوجيا المحكمة الإغلاق، يعيش الفرد هنا حالة إمّحاء مطلق لذاته من جهة، وحالة استصغار مطلق لمن هم خارج هذا التنظيم وهذه الأيديولوجيا. إنه ينطوي على صفات: المناضل، الشجاع، المؤمن إيماناً مطلقاً بالمبادئ إلخ... وفي الوقت الذي يستيقظ فيه من سباته ويروح متأملاً ما كان مطلقاً، ويقرر أن يقوم بانزياح ما فإن الخوف سرعان ما يتسرب إليه: الخوف خوفان: خوف على صورته التي ستنهار أمام رفاقه، وخوف على وجوده الذاتي.

فهذا الذي كان قبل شجاعاً ومقداماً ومؤمناً بالفكرة العظيمة: أصبح جباناً خائفاً محرفاً أو تحريفياً. إن صورته القديمة ستتمزق إن هو راح يفكر بالانعتاق، والخوف على صورته من رفاقه يصاحبها الخوف على حياته من رفاقه أيضاً. فحكم "الجبان" أو "الخائن" عند بعض المؤسسات الأيديولوجية هو القتل والاغتيال.

في الحزب وفي الأيديولوجيا المغلقة والشاملة، فإن صفة المرتد سرعان ما تلحق بأي مجددٍ في الفكر ينزاح عن المألوف من الأيديولوجيا، إن الحزب هنا حتى ولو كان مؤسسة علنية فإنه بالقدر الذي يزرع الإيمان بأعضائه، يزرع أيضاً بالقدر نفسه الخوف في نفوسهم.

فالأحزاب، الشيوعية أو القومية أو الإسلامية في الوطن العربي، كلها أحزاب مارست الديكتاتورية على المنتسبين، وبخاصة عندما تتعين الأيديولوجيا في شخوص تأخذ طابع الرموز التي تنطق بالحقيقة دائماً وتسلك سلوك الصواب دائماً، إن هذه الأيديولوجيا التي نفيت بفرد تحول الفرد أو يتحول الفرد فيها إلى سلطة مرعبة يهابها الجميع دون استثناء. وأما الذين يخفون نقدهم أو انزعاجهم أو رغبتهم في التخلص من هذا الرمز الأيديولوجي فإنهم يظلون في حال انتظار ضعف هذا الرمز لينقلبوا عليه. ذلك أن ضعفه يحررهم من الخوف. وقد يظل هذا الرمز عبر جلاديه الذين يختارهم بعناية حتى وقت مماته زارعاً الخوف في النفوس.

غير أن أخطر حالة تصل فيها الأيديولوجيا إلى مرحلة السلطة المخيفة هي حالة الأيديولوجيا وقد تحولت إلى أيديولوجيا دولة ترعاها سلطة تمتلك أدوات قمع مادية ومعنوية.

تقترب الأيديولوجيا في هذه الحال من الدين الذي على الجميع أن يعتقدوا به وإلا كانوا أعداء للوطن، فأيديولوجيا الدولة تسعى لأن تكون أيديولوجيا كل فرد في المجتمع، وتخلق طقوساً لنشر هذه الأيديولوجيا، وتمنع أي شكل من أشكال النقد لها.

إنها بهذه الطقوس وبهذا المنع من النشر وعبر توظيف الإعلام لنشرها، تخلق الرعب لدى أفراد المجتمع الذين يوارون رفضهم واحتفاظهم عبر نوعٍ من التقية يصل حد الكذب الصراح.

والترويجيون الرسميون يدركون على نحوٍ واضح أن خوف السكان يجعلهم يمالئون أيديولوجيتهم، ومع ذلك فهم يفضلون التملق والكذب على الصدق والرفض والنقد.

ويزداد الأمر سوءاً عندما يتحول الخطاب الأيديولوجي إلى خطابٍ منبتّ تماماً ولا علاقة له بالواقع الحقيقي بل على الضد يصبح الخطاب معزولاً عزلاً كاملاً، أقول عندما يتحول الخطاب إلى هذا كله ويكون مطلوباً من الفرد أن يصدقه وإلا وقعت الشُبه وما يترتب على هذه الشبه من مسؤولية وعقاب.

ولا تختلف الأيديولوجية الدينية من حيث سلطتها عن أيدويولوجيا الدولة بشكل عام، إلا في أمر واحد ألا وهو أن سلطة الأيديولوجيا الدينية تعيد نفسها إلى مصدر إلهي مقدس خارج أي شكل من أشكال النقد والرفض والمناقشة. إنها أيديولوجيا تفرض التسليم لما هو ذو مصدر إلهي.

ففي الوقت الذي يمكن لعضو في حزبٍ سياسي أن يوصف بالمرتد دون اتباع عقوبة مباشرة عليه، فإن الأيديولوجيا الدينية تحول الرفض إلى ذنب منصوص على عقاب صاحبه في الكتاب أو السنة أو التجربة. إن هذه العلاقة بين الايديولوجيا والخوف ليست علاقة ضرورية وعامة. إنما تغدو كذلك في شرط تاريخي محدد ومناخ اجتماعي سياسي خاص أهم سماته غياب الحرية والديمقراطية.

فالأيديولوجيا بحد ذاتها سلطة ولا شك، وكل سلطة تفرض بالإكراه، وكل إكراه يبعث على جزء من الخوف، لكن سلطة الأيديولوجيا في عالم يبني علاقة حرة بالسلطة أية سلطة يحرم سلطة الأيديولوجيا من أن تمارس العنف وتبعث على الخوف.

إن ما قدمته يشكل بالنسبة لي مدخلاً منهجياً لدراسة العلاقة بين الايديولوجيا والخوف، ومنهجاً لاستخدامه في الحالات المتعينة بهذه العلاقة.

فإذا ما انتقلت إلى الحال – أقصد حال العلاقة بين الأيديولوجيا والخوف – في الوطن العربي – فإننا واجدون كل الأشكال التي عرضت بمعزل عن الاختلافات الطفيفة بين أقطار العرب من أيديولوجيات الأحزاب، وأيديولوجيا الحركة الأصولية العنفية، مروراً بالأيديويولجيا الدينية بعامة، والأيديولوجيات القومية والشيوعية، وانتهاءً بالأيديولوجيا الرسمية، أيديولوجيا دولة السلطة. كما أننا واجدون كل أشكال القمع الممكن من الطرد إلى النبذ إلى السجن إلى القتل، وأقصد أشكال القمع المرتبطة بالأيديولوجيا. كما نجد الشروط الضرورية لتحول الأيديولوجيا إلى أداه رعب حقيقي. وأهمها شرط غياب الديمقراطية والحرية، فغياب الديمقراطية – كحالة سياسية – تحول كل أيديولوجيا إلى أيديولوجيا مخيفة وباعثة على الخوف. ذلك أنه في ظل هذا الغياب يغيب حق الإختلاف، والحرية في الاختلاف، مما يغيب مفهوم التسامح المتعين بدولة التسامح.

الأيديولوجيات السائدة عربياً من الأيديولوجيا الإسلامية إلى الأيديولوجيا القومية مروراً بالأيديولوجيا الشيوعية. وانتهاءً بأيديولوجيا السلطة تمنع السؤال. تريد للجميع أن يقيم بالأجوبة الجاهزة. لأن كل أيديولوجيا ترى الحقيقة المطلقة في ذاتها وفي أطاريحها، وفي ممارساتها. هل هي دعوة للتحرر من الأيديولوجيا كي نتحرر من الخوف؟ لا، فالمجتمع لا يعيش ولن يعيش ولم يعش بدون أيديولوجيا. كل ما نريده أن لا تكون الأيديولوجيا باعثة على الخوف – أن لا تحمل السياط في يد والأصفاد في يد. كل ما نريده أن تتحول الأيديولوجيات إلى أمرٍ بشري، خاضع لكل أشكال القبول والرفض والنقد والنقض والمدح والذم. وهذا لن يتم إلاّ بالانتقال الكلي للمجتمع من دولة السلطة إلى سلطة الدولة، حيث الاعتراف بالحق، الذي يصل حق الاعتراف بحق ارتكاب الخطأ.

عندها لن ينبري رجل سلطة متكرشاً من الرفاه وتبدو عليه مظاهر الفساد وفي نمط حياة لص مستتر، ليقول لمن يعارض أيديولوجيا السلطة – أقصد أيديولوجيا دولة السلطة–: إنك خائن وطنياً. أو ينبري إسلامي لا يرى العالم إلا من خلف حجاب ليقول لمعارضه: أنت كافر وزنديق وملحد وضد الإسلام. أو يتصدى قومي لمن يسأل عن معنى الوجود العربي الراهن ليقول له: قف ها أنت عميل للإمبريالية، وهكذا.

والحق أقول لكم: عندما يحرم شعب من شجاعة الوجود ويرتمي نائماً في مستنقع الخوف فإنه لن يتحرك إلا زاحفاً على بطنه مسافة تكفي ليعاود الشخير مرة أخرى.

النقيض من الوجود في الخوف هو الوجود في الحق. والوجود في الحق يتطلب شجاعة الدفاع عن الحق، عندها لا أيديولوجيا قادرة على السلب، سلب الإنسان حقه ولا أي شكل من أشكال القمع المادية والمعنوية.

البيان الختامي

في الفترة الواقعة بين الرابع والعشرين والسادس والعشرين من شهر إبريل 2006 عقدت كلية الآداب والفنون **مؤتمر فيلادلفيا الدولي (المؤتمر العلمي الحادي عشر)** تحت عنوان: "**ثقافة الخوف**" وشارك في أعمال المؤتمر واحد وثمانون باحثاً ومشاركاً، منهم خمسَ عشرة باحثة، وقد مثّل المشاركون تسع عشرة دولة عربية وإسلامية وأجنبية، وما يزيد على خمسين جامعة ومؤسسة عربية وإسلامية وأجنبية.

وكان لإسهام الباحثين على مستوى البحوث والمناقشات والمداخلات أثر إيجابي انعكس في أجواء المؤتمر، وعمّق المفهوم والرؤية. وقد ناقش المشاركون المحاور المختلفة من "ثقافة الخوف" ثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً، وهي على النحو الآتي:

1. ثقافة الخوف: الإطار النظري والفكري.
2. بيئة الخوف: النظام السياسي والاجتماعي والقيمي لثقافةِ الخوف
3. الظروف الموضوعية لإنتاج الخوف العربي من الغرب
4. الخوف المتبادل بين الشرق والغرب
5. تجليات الخوف في الأدب والفن والإعلام
6. نتائج ثقافة الخوف
7. مقاومة الخوف وآليات التخلص منه

وتناولت البحوث والمناقشات التحديات التي يواجهها العالمان العربي والإسلامي على صعيد العلاقة مع الذات، والعلاقة مع الآخر، وموقع ثقافة الخوف في هذه العلاقة المتشابكة.

وقد أقر المشاركون أهمية موضوع المؤتمر، لأنّ عالمنا العربي يشهد بؤرة توتّر خطيرة مباشرة أو مقنّعة، تنطوي على صور متعددة تغذي ثقافة الخوف. ونبّه المؤتمر إلى أهمية دراسة الأسباب التي مكّنت هذه الثقافة من التوسع، وضرورة تخليص الأمة من مخاطرها.

التوصيات

أولاً: يوصي المؤتمرون بضرورة التنبُّه إلى خطر كون الدولة أداة تخويف للمجتمع مما يَترتب عليه آثار سلبية على العلاقة السليمة بين المجتمع والدولة على النحو الموجود في الدول المتطورة.

ثانياً: يوصي المؤتمرون برفض عسكرة العولمة وهيمنة الثقافة الاستهلاكية التي تهمش خصوصيات الثقافة الوطنية، ويطالبون بضرورة امتلاك عوامل القوة التي تجعلنا قادرين على صياغة مستقبل أفضل في ظل تحديات العولمة والثورات التكنولوجية المتعاقبة.

ثالثاً: يقدر المؤتمرون تقديراً عالياً المقاومة الوطنية التي كسرت جدار الخوف خصوصاً في فلسطين ولبنان والعراق، كما يحيي المؤتمرون جهود المثقفين الذين يتصدون للدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، دون تدخل خارجي وحقهم في اختيار أنظمتهم السياسية والوطنية.

رابعاً: يحرص المؤتمرون على وحدة واستقلال وسيادة الدولة الوطنية وينبهّون إلى مخاطر محاولة تفكيك الدولة العربية إلى كيانات طائفية وقبلية وإثنية تحت مسميات عدة، منها مشروع الشرق الأوسط الكبير، في الوقت الذي تتوجه فيه المجموعة الأوروبية والأسيوية إلى وحدات جغرافية حيوية كبيرة.

خامساً: يوصي المؤتمرون بضرورة تعزيز شخصية الطفل العربي الإسلامي وبناء ثقته بنفسه وتحصينه قيمياً بما يضمن له بناء شخصية وطنية متماسكة متوازية في مواجهة الخوف وآثاره.

سادساً: يرى المؤتمرون أن العلاقة الحالية بين العرب والمسلمين من جهة والغرب من جهة أخرى باتت أكثر تأزماً بسبب الانحياز الكامل الذي يبديه الغرب في تبنيه لإسرائيل واعتماد الكيل بمكيالين، وخاصة في المسألة النووية والمسألة الديمقراطية والإرهاب الفكري.

سابعاً: يبدي المؤتمرون القلق والاستهجان لمظاهر القمع والإرهاب الفكري والتخويف للمؤسسات العلمية الأكاديمية على نحو ما ورد من رد الفعل تجاه باحثيّ جامعة هارفرد (والت وميرشايمر) وغيرها من المؤسسات الأكاديمية في أمريكا وأوروبا.

ثامناً: يوصي المؤتمرون بالحوار بين كافة الشعوب وباستمرار الحوار الإيجابي بين الشرق والغرب على أساس الاحترام المتبادل وضمان المصالح المشتركة.

تاسعاً: يُنبّه المؤتمرون إلى مخاطر تغيير البرامج والمناهج التعليمية استجابة لضغوط خارجية لا سيما العناصر الأساسية في ثقافة الأمّة: اللغة والدين والتاريخ والموروث. ويؤكدون على أهمية ترسيخ مفاهيم الحرية والديمقراطية والإبداع في المناهج التعليمية، ليتم بناؤها على أسس حرة تساعد على مواجهة ثقافة الخوف ومقاومة تأثيراتها.

عاشراً: يُنبّه المؤتمرون على خط التوجهات الحالية المتمثلة في استمرار إهمال اللغة العربية كلغة تعليم، مقابل الإصرار على التعليم بلغات أخرى (إنجليزية وفرنسية) في مختلف المراحل التعليمية وفي المؤسسات الرسمية والخاصة، ويرى المشاركون أن هذا التوجه يفقد الأمة هويتها ويخالف الدساتير العربية والمواثيق الدولية وبشكل خاص الصادرة عن الأمم المتحدة.

حادي عشر: يوصي المؤتمر بضرورة إزالة العوائق التي تقف أمام حرية الفكر والإبداع الثقافي والإعلامي وإعادة النظر في آليات الرقابة على وسائل الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي والتخلص من جميع اشكال الضغط والترويع التي تمارس على الإعلاميين.

ثاني عشر: يوصي المؤتمرون بتحرير الإعلام من الرسائل التي تبعث على الخوف والترهيب وإشاعة الرعب على مختلف الصعد وبالأخص البرامج الموجهة للأطفال.

ثالث عشر: يوصي المؤتمرون بعقد المؤتمر الثاني عشر لجامعة فيلادلفيا تحت عنوان **"ثقافة الصورة".**

رسالة شكر من المؤتمرين إلى مجلس أمناء جامعة فيلادلفيا

يتوجه المشاركون في المؤتمر بعظيم التقدير والشكر لجامعة فيلادلفيا على رعايتها لمؤتمر (ثقافة الخوف) الذي عقدته كلية الآداب والفنون في الفترة ما بين 24-2006/4/26، برعاية معالي العين السيدة ليلى شرف، رئيس مجلس أمناء الجامعة، كما يتوجهون بالشكر لمعالي الأستاذ الدكتور مروان كمال، رئيس الجامعة، والأستاذ الدكتور صالح أبو أصبع، عميد كلية الآداب والفنون، رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر، وأعضاء اللجنة الذين بذلوا جهداً استثنائياً لإنجاح المؤتمر.

وينوه المشاركون بدقة التنظيم، الذي تمثّل في تسهيل أمور إقامتهم وتقديم الخدمات المناسبة لهم، مثلما ينوهون بدور الحضور الفاعل لجلسات المؤتمر.

المشاركون في المؤتمر

الباب الأول

الإطار المفاهيمي والفكري:

- عزالدين المناصرة: (مدخل): تفكيك دولة الخوف والتخويف .
- الطاهر لبيب: مساهمة في تعريف ثقافة الخوف: من الخوف إلى التخويف .
- أحمد عبد الحليم عطية: (الخوف من الحرية) لأريك فروم: التحليل النفسي للشخصية التسلُّطية.
- محمد نعيم فرحات: استبطان الخوف كعادة.
- خالد عبد الرؤوف الجبر: ثقافة الخوف في الفكر العربي الإسلامي: بين السيادة الإلهية، والسُلطة الزمنية.
- موفق محادين: في البدء كان التابو، ثمّ جاء الخوف.
- غيدا ضاهر: ثالوث الخوف: الله والسلطان والأب.
- فؤاد إبراهيم: صناعة البيئة الثقافية للخوف.

مدخل: **تفكيك دولة الخوف والتخويف**

عزالدين المناصرة

– الخوف، اضطرابٌ جسدي ونفسي، يُصيبُ الإنسانَ لدى تعرّضــه لخطــر عــام، أو خاص، له طبيعة مخيفة، لسبب أو لآخر، حيث يتّخذ الإنسانُ موقف الدفاع، بأشــكاله المتنوعة: من الدفاع الغريزي إلى المقاومة، والخوفُ يُصيب، الأفراد، والجماعــات. كما أنّ الخوف أمرٌ طبيعي، ففي الأمثال الشعبية، يقولون: (**اللّي، ما بِخــافْ... مــا بخَوّف!**)، و: (**الحيط، الحيط، ويا ربّ الستر!**)، و(**حُطّ راسكْ بين الروسْ، وقولْ: يا قطّاع الروس!**)، و(**الكفّ لا تلاطم المخرز!**)،... الخ. هكذا، يستسلمُ الإنسان لقــدره، ويمنح عنقه للسيّاف، دون أدنى مقاومة، حتى لو كان الإنسان على حقّ، وكان الجلاّد على باطل، دائماً. أمام هذا الخطر، وهذه القوة المعلنة، أو الخفيّة، بدأ علماء الــنفس، وعلماء الاجتماع، وعلماء التاريخ، وعلماء الأدب، وعلماء اللغة، وعلماء الــسياسة، وعلماء الفلسفة... الخ، يبحثون ويكشفون (المسكوت عنه) في النصوص، وفي الحياة، ولا شيء يفوق التفكيك الجدلي التفاعلي، عند التصدّي، للنوَيات الخفيّة في الثقافــات المتنوعة، تلك التي بقيت قروناً، مبهمــة وغامــضة، أو معلنــة، دون التــصدّي لها بشجاعة. ولكن حتى الآن، ما نزال ننتقد الأنظمة العربيــة كلّهــا، دون أن نــضربَ الأمثلة، أو نسمّي الأشياء، بمُسمّياتها، حيث تُساعدنا اللغة على المراوغة، ويُــساعدنا ضيقُ الحال على التبرير، والمشكلة الأهم، هي أننا نتكيّفُ مع (الشرّ)، قبل وقوعــه، وفي مقابل (**الردع الاستباقي**)، الذي يمارسه العــدوّ، ضــدّنا، نمــارس (**التخويــف الاستباقي**) لشعوبنا، بما يؤدي إلى (**التكيّف المسبق**)، دون مُساءلة، أو مقاومة. هكذا استقبلنا العولمة، وكأنّها قدرٌ، أو أغلقنا الباب على أنفسنا، حتى لا نراها، وهي تهاجم الأسرّة في غرف النوم!!.

– نحن نخاف من **الضحك**، فنقول: (**اللهم، استُرنا مــن شــرّ هــذه الــضحكة!!**)، ونخاف من **الانتصار**: كان انتصارُ (**المقاومة اللبنانية**) **في تمّوز وآب، 2006** – كــان انتصاراً عظيماً بالفعل، حيث سحقتْ المقاومةُ اللبنانية، غطرسةَ الجيش الإسرائيلي (الذي لا يُقهر!)، وردّته عن أرضها، خائباً ذليلاً. عندئذٍ، اخترع البعض منّا، مقولة: (الحلــف

السنّي، والحلف الشيعي)، وهي مقولة اسرائيلية – أمريكيـــة، أصـــلاً.!، تخـــدم فلـــسفة: (الفوضى الخلاّقة)، أو: فلسفة (**العَماء الخلاّق**)، قياساً على بعض النجاحات، التي حققتها هذه المقولة في العراق!!. هكذا نخاف من **الحرية أيضاً**، تحت ذريعة **التخوف** من ولادة (**الدولة الدينية**)، وهو تخوُّف مقبول، لكنّه ليس تخوّفاً حقيقياً، كما هو في الحالة اللبنانية، لأنّ (**حزب الله**) يعرف أنه لا يستطيع تجاوز منطق الدولة التعددية أو مـــا يُعـــرف بِ: (الصيغة اللبنانية)، إنما هو يطالب بتوظيف الانتصار في شـــراكة حقيقيـــة ذات **طـــابع طبقي**. ونحن نخاف أيضاً من **الديمقراطية**، مثلاً: فوز **حركة حمـــاس الفلـــسطينية** في الانتخابات التشريعية، مثال صارخ على تواطؤ الخوف الداخلي مع الخوف الخـــارجي: لقد وُصفتْ هذه الانتخابات بأنّها نزيهة ونظيفة، ومع هذا أعلنـــتْ الولايـــات المتحـــدة، وإسرائيل، وحتى دول الاتحاد الأوروبي، خوفها من هذا الفوز الديمقراطي، وعملت على تعطيله، بتجويع الشعب الفلسطيني. أما، **حركة فتح الفلسطينية**، فقد أعلنتْ خوفها بعد أن أفاقت من صدمة الهزيمة على النحو التالي: الإعلان اللفظي في الفضائيات والـــصحف، بالإقرار بالفوز، ونظافة النتائج، مع موقف فعلي غير معلن، ضدّ نتـــائج الانتخابـــات!!. نقول هذا، بعيداً، عمّا نعتبره خطأ حركة حماس (كمقاومة) في دخول لعبة الانتخابـــات، ولعبة السلطة أصلاً، في ظلّ سلطة اتفاق أوسلو، التي لا ســـلطة لها، ولا ســـيادة لها في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي. وهكذا أصبح الشعار الشهير: (**الدم الفلسطيني، خطّ أحمـــر!**)، شعاراً لفظياً، لا معنى له. ولا فرق هنا بين حركة فتح، وحركـــة حمـــاس، في درجـــة المسؤولية.

– هناك (**مؤامرات حقيقية**)، وهنـــاك (**مـــؤامرات وهميـــة**). وهنـــاك: (**نظريـــة المؤامرة**)، وهناك (**نظرية: التعامي عن المؤامرة**): محاولة اغتيال خالد مشعل في عمّان من قبل الموساد الإسرائيلي... مؤامرة، واغتيال ياسر عرفـــات، مـــؤامرة اســـرائيلية، والانقلابات في افريقيا وأمريكا اللاتينية، مؤامرة، واغتيال سلفادور الليندي في التـــشيلي، مؤامرة أمريكية، وحصار كوبا، واحتلال العراق، وأفغانستان، مؤامرة. هناك إذن، مئات المؤامرات الحقيقية، فالمؤامرة، معتمة بطبيعتها، مراوغة خدّاعة في أساليبها، لئيمـــة في أهدافها، واللؤم نفسيٌّ، ومادي. أمّا (**نظرية المؤامرة**)، فهي تضخيم الـــوهم إلى درجـــة تصديقة، أحياناً، بسبب العجز، لتبرير العجز، وأحياناً، لتخفيض المسؤولية في مواجهـــة المؤامرة الحقيقية، حيث ننسب الأسباب، عادةً لخارج وهمي، أو لداخلٍ، تريد السلطة أن

تقمعه، تحت شعار: (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة)، ولا صوت يعلو فوق صوت السلطة، لأنها (**تعرف مصلحة شعبها، أكثر من مواطنيها**)!!، لهذا، تستنهضه، لكي يقف معها، دون أية مُساءلة، ضدّ العدو الخارجي والداخلي، حيث لا يجوز للمواطن أن (**يعرف أكثر من الحكومة!**)، حسب تعبير (**عادل إمام**) في إحدى مسرحياته الشعبية. هكذا يولد المواطن الخائف، وبالتالي، المثقف الخائف، قال **إدوارد سعيد**: (**المثقف الحقيقي، هو من يقول الحقيقة للسلطة**)، حتى لو كانت هذه الحقيقة جارحة، وناشفة، وكاشفة، فقول الحقيقة، ليس أمراً خارج اللياقة واللباقة: رفض شاعرٌ فلسطيني، الجلوس مع شاعرة اسرائيلية في منصّة واحدة في مهرجان الشعر العالمي، هولندا، 2003، لأسباب معروفة، فعلّقت شاعرة شابة (عربية): (**دا، شاعر قليل الذوق... لقد كَسَفَ الستّ**)!!، ولم تقل هذه الشاعرة الشابة، أن الشاعرة الإسرائيلية تكذب، عندما كتبت في سيرتها الذاتية، الموزّعة، أنها من مواليد اسرئيل،... (عام 1941!!) مثلاً. كلُّ فعلٍ، له ردّ فعل، كما يقال: فالاحتلال، تقابله المقاومة، والخوف يقابله مقاومة الخوف، وليس جلد الذات، بل تحريرها من عبوديتها للخوف: عندما نفى الامبراطور الروماني، الشاعر الروماني – **أوفيد**، قاوم أوفيد منفاه، بسطر واحد، دخل تاريخ البشر: (**أنا شاعر... وهو مجرّد إمبراطور!!**). المهمّ أن نعرف طرق المقاومة، وهي كثيرة، والأهم أن نعرف، كيف نقاوم. صحيحٌ أنّ الغرب، لم يستطع تدمير قناعتنا الراسخة، بقدسية (الاستشهاد، والمقاومة)، ولكنه نجح إلى حدّ ما في شقّ صفوف المثقفين العرب، فبرز تيارٌ (متشكك)، يغطّي هزيمته الداخلية، بتوجيه السهام إلى الدولة الوطنية، التي منعت مواطنيها من الحرية والديمقراطية الحقيقية، لكنّ الصمت المريب لهذا التيار، تجاه – التخويف – القادم من الخارج، يجعله يحصر الخوف في أحادية الخوف الداخلي فقط. هذا التيار على حق في كشف الخوف والتخويف في الدولة الوطنية، ولكن صمته المريب إزاء عدوان الخارج، يُقلل من صدقيته. أما تيار تضخيم نظرية المؤامرة، فهو بالمقابل، يحصر التخويف، بالخوف القادم من الخارج، وبهذا يلتقي التياران في نقطة واحدة: (قول نصف الحقيقة). إنّ تلخيص الحلّ في ما يُسمّى (**مؤسسات المجتمع المدني**)، هو تفكير مثالي ثنائي: (مؤسسات المجتمع المدني في مواجهة فساد السلطة، وتخويف الخارج)، فهو يتجاهل اختراق الدولة الوطنية، عبر أجهزة مخابراتها، لمؤسسات المجتمع المدني، ويتجاهل فساد مؤسسات المجتمع المدني، عبر **التمويل الأجنبي**، ومعنى ذلك، عندئذٍ، أننا

سوف نصدّق كذبة الولايات المتحدة، حول ضرورة (تصدير الديمقراطية)، إلى الشرق (المستبدّ)، بوساطة الأموال الفاسدة!!: فالأموال الأمريكية الفاسدة، ساهمت مثلاً في زيادة عدد الصحف والفضائيات في العراق المحتل، لكنَّ هذا (السخاء المالي!)، ليس لمقاومة الاحتلال، بل هو يخدم فكرة ترسيخ الاحتلال، ليس إلاّ.

– **الإسلام**، كعقيدة، هو دين التسامح والتعددية، ومرجعيتنا فيه، هو القرآن، والحديث الشريف فقط، أما المذاهب، فهي اختيارية ذات طابع تاريخي، نظَّر لها بشر مثلنا، حيث نأخذ منها ما يفيدنا في الدنيا... والآخرة. وهكذا تكمن مشكلة المسلمين في غياب (**مرجعية توحيدية للتفسير والاجتهاد**)، فترى كثرة الفتاوى، التي يصدرها بوعي، أو بدون وعي... كلّ من يلبس عمامة، حيث يتخذ بعضهم من نفسه (ظلاًّ لله على الأرض). حتى (**معلّم المدرسة**) أصبح يقوم بعملية الإفتاء لتلاميذ المدارس: استمعتُ لطفلين عائدين من المدرسة، يتحاوران، قال أحدهما: إذا خالفتَ والديك أو المعلمة، فسوف يعذبك الله، بسلخ جلدك بالنار، طبقةً، طبقة، (شاورما)، وقال الآخر مذعوراً: أنا أُطيع أبي وأمّي، لكنّني لا أحبّ المعلمة، فهي لم تتحدث لنا عن الجنّة، وهي تحكي لنا عن النار، لكي يتوقف شغبُ الصف. في صباح اليوم التالي، شكت الجارة للجارة: ابني لم ينم هذه الليلة، ودرجة حرارته ارتفعت، وبدأ يهلوس. قالت الأخرى: وابني أيضاً لم ينم!! قلتُ لهما: أنا أعرف السبب.

– مادّة (**الثقافة الجنسية**) في المدارس العربية والإسلامية، ممنوعة من التدريس، عندئذٍ يجيء الطالب إلى الجامعة، ليقهقه من الضحك، أو يبتسم ابتسامة خفيفة، حين يقرأ (إيحاءات، وإيماءات جنسية غير مكشوفة) في نصّ أدبي، وهو عادةً ما يتصرّف باستعراضية، أو بتهذيب مصطنع، إذا كانت نسبة البنات في القاعة معقولة، ويكون عدائياً في صفّ، لا بنات فيه. أما في مواد العلوم الإنسانية، فيلتزم الصمت، عند طرح مناقشة الديمقراطية والدكتاتورية: سأل أستاذ زميلٌ، يعلّم – مادة (مدخل إلى علم الاتصال) – تلميذاً أن يقدّم وجهة نظره في مسألة الفوارق بين الدكتاتورية، والديمقراطية، فأجاب الطالب: (**أبي، قال لي ألا أتحدث في السياسة!!**).

– هكذا، ينزرع الخوف منذ الطفولة في البيئات التي تصنع الخوف: الخوف من الظلام، الخوف من المدرسة، الخوف من المجتمع، الخوف من الخوف، وهو أمر طبيعي في البداية، ولكن عندما تزدهر صناعة الخوف والتخويف من الداخل (سلطة الدولة)،

ومن الخارج (العدو)، وفي قلب (الدولة نفسها)، حينئذ، يصبح **(مجتمع الخـوف)**، غير قادر على الدفاع عن نفسه، وتصبح **(دولة الخوف)**، مخيفة، وخائفة معاً. لهذا لابدّ من تفكيك صناعة الخوف والتخويف، لمعرفة الأسباب، ومعالجتها بالمقاومة، وبوسائل أخرى ناجعة: المقاومة بالمعرفة، والمقاومة بالتضحية: لقد ردّ (شاعرٌ عربي) على المثل الشعبي: **(الباب اللّي، بْتيجي مِنّو الريحْ، سِدّوا واستريحْ)**، بالقصيدة التالية:

البابُ إذا هبَّتْ منهُ الريحْ
إخلعهُ، لتكتشفَ هروبَ الحرّاسْ
ناطحْ عاصفةَ الأضواء، وكركعةَ الأجراسْ.
فإذا أحنَيْتَ العُنُقَ المجروحْ
قالوا: أغواه اليأسْ
ولهذا، ناطحْ يا هذا،
ستقولُ الناسْ:
مطعوناً ماتَ، ولكنْ مرفوع الراسْ.

* * *

- في هذا الفصل الممتع من الكتاب، نقرأ نهراً من الأفكار، تصبغها صبغة **(التعدديّة، والاختلاف)**، وهي ميزة نوعية من ميزات مؤتمر جامعة فيلادلفيا في كل دوراته السابقة، حيث تتحاور هذه الأفكار، بشجاعة، وبأسلوب علمي، قد يعلو، وينفذ إلى الأعماق أحياناً، وقد يقترب من السطح في بساطته، وتحليله للوقائع في أبحاث الأساتذة: **(1. الطاهر لبيب، فؤاد إبراهيم، أحمد عبد الحليم عطية، محمد نعيم فرحات، غيدا ضاهر، وموفق محادين. 2. خالد عبد الرؤوف الجبر)**. ويحكم هذه الأفكار، الالتقاء حول العديد من الأفكار، حيث يتفق الباحثون حول شرعية الخوف، وتحليل مظاهره، وهم أيضاً من جهة أخرى، يختلفون، فالاختلاف يعصف بالأفكار، والتعددية توحّدها، لأن الهدف عند الجميع، هو تفكيك بنيات الخوف، وآليات مواجهتها.
- يرى **الأستاذ الطاهر لبيب (تونس)**، أن الخوف ملازم للإنسان، ولو لم يخف الإنسان لانقرض، وهو بالتالي يعترف بطبيعة الخوف، وهو يقرّر أن الجديد في ثقافة الخوف هو: الانتقال من الخوف إلى التخويف، ثمّ يناقش مسألة (التخويف) الذي تمارسه

السلطة، التي زرعت الرعب، أو تلك التي لا تزال تزرعه. وهو يصف (المرحلة الراهنة من ثقافة الخوف)، بتحديد أربع خصائص تلازمها: **1.** تبادل الخوف، أو توازن الرعب، لم يعد بين الدول، وإنما بينها منفردة أو مجتمعة، وبين حركات غير حكومية متنوعة، بعضها يُعتبر (إرهابيا). **2.** تقوم السلطة الحاكمة، بتحويل الخوف إلى أخطار خارجية، بحيث تقوم الدولة بالتخويف، حماية لمواطنيها. **3.** اندراج التخويف في نظام عالمي. **4.** وصول الإرهاب إلى مرحلة تهديد للقوى الكبرى، التي كانت تحتكر التهديد للآخرين. وهكذا تعولم الخوف، كما يقول الباحث. وهو يرى أن التخويف، يحمل طابعاً استراتيجياً، بتحويل مصادر الخوف، وله مستويات متنوعة: **1.** تبرئة الدولة من أفعال التخويف. **2.** تحويل الخوف، بالانتقال من الحيّز الخاصّ إلى الحيّز العام. **3.**تحويل الخوف الاجتماعي إلى خوف أمني. **4.** عولمة الخوف. ويشرح الأستاذ الطاهر لبيب، ملامح التخويف الساعية إلى التعولم:

1. عولمة ثقافة الخوف، تعني نمذجة أنماط من المخاوف الحقيقية، أو: الوهمية: الخوف الديمغرافي، الأمني، الاقتصادي، والخوف الحضاري.

2. تنوع أنواع المخاوف، لم يمنع العالم من توحيد مخاوفه.

ويقرّر الباحث أنّ ثقافة الخوف، ذات أبعاد ومستويات ومجالات، تتجاوز ما هو ثقافي، وهو ما يتطلب -كما يقول- البحث عن مقاربة، **تتحاشى تفسير الثقافي بالثقافي**.

ثمّ يناقش (حادثة – 11 سبتمبر، نيويورك)، حيث لم يعُدْ هناك مجال للنسبية في مقابلة الخير والشرّ، وهم ونحن، وموتهم، وموتنا، فقد لعب النظام الأمريكي – الصهيوني، مثلاً، على إبراز (**عبثية موت الفلسطيني**). ثمّ يناقش الباحث ثقافة الخوف لدى الحركات الإرهابية، فالإرهابي يقتل من أهله، أكثر مما يقتل من (الكفّار!). وفي المقابل يصدّر (إرهاب الدولة)، خوفه وتدميرهُ: (باسم: حماية أمريكا، ثمّ تخريب العراق). ويشير الباحث إلى عدد من المفارقات، مثل: (**شعبية الإرهاب**)، رغم أنّ الفئات المساندة للإرهاب، هي ضحية الإرهاب. وينهي الأستاذ الطاهر لبيب بحثه، بأن (**المجتمع المدني، الفاعل حقاً، هو القادر على تفكيك ثقافة الخوف**)، مسنوداً بالتعددية.

– أما – **الأستاذ أحمد عبد الحليم عطية (مصر)**، فيناقش كتاب أريك فروم: (**الخوف من الحرية**)، من الزاوية السايكولوجية، حيث أنّ هدف الكتاب، هو: تحليل العوامل الدينامية في طابع نسيج الإنسان الحديث، التي جعلته يرغب في الكفّ عن الحرية في

الدول الفاشية، كما في ألمانيا الثلاثينات من القرن العشرين، بالاعتماد على (**الزعيم الأوحد**)، حيث يرى فروم أنّ التهديد الذي يواجه الديمقراطية، ليس موجوداً في الدول التسلطية الشمولية الخارجية، فحسب، بل هو موجود في داخل المجتمع ومؤسساته التي **تعتمد على الزعيم الأوحد، الذي يحميها!!**. ويرى الباحث أن (فروم)، يتجاوز في تحليله، ثلاث مقاربات سابقة له، هي: المعالجة السايكولوجية عند فرويد، والتفسير الاقتصادي عند ماركس، والتناول المثالي الديني. يرى فروم أن تحليل الجانب الانساني للحرية، ولقوى النزعة التسلطية الشمولية، يقتضي النظر في مشكلة الدور الذي تلعبه القوى السايكولوجية، في السيرورة الاجتماعية. فالحرية تميز الوجود الانساني كوجود إنساني، ويتغير معناها حسب درجة الوعي، وتصور الإنسان لنفسه، ككائن مستقل. وقد حلّل (فروم)، حالات: **الهتلرية، اللوثرية، الكالفنية**، في إطار مفهوم الهرب من الحرية. وعدّد فروم، أساليب الخوف من الحرية: النزعة التسلطية، النزعة التدميرية، امتثال الإنسان الآلي: لقد وُصفتْ المعارضة للنظام الهتلري، بأنها معارضة لألمانيا!!. ثم يطرح فروم، معنى الحرية عند الإنسان الحديث: عجز، وقلق وعزلة وخوف، وشكوك، بل نسيان نفسه كذاتية مستقلّة. والحلّ عند فروم، هو في: الديمقراطية.

- أمّا – **الأستاذ فؤاد إبراهيم (مصر)**، فيدرس (صناعة البيئة الثقافية للخوف) في المجتمعات الغربية، والعربية، منطلقاً من تعريف تايلور للثقافة، وبالتالي، فهو ينطلق من منظور سوسيولوجي، حيث يرى أن ثقافة الخوف: **ذات طابع جماعي**، وأنها ثقافة طغيانية، تستهدف التغلغل والتأثير، وهي واحدية التوجيه، مستشهداً بعدد من الأفكار العربية والغربية عن الخوف: طه حسين، الكواكبي، عبد الرزاق عيد، ياسين الحافظ، سعد الله ونّوس، معين بسيسو، الطاهر جعوط، أريك فروم، جورج أورويل، باري جلاسنر، نزار قباني، سوزان جيفرز، كلود ليفي شتراوس، غوستاف لوبون، هشام شرابي، وكنعان مكية، سعد الدين إبراهيم، حيث شرح الباحث العامل الاجتماعي ودور التنشئة الاجتماعية في نشوء الخوف، وتطوره: (**الخوف يستنسخ خوفاً**)، مشيراً إلى تأثير بعض المقولات الدينية، والثقافة الشعبية في ازدهار وصناعة ثقافة الخوف، والتهيئة لنشوئها: ففي عرضه لنظرية الوعي، والوعي الزائف، مثلاً، يلفت جيمس سكوت إلى لجوء الطبقة الحاكمة إلى إقناع الجماعة المقموعة، للاعتقاد

بصورة فاعلة، بالقيم التي تفسّر، وتبرّر الخضوع، وفي المقابل تلجأ الجماعات المقهورة إلى المقاومة. كما يشير الباحث إلى: **العامل الديني: (لاهوت الخوف)**، بسبب ارتباط الثقافة الدينية بالبعد الغيبي، وتسخير وتطويع النص الديني، لبسط السيطرة، وزرع الهيبة في نفوس المحكومين. كما يقدّم الباحث أمثلة على (الإرهاب الديني) من قبل الجماعات الأصولية المتطرفة: (حادثة سيّد القمني)، و(حادثة نصر حامد أبو زيد) في مصر، ويرى أن اتساع فضاء المقدّس، هو ما يثري المتخيّل الجمعي، ويفرض حظراً فكرياً، يحول دون الانشغال الذهني بمكونات الفضاء، حيث يكون الخوف، حارساً على دائرة المقدس، فتصبح النصوص والتفسيرات والرموز الاجتماعية، المرتبطة بالنصوص، مركبات مقدسة، يستحيل التفكير في مناقشتها!!. كما يتحدث الباحث عن **العامل السياسي** في صناعة بيئة الخوف: تستبطن ثقافة الخوف، صناعة الهيمنة، فالولايات المتحدة، تسنُّ التشريعات ضد الارهاب، لزرع مشاعر الخوف، من أجل تضييق الحريات العامة، فتتحول الدولة إلى جهاز نشط في إشاعة ثقافة الخوف، عبر تضخيم (**الخطر الشيوعي**)، كما فعلت خلال الحرب الباردة، و(**خطر الإرهاب الأصولي**)، حالياً. وهكذا أصبح (الإسلام) هو العدو الجديد، بدلاً من الشيوعية. ويستشهد الباحث، بتعليقاتٍ لياسين الحافظ، حول الفرق بين الشرق والغرب: (**هناك الفرد، ديك، وهنا الفرد، دودة. هناك: الشك والتساؤل والنقد، وهنا اليقين والتلقين والامتثال**). كما يقدم الباحث أمثلة على النفاق للسلطة في التراث العربي، وأمثلة على صمت الإنسان العربي المعاصر تجاه انتهاك حقوقه. ويختتم الأستاذ فؤاد إبراهيم، بحثه، بمجموعة من التوصيات. وكنت أرغب، وهو يستشهد كثيراً، بجورج أورويل، ويستشهد بسعد الدين إبراهيم، وكنعان مكيّة، أن يرى الوجه الآخر من الحقيقة، بمراجعة كتاب فرانسيس سوندرز: (الحرب الباردة الثقافية)، حتى لا يبدو جورج أورويل، (قدّيساً!!)، وهي ملاحظتي الوحيدة على هذا البحث الجيّد.

- **أمّا الأستاذ خالد عبد الرؤوف الجبر، (جامعة البترا، الأردن)**، فيُعالج مسألةَ: ثقافة الخوف في الفكر الإسلامي: بين السيادة الإلهية، والسلطة الزمنية، حيث يقرر الباحث أنّ الخوفَ، طبيعةٌ ملازمةٌ للإنسان، ولكنّه ينكر أن يكون للخوف، علاقةٌ بالوراثة الجينيّة، بل له علاقة بالوراثة الاجتماعية والثقافية والعَقَدية، حيث يصبح الخوف، حسب الباحث على علاقة وطيدة بقضايا ثلاث:

1. تصور الفرد للعالم وأشيائه وموجوداته وعلاقاته.

2. العقلية التي يكتسبها الفرد من خلال الثقافة والعقيدة.

3. ثراء التجربة الفردية أو فقرها، واتساعها أو ضيقها، ضمن المحددات الاجتماعية والمحظورات الثقافية.

يُؤمن الفكر المسيحي، كما يقول الباحث، أنّ الآخرة تقوم لا محالة، لكنّ (القيامة)، ليست مصدراً من مصادر الخوف، لأن أتباع المسيح لا يحاسبون في الآخرة، فالمسيح طهّرهم من آثامهم في الدنيا، وخلّصهم حين افتداهم بالصلب، بينما يرى الفكر الإسلامي أنّ (القيامة)، قائمة لا محالة، وأن نزول المسيح، أمر صحيح، ولكن الإنسان في الفكر الإسلامي، يُحاسب في الآخرة على أفعاله في الدنيا، لهذا أصبحت (الآخرة)، مصدر خوف في الفكر الإسلامي. ثمّ يناقش الأستاذ خالد عبد الرؤوف الجبر، معنى الخوف ومشتقاته ودلالاته: الخشية، الرهبة، الفَزَع، الرعب، الذعر، الجَزَع، الذهول، الهَلَع، وهو يرى أن الناظر في نتائج تعرُّض الإنسان للخوف، يجدها محصورة على الأكثر في الأنماط الثلاثة الأولى، لهذا يناقش الباحث: مسألة (**الخوف من المجهول**)، ومسألة (**الخوف من الغيب**): **فالمجهول**، هو ما لا يملك الإنسان معرفة عنه، وإنْ تكن معرفةً وصفيةً إخبارية، غير خاضعة للتجربة. أما، **الغيب**، فقد يكون بتغييب إحدى خصائصه أو صفاته أو مزاياه أو مكوناته أو شكله، دون سائر ما هو عليه، فهو إذنْ، مما يملك الإنسان عنه معرفة ما، لكنها غير شاملة أو مكتملة. كذلك، يناقش الباحث مسألة: (التخويف): الحرب النفسية، شكلٌ من أشكال التخويف. فالخوف، نتيجة للتخويف، وهو بهذا، نتيجةٌ لا مُسبّبٌ، ويضيف الباحث أن الحرية، شرطٌ أساسيٌّ للإبداع الإنساني، فهي نقيض الخوف. وفي ثقافة الإسلام: قال عمر بن الخطّاب: (**متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا**). وقال علي بن أبي طالب: (**لا تكن عبدَ غيرك، وقد خلقك الله حُرّا**). فالحرية شرط للإبداع، **والخوف، مذبحة الإبداع**. ويناقش الباحث، مسألة: الجبرية والقدريّة، ويشير إلى بعض المفاهيم الخاطئة، حول فهم بعض المسلمين لها، كذلك مفاهيم علاقة البشر بالسلطة.

- أمّا، **الأستاذ محمد نعيم فرحات (فلسطين)** في بحثه (استبطان الخوف كعادة)، فيرى أن واقع الخوف في المجتمعات، أوسع بكثير من أي تعريف نظري. فالخوف عنصر محوري وأصيل في صيرورة الإنسان في حركة الحياة وتكويناتها، فهو موجود

منذ آدم وحوّاء (**واقعة الشجرة**)، ومنذ قابيل وهابيل (**واقعة القتل**)، حيث يخاف القاتل من نفسه، مما يجعل الخوف كبنية، يحمل نقيضه. لهذا يرتبط الخوف بالبنية التي أنتجته، وهو يؤدي وظائف إيجابية مُحفّزة، إضافة لوظيفته السلبية. ويرى الباحث أيضاً أنّ هناك اختلافاً بين الخوف، والتخوُّف، وأنّه من المهم استحضار العنصر الأكثر أهميّة في تعريف الخوف، وهو **عنصر الشجاعة**، باعتباره نقيضاً. ثمّ يشير الباحث إلى النسقين: الطبيعي، والتاريخي، للخوف، فقراءة الديانات السماوية، ترتبط بالناس والأرض، حيث تسيطر أطروحة (**الوعد والوعيد**). لقد جرى بقصد – يقول الباحث – تحويل الخوف من السماء إلى إديولوجيا وثقافة. فالوجود كبنية في بعده الماورائي، حسب الباحث، يتضمن عناصر: الطمأنينة والرعب، والخوف، والمنح والأخذ. ففي ثقافة الخوف، هناك بنيتان: **بنية السماء – وبنية الوجود**، أما الثقافة، فهي قوة اقتراح من جهة، وهي العنف الرمزي. وهذا ما يجعل الخوف، منتوجاً ثقافياً، يتحول إلى عادة بالمعنى النسبي. وهكذا – حسب الباحث – يتحالف الخوف الكامن في صلب منطق الدولة وخطاباتها وممارساتها، مع الإذعان الغريزي، والمكتسب، الكامن في نفوس الناس، و(**لا يمكن تصوّر الحرية، إلاّ خارج الدولة**)، كما يرى عبد الله العروي. ويضيف الباحث: بما أنّ الدولة مشغولة بتأكيد شرعيتها واستمرارها، فإنها تتمادى في استخدام مؤسساتها، وجهازها الإديووجي من أجل تكريس الخوف.

– أمّا **الأستاذ موفق محادين (الأردن)**، فيؤكّد أنّ **التابو يولد أولاً، ثمّ يليه الخوف**. وهو يرى أنّ الوعي البدائي بوحدة الوجود (وحدة الإنسان والطبيعة، الأرض والسماء، اللغة والعالم، اللفظ والمعنى) – قلّص القلق والخوف الإنساني، وأنّ التابو، هو الممنوع، والمقدّس، الذي لا يجوز الاقتراب منه، خوفاً من التدنيس، أو ما أسماه فرويد (الخوف المقدّس). والتابو عند العرب، هو: الحرام والمحرّم، ومن يخترقه، يلحق به الأذى. ويرى الباحث أنّ المرحلة التي أسّست لثقافة الخوف الاجتماعي، هي مرحلة الانتقال من التعدديات الأمومية، القبائل، المعتقدات إلى مرحلة المركزة البطريركية: **مركزة السلطة والثروة والمعتقدات**. كما أن انفصال السماء عن الأرض، لم يكن بداية استقلال الإنسان، بل كان عقاباً له في التاريخ، لأنه أصبح عارفاً، وبالتالي، خائفاً. وهكذا بدلَ أن ترتقي الرأسمالية بفردية البشر، سحقت الرأسمالية هذه الفردية، وحولّتها إلى كائنات بيولوجية، وفق الذرائعية الأمريكية، وظلّت الصورة للشرق في الفكر الغربي، هي الصورة التي

رسمها شاتوبريان: (حمّامات شهية، عطر فادح، لذائذ آسيوية، عبيد، خلاسيات، ورجال متكالبون على النساء والخدور). هذه الكائنات البيولوجية، حسب الباحث، استسلمت للوكيل السماوي، وسلّمته مقادير أمورها: (**أنت نحن، ونحن أنت أيها المبجّل**)، فهي حكاية العبد والسيّد. فالشعوب المهزومة – حسب لوكانتش – تُحيل أملها ورجاءها إلى بطل وهمي. وهنا ولدت فكرة (**الزعيم الأوحد المخلّص**). والنتيجة هي تأسيس الخطاب المشبع بالهزائم الكسولة. فنحن العرب، حسب الجابري: (مجموعة من استعارات وكنايات سياسية – اجتماعية من زجاج، فيما الثابت في دولنا، هو امتداد لثلاثية: القبيلة، العقيدة، والغنيمة)، لأنّ **فكرة العقد الاجتماعي، غائبة**، حيث بدلاً منها، هناك، توافقات عشائرية، مناطقية، وطائفية، تعمل حسب إيقاع تقسيم العمل والنفوذ الاستعماري. لهذا يرى الباحث أنّ الحل، لا يكون إلاّ وفق اقتراح غرامشي، بتعزيز **فكرة المثقف العضوي**، والمقاومة المدنية، والكتلة التاريخية.

– أمّا، **الأستاذة غيدا ضاهر (لبنان)** في بحثها: (**ثالوث الخوف: الله، السلطان، والأب**)، فترى أنّ هذه الثلاثية، تشترك كلها في التركيز على الطاعة التي يجب الخضوع لها خوفاً من العقاب. ثمّ تورد الباحثة أمثلة كثيرة: فالماوردي وغيره، فسّروا القرآن حسب الظروف وحسب رغبات السلطان، حيث جعلوه (ظلّ الله على الأرض)، فهو صاحب سلطة مطلقة تماثل سلطة الخالق. كذلك الأمر مع سلطة الأب في النظام الأبوي، الذي هو نظام متعدد الأبعاد. فالربط بين أعضاء الثالوث (الله، السلطان، والأب)، يتماثل مع الثالوث المحرّم: (السياسة، الجنس، والدين)، أي أن الربط ليس اعتباطياً: فعند الانتقال من النص القرآني (**الخوف من الله**) إلى الخطاب الديني الذي انبنى عليه، نجد أن هذا الخطاب يكرّس (صورة الله التي تطغى عليها فكرة الخوف)، أكثر مما تطغى (صورة الله – محبّة). أما **صورة السلطان**، التي انبنت على فكرة **إطاعة** ولي الأمر، وأهل الحلّ والعقد، فهي تكرّس له صورة الحاكم المطلق، يقول **ابن تيميّة**: (**ستون عاماً من حكم إمام جائر، أفضل من ليلة بلا سلطان!!**). وتناقش الباحثة موقف **الماركسية** من الدين، حيث ترى أنّ **جملة ماركس**: (**الدين أفيون الشعب**)، قد اقتُطعتْ من سياقها، موردةً النص في سياقه: (**الشقاء الديني، هو تعبير عن الشقاء الواقعي من جهة، وهو احتجاج على الشقاء الواقعي من جهة أخرى. الدين هو تنهيدة الكائن المقهور، وقلب العالم عديم القلب، وهو روح الأوضاع عديمة الروح، هو أفيون الشعوب**). فالدين إذن

عند ماركس، حسب الباحثة، هو تعبير عن القهر، والاحتجاج عليه. ثمّ تستشهد الباحثة بأفكار لوجيه كوثراني حول **مسألة قابلية الإسلام للعلمانية**، فالصراع الاجتماعي – السياسي الإسلامي، لا يختلف في توصيفه عن سياق التجربة التاريخية المسيحية من ناحية الجوهر والمضمون، حيث جرى التوظيف السياسي للدين، مما ولّد الخوف، لهذا ترى الباحثة أنّ **فكّ الارتباط بين الدين والدولة في العالم العربي، يساهم في تقليص سلطة الخوف والقمع.**

*　　*　　*

– هذه الأبحاث في هذا الفصل، كشفتْ بدرجةٍ عالية من الشجاعة المعرفية، مظاهرَ ومصادر الخوف، وهذا الكشف هو الدرجة الأولى من مقاومة الخوف، والتغلب عليه، ولكنَّ... هناك اموراً كثيرة لم يقلها الباحثون بعد، لهذا سيظل الخوف قائماً، حتى نقوم بكشف (المسكوت عنه)، بشكل أكثر شفافية.

من الخوف إلى التخويف:

مساهمة في تعريف ثقافة الخوف

الطاهر لبيب

تونس

(1)- الخوف لازَمَ الإنسان دائماً، ولو لم يَخَف الإنسانُ لانقرض. الخوف كحالة نفسية فردية أو جماعية ناتجة عن مواجهةٍ، أو تهديدِ خطرٍ حقيقي، أو مُتخيَّل، هو من غريزة البقاء. إنه، من هذه الوجهة، ظاهرة كونية قديمة قدم الإنسان. تناولته الأدبيات الكلاسيكية، بهذا المعنى، من الفلسفة إلى التحليل النفسي الحديث، مروراً بالميثولوجيا، والأديان، وأصناف الإبداع الأدبي والفنّي. وللخوف في نصوص التاريخ، وفي التراث الشعبي، "مِحَنٌ" كثيرة.

ما جدَّ من حديث عن ثقافة الخوف يشير إلى نقلة نوعيّة، غير مسبوقة، يمكن وصفها، إجمالاً، بأنها **انتقالٌ من الخوف إلى التخويف**. هذا الانتقال، وازاه في العلوم الاجتماعية، انتقال من موضوع المخاطر (**risques**) إلى ثقافة الخوف، (والخوف من الخوف). حدث هذا، تحديداً، مع اتخاذ الإرهاب بعداً عالمياً في الخطاب السياسي، وفي المخيال الجماعي. لقد نُظر إلى المخاطر على أنها من قبيل ما يُحتمل وقوعُه، بصورة منتظرة أو غير منتظرة. لذلك كان الخوف منها قابلاً للتخطيط، إن صح التعبير، إذ هي موضوع حمايةٍ مطلوبة. قطاعات كثيرة من الحياة الاجتماعية تم رصد مخاطرها، من زوايا مختلفة: اجتماعية، ثقافية، اقتصادية، بيئية، الخ، لكن أبرز المخاطر التي تم تحليلها بعمق كانت تلك المتأتّية من التحوّلات التكنولوجية. كان ذلك، مثلاً، في كتاب عالم الاجتماع الألماني **ألريش باك** "مجتمع المخاطر" (1986)[(1)]، الذي رأى فيه أن المجتمعات الغربية، بعد أن بَنت حداثتها وصاغت المفاهيم والقيم المرتبطة بها – ومنها التقدم – أصبحت تعيش خوفاً من مخاطر التقدم. إنها مفارقة التقدم الذي يواجه المخاطر بإنتاج مخاطر أخرى. قبل ذلك، سنة 1968، كان الفيلسوف **هابرماس**، قد نشر كتابه الشهير عن "التكنولوجيا والعلم، باعتبارهما إيديولوجيا"[(2)]، وقد ضمّنه نقداً قوياً للبراغماتيّة وللتكنولوجيا، أفضى به إلى اعتبارهما يهددان الديمقراطية في المجتمعات الصناعية المتقدمة. وأخيراً أصبح "مجتمع المخاطر" عنوان مؤلفات[(3)]. ومن المفروغ

منه أن صور الخطر تتضمن الخوف، ولكن الهدف كان التوعية بالمخاطر – كما كان يقال – أكثر مما كان تخويفاً منها، فمنذ الحرب العالمية الثانية كان مفهوم التوعية هو الغالب، بما في ذلك التمييز بين الوعي والوعي الزائف، أو بين الوعي التجريبي والوعي الممكن.

لا شك أن العالم دخل القرن الواحد والعشرين خائفاً، أو هكذا هي صورته كما أُريدَ لها أن تنتشر، فالانتقال من التوعية بالمخاطر إلى التخويف منها ومما يُخترع من صورها، كانت له نصوص مؤسسة أبرزها ما صاغه **هنتنغتون** في مقاله (1993)، ثم في كتابه عن "صدام الحضارات" (1996)[4]. وهما، في الجوهر، **نداء إلى الحرب ضد عدوٍ مخيفٍ، "رهيب"**: ثقافة الخوف فيهما تعني ثقافة العداوة. المقولة الأساسية هي أن السياسة (وهي، أولاً، أمريكية)، تقتضي معرفة العدو، أي معرفة من يجب أن نخاف منه. البقية معروفة: **العدو هو الإسلام "ذو الحدود الدموية"، (ومعه الصين)**. وبما أن هذا العدو "حضاري"، وبالتالي غامض وشاسع، فإن الخوف منه لا يمكن إلا أن يكون خوفاً بلا حدود!

ظهرت ردود فعل كثيرة على مقولات هنتنغتون، منها الاستنكارية العربية، ومنها التحليلية[5] ؛ ولكنّ ثقافة الخوف من العدو – وامتداداً، الخوف من كل شيء، تقريباً، – بدأت تستوقف بعض الباحثين في العلوم الاجتماعية. بعد "**مجتمع المخاطر**" بدأ الحديث عن "**مجتمع الخوف**"[6]. هذا إضافة إلى لقاءات علمية بدأت تتكاثر، في أوروبا وأمريكا، حول جوانب مختلفة من ظاهرة الخوف الجديد: تحليلية نفسية، سيميولوجية، سياسية، الخ... كانت العلوم الاجتماعية (تقليدياً)، تتناول خوف السُلطات منها، باعتبارها مقاربات تعرّي الواقع، وهي الآن تستوعب الخوفَ موضوعاً، وقد تستبطنه!

ثقافة الخوف مرتبطة بالتخويف. إنها محصلةُ عمليةِ التخويف، الذي تعتمده السلطة (وهي سُلطات متنوعة) بتعميم المخاوف الحقيقية أو الوهمية بين الناس وفي تضخيمها إلى الحد، الذي لا يرون معه من يحميهم منها غيرَ السلطةِ ذاتها. هذه الثقافة لها محطاتها القديمة والحديثة: الأنظمة والسلطات، التي زرعت الرعب، وتلك التي لا تزال تزرعه في فضاء سلطتها كثيرةٌ ولها أوصاف مصنّفة: استبدادية أو تسلطيّة، شمولية أو دكتاتورية، الخ... وهي كلها أوصاف تعني القدرةَ على توزيع الخوف، والكفاءةَ في توزيع العقاب.

(2)- ما الجديد إذاً؟. تنوعت، عبر التاريخ، مصادر الخوف حسب المجتمعات والثقافات، ومن الممكن، نظرياً، تحديد أنماط الخوف المرتبطة بالمراحل التاريخية الاجتماعية، سواء أكان ذلك على صعيد التطور العام للتاريخ، أو على صعيد تطور المجتمعات. **نمط المرحلة الراهنة من ثقافة الخوف**، هو **نمط جديد**، وذلك، لتلازم أربع خصائص تلازماً غيرَ مسبوق:

الخاصية الأولى: تحويلُ الخوف من السلطة الحاكمة إلى **مخاطر خارجية** أو خارجة عنها، بحيث يصبح التخويف من واجبات الدولة، حمايةً لمواطنيها. إنها تريد أن تخيف بدون أن تكون مصدر خوف. وهي بذلك، تعتبر نفسها، في نهاية الأمر، في خندق واحد مع المواطنين في مواجهة خطر قريب أو بعيد، حقيقي أو متخيّل.

الخاصية الثانية: تبادل التخويف أو "**توازن الرعب**"، لم يعد في المقام الأول، بين الدول، وإنما بينها، منفردة أو مجتمعة، وبين حركات غير حكوميّة متنوعة بعضها يُعتبر "إرهابياً". وهكذا، فإن الدول التي قد تختلف أو تتعارض سياساتها ومصالحها تتّجه – طوعاً أو كرهاً – إلى الاشتراك في خوفٍ واحد وإلى تقاسم العمل في مواجهته.

الخاصية الثالثة: وهي نتيجة لما سبق – هي اندراج التخويف في نظام عالمي للخوف. ليكن هذا الأمر واضحاً: لقد طفا مفهوم ثقافة الخوف، بمضمونه الحالي، وطفت المفاهيم والصور المرتبطة به في سياق "مكافحة الإرهاب" التي أرادت الولايات المتحدة أن تكون مكافحتُه ذات طابع عالمي. هذه هي بداية **عولمة الخوف**. وقد اكتشفت الشعوب معها، فجأةً، أنها خائفة أو أنه يجب أن تخاف. في الوقت نفسه، اكتشفت الأنظمة المخيفة، أنه بإمكانها تحويل مصادر خوف الشعوب إلى الخارج أو إلى ما هو خارج عن إرادتها، وبالتالي عن سلطتها. وهكذا **لم يعد تسلطها قمعاً، وإنما أصبح حماية!**

الخاصية الرابعة: هي وصول الإرهاب – وله أشكاله التاريخية – إلى مرحلة تهديد قوىً كبرى كانت تحتكر التهديد. لم يُسمَّ التهديد إرهاباً، ولم تُعتمد هذه التسمية دولياً، إلاّ عندما وصل إلى هذه المرحلة. "**القاعدة**" نفسها لم تكن تحمل هذا الاسم في وقت سابق عندما كانت معبّأة ضد الشيوعية. كانت "مجاهدة". **الإرهاب**، إذاً، كان "المنشّط" الذي ربط بين مقوّماتِ ثقافةِ الخوف. تبادل الخوف معه هو المعادلة الأكثر استعصاءً في اتجاه تفكيك هذه الثقافة، محلياً وعالمياً.

الحديث عن ثقافة الخوف ليس، إذاً، حديثاً عن خوف في المطلق، ولا حديثاً عن أشكال تقليدية لتخويف السلطة للناسَ منها، وإنما هو حديث عن نقلةٍ نوعية وعن ظاهرةٍ غير مسبوقة على الصعيد العالمي. وإذا كان من البديهي القول بأن العولمة لها مخاطرها ومخاوفها – وهذا ما يتردد قوله كثيراً – فإن الأهم هو افتراض أن يكون التخويف، أي **صناعة الخوف وتعميمه**، من آليات العولمة أو من حواملها: إن ما قد يعتبره البعض من مخاطرها تهون استساغته ويهون تبريره في أوضاع الخوف وتحت سلطته.

(3)– **التخويف**، هو من آليات الصراع، إجمالاً، ومن آليات الصراع على السلطة، بوجه خاص. وهو، بهذه الصفة، ذو طابع استراتيجي. تقوم استراتيجيةُ التخويفِ السياسي أساساً، على **تحويل مصادر الخوف**، وبالتالي على تحويل العدوانيّة. في ثقافة الخوف، كما بدأت تسود، يتم هذا، بالتوازي، على مستويات مختلفة قد تكفي الإشارة إلى ثلاثة منها:

المستوى الأول: هو تبرئة الدولة من افتعال التخويف، وذلك بإبراز عدو مشترك بينها وبين المواطنين، مع التستر على المخاوف الحقيقية التي هي من صلب مسؤولياتها (كالخوف من البطالة، أو من تفشي الأمراض، مثلاً). هذا النوع من التحويل الكلاسيكي هو من الثوابت في تاريخ السلطة، مهما كان نوعها: **ضرورة وجود عدو حقيقي أو اختراعه**، إن لم يكن موجوداً، بهدف تأمين التماسك أو الشرعية للسلطة. وهو تحويل له مصادره القديمة في الميثولوجيا، وفي الأديان: لقد استطاعت السلطة، تحويل خوف الإنسان من الموت، أي خوفه الأكبر من نهايته، إلى وضعٍ بالإمكان أن يكون مريحاً، مطمئناً، ذلك أن الموت لم يعد إلاّ معبراً إلى حياة أخرى قد تكون سعيدة. الفرق بين النموذج الكلاسيكي وبين النموذج السائد، اليوم، أنّ تحويل الخوف يتم، الآن، في اتجاه معاكس: كان من المعلوم إلى المجهول، أو إلى ما هو من الغيب وأصبح من المجهول (أو مما لا تعلمه إلا السلطة)، إلى المعلوم الذي يمكن معاينته، بما في ذلك "مباشرةً"، أي أن يشاهَد "المخيفُ" وأن يُسمع في اللحظة نفسها، وفي جميع أنحاء العالم.

المستوى الثاني: تحويل الخوف هو مستوى **الانتقال من الحَيّز الخاص إلى الحيّز العام**. للخوف مصادر وأشكال وتعبيرات مختلفة، منها الفردي والجماعي. ثقافة الخوف تعني استبطانَ الفرد للخوف، لا كحالة نفسية فردية، وإنما عبر تَمثُّلٍ جماعي لمصدر

مشترك للخوف، تسعى السلطة إلى تحديده وإلى تحديد أشكال تجلياته، وتسعى كذلك إلى تنميط الموقف منه والتعبير عنه. هذا يعني أن **الخوف يتحول إلى "حالة عامة"**، تجد سنداً لها يبررها في مجال القيم، كالمصلحة العليا والوطنية، وحب الخير والمنزع الإنساني، الخ... وهي قيم تدّعي، فعلاً، ثقافةُ الخوف أنها تحملها. ولقد استطاعت السياسة الأمريكية أن تبرزها في رؤيةٍ مانويّة للعالم: **مصدر الخوف هو "محور الشر" يقابله الخيّرون الحاملون للقيم الإنسانية الكبرى**(7).

اكتساح الخوف للحيّز العام ييسّره تعدد المخاوف وتفرعها بصورة متزايدة. قطعاً، لم يعرف التاريخ هذا التعدد والتفرع، محلياً وعالمياً، مثلما يعرفه اليوم. لقد أصبح الخوف الحقيقي أو المحتمل من كل شيء تقريباً، بما في ذلك من أقرب الأشياء إلى الممارسة اليومية: الكحول، والتدخين، والسمنة، والسرعة، والجنس، والهاتف المحمول، والمزروعات المعدلة جينياً، ولحم البقر، ثم الدجاج، والبيئة، إضافة إلى الكوارث الطبيعية ووصولاً إلى الدمار الشامل. وسائل الاتصال حاملٌ مثالي لذلك: التلفزة والسينما والفيديو والإنترنت، كلها مزروعةٌ بهذه المخاوف. متابعة الأخبار فقط، في العالم العربي مثلاً، تكفي لمعرفة نسبة الخوف إلى الاطمئنان في ما يرى ويسمع الناسُ، صباحَ مساء.

المستوى الثالث، يتم فيه **تحويل الخوف الاجتماعي إلى خوفٍ أمني**. ولعل هذا التحويل، هو أقوى ما يعبّر عن قدرة الدولة على التلاعب بالخوف وعلى استثماره لصالحها، كسلطة. مقايضات الاجتماعي بالأمني، وخاصة في العالم العربي، كثيرة: المطالب الاجتماعية الكبرى، وكذلك الديمقراطية، وحقوق الإنسان كلها أصبحت موضوعَ مقايضةٍ بالأمن الأمني. (هوبز) كان يقول ما معناه أن المجتمع يقلّص العنفَ بخلق عنفٍ أقوى ولكنه شرعي، هو عنف نظام الدولة. ينطبق هذا على التخويف، مع إضافة أن اتخاذ المجتمع لإجراءاتِ دفاعٍ ضدّ الخوف، يزيد من خوفه ويجسّمه ويجعله مباشراً، أي يحول الخوف والخوف من الخوف أو فانتازماته، إلى واقع معيش. هكذا يكتسب الأمن أولوية تبدو مطلقةً في الحياة اليومية للفرد والمجتمع. وبما أن الأمن الذي توفره الدولة هو، أولاً، أمنُها فهو، بالضرورة، يواجه الاحتجاج وما يتصل به من مطالب اجتماعية. وهو، في ذلك، يعوّل على مبدأ أو فرضيّة أن الخائف، يؤجل مطالبه!

في كل مكان تقريباً، تراجعت المطالب الاجتماعية، بدءاً بمطلب العدالة وتوزيع الثروة، أمام مطلب الأمن. هذا المطلب يبدو، في الظاهر، "مطلب الجميع" نتيجةَ التنميط

والتعميم. أما في الواقع المعيش، فهو متنوع، في الطبيعة والدرجة، حسب التراتب الاجتماعي. المخاوف الكبرى ذات المضمون الاجتماعي ليست قابلة للتعميم، إلاّ في حالات استثنائية نادرة، ذلك أن الفئات المختلفة، مختلفةٌ في خوفها، أيضاً، وقد تكون مصادرَ خوفٍ، بعضها لبعض، ففي تنميط الخوف وتعميمه على "المجتمع"، سعيٌ إلى **تغطية التفاوت**، مؤقتاً. وهكذا تبدو أوضاع الخوف وكأنها أوضاعُ هدنةٍ اجتماعية تجد بعضُ الفئات، دائماً، فائدة في تمديدها، في حين تسعى فئات أخرى إلى تقصيرها، لكي تعود إلى مطالبها.

(4)- لم يسبق أن عرف التاريخ نشر (**مخاوف معولَمة**) لها اتساع وسرعة عالم اليوم. المبدأ والآليات، هي نفسها التي تنتشر بها ظواهر أخرى في سياق العولمة. الاختلاف هو في الدلالة والتوظيف: دلالة اللجوء إلى العامل النفسي وإلى استغلال غريزة البقاء في الإنسان، وتوظيف ذلك في مجتمعات متباعدة ومختلفة، لأهدافٍ مركّبة تتجاوز مواجهةَ المخاوف المعلنة إلى أهدافٍ أبعد، جيوسياسيةٍ في معظمها.

ما سبقت الإشارة إليه من أبعاد وتجليات الخوف على صعيد المجتمع الواحد، يمكن تطبيقه على الصعيد العالمي. يكون ذلك، طبعاً، مع اعتبار الاختلاف في وحدة التحليل وفي حجم الظواهر وانعكاساتها. ما يضاف هنا هو، فقط، لتوضيح **بعض ملامح التخويف الساعية إلى التعولم:**

4. 1. لكلّ مجتمع مخاوفُه التي يفرزها واقعه. وسواء أكانت هذه المخاوف نتيجة ميكانيزمات محلية أو خارجية، فإن ما يحدد "واقعيتها" أنها مُتمثَّلة، جماعياً، كمخاوف حقيقية، يجب مواجهتُها. **عولمة ثقافة الخوف تعني نمذجةَ أنماطٍ من المخاوف الحقيقية أو الوهمية**، التي قد ترتبط بمجتمعٍ أو بحدثٍ فيه، وذلك بهدف التخويف منها في مجتمعات وثقافات مختلفة، منها ما يتمثل مخاطرَها، ومنها ما قد لا يرى له علاقةً بها. إذا استثنينا المخاوف الاجتماعية الكبرى - وهي دائماً حقيقية - وما يتصل بها من مطالب المواجهة التي تحملها الحركات الاجتماعية والسياسية، بدرجات مختلفة حسب اللحظات التاريخية، والتي تبدو الآن مُلجمةً أو مؤجلة، فإن المخاوف التي تتصدّر الخطاب السياسي والإعلامي الراهن في أوروبا، هي: **الخوف**

الديموغرافي، مع التركيز على الهجرة، و**الخوف الأمني**، مع التركيز على العامل الخارجي، و**الخوف الاقتصادي**، مع التركيز على المصدر "الأصفر"، إضافةً إلى **الخوف** "**الحضاري**" من الإسلام السياسي. ويبدو أنّ **المجموعة الأوروبية**، أقرب إلى التفاوض حول هذه المخاوف، مع البلدان "المصدِّرة" لها. أما **الولايات المتحدة**، باعتبارها القوة الأكثر تحديداً لتوجهات العولمة، بما في ذلك، (**عسكرة العولمة**)، فهي تعتبر ما يُسمّى: ("**الإرهاب" الإسلامي)**، تحديداً، المصدر الأول والأكبر للخوف، على صعيد العالم. وقد نجحت في تعميم الخوف منه، وفي نشر لغته ومصطلحاته، حتى أصبح بإمكان السلطة، في كل مكان، أن تصنّف من خرج عنها على أنه "إرهابي". بعض حركات التحرير والمقاومة لم تَنْجُ من ذلك، حتى في أوطانها.

4. 2. **تنوع المخاوف**، وبالتالي تنوع أصناف الخوف، لم يمنع العالم من "توحيد" مخاوفه، أي من توحُّده في الخوف. هذا يعني، أولاً، أن هذه المخاوف قائمة في الواقع أو في المخيال الجماعي، لكن العامل الأكثر حسماً في صنع ثقافة الخوف ونشرها، هو العامل السياسي، بمستوياته وصيغه وآلياته المختلفة. الدوافع كثيرة، متداخلة، بدءاً بحماية السلطة لذاتها ولمصالحها ولفضاء شرعيتها. وكل هذا لم تعد فيه الحدود بين الداخلي والخارجي حدوداً واضحة إلى حد الفصل بين مخاوف داخلية وأخرى خارجية.

ما يستحق التوقف عنده، بصورة خاصة من هذه الوجهة، هو **ظاهرة تراجع الصراعات المسلحة بين الدول، كمصدر تقليدي للخوف الجماعي**. هذا التراجع في تبادل الخوف بين الدول، كدول، يتناسب، زمنياً وبوضوح، مع توسع ظاهرة "الإرهاب الدولي"، مروراً بمحطته الأساسية: 11 سبتمبر 2001. مواجهة هذا الإرهاب حققت أوسع تعاون عملي معاصر بين دول العالم. لم تتفق على شيء مثلما اتفقت عليه. هذا يبرر ما ذهبنا إليه من أن المرحلة الجديدة لثقافة الخوف القائمة على التخويف، تندرج في **نظام عالمي للخوف**: لقد جعلت الخوف المشترك، فوق التصادم التقليدي بين الدول.

لم يحدث صراعٌ مسلّح بين دول العالم خلال سنتي 2004 و2005، إذا اعتبرنا أنّ **العراق وفلسطين، حالة خاصة داخلية/ خارجية**، كما قد يرد في بعض التقارير الدولية. طبعاً، هذا لم ينفِ تدخّل قوات نظامية خارجية في ثلاثة صراعات داخليّة: **بوروندي**

لصالح الحكومة الروندية، وتحالف متعدد الجنسيات ضد **(القاعدة)**، لصالح الحكومة الأمريكية، والقوات الأمريكية ومن معها، لصالح الحكومة العراقية المؤقتة. هذا التراجع ملاحَظ منذ مدة أطول: من 1990 إلى 2004، حدث **57 صراعاً مسلحاً**، لم يكن منها غير أربعة بين دول: **إريتريا/ إثيوبيا، والهند/ الباكستان، والعراق/ الكويت، والعراق/ الولايات المتحدة وحلفاؤها.** بقية الصراعات – وهي 53 صراعاً – كانت ضمن الدولة الواحدة، إما للسيطرة على الحكم (29 صراعاً)، وإما للسيطرة على الأرض (24 صراعاً)[8]. وهكذا بعدما كان تعزيز الأمن في دولة أو في دول هو على حساب دولة أو دول أخرى – مع اعتبار ذلك أمراً ضرورياً وجائزاً – أصبح يُنظر إليه، بصراحةٍ أكبر، من منظور **تكامل "الأمن الدولي"، وتماسك "الأسرة الدوليّة".**

(5)– "ثقافة" الخوف، لها، إذاً، أبعاد ومستويات ومجالات تتجاوز ما هو ثقافي، بالمعنى الحصري للوصف. وهو ما يتطلب، نظرياً ومنهجياً، مقارباتٍ مركبة **تتحاشى تفسير الثقافي بالثقافي**، وتتحاشى بوجه خاص، اختزالَ رهانات الخوف، محلياً وعالمياً، في المستوى الثقافي، مثلما يحدث، غالباً، عند التصدي للمخاطر على الدين والهوية وغيرها من القيم. إن الاختزال العربي الإسلامي للخوف في ما هو ثقافي أو حضاري، تضيع معه مصادرُ هذا الخوف، وأهدافُه الكبرى من ناحية، ويدفع إلى مواقف وجدانية متشنجة غير متناسبة، بالضرورة، مع طبيعة الخوف الذي يجب مواجهته. لقد سبق التأكيدُ، بما يكفي، على تعدّد أبعاد ظاهرة الخوف، ولذلك يمكن الآن، في المستوى الثقافي الرمزي، ذكرُ مثالٍ واحد، له دلالة قويّة على **لاأخلاقية التخويف السياسي** في توظيفه لقيمة إنسانية كبرى، هي قيمة الموت الذي يبقى الخوفَ الأكبر في حياة أي إنسان. لا معنى للحياة ولا تعريف لها بدون **الموت**، ولذلك فالموت مسألة وجودية حملتها الرؤى البشرية، وأحدثت لها نواميسَ وطقوساً كثيرة. التفلسف نفسه، عند البعض، هو تدرّب على الموت. وعندما واجه الإنسان خوفَه من الحروب الكبرى، كتلك التي عرفها القرن العشرون، بدا له أن الموت تغيّر معناه.

في مقالاتٍ كتبها بين 1915 و1938، رأى **فرويد** أن الحرب أزالت وهمَ التعويل على قيم الدول العظمى، إذّاك، في اكتشاف طريق أخرى لتسوية صراعاتها، وهي، في الوقت نفسه، غيّرت رؤية الإنسان للموت وموقفَه منها. وأهم ما في ذلك، هو تحويل

الموت من العرضي إلى الضروري. لقد سعى الإنسان منذ بدائيته إلى ربط دلالة الموت بالعرضي – كحادثٍ أو مرضٍ أو تقدمٍ في السن – وذلك هروباً من تصوّر موته كنتيجة نهائية لحياته، خلافاً لـ"مشاهدة" موت الآخرين. الحرب عدّلت من هذا لأن الناس يموتون آلافاً مؤلفة، ولم تعد الصدفةُ في هذا الموت الجماعي حاسمةً. هذا قوّى الوعي بأن الموت حقيقة وضرورة. وقد رأى فرويد، في زمن حروبه، أنه من الصعب المحافظة على الموقف القديم من الموت، وإن لم يرَ بأي موقف يعوّضه. وفي رسالة شهيرة إلى اينشتاين سنة 1932، "صعّد" فرويد خوفَه من الحرب ورأى أنه لا حلَّ، لمواجهتها، غيرُ مواجهة الغريزة التدميرية، بغريزة الحب (أو الايروس)، التي هي نقيضها. إن تعمّد الرجوع إلى فرويد، تحديداً، هو للقول بأنه إذا كان التحليل النفسي اتسع، في زمن الحرب، إلى تعديل دلالات غريزة الموت، فمن الأولى والضرورة أن تتسع له المقاربةُ الاجتماعية.

لثقافة الخوف، بالمعنى الذي حددناه، نصوصُها المؤسسة ولها حَدَثُها المؤسس أيضاً. **حدث 11 سبتمبر**، بدا **وكأنه استثنائيٌ في التاريخ** (إلى حد أنه لا يحتاج إلى ذكر سنته)، لأنه مسّ سقف العالم في نيويورك. كان حيث لا يُنتظر أن يكون، وكان – وهذا أهم – بأيادٍ خارجية، لم يكن في الوارد أن تُرهب الأمريكي في عقر داره. لقد كان المشهد مرعباً، ولا لبس في إدانته بكل المعايير والقيم الإنسانيّة. السؤال ليس هنا، وإنما عن مأتى هذه "**الاستثنائية**"، التي بدا معها الموت استثنائياً، هو أيضاً. أليس هناك في بقايا العالم موتٌ يتناسل، بلا انقطاع، فتملأ أحداثُه وأشلاؤه، رتابةَ حياتنا اليومية، وتجعل منه، في شاشات الموت، موضوعَ سبقٍ وإخراج؟.

ما يهم، هنا، في ردّ الفعل الأمريكي، أمران: الأول أن الخوف من الإرهاب، ثم التعبير عنه بلغةٍ حربيّة، إجرائية، مختزلة، كوّنت حقلَ دلالةٍ تَحولَ بسرعة كبيرة إلى نواة اصطلاحية عالمية. **شومسكي** بيّن كيف اعتمدت الدعاية الأمريكية، مصطلحات وتعابير مختارة بدقة للاستحواذ على معنى الإرهاب، الذي يستثني أمريكا منه ولإيهام العالم كلّه بشرعيةٍ حَمّلتها عليه. لقد تطابق هذا المعنى مع "الحقيقة": **لم يعد، إذاً، مجالٌ للنسبية في المقابلة بين الخير والشر، بين الحضارة والبربرية، بين "هم" و"نحن"**. الأمر الثاني، هو إعطاء ملامح قوية **للاّمساواة بين الأموات**، كوجه آخر للاّمساواة بين الأحياء. لقد تحرّج الفكر البشري طويلاً في إعلان هذا النوع من اللاّمساواة، ولكن

الحدث الأمريكي (الذي تعولمت دلالاته) أوجد، نهاية الأمر، من يتقوّى على ذلك، جامعاً فيه بين القساوة والعلنية، في آن واحد: كل أمريكي يموت قتلاً، خارج بلاده، هو، كفرد، **ضحيةٌ استثنائية** تستوجب الاستنكار الدولي. وهو، ولو كان **جندياً غازياً قاتلاً**، فالسياسة تخاف عرضَ جثته، تحاشياً لصدمة الرأي العام. كل من مات وراءه محسوبٌ ضمن ضحايا يتم تصنيفها وترتيبها. هذا في حين أن بقايا العالم تموت بالجملة، ولا تموت أفراداً، وتُعرض أشلاء مبعثرةً، ثم تُردَم في **مقابر جماعية**، بلا إعلام ولا صلوات.

هناك إصرار على **إفراغ موت الآخرين من معناه**، وعلى تعديل المواقف منه. وهو إصرار على إفراغ القضايا التي يموتون من أجلها من دلالتها. هكذا، مثلاً، أصرَّ **النظام الأمريكي – الصهيوني**، عبر آلياتٍ مختلفة، على **إبراز "عبثية" الموت الفلسطيني**. كان يعلم أن الصعوبة الكبرى ليست في ساحة المعارك، بقدر ما هي في محاربة الدلالة التي يعطيها الفلسطينيون لموتهم. هذا الموقف التمييزي أمام الموت والذي له، على الأقل، جغرافيا عنصرية يبعث، من دون شك، على التأمل الفلسفي والأخلاقي السياسي، لا لمعرفة دوافعه فحسب، وإنما أيضاً لمعرفة دوافع وأشكال استبطانه، عالمياً. إنه موقف من الموت، أصبح للسياسي دورٌ تحديده من منظورٍ جيوسياسي لا علاقة له برصيد الفكر الإنساني في تعاريف الموت، وبما يلتقي فيها من أبعاد وأحوال.

ليست ثقافة الخوف، كما هي اليوم، معزولةً عن هذا التحول في **معنى الموت** وفي الموقف منه. لقد نسجتها السّلطة في كل مكان"، بخيوط المراتب والمصالح وبما استغلّت من أرصدة الغرائز والقيم (وهذا لا تختص به المرحلة الحالية)، ولكن في سياق جعل من ثقافة الخوف ثقافةَ تخويفٍ من الموت، تحديداً وبالدرجة الأولى. لقد نقلت هذه الثقافة مشهد الموت من موقع الفصل الأخير إلى موقع الفصل الأول: بعد أن كان الموت يُرى من خلال مخاطره، أصبحت كلُّ المخاطر تُرى من خلال الموت، كخوف أوّل، منذ صورته يوم 11 سبتمبر وما تراكم بعدها من صوره. لهذا أصبح العالم مهموماً بتصنيف موتاه بعد أن كان مهموماً بتصنيف الأحياء فيه.

(6)- تقديم ثقافة الخوف في مرحلتها الراهنة، أي مرحلة التخويف على صعيد دولي، على أنها من صنع السّلطة، التي تنشرها يعكس حقيقةً موضوعية، ولكنها لن تكون كلَّ الحقيقة إذا لم تُدرج ضمن هذه السُلطات، سلطةُ الحركات التي تواجه السّلطة الحاكمةَ أو تواجه واقعاً ما باستعمال العنف الذي يُعتبر إرهاباً. هذه الحركات هي

الطرف الثاني في معادلة التخويف، بدونه تتفكك الصيغة الحالية لثقافة الخوف. وهي معادلة لها طابع "جدلي"، باعتبار **أن كلّ طرف، هو صنيعةُ الآخر**، يستمد قوته التدميرية من الآخر، كما هو الحال في أقصى وأقسى تجلياتها: إبن لادن، وبوش.

– لثقافة الخوف التي تنشرها **الحركات الإرهابية**، لها مفارقاتُها: **المفارقة الأولى** أن الإرهاب يزرع خوفاً واسع النطاق، في موطنه، أولاً. قد يكون **باسم العقيدة**، كما يراها، ولكنه يقتل من أهل عقيدته، أكثر مما يقتل ممّن يعتبرهم "كفّاراً" أو "صليبيين"، وقد يكون **باسم إخراج العدو**، ولكنه يقتل من أبرياء الوطن أكثر مما يقتل من محتلّيه. وفي المقابل، يُصدِّر **إرهابُ الدولة**، خوفَه وتدميرَه: باسم حماية أمريكا، تمّ تخريب العراق.

المفارقة الثانية، أن الإرهاب الذي قد يعلن مناهضته لسلطة حاكمة في العالم العربي والإسلامي، **لا يضعف من سلطتها، بل يقوّيها في أغلب الحالات**. إنه يساند تبريرَ تحولّها إلى سلطةٍ أمنية، فيبرِّر، بالتالي، تحويلَ وجهتها عن قضايا اجتماعية وسياسية كان مطلوباً منها حلّها. هذا في حين أنّ إرهاب الدولة (القوية، بالضرورة)، يستثمر تدميره اقتصادياً وسياسياً، محلياً ودولياً: يكفي النظر في القائمة الطويلة للأعمال الإرهابية، التي قامت بها **الولايات المتحدة**، "**الدولة المارقة**"، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، في مناطق مختلفة من العالم، لتبيُّن مردود هذا الاستثمار الطويل(9).

أمّا **المفارقة الكبرى** – وفيها لغزٌ محيّر –فهي "**شعبية**" **الإرهاب**. كيف أمكن له، رغم فظاعته، أن يجد سنداً عقائدياً أو عاطفياً، على الأقل، لدى شرائح قد تكون واسعة في بعض مواطنه؟، وليس هذا التساؤل من قبيل الحدس أو التخمين: في استطلاع للرأي، خلال سنوات 2002 و2003، "وضع المستجوبون في **اندونيسيا والأردن والمغرب وباكستان**، **أسامة بن لادن**، بين أبرز ثلاث شخصيات يثقون بأنها تفعل الشيء الصحيح في ما يتعلق بالشؤون العالمية(10). هذه المفارقة قد تفسَّرُ بالتطرّف أو بالتّشفي العقائدي أو باللبس القائم بين الإرهاب والمقاومة في أذهان الناس أو بغير ذلك، ولكنّ ما يهمّ فيها، هنا، هو غرابة أن تكون **الفئات المساندة للإرهاب، هي ضحيته الأولى**، كفئات لا كأفراد. لا يكفي، في هذه الحالة، وصفُ ثقافة الخوف بالتراجيديا إلا إذا كان في التراجيديا معنى العبثيّة...

(7)– عوداً على بدء: لو لم يَخَف الإنسانُ لانقرض. نعم، ولكن على أن يكون الخوف مناسباً للخطر. إن لم يكن ذلك، فهو مرَضيٌّ، بدرجةٍ أو بأخرى. المشكلة، إذاً، ليست

في الخوف وإنما في تمثّله. هذا يعني أن المسألة، في نهاية الأمر، هي في مستوى الوعي: إنها في **وعي الخوف، وخوفِ الوعي**: مهما كان "الإحساس" بالخوف، فإن "موضوعيّة" تمثّلِه، هي في الإدراك الدقيق لطبيعته، مصدراً وأبعاداً، وفي بناء الموقف المناسب منه. هكذا يكون الخوف واعياً لذاته، ويكون الوعيُ ذاتُه حاملَ خوفٍ مستجيبٍ، بوضوح، إلى مخاطر محدّدة.

قيل الكثير عن "**إبداعيّة**" **الخوف** في الفكر البشري، خصوصاً في الأدب والفنّ، وفي الطقوس التي تنشأ عنه. ليس هذا ما يستدعي التوقّفَ عنده، وإنما الديناميكية الاجتماعية التي ينتجها الخوف الواعي والوعي الخائف:

سياسياً، معلومٌ أن السلطة أخافت دائماً، إذ **لا سلطة بلا تخويفٍ** إلا طوباوياً، وأنها، في المقابل، سعت دائماً إلى تجاوز خوفها. في الحالتين، تختلف الآليات حسب النظام السياسي، خصوصاً في مواجهة المطالب وقوى الاحتجاج والمعارضة. في النظام الديمقراطي لا تجازف دولة المؤسسات والقانون باعتماد آلياتٍ لا يقبلها الرأي العام. وإذا كان منها ذلك، فهي تعرّض أجهزتَها للمغامرة. في الأنظمة غير الديمقراطية لا يكون تجاوز الخوف السياسي إلاّ بالقمع المادّي. لذلك هناك رعبٌ، له ما يبرّره في التجربة، من أجهزة الدولة الخائفة. وقد ذهب هذا بالحركات والأحزاب، في الكثير من هذه الأنظمة، إلى مهادنتها، بل وإلى طمأنتها، لا اقتناعاً بسياساتها، وإنما خوفاً من خوفها.

خارجياً، إذا استثنينا الاشتراك في مواجهة الإرهاب، فإن الأنظمة العربية تبدو، إجمالاً، فاقدةً للوعي بما هو مصدر خوفٍ حقيقي، على المدى البعيد. وهي، في ذلك، أكثر فقداً لخوف الوعي. هذا، على الأقل، مقارنةً بتحذيرات النّخب الفكرية والحسّ الشعبي التي لا تنتهي في العالم العربي. من المخاطر ما أصبح بديهياً ويمسّ الأنظمةَ السياسية نفسها، كالتعويل، في استمرار الحكم، على المساندة الخارجية التي تبيّن أنّ آخرَ همّها أن تستمرّ مع من غيّرت الظروفُ أحوالَ مصلحتها معه. وإذا كان الوعي بهذه المخاطر مفقوداً، فلأن الدولة لا ترى حياتها إلاّ من خلال عُمر أجهزتها، ولربما قياساً على عمر رؤسائها. هذا في حين أن الدولة، كدولة، لها قياساتٌ تاريخيّة أخرى.

داخليّاً، هناك مخاوف سياسيّة تقليديّة ممّا يهدّد السلطة في شرعيتها وهيبتها وفي مصالح المرتبطين بها. الخوف الجديد في العالم العربي هو من **المساءلة**. وهو خوف يتنوع ويزداد حسب **طبيعة الفساد، وقنوات تفشّيه**. ولقد أصبح الفساد من أهم عراقيل

المشروع الديمقراطي في العالم العربي، لأن الديمقراطية تستوجب المساءلة، والفساد لا يقبل المساءلة. هذا مبدأ عام.

هذا **الخوف من المساءلة، خوفٌ مطلوب**، بل هو مشروع لثقافة تطمع الفئات العريضة إلى أن تتعمق وأن تنتشر في صلب السلطة السياسيّة، أولاً. ومعلوم أن هذا الخوف لا يولد فيها تلقائياً ولا طوعاً، وإنما بروافد ضاغطة من خارجها، في المجتمع المدني.

(8)- **المجتمع المدني، الفاعل، حقاً، هو القادر على تفكيك ثقافة الخوف**: إنه قادرٌ، في آن واحد، على تفكيك ما يتعولَم منها، وما يرتبط به من إرهاب، وعلى تعديل معادلة الخوف بين الحاكم والمحكوم، وعلى ردّ المخاوف إلى مصادرها الاجتماعية الأولى: إن ما يتيحه **المجتمع المدني الفاعل** من حرية التعبير، ومن تنوّعه يُكسب الخوف طابعَ النسبيّة ويحدّ من إطلاقيته، كما يُعقلنه ويُعرّي المزعومَ منه. وهو، أيضاً، يخلق فضاءاتٍ تتصدى للإرهاب الفكري والمادي الذي هو نقيضُه. أما أن يحدّ المجتمع المدني من خوف المواطن في علاقته بدولة المؤسسات والقانون، فهذا من عناصر تعريفه البديهيّة. وأخيراً، إذا كانت ثقافة الخوف قد استطاعت تحويل الأنظار عن المسألة الاجتماعية، فإن فاعلية المجتمع المدني تُعيد الأنظار إليها وتجعل منها مصدراً وحلاً، في آنٍ واحد، للمخاوف الحقيقية الكبرى. إن تفكيك ثقافة الخوف الناتجة عن تنميطه وتعميمه، عبر الشعوب والثقافات، وعبر فئات المجتمع الواحد، على اختلافها، يجد سنده الأول في التعدّدية، إذْ بها تكتسب المخاوف مضامينها الاجتماعية المتنوّعة، وتميل صورها في الخطاب الفكري والسياسي إلى التقابل في اتجاه التكافؤ والتوازن.

هوامش:

(1) **Wlrich Beck, *La société du risque,* trad. Laure Bernardi, Paris, 2001.**

(2) **Jürgen Habermas, *La technique et la science comme idéologie*; traduit de l'allemand et préfacé par Jean-René Ladmiral, Paris, Gallimard, 1978.**

أنظر أيضاً:

Denis Duclos, *La peur et le savoir: la société face à la science, la technique et leurs dangers,* Paris, La Découverte, 1989.

(3) منها مثلاً: **David Le Brelon, *La sociologie du risque,* Paris, PUF, 1995.**

(4) **Samuel Huntington, *The clash of civilizations?,* Foreign Affairs, 1993; *"Le choc des civilizations?",* Commentaire, n. 66, 1994. *The clash of civilizations and the***

remaking of world order, New York, Simon and Schuster, 1996; *le choc des civilizations*, Paris, Odile Jacob, 1997.

(5) من ذلك مــثلاً : Mare Crépon, *l'imposture du choc des civilisations*, Paris, éd. Plein-feu, 2002.

(6) كأمثلة عما ظهر بالفرنسية، هناك كتاب قديم، نسبيّاً، يتناول الخوف في الغرب من القــرن الرابــع عشر إلى القرن الثامن عشر:

Jean Delumeau, *La peur en Occident, XIVème - XVIIIème siècles*, Paris, Fayard, 1978.

وهناك مؤلفات ظهرت في المرحلة الراهنة من "ثقافة الخوف" منها، مثلاً:

Christophe Lambert, *La société de la peur*, Paris, Plan, 2005 – Valérie de Courville Nicol, *le soupçon gothique : l'infériorisation de la peur en Occident,* PU Laval, 2004.

(7) أغلب الظن أن بوش ما كان يفوز، رئيساً، لولا نجاحه في تخويف المنتخبين من خلال هذه الرؤيــة المانويّة للعالم.

(8) معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي، التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي، الكتاب السنوي 2005، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 222.

(9) أنظر: وليم بلوم، **الدولة المارقة: دليل إلى القوة العظمى الوحيدة في العالم**، ترجمة عصام قلاوون، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 2003.

(10) معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي، التسلّح ونزع السلاح والأمن الدّولي، مرجع سابق،ص85.

الخوف من الحرية

فروم والتحليل النفسي للشخصية التسلطية

أحمد عبد الحليم عطية

كلية الآداب، جامعة القاهرة

شغل الفلاسفة بالخوف في جميع الحضارات الإنسانية، وتنوعت عندهم دوافع وأسباب الخوف؛ الخوف من ظواهر الطبيعة الشريرة، ومن هنا كانت الأضاحي والقرابين، الخوف من الموت، ومن هنا كثرت الرسائل التى تدور حول دفع الغم والحيلة في دفع الأحزان لدى جالينوس والكندى وابن سينا وغيرهم، وكان الخوف هو الدافع لنشأة الدين، كما أظهر فويرباخ وفرويد، وتعددت التحليلات الميتافيزيقية والنفسية والاجتماعية لمصدر الخوف. ونتوقف في هذه الدراسة عند تحليل **الفيلسوف وعالم النفس والاجتماع الألماني أريك فروم**، **Erick Fromm**، لظاهرة حديثة ترتبط بحياة الإنسان المعاصر في حياته الاجتماعية والسياسية؛ وهي ما أسماها وجعل منها عنواناً لأحد أهم كتاباته "**الخوف من الحرية**" **الصادر 1942**[1]، والذي يوضح لنا فيه الجذور النفسية والاجتماعية للشخصية الخاضعة والشخصية التسلطية، انطلاقاً مما عرف في التحليل النفسى بالسادية والمازوكية، حيث انتقل في تحليلاته من التحليل النفسى الفرويدى إلى التحليل الاجتماعى الماركسي، ليوضح لنا لماذا يخشى ويهرب البعض من الحرية، التي يحارب ويموت من أجلها الآخرين. إنّ (هدف كتاب أريك فروم، هو تحليل تلك العوامل الدينامية في طابع نسيج الإنسان الحديث التي جعلته يرغب في الكف عن الحرية في الدول الفاشية، والذي يسود على نحو متسع عند ملايين من شعبنا". **(p.15)**[2] ويطرح علينا تلك الأسئلة البارزة التى تنشأ عندما نتطلع إلى الجانب الإنسانى للحرية والشوق **للخضوع** وشهوة القوة. ما هي العوامل الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع التى تتسبب في الشوق إلى الحرية؟ هل يمكن أن تصبح الحرية عبئاً لدرجة لا يستطيع أن يتحمله الفرد ويحاول أن يتخلص منه؟ ولماذا إذن تكون الحرية للعديدين هدفاً منشوداً وللآخرين تهديداً؟ **(p.15)**.

تستوقفنا عبارته الدالة: "أن هناك في ألمانيا توجد ملايين شغوفة بأن تسلم حريتها

بالقدر نفسه الذي كان آباء هذه الملايين يقاتلون من أجلها، وأنهم بدل أنْ يريدوا الحرية، بحثوا عن الطريق للهرب منها، وأن هناك ملايين أخرى غير مكترثة ولا تؤمن بأن الدفاع عن الحرية جدير بالقتال من أجله" **(p.14)**، وقد يرى البعض منا أن هذه العبارة التى تصف **ألمانيا في الثلاثينيات**، أصدق ما تكون علينا نحن منذ عقود أربعة مضت أو يزيد، وقد يرى غيرهم غير ذلك، لكنهم معنا سوف يتوقفون أمام عبارته التالية التى ينقلها عن كتاب **جون ديوي** "الحرية والثقافة"، ويقول فيها: إن التهديد الخطير الذي يواجه ديمقراطيتنا ليس هو وجود دول تسلطية شمولية خارجية، بل أنه الوجود داخل مواقفنا الشخصية وداخل مؤسساتنا، هو الذي يعطى انتصاراً للسلطة الخارجية والنظام والهيمنة والاعتماد على الزعيم. ومن ثم، فإن **ساحة المعركة هي هنا – داخل أنفسنا ومؤسساتنا، (p.15)** وهي عبارة كما تصدق على الولايات المتحدة وعلى ألمانيا على غيرها من بلدان وتصدق على بلداننا أيضاً وعلى ما يسمى تجاوزاً مؤسساتنا. من الواضح أن تقهقراً حدث في الحضارة البشرية. وهذا ما يرصده فروم في بداية كتابه، حيث إن مبادئ الليبرالية الاقتصادية والديمقراطية السياسية والاعتناق الديني الذاتى والنزعة الفردية في الحياة الشخصية التى تعبر عن **الشوق للحرية**، ويبدو في الوقت نفسه إنها تقرب البشرية أكثر من تحقق الحرية، سرعان ما ظهرت أنظمة جديدة تتنكر لكل شئ يؤمن البشر بأنهم كسبوه خلال قرون الصراع، وذلك لأن جوهر هذه الأنظمة الجديدة التى تتولى قيادة الحياة الاجتماعية والشخصية الكلية للإنسان هو خضوع الكل فيما عدا حفنة من الناس تتمتع بسلطة لا يتحكمون فيها". **(p.14)**. ومن هذا التشخيص يتضح لنا هدف ومنهج فروم في كتابه، الذي يأتى كما يظهر لنا في إطار طموح علمي إلى دراسة أكبر تعالج الطابع المميز لنسيج الإنسان الحديث والمشكلات الخاصة بالتفاعل بين العوامل النفسية والاجتماعية. إلا أن العمل الذي نحن بصدده يتوقف عند أحد جوانب الأزمة الحضارية للإنسان في عصرنا، إلا وهو معنى الحرية بالنسبة للإنسان في حضارتنا، حيث أن معنى الحرية لا يمكن أن يفهم فهماً كاملاً إلا على أساس تحليل الطابع الكلى لمكون الإنسان الحديث".

ويختلف التحليل الذي يمارسه فروم عن ثلاث معالجات لهذه القضايا، ثلاث طرق وأساليب ومناهج ورؤى ينهل منها ويتجاوزها هي:

1- **المعالجة السيكولوجية عند فرويد**، حيث تكون الظواهر الحضارية كامنة في

العوامل السيكولوجية الناجمة عن الدوافع الغريزية، التي تتأثر بدورها بالمجتمع من خلال معيار الكبت. وتحتاج علاقة فروم بفرويد إلى إشارة خاصة، فهو يذكره دواماً ويشير إليه باستمرار موضحاً الاختلافات بينهما، ويرى أن لديه ازدواجاً، فقد فتح الطريق أمام فهم الوعى الزائف، وقدم فهماً نقدياً للمجتمع الرأسمالى المعاصر له وما فيه من كبت، ولكنه كان متجذراً بعمق في رؤية فترته التاريخية مما جعل نقده للمجتمع مقصوراً على **القمع الجنسي**، وهي مسألة يعطى لها فروم دوراً ثانوياً، وسوف نعود إليها لاحقاً، أى إلى العلاقة بينهما فرويد – فروم.

2- **التفسير الاقتصادي**، كما هو ماثل في التطبيق، لتفسير ماركس للتاريخ، الذي يعد المصالح الاقتصادية الذاتية، علة الظواهر الحضارية مثل الدين والأفكار السياسية حيث تظهر البروتستانتية على أنها استجابة لبعض الاحتياجات المعنية للبورجوازية، ويطلق فروم على وجهة النظر هذه، الماركسية الزائفة، وهي تلك النظرة التى ترى أن التاريخ يتحدد بالدوافع الاقتصادية في إطار البحث عن الكسب المادي، وليس كما قصد ماركس، فيما يرى فروم في إطار الظروف الموضوعية التى يمكن أن تنتج عنها أوضاع اقتصادية مختلفة[3].

3- **التناول المثالي**، الذي يرى المثل الدينية الجديدة مسئولة عن تطور نمط جديد للسلوك الاقتصادى لا يتحدد كلية بالمعتقدات الدينية، كما لدى ماكس فيبر في "الأخلاق البروتستانية وروح المسيحية".

ويقوم تحليل فروم على أن الإيديولوجيات والحضارة بصفة عامة، كامنة في الشخصية الاجتماعية، وأن الشخصية الاجتماعية كما يؤكد، هي نفسها ممتزجة بنمط وجود مجتمع معين، وأن المعالم السائدة للشخصية، تصبح بدورها قوى إنتاج تشكل العملية الاجتماعية **(p.236)**. يحدد لنا فروم الاختلافات بين تفسيره النفسي الاجتماعي، وبين الأسس التي يقوم عليها التحليل النفسى **عند فرويد** في الآتي:

أ- المسألة البشرية باعتبارها مشروطة تاريخياً دون أن يقلل من دلالة العوامل البيولوجية التى تمثل الأساس عند فرويد.

ب- على حين أن المبدأ الجوهرى عند فرويد، هو أن الإنسان كذاتية نظام معلق، زودته الطبيعة بدوافع فسيولوجية، وبالتالى يفسر تطور شخصيته كرد فعل على الإشباعات والإحباطات الخاصة بهذه الدوافع، يقوم فهم فروم للشخصية الإنسانية على أساس

علاقة الإنسان بالعالم وبالآخرين والطبيعة، وأن الإنسان كائن اجتماعى. وعلى هذا فإن علم النفس الفردي، هو أساساً علم نفس اجتماعى.

ج- ميل فرويد انطلاقاً من اتجاهه الغريزي، وقوله بشريرية الطبيعة البشرية إلى تفسير جميع الدوافع المثالية في الإنسان، بإنها نتيجة شئ وضعت، بينما يعتقد فروم أن المثل: كالحق والعدل والحرية، يمكن أن تكون نوازع أصيلة، وأن أي تحليل لا يتناول هذه النوازع كعوامل دينامية هو تحليل مضلل. فالمثل عند فروم ليس لها أي طابع ميتافيزيقي، لكنها كامنة في ظروف الحياة الإنسانية.

د- التمييز بين الظواهر السيكولوجية الخاصة بالحاجة، وتلك المتعلقة بالوفرة، وما يترتب عليها من القول أن الأفعال الحرة، هي دائماً ظواهر وفرة بينما علم النفس عند فرويد هو علم نفس الحاجة.

ويوضح لنا **إبراهيم فتحي** في تقديمه الترجمة العربية لكتاب بول أ. روبنسون "**اليسار الفرويدي**" العلاقة بين فرويد الذي يميل تجاهه اليمين في نظرته للجماهير، وفروم الذي يمثل اليسار الفرويدي، رغم عدم ذكر روبنسون له في كتابه المشار إليه: فقد تمثل انحصار فرويد داخل مقولات التجربة البورجوازية في موقفه من الجماهير. وأن فرويد في كتابه "سيكولوجية الجمهور وتحليل الأنا"، يثني على الصور السيكولوجية الرائعة لذهن الجمهور، غرائز القطيع واحتياج الجماهير إلى ذكاء موجه أو مجموعة من العقول الذكية لإنقاذها من لا عقلانيتها وتحيزاتها. **فالجماهير عنده ترتبط بالرغبات اللاشعورية الشريرة مما يبرر القمع السياسى لهم. وأصحاب الحق في القمع عند فرويد، هم أفراد النخبة، الذين قاموا بقمع وسوسات اللاشعور الجماهيري داخل نفوسهم**(5).

وعند إبراهيم فتحي أن معظم الموالين لفرويد قد احتضنوا الجانب المحافظ من فلسفته التأملية، وعزفوا عن أن يطوروا نظريته الخاصة في اللاشعور والحياة الجنسية إلى نظرية عامة، تأخذ موضوعاً لها المدى الكامل للتجارب النفسية المكبوتة، وتطوير التحرير الجنسى إلى شكل عام للتحرير الإنسانى من خلال توسيع نطاق الوعي، والشعور. ومقابل هؤلاء كانت هناك مجموعة قليلة العدد تحاول تنمية ما اعتبرته الجانب الراديكالى في فكر فرويد بالاستعانة بآراء ماركس، من هذه المجموع:ة **فيلهام رايش**، الذي قدم تحليلاً نفسياً للإنسان والمجتمع والحضارة، انطلاقاً من مفاهيم اجتماعية

واقتصادية ماركسية، وأيضاً مُنظّرو **مدرسة فرانكفورت: هوركايهمر، وماركيوز، وأدرنو وأريك فروم** الذين أعادوا تفسير فرويد، لكي يطوروا طرقاً جديدة لفهم ظاهرة الاغتراب وفهم آليات الإيديولوجيات السائدة في السيطرة على الجماهيرية، كما في الفاشية والنازية وقد اعتبروا أن كبت الغرائز – كما تصفه نظرية فرويد – يقوم بتغريب البشر عن حالتهم الطبيعية، وقد يصير الكبت مبالغاً فيه ويجعل من الناس مرضى"(6).

لقد استخدموا مفاهيم التحليل النفسي لفهم الإيديولوجيات في المجتمع الرأسمالى الحديث، لتفسير لماذا تلتزم قطاعات كبيرة من المواطنين بمعتقدات سياسية معادية لمصالحهم الاقتصادية، مثل الوعي الزائف المتجسد في التأييد الكبير للنازية في ألمانيا، لقد شغل أريك فروم، وفرانز نيومان بتقديم دراسات حول النازية: "**الخوف من الحرية**" "**البهيموث**" **Behemoth**، وكرس ماركيوز اهتماماً كبير بالجذور الإيديولوجية للفاشية. لقد كان المشروع الجماعى لمعهد فرانكفورت كما يقول بول روبنسون يدور حول دراسة الوظيفة السياسية للأسرة الأوربية، ونشر تحت عنوان "دراسة حول السلطة والأسرة" **Studien Uber Autoritat und Familie**، وكان ذلك تمهيداً لدراسة أكثر شهرة عنوانها "الشخصية السلطوية"، نشرها أدرنو **1950**، وكانت الدراسة في مادتها تتعلق بالأسس السيكولوجية للسلطة. وكانت تستهدف تفسير انتصار السياسة السلطوية في أوربا إبّان الثلاثينيات(7). وفي هذا الإطار يأتي عمل فروم.

يثير **كتاب "الخوف من الحرية"**، قضايا جوهرية بالنسبة للإنسان المعاصر من منهج تحليلي نفسي اجتماعي. ويرى فروم: إن تحليل الجانب الإنسانى للحرية ولقوى النزعة التسلطية الشمولية، يقتضي النظر في مشكلة الدور الذي تلعبه القوى السيكولوجية كقوى نشطة في السيرورة الاجتماعية، مما يفضى إلى مشكلة تفاعل العوامل السيكولوجية والاقتصادية والإيديولوجية في السيرورة الاجتماعية. وهو يبرر ذلك بأن أيّ محاولة لفهم ما تمارسه الفاشية على الأمم الكبرى، يجبرنا على تبين دور العوامل السيكولوجية وذلك لأننا نتناول نظاماً سياسياً لا يستجيب في الجوهر للقوى العقلانية للمصلحة الذاتية، بل ينبعث ويحرك القوى الشيطانية في الإنسان، التي اعتقدنا أنها غير موجودة أو على الأقل انتهت منذ وقت طويل **(p.16)**. هذا ما يكتبه فروم في الفصل الأول من الفصول السبعة التى يتكون منها كتابه، والذي عنوانه "الحرية هل هي مشكلة سيكولوجية؟"، والذي يتابع فيه ويتجاوز فرويد ومنهجه حيث يرى – خلافاً لفرويد – إن

الظروف الفسيولوجية ليست هي الجانب الوحيد في طبيعة الإنسان، فهناك جانب أخر ضاغط بالمثل، وهو جانب ليس قائماً في العمليات الجسمانية، بل قائم في صميم الحالة الإنسانية وممارسة الحياة، ألا وهو الحاجة إلى **التعلق بالعالم خارج النفس، الحاجة إلى تجنب الوحدة**. ومن هنا، فإن الارتباط بالعالم مفضل أكثر للغاية من العزلة. يقول: "إن الدين والقومية، وكذلك أى عادة وأى معتقد مهما يكن هي ملاجئ مما يخشاه الإنسان أى خشية، ألا وهو العزلة. **(p.25)** ومن هنا يؤكد فروم على أن الطبيعة الإنسانية ليست محصلة كلية ثابتة ونظرية بيولوجية للدوافع، إنها كما يرى نتاج التطور الإنساني لديها ميكانيزمات معنية وقوانين معنية كامنة: ضرورة إشباع الدوافع المشروطة فسيولوجيا، وضرورة تجنب العزلة والجدة الخلفية. **(p. 26)**

وعلى هذا يتناول في الفصل الثانى من كتابه "بزوغ الفرد وضبابية الحرية"؛ الروابط الأولية التى تربط الإنسان بالعالم، وعوامل الخوف من الحرية وميكانيزمات الهرب منها؟، فالمسألة الأساسية هنا ماذا تعنى الحرية للإنسان الحديث ولماذا وكيف يحاول الهرب منها، **فالحرية تميز الوجود الإنساني كوجود إنساني، ومعناها يتغير حسب درجة وعي الإنسان، وتصوره لنفسه ككائن مستقل**. عندما يصبح الإنسان فرداً، فإنه يقف وحده، ويواجه العالم في كل جوانبه الحافلة بالخطر والمفرطة القوة. يقول موضحاً:

إذا كانت كل خطوة يخطوها الإنسان في اتجاه الاستقلال والفردية، يقابلها نمو للنفس، فإن تطور الطفل يكون تطوراً متناغماً. وعلى أى حال لا يحدث هذا. فبينما تحدث عملية الاصطباغ بالصبغة الفردية على نحو آلي، فإن نمو النفس يتعرقل لأسباب عديدة فردية واجتماعية. وتنتهى هذه الهوة بين هذين التيارين إلى شعور لا يطاق بالعزلة والعجز. وهذا يفضى بدوره إلى آليات نفسية توصف فيما بعد بأنها آليات أو ميكانيزمات الهروب. **(p.36)**، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالى: إذا لم تقدم الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي تعتمد عليها عملية الاصطباغ بالفردية بينما الناس في نفس الوقت قد فقدوا الروابط التى تمنحهم الأمان، فإن هذه الهوة تجعل الحرية عبئاً لا يطاق. إنها تصبح حينئذ متماثلة مع الشك، مع نوع من الحياة ينقصها المعنى والاتجاه، وتنشأ الاتجاهات القوية للهرب من هذا النوع من الحرية إلى الخضوع أو إلى نوع من العلاقة بين الإنسان والعالم تعد بتجفيف الزعزعة حتى لو حرمت الفرد

من حريته. (p. 40). وعلى هذا الأساس يبدأ في الفصل الثالث، بتناول "الحرية في عصر الإصلاح الديني"، ذلك لأنه فيما يرى أكثر تشابهاً مع الوضع المعاصر، أن حركة الإصلاح، هي جذر لفكرة الحرية الإنسانية، والذاتية الإنسانية كما هما ماثلتان في الديمقراطية الحديثة، فالتأكيد على **نذالة الطبيعة الإنسانية وعجز الفرد وضرورة أن يخضع لقوة خارج نفسه، هذا الجانب، وعن عدم جدارة الفرد وعجزه في الاعتماد على نفسه، وحاجته للخضوع، هي أيضاً فيما يرى فروم الأطروحة الرئيسية لإيديولوجيا** هتلر، التى تنقصها بطبيعة الحال التأكيد على الحرية والمبادئ الخلقية القائمة في البروتستانية. ويبين فروم في تحديده للخلفية التاريخية للعصور الوسطى وعصر النهضة، أن ما يميز المجتمع في العصور الوسطى عن المجتمع الحديث هو نقصه من الحرية الفردية. فبالرغم من أن الشخص لم يكن حراً بالمعنى الحديث، إلا أنه لم يكن وحيداً ومعزولاً. فقد جرى تصور النظام الاجتماعي كنظام طبيعي، ولما كان الإنسان جزءاً محدوداً منه، فقد منحه هذا شعوراً بالأمان والانتماء، يقول: "أن مجتمع العصور الوسطى لم يحرم الفرد من حريته، لأن "الفرد" لم يكن قد وجد بعد، فقد كان الإنسان لا يزال مرتبطاً بالعالم عن طريق الروابط الأولية. إنه لم يتصور نفسه بعد مفرداً إلا من خلال وسيط دوره الاجتماعي" (p. 45). ومن الواضح أن فروم بدأ بمناقشة عصر النهضة، ورجع إلى أن هذه الفترة هي بداية النزعة الفردية الحديثة، وهي تلقي الضوء على العوامل ذات الدلالة المرتبطة بمسألة بزوغ الإنسان من الوجود السابق على الفردية إلى وجود يكون فيه مدركاً كذاتية مستقلة، ومع هذا، فإن الجذور الجوهرية للرأسمالية الحديثة وبنائها الاقتصادي وروحها ما كان يمكن أن توجد في الحضارة الإيطالية للعصور الوسطى المتأخرة وفي الموقف الاقتصادى والاجتماعى لوسط وغرب أوربا وفي عقيدتى لوثر وكالفن. وهو يبين أن **البروتستانية والكالفنية** على حين أنهما تعبران عن شعور جديد بالحرية، فإنهما في الوقت نفسه تشكلان هرباً وخوفاً من حمل الحرية. ويبدأ بمناقشة الوضع الاقتصادي والاجتماعي في أوربا في بداية القرن السادس عشر، ثم يحلل التأثيرات التى كانت لها على شخصية البشر في هذه الفترة وعلاقة تعاليم لوثر وكالفن بهذه العوامل السيكولوجية وما هي علاقة هذه المعتقدات الدينية الجديدة بروح الرأسمالية. (p.52)

يخبرنا فروم أن علينا ونحن نحلل الدلالة الاجتماعية والسيكولوجية للعقائد الدينية،

أن نميز بين مسألتين الأول: دراسة تكوين طابع الفرد الذي يخلق معتقداً جديداً وأي المعالم في شخصيته، هي المسئولية عن هذا الاتجاه لتفكيره، والثانية دراسة الدوافع السيكولوجية للاحتياجات النفسية في شخصية أولئك الذين يتوجه إليهم المعتقد. وأنه كلما كانت الفكرة تستجيب لحاجات سيكولوجية قوية لجماعات اجتماعية معنية، فإنها تصبح قوة فعالة في التاريخ. وعلى هذا، فهو في تحليله للدلالة السيكولوجية لمعتقدى البروتستانية والكالفنية، لا يتجه لمناقشة شخصيتى **لوثر وكالفن**، بل الوضع السيكولوجي للطبقات الاجتماعية التي تتوجه إليها أفكارها. ويشير سريعاً إلى أن **(لوثر)** كشخص كان ممثلاً نمطياً للشخصية التسلطية"، يقول: "لقد كان ممتلئاً بشعور متطرف بالوحدة والعجز والتدني، وأيضاً ممتلئاً بشعور متطرف للسيطرة، لقد عذبته الشكوك وكان يبحث عن شئ يعطيه أماناً باطنياً. لقد **كان يكره "الآخرين، يكره نفسه، ويكره الحياة، ومن كل هذه الكراهية، جاء شوق انفعالى ويائس حتى يحب. وكان وجوده كله محاصراً بالخوف والشك والعزلة الباطنية**، وعلى هذا الأساس الشخصى كان عليه أن يصبح بطل الجماعات الاجتماعية التى كانت في وضع مماثل للغاية سيكولوجيا". **(p.61)**. ويؤكد فروم أن هذا **الحب للسلطة**، المصاحب للكراهية، ضد أولئك الذين لا حول لهم ولا قوة من المعالم النمطية "للشخصية التسلطية". يقول إنه "بينما حرر لوثر النفس من سلطة الكنيسة، فقد جعل الناس يخضعون لسلطة أكبر هي سلطة آلله يصر على خضوع الإنسان الكامل وفناء النفس الفردية كشرط ضرورى لخلاصه، لقد كان "إيمان" لوثر الاعتقاد بأنه يمكن **أن يحب، بشرط الاستسلام**، هو حل مشابه في الكثير مع مبدأ خضوع الفرد التام للدولة "والزعيم". **(p.70-72)**. إنّ تأكيده على عدمية الفرد مهد الطريق لتطور لا يكون فيه الإنسان خاضعاً فحسب للسلطات الدنيوية، بل عليه أيضاً أن يجعل حياته تابعة لأغراض الإنجازات الاقتصادية، وهذا التيار قد وصل إلى الذروة في التأكيد الفاشستى القائل **بأن هدف الحياة هو التضحية من أجل القوى "الأعلى" من أجل الزعيم أو الجماعة العنصرية". (p.73)**. وتحتوى **نظرية كالفن** في سبق التقدير تضميناً وجد إحياءه القومي للغاية في الإيديولوجية النازية، هو مبدأ عدم المساواة الرئيسي بين الناس.

يخلص فروم إلى أن المعتقدات الدينية الجديدة، كانت تلبية لاحتياجات نفسية ظهرت بسبب انهيار النظام الاجتماعى في العصور الوسطى وبدايات الرأسمالية، فالتطور

اللاحق للمجتمع الرأسمالي، قد أثر في الشخصية في الاتجاه الذي بدأ في فترة عهد الإصلاح، لقد أصبح الإنسان بمعتقدات البروتستانية مهيأ سيكولوجياً للدور الذي كان عليه أن يلعبه في ظل النظام الصناعي الحديث. لقد مهد لوثر وكالفن سيكولوجيا للإنسان لكى يقوم بالدور الذي عليه أن يقوم به في المجتمع لحديث، **الشعور بأن ذاته بلا معنى وباستعداده لجعل حياته تابعة تماماً للأغراض التى ليست أغراضه**. وبمجرد أن يصبح الإنسان مستعداً لأن يصبح فحسب وسيلة لعظمة إله لا يمثل العدالة ولا المحبة، يكون مستعداً بما فيه الكفاية لتقبل دور **خادم للآلة الاقتصادية**. وأخيراً يكون مستعداً لأن يكون فوهرر، ديكتاتور. **(p. 98)**

إن عدم التواصل والوحدة والخوف، فيما يرى فروم يجعل الناس لا يستطيعون أن يواصلوا تحمل عبء "التحرر" وهذا ما يجعلهم يحاولون أن يهربوا من الحرية كلها. والدروب الاجتماعية الرئيسية للهرب في زماننا، هي **الخضوع لزعيم**، كما حدث في الفاشية. يقول: "إننا في جهدنا للهرب من الوحدة والعجز، مستعدون لنتخلص من نفسنا الفردية بالخضوع لأشكال جديدة من السلطة. **(p.115)**

والذي يهمنا في السياق الحالي، تناول فروم **أساليب الهروب من الحرية** في الفصل الخامس. ويحددها لنا في ثلاث هى: النزعة التسلطية، التدميرية، امتثال الإنسان الآلي.

أساليب الهروب من الحرية:

1. النزعة التسلطية:

الميكانيزم الأول، هو **الميل إلى التخلى عن استقلال النفس الفردية ودمج النفس في شخص آخر للحصول على القوة التى تنقص النفس الفردية**. وأشد الأشكال المميز لهذا الميكانيزم نجدها في **الرغبة في الخضوع والهيمنة**، أى في الرغبات المازوكية والسادية الموجودة بدرجات متفاوتة في الأسوياء والعصابيين، وكلا هذين الميلين هرب من وحدة لا تطاق. إن أشد الأشكال تكراراً التى يذكرها فروم التى تظهر الرغبات المازوكية، هي **مشاعر الدونية، والعجز، واللاجدوى الفردية**. هؤلاء الأشخاص يظهرون ميلاً إلى التقليل من أنفسهم وإلى الخضوع لأوامر القوى الخارجية، وفي الغالب هم عاجزون تماماً عن معايشة شعور "أنا أريد" أو التحكم فيه والسيطرة عليه. وبجانب الميول المازوكية نجد الميول التى هي عكسها تماماً، ألا وهي الميول السادية، وتوجد

عادة في النوع نفسه من الأشخاص. ويميز فروم بين ثلاثة أنواع من الميول السادية مترابطة بشدة: الأول هو الذي يجعل الآخرين يعتمدون على المرء وتكون لهم قوة مطلقة غير مقيدة عليهم. والنوع الثانى لديه دافع ليس للسيطرة على الآخرين بل لاستغلالهم والسرقة منهم واستنزافهم. والثالث هو الرغبة في جعل الآخرين يعانون أو أن يروهم يعانون معاناة في الغالب تكون معاناة ذهنية، هدفها أن تؤذى الآخرين تماماً، وأن تذلهم، و**السادي يحتاج إلى الشخص الذي يتحكم فيه،** إنه يحتاج إليه لدرجة مميتة حيث أن شعوره بالقوة يتمثل في كونه أنه سيد إنسان ما.

ويطرح فروم، السؤال الرئيسي، ما هو جذر كل من الانحراف المازوكي ومعالم الشخصية المازوكية، ما هو الجذر المشترك لكلا الرغبات المازوكية والسادية؟. فكلا الرغبات المازوكية تميل إلى مساعدة الفرد على الهرب من شعوره الذي لا يطاق بالوحدة والعجز. "والرغبات المازوكية لها هدف واحد: هو التخلص من النفس الفردية، فقد النفس الفردية، بعبارة أخرى **التخلص من عبء الحرية**. وهذا الهدف واضح في تلك النزعات المازوكية، التي يبحث فيها الفرد عن الخضوع لشخص أو لقوة يشعر بأنه أو أنها ذات قوة هائلة مهيمنة". **(p. 128)**. كل الأشكال المختلفة **للسادية**، ترتد إلى دافع أساس واحد، ألا وهو **الحصول على سيادة كاملة على الشخص الآخر، وجعله موضوعاً عاجزاً لإرادتها، وكي تصبح الحاكم المطلق عليه وأن تتصرف معه كما تهوى**. إنّ إذلاله واستعباده، هما وسيلتان لهذه الغاية والهدف الأقصى هو جعله يعاني. حيث أنه **لا توجد قوة على شخص آخر، أقوى من بث الألم فيه، لإرغامه على المعاناة، دون أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه.**

يخبرنا فروم كحقيقة واقعة أنه بالنسبة للجانب الأكبر من الطبقة الوسطى الدنيا في ألمانيا والدول الأوربية الأخرى، تكون **الشخصية المازوكية السادية**، هي الشخصية النمطية، وأن هذا النوع من مكون الشخصية، هو الذي تتوجه إليه الإيديولوجيا الألمانية بأمر نداء. ويشير إلى أنه لما كان مصطلح "المازوكى السادي"، مقروناً بأفكار الانحراف والعصاب، فإنه حين يتحدث عن الشخصية المازوكية السادية عندما لا تكون عصابية بل سوية، يتحدث عنها على أنها **الشخصية التسلطية الاستبدادية**. وإطلاق اسم الشخصية التسلطية الاستبدادية على الشخصية المازوكية السادية مسألة مبررة، ذلك لأن الشخص المازوكي السادي، يتميز دائماً بموقفه نحو السلطة، أنه **يعجب بالسلطة، ويميل إلى**

الخضوع لها، وفي نفس الوقت يكون هو سلطة، ويمتلك آخرين، يخضعون له. ويضيف لنا فروم سبباً آخر لاختيار هذه التسمية هو أن النظام الفاشي يسمي نفسه نظاماً تسلطياً بسبب الدور السائد للسلطة في بنائه الاجتماعي السياسي، ومن هنا فهو يقصد بمصطلح "الشخصية التسلطية" أنها تمثل نسيج الشخصية الذي هو الأساس الإنساني للفاشية.**(p.136)**. ويلاحظ فروم أن السلطة بدل من أن تختفي قد جعلت نفسها خفية، فبدلاً من السلطة الواضحة تسود السلطة المجهولة. ويبدو أنها لا تستخدم أى ضغط بل الإغراء المعتدل.

أن الصفة المشتركة في كل التفكير التسلطى هو القناعة بأن الحياة محددة بقوى خارج نفس الإنسان وخارج مصلحته ورغباته، وتكمن السعادة الوحيدة الممكنة في الخضوع لتلك القوى وعجز الإنسان هو اللحن الأساسى في الفلسفة المازوكية **(p.141-142)**

2. التدميرية:

والميكانيزم الثانى للهروب من الحرية هو التدميرية. إنّ هدف التدميرية هو **استئصال موضوعها**، أنها كامنة في عدم القدرة على تحمل العجز والعزلة الفردية. فأنا أستطيع أن أهرب من الشعور بعجزى إزاء العالم، الذي هو خارجي بتدميره. والدوافع التدميرية، هي هوى في داخل الشخص، وهي تنجح دائماً أن تجد موضوعاً فإذا لم يستطع الأشخاص الآخرون أن يصبحوا موضوع تدميرية الفرد، لأى سبب كان، فإن نفسه تصبح بسهولة الموضوع. التدميرية هي نتاج الحياة غير المعيشة. إن تلك الظروف الفردية والاجتماعية التى تسهم في كبح الحياة تنتج انفعالاً للتدمير يشكل خزاناً تتغذى منه.الميول العدوانية الخاصة إما **ضد الآخرين، أو ضد النفس**. وتعد التدميرية لدى الطبقة الوسطى الدنيا عند ايريك فروم عاملاً هاماً في نشأة النازية التى استجابت لهذه النزعات التدميرية واستخدمتها في المعركة ضد أعدائها. **(p.151)**

3. امتثال الإنسان الآلي:

يتغلب الفرد في الميكانيزمات السابقة على الشعور باللامعنى بالمقارنة مع القوة المهيمنة للعالم الخارجى إما عن طريق التنازل عن تكامله الفردى أو عن طريق تدمير

الآخرين، وذلك حتى يكف العالم عن توجيه التهديد أو الانسحاب من العالم بدرجة كاملة حتى أن العالم يفقد تهديده، وتتضخم النفس سيكولوجيا لدرجة تجعل العالم الخارجي يصبح صغيراً. وبالرغم من أن هذه الميكانيزمات للهرب مهمة بالنسبة لعلم النفس الفردي، إلا أن أهميتها العامة الاجتماعية والسياسية أهمية ثانوية لذا يتوقف فروم أمام ميكانيزم آخر أكثر أهمية من الناحية الاجتماعية هو ما يطلق عليه امتثال الإنسان الآلي.

يكف الفرد في هذا الميكانيزم عن أن يصبح نفسه، حيث يعتنق نوعاً من الشخصية المقدم له من جانب النماذج الحضارية، حيث **يصبح مثل الآخرين**، وكما يتوقعون منه أنْ يكون. هنا الهوة بين "الأنا" والعالم تختفي ويختفي معها الخوف الشعوري بالوحدة والعجز. والشخص الذي يتنازل عن نفسه الفردية، ويصبح آلة متطابقاً مع ملايين الآخرين من الآلات المحيطة به، لا يحتاج إلى أن يشعر بأنه وحده، قلق، بعد هذا أن الثمن الذي يدفعه غاليا، إنه **فقدان نفسه**.

إن اصطباغ الفرد بصبغة آلية في المجتمع الحديث، قد زاد من عجز وزعزعة الفرد المتوسط وصار مستعداً للخضوع لسلطات جديدة تقدم له الأمان والتخفف من الشك. ويتابع فروم في الفصل الأخير من كتابه، بحث هذه الآلية في الديمقراطية المعاصرة، بينما يتناول في الفصل السادس الميكانيزم التسلطي في النازية.

* * *

يناقش فروم سيكولوجية النازية عبر مشكلتين: تكوين شخصية هؤلاء الذين توجهت إليهم النازية بالنداء، والخصائص السيكولوجية للإيديولوجية التى جعلت من النازية أداة فعالة بالنسبة لهؤلاء الناس. ويرى أن الاستعداد للخضوع للنازية يرجع أساساً إلى حالة من السلم والاستسلام الباطنين، الذين هما ما يميز الفرد في الفترة الراهنة. **(p.170)** ويشير إلى محرك هام لولاء غالبية السكان للحكم النازي، الذي أصبح ذا فاعلية بعد وصول هتلر إلى الحكم. يقول: "بالنسبة لملايين السكان أصبح هناك تطابق بين حكم هتلر و"ألمانيا". وبمجرد أن أمسك هتلر بزمام الحكم حتى اعتبر أن القتال ضده يعني انعزال المرء عن مجتمع الألمان. **وعندما ألغيت الأحزاب السياسية الأخرى، و "أصبح الحزب النازي هو ألمانيا، أصبحت المعارضة له، تعني المعارضة لألمانيا" (p.171).** وبالطبع ليس أشق على الإنسان العادى من أن يتحمل الشعور بأنه ليس متوحداً مع جماعة أكبر. ومن هنا، فإن الخوف من العزلة والضعف النسبى للمبادئ الخلقية يساعدان

الحزب على كسب ولاء قطاع كبير من السكان، إذا ما استولى هذا الحزب على سلطة الدولة. وينبه فروم على أن شعور الطبقة الوسطى بالعجز والقلق والعزلة من الكل الاجتماعى والتدميرية الناجمة عن هذا الموقف ليست المصدر الوحيد للنازية. ولم تكن تلك الظروف هي "علة" النازية، لقد شكلت أساسها الإنسانى الذي بدونه ما كان لها أن تقدر على التطور، لكن أى تحليل لظاهرة نشأة النازية، يقتضي تناول الظروف الاقتصادية والسياسية وكذلك السيكولوجية. ويشير فروم إلى أن شخصية هتلر وتعاليمه والنظام النازي معه، إنما تعبر عن شكل متطرف من تكوين الشخصية التسلطية، وأنه بهذا استطاع أن يوجه نداء حاراً لذلك الجانب من السكان الذي هو نفسه مكون الشخصية بشكل أو بأخر، يقول "إن **حب القوى، وكراهية الضعيف**، اللذين يشكلان خاصة الشخصية المازوكية – السادية، يفسران قدْراً كبيراً من أعمال هتلر وأتباعه. **(p.186)**

وبعد تتبع تحليل فروم لظاهرة الخوف من الحرية التى أشار فيها إلى وجود عوامل معينة في النظام الصناعى الحديث بصفة عامة، وفي مرحلته الاحتكارية بصفة خاصة، قد أسهمت في تطور شخصية تشعر بالعجز والوحدة والقلق والزعزعة، حيث بحث الظروف الخاصة في ألمانيا التى جعلت جانباً من سكانها أرضاً خصبة للإيديولوجية، وتطبيقاً سياسياً يتجهان إلى الشخصية التسلطية، فإنه وهذا هو المهم يتبين نفس الخطر في الديمقراطية، يقول: "بالرغم من أن تهديدات الفاشية الخارجية والداخلية يجب النظر إليها بجد، فإنه لا يوجد خطأ أكبر ولا أشد من ألا نتبين أننا نواجه في مجتمعنا الظاهرة نفسها التى هي التربة الخصبة للفاشية في أى مكان لا جدوى الفرد وعجزه" **(p.195)**

لقد أوضح فروم أن هذا العجز يفضي إلى نوع من الهروب، نجده في الشخصية التسلطية أو يفضى إلى تطابق اضطراري في العملية التى يصبح فيها الفرد المنعزل آلة ويفقد نفسه، وفي الوقت نفسه يتصور نفسه شعورياً أنه حر ولا يخضع إلا لنفسه، وعلى هذا يطرح السؤال عن **معنى حرية الإنسان الحديث**. وفي نقاط محددة نستطيع أن نفهم وضعية الإنسان الحديث هى:

- عجز وزعزعة الفرد المنعزل الذي أصبح متحرراً من جميع الروابط التى كانت تعطي معنى للحياة وآمناً.
- الفرد لا يستطيع أن يتحمل هذه العزلة، فهو كائن منعزل عاجز تماماً بالمقارنة مع العالم خارجه، ومن ثم فهو خائف منه حتى الأعماق.

- وبسبب عزلته فإن وحدة العالم قد تخطت بالنسبة له، وفقد كل نقطة توجيه، لهذا قهرته الشكوك حول نفسه ومعنى الحياة وأى مبدأ يستطيع به أن يوجه أفعاله.
- إن اليأس والشك أشلا الحياة. والإنسان لكي يحيا حاول أن يهرب من الحرية. ولقد أنساق إلى قيد جديد، مختلف عن الروابط الأولية.
- والهروب لم يستعد له أمانه المفقود، وكل ما ساعده به هو **نسيان نفسه كذاتية مستقلة**. لقد اختار أن يفقد نفسه لأنه لا يستطيع أن يتحمل أن يعيش وحيداً. وهكذا فإن الحرية باعتبارها تحرراً قد أفضت به إلى قيد جديد.

إن مستقبل الديمقراطية، إنما يتوقف على **تحقق النزعة الفردية** التى ظلت الهدف الأيديولوجى للفكر الحديث منذ عصر النهضة. إن الأزمة الحضارية والسياسية في أيامنا هذه لا ترجع إلى أن هناك إفراطاً في النزعة الفردية بل ترجع كما يقول إلى ما نعتقد أنه نزعة فردية قد أصبحت قوقعة فارغة. إن انتصار الحرية ليس ممكناً إلا إذا تطورت الديمقراطية إلى مجتمع فيه يكون نمو وسعادة الفرد هما هدف وغرض الحضارة، وفيه لا تحتاج الحياة إلى تبرير للنجاح أو أي شيء آخر، وفيه لا يكون الفرد تابعاً ومستغلاً من جانب أى قوة خارجية سواء كانت الدولة أو الجهاز الاقتصادي. إن التقدم في الديمقراطية يكمن في تعزيز الحرية الفعلية والمبادرة وتلقائية الفرد، لا في المسائل الخاصة والروحية فحسب، بل فوق كل شئ في النشاط الأساسي عند كل شئ في النشاط الأساسى عند كل إنسان، ألا وهو عمله. وإن التغلب على جميع أنواع الأنظمة التسلطية لن يكون ممكناً إلا إذا لم تتقهقر الديمقراطية بل تنطلق إلى تحقيق ما كان هدفها في عقول أولئك الذين حاربوا من أجل الحرية طوال القرون الماضية. إنها سوف تنتصر على قوى العدمية، إذا استطاعت فحسب أن تثبت في الناس إيماناً هو أقوى ما يقدر عليه العقل الإنساني، الإيمان بالحياة والحق والحرية باعتبارها التحقق الفعال والتلقائى للنفس الفردية.

ومن هنا تجد ذلك الهجوم الذي تعرض له فروم في دراسة ف. دوبرينكوف "الفرويديون الجدد"[8]. لقد أهمل روبنسون تحليلات فروم، ومساهمة دوبرنيكوف لتحليلاته النفسية الاجتماعية للشخصية التسلطية، ألا يعد هذا نفسه هو الخوف من الحرية؟.

الهوامش والملاحظات

1 – أنظر عن أريك فروم في العربية ترجماته المختلفة.

2 – الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1972 دار الكلمة، القاهرة 2003.

– في الحب، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، الأنجلو المصرية ط2 القاهرة 1980.

– الدين والتحليل النفسي ترجمة فؤاد كامل دار قباء ط2 القاهرة.

– الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة، الكويت العدد 140 أغسطس 1989.

وعنه راجع دراسة د. حسن حماد: الإنسان المغترب عند أريك فروم، مكتبة دار الكلمة، القاهرة 2005.

3 – أريك فروم، الخوف من الحرية، سنشير في المتن إلى أرقام الصفحة المستشهد بها من الطبعة الثانية للكتاب.

3 – انظر دراسة فروم **Urber Methode und Aufgabe einer analgtischen sozial paychologie**

وأيضاً كتابه: الإنسان في نظر ماركس.

4 – راجع الخوف من الحرية، الملحق صفحات 232 – 235.

5 – إبراهيم فتحي، تقديم الترجمة العربية لكتاب بول أ. ربنسون: اليسار الفرويدي، ترجمة عبده الريس، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 2005 ص15.

6 – المرجع السابق ص12.

7 – بول أ. ربنسون: اليسار الفرويدى ص 136-137.

8 – ف. دوبرنيكوف: الفرويديون الجدد، ترجمة محمد يونس، دار الفارابى، بيروت 1988.

استبطان الخوف كعادة!

محمد نعيم فرحات

جامعة بيت لحم، فلسطين

1. مفهوم الخوف: أبعاد وعناصر في التعريف:

سيظل الخوف في حقيقته وكيفية عيش البشر أو فهمهم له أو إحساسهم به، أوسع من أي تعريف نظري يمكن الإشارة له أو التوصل إليه، طالما كان المفهوم "انتقائيا في جوهره، وإن مجموع المفاهيم وبالتالي الانتقاءات، لن تعادل أبداً جملة الواقع"[1]. إلا أن من متطلبات التطرق للموضوع، أن يجري عرض لبعض التعريفات التي تناولت الخوف[2]. سنجد رابطاً ما بين مضامينها وما بين محاور وأفكار هذه الورقة التي تحاول بناءَ عناصر وأبعاد متعددة في مفهوم الخوف، على أساس تدبر الأمر، متأثرة بمقاربات مختلفة دون الاعتماد على مقاربة بعينها.

وفي هذا السياق يمكن التوقف عند الخوف كعنصر أصيل ومحوري في سيرورة الحياة الإنسانية وتكوينها وكذلك في بنياتها المختلفة، ويمكن الإشارة منذ البداية بأن تناول الخوف يجري هنا من خلال صلته بالبنية. والخوف مرئياً من هذا المنظور هو قوة حقيقية لا تقع فوق الكائن الإنساني بل في صميمه. إنها تولد فيه ومعه، وتفصح عن نفسها وتترعرع في أرجاء حياته وتحيط به من كل جانب، كما يمكن أن تتبدد على نحو أو آخر أو تتغير معانيها ووظائفها وأشكالها، ومثلما هي قابلة للتصعيد في سياق ما فإنها قابلة للعقلنة في سياق آخر. كما أنها موضوع تتراكم فيه الخبرات.

وفي هذا النحو الذي يرى الخوف كعنصر وكحالة أصيلة في تكوين ومسار الوجود الإنساني، يمكن تخيل الخوف كبعد في ثنايا الانبثاق العظيم لحظة خلق آدم (عليه السلام) وما تلاها. كما يمكن تخيل حجم الخوف والتردد والقلق الذي انتاب آدم، قبل وعندما وبعد، أن مد يده إلى الشجرة بدليل إمعان الغواية وإغراء الاستكشاف (في سياق ما قدره الله سبحانه)، والتي أفضت لقيامه بخطوته الحاسمة نحو الخطيئة، التي ترتب عنها الحياة الدنيا المعيشة. إنها لحظة مثيرة حقا، لأنّ آدم الذي ولد بخوفه انتهج سلوك المخالفة والمعاندة، ولم يكن بمقدور التخوف والتحسب لهول المتوقع عن القيام بالمحظور أن

يمنعه من المضي بالمخالفة حتى منتهاها، وأين.. ؟ في كنف خالقه وربه!!! وفي جنة عدن؟!، التي صممت خصيصاً له، ورغم ذلك لم يستجب للتحذير والنذير فنال النفي والكبد جزاءً وفاقا بسبب **واقعة الشجرة**. إن هول الدلالة هنا(بخصوص علاقة الإنسان بالخوف وفرضيتي الامتثال له أو معاندته) يفيض عن أي قدرة للوصف!!!!!.

كما يمكن التأمل في لحظة أخرى دالة هي **مشهد قابيل وهابيل**، وهنا فإن واحدة من التساؤلات التي ينبغي الوقوف أمامها: هل نستطيع استبعاد الخوف عند القاتل والمقتول معاً، في نزوع الامتلاك الذي انبثق منهما ونجم عنه قيام الشقيق بسفك دم شقيقه؟!! الا يمكن توقع **خوف القاتل من نفسه** ومما فعل و(من) و(على) شقيقه المقتول بيديه؟!. ثم إلى ماذا تقودنا موعظة الدفن وإيداع الجسد في الثرى، والحيرة التي سبقت أسئلة قابيل بينما كان يقف إزاء جثة شقيقه الذي قتله؟! المشهد هنا لا يتيح أي استبعاد للخوف أو التساؤلات المخيفة، وكذلك الأمر بخصوص الدلالات المبنية عن حادث السفك الأول.

إن هذا التأمّل في رؤية الخوف لا ينطلق من الاعتراف به كجزء من الفطرة فقط، بل يرغب في الإشارة إليه كعنصر مهم في سياقات المسار الإنساني وأحداثه التكوينية الدالة. وهو تأمّل يرى الخوف أيضاً كصيرورة عظمى في تاريخ الوجود والناس. صيرورة امتلكت قدرات جبارة على إعادة تجديد وتشكيل نفسها، وفي هذا المستوى المبكر يمكن المجازفة بالقول، إن الخوف هو من أعتى عادات الناس حضوراً (بالمعنى النسبي طبعاً). كما أن الخوف بنية فاضت وأنتجت نقيضها بدليل حجم حضورها في تحريك التاريخ نحو الاستسلام للخوف أو مجابهته ومقاومته والخروج على إكراهاته والتمرد عليه. وهنا يتعين الإشارة **إلى أهمية مقاربة الخوف كبنية تحمل نقيضها** بدليل التاريخ والأمثلة التي يقدمها في هذا الخصوص.

وبالمعنى السوسيولوجي، فإن الخوف ظاهرة إنسانية وثقافية واجتماعية وتاريخية أساسية. وهنا يمكن استنتاج الأبعاد الكبرى المُشكلة لهذه الظاهرة: النفسي والثقافي والاجتماعي، وما يترتب عن تفاعلها من اشتباكات ومشاركات مع أبعاد وعناصر أخرى، أو توليد لأوضاع وبنيات، أو المساهمة في ذلك، وما تفضي اليه من آثار وتداعيات ووظائف وتوظيفات تمس وتشمل كل المستويات: من النفسي حتى الوجودي.

وإذا كان الخوف ووجوده ومعانيه وأبعاده الآنفة أمراً لا يحتاج إلى تدليل، فإن فهم وتفسير السياقات والأبنية التي تصون الخوف وتُنميه وتنتجه في حياة الناس أو تعقلنه أو

تحوله إلى نقيضه، هي التي تملي جهوداً نظرية ومنهجية لفهم ما يثيره الموضوع من مسائل وإشكالات وتساؤلات ومحاولات لتفسيره، أي أنّ الأمر يتطلب هنا ربط الخوف كحالة وظاهرة بالبنية التي أنتجته وصعدته وحولته إلى فكرة وممارسات لها آليات ومؤسسات وأرغمت الناس (الذين ينطوون على انقياد بطبعهم) على التعايش مع الخوف والعيش به واستبطانه وتحويله إلى عادة (ودائماً) بالمعنى النسبي. ولكن قبل الدخول إلى هذا المستوى من التطرق، يتعين الإشارة بصورة مشددة إلى ثلاثة أمور، **الأول:** إن رؤية الخوف هنا لا تغفل أو تتجاوز بأي حال أبعاده ووظائفه الايجابية والأدوار العظيمة، التي يؤديها في التاريخ، جنباً إلى جنب مع أبعاده ووظائفه ومعانيه وأدواره السلبية والمروعة. وإن أي تطرق حقيقي للخوف يجب أن يأخذ البعدين معاً. **والثاني:** ثمة اختلاف رهيف ودال بين الخوف من جهة ومفردات مثل التخوف والتحسب.... إن هذه الفروق مهمة سواء على صعيد المعنى أو الوظيفة، ورغم اشتراك التخوف والتحسب وغيرها مع الخوف في مساحات مهمة، إلا أن أخذ هذه الفروق بعين الاعتبار مسألة تستوجب الانتباه. أما الأمر **الثالث:** فيرتبط بأهمية استحضار العنصر الأكثر أهمية في تعريف الخوف، والمقصود هنا بالضبط "الشجاعة" باعتبارها نقيض الخوف أو يمكن الاتفاق على أنها كذلك.

2. الخوف كحالة، والبنية كإطار أو علاقة التوليد...!!؟

2. 1: في ضوء ما جرى التمهيد له آنفاً، والاتفاق المبدئي على أن الخوف قوة موجودة في الوراثي والمكتسب وسيرورة الحياة البشرية وليس قوة هائمة، فإن ذلك يعني ارتباطها ببنى ما. وحيث أن التاريخ بما يتضمنه من حقائق وأوهام وخيالات وصدف وحظوظ وسوء طالع، ووقائع وخوف وجبن وشجاعة وبطولة ومقاومات، هو حصيلة عمل أبنية معينة بالذات، فإن للخوف ما يمكن وصفه "بشجرة عائلة" داخل البنى الاجتماعية والنفسية والتاريخية للمجتمعات.

إن هذا التصور يضع الوجود في نطاق النظام الإلهي بكليته وشموله ومطلقاته. وداخل هذا النظام. ووفق المنظور الإلهي نفسه هناك نسقان أساسيان لهما خصائص وسمات موضوعية هما: **النسق الطبيعي** بما ينطوي عليه من حقائق ملموسة وقوانين

وقوى وما يثيره من غموض وتساؤلات وعظمه وخوف. و**النسق التاريخي** وهو ببساطة ما يفعله الناس ويصنعونه.

وفي نطاق هذا المنظور وتداخلاته واشتباكاته، فإن قراءة الديانات السماوية كرؤية ترتبط بالناس والأرض وما تضمنته من رسم لدروب الخلاص والتطمين لبني البشر ووضع المستقرات هناك في الحياة الأخرى الموعودة وسماوات العلا، ما كان يمكن لوعدها العظيم لهم (المشروط بمدى امتثال الناس لمتطلباتها في ممارساتهم الدنيوية) ألا يكون مرفوقاً بالوعيد إن هم عَصَوا أو لم يمتثلوا، وعيد كان يرمي لتحذير الناس وتخويفهم ونقلهم من تخوم أو حيز الضلال والمخالفة والمعاندة والكَبَد والخطيئة إلى حيز الوعد العظيم ومكافآته. وإن من الخصوصيات المميزة لهذا الوعيد (المتضمن للخوف والهول والتخويف والتحذير والتهديد)، أنه في علاقة تلازم وتجادل وتوالد مع الوعد.كما أن **مقاصد الوعيد هنا ووظيفتة هي في خدمة الوعد**. هذا بالاضافة إلى أنه وعيد مفتوح على أفق من التوبات والتسامح والغفران والأمن والطمأنينة الأبدية.

...وتنطوي رؤية السماء في صورتها المعيارية كما تضمنتها النصوص على إمكانية خلابة لمقاربتها من خلال **أطروحة "الوعد والوعيد"**، التي تكشف عما تستبطنه من خير وخوف في الدنيا والأخرة، ولا يمس جوهر وأصالة هذه الرؤية. تأويلات أو ممارسات تاريخية أعطاها البشر للوعد والوعيد لم تكن متفقة مع مقاصدها ومعانيها الأصلية، خصوصاً جهة استحضار السماء لتشريع الهيمنات الإنسانية في الأرض أو تحويلها لمصدر خوف مرعب جراء قراءات وتأويلات معينة بالذات، وفي هذا الصدد نستطيع الوقوف إزاء موروث هائل من هذه التأويلات والتوظيفات المنحرفة لمنطق السماء ورؤيتها، (وتمثل "إسرائيل" وأيضا البعد الرسالي للهيمنة الأمريكية، نماذج تحليلية معاصرة في هذا الصدد،وكذلك الديكتاتوريات التي توظف الدين بعيدا عن مقاصده العالية). لقد جرى بقصد وعناد أو بغفلة وجهل، **تحويل الخوف من السماء إلى أيديولوجية وثقافة** في قراءات لها أطراف وحاملون ليسوا قليلي الشأن في التاريخ. ويشير الأمر فيما يشير لهول المعاندة والإفك الذي ينطوي عليه بشر لم يتورعوا عن إدماج السماء على نحو غاشم ومخيف لتكريس هيمناتهم في الأرض واستمرارها في ترويع الناس.

2. 2: وفي مستوى أقل تجريداً، فإن **الوجود "كبنية" في بعده (الطبيعي والماورائي)** يتضمن الأمن والخوف، الطمأنينة والرعب، المنح والأخذ، والحياة فيه تبدو كهبة عظيمة، إلا أنها غير متواطئة مع رغبة الناس في عيشها بدليل ما فيها من كبد وتعب وقلق وخوف ورعب وموت، وجميعها حالات تقيم في صلب كل أشكال التحقق والحضور الإنساني، سواءً أكانت هذة الأشكال عظيمة أم منحطة، وفي سياق سعي الإنسان الدؤوب لامتلاك نفسه وعالمه ومصيره سيجد هناك امتلاءه المنقوص دائماً بثمن الزعزعات والخوف والقلق المستدام. ويُروِعه مثول الموت كحقيقة مطلقة وحيدة في حياته. حقيقة تنمو في ثناياه منذ الولادة ويقطع نحوها كل يوم مقدار 24 ساعة. الموت بما يتضمنه من أسئلة وزعزعات وخوف وما يمثله من مصير لا راد له ....!!!!

إلى هنا جرت الإشارة لبنيتين خارقتين بكل المعاني، هما **بنية "السماء" وبنية "الطبيعة/ الوجود"** من منظور الخوف. غير أننا من الآن فصاعداً سنتوقف عند بنيتين تاريخيتين تستبطنان كلاً على نحوها "السماء" و "الوجود" أيضاً في منظومة قيمها ورؤياتها وتأويلاتها، هما بنية "الثقافة" وبنية "الدولة" . وإن الإشارات التي سترد بشأنهما تتمثل السياق العربي على سبيل التحديد وليس الحصر.

....إن أهمية هاتين البنيتين تنبع من كونهما وسطاً يتحرك فيه الناس ويتأثرون بهما بقوة وتنبع من كونهما أيضاً "بنى تعطي للعالم بنيته "بتأويل قول بيير بورديو بخصوص "اللغة". كما أنهما تشكلان في حياة الأفراد والجماعات قدراً لا يمكن تفاديه. وهما بنيتان مشغولتان بالهيكلة والقولبة والتأهيل والضبط، ولهما آليات منظمة وقيم ومُثل ووظائف وممارسات وخطابات. وأخيراً، فإنهما بنيتان تؤثران على نحو جوهري (كي لا نقول على نحو حاسم) في التاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري والنفسي للمجتمعات، أي، في أبعاد التاريخ الأكثر ملموسيةً.

...وترد الثقافة هنا بما هي "مجموعة (من العناصر) لها علاقة بطرق التفكير والشعور والسلوك، وهذه الطرق صيغت في قواعد واضحة نوعاً ما، يكتسبها جمع من الأشخاص ويتعلمونها ويشاركون فيها، وتستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معاً، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة"(3) ويضيف غي روشيه بأن "الثقافة تبدو وكأنها عالم عقلي أخلاقي رمزي مشترك بين الناس. وبفعل هذا العالم

يستطيع الأشخاص أن يتصلوا فيما بينهم ويقروا بالروابط التي تشدهم بعضهم إلى بعض وبالقيود والمصالح المشتركة وبالاختلاف أو التعارض.[4]

إن هذا التعريف الذي يبدو وصفياً ويشير إلى الثقافة بليونة وكأنها حقل توافقت عليه جماعة من الناس ويوحي بالعناصر التعريفية للثقافة، يضمر أو يُفترض أن يضمر الجانب الإكراهي والإرهابي للثقافة، حيث أن كل ثقافة تتضمن بعداً إرهابياً بالضرورة. وهذا ما يمكن أن نلمسه في وظائف الثقافة وممارستها وتمثلات الناس لها: وتحديداً في عملها على تكييف وتأهيل الفرد وتحويله من عضوية بيولوجية إلى كائن اجتماعي وفق منظورها، وهيكلة الناس وفق رؤياتها ومعاييرها وقيمها، بما يترتب عن ذلك من أثمان تتنافر أو تتعارض أو تتناقص مع الفهم المطلق للحرية الإنسانية.

...وهنا ندخل إلى قلب وظيفة الثقافة وبلغة غي روشيه إلى القولبة، حيث تؤدي "الثقافة إلى قولبة الشخصيات الفردية... وأي ثقافة هي في الواقع نوع من القالب... وهذا القالب يعرض على (الناس)، أو يقدم لهم نماذج من التفكير ومن المعارف ومن الأفكار وقنوات مفضلة للتعبير عن العواطف أو وسائل لإشباع أو لإثارة الحاجات الفسيولوجية[5]. في هذا النحو قد نستنتج بأن الثقافة هي قوة اقتراح وهذا صحيح إلى حد ما، ولكنها في جوهرها قوة تقرير وإرغام وتحديد لهويات ومصائر وهذا أصح وأشمل. وبما هي كذلك، فليس من الممكن أن تحقق أغراضها ووظائفها بمعزل عن قيم وممارسات الامتثال والإخضاع، حتى وهي قوة اقتراح.إن الخوف يقوم في صلبها كمقتضى لا يمكن تفاديه. وطالما أن عملية التنشئة الاجتماعية -بما هي "الصيرورة التي يكتسب الشخص عن طريقها ويستبطن طوال حياته العناصر الاجتماعية– الثقافية السائدة في محيطه ويدخلها إلى بناء شخصيته وذلك بتأثير من التجارب والعوامل الاجتماعية ذات الدلالة والمعنى")[6]، هي عملية مركبة ودؤوبة تتولاها مؤسسات الضبط وتتحول بفعلها الثقافة إلى تعلم وتعاليم وسلطة مستبطنة باستخدام ميكانزمات الإغراء والاعتراف أو الضغط والإكراه وتتوسل العنف الرمزي والمادي،فإن الخوف والتخويف يصبحان بحكم الضرورة .

...في سياق هذا التطرق نعثر على الأصل البنيوي والوظيفي للخوف في إحدى أهم البنى والأطر التي تنتجه وتتضمنه: أي في الثقافة وعملياتها ومضامينها ووظائفها. ولا ينطوي الأمر على مجازفة فيما لو قلنا بأن كل ثقافة تتضمن توجهاً إكراهياً ذا صبغة

عنفية وإرهابية، وأن الفروق بين ثقافة وأخرى بهذا الخصوص تكمن في الدرجة والسياقات والمجالات والوظائف والأهداف. فيما تؤكد كل ثقافة على الخوف كقيمة وكمرتكز في ممارستها يجعل من الخوف منتوجاً ثقافياً يجد آليات متعددة لاستبطانه وتحوله إلى عادة (بالمعنى النسبي).

2. 3: أما في **مستوى الدولة كبنية**، وهي بكل حال ليست منفصلة أو منعزلةً عن المستوى السابق، طالما أن كل دولة تصوغ تصوراً أيديولوجياً وثقافياً انتقائياً وتأويلاً خاصاً بها بشأن التاريخ الجماعي والذاكرة والرموز والواقع والمشكلات والمسموح والممنوع والفضيلة والإثم والأسئلة والحلول..... والمصير. وبالتالي فإن الكشف عن قيمة الخوف وحجم حضورها في إيديولوجية الدولة ورؤيتها وممارستها ووظائفها قد لا يحتاج (أحياناً) سوى لجهد وصفي. إن "فكرة الدولة والدولة كفكرة" تقوم أساساً على منطق الجبر والخوف والغلبة. إن الخوف هنا يتحول إلى منظومة من الممارسات وشرط ومقتضى لقيام الدولة واستمرارها.

وطالما أن منطق الدولة هو "منطق القهر والغلبة" كما يقول ابن خلدون[7]، وهي "مشغولة بأخلاق المسؤولية وليس مسؤولية الأخلاق" كما يقول ماكس فيبر. وأنها "مجموعة من القواعد الملزمة" كما يقول جورج بوردو[8]، أو "مجموعة أدوات تنظيمية وقمعية" كما يقول عبد الله العروي[9]، أو "إله فانٍ " كما يقول توماس هوبس، فإن الخوف بالنسبة لها يصبح قدراً تسوقه للآخرين، وتصبح علاقة الدولة بالخوف مثل علاقة الشيء بمقتضاه، ولكن السؤال يظل دائماً ما هي وظيفة الخوف بالنسبة لها، وإن الإجابة عن هذا السؤال تعتبر عنصراً جوهرياً في تحديد هوية ووظيفة الخوف الذي تستخدمه الدولة وذلك من خلال العنف الذي تمارسه وماهيته وأغراضه والقواعد المنظمة له.

وحسب جورج بوردو، فإن "السلطة تتجذر في المجتمع، بما أنها لصيقة بالبنية السياسية التي بدونها ينتفي وجوده[10]. إن المنطق في أول مستوياته يفضي بنا لاستنتاج قيام الإكراه والخوف في صلب السلطة التي لا توجد جماعة بدونها، كما يقرر الواقع قبل المفكرين. وعليه فإن العنف والغلبة بالرعب أو بالسيف تحت عناوين الغايات تشكل أساس كل سلطة داخل كل الجماعات من الأسرة وحتى...... الدولة.

... ويتحالف إنتاج **الخوف الكامن في صلب منطق الدولة وخطاباتها وممارساتها، مع الإذعان الغريزي والمكتسب الكامن في نفوس الناس**. يقول بوردو "إن ما يحمله

الإنسان في ذهنه (من) حركة تدفعه للتصور والتجريد وطاقة عقلية تسمح له بأن يحب دون أن يرى وأن يؤمن دون أن يلمس، وأن يطيع نظاماً معيناً لا يلجأ إلى السوط، وإذا لم يتمكن من تحاشي الضرب، فهو على الأقل يريد ألا ينظر إلى القضيب، في هذا المستوى العالي من التفكير يقع تأسيس السلطة،[11] وهذا ما يخلق حالة استسلام وثقافة انصياع من السلطة يحرسها الخوف، وتعطيها الدولة معانٍ مثل:- "حماية المجتمع من المخاطر الخارجية والداخلية"أو"الدفاع عن السيادة والمصالح العليا للبلاد" أو"الحفاظ على الأمن والنظام" أو"السلم الاجتماعي" أو "الوحدة الوطنية" أو "دولة الأمن والأمان" أو"عصمة الدولة وقراراتها". وهذه العملية تشير إلى تحول الخوف لعادة (بالمعني النسبي)، وهي عملية مفتوحة حكماً على احتمالات مناقضة لمنطق الهيمنة وواقعه الذي تمثله الدولة بما أن الدولة نفسها قابلة لأن تدول. وفي حقيقتها، فإن الدولة تتيح إمكانيتين، كلتيهما تقومان على العنف والخوف والإكراه، وإن اختلفت السياقات وطبيعة التكيفات عند الناس وطبيعة التوافقات القائمة داخل المجتمع وهما: إما الإذعان بالرضى الذي تصونه عملية الضبط والتربية ومؤسساتها حيث "الدولة هي مربية المربيين"[12]. أو الانصياع بالإكراه والغلبة والقوة والناس صاغرون. أما التسلط فهو جوهر السلطة اشتقاقاً وممارسة "ولا يمكن تصور دولة بلا قهر وبلا استئثار جماعة معينة بالخيرات المتوفرة... **ولا يمكن تصور الحرية إلا خارج الدولة**: أي في نطاق الطوبى"[13]. إن هذا السياق الذي يموضع فيه عبد الله العروي الدولة هو ذاته الذي يمكننا من موضعة الخوف في صلب الدولة وفي قيامها وسقوطها معاً، وفي صميم الوعي الجمعي للناس، سواء في وضعية الاستسلام للخوف "كعادة نسبية" أو في تحوله إلى نقيضه تحت شروط معينة. وبما أن الدولة مشغولة بتأكيد شرعيتها وبقائها واستمرارها وتجديدها، فإنها تتمادى في استخدام جهازها الايديولوجي ومؤسسات السلطة وممارساتها لأجل هذه الغاية، (أي إنتاج الخوف)، والذي يتحول بدوره لطبعٍ "وعادةٍ" في الدولة نفسها وليس فيمن يقعون تحت سلطتها وولايتها، ويتدعم هذا الأمر في حالات مثل: **نقص إحساس الدولة بشرعيتها، أو عجزها عن رفع التحديات المنوطة بها. أو تصلب بنيتها بصورة تمس قدرتها على ممارسة وظائفها المتوقعة. وعندها تتحول الدولة إلى ممارسة الخوف ليس كضرروة ولكن كتعويض وكإسقاط أيضاً ؟؟.**

إن **الدولة وعبر ممارستها تخويف الآخرين تعبر(أيضا) عن خوفها العميق**. وهنا في خضم هذه الجدلية المهلكة والمعهودة والضرورية والمفتوحة على احتمالات شتى، نعثر على إحدى مفارقات الخوف وأعظمها أيضاً. أي عندما يتحول الخوف عند الرعية الخائفة إلى "مقاومة" ضد "الخوف كعادة" وضد الدولة وكل البنى المنتجة له. والأمر ليس تمريناً ذهنياً في المنطق، إنه على ارتباط عميق بأمثلة ونماذج تحليلية من التاريخ البعيد والراهن. وخلاصة القول، **إن الخوف يتأصل في بنية الخلق وفي المسار الذي أفضى إلى الحياة الدنيا وأحداثها الدالة، وفي خطابات الوعد والوعيد التي تقوم عليها علاقة البشر بالسماء، كما يقوم في صلب علاقتهم بالطبيعة وغموضها وجبروتها، وفي المستوى التاريخي حصراً**: فأياً كان أمر الخوف، قوة موروثة أو مكتسبة، قيمة أو قدراً أو مصيراً، هي عنصرٌ أصيلٌ في كل البنيات التي ننتمي إليها أو حالة طارئة أو عادة نسبية تدوم إلى زمن قد تفضي إلى نقيضها. وحيثما اتجهنا سنجد الخوف ماثلاً أو متنكراً. ولكن تصوروا حصول الفرضية غير الممكنة أو المستحيلة، أي غياب الخوف أو استئصاله من حياة الناس والتاريخ، عندها سنجد عالما غير هذا العالم، وعليه، فإن الخوف ليس ضرورياً جدا فقط، بل لا غنى عنه في حياة العالم ولتعريفه أيضا. إنه جزء من ناموسه ومفارقاته، وغير المدهش هو الافتراض المستحيل (أي غياب الخوف)، "لأن البديهيات وحدها هي القادرة على الإدهاش "بالإذن من رولان بارت.

أما السؤال بشأن وظيفة الخوف وهدفه وتحولاته فسيظل مطروحا ما بقي الخوف موجودا، ولكن السؤال عن الخوف نفسه فليس هناك متسع حقيقي له، إلا، على سبيل التأمل والتَفكُرِ والوصول من جديد لمفارقة الخوف المدهشة في بداهتها!!!.

هوامش وإحالات:

1. جوليان فروند: سوسيولوجيات ماكس فيبر، ترجمة جورج أبي صالح (بيروت، مركز الانماء العربية، (د.ت) ص 23-24.
2. يمكن هنا إيراد معالجات عدة تناولت الخوف بما هو معطى غريزي أو مكتسب. وفي هذا السياق، يُعرف معجم علم الأخلاق الخوف، بأنّه: انفعال عابر أو شعور ثابت، يتولد عند الإنسان من جراء خطر فعلي أو موهوم. وينعكس الخوف كظاهرة نفسية تتسم بطابع فطري أو اجتماعي في الاضطراب والعذاب والهلع والذعر والرعب، وكذلك الأفعال (الشعورية واللاشعورية) الرامية إلى حفظ البقاء... وقد يكون الخوف سمة وطيدة، لا، لوعي فرد وحده بل لفئة اجتماعية، وحتى المجتمع

ككل. فالخوف من المجهول كان مميزاً، مثلاً، للناس البدائيين، الذين كانوا يعيشونه عملياً تحت رحمة قوانين الطبيعة ولم يكن بوسعهم ضبطها. أما "جمعية" الشعور بالخوف فتتم بطـــرق متباينـــة تبعـــاً لاختلاف ظروف الوسط الصغير والكبير. ..وثمة فلاسفة.. كثيرون (كيركيجور، شوبنهادر، نيتـــشة، وغيرهم). يرون في الخوف حالة طبيعية عند الإنسان الذي يعي وحدته، وعبثيته ووجوده. والخوف عند (برديايف) يقوم في صلب حياة الشخصية، ويُسير العالم.. والخوف.. كان يلعب دوراً هاماً فـــي ضبط سلوك الإنسان (الخوف من العقاب ومن السلطة،...) ... وأحياناً يطرح الخوف بمثابة باعـــث أخلاقي، فتتكلف الأخلاق الدينية الناس بالخوف من الرب، ومن يوم "الهول الأكبر". وتعتبره الضمانة الأوثق لمراعاة مطاليها.كما يمكن التعرض لما قدمه علم النفس في هذا الصدد أيضا.

3. غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع العام- الفعل الاجتماعي، ترجمة محمد مصطفى دندشلي، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.ت)) ص137.
4. نفسه، ص144. ويذكر غي روشيه هنا ص145 توضيحاً مهماً من خلال إشارته إلى الثقافة كقالب "...وهذا القالب ليس جامداً بصورة مطلقة، فهو طيع نوعاً ما، لدرجة أنه يسمح للتكيفات الفردية أن تبرز وهذه المطواعية أو ليونة القالب الثقافي، إنما هي دائماً داخل حدد معينة".
5. نفسه ص144.
6. غي روشيه، ص 165.
7. يقول ابن خلدون –المقدمة، ص 358: إن الملك غاية طبيعية.... إنما هو بضرروة الوجود وترتيبه.
8. جورج بوردو، الدولة، ترجمة سليم حداد، الطبعة الأولى، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985) ص 15.
9. عبد الله العروي،مفهوم الدولة، الطبعة الأولى(الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1981) ص85.
10. جورج بوردو، م.س،ص 11.
11. جورج بوردو: م.س، ص27.
12. عبد الله العروي: مفهوم الدولة،م.س ص 19.
13. عبد الله العروي: نفسه، ص 115.

ثقافةُ الخَوف في الفِكر العربيّ الإسلاميّ
بينَ السّيادةِ الإلهيّة والسُّلطةِ الزَمنيّة

خالد عبد الرّؤوف الجبر

جامعة البترا - الأردن

هل الخَوفُ نتيجةٌ وراثيّةٌ؟

تُرى: هل يُمكنُ عَدُّ الخَوفِ عاملاً وراثيًا يَرِثُهُ الإنسانُ كَما يَرِثُ الصِّفاتِ الوَراثيّةَ عن آبائه وأجدادِه؟. واقعُ الحالِ كَما في علمِ الوراثة، وكَما في علمِ النّفسِ كذلكَ، أنّ الإجابة بالرّفضِ حقيقةٌ لا يُمكنُ تَجاوُزُها. فالخَوفُ حالةٌ عصبيّةٌ عقليّةٌ ناتِجَةٌ عن ظُروفٍ موضوعيّةٍ لا علاقةَ لَها بالوراثةِ التي تقومُ الجيناتُ بنقلِها من جيلٍ لآخَرَ، وعلى هذا فلا يُمكنُ النَّظَرُ إلى الخَوفِ بوصفِه حالةً لصيقةً بالإنسانِ، يكتسبُها كَما يكتسبُ لَونَ عينَيْهِ، وبشَرَتِه، وطُولَهُ، وتكوينَ مَلامحِه الشّكليّةِ، من خِلالِ تَلاقُحِ الخارطةِ الجينيّةِ لآبائه بِمَا ينسجمُ وقَوانينَ الوراثة.

فهل الخوفُ إذَنْ طبيعةٌ غريزيّةٌ فِطْريّة؟

إنّ الإجابةَ بالإيجابِ عن السّؤال المتقدّم تجْعَلُ من الخَوفِ طبيعةً مُلازِمةً للإنسانِ بغضِّ النّظر عن عُمْرِه وجنْسِه وثقافتِه ومِهْنَتِه ومُعْتَقَداتِه؛ وبهذا يتساوَى البشَرُ جَميعًا في هذه الحالةِ بدونِ اختِلافٍ ولا تَمايُزٍ؛ وواقعُ الحالِ يقضي بأنْ تَكونَ الإجابةُ عن هذا التّساؤُلِ بالرّفضِ أيضًا، لأنّ ما نَراهُ يدلُّ على تقلُّبِ الحالِ بالإنسانِ الواحدِ بينَ حقبةٍ وأُخرى من عُمْرِه حِيالَ خَوْفِه، ويدلُّ على اختِلافِ البشَرِ في درَجَةِ الخَوْفِ بحسبِ جِنْسِهِم، فضلاً عن ثقافاتِهم ومُعْتَقَداتِهم ومِهَنِهم، وهذا وحدَهُ كافٍ للدّلالةِ على أنَّ الخَوْفَ ليسَ حالةً غريزيّةً فِطريّةً، ولا هُو بالطّبيعةِ اللاصقَةِ بالإنسانِ على إطلاقِه. ولعلَّ النَّظَرَ في رُدودِ الفِعلِ السّلوكيّةِ المتبايِنَةِ للبشَرِ حِيالَ ما يُخيفُهم دالٌّ على تَبايُنِ نَتائجِ التّعرُّضِ لِما يُخيفُ، وهذا بِدَوْرِه يُحيلُنا على ضرورةِ النّظرِ في أُصُولِ التّعامُلِ مع الخَوفِ والمُخيفاتِ ثقافيًّا واجتماعيا وعَقَديًّا بينَ البشَرِ، أو الجَماعاتِ البشريّة.

ولعلّنا نُضيفُ إلى ما تقدّمَ تَعزيزًا آخرَ دالاً على انْعِدامِ الطّبيعةِ الوراثيّةِ الجينيّةِ، وانعِدامِ الطّبيعةِ الغريزيّةِ الفِطْريّةِ، للخَوفِ؛ ويكمُن هذا التّعزيزُ في أنَّ التعرُّضَ لِمُخيفٍ مّا لا ينتُجُ عنهُ بالضّرورةِ خَوفٌ عندَ متعرِّضينَ مُختلفينَ له؛ سواءٌ أكانَ ذلكَ على

مستوى درجَةِ الخَوْفِ التي يُثيرُها عندَ هؤلاءِ جَميعًا، أم في طَبيعةِ ردِّ الفعْلِ الذي يُبديه كُلٌّ منهُم حيالَ ذلكَ المُخيفِ؛ وسواءٌ كانَ أولئكَ المتعرِّضُونَ للمُخيفِ من بيئةٍ واحِدَةٍ، أو من بيئاتٍ مُتبايِنَةٍ. وإذا صحَّ ما تقدَّمَ، فإنَّ الخَوْفَ ورُدُودَ الفعْلِ عليه تَعُودُ إلى عَوامِلَ ثقافيَّةٍ عقَدِيَّةٍ واجتماعيةٍ قبلَ كلِّ شيءٍ، وإنَّ العَوامِلَ الأُخرى - إنْ يكُنْ ثَمَّةَ عَوامِلُ أُخرى - ضَئيلَةُ التَأثيرِ في الإحساسِ بالخَوْفِ، وفي تشكيلِ رُدودِ الفعلِ السُّلوكيَّةِ النّاتجةِ عن التعرُّضِ لِما يُخيفُ. وإذا كُنّا قد أَنْكَرْنا أَنْ يكونَ للخَوْفِ علاقةٌ بالوراثةِ الجينيَّةِ، فإنّنا نَميلُ إلى تأكيدِ أنَّ للخوفِ علاقةً متينةً بالوراثةِ الاجتماعيةِ والثّقافيَّةِ والعَقَدِيَّةِ. ويُصبِحُ الخَوْفُ – ونَظيرَتُهُ الجُرْأةُ – على علاقةٍ وطيدةٍ راسخةٍ بقضايا أساسيَّةٍ ثلاثٍ هي:

1. تصوُّرِ الفَردِ للعالَمِ وأشيائِه وموجوداتِه، وللعلاقاتِ التي تجْمَعُ هذه الأشياءِ وتلكَ الموجوداتِ، وفي المُقابلِ تصوُّرُه الخاصُّ لوُجودِه وقيمَتِه ومَوْقِعِه ضِمنَ العالَمِ وأشيائِه وموجوداتِه.
2. العَقليَّةِ التي يكتسبُها الفَردُ من خِلالِ الثّقافةِ والعَقيدةِ، وبالتّالي نَمَطُ التّفكيرِ والقُدْرَةُ على حلِّ المشكِلاتِ، ومِقدارُ إحساسِه بحُرِّيَّتِه في التّفكيرِ والإبداعِ والابتكارِ.
3. ثَراءُ التَجربةِ الفرديَّةِ أو فَقْرُها، واتِّساعُها أو ضِيقُها، ضِمْنَ المُحدِّداتِ الاجتماعيةِ والمَحظوراتِ الثّقافيَّةِ، بِما يشكِّلُ القاعدةَ الكُبْرَى لمُنطَلَقاتِ الفَرْدِ في مُعالجَتِه لقضاياهُ الخاصّةِ وقضايا العالَمِ والكَونِ من حَوْلِه، ويُتيحُ لَهُ الفُرصَةَ لاعْتِيادِ الأشياءِ والموجوداتِ.

ولعلَّ النّاظرَ في الأسسِ الثّلاثةِ المتقدِّمَةِ يَرى في جِلاءٍ امتدادَها العَميقَ في حياةِ الفَردِ، وعلاقَتَها الوثيقةَ بالأُطُرِ الثّقافيَّةِ والعَقَدِيَّةِ والاجتماعيةِ. ولعلِّي أُشيرُ هُنا إلى مِثالٍ شديدِ الوُضوحِ يَجْمَعُ هذه الأُسسَ، دالٍّ على أُصولِها العقَديَّةِ والثّقافيَّةِ والاجتماعيةِ، وهذا المِثالُ هُو تصوُّرُ الآخِرَةِ ومصيرِ الإنسانِ فيها في كلٍّ من الفِكرِ الإسلاميِّ والمسيحيِّ.

يرى الفِكرُ المسيحيُّ أنّ الآخِرَةَ تَقُومُ لا مَحالةَ؛ وأنّ المسيحَ في آخرِ الزّمانِ يَنْـزِلُ (يعُودُ إلى الحَياةِ) ثُمَّ يأخُذُ أتباعَهُ المؤمنينَ ويَطيرُ بهِم في السَّماءِ، ولا تَقُومُ القيامَةُ إلاّ على الأُمَميّينَ (الكافرينَ)، ويرى هذا الفِكرُ أنّ أتباعَ المسيحِ لا يُحاسَبُونَ لأنّ اللهَ خلَّصَهُم من آثامِهِم وذُنُوبِهِم حينَ أرسلَ (ابْنَهُ) ليخلِّصَهُم، وأنَّ (صَلْبَ المَسيحِ وعذابَهُ في طَريقِ الآلامِ) هُو الذي حقَّقَ لهم ذلكَ؛ وبهذا فالقيامَةُ بالنّسبةِ للمسيحيّينَ لا تشكِّلُ مُخيفًا، وهم لا يفكِّرونَ بِها بوصفِها مصْدَرَ خَوْفٍ. وإذا كانَ الفِكرُ الإسلاميُّ يَرى ما يراهُ الفِكرُ

المسيحيُّ من أنّ القيامةَ قائمةٌ لا مَحالةَ، وأنّها لا تقومُ إلاّ على الكافرينَ (بموجب الحديثِ القائلِ إنّ اللهَ يَبْعَثُ رِيحًا نَسمَةً تَخْطِفُ أرْواحَ المؤمنينَ ولا تقومُ القيامةُ إلاّ على الكافرينَ)، ويُؤمِنُ كذلكَ بِنُزولِ المَسيحِ (ع) فإنّ هذا الإيمانَ مُسَخَّرٌ لِيَكُونَ حُجَّةً على النّصارَى؛ ولكنَّ الفِكرَ الإسلاميَّ يختلفُ عن نظيرِهِ المسيحيّ بأنّ الإنسانَ يُحَاسَبُ في الحَياةِ الآخرةِ على كلِّ ما قدَّمَت يَداهُ: إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ. على أنّ هذا الفكرَ في بعضِ جَوانِبِهِ يُضيفُ عاملاً آخرَ يمثِّلُ مصدرًا أساسيًّا للخَوفِ، وهو أنّ الإنسانَ لا يدخُلُ الجنَّةَ بعَمَلِهِ، وإنّما بِرَحْمَةِ اللهِ حَسْبُ، وبِمِثْلِ هذا كانَ أبو بكرٍ (رض) يقولُ: لا آمَنُ مَكْرَ الله! ولهذا فإنَّ الحَياةَ الآخرةَ تجسِّدُ مَصْدَرًا أساسيًّا للخَوفِ في الفكرِ العربيِّ الإسلاميّ. ولَو أنّنا قرَنّا هذا إلى تصوُّرِ كلٍّ من الفريقَينِ للمَوتِ، وتَعامُلِهِما مع القَبْرِ والحَياةِ البرْزَخيَّةِ، وكيفَ ينقُلُ أتباعُ الدِّينَينِ للصِّغارِ ما يَصيرُ إليهِ الإنسانُ في القبرِ أو بعدَ الموتِ، لوَقَفْنا على عاملٍ إضافيٍّ للخَوفِ؛ فهُناكَ لا حَديثَ عَنْ عَذابِ للمَوتَى في قُبورِهِم، ولا حديثَ عن مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ، ولا الأقْرَعِ الشُّجَاعِ، ولا الضّربِ بقُضْبانٍ من حديدٍ لَوْ ضُرِبَ بِأحَدِها جَبَلٌ لَشُطِرَ نصفَينِ، وجلُّ ما يحْدُثُ أنْ يُخْبِرَ الكِبارُ الصِّغارَ بأنّ آباءَهُم انْتَقَلُوا للحَياةِ في الجَنَّةِ، أو أنّهم يَعيشُونَ حياةً سَعيدةً مليئةً بالفَرحِ والهَناءِ والسُّرُورِ، أو أنّ مَنْ يَمُوتُ تستقرُّ رُوحُهُ على نَجْمَةٍ في السَّماءِ فيظلُّ ينظُرُ إلى أطفالِهِ ويُراقِبُ حَياتَهُم ويَرْعَاهُم. لستُ أُريدُ هُنا إلى مُناقشَةِ هذه الأفكارِ من حيثُ صِحَّتُها أو خطَؤُها؛ لكنّني أُشيرُ حسْبُ إلى دَوْرِ هذه الأفكارِ في تشكيلِ عقليَّةِ الإنسانِ، وصِياغةِ موقفِهِ من الحَياةِ الدُّنْيا والموتِ والحَياةِ الأُخرى، فضلاً عَن تأثيرِها الفَاعلِ في بِناءِ الأسسِ النّفسيّةِ والاجتماعيةِ للإنسانِ في هذا المجتمعِ أو ذاكَ؛ هذا فضلاً عن أنَّ التّربيةَ التي تلعَبُ دَورًا أساسيًّا في التّكوينِ العقليِّ والثّقافيِّ والنّفسيِّ والاجتماعي للفَرْدِ منذُ مَراحلَ مُبكِّرَةٍ من حياتِهِ، ليسَ بالضّرورةِ أنْ تُبْنَى على جُرْعاتٍ من المَعلوماتِ التي تَجْعَلُه مَزروعًا بالخَوفِ منذُ نُعومةِ أظْفارِهِ؛ لا سيَّما وبعضُ هذه المعلوماتِ مَوضِعُ نِقاشٍ وخِلافٍ، وبعضُها موطِنُ رَمْزٍ واستِعارةٍ ومَجازٍ، وبعضُها حَمّالُ أوجُهٍ يُمْكِنُ تفسيرُهُ وتأويلُه تفسيراتٍ وتأويلاتٍ شتّى.

الخَوفُ واصطِلاحاتٌ أُخرى:

يَجْمَعُ اصطِلاحُ الخَوفِ مجموعةً من الاصطِلاحاتِ الأُخرى التي تُشاركُه في المَعنَى العامِّ؛ فهو مَعْنىً عامٌّ يندَرِجُ تَحتَهُ مَعانٍ خاصَّةٌ مثل: الخَشْيَةِ؛ الرَّهْبَةِ؛ الفَزَعِ؛ الرُّعْبِ؛

الذُّعْرِ؛ الجَزَعِ؛ الذُّهُولِ؛ الهَلَعِ؛ ... والمُهِمُّ في هذا كلِّه أنَّ هذه الاصطلاحاتِ تتدرَّجُ في مَعْنَى الخَوْفِ بِما يمثِّلُ كلٌّ منها نسبةً من الخَوفِ، وهيَ تترتَّبُ ترتيبًا منهجيًّا قائمًا على كَوْنِ الإحساسِ داخليًّا يَنْتابُ أفكارَ الخائفِ (الخشيَةِ)، إلى هذا المتقدِّمِ وظُهورِ آثارِهِ على السِّحْنَةِ والقسَماتِ (الرَّهْبَةِ)، إلى هذا كلِّهِ وظُهورِ نَتائجِه على السُّلُوكِ بحيثُ يرتَبِكُ الخائفُ قَوْلاً وعَمَلاً (الفَزَعِ)، إلى ما تقدَّمَ مع فُقْدانِه القُدْرَةَ على التَّفكيرِ والسَّيْطَرَةَ على أعصابِهِ وجَوارِحِه (الجَزَعِ)، إلى ما تقدَّمَ كلِّهِ مع شِدَّةِ الجَزَعِ (الرُّعْبِ)؛ إلى ما تقدَّم كلِّه مع الوُجومِ المُطْلَقِ وعَدَمِ القُدْرَةِ على إبداءِ أيِّ رِدَّةِ فِعْلٍ على الخَوْفِ (الذُّهُولِ)؛ وُصولاً إلى ما تقدَّمَ مع أعراضٍ أُخرى مُصاحِبةٍ مثلِ الإغْماءِةِ أو الدُّوارِ أو الشَّلَلِ أو الصَّعْقَةِ أو المَوْتِ (الهَلَعِ). ولعلَّ النَّاظرَ في نَتائجِ تعرُّضِ الإنسانِ للخَوْفِ يَجِدُها محصورةً على الأكثَرِ في الأنْماطِ الثَّلاثةِ الأُولى، أمّا الأنْماطُ الثَّلاثةُ الأخيرةُ فقلَّما يتعرَّضُ لَها أحَدٌ في الظُّروفِ الطَّبيعيَّةِ، لكنَّها تسُودُ في الحُروبِ والكَوارثِ والنَّوازلِ، وبعضُها (الذُّهول) موصوفٌ في تأثيرِ أهوالِ يومِ القيامةِ على النَّاسِ (**يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مرضِعَةٍ عمّا أرضَعَتْ وتَرى النّاسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ**). وإذا كُنّا معنيِّينَ في هذه الورقةِ بالحديثِ عن الخَوفِ في صورتِه العامَّةِ، فمنَ الضَّروريِّ المُلِحِّ قَصْرُ الكَلامِ على الأنماطِ الثَّلاثةِ الأُولى؛ ذلكَ لأنَّها هيَ التي تسودُ في الظُّروفِ الطَّبيعيَّةِ، وهي التي ينبَغي اقتلاعُها من أذهانِ النّاسِ وفِكْرِهم وتصرُّفاتِهم؛ لا سيَّما وهُم قادرونَ على قضاءِ حياتِهم بَعيدًا عنها، ولا شيءَ يُجْبِرُهم على تلبُّسِها واستصحابِها؛ فهُم خُلِقُوا أحرارًا وينبغي لَهُم أنْ يموتوا أحرارًا بعدَ أنْ يَعيشُوا أحراراً من سيطَرةِ الخَوفِ على أذهانِهم ومقدَّراتِهم.

الخَوفُ والمَجْهُول:

ينبَغي هُنا تأكيدُ حقيقةٍ مُفادُها أنَّ المَجهُولَ يظلُّ مصدرًا أساسيًّا من مصادرِ الخَوفِ للإنسانِ؛ ذلكَ لأنّه حقلٌ غيرُ خاضعٍ للعقْلِ ولا الحَواسِّ من بابٍ أَوْلَى، ولأنَّه كذلكَ كانَ في عدَمِ القُدْرَةِ على توقُّعِ ما يُمكِنُ أنْ يُصيبَ الإنسانَ منهُ هَوْلٌ عَظيمٌ؛ على الرُّغْمِ من أنَّ هذا المصدَرَ يُمكِنُ أنْ يَزُولَ تأثيرُه بِمُجرَّدِ حُصولِ المعرفةِ والعِلمِ به. ولعلِّي هُنا أضْرِبُ مَثَلاً مِنْ تِقْنِيّاتِ التَخويفِ التي تُمارسُها صِناعَةُ الأفلامِ في هُوليوُود؛ إذ كانَت كثيرٌ من مَشاهِدِ الرُّعْبِ في هذه الأفلامِ تُثيرُ خَوْفًا حقيقيًّا عندَ المُشاهِدينَ، حتّى إذا كُشِفَ النِّقابُ عَنْ تِقْنِيّاتِ صِناعَةِ الرُّعْبِ هذه بَطَلَ السِّحْرُ، وأصبَحَ الصِّبْيَةُ والكِبارُ الذينَ كانُوا يُغَطُّونَ رُؤُوسَهُم عندَ عرضِ بعضِ تلكَ المشاهِدِ، ويُصِمُّونَ آذانَهُم، يَتَضاحَكُونَ

ساخِرينَ، حتّى إنّ هذه المشاهدَ تحوّلَت عندَ كثيرينَ من المُشاهِدينَ إلى مشاهدَ كُوميديَّةٍ مُضحِكَة. والواقعُ أنّ المَجْهُولَ في غُموضِه يُضلِّلُ الحَواسَّ ويتملَّكُ العَقْلَ أحيانًا؛ حتّى ليصبحَ الإنسانُ مُسَيْطَرًا عليهِ بما يُثيرهُ الغُموضُ من أفكارٍ مُشوَّشَةٍ غيرِ قابلةٍ للتّفسيرِ المنطقيّ. غيرَ أنّ المُخلِّصَ الأكيدَ من تأثيرِ المَجهُولِ هُو المَعرفَةُ والعِلْمُ، وبهذا يُصبحُ العِلمُ، وتُضحِي المعرفَةُ أيضًا، المَناظِرانِ للجَهْلِ، نَقيضَيْنِ للخَوفِ، ونَحنُ هُنا نُعلي مِن شأنِ هذه الثُّنائيَّةِ إعلاءً فذًّا، فبِقَدْرِ ما تتوسّعُ دائرةُ المعرفةِ – العِلمِ عندَ الإنسانِ يَقِلُّ خَوْفُه.

وقَد يكونُ من المُناسبِ هُنا إدْخالُ التَّجربَةِ والخِبرَةِ في هذا السِّياقِ؛ فَوَفْرَةُ التَّجربةِ والخِبرةِ عندَ الإنسانِ في مَجالٍ من المَجالاتِ تقلِّلُ من إحساسِه بالخَوفِ في المَجال نفسِه. وهُنا أرْوِي روايةً نقلَها أحدُ الأصدِقاء عن الشّاعرِ محمود درويش أيّام بيروت؛ مُفادُها أنّ الرّئيسَ حافظ الأسد كانَ أهداهُ يومًا مسدَّسًا جَميلاً، وفي زيارةٍ مجموعةٍ من الأصدقاء لمحمود درويش رأوا المسدَّسَ معروضًا، فلَمّا سألوهُ عن الرّصاصِ قالَ: أنا أبيِّتُ المسدَّسَ في مَكانٍ، والرَّصاصَ في مَكانٍ آخرَ! دلالةُ الرِّوايةِ أنّ قِلَّةَ الخِبرةِ بالأسلحةِ قادَت كثيرًا من النّاسِ حتّى عصرِنا هذا إلى اعتقادِ أنّ الشّيطانَ يُمكنُ أنْ يُذَخِّرَ السِّلاحَ بالرَّصاصِ، وقد تنطلقُ رصاصةٌ طائشةٌ تسبِّب القَتْلَ أو الجَرْحَ. ومن المُهمِّ هُنا مُلاحظَةُ أنّ الثّقافةَ والمعرفةَ في حُقولٍ كثيرةٍ ليسَ بالضّرورةِ أنْ تقودَ إلى قِلَّةِ الخَوْفِ في حَقْلٍ تنعَدمُ فيه الخِبرةُ والتَّجربةُ؛ في حين أنّ جُنديًا ممارسًا وذا خِبرةٍ في شأنِ الأسلحةِ والذّخائر تقلُّ درجةُ خَوْفِه من أمرٍ كهذا، وإنْ تَكُن دائرةُ مَعارفِه ومعلوماته في حُقولٍ أُخرى كثيرةٍ تَكادُ تَكونُ معدُومةً.

الخَوفُ والغَيْبُ:

لقد قصدنا عَمْدًا إلى التّفريقِ بينَ المَجهُولِ والغَيبِ؛ وذلكَ حفاظًا على المسافةِ العِلميَّةِ الفاصلةِ بينَ الطَّرَفَينِ؛ فالمَجْهُولُ هُو ما لا يملِكُ الإنسانُ معرفةً عنهُ وإنْ تَكُن معرفةً وصفيَّةً إخْباريَّةً غيرَ خاضعة للتّجربةِ والخِبرة، أمّا الغَيبُ فقد يكونُ بتغييبِ إحْدَى خصائصِه أو صِفاتِه أو مَزاياهُ أو مُكوِّناتِه أو شَكْلِه – إنْ يكُن لهُ شكل – دونَ سائرِ ما هُو عليه، فهو إذَنْ ممّا يملكُ الإنسانُ عنهُ معرفةً ما لكنّها غيرُ شاملةٍ أو مكتملَة. والجديرُ بالذِّكرِ أنّ كُلَّ مَجهُولٍ يكونُ مصدرًا للخَوْفِ في حِينٍ لا يكونُ ذلكَ ضروريًّا مَع كلِّ غَيْبٍ؛ فكثيرٌ من المُغَيَّباتِ لا تُثيرُ الخَوفَ بلِ الطُّمأنينةَ والفرحَ والأمْنَ.

لكنَّ الإنسانَ أمْيَلُ بِطَبْعِه إلى عدَمِ التَفريقِ بينَ المَجْهولاتِ والمُغَيَّباتِ؛ وذلكَ لأنّ العقْلَ الإنسانيَّ يَتُوقُ إلى المعرفةِ الكُلّيَّةِ الشُموليّةِ بأصْلِ خلْقَتِه، ولهذا تَرى كثيرينَ لا يفرّقونَ بينَ الطّرفينِ، ولا أقولُ إنّ هؤلاءِ من العامَّةِ حسبُ بل كثيرٌ منهم يُحْسَبُونَ في الخاصَّةِ أيضًا. وينتُجُ عن هذا الخَلطِ بينَ المجهولاتِ والمُغَيَّباتِ خَلْطٌ آخَرُ مُناظِرٌ في جَعْلِ المُغيَّباتِ مَصادرَ للخَوفِ تَمامًا كالمجهولاتِ؛ مِن هُنا مثلاً كانَتِ الطُّقوسُ والعباراتُ والأفكارُ التي خلَطَتْ بينَ الجنِّ والسِّحْرِ والصَّرَعِ والفِصامِ واللُّوثاتِ العقليَّةِ والجُنُونِ والأمراضِ النّفسيَّةِ وغيرِها، وقد وصلَ الأمرُ إلى الخَلطِ بينَ هذه في بعضِ الأفكارِ الدّينيَّةِ حتّى أصبَحَت كلُّها تُمثِّلُ دائرةً واحدةً منسجمةً تُسْتَغَلُّ من أجلِ تحقيقِ بعضِ المصالحِ الماديَّةِ والدِّينيَّةِ والسّياسيَّةِ أحيانًا.

غيرَ أنَّ المجهولاتِ والمُغيَّباتِ تتَّفِقُ في أمرٍ واحدٍ هُو: أنَّها جَميعًا يمكنُ استِغلالُها من أجلِ تَوجيهِ عُقولِ العامَّةِ – والخاصّةِ أحيانًا – نَحوَ التَّمسُّكِ بأفكارٍ مختَلَّةٍ باعتِبارِها مُسلَّماتٍ لا تقبَلُ الطَّعْنَ ولا البَحْثَ، ولا سيَّمَا إذا استُغِلَّ بعضُ المُتعالمينَ لتَرويجِ تلكَ الدَّعاوَى والأفكارِ، واستغلُّوها هُم من أجلِ تحقيقِ مصالِحِهم. بل أزيدُ فأقولُ: إنّنا جَميعًا في الأغلبِ الأعمِّ نستغلُّها بقدْرٍ من المَقاديرِ، وليسَ أدلَّ على ذلكَ من استِغلالِنا للنّارِ والعَذابِ بِها حينَ نُربِّي أبناءَنا صِغارًا فنقولُ لَهُم: (اللّي بيكْذِبْ أَلله بيْحُطُّه في النّار)!

هكذا مثلاً، كانت الجنّةُ والنّارُ في أيدينا نَحنُ، وفي أيدي كثيرٍ من عُلَماءِ السّلاطينِ المتسلِّطينَ على مَدارِ التّاريخِ الإنسانيِّ: الإسلاميِّ والمسيحيِّ واليهوديِّ وما سبَقَها أيضًا، نعذِّبُ ويُعذِّبونَ، ونُنْجِي ويُنَجُّونَ؛ أصبَحَت مَفاتيحُ المُغَيَّباتِ بأيدينا وأيديهم: نُدْخِلُ في رَحْمَتِه مَنْ نَشاءُ ويُدْخِلُونَ، ونُخْرِجُ من رَحْمَتِه مَنْ نَشاءُ ويُخْرِجُونَ! ولعلِّي أزيدُ فأقولُ: إنَّ البَحْثَ الذي كانَ ينبغي أنْ يَنْصَبَّ على هذا العالَمِ وموجوداتِه وأشيائِه ممّا يَقَعُ عليه الحَواسُّ، ويُعالِجُه العَقْلُ، حُرِفَ قَصْدًا ليكُونَ في شأنِ المُغَيَّباتِ لا المَجهُولاتِ، وذلكَ بقصدِ تسخيرِها واستِغلالِها في شُؤونٍ سياسيَّةٍ وماديَّةٍ واجتماعية!

الخَوْفُ والتّخْويف:

إذا لَم يَكُن الخَوْفُ ناتجًا عن قَوانينِ الوِراثةِ (قوانين مِنْدل وغيرِه)، ولا كانَ طبيعةً غريزيَّةً فطْريَّةً في أصلِ خِلْقَةِ الإنسانِ وجِبِلّتِه، فَما السّببُ في حُدوثِه عندَ الإنسانِ؟

يَبدُو لَنا أنّ الخَوْفَ انفعالٌ نَفسيٌّ لا يتأتّى إلاّ عَنْ فِعْلِ التّخويفِ أصلاً، ونحنُ هُنا نستَثْني الخَوفَ النّاتجَ عن الكَوارثِ الطّبيعيَّةِ والحُروبِ والفِتَنِ وأمثالِها؛ ذلكَ لأنَّ الخَوفَ

هُنا مُسَوِّغٌ في أصلِه، ولا جُنَاحَ على مَنْ يَخافُ في مثلِ هذه الأحْوالِ، مَع أنَّ الحُروبَ والفِتَنَ يُمارَسُ فيها التّخويفُ بسببِ ما يُشاعُ عَنِ المَجازِرِ والقَتْلِ والدّمويَّةِ والأسرِ والتّشريدِ وفُقْدانِ الأهْلِ والمُمْتَلكاتِ وغيرِ هذا كلِّه، ونحنُ نعرفُ أنَّ الحَرْبَ النّفسيَّةَ أصلٌ من أُصولِ الحَربِ العامَّةِ، وما الحربُ النّفسيَّةُ إلاّ شَكلٌ من أشكالِ التّخويفِ. لكنَّ مَناطَ حديثِنا هُنا هُو الخَوفُ في الظُّروفِ الطّبيعيَّةِ كَما قدَّمْنا آنفًا. ونُعيدُ التّأكيدَ مرَّةً أُخرى على أنّ الخوفَ نتيجةٌ للتّخويفِ، وهُو بهذا نتيجةٌ لا مسبِّبٌ، وبِقَلْبِ الحقيقةِ المتقدّمَة يمكنُ القولُ: إنَّ البيئةَ التي تُوفِّرُ للإنسانِ الإحساسَ بالأمْنِ والأمانِ، بيئَةٌ يَعيشُ الإنسانُ فيها بِلا خَوْفٍ. لكنَّ مفهومَ الأمْنِ والأمانِ هُو الذي يحتاجُ إلى تحديدٍ في هذه الحالةِ، ولعلَّهُما يشمَلانِ الإحساسَ بالأمْنِ على الحَياةِ والمالِ والأهلِ والعقيدةِ، وهذه تشمَلُ الأمْنَ الاجتماعي والاقتصاديَّ والفِكريَّ، فضلاً عن الأمْنِ السّياسيِّ أيضًا؛ وكلٌّ هذا من مقتضياتِه الأساسيَّةِ توفُّرُ العَدالةِ في المَجالاتِ التي تقدَّمَتْ؛ وغيابُ العَدالةِ في أيٍّ من الجَوانبِ المتقدّمَة تكونُ نتيجتَهُ الطّبيعيَّةُ المُباشرةُ هيَ الإحساسَ بالخَوفِ في الجانبِ الذي انعدَمَت فيهِ أوّلاً، ثُمَّ يَمتدُّ ليشملَ الإحساسَ بالخَوفِ في المَجالاتِ الأُخرى كلِّها. وهكذا، فإنّ الخَوفَ على الوظيفةِ أو لُقْمَة العَيْشِ اقتصاديٌّ في أصلِه، لكنَّهُ يمتَدُّ ليصبحَ خوفًا سياسيًّا واجتماعيا وثقافيًا وفكريًا وشخصيًّا أيضًا، وكذلكَ الخوفُ في أيٍّ من الحُقولِ المذكُورة. فإذا مُورِسَ التّخويفُ في أيٍّ من المَجالاتِ نفسِها، فإنَّ نتيجتَهُ الحتميَّةَ هي الخَوفُ في الجَوانبِ كُلِّها.

الخَوفُ وتَعطيلُ الإبداع:

إذا كانَتِ الحُرِّيَّةُ (على إطلاقِها) شرطًا أساسيًّا للإبداعِ الإنسانيِّ، فإنَّها في الحالة هذه تُصبحُ نَقيضَ الخَوْفِ؛ ذلكَ لأنَّ الخَوفَ يعطِّلُ أيَّةَ إمكانيَّةٍ للإبداعِ، فهُو يَشْغَلُ العَقْلَ وإمكاناتِه وطاقاتِه بهدَفِ البحثِ عن السُّبُلِ التي تُوفِّرُ مَنْجاةً للخائفِ. ومُمارسَةُ التّخويفِ تجتذبُ كلَّ الوسائلِ الكفيلَةِ بإبعادِ التّهديدِ، وبهذا ينشغلُ الإنسانُ ببناءِ شَبكَةِ حمايةٍ، أو بإعادَةِ التّوازُنِ إلى علاقتِه بالمجتَمعِ والمكَانِ ونفسه أيضًا، وهذا كلُّهُ يَحُولُ دونَ الإبداعِ إلاّ في إبداعِ وسائلِ الحِمايَةِ؛ وفيها التّزلُّفُ والنِّفاقُ والرّشوة والهِجْرَة واللُّجوءُ وغيرُها.

وإذا كنّا نتصوّرُ أنّ العقلَ خَيرٌ مَحْض، فإنّ الخوفَ لا يمكنُ أنْ يكونَ ناتجا عنه؛ إنّما يكونُ ناتجا عن الرّغباتِ والشّهواتِ والانفعالات باصطلاح أهل الفلسفة الأخلاقيّة، وهي النّوازِع التي تتنازَع الإنسانَ، ويكونُ في صراع دائم بينَها وبينَ العقلِ في حياتِه.

الخوفُ ينتجُ عن هذه لا عَن العقلِ، وصِنْوُه الطَّمَعُ في المُقابلِ كذلك. ومَعنى أنْ يعطِّلَ الخوفُ العقلَ ويشغَله عن التَّفكيرِ الحُرِّ أنّ الشّهوات والرّغبات والانفعالاتِ هي التي تسيطر على الإنسانِ حتّى ليصبحُ العقلُ خادمًا لها، يؤدّي وظيفتَهُ باعتبارِه خادمًا عبدًا لا سيّدًا مسيطرًا، وهُنا يصبِحُ التّفكيرُ محدودًا بحُدودٍ لا سبيلَ للخُروجِ عليها، ويُبدِعُ في استِكشافِ ما يؤدّي إلى تحقيقِ الشّهوة أو الرّغبة أو الانفعالِ، لكنّ هذا الإبداعَ يظلُّ قائمًا في نِطاقِ خدمَة الذّاتِ الفرديّة (المصلحة الشّخصيّة)، ولا علاقةَ له بتحقيقِ المصلحة العامّة (على مستوى المجموع)؛ ولعلّ هذا هو الفرق الظّاهر بينَ فِكرَين وثقافتَين: الإسلامِ والغَربِ الآنَ!. إنّ إطلاقَ العِنانِ للفِكر والعَقلِ، وترسيخَ هذا الإطلاقِ بإزاحةِ كلِّ القُيودِ والمحدِّداتِ، وتوفيرِ الشُّروطِ الموضوعيّة لتحقيقِ ذلك، هو المسرَبُ الوَحيدُ لتجسيدِ الإبداعِ على المستَوياتِ كلِّها. ويشملُ هذا تحريرَ الإنسانِ من العُبوديَّة الاجتماعية والماديّة والسّياسيّة والزّمنيّة (السّلفيّة) والمَكانيّة (الجِهَويّة والقُطريّة) والفِئويّة؛ إلى غير ذلكَ من محدِّداتٍ تؤصِّلُ عُبوديّة الفردِ لِغَيرِه من الأفرادِ والنُّظُم والأفكار. وقد يظنُّ ظانٌّ أنّ مثلَ هذا الإطلاقِ غيرُ واقعيّ، لكنّه تحقّق في القرآن الكريمِ، وفي الفِكر الإسلاميّ لمدّة من الزّمن قبل أنْ يتقوقع المسلمونَ ويتفرّقوا شيَعًا كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُونَ؛ ذلك لأنّ كلّ فردٍ في المصطلح القرآنيّ حينَ يكلَّفُ يُكلَّفُ بالاختِيارِ على أساسِ ما وصلَ إليه، وعلى أساسِ العقلِ الذي رُكِّبَ فيه، ولا يُقْبَل منهُ التّقليدُ للأمْواتِ، ولا للآباءِ؛ عليه الاختِيارُ وهو حُرٌّ فيه، وعليه تحمُّل مسؤوليّة ما اختارَه، ولا سُلطانَ لأحدٍ عليه فيما اختارَه.

ولعلّي أُشيرُ هُنا إلى قولَينِ أحدُهما لِعُمر بنِ الخطّاب (رض) والآخَرُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ (ع)؛ قالَ عُمر في أوّلهما: **(متى استَعبدتُم النّاس وقد ولدتْهُم أمّهاتُهم أحرارا)**، وهو قول يتعلّقُ بالأحرارِ لا العَبيدِ؛ إذ استِعبادُ الحُرِّ غيرُ جائز بحسبِ تساؤلِه، وقال عليٌّ في الآخَر: **(لا تَكُنْ عبدَ غيرِكَ وقد خلقَكَ اللهُ حُرًّا)**، وهو متعلِّقٌ بأنّ الاستِعبادَ من أصلِه غيرُ جائزٍ لأنّ الجَميعَ وُلِدُوا ويُولَدُونَ أحرارًا؛ أمّا الاستِعبادُ فهو ممارسَةٌ إنسانيَّةٌ تسلُّطيّة شهَوانيّة ورغائبيّة وانفعاليَّة، ولا دَخل للعقل الإنسانيِّ فيها. وفي قول عُمر يكونُ الاستعبادُ من الإنسانِ للإنسانِ، أمّا في قول عليّ فالإنسانُ قد يُصبِحُ عبدًا لغيرِه من إنسانٍ وشَهوةٍ ومالٍ وسُلطَةٍ ونُفوذ وجاهٍ وعشيرةٍ وولَدٍ وسواها.

الحُرّيّةُ في هذا الفَهمِ شرطٌ للإبداعِ، والخَوفُ – نَقيضُها – هُو مذْبَحَةُ الإبداعِ!

الخَوفُ والجَبريَّةُ والقدريَّةُ:

ما الذي نستفيدُه من قولٍ مثل: (**تَفاءلُوا بالخَير تَجِدُوهُ**)؟ أو من آيةٍ مثل: (**قُلْ لَنْ يُصيبَنا إلاّ ما كتبَ اللهُ لَنا**)؟ أو أُخرى تقولُ: (**وما تشاؤونَ إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ**)؟.

ما علاقَتُنا نحنُ بِما كتبَهُ اللهُ لَنا أو علينا؟ وما علاقةُ مشيئتِنا بمشيئةِ اللهِ؟ وكيفَ إذا تفاءلنا بالخيرِ وجدناهُ؟. إنّ فهمَنا للقضاء والقدَرِ متعلّقٌ بالنّهاياتِ دائمًا، بمعنًى أنّه ينظُر إلى ما كتبَه اللهُ لنا أو علينا، أو متعلّق بمشيئة اللهِ، وكأنّنا لا علاقةَ لنا بِما يحدُث من قريب أو بعيد! في حين أنّ الفهمَ الإسلاميّ للقضاء والقدر متعلّقٌ بالبداياتِ قبل النّهايات؛ بمعنى أنّهما متعلّقانِ بِما نصنَع نحنُ وما نقرِّر وما نشاء وما نخطِّط لـه، متعلّقانِ بِما نُريدُ. بمثلِ هذا الفَهمِ يصبِحُ القضاء والقدَرِ مِمّا علاقةَ لنا به إلاّ حينَ حُدوثِه ووقوعِه، وهُنا لا مَجال لَنا إلاّ بالتّسليمِ والرِّضا حينَ يقَعانِ، وليس مَعنى ذلك ألاّ نُحاولَ تَجنُّبَ مَزيدٍ من البَلاء حين وُقُوعِه، ولا أنْ نخطِّط لإزالةِ آثارِه حينَ يقَع بِحُجّة أنّ هذا من اللهِ. المطلوبُ دينيًا من الإنسانِ في حالةِ وُقوعِ المصيبةِ أنْ يَرْضَى بِما كتَبَ اللهُ لـه فيها وحدَها حينَ وُقوعِها؛ أمّا رضاهُ بنتائجِها فليس مطلوبًا، وأمّا وُقوفُه مكتوفَ اليدَينِ بِحُجّة التّسليم والرِّضا، وأمّا تقاعُسُه عن ردِّها ودرئِها والتّخفيفِ منها ومن آثارِها، فليس هذا ممّا يريدُه الدّينُ، بل لا يرتضيهِ الدّينُ؛ جلُّ الأمر قائمٌ على: (الذينَ إذا أصابتهُم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليهِ راجعُونَ). ولعلّ الفهمَ الخاطئ للقضاء والقدرِ دفع إلى فهمٍ خاطئ ونتائج خطيرةٍ كثيرةٍ في مَجالاتٍ متعدّدة من الحياة الإسلاميّة؛ منها مثلاً مسألة الإنجابِ وتنظيم النّسل وتحديدِه. إذ يظنُّ كثيرٌ من النّاسِ أنّ تحديدَ النّسلِ بالقولِ واتّخاذ القرارِ بعَدم إنجابِ أكثر من ثلاثةِ أطفالٍ حرامٌ شرعًا؛ والصّوابُ هُو أنّ الاختلافَ كامنٌ في الإجهاضِ قبلَ عددٍ من الأسابيعِ أو بعدَها، بمعنى في الوقتِ الذي تُبثُّ فيه الرّوحُ والحياةُ في الجنينِ. أمّا هذا القرارُ وتنفيذُه بِدُونِ حَمْلٍ أصلاً فمِمّا لا علاقةَ له بالحلالِ والحرامِ، بل هُو مُباحٌ للإنسانِ ولا وجهَ لِحُرمَتِه من الأصلِ. هل يمكنُ أنْ يموتَ إنسانٌ وفي صُلبِه بذرَةُ حَياةٍ ينبغي لها أنْ تتخلّق وتخرُجَ إلى الحياةِ والنُّور؟ هذا هُو السّؤالُ، والإجابةُ عنهُ قطعًا هي (لا). إنّ القرارَ بعدَم الإنجابِ أكثر من ثلاثةِ أطفال مثلاً هو مشيئة من الإنسانِ، فإذا توافقت هذه المشيئة مع مشيئة اللهِ نفذَتْ وتجسّدَت، وإلاّ فإنّ مشيئة اللهِ هي الغالبةُ، وهذا أمرٌ لا نستطيعُ التّدخُّلَ فيه، بل لا نستكشفُه ونعرفُه إلاّ حينَ يحدُثُ؛ فكَم من وسائلِ عَزلٍ وحِمايَةٍ ومَنْعٍ للحَملِ بَطَلَ عمَلُها وانتهت وظيفَتُها لتتحقّق المشيئةُ الإلهيَّةُ!.

مثلُ هذا الفَهم يوفِّرُ لنا تحقيقًا لقولِ عليٍّ (ع): (قِلّةُ العِيالِ أحَدُ اليَسارَيْنِ)، ولا علاقةَ للمسألةِ هُنا بقولِه تَعالى: (ولا تقتُلُوا أولادَكُمْ مِن إملاقٍ، نحنُ نرزُقُهُم وإيّاكُم)، فتلكَ الآيةُ خاصّةٌ بأولئكَ الذينَ يقتُلونَ نفسًا كائنةً قائمةً متخلّقةً متجسّدةً من أولادِهم (أبنائهم وبناتِهم، لأنّ وأْدَ البَناتِ كانَ طَقْسًا عِباديًّا للاّتِ كَما ذكرَ د. علي عبد الواحد وافي قبلَ أربعينَ سنةً، ولم يُتابِعْهُ أحدٌ على قولِه). الأساسُ في هذا الفَهمِ متعلِّقٌ بفهمِنا للقدرة الإلهيّة: هل يستطيعُ أحدُنا تَجاوُزَ القدرةِ الإلهيّة في حَياةِ مَن كُتِبَت لهُ الحياةُ مِن أصلابِ الرِّجالِ وأرحامِ النِّساءِ؛ ضلَّ مَن ظنّ ذلكَ ضلالاً بعيدًا! وبمثلِ هذا الفهمِ نستطيعُ فهمَ قوله عليه الصّلاةُ والسّلامُ: (**تَناكَحوا، تَكاثَروا، فإنّي مُباهٍ بِكُم الأمم يومَ القيامَة**)، فهل القصدُ هُنا إلى التّكاثُرِ العدديّ حسبُ، وكم أدّى هذا التّكاثُر العدديُّ إلى اضطرارِ النّاسِ لارتكابِ المعاصي والآثامِ من أجلِ توفيرِ لقمة العيش لأبنائِهم؟

ولعلّي هُنا أسأل سؤالاً قريبًا في الجواب عنه من مضمون ما تقدّم: قرّرت الصّينُ قبل عُقود من الزّمن تحديدَ النّسلِ بطفل واحدٍ للأسرةِ الواحدة، ونفذَ القرارُ، سوى أنّ قلّةً من العائلاتِ الصّينيّة تَجاوَزت مثلَ ذلكَ إلى أكثرَ؛ فَما فهمُنا لِما يحدُث هُناكَ؟. وكثيرٌ من العائلاتِ الغربيّةِ لا تُنجبُ إلاّ الواحدَ والاثنينِ والثّلاثة، فَما فهمُنا لِما يحدُثُ هُنالكَ أيضًا، نائينَ بأنفسِنا عمّا يحدُثُ من إجهاضٍ، فتلكَ مسألة أُخرى؟. أقول إنّ الخوفَ من الحرامِ (بفهمٍ مّا) هُو الذي يدفعُنا إلى كثرةِ الإنجابِ، وفهمَنا لقضيّة القضاء والقدر المغلوطَ هو الذي يُوقِعُنا في شرِّ أعمالنا؛ وبعدَها ينكسرُ العُنقُ والظّهرُ والسّاقانِ والأيدي، وتَذِلُّ الجِباهُ لغيرِ اللهِ، ويسكُنُ الخوفُ نُفوسَنا وعُقولَنا على مصيرِنا ومصيرِ أبنائنا وبناتِنا ومستقبلِهم، بل على توفيرِ لُقمةِ العيشِ لهُم قبل كلِّ شيء!!

اللهُ والسُّلطان:

وردَ في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تَدعو المؤمنين إلى الخَشيَةِ والخَوفِ من المصيرِ الحتميّ (بحسب القرآن الكريم) الذي سيؤول إليه الإنسانُ في الحياةِ الأُخرى، فضلاً عن التّحذير من صُنْعِ الله تعالى وقدراته التي يمكنُ أن تَطُول الإنسانَ الفردَ والجَماعةَ في الدُّنيا. فإذا كانَ ذلكَ مُسَوِّغًا لجهة تذكير الإنسانِ بما قد يُصيبُه (بِما كسبَت يدَاهُ)، فليسَ مُسوِّغًا أبدًا تَخويفُ الإنسانِ من اللهِ تعالى في ذاتِه؛ بمعنى أنّ الله تعالى ينبغي أن لا يكونَ مصدَرًا للخوفِ والتّخويفِ؛ وإنّما المصدَر الأساسيُّ لذلكَ هُو أفعال الإنسانِ وأقوالُه وما يُقدِمُ عليه في دُنياهُ لا أكثر؛ لأنّ القانون الإلهيَّ الذي لا ينبغي التّجاوُز عنه في يُسرٍ

هكذا ينصُّ على (**كُلُّ نفسٍ بِما كسبَت رَهينَة**)، (**ولا تزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى**)؛ (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَهْ ومَنْ يعمَل مِثقالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَه**)؛ إلى غيرِ ذلك من هذه الآياتِ التي تدلُّ في غايةِ النّهايةِ على أنّ اللهَ تعالى عادلٌ (**وما ربُّكَ بظلاّمٍ للعبيدِ**)؛ وهو ما أشار إليه الرّسول الكيمُ حينَ وجّه أتباعَه للهجرةِ إلى الحبشةِ (**لأنّ فيها ملكًا لا يظلمُ عنــدَه أحــدٌ**)؛ وهو أيضا ما نفهَمُه من أقوال كثيرة وردَت من مثل (**العَدلُ أساس المُلْك**).

بهذا الفهمِ يكونُ اللهُ مصدرَ العَدلِ والمَحبَّة؛ لأنّ تحقيقَ العدلِ والإنصافِ بينَ النّــاسِ ممّا يفتقدونَه على مَدارِ التّاريخِ؛ ولا سيّما أولئك المستــضعفونَ المهــضومة حُقــوقُهم، المسلوبون من حيثُ الوُجودُ أصلاً. ولو أنّنا دقّقنا النّظر قليلاً في هذه الثُّنائيّة غيرِ القائمة أصلاً: (اللهُ مصدرُ الإحساسِ بالأمنِ والأمانِ والمحبّة؛ اللهُ مصدرُ الإحــساسِ بالرّهبــة والخوفِ) لوجَدناها ثُنائيّة مُبتَدعة مُلَفَّقةً؛ الطّرفُ الثّاني منها غيرُ قــائمٍ فــي النّــصوص الشّرعيّة، فمن أينَ جاءت؟. إنّ مقايسةَ الثّنائيّة المتقدِّمة على ما خبراتِنا وتجاربنا يــؤدّي فورًا إلى استنتاج أنّ ثَمّة مَن أرادَ انطِلاء هذا الوصفِ على اللهِ تعالى، مُحاولا اســتغلالَ هذا الوصفِ لتحقيقِ غرضٍ في نفسِه؛ أو مطبِّقًا لِما يُحسُّ هو من تهديد وخَوف. فالعقوبة التي يصفها القرآن الكريم، والحديث الــشّريفُ ليــسَت للمــؤمنين، ولا للمــسلمين، ولا للمهضومة حُقوقهم وإرادتُهم؛ إنّما هي لكلِّ الذين يُمارسونَ الاضطِهادَ والظُّلــم والــسّلب والنّهب وسائر الجرائم بحقٍّ أنفسهم وحقِّ النّاس؛ هؤلاء إذن هُم الذين يُحسّون الخــوفَ، ويتوقّعونَ مصيراً أسودَ قاتمًا في الحياةِ الأُخرى؛ وهؤلاء هُم أنفسُهم الذين عملوا علــى بثِّ هذا الوصفِ لله تعالى باعتِباره مصدَر تهديد وخَوف؛ لا مصدرَ أمْنٍ ومَحبَّة وعدالة!. ولو أنّنا نظرنا في كثير من مُدَوَّناتِ الفِكر الإسلاميّ التي كُتِبَت فــي عهــدِ الــسّلاطينِ والحُكّام الذين سعَوْا إلى السُّلطانِ بالقَهر والسّيفِ، لوجدْناهُم يَميلونَ إلى توظيــفِ مبــدأ الخوفِ على المصير الأُخرويّ عند عامّة المسلمين من أجل تحقيق أهدافهم الخاصّــة؛، وإنجاز مشاريعهم الدُّنيويّة مستغلِّينَ النّصوص التّــشريعيّة، والآراء الفقهيّــة والــشّروح التّفسيريّة وتأوُّلها بالوُجهات التي يُريدُون؛ ومن ذلك:

- قول مُعاوية حينَ بُويع: (ما قاتلتُكُم لتصلُّوا أو لتصوموا، إنّما قاتلتُكم لأتأمَّر عليكُم).
- قول زياد ابن أبيه لأهل العراق: (إنّ الضّلالة العَمياء، والجهالــةَ الجهــلاء، والغِــيَّ المُوفِي بأهله إلى النّار).

وقد انبَنى على مثل هذه الأقوال تصانيفُ في الفقه؛ ومن ذلك أنّ ابنَ عُمر قالَ يــومَ

تغلّب مُعاويةُ: (نَحنُ تَبَعٌ لِمَنْ غَلَبَ)؛ ومنها قالَ أحمدُ بنُ حنبَل: (الخِلافةُ لِمَنْ غلبَ؛ وإنْ قهرَ عليها بالسَّيف).

يومَ استَخدمَ بعضُ المسلمينَ وصفَ (خليفة رسول الله) كانَ الأمرُ قد بدأ يُشيرُ إلى شيء من الخِلافةِ في التّشريعِ والأمر؛ ويومَ أصبحَ الخليفةُ (خليفةَ اللهِ في الأرض) تملّكَ تَمامًا المنصِبَ الإلهيّ في الدُّنيا فصارَ (فعّالاً لِما يُريدُ)، وصارَ (لا يُسألُ عمّا يفعلُ وهُم يُسألُونَ). من هُنا نفهَمُ كيفَ حُرّفَ تفسيرُ كلمةِ (الجَماعة) لتكونَ دالّةً على الكثرةِ التي عليها النّاسُ الذين يُغلّبونَ على أُمورهم بالسّيفِ والسُّلطانِ، وبالمال والخديعة والتّزوير والتّحريفِ؛ على الرّغم من أنّ الأصلَ كما قال رسول الله: (**الجَماعةُ ما وافقَ الحقَّ، وإنْ كانَ واحدًا**). ومن هُنا أيضا نفهَمُ تحريفَ الحديثِ الشّريفِ الذي فيه استثناء من عصمة الدّم، بحقِّ الزّاني المُحصَن، ومَن قتلَ نفسًا بغير نفس؛ لتُضافَ إليهما عبارة: (التّارك لدينِه المُفارِقُ للجَماعة)؛ ومن هُنا نفهَم أيضًا **هذه التّسميةَ العَمياء التي لا أصلَ تاريخيًّا لها (أهل السُّنّة والجَماعة)**؛ وهي أهل الحديث والأثر؛ وعام الجَماعة الذي أطلقَ على العام الذي اجتَمع فيه المسلمون من جديد بعد الحُروب الدّائرة في صدر الإسلامِ؛ يومَ تَنازل الحسنُ بن عليّ لمعاوية عن الحُكم بشروطٍ لها مَجالُها البعيد عن هذه الورقة.

– كلُّ ما تقدّم في هذه الفقراتِ دالٌّ على أنّ العقليّة التي انشغلت بتسويغ (تبرير) فكرة كون الحاكم ظلاً لله في الأرض، عملت بِجُهد عظيم حتّى استطاعت إضفاء صفة الألوهيّة على الحكّام والفاسدين والجائرين؛ الذين يُعاقِبون النّاس على أفعالهم، ولا يستطيع النّاس أن يُعاقِبوهم على أيٍّ ممّا يأتونه إلاّ بالانقلابات والحُروب الطّاحنة التي تُودي بالأخضر واليابس، ويروح فيها أناس أبرياء ضَحايا الرّغبة في العدالة والأمن وإحقاق الحقوق، والعيش الكريم الحُرّ. وليت هؤلاء ينظرون في قول أبي بكر: (قد **وُلّيتُ عليكُم ولستُ بخيرِكُم؛ أعينوني؛ إنْ رأيتُم فيَّ اعوجاجا فقوّموني**)!!!

في البدء كان التابو، ثمّ جاء الخوف

موفق محادين
رابطة الكتاب الأردنيين

من جملة ما قرأت حول سيكولوجيا الخوف ما كتبه المخرج الياباني (اكيرا كـورو ساوا) في مستهل سيرته، فخلال سنوات الحرب ومع ازدياد حالات الحروق، سمع الناس أن أفضل مرهم للحروق هو عرق الضفدع، وكان يتم الحصول عليه بوضع ضفدع في صندوق كل جدرانه من المرايا، فما أن يرى الضفدع صورته من كل جانب حتى يصاب بالرعب ويفرز مادة دهنية، يجري كشطها عن المرايا واستخدامها في المرهم المنشود.

تأملت الفكرة والمشهد داخل الصندوق واهتديت إلى ما يسر البال وتخيلت كيف وكم من الصناديق والضفادع والمرايا عرفها شرق المتوسط: الاستثمار في الخوف وتحت أية ذريعة من أرخبيل سولوجنستين إلى مدن الملح وما أكثرها... شعوب كاملة توضع في الصناديق اليابانية، صناديق اكيرا ساوا، وتجبر في ظروف مرعبة على تبرير البقاء والدفاع عن جدرانها الرهيبة من أجل اطفاء الحرائق بالخوف ..

في البدء كان... التابو، وليس الخوف

أياً كان رأي علماء السيكولوجيا والسيسيولوجيا في الخوف والغرائز الفردية، إلا أن الخوف كثقافة اجتماعية ليس قديماً.. ولم يدخل سيكولوجيا المجتمعات الا في عصور الانقسامات البطركية الطبقية الكبرى... في مرحلة الصيادين والشامانات والأمومية المتأخرة، كان **الوعي البدائي بوحدة الوجود: (وحدة الانسان والطبيعة، السماء والأرض، اللغة والعالم، اللفظ والمعنى) قد قلص القلق الإنساني**، الخوف من الموت خصوصاً، إلى حده الادنى وقلص معه المظاهر الاجتماعية للخوف العام، وقد ساعد البشر في ذلك أمران:

- **الأمر الأول:** أن ثنائية الخير والشر أو المانوية التي تنسب لها المعايير الأخلاقية اللاحقة لم تكن قد توطدت بعد، وظلت متوارية أمام سيطرة التابو، الذي يتعدى الاشخاص إلى الاشياء المحظورات المتصلة بها، وهو كما يقول فريزر: كلمة

بولينيزية اكتشفها لأول مرة الرحالة الشهير الكابتن جيمس كوك أثناء رحلته الثالثة حول العالم وذلك عام 1777، ونظراً لصعوبة ترجمتها ترجمة دقيقة، فقد أدخلت الكلمة ذاتها في الكتابات الانثروبولوجية والاجتماعية، وأصبحت من المصطلحات العلمية المقبولة في جميع اللغات. والمقصود بالتابو على العموم، الممنوع أو الاشياء المقدسة التي لا يخطر على الناس الاقتراب منها خشية تدنيسها مما يعرض الشخص نفسه للخطر وللدناسة الشعائرية. ويرى **فرويد في "الطوطم والتابو"**، أن أقرب ترجمة للكلمة، هي **"الخوف المقدس"** لأنها تجمع بين خاصية القداسة التي تتمتع بها الاشياء التي تعتبر "تابو" وبين التحريمات والقيود التي تفرض على الناس إزاء هذه الأشياء ذاتها. وتختلف قيود التابو عن القيود الرتيبة في انها لا تصدر عن أمر إلهي، ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم على أنفسهم، كما تختلف عن النواهي الأخلاقية في أنها لا تدخل ضمن نظام متماسك يبرر لنا هذه التحريمات ويبين أسبابها وأصلها، ولذا، فإن قواعد التحريم في التابو تقبل على علاتها كأمر لا مفر منه. ويعتقد بعض الأنثربولوجيين أن التابو هو:

1. أقدم قانون غير مكتوب لمجلس الشورى، بل إنه وجد قبل أن يعرف الإنسان الدين والآلهة. إن تحريمات (التابو) تحريمات قاطعة.
2. على اعتبار أن خرق (التابو) يلحق الأذى ليس بالشخص العقدي وحده، وإنما بالمجتمع ككل. والتابو عند العرب تعني: حرام أو محرم، وعند اليهود: قادش.

ومن أبرز الأشياء التي يقع عليها التابو في تراث الشعوب والجماعات القديمة: الاسم، الشعر، الطعام، الحديد. والحق، فإن الرجل البدائي يعتبر اسمه جزءاً حيوياً من نفسه ويقوم برعايته وفقاً لذلك، ولهذا فإن بعض العشائر الاسترالية تعمد إلى إخفاء أسماء أفرادها عن أن تعرف بشكل عام، خوفاً من استخدامها في السحر للإضرار بأصحابها، ولهذا السبب نفسه كانت أسماء المصريين القدماء مزدوجة يحتفظ بواحد منها سراً، وكان العرب – حسب محمود سليم الحوت – يسمون أبناءهم بمكروه الأسماء، ككلب وضرار وحرب.

– **الأمر الثاني**: هو أن **الأب – الإله**، لم يتحول إلى سلطة كلية بعد، وبالتالي إلى مصدر لإنتاج ثقافة الخوف كثقافة اجتماعية، بل إن الأب كما يخبرنا فرويد كان ضحية الأبناء وكان يستعاد في تحيينات دورية طوطمية تختلف عن دلالاتها الاجتماعية كما سنرى ...

لاحقاً وبالرغم من أول انقسام كبير في تقسيم العمل رافق (مرحلة الزراعة، الأسطورة)، إلا أن انشقاقات وحدة الوجود والوعي المطلق (البدائي)، لم تؤسس لثقافة خوف اجتماعية عامة، بل إن جرأة الانسان زادت مع اكتشافه النار والحديد وزيادة السيطرة على الطبيعة. والملاحظ في هذه المرحلة، أنه وبالرغم من تبلور الأسرة والملكية الخاصة والدولة، إلا أن الأب – الإله ظل ضحيتها، وكان الأبناء (الخلق) أكثر جرأة في تحدي هذه السلطة. صحيح أن هذه المرحلة، حسب فرويد، هي التي أسست للخطيئة والعقاب إلا أنها لم تؤسسها على الخوف بل على الندم وظل الأبناء وهم يستعيدون جريمة قتل الأب، الإله في القرابين والأعياد الدورية ظلوا يفعلون ذلك خارج منظومة الخوف بل من أجل التوحد معه أو فيه.. وكان أبرز مؤشر على ذلك الطبيعة الاستدعائية للقربان وليس الطبيعة الاسترضائية. المرحلة التي أسست لثقافة الخوف الاجتماعي هي مرحلة الانتقال من **التعدديات** الأمومية المختلفة، القبائل، المعتقدات، إلى مرحلة **المركزة البطركية**، مركزة السلطة والثروة والمعتقد، ابتداءً بالديانات، وانتهاء بالرأسماليات المعاصرة حيث اختلفت قيمة ودلالة الدورة الفرويدية السابقة اختلافاً تاماً.

أولاً: بالنسبة للخطيئة، قد لا يكون صاحب الطوطم والتابو، عالم النفس الشهير، فرويد، على حق تماماً وهو يعيد التداعيات العالمية الدارجة في احتفالات الندب الجماعية إلى خطيئة قتل الأب.. ولكنه على الأقل أعادها إلى خطيئة ما .. وهو ما لم تكذبه الاساطير والطقوس القديمة وهي تعتلي الوعي المعاصر بتجليات مماثلة.

ومقابل قتل الأب (أوديب) في المرحلة السابقة فإن الأب في هذه المرحلة هو الذي يقوم بقتل الابن أو تعذيبه كما حدث مع المسيح وأيوب. ومقابل الحضور السابق للمرأة – الأم فإنها في هذه المرحلة ليست سوى ضلع من الرجل ومسؤولة عن إغواء الرجل وإسقاطه من الجنة.

كما أن انفصال السماء عن الأرض، الانسان عن الطبيعة في هذه المرحلة لم يكن بداية لاستقلال الانسان ومعرفته كما في الأسطورة، بل كان عقاباً له في التاريخ لانه صار عارفاً وبالتالي آثماً وبالتالي خائفاً. وسنرى لاحقاً أن المعرفة الجديدة شقاء تاريخي مركب من العقوبة والندم والتوق للعودة إلى جنة الأب السماوية، هكذا مقابل الخطيئة القديمة أياً كان سببها، نتحدث في أمورنا وأمور الناس عن الفساد والقمع والخيانات التي ولدت الهزائم في رحمها كبذور شيطانية. الاشتراكيون يعيدون الهزيمة إلى خطيئة

النظام الرأسمالي، والرأسماليون إلى خطيئة النظام الاشتراكي. وهكذا دواليك.. القوميون واليساريون والاسلاميون.. اتهامات متبادلة مشفوعة بالمرجعيات الوفيرة والفتاوى الجديدة. ثمة تفاحة آثمة في كل مرة ترتب عليها كل ما ترتب.

ثانياً: العقاب: وهو هنا بخلاف العقاب الموضوعي (القدر اليوناني)، فهو شكل من الاخصاء الروحي، من الجفاف السماوي في الشرق إلى المرض في العصر الفيكتوري. إنه الخوف العام، على الأرض، داخل الانشقاقات الكبيرة لوحدة الوجود، وداخل التاريخ بوصفه سياقاً شيطانياً وعقاباً على النكران والجحود القديم في الجنة المفقودة. وهو خوف عام مصدر من الخارج إلى الداخل وعبر الرقابة المباشرة للوكيل الأرضي وسلسلة من محظورات الهيمنة وقيم القوة السائدة المسوقة على شكل معايير أخلاقية حيث تحل اللعنة عبر القاصد الشيطاني كعقاب محتوم لا رادّ له. في الاساطير اتفاق مبدئي على الصورة إياها .. القناع الأسود والفأس المعقوفة في رؤيا حزقيال ودانيال.. وقبلها الوحش المائي، والنتيجة معروفة.. الخروج من الجنة في تأويل ما، لما ذكرته الكتب المقدسة. ما يحدث عربياً اختبار ما أيضاً... فالهزيمة شكل من العقاب الخارجي.. والشيطان واضح الملامح هذه المرة بفأس جديدة أكثر تدميراً وتقنية. ومن السهل الاضافة هنا ما يتيسر عن الخروج من الجنة إلى الخروج من الأرض نفسها: الجولان، سيناء، الضفة الغربية العام 1967، لبنان 1982.

ومما يغري بالدلالة في هذا المقام، خروج الفلسطينيين عبر البحر مقابل الكذبة اليهودية الشائعة عن العودة إلى فلسطين عبر البحر أيضاً في حكاية العصا مرتين.. مرة من مصر، ومرة عبر مخاضات أريحا.

ثالثاً: الندم، إذا كان القربان الاستدعائي هو عنوان الندم في المراحل السابقة، فان القربان الاسترضائي القائم على الإخصاء والاذلال والخوف هو عنوان هذه المرحلة...

وعلى الانسان أن يكون في حالة ندم سرمدية وخوف دائم من أجل الخلاص.... ومن تجليات ذلك في الحالة العربية ما تتيحه من إحالات خارجية وداخلية تضيع فيها الحدود بين التراجيديا والكوميديا وخصوصاً في حالات الاستخذاء المبجل التي تختصر السيكولوجيا العربية في انفصامات قلّ نظيرها في علم النفس الاجتماعي. وسنرى كيف أعادت المجتمعات البطركية إنتاج ثقافة الخوف المذكورة حتى في حقبتها الرأسمالية التي

تنسب إلى نفسها الحرية. ورغم أن هذه الحقبة تنطوي على ثقافة تمايز واضح بين الطبقة الرأسمالية الأصلية في الشمال الأشقر.. وبين الطبقة الكولونيالية جنوب العالم، إلا أن ثقافة الإخصاء والإقصاء وترجمتها الاجتماعية ثقافة الخوف، ظلت أهم القواسم المشتركة بين الطبعتين بوصف الرأسمالية حقبة طبقية بطركية بامتياز. فليس صحيحاً أن الغرب حرر نفسه مقابل استمرار الاستبداد الآسيوي، فكل ما هناك أن شكل الاستلاب والخوف قد اختلف وفق السياقات الاجتماعية (المتقدمة في الغرب) (والمتخلفة في الشرق)، وبالتالي فإن العمل على الاستعارة الاستشراقية للنموذج الغربي لتحرير الشرق، استعارة بدون معنى، وتتجاوز ملاحظات ادوارد سعيد التي تسجل على الغرب احتكاره للحرية لنفسه .. فالغرب أيضاً ما دام رأسمالياً، فهو أسير خوفه واستلابه الخاص. في الطبقة الرأسمالية الأصلية، ثمة استبدال للبنى السابقة عبر الثورتين الكبيرتين، الثورة الصناعية التي ارتبطت بالتنوير والحداثة ومدارسها، والثورة المعلوماتية التي ارتبطت بالتفكيكية وما بعد الحداثة. لقد تمكن الغرب فعلاً بفضل هاتين الثورتين من تحطيم البنية الجمعية السابقة لصالح انقلاب مزدوج، الفرد والمجتمع، لكنه لم يشطب خوفه واستلابه بل حوله من استلاب وخوف وإخصاء أنثروبولوجي إلى اخصاء سلعي، كما حول المرأة على حد تعبير داكو إلى ذكر برجوازي ولم يحررها في الواقع.

إن **الرأسمالية** بدل أن ترتقي بفردية البشر سحقتها وحولتها إلى كائنات بيولوجية وفق المدرسة الأمريكية النفعية وقبلها مدرسة فيينا اليهودية التي بجلت العقل الصوري الميكانيكي... وكان الأخطر من كل ذلك هو تبدياتها السياسية في "لوياثانات" هوبز التي لم تقدم لنا عقداً اجتماعياً للحرية بل أعادت إنتاج (الاستبداد الاسيوي) وثقافة الخوف بأشكال رأسمالية... أما في الشرق فلم يكن **(أرنست رينان)**، أقل سوءاً من **(برنار لويس)**، ولا حتى من الفوهرر صاحب الذراع المستقيمة. فقد وضعونا جميعاً في الدرك الأسفل من الجينات البشرية. ولم يحشرونا مع الأنبياء والصديقين كما نحب ونشتهي، بل مع الزولو والهوتو ورعاة منغوليا مثل القطن قصير التيلة.. وهذه كما ترون نزعات استشراقية عنصرية، تحيلنا إلى عالم **(شاتوبريان)**: حمامات شهية، عطر فادح، لذائذ آسيوية وعبيد وخلاسيات ورجال متكالبون على النساء والخدور تكالب الذباب على سكر كامل الدسم.

على أن السيد رينان وربما برنار لويس لم يكونا على هذه الدرجة من الغي دائماً. فثمة فسحة قبيحة، روزنا باهتة لا تسمح إلا للضوء الأسود بالتسلل إلى الفاكهة الطرية.. وتعود ابتداء إلى سيكولوجيا العبيد، الرعاع وأبناء السبيل الذين يسقطون رغباتهم وانكساراتهم وكفاف يومهم على مخلّص ما، فيصلبونه أو يبكون عليه، ويمجدونه في السراء والضراء... في انتصاراته القليلة وهزائمه التي لا تعد ولا تحصى.. كما في موته الغائم أكثر ما يمجدونه في حضوره الفاحش خلف ثيرانه السوداء وهو يمد ذراعه إلى الأمام مثل سماء بدون بنيان. وكيلهم المعظم هذا هو في الواقع أرخص مما يظن ويظنون.. دريئة عن بعد وشفاعة لا تكفلهم تماماً كلما جابوا الصخر في الواد .. وكلما طالهم عقاب الجبروت الكلي بجريرة واحدة منهم، لم يتعرفوا عليه مرة واحدة ولم يتبينوا من أمره شيئاً. فالأشباح تتوارى قبل صياح الديك. ومن النادر أن تواطأت جماعة ما مع الوكيل السماوي الأعظم أياً كانت ولادته، تحت نخلة أو تينة أو في مزبلة .. على عقد اجتماعي منحط كهذا كما فعلنا.

فلا هو عقد تجار البندقية كما اختلسه هوبز مع "لوياثان" ما جدير بالهيلمان.. ولا هو عقد لوك والماغنا كارتا، التي كتبت على فروة رأس مجيدة من سلالة ادوارد الأول ..

ولا هو عقد اسلافنا الميامين في أوروك أو ثيبا أو بابل.. **أنت نحن ونحن أنت أيها المبجل**.. فحينذاك لم يكن سوى قارب واحد في العالم السفلي، ولم يكن البحار الأعمى هناك يميز بين ضيوفه الأعزاء من الموتى... فقد كانوا عراة جميعاً .. وكانت الفضيحة كاملة... وما دام الأمر بهذا السوء بالنسبة للمتجبر الكبير، أقصد الصغير.. فما الذي يمنعه من أن يظل جاثماً على صدور الاحياء، وهو قرير العين في قبره الوثير.

في تصريح مقتضب لصاحب أغرب وجه في التاريخ، فلا نعرف إن كان متجهماً أم حزيناً مثل الجيوكندا.. كان تشرشل .. السير **ونستون تشرشل** قد قال وهو يتمعن في صورة الثلاثة الكبار على ضفاف يالطا.. أياً كانت جرائمنا – يقصد الإنجليز – فلن يقود أحدنا إنجليزياً واحداً من قبره. وسأكون محظوظاً إذا ما تذكرني أحد بسبب سيجاري الطويل. وبدون أن يتحدث عن زميله الجلف في الأورال، فقد كان على حق تماماً في إيحاءاته التي لم تدحضها الأيام. وظل الرجل الحديدي صاحب القدم المتورمة يدير روسيا من قبره.. ولعله ما زال. وكان على صاحب الرأس المستدير، تشرشل، أن يقول شيئاً عن طريق الحرير والأفاعي والسحرة، وخلق الله الذين حكمهم على امتداد الطريق

من بومباي إلى حيفا، وأعد لهم نشيدهم الوطني وياقات جنـرالاتهم وهويـاتهم القاتلـة وسفالاتهم، التي لا تكف عن الضجيج والعراك من أجل ما تبقى لهم تحـت النوافـذ، ولا تريد أن تصدق أن رجلاً واحداً خلف البحار جبلهم على هذا النحو المزري على ظهـر السفينة فكتوريا. فالأحياء على ذمة الموت، أو الأموات في مـدونات الأحـوال المدنيـة والسجل العقاري العثماني لا تشغلهم هذه الافتراءات ولا يريدون أن يصدقوا أن محمـداً قد مات إذا كانوا يعبدون الله حقاً. المهم أن الناس سامحهم الله من فرط كسلهم وخـوفهم، لم يفوضوا أمرهم إلى الله، ولم يعقلوا جملاً واحداً... وعوضاً عن ذلك، ظلوا يفوضـون أمورهم إلى وكيل ما في كل مرة.. يضمن لهم صكوك الغفران وخبز يـومهم، ويعـود إليهم في الأحلام إذا ما غاب عنهم لسبب، وما عليهم سوى البكاء والندب واللطـم مـن أجل استرجاعه وانتظاره بعد غيبوية كبرى أو صغرى طوعاً أو كراهية... وفي تـاريخ اللطم واللطامين والزمن الاسترجاعي "للاسكاتالوجيا" الكونية لا بد مـن التمييـز بـين حقبتين.

الأولى، حقبة العبد القن، الذي كان يستخدم لمرة واحدة مثل عود الكبريت وكاسات البلاستيك.. ثم يموت من شدة الجوع والإنهاك والولاء، أو من شدة الانتظار تحت شجرة المتشردين الاثنين كما اقترح صموئيل بيكيت.. أو من شدة الثقة بأن موت الوكيل، ليس سوى امتحان للإيمان والصبر قبل عودته المظفرة من العالم السفلي.. فهو لم يصلب أو يهزم إلا من أجل هذا الامتحان.

أما الحقبة الثانية، فهي حقبة العبد العمومي، العبد (المودرن) الذي يظـن بنفـسه أحسن الظن لمجرد أنه يتحدث عن دولة المؤسسات والحقوق والواجبات وحق الاختيـار بين ثلاثين نوعاً من الجبنة الفرنسية . ولا يتدارك نفسه في كـل مـرة أمـام صـناديق الاقتراع الثلاثين.. فيعود إلى سيرته الاولى بانتظار الوكيل الفقيد الذي لا يأتيـه الباطـل أبداً ويعود من هزائمه المجيدة في آخر الزمان مكللاً بالمجد والمسرات.

إذا كانت **فكرة الوكيل** مشتقة من حكاية السيد والعبد وتفويض الإكراه الناجم عن الخوف، فإن الخوف نفسه ناجم عن فكرة الثواب والعقاب بتأويلها الرسمي، ولعل من الملاحظ هنا أن غياب الدولة الحديثة والمجتمع المدني هو القاسم الأعظم بينهما، فهذا الغياب هو الذي حول البشر في الحالة الأولى إلى رعايا ينتظرون مكرمات السيد، كما

ينتظر الفقراء حاويات القمح والفئران الامريكية (ليس للبيع أو المبادلة)، وكما ينتظر الصيادون وقطاع الطرق الطرائد والقوافل الضالة،وكما ينتظر القرويون المطر الشحيح.

ويلخص (**ديزموند، موريس**) هذه الحالة في سلوك السائق أمام شرطي المرور: الابتسامة العريضة الصفراء، الانحناءة التي تشبه انحناءة الوزراء الجدد عند حلف اليمين، فالقرد المغلوب الكامن داخل كل سائق وداخل كل وزير في مجتمعات العبيد، يدير ظهره فوراً للقرد الغالب علامة على الرضوخ والتخلي عن الشرف. ويعبر عن غبطته واستعداده الكامل لما يريده القرد الضخم، الذي لا يعف غالباً عن هذه الهدية المشينة. مقابل هذا السلوك،تبدو سلطة الإكراه السائدة سلطة قرود بامتياز، لا تعف عن شيء، وتتبادل مع ضحاياها عدم الاكتراث بالشرف والكرامة، ولا تتورع عن توكيد هذا السلوك برفع كل حظر عن الانتهاكات المرعبة داخل أقبية الإسبست والتعذيب، فالمهم هو تحويل البشر إلى كائنات خائفة مخصية مهانة دوماً لا تحتمل اكثر من ديك واحد.. هكذا، وبدلاً من أن تنظم العلاقة بين الجميع على أساس الحقوق والواجبات، ضمن دولة العقد الاجتماعي المدني، تنظم العلاقة على أساس الثواب والعقاب، الحرمان أو الأعطية، هذه العلاقة بين طبيعة السلطة السائدة وطبيعة المجتمع السائد، فضيحة كاملة الدسم، إذ ليس ثمة مجتمع إذاً، بل مجاميع متباغضة، تتدافع خلف أي كبش في عنقه جرس، أي جرس!. هكذا وبخلاف ثقافة الاستلاب السلعي في رأسمالية الغرب وما تنتجه من خوف مقنع بعقد توماس هوبز، فإن الرأسمالية الكولونيالية في الشرق ظلت تعيد إنتاج بنيتها الاجتماعية ما قبل الرأسمالية وخوفها المقنع بالثواب والعقاب، فظلت مفاهيم هذه البنية جاثمة على مفاهيم الفرد والمجتمع، وصار العقل المستقبل للاخصاء – الاستلاب الأنثروبولوجي موازياً للعقل التقني – الوضعي للاستلاب الرأسمالي – السلعي، وممانعاً في الوقت نفسه لكسر ثقافة الخوف داخل التاريخ بما هو آثم وشيطاني.. فظل الإنسان هنا كما يقول (ياسين الحافظ) يعيش وطأة الانسحاق كدودة.

كسر الخوف ... الأوهام والحقيقة

مقابل الخلاص، الروحي، الباطني، الذاتي عند الغنوصية والصوفية والبوذية وعدم الإيمان بالقوى المفارقة .. فما هو سائد الخلاص من الخارج؟ ويعتقد الشيعة أن الامام الثاني عشر الذي يعيش بين الناس دون أن يعرفوه يقود العالم من مخبئه عن طريق ما

يعرف بالوكيل وأحياناً السفير. ويشاطر أهل السنة الشيعة في اعتقادهم بظهوره، ويختلفون على ذلك، أهو في مكة كما يقول الشيعة، أم في بيت المقدس كما يقول السنة، ويحمل معه عصا موسى وتابوت العهد وخاتم سليمان .. وينتهي حكمه بهبوب ريح طيبة تقبض روحه إلى بارئها.

كما عرفت أوروبا أكثر من حكاية مثيولوجية اسكاتولوجية في العصر الوسيط، أبرزها حكاية الملك آرثر والملك فردريك الثاني. وحسب **لوكاتش** في "تحطيم العقل" فإن **الشعوب المهزومة تحيل أملها ورجاءها إلى بطل وهمي، يفرك عينيه سنيناً وربما قروناً قبل أن يصحو من بياته الطويل.** وقد سهلت الاتجاهات اللاإرادية والتشاؤمية في الفلسفة، هذا الخداع الكبير.

كيف يعود المخلص

رغم أن فكرة المخلص، فكرة خارجية بحد ذاتها، إلا أنها لا تتحقق من تلقاء ذاتها، فلا بد للجموع من أن تحضّر اللحظة التاريخية للعودة الميمونة، وتختلف هذه الجموع في طقوسها وعقائدها باختلاف ظروفها في كل حقبة اجتماعية. وتتراوح استدعاءاتها وأساليبها بين الزهد الفردي والصمود أمام الشيطان ومشاعر الخطيئة والندم، وبين العمل المباشر. وحسب الزهد الفردي، فعلى الإنسان أن يمرن نفسه بتدمير حواسه وإنهاك جسده حتى يصبح قادراً على التماهي مع المخلص في لحظته التاريخية. وعلى المرء، في الحالة الثانية، أن يعرف كيف يصمد امام الشيطان كما صمد بوذا والمسيح وإبراهيم وأيوب... بوذا أمام مارا بالتأمل تحت التينة الذي هزم الشهوة وقهر الجسد ودخل في النرفانا... وأيوب صاحب القول الشهير "لو اغتسلت في الثلج فانك في النقع تسمعني".. وكلما ازدادت هزائم الشيطان، اقترب زمان المخلص. وأيوب ايضاً، هو الأب الروحي للفكرة التي اعطت للألم قيمة حاسمة للخلاص، حتى أن يونج اعتبر صلب المسيح تكفيراً لما حدث مع أيوب. وجميعهم، بوذا والمسيح وأيوب مرجعيات مقدسة للإحالات الجديدة في المستوى الثاني كما يمثله المخلص.

الحالة الثالثة، مشتقة من قراءة فرويد للطوطم والتابو في الحالة الأوديبية. فالاشتراك الجماعي في جريمة قتل الأب شرط أساسي لاسترجاع هذا الأب بوصفه مخلّصاً.. ولا يتم ذلك بالنكوص السلبي بل بإبداء مشاعر الندم، وتمثّل الجريمة في

طقوس جماعية مروعة كما يفعل الشيعة في عاشوراء وكما تفعل بعض الجماعات المسيحية المجددة في الولايات المتحدة التي تنفذ انتحارات جماعية في مواقيت فلكية لاستعجال عودة المسيح. الشكل الآخر لتعجيل عودة المخلص، هو العمل، كما أسسته الزرادشتية، فالخلاص وزمان الخير يحتاج لمساعدة الانسان من أجل الإسراع في هزيمة الشيطان، بل إن الرومان إمعاناً منهم في هذا السبيل لم يعرفوا الكهانة.

وليس صعباً اضافة الماركسية إلى قاموس الاسكاتولوجيا والفردوس المفقود، الذي ينتظر مخلصه الطبقي البروليتاريا. فالماركسية هي الفلسفة الوحيدة التي أنتجت الحتمية (كمفهوم لا تاريخي) داخل التاريخ. والملاحظ في كل هذه الإسقاطات أنها تكرس العقم الداخلي لصالح الولادة بالنعمة السماوية. وتعيد إنتاج الدورة المغلقة، الخطيئة، العقاب، الندم كدورة خارج التاريخ والإرادة. إن التشاؤم ليس عقلاً محرضاً على المقاومة، كما اعتقد شوبنهاور، بل مصادرة على المطلوب وإحالة للعقل على التقاعد.

والنتيجة أننا لم نؤسس خطاباً جديداً مختلفاً بل خطاباً مشبعاً بالهزائم الدافئة الكسولة الصالحة لبيات شتوي طويل. ويستوي في ذلك الذين يعلمون والذين لا يعلمون، الذين يقبلون والذين يرفضون. إن تسويغ الحوار مع العدو بسلام الإكراه ليس أسوأ كثيراً من تسويغ الصراع معه بخطاب الممانعة كما يقول الباحث اللبناني محمود حيدر. فنحن إزاء تجليات متباينة لخطاب واحد، هو خطاب الندم في الحالتين السلبية والإيجابية. وفي الحقيقة فنحن أمام نسخة كوميدية من أساطير الأولين الذين لم يكن الشيطان بالنسبة لهم حالة ملتبسة أو مجرد ورطة ما، وهم يلتمسون الندم بطقوسهم البدائية الواضحة والحادة.. لا حوار. أما نحن وبقدر ما تستغرقنا الحالة القديمة في صحراء الخطيئة والتوبة، بقدر ما نفزع من واجباتها واستحقاقاتها في اللحظة الأخيرة، ونتدبر أمرنا بحيل بائسة في الامتحان العسير أمام الشيطان... سلام الشجعان، سلام الإكراه، اللاحرب والسلم. وفي أحسن الأحوال البكاء على أطلال الشهيد أو إبداء الممانعة بذرائع وأسباب وحيثيات، وكأن شيطاننا المائي في نتانيا ليس واضحاً بالقدر الكافي بوصفه عدواً مبيناً وبدون أدنى التباس.

وهم الكتابة

تنتمي الكتابة، فلسفتها خصوصاً إلى العالم الهامشي، للأنا المقموعة، كما حدده فرويد: الانزياحات، التصعيد المدجج بالكراهية والثارات، التسامي السلبي في مختلف بضائعه، التسامي الكسول، والتسامي السلبي جداً.

بهذا المعنى فالكاتب، ابتداء، فرد من جماعة يخضع لهذه الميكانيزمات، وكذلك الكتابة. ثمة أنا مقموعة في الحالتين، عند الأفراد وعند الشعوب في حالات انكساراتها وفضائها الوطنية. وكما هي سيكولوجيا الأعماق، شديدة التعقيد والتباينات حسب درجة القهر الطفولي، وحسب محاولات التحرر اللاحقة، فإن فلسفة الكتابة ليست محايدة أو سلطة غير منظورة فوق كل السلطات.. ولا تكشف نفسها خارج حيلتها الذائعة الصيت إلا في اللحظات العصيبة، العارية تماماً مثل سقوط بغداد، وقبلها بيروت وقبلهما، فلسطين. كان بوسع خليل حاوي قبل سقوط بيروت، وكان بوسع تيسر سبول، قبل الدفراسوار في تشرين.. وقبلهم ماياكوفسكي قبل سقوط المطارق في قبضة البيرقراط البوليسي. كان بوسعهم جميعاً أن يقولوا ما يشاؤون في حقل الحيلة بامتياز، الكتابة. ولكنهم في ضوء استحقاقات طفولية مبهمة اختاروا ثلاث رصاصات كانت معدة لصيد الحجل، الذي ينتمي إلى عالم القتل. آخرون لم يفعلوا ذلك، بل إن جاك بريفير الذي جرب المقاومة وضع إصبعه على أنفه لأن رائحة الشهداء نتنة، وأسس كما يبدو لكل النتن الثقافي اللاحق عند العدميين الجدد جنوب المدارات. هؤلاء لم يركبوا هذا القارب وحدهم.. فإلى جانبهم أكثر من مقعد لتلاميذ شبينغلر والوجودية الهائمة التي تعود هذه الأيام مثل الأمراض التي اعتقدت منظمة الصحة العالمية أنها انتهت.. ولعل الأكثر احتفاء بهذا القارب، الوعاظ الجدد الذين لا يكتشفون مزايا المسيح الا عندما تهبط عليهم أثات عليا غير مألوفة وامبراطورية عبيد جديدة بين الحين والحين.. وليست واشنطن اليمين المتصهين سوى روما أخرى على نحو ماسخ والمهم في حال هؤلاء جميعاً أنهم لم يطلعوا جيداً على ما كتبه لامارك في رده على داروين .. فرغبة الزرافات القصيرة العنق في الوصول إلى جوز الهند، غالباً ما ظلت رغبة بعيدة.

وهم العقد الاجتماعي

التعامل مع قضية الحريات الديموقراطية بصورة شديدة العمومية لا تلحظ السياق الخاص للكفاح من أجلها في الظرف الخاص أيضاً، وأقصد هنا ما يتعلق بالعقد

الاجتماعي من المنظور التاريخي الذي يضفي على أية سلطة شرعيتها التاريخية التي تسمح لها بالتقدم أو التراجع (في ظروف معينة) عبر قوانين الطوارئ أو القوانين المؤقتة .. الخ.

وأهمية هذا الاستدراك هي في أننا خارج المنظومة الديموقراطية في خبرتها التاريخية الأوروبية، حيث لم تتأسس الدولة في الشرق العربي لا وفق المحاججات المنسوبة لجون لوك"دولة الغرب الاوروبي الليبرالية الحالية" ولا وفق المحاججات المنسوبة لـ توماس هوبز (دكتاتورية البرجوازية المتطورة). **فنحن**، كما لاحظ المفكر المغربي **محمد عابد الجابري: استعارات وكنايات سياسية – اجتماعية من زجاج فيما القار والكامن في دولنا العتيدة امتدادات لثلاثية القبيلة والعقيدة والغنيمة** التي سوقت نفسها زوراً وبهتاناً في اطار الثلاثيات المعاصرة للطبقة والايديولوجيا والاقتصاد الرأسمالي. وهو ما يفسر أيضاً الملامح المشتركة لأنظمة الشرق المتصارعة سياسياً حيث تحتفظ جميعها بالطابع البيروقراطي الريعي للدولة. إذن، فإن **فكرة العقد الاجتماعي وشروطه التاريخية غائبة تماماً عن دولة المشرق العربي عموماً، والتي لم تولد وفق عقد محلي مدني حقيقي بل وفق توافقات عشائرية مناطقية – طائفية على إيقاع تقسيم العمل والنفوذ بين المتروبولات الاستعمارية.**

وكان يمكن لهذه التوافقات أن تؤسس بالتدريج دولة مدنية مفتوحة على عقد اجتماعي لاحق ـــ لكن ذلك لم يحصل أبداً، بل إن دولة في حجم العراق وموارده ونخبه السياسية والثقافية أكدت قراءة الجابري وعادت إلى عناصرها ما قبل الرأسمالية مع سقوط الناظم الخارجي المركزي لها وهو الدكتاتورية السياسية.. ورأينا أيضاً كيف تحول البرلمان العراقي الجديد إلى كوتات عرقية – طائفية، قطعت تطور الفئات العراقية نحو الاندماج المدني وعادت بالعراق تحت الاستعمار الأمريكي إلى سيرته الأولى في غياب الشروط التاريخية للعقد الاجتماعي المدني التاريخي. يترتب على ذلك اختلاف النظرة بين المواطنين بوصفهم فئات مندمجة إلى حد ما تحركها الحقوق المدنية وبين السكان والرعايا بوصفهم مادة للمكرمات الديموقراطية.. وسنرى في الجانب الثاني كيف ظلت هذه الأرضية مادة للتواطؤ المشترك أولاً بين هؤلاء الرعايا وبين الراعي الأعظم لهم الذي أعاد إنتاج حرية الرأي والتعبير داخل مثلث القبيلة السائدة سواء كانت حرباً أو عائلة أو طائفة أو مجلساً عسكرياً، وداخل العقيدة التي قررتها هذه القبلية، سواء كانت

اشتراكية أم ليبرالية أم قومية في ثياب البعث أو الثورة العربية.. الخ، كما داخل الغنيمة (الاقتصاد الريعي) قبل انكفاء الاتحاد السوفياتي والمشهد الاقليمي والدولي الجديد لدولة الشرق الاوسط.

ويخبرنا فرويد أيضاً كيف تجري إزاحة أو تحويل سيكولوجيا الخوف إلى أيديولوجيا وطنية بالكثير من الرطانة والتسامي المعروف جيداً في علم النفس كتصريف سلبي للترويض الجمعي. يقول **الفارابي** في تبريره لفكرة الإمامة أن الرئيس والإمام والزعيم ظهروا كشيء واحد، ويعبر **نتيشه** في جينالوجيا الأخلاق أن السلطة استراتيجية تقنيات، وليست سيطرة تملك طبقي فقط، فهي توجد في كل علاقات وبنى المجتمع "هكذا تظهر قوى المجتمع المدني كظلال سلطات صغيرة للسلطة وبنى المجتمع، وتبرز هذه المسألة أكثر ما تبرز في المجتمعات الأبوية الكولونيالية، حيث تبدو (الكاريزما) داخل المجتمع المدني أيضاً مماثلة للبطرك الأعظم داخل المجتمع السياسي. وثانياً بين الراعي الأعظم وما يسميه **غرامشي** بالمثقف التقليدي الذي يعبر بالوكالة عن طبقة أخرى، وينحدر غالباً من أصول فلاحية في خدمة برجوازية المدن ويتولى عملاً مباشراً في جهاز هذه البرجوازية أو ينخرط في الماكينة الإعلامية والأيديولوجية لها. وقد وجدت تعبيرات هذا المثقف في المجتمع السياسي، سلطة-محايدة، وفي قانونه، قانوناً محايداً، لا يستدعي التناقض والصراع بل التكامل الأبوي. فالدكتور **فؤاد زكريا** يطالب في كتابة (الصحوة الاسلامية في ميزان العقل) بالاخاء بين الناس بدل الصراعات المرهقة، والمنافسات القاتلة. والكاتبة **منى شقير** ترى أن "تحقيق أهداف الأمة العربية في النهوض لا يتم عبر العمل الرسمي، الحكومي فقط بل إن العمل الاهلي إذا ما تم تفعيله من خلال مؤسسات المجتمع المدني يصبح قادراً على سد الفجوات الحكومية (الدستور 92/4/26). ويمضي **كمال عبد اللطيف** من المغرب إلى ما هو أبعد من ذلك بالدعوة إلى مصالحات أبوية بين كل الانظمة الأبوية العربية ويعتبر مجالس التعاون الاقليمية التي أقامتها شكلاً جديداً وفعالاً على طريق الوحدة (الكاتب الفلسفي ع1992/20).

وهم الايديولوجيا

إن ما أسسه بيكون في أوهام المعرفة (الوعي الخاطئ) وتابعه ماركس وانجلز في الأيديولوجيا الالمانية هام جداً لمراجعة جديدة كما هي مراجعة ضرورية أيضاً لقانون لينين (الحلقة الضعيفة في السلسلة الرأسمالية وما ترتب عليها من أوهام حول إمكانية

انتصار الاشتراكية في بلد واحد، وإمكانية بناء دولة وطنية تحت سماء رأس المال الدولي). فالايديولوجيا وعي زائف ليس في مواجهة (العلم البروليتاري، الوهم الآخر) بل بالمعنى الذي قدمه مانهايم (الايديولوجيا واليوتوبيا) وفرويد ونتشه: التطويع والترويض والتضليل لا لأنه يحول المبادئ إلى وقائع (ماركس) بل لأنه يناقض سوسيولوجيا المعرفة ايضاً ويخلق أقنعة وتمائم وإزاحات تعيد إنتاج الصراع وفق مصلحة الأنا العليا السائدة في حقبتها الاميريالية.

وهم الديموقراطية

الديموقراطية ليست مسألة قانونية أو منبراً للسجال حول حقوق الانسان، بل مسألة صراع طبقي، لا يتعرف على ميادينه وقوانينه داخل بنى ما قبل رأسمالية، ومن المسلم به تقريباً، أن التركيبة الاقتصادية ـ الاجتماعية لمعظم البلدان العربية، في منظومة قوانينها الداخلية، لا تزال من طبيعة النمط الكولونيالي والجزر القطرية المتناحرة المبرمجة، على هامش المعادلات الاقليمية وما تستدعيه من آليات تخلف موضوعية، معادية للديموقراطية بالضرورة. وإذا كانت الديموقراطية قد ارتبطت ببدايات الرأسمالية، فإن الرأسمالية في حقبة العولمة قوانينها المختلفة وخاصة في بلدان المحيط العالمي، التي تصطدم أكثر مما تسير معها أو من خلالها. أيضاً لا بد التمييز بين الحرية والديموقراطية، الأولى كوعي للضرورة من سماته عدم المجاملة التاريخية، والثانية كمقولة سياسية تتعلق بطريقة الاستيلاء على السلطة وإدارتها. وسواء أكانت الديموقراطية ناجمة عن انقلاب أو ثورة أو عقد اجتماعي، فهي حالة انتقالية وتسوية مؤقتة مقابل الطابع التسلطي والاستبدادي للدولة كحالة عامة تاريخية ... ومن النادر أن توقف الفلاسفة والمفكرون عند انطباعات مغايرة للدولة الاستبدادية أو للشكل الانتقالي السلمي المؤقت للدولة. من آرسطو وأفلاطون مروراً بفيكو وابن خلدون وانتهاء بماركس وهوبز، فالاستبداد هو جوهر السلطة سواء كانت نقطة في دورة مغلقة أو نقطة على خط مستقيم.

كسر الخوف .. كسر الخوف من الحرية ...

بالرغم من استمرار "ثقافة الخوف"السطوة المذلة لبطركية العصور الطبقية حتى عصرنا الرأسمالي الراهن، إلا أن الانسان ظل يكافح من أجل خلاصه وإطلاق الروح

المتمردة فيه، تارة بالقتال اليائس حتى الموت، وتارة بالهروب إلى التصعيد أو الحيلة أو السخرية، من آرستو فاسن إلى رابليه إلى هايني وموليير في طرطوف (ضد الجزوين وضد الأصل نفسه). إن كسر الخوف يعني كسر الخوف من الحرية كما يقترح إريك فروم .. وقرع الجدران بدل الانسحاق حتى الموت في المطلاع... وإذا كان الحديث عن كسر البنية الاجتماعية التي تولد ثقافة الخوف، وتعيد إنتاج مناخاته: الاستلاب الانثروبولوجي وثقافة العقاب والثواب والسيد والعبد والمكرمات ..

إذا كان هذا الحديث مثقلاً بسجالات نظرية حول غياب الشروط الموضوعية لهذا التجاوز، فلا بديل عن **إعادة الاعتبار للنخب الراديكالية وفلسفة المقاومة**، ابتداء من بروتا غوراس وكيركغارد (الموجود هو الوجود ولايوجد إلا ما يوجده الانسان)، وانتهاء بجهود مدرسة فرانكفورت في مقارعة العقل الرأسمالي الأداتي النسقي الوضعي، كما أسسها هوركهايمر وماركوز وهابرماس، وما نعنيه ونريده من فلسفة المقاومة، إحالة الثانية. على الاولى وليس أدلجة الاولى على مقاس الثانية، طبعاً لا يعنينا الدخول في تفاصيل الفلسفة وتاريخ مدارسها وانشقاقاتها من أجل اختيار ماركة ملائمة ضد الدولة والأيديولوجيا، بل استعادة الجدل فيها وتحريرها من الإرغامات الايديولوجية التي حولتها إلى داروينية جديدة في التجربتين: الاشتراكية عبر ما يسمى بالضرورة الحتمية والاشتراكية العلمية الصارمة، ووضع جدل المجتمع في سياق واحد مع القوانين الطبيعية وفي التجربة الرأسمالية التي حولته إلى رافعة شقراء بلا ضمير باسم التمدين المقدس!.

وكان التعبير الأخطر لذلك في الحالتين هو التعبير السياسي ممثلاً بالدولة الشمولية من جهة، دولة مزرعة الحيوانات كما رسمها **أورويل** ودولة ارخبيل الجولاج كما رسمها **سولجنستين** وبالدولة الليبرالية المزعومة كما فضحها **كونراد** في قلب الظلام و**مهدي عامل** في نمط الانتاج الكولونيالي. دولة الوحش الاحمر مقابل دولة الوحش الأشقر بالقليل أو الكثير من التأويلات الايديولوجية .. من هنا تصبح الفلسفة مهمة في مواجهة الايديولوجيا.. الفكرة في مواجهة الالغاء والتعين والنفي.

القصدية في مواجهة حتمية الايديولوجيا، الكلية (العلمية) التي تتعرف على نفسها ليس شوقاً لمبدع أو لعلة أولى، بل في امتحان مفتوح، الجدل الذي يحدد خياراته وطبقاته الاجتماعية في كل مرة وفق الخيارات الموضوعية للتاريخ وليس في الصراعات السياسية العابرة، وفق الحرية وجدل الأحياء وليس الضرورة العمياء.

ومن المفهوم كذلك، أن الفلسفة لا تستطيع ذلك انطلاقاً من دلالاتها المجردة، بل من خلال مقاربات سياسية في الواقع نفسه، تتعزز كل يوم بفعل البعد الامبراطوري للرأسمالية المهيمنة (الولايات المتحدة) وبفعل تفسخ الدولة الوطنية في المحيط..

من هذه المقاربات وبالأحرى المحاولات التي تحتاج للتمعن والنقاش والمراجعة أيضاً، المدرسة الفوضوية كما دشّنها **برودون وباكونين** خلال كومونة باريس(لا يمكن بناء الاشتراكية وتحقيق الثورة بمساعدة جهاز الدولة القمعي بالضرورة).

والمجالسية كما دشنها العمال الروس عام 1905 والنقابية الثورية كما دشنها **سوريل** (تأملات في العنف)، والتي تبدو كمرجعية بدائية للعمل الشبكاتي المدني المناهض للعولمة وللتعاونيات الاجتماعية كما افترضها **لويس بلان** وكذلك **البؤر الغيفارية الأممية** التي لا يعني تراجعها في ظل الوضع الانتقالي الديموقراطي الحالي الذي تعيشه أمريكا اللاتينية، إن هذا الوضع مرشح للاستمرار بسبب عجز البرجوازية الصغيرة والكبيرة عن الاستمرار في حكاية تداول السلطة والسياسات الحمائية التي تصطدم يوماً بعد يوم مع الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي الذي يتجه نحو الوحشية. ولعل أهم المحاولات السياسية في سياق استدعاء الفلسفة ضد الإرغامات الأيديولوجية لمفهوم الدولة المعاصرة. **اقتراح غرامشي**، بل مشروعه الذي يقوم أصلاً على دحض أوهام دكتاتورية البروليتاريا وديموقراطية البرجوازية، ويستعيض عنها بتعزيز **فكرة المثقف العضوي والمقاومة المدنية عبر (حرب المواقع) والمجتمع المدني والكتلة التاريخية.**

ثالوث الخوف:
الله والسلطان والأب

غـيـدا ضـاهـر
الجامعة اللبنانية

لماذا ثالوث الله والسلطان والأب؟. وكيف يمكن تبرير الربط بين أطراف هذا الثالوث في موضوع الخوف؟ إن اختيار هذا الثالوث ليس اعتباطياً لأن كل واحد من أطرافه هو مصدر خوف يتطلب الطاعة، وإلا فالعقاب من ناحية، ومن ناحية ثانية لا ينفصل الخوف من واحد منهم عن الخوف من الطرفين الآخرين. وهذا الترابط يجعلنا نفكر في أن هذا الثالوث يشكل القاعدة الأساسية لثقافة الخوف التقليدية في المجتمع العربي. وفعلاً فإننا إذا نظرنا إلى الدراسات في المجال السياسي وفي المجال الديني، وفي المجال التربوي، نلاحظ أنها تشترك كلها في **التركيز على الطاعة التي يجب الخضوع لها خوفاً من العقاب.** إن سلطة الثالوث الله/ السلطان/ الأب، تعتمد على ثالوث آخر من القيم هو: الخوف / العقاب/ الطاعة. هناك تداخل في كل الدراسات سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بين أصناف الطاعات السياسية والدينية والتربوية، بل إننا كثيراً ما نجد نفس المرجعية أو حتى نفس المقولة في المجالات المختلفة، بحيث يظهر لنا أن كل مجال يصب في الآخر. على سبيل المثال، نجد الحديث عن "العقل السياسي العربي" يركز على "طاعة أولي الأمر" الواردة في القرآن الكريم لتفسير الطاعة التي تخضع لها الرعيّة في علاقتها بالسلطان. إنّ المرجعية الدينية في المجال السياسي، تدل على ظاهرة موضوعية لأن الحاكم يعتمدها ويستفيد منها في نشر سلطته، ولأن المحكومين يقبلون هذه السلطة ويخضعون لها لأن الدين يأمر بذلك. ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لطاعة الوالدين الذي أمر الله بأن **"لا تقل لهما أفّ"**، فهذه الطاعة التي تدخل في مجال التربية والتنشئة لها هي أيضاً، مصدر ديني يستفيد منه الوالدان في اخضاع الأبناء إلى طاعتهما، لا خوفاً منهما فقط وإنما خوفاً من الله، لأنه "لا يرضى الله

إلا إذا رضي الوالدان" حسب ما يتردد كثيراً في الثقافة التقليدية المكتوبة والشفوية الشعبية. هذا الترابط أو التداخل بين المجالات الثلاثة دفع بالكثيرين من الدارسين إلى أن يقولوا بفكرة "التماثل" بين الله والسلطان والبطرك أو الأب السلطوي. هذا التماثل هو الذي وجده، مثلاً، محمد عابد الجابري في كتابه "العقل السياسي العربي" حيث يقول بأن "العقل السياسي العربي مسكون ببنية المماثلة بين الإله والأمير"[(1)]. وقد ساعد على ذلك أن أغلب الفقهاء الذين كتبوا عن **"الأحكام السلطانية"** مثل الماوردي وغيره فسروا القرآن الكريم وأوّلوه حسب الظروف وحسب رغبات السلطان وطبيعة الحكم الذي يمارسه، فوصلوا إلى الحد الذي لا يجعل منه "ظل الله في الأرض" فحسب، وإنما يجعل منه أيضاً صاحب سلطة مطلقة "تماثل" سلطة الخالق، وبالتالي يجعل من طاعته المطلقة مسألة محسومة يتعرض من يخرج عنها للعقاب الذي يمكن أن يكون عقاباً مطلقاً ليس له مقاييس ولا قوانين تضبطه، بالرغم من كل ما يسمى بالأحكام الشرعية.

ما الذي وراء هذه العلاقة الثلاثية باعتبارها علاقة سلطة تنتج الخوف؟ طبعاً، وراءها أبعاد اجتماعية واقتصادية وثقافية متداخلة ومتكاملة لأن المتدخّلين في هذه العلاقة (السلطان الأب ورجل الدين) كفاعلين اجتماعيين يمثلون مواقع ومصالح يعبرون عنها ويحافظون عليها بطرق مختلفة، بما في ذلك استعمال القوة المادية، إذ هم فاعلون ضمن "استراتيجية" اكتساب الشرعية على حد تعبير بيار بورديو.

لقد بيّن **بورديو** أهمية **"العنف الرمزي"** الذي تستعمله السلطة في المجال التربوي أيضاً من أجل اكتساب الشرعية والاعتراف بها، معبراً عن أن "أي نشاط تربوي هو، موضوعياً، نوع من العنف الرمزي، وذلك بوصفه فرضاً من قبل جهة متعسّفة لتعسّف ثقافي معين"[(2)]. إنّ الأبوة هي سلطة كأية سلطة سياسية أو دينية أخرى تلتجئ إلى العنف الرمزي، بحيث "يمثل الأب نفوذ المجتمع بما هو قدرة تمارس في الإطار العائلي، وهو مخوّل، من هذه الحيثيّة، بإنزال عقوبات قانونية (عرفية) لفرض نشاطه التربوي"[(3)]. في هذا الاتجاه تكون ممارسة الأب لسلطة الأبوّة "إعادة إنتاج لغلبة نموذج التعسف الثقافي الغالب" مستفيدة في ذلك مما يسميه بورديو "الرأسمال الثقافي" الذي تراكم لصالح الأبوة

عبر تاريخ المجتمع. ومثلما تظهر هذه الأبعاد المختلفة في مجال سلطة الأب تظهر، بطبيعة الحال، وبشكل أكثر اتساعاً وانعكاساً في مجال السلطة السياسية والدينية، وهي سلطة تناولتها كتابات كثيرة، ولكن ما يهم فيها هو ارتباطها بالسلطتين، الأخريين، كمصدر للخوف، تحديداً. وإذا كان مما لا شك فيه أن الروابط، هنا أيضاً، متنوعة حسب زوايا النظر فإنه يمكن التركيز على رابط يبدو مهما، وهو رابط الطاعة كمبدأ جامع تهدف "استراتيجيات" السلط الثلاث إلى أن يعترف به وأن يطبقه كل الذين يخضعون لها، سواء كانوا شعباً أو "رعية" أو كانوا من المنتمين إلى الدين أو كانوا أفراد عائلة.

وكما وجد الجابري وآخرون هذا التداخل في "التماثل" فقد وجده، أيضاً، هشام شرابي في كتابه "النظام الأبوي" حيث اعتبر أن "البطركية" ليس مجرد سلطة فردية قمعية يسلطها شخص هو الرجل، بل هي "نظام" متعدد الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، الخ... هذا النظام الذي تتداخل فيه المرجعيات والممارسات المختلفة تنتج عنه سلطة قوية يتبناها الرجل العربي ويستغلها لفائدته كرجل في مواجهة المرأة، وكذلك كأب في مواجهة العائلة، ونلاحظ أن هشام شرابي تعمّد أن يسمي "النظام" الذي يتحدث عنه "نظاماً أبوياً"، وذلك لكي يشمل في حديثه النظام الأسري الذي يلخّص بالخصوص التوجهات السلطوية السياسية والدينية في أصغر خلية اجتماعية هي الأسرة.

إن هذه الملاحظات التي قدمناها تبين أن الثالوث الذي افترضنا الربط بين أطرافه (**الله والسلطان والأب**) ليس اعتباطياً، كما قلنا، إنه مثلما تحدث البعض عن "الثالوث المحرم" (**السياسة والدين والجنس**)، يمكن الحديث عن "ثالوث الطاعة" الذي انتجته ثقافة الخوف في المجتمع العربي. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى مفهوم براديغم "الطاعة" الذي اعتمده الطاهر لبيب في مقاله "هل الديمقراطية مطلب اجتماعي؟"، والذي يلخص حسب رأينا كل ما ذكرناه سابقاً، فهو يعتبر أن الذي ساد في الخطاب وكذلك في الممارسة، عبر تاريخ المجتمع العربي والإسلامي، هو نظام الاستبداد وعلاقات الخضوع له، وجدت دائماً، ظروفاً سياسية ودينية وتنشيئية أسرية متداخلة تسمح لها بالترسخ وبإعادة إنتاجها. يقول الطاهر لبيب إن "براديغم الطاعة استطاع تحييد ما كان

يعارض سلطته وأحكامه في مختلف المراحل التي ظهرت فيها الحركات السياسية والفكرية المتقدمة. كان ذلك في غياب القدرة على أن تجعل طبقة صاعدة أو ثائرة من الحرية مطلباً تستفيد منه قبل غيرها. كان ذلك مع عجز "النخبة" أو الخاصة على التأثير خارج "الإيديولوجيا السلطانية"[4]. إننا، إذاً، ننطلق من اعتبار أنّ ثالوث السلطة، كما وضحناه، هو مصدر للخوف الذي يعتمد على ثالوث قيمي يترابط فيه الخوف والطاعة المطلوبة للنجاة من العقاب. بعد هذا التوضيح الضروري يمكننا الآن أن نفصّل الموضوع، وذلك باستحضار المناقشات حول علاقة الدين بالدولة قبل المرور إلى النظام الأبوي الذي يبدو لنا أنه يلخص التطابق بين الثالوثين، السلطوي والقيمي، ويكثّف ثقافة الخوف في مستوى الأسرة.

1. العلاقة بين الدين والسياسة، كمصدر لثقافة الخوف:

عندما نرجع إلى القرآن الكريم نلاحظ كثرة الآيات التي وردت فيها الإشارة إلى الخوف، وذلك بصيغ كثيرة: "خِفتُ، خِفتَ، خافَ، خافتْ، خافوا، خفتُم، يخاف، تخاف، لا تخف، لا تخافي، تخافنّ، أخاف، لا أخاف، يخافا(ه)، لا تخافا، يخافون، لا يخافون، تخافون، تخاف، يخوّف، يخوّفون، تخوُّفٍ، تخْويف، لا خوف (عليهم/عليكم)، خائف خائفون، خِيفة، خيفتُه، خِيفتكم"[5]. وإذا رجعنا إلى السياقات التي وردت فيها الصيغ، فإن أول ما نلاحظه هو أن هناك خوفاً واجباً على الناس وهو **الخوف من الله**. وقد وردت آيات كثيرة تدل على ذلك وتشير إشارة إيجابية إلى "**من خاف مقام ربه**"[6] أو إلى من يقول "**إني أخاف الله رب العالمين**"[7]، وما شابه ذلك، وتجدر الإشارة إلى أن "التخويف" وارد هو أيضاً باعتباره من أفعال الخالق، إذ هناك ما "**يخوّف الله به عباده**"[8]، مقابل أن "**الشيطان يخوف أولياءه**"[9]. هذا الخوف من الله هو في الحقيقة وفي النهاية خوف من عذاب الآخرة، كما تدل على ذلك آيات كثيرة، أي أن هذا الخوف مرتبط بالعقاب، أما الذين لن يتعرضوا للعذاب في الآخرة، فهؤلاء "**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**". الخالق، إذاً، "يخوّف" لا في حد ذاته بطبيعة الحال، وإنما بالعقاب الذي ينتظر الذين لا يخافونه.

إن القول بأن "رأس الحكمة مخافة الله" له، إذاً أصوله الواضحة في القرآن الكريم الذي يأمر بالخوف من الله كتعبير عن طاعته التي تضمن عدم العقاب. وأن الآيات التي وردت فيها الإشارة إلى الطاعة هي أيضاً كثيرة ويمكن الرجوع إلى الصيغ التي وردت فيها بسهولة"[10]. ومثلما أن الخوف من الله هو من واجبات المؤمن، فإن طاعته هي الوجه الآخر لهذا الخوف أو التعبير الأمثل عنه. وتجدر الإشارة، إلى أن بعض الآيات تجمع في الطاعة بين الله ورسوله[11]. أما الآية التي تشير إلى طاعة أولى الأمر فهي تجمع، في الطاعة، بينهم وبين الله ورسوله: "**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً**"[12]. لا نعرف كيف تكون الطاعة ولا لماذا تكون الطاعة عندما ينتفي الخوف من العقاب ولكننا نعرف أن عدم الطاعة ينتج عنه عقاب. هذا المبدأ موجود في القرآن الكريم الذي يشير إلى أن الله بقدر ما هو غفور رحيم، فهو "شديد العقاب" إن "عاقبة" عدم الطاعة هي العقاب[13].وهكذا فإن ثالوث الخوف/ الطاعة/ العقاب ثالوث، مترابط من الصعب عزل أحد أطرافه عن الآخرى.

أما عندما ننتقل مما جاء في القرآن الكريم إلى الخطاب الديني الذي انبنى عليه فإننا، بطبيعة الحال، نجد تأكيداً لواجب الخوف من الله تأويلاً وتفسيراً لهذا الواجب الشرعي، وهو الأمر الذي كرس في هذا الخطاب الديني، سواء أكان قديماً أو معاصراً، صورة الإله التي يطغى عليها التخويف، أكثر مما تطغى عليه المحبّة، بالرغم من أن "الله محبة". إن الخوف من الله يعني طاعته في كل ما أمر به ونهى عنه، ولكن إذا كانت طاعة الله أمراً مفروغاً منه وليست هي موضوع نقاش أو جدل في النصوص الدينية،فإن "**طاعة أولي الأمر**" سواء أكانوا من رجال الدين أو من السياسة هي موضوع جدل كبير في الفقه الإسلامي لأن "أولي الأمر" غير محدّدين ويمكن الاختلاف فيهم. وحتى عندما يقال أنهم "**أهل الحل والعقد**"، فإن هذا لا يكفي لأن هؤلاء هم أيضاً غير محددين. وفعلاً فإن البعض قد حصرهم في الأمير ومن معه، وبعضهم حصرهم في العلماء والفقهاء، وهكذا... لكن مهما كان الاختلاف فإن الأمير يبقى هو مركز هذا الأمر في النصوص

الدينية لأنه يمثل سلطة لا غنى عنها إذا أرادت الأمة أن تبتعد عن الفتنة. وقد وصلت حماية الدين للسلطان إلى حد أن فقيهاً مثل **ابن تيميّة** يرى أن الإمامة "من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلاّ بها"، ويرى كذلك أن "**ستين سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة بلا سلطان**"[14].

إن أهم ما في هذه الرؤية الدينية للسلطان، أي للسلطة السياسية، هو أنها تعتبّر أنه "لا قيام للدين" إلا بهذه السلطة وأنها، بالتالي، تربط بين الدين والسياسة ربطاً قويّاً. إن العلاقة بين الدين والسياسة من المسائل المعروفة لا في الفكر العربي والإسلامي فحسب، وإنما في تاريخ الفكر بصورة عامة، ولذلك فإن المراجع التي يمكن الرجوع إليها كثيرة جداً ومتنوعة جداً، وتتجه في النهاية إما إلى تثبيت هذه العلاقة، وبالتالي إلى رفض الفصل بين الدين والسياسة، وإما إلى الدعوة إلى الفصل وبالخصوص بين الدين والدولة لتكون هذه الدولة دولة علمانية.

يمكن الرجوع إلى ماركس ليس لأنه واجه الدين، وإنما لأنه لخّص العلاقة بين الدين والسياسة من المنظور التاريخي الاجتماعي وبيّن "التواطؤ" بينهما لاستغلال الفئات المضطهدة. مقولة ماركس الشهيرة التي تتكرر كثيراً هي أن "الدين أفيون الشعوب" ولكن هذه المقولة يستعملها الناس خارج السياق الذي جاءت فيه، كما يوضح ذلك بصورة كافية سربست بني في كتابه "**كارل ماركس:** مسألة الدين" بعد أن يذكّر بالسياق وهو كما يلي: "**إن الشقاء الديني هو من جهة تعبير عن الشقاء الواقعي، ومن جهة أخرى احتجاج على الشقاء الواقعي، الدين هو تنهيدة الكائن المقهور، قلب العالم عديم القلب، كما هو روح الأوضاع العديمة الرّوح. إنه أفيون الشعب**"[15].

ونلاحظ أن توضيح السياق مفيد بالنسبة لموضوعنا لأنه يدفع للنظر إلى الدين في علاقته بالسلطة السياسية، وكذلك في علاقته بالخوف والطاعة من جهتين، الأولى فيها **تسليم بالأمر المقضي يُعبّر عنه الكائن المقهور**، والثانية فيها **احتجاج على الشقاء**. إن هذا التمييز بين الحالتين مهم لأنه يعارض النظرة الأحادية للدين التي لا ترى فيه إلا مصدراً للخضوع والإستسلام.

إن مسألة الدين عند ماركس لا تتعلق بالعقيدة كعقيدة فردية لكل فرد حر أن يعتقدها كحق من حقوقه، بل هي تتعلق بالتوظيف الديني والسياسي للعقيدة. إن ماركس يشير إلى أن هناك فترات تاريخية وخاصة فترات "المسيحية الأولى" تحوّل فيها الإيمان إلى نضال، فكان فيها الدين دعامة أساسية للاحتجاج والرفض، ولكن صعود نخب دينية مرجعية قنّنت العقيدة والشريعة، وامتلكت سلطة المعرفة والأمر والنهي، وحوّلت الدين إلى مصدر تخويف لا من عقاب الآخرة فحسب، وإنما من عقاب السلطة الدينية على الأرض أيضاً. وقد التجأت هذه السلطة الدينية، حسب الظروف التاريخية التي تمر بها، إلى أشكال مختلفة، من العلاقة بالسلطة السياسية أكثرها كان الدعم المتبادل إلى أن ظهرت فكرة فصل الدين عن الدولة. ويجب أن لا ننسى أن العلاقة بين الدين والسياسة ليست علاقة إيديولوجية خارج التاريخ، وإنما هي تنشأ وتتغيّر في مجتمعات تتعارض فيها المصالح بين الطبقات والشرائح وتعيش صراعاً اجتماعياً تسعى السلطة الدينية والسلطة السياسية إلى السيطرة عليه وتوجيهه. وإذا كانت السلطة السياسية تسعى دائماً إلى دعم سلطتها، بل وحتى تسلطها، بالمرجعية الدينية، فإن السلطة الدينية "الرسمية" لا تستغني هي أيضاً، عن دعم السلطة السياسية وتبقى تتحرك في نطاقها وتقف إلى جانبها في مواجهة الحركات الدينية التي تهدّدها.

من الأفكار الشائعة أن علاقة الدين بالسياسة تختلف بين المسيحية والإسلام لأنه لا يوجد في الإسلام فصل مثل الذي يوجد بين الكنيسة والدولة في المسيحية، وبالتالي لا توجد فيه رؤية مثل التي عبّر عنها المسيح عندما نصح اتباعه بأن "يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله". هذه الأفكار التي يردّدها المسلمون والمستشرقون على حد سواء تكرس أكثر فكرة الترابط الوثيق بين الدين والسياسة في الفكر وفي التاريخ العربي الإسلامي، بل وفكرة أنه لا وجود إلا لسلطة واحدة دينية – سياسية.

ولكن مقابل هذه الفكرة هناك من يرى أن العلاقة بين الدين والسياسة لا تختلف في تاريخ الديانتين، وبالخصوص في مستوى الممارسة التاريخية. هذا، مثلاً، ما ذهب إليه **وجيه كوثراني** في كتابه حول "**الفقيه والسلطان**" عندما رأى أن "السياق التاريخي

للصراع الاجتماعي – السياسي (الإسلامي)، وإن اختلف توصيفه على مستوى المفردات، لا يختلف عن سياق التجربة التاريخية المسيحية من ناحية المضمون والجوهر، وبشكل أساسي من ناحية وظيفة الدين في الصراع السياسي"[16]. وهو يبين أنه كما أن المسيحية "تسيّست" وحكمت مباشرة، وكما أن السياسة "تنصّرت" فاستخدمت الدين لصالحها، فإن الإسلام تسيّس والسياسة تأسلمت في فترات تاريخية طويلة. لكن المقارنة لا تقف عند هذا الحد ولا تكتفي بتأكيد التداخل بين الدين والسياسة، بل هي تفتح الآفاق للعلمانية في المجتمع العربي الإسلامي، وذلك باعتبار أن الفصل الذي حدث في التاريخ المسيحي الحديث بين الدين والدولة يمكن أن يحدث في التاريخ الإسلامي وأنه لا يوجد عائق دون ذلك إذا استطعنا أن نتجاوز الفكرة الشائعة التي أشرنا إليها والتي تقول بأنه لا فصل في الإسلام بين الدين والسياسة. هناك إمكانية لما يسميه وجيه كوثراني "التأويل العلماني" الذي يمكن أن يبرّر **قابلية الإسلام للعلمانية** كما برّر قابلية المسيحية لها"[17]. إن هذا التأويل ضروري لا بصفته يهدف إلى مجرد الفصل بين الدين والدولة في المجتمع العربي ولكن لأنه يحقق العلمانية التي لا يمكن أن تتحقق الديمقراطية المنشودة بدونها. هذا، بطبيعة الحال، مع التنبيه إلى أن الثقافة أو الرؤية التقليدية للدين تتطلب في المجتمع العربي الإسلامي استبعاد المقولات التي تربط بين العلمانية ومعاداة الدين أو الالحاد أو التغريب، الخ... والإلحاح على أن العلمانية هي من متطلبات بناء المجتمع المدني والديمقراطية.

لكن ما صلة هذه المناقشات حول العلاقة بين الدين والسياسية بثقافة الخوف؟ لتوضيح ذلك لا بد، أولاً، من التمييز بين الثقافة الدينية والسياسية السائدة والتي نرى أنها تكرّس ثقافة الخوف، وبين ثقافة تعارض هذه الثقافة السائدة وتدعو إلى التحرر منها، وبالتالي تدعو إلى تحرير الفرد من الخوف الذي تكرّسه. إن الثقافة العربية السائدة هي ثقافة خوف ظاهرٍ أو خفي لأنها ثقافة سلطة تسلطية قمعية تتطلب الموالاة والطاعة وتمارس العقاب على كل من خرج عنهما. وعندما لا تكون هناك دولة مؤسسات وقوانين ولا يكون هناك مجال لحرية الرأي والتعبير، فإن المواطن يخاف من العقاب

لأي سبب وأحياناً بدون سبب ويخاف من السلطة في كل مستوى من مستويات تمثيلها. أما العلاقة التي تسعى السلطتان السياسية والدينية إلى توثيقها بينهما، فإنه لا يجب النظر إليها من زاوية الصدق أو النفاق، أي من زاوية أخلاقية، ولكن باعتبار أنها ضرورية لتأمين شرعية الممارسات التي تمارسها السلطتان. ومن المعروف كثيراً أن السلطة السياسية الأكثر قمعاً، والتي قد تدّعي العلمانية تلتجئ إلى الدين ورموزه لشرعنة قمعها وإرهابها. وهي، بطبيعة الحال، تجد دائماً من يقوم بذلك من رجال الدين ومن يخطب باسمهم في المساجد ومن يكتب عن انجازاتهم. ويرى وجيه كوثراني "أن استدعاء طاعة الرعيّة لحكم السلطان، باسم قوة الإيمان، وإيحاءات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتجارب التاريخ ما قبل الإسلامي، هي سمة عامّة وغالبة في الآداب السلطانية (كتب النصائح والمواعظ)"[18]. وهو يرى أن وظيفة هذه الآداب السلطانية "كانت في معظم مراحل تاريخ السلطنات الإسلامية تبريراً للإفادة والسلطان باسم "حراسة الدين" من جهة، وباسم قوة قاهرة مستعلية متماهية مع الصفات الإلهية من جهة أخرى"[19]. وهو ما يؤكد فكرة "المماثلة" التي أشرنا إليها سابقاً.

وبما أن الدين كثقافة هو واسع الانتشار ويمس كل الفئات الاجتماعية فإن تأثيره واسع أيضاً، لهذا يمكن القول بأن **الدين كما يتبناه الرسميون، هو سند أساسي في المجتمع العربي الإسلامي لثقافة الخوف التي تنتج عن ممارسات السلطة السياسية.** وهذا هو السبب الذي يجعل البعض يدافعون عن العلمانية، أي عن فصل الدين عن الدولة، من أجل الحريات المدنية والسياسية. إن الدولة عندما تفقد السند الديني تفقد مصدراً أساسياً من مصادر شرعيتها التقليدية، وتفقد، بالتالي، مصدراً من مصادر سلطتها القمعيّة التي يخافها المواطنون. ولهذا فإن المقولة التي يمكن أن نتبنّاها بهذا الصدد هي أن **فك الارتباط بين الدين والدولة في العالم العربي يقلص من سلطة القمع الحالية ويحرّر المواطن من الخوف غير المبرّر**، ويساعد، بالتالي، على بناء مجتمع مدني تعدّدي وديمقراطي.

2. النظام الأبوي كمصدر خوف وكفضاء تكثيف لثقافة الخوف:

إن الآيات التي توصي الإنسان بوالديه براً وإحسانا آيات كثيرة[20]. وبالرغم من أن كتب التربية الإسلامية تشدد على الاهتمام بالأبناء خصوصاً بالرجوع إلى الأحاديث والسيرة النبوية، فإن التوصية المتكررة بالوالدين لا تقابلها توصية مباشرة بالأبناء في القرآن الكريم. هذه الملاحظة تشير، منذ البداية، إلى مصدر الاهتمام والعناية لما يحظى به الوالدان في الثقافة الإسلامية. هناك آيتان متتاليتان تمثّلان مرجعاً أساسياً لذلك، إذ أن أمر الله فيهما واضح بالإحسان إليهما وبأن لا يقال لهما أفّ وبأن يُخفَضَ لهما جناح الذل من الرحمة[21]. وليس هذا خاصاً بالإسلام، ذلك أنه، "في كل الديانات السامية توصيات البر والإحسان إلى السيد الأب، وكذلك إشفاق الأب على ابنه الذي يخدمه ويقدم الطاعة إليه. أن مفهوم الإله القَبَلي الساميّ، باعتباره أباً، أدخل إلى الدين فكرة السلطة الإلهية والتبجيل وتقديم الخدمات على كل مؤمن نحو إلهه[22]. وإذا كان الأب كأب هو ضمن المكانة التي أسندها القرآن الكريم إلى الوالدين فإنه كرجل يحظى بمكانة أرفع، خصوصاً باعتباره زوجاً. إن السلطة التي اكتسبها الرجل باعتبار أن "الرجال قوّامون على النساء"، مهما كان الاختلاف في تأويل هذه "القوّامية"، هي سلطة دعّمتها النصوص الدينية، ذات العلاقة بالأسرة أو بالتربية والتنشئة.

وإننا عندما نشير إلى المرجعية في النصوص الدينية لا نعتبر أن ما جاء في النصوص قد تحقق كلياً وحرفياً في مستوى الممارسة الاجتماعية، وفي كل المراحل التاريخية منذ ظهور هذه النصوص. إن الواقع التاريخي الاجتماعي قد تعامل مع هذه النصوص بطرق مختلفة، سواء بتأويلها وبالاجتهاد في تفسيرها أو حتى باهمالها أحياناً، كما يحدث اليوم في بعض الدساتير والقوانين في العالم العربي. ولكن وبالرغم من هذا التحفظ فإن الممارسة رسّخت النظام الأبوي لأسباب تاريخية، فعلاً، منها أن **"القوّامين" في النص تمسكوا بأن يكونوا هم "القوامون" في الواقع**، أي أن تتحول "القوّاميّة" إلى سلطة واسعة تتجاوز العلاقة بين الزوج وزوجته لتشمل كل مجالات الواقع الاجتماعي، من العائلة إلى القيادة السياسيّة.

وإنه يمكننا ملاحظة هذا التوسع، حتى في مستوى اللغة التي هي الأداة الأولى للتعبير عن العلاقات الاجتماعية، إذ أن الأبوة كسلطة ذكورية أو بطركية تضع نفسها لغوياً، كرابط بين طرفي الثالوث الآخرين: الله والسلطان، ذلك أن "رب البيت" يقال عن الرجل وعن الإله[23]، كما يقال عن الرجل إنه "رب العائلة" أيضاً.* أما في المسيحية فإن الآب هو الإله (الآب والابن والروح القدس)، كما أنّ الأب هو من رجال الدين في رتبة معينة. وفي كل الديانات الساميّة توصيات بالبر. أما في السياسة فإن الزعيم العربي هو "الأب القائد" وأبو الأمة أو الشعب ويتوجه إلى "ابنائه" وأحياناً إلى إخوته وأخواته...

إن اتساع السلطة الأبوية يؤكد وجهة نظر هشام شرابي الذي يعتبر إن هذه السلطة تنتمي إلى "نظام أبوي" أو "بطركي" أي إلى نمط من النظام المتعدد الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، والذي تكوّن عبر التاريخ بصورة تسمح للرجل بأن يمارس سلطته وتسلطه على المرأة. وبالرغم من أنه يميّز بين نظام أبوي تقليدي هو الأكثر بطركية ونظام أبوي مستحدث فإنه يعتبر أن أهم ثوابت الأبوية مستمرة إلى الآن: "إن الذهنية الأبوية (والأبوية المستحدثة)، علمانية كانت أم دينية، لا تستطيع تغيير موقفها لأنها لا تعترف ولا تريد أن تعرف إلا حقيقتها، لا تريد إلا فرضها على الآخرين، بالعنف والجبر إن لزم الأمر"[24].

إن مقاربة هشام شرابي للنظام الأبوي لها فائدة أساسية من الناحية النظرية، لأنها تهدف إلى بناء "نموذج نظري تحليلي" يساعد على فهم الظاهرة في مراحل تاريخية مختلفة وعلى صعيد المجتمع العربي كلّه، ولكن التعميم الذي اضطر إليه شرابي ليستطيع بناء النموذج يعتبره البعض ضعفاً أو خللاً في المقاربة. وتجدر الملاحظة إلى أن أهم الذين رأوا هذا الضعف أو الخلل هم من الذين حاولوا بناء نماذج أيضاً. مثلاً، يرد خلدون النقيب على هشام شرابي، حتى ولو لم يذكره، عندما يرفض "الاعتقاد الشائع هذه الأيام، أن بناء العائلة العربية هو بناء تسلّطي، يمثل أحد أهم مصادر التسلطيّة في

***- يُقال أيضاً في وصف المرأة بأنها: (ربّةُ بيت). وفي الحضارة الكنعانية، هناك (نائبتان للإله)، هما: عشتار، وعناية - (المحرّر).**

المجتمع العربي"[25]. أما محمد بشير محمد الخضرا الذي حاول بناء نموذج للقيادة السياسية العربية سماه "النمط النبوي – الخليفي" فقد رأى أن "مفهوم النظام الأبوي – كما يرى هشام شرابي – يركز على بعض جوانب المجتمع كحتمية الطاعة للسلطة ومقاومة الحداثة، ولكنه يهمل جوانب أخرى مهمة توجد معه في الوقت نفسه. فالأسرة العربية التي تعلم أبناءها واجب الطاعة للأب أو السلطان هي نفسها التي تعلّمه مفاهيم العدالة وكره الظلم، ما يفسّر حركات المعارضة والثورة في جميع مراحل التاريخ العربي الإسلامي"[26]. ولكن صاحب هذا الرأي يضيف إضافة عابرة أنه من المهم أن نعرف "السائد" من القيم والمعتقدات والمفاهيم ولماذا تسود[27].

وهذه الإشارة العابرة إلى "السائد" في غاية الأهمية وتدفعنا إلى أن نكرّر بخصوص النظام الأبوي ما قلناه بخصوص الدين، وهو أن تنوع الفكر وكذلك تنوع الممارسة شيء مفروغ منه وأنه عندما نركز على الثقافة السائدة التي هي أوسع انتشاراً أو تأثيراً في المجتمع، فإن هذا لا ينفي أبداً وجود ثقافة أو ثقافات أخرى تختلف عن هذه الثقافة السائدة أو تعارضها وتقاومها. المهم أن **الثقافة السائدة** – نكرّر السائدة – رسّخت سلطة الأب ضمن نظام أبوي أشمل، انبنى عبر التاريخ الاجتماعي العربي. هذه السلطة هي مصدر خوف لأنها أولاً سلطة "شرعية" لها مصدرها الديني، كما أوضحنا، وتكرّسها التنشئة الاجتماعية والتربية المدرسية كما تكرّسها الممارسة الاجتماعية في الحياة اليومية. وكما هو الشأن في الدين فإن الخوف من الأب يتطلب الطاعة خوفاً من العقاب. إن طاعة الأب هذه والخوف من عقابه، بل وتسليط عقابه على أبنائه هي ظواهر تبدو لعموم الناس على أنها شيء "طبيعي". وهو ما يعني ترسّخها في المجتمع. ومما يؤكد ذلك أننا لا نعرف دراسة ميدانية توصلت إلى أن العلاقة بين الأب وأبنائه تستبعد الخوف والعقاب لدى الشرائح الواسعة من المجتمع العربي وأنها "ديمقراطية" تعتمد الحوار وحرية الرأي.

إن وجود هذه السلطة الأبوية تجعل من الأسرة فضاءً تتكثّف فيه ثقافة الخوف السائدة تربوياً واجتماعياً وسياسياً في المجتمع، ذلك أن حدود الأسرة تجعل الخوف أكثر

واقعية لأنها تجسّمه في علاقات وتصرّفات يومية يواجه فيها الخائف من يخـاف منـه بصورة مباشرة وبصورة دائمة، في كل مكان من البيت وفي التصرف مع كل فرد مـن أفراد العائلة وفي اليقظة كما في المنام!

وهكذا فإننا نرى أن المستويات الثلاثة، مـن الميتـافيزيقي إلـى أصـغر وحـدة اجتماعية، مروراً بالسلطة السياسية، يتداخل فيها الخوف ويقوّي بعضه بعضاً، بحيث لا يجد الفرد أي ملجأ حقيقي، غير وهمي ودائم، ليتخلص من خوفه. وهذا، في نظرنا، هو عالم ثقافة الخوف.

هوامش:

1. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته، مركز دراسـات الوحـدة العربيـة، بيروت 1986، ص: 356.
2. بيار بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت 1994، ص: 7.
3. المرجع نفسه، ص: 9.
4. الطاهر لبيب، علاقة المشروع الديمقراطي بالمجتمع المدني العربي، ضمن المسألة الديمقراطية فـي الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2002، ص 209–210.
5. تطول الإحالة إلى كل السور والآيات الواردة فيها هذه الصيغ والتي اعتمدنا في رصدها على كتـاب "فتح الرحمن لطالب آيات القرآن"، ترتيب علي زاده فيض الله الحسين المقدسـي، الـدار العربيـة للكتاب، ليبيا – تونس، 1981. وعلى سبيل المثال فقط، نجد "خفتَ" في سورة مريم الآية 4، وخِفتَ في سورة القصص، الآية 7، "ولا تخف" في سور كثيرة مثل سورة هود، الآية 70، والنمل، الآيـة 10، والعنكبوت، الآية 33، و "خيفة" في سورة هود، الآية 20، وهكذا...
6. سورة النازعات، الآية 40.
7. سورة الحشر، الآية 16.
8. سورة الزمر، الآية 16.
9. سورة آل عمران، الآية 175.
10. فتح الرحمن لطالب آيات القرآن، مرجع سابق، ص: 275–277.
11. هذا الجمع في الطاعة بين الله والرسول ورد في سورة الأنفال ثلاث مرات: "واطيعوا الله ورسوله" (الآية 1) والآية (46) و (الآية 20).
12. سورة النساء، الآية 59.
13. انظر، فتح الرحمن لطالب آيات القرآن، مرجع سابق، ص 305–306.
14. الطاهر لبيب، مرجع سابق، ص: 204.

15. سربست نبي، كارل ماركس: مسألة الدين، دار كنعان، دمشق 2002ـ ص17.

16. وجيه كوثراني، الفقية والسلطة، جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية – القاجارية والدولة العثمانية، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2001 ص9.

17. وجيه كوثراني، المرجع نفسه، ص: 11.

18. المرجع نفسه، ص15.

19. المرجع نفسه، ص14.

20. من هذه الآيات مثلاً: **"ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وحملُه وفصالُه ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أنْ أشكرَ نعمتكَ التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلحْ لي في ذُريتي إني تبتُ إليك وإني من المسلمين".** (سورة الأحقاف، الآية 15).

21. الآياتان هما 23 و 24 من سورة الإسراء: **"وقضى ربّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغنّ عندك الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً"، "واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً".**

22. إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت 2003، ص 314.

23. "فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف" سورة قريش، الآيتان 3 و 4.

24. هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، ترجمة محمود شريح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1992، ص22.

25. خلدون النقيب، في البدء كان الصراع، جدل الديني والأثنيّة، الأمة والطبقة عند العرب، دار الساقي، بيروت، 1997، ص232.

26. بشير محمد الخضرا، النمط النبوي – الخليفي، في القيادة السياسة العربية... والديمقراطية مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 504.

27. بشير محمد الخضرا، مرجع سابق، ص: 504.

صناعة البيئة الثقافية للخوف

فؤاد إبراهيم

باحث سعودي
مقيم في لندن

ما هي ثقافة الخوف، وكيف غدت موضوع بحث من قبل طيف واسع من علماء الانثروبولوجيا والسيسيولوجيا والسياسة؟. إننا، دون ريب، نقع في خضم ظاهرة ملتهبة ترتطم بمجمل حركتنا اليومية وانشغالاتنا الذهنية والنفسية. وإذ لا يمكن أن نفسّر هذه الظاهرة ما لم نعتقد جزماً بوجودها، ولكي نمتلك فكرة عامة عنها لابد من تعريف مكوّناتها، فإن أول سؤال يدهمنا هو كيف يتحول الخوف إلى ثقافة؟

الثقافة، بحسب تعريف ادوار برينت **تيلور**، عام **1871** في كتابه (الثقافة البدائية)، هي (**مجموعة معقّدة تشمل المفاهيم والمعارف والمعتقدات والفنون والقوانين والاخلاق والاعراف وجميع القدرات الاخرى والعادات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضواً في المجتمع**)[1]. فالثقافة، كما يرى فرويد، ذات طبيعة شمولية تنصبُّ في الانسان بكامله[2]. وهذا يلفت إلى أن ليس هناك ثقافة فردية يمكن إنتاجها خارج فضاء المجتمع، فالانسان هو "حيوان اجتماعي" بحسب ارسطو. أما **الخوف**، فهو أداة يستشعر الفرد عبرها بالمعاناة في القلب، ويستدمجها في نفسه، ويستوعبها. إنه، بكلمات أخرى، قناة الطاقة التي تسلك المعاناة عبرها الطريق إلى القلب البشري. يبقى، أن تأثيرها لايقع ظرفياً، ولكنها متراكمة في الخاصيّة، فهي لا تتم لمرة أو دفعة واحدة، ولكنها تتكشف بصورة ثابتة، كما يذهب إلى ذلك ثيودور أدورنو. **ثقافة الخوف** مصطلح مقترح في العديد من الطروحات السوسيولوجية التي تجادل بأن مشاعر الخوف والقلق تهيمن في الخطاب والعلاقات العامة المعاصرة، وتتغير بحسب علاقة أحدهما بالآخر كأفراد وكجماعات اجتماعية. وبالرغم من أن كل هذه الطروحات تقدّم حسابات مختلفة لمصادر وتداعيات الاتجاه الذي يرومون التوسل به لوصف وتحليل هذه الحالة، فإن جميع هذه الطروحات تتقاسم المطلب الجوهري وهو أن ثقافة الخوف تعدُّ، إلى حد ما، ظاهرة جديدة بدلالات شديدة الاهمية والخطورة. بيد أن ما يلزم التشديد عليه، أن الخوف كحالة عاطفية وأنتولوجية غريزية أصبح رفيقاً حاضراً بسطوة في حياتنا اليومية. وكما يقول **الشاعر نزار قباني:**

ليس جديداً خوفنا

فالخوف كان دائماً صديقنا

من يوم كنا نطفةً

فى داخل الأرحام

فقد باتت الأرض التي نقيم عليها كوكب الخوف الملتهب بظواهر مثيرة للفزع، بعد أن أخذت أشكالاً اجتماعية وسياسية معقدة تتمظهر، على سبيل الامثلة، في مجتمع المخدّرات، ومجتمع المباحث والمخابرات، ومجتمع لوردات الحرب وباعة أسلحة الدمار الشامل.. فثمة تجسيدات لعالم الخوف الذي يفرز أشكاله المنظّمة ويشيع ثقافته في مسامات البنى المجتمعية.

يحدد هيدغر السمة الخاصة للخوف في (تحديد ما يخاف أمامه، وما يخاف من أجله)، فالإنسان الخائف والقلق يجد نفسه (مكبّلاً) بما يشعر بنفسه فيه وفي مسمّاه لينقذ نفسه – أمام (هذا) الشيء المتعين، حيث لا يشعر بالأمان أمام ماهو (آخر) أي إجمالاً يفقد صوابه(3).

هذا التصور للخوف، وهو موضوع دراسات علمية، نجده أحياناً مبهماً في منشأه وأصل وجوده، فليست مصادر الخوف واقعية أحياناً، وبحسب باري جلاسنر في (ثقافة الخوف) إننا نخاف من أشياء هي في الغالب غير ضارة، ولكن خطورة الخوف تكمن في ما ينجبه من تصورات متشائمة تمسك بخناق مواقفنا، بما تجعلنا في حالة عجز تام عن حل مشكلاتنا(4)..

خصائص ثقافة الخوف

1. **أنها ذات طابع جماعي**، فلا يقصد بها فرد ولا جماعة دون غيرها، بل هي بمثابة حزم الهواجس المتفشية في كل قلب ينبض وفي كل روح تخفق. فثقافة الخوف أخذت معنى جماعياً ولم تعد ذات طابع فردي، كما كانت النظرة إلى مفهوم الثقافة حتى نهاية القرن الثامن عشر. تماماً كما لم يعد الخوف مجرد إحساس فردي مستقل يضطرم غريزياً لمواجهة أخطار مباشرة تتربص بالوجود البيولوجي للفرد، بل بات مندغماً في نسيج الوعي الجماعي للبشر، وتتجلى تمظهراته في أنماط العلاقة السائدة، ولغة التخاطب اليومية، ومنهجية التعامل بين مكوّنات المجتمع. فهنا

تضمحل كينونة الفرد، لتنصهر في الكيان المجتمعي الكبير الذي يقع تحت وطأة ماكينة ثقافة الخوف الطاحنة، يتعرض الافراد، خلال عملها، لمسخ شامل للهوية، والتفكير، والمشاعر والقيم الانسانية، ليكون الخوف وحده قبطان السفينة، والموت حارساً عليها، والمجتمع مجرد كتلة بشرية مخطوفة على متنها.

فالفرد يعاد صياغته من خلال دمجه في المجتمع الخاضع، تحت تأثير إشعاعات ثقافة الخوف، فلا يعود فرداً سوّياً مستقلاً، بل هو جزء من مسخ جماعي، يكتسب خصائص المجتمع الممسوخ، يفكّر كل فرد فيه، كما يلبس وينطق ويهجس، بطريقة واحدة، إنها أوركسترا الخوف التي تعزف لحناً موحداً لخدمة صانعيه.

في السياسة، يتولّد تواطؤ عفوي بين المجتمع والسلطة السياسية على ممليات ثقافة الخوف، والتي تؤول مفضياتها إلى تركين أسس الاستبداد بكافة أشكاله المفزعة.. ثقافة تتفشى في البيت، والشارع، ورياض الاطفال، والمدارس والجامعات، والجوامع، والمؤسسات التجارية والاعلامية، والأندية، وشبكات النخب الفكرية والصفوة الاجتماعية، وصولاً إلى القيادة السياسية. فمطلوب من الجميع أن يمتثل لعبادة الخوف على طريقته، طالما أن العبادة ستكون خالصة لوجه السلطان المستبّد، تحقيقاً لمقولة: الناس على دين ملوكها. وكما يقول **نزار قبّاني**:

هذا له زاوية يومية..

هذا له عمودْ..

والفارق الوحيد فيما بينهمْ..

طريقة الركوع.. والسجود..

2. **أنها طغيانية**، ويراد منها تحقيق درجة اكتساحية قصوى في التغلغل والتداول اللحظي، بحيث تستحوذ بصورة دائمة ومتصلة على مجمل الانشغال الذهني والمشهد العام للحياة.

ويتكيء نجاح الخوف ليس على القدرة في التعبير عنه فحسب، ولكن أيضاً على كيف يعبّر عن الهواجس الثقافية العميقة. مثال ذلك الحرب في العالم، فقد كانت ناجحة لأنها مدموغة في مخاوف الشعب سابقاً من النازية والحرب العالمية الثانية، وراهناً من الارهاب وبخاصة عقب حوادث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

فقد بدا واضحاً وفي سياق إنفجار المخاطر، أن أوروبا عاشت في يناير 2001 تحت تأثير الهلع مما يعرف بحرب البلقان، فيما كان يعتقد قسم من شعوب أوروبا، بوجود رابط ما بين ذخائر اليورانيوم المنضّب التي سقطت خلال القصف على يوغسلافيا وأنواع الأعراض المرضية التي عانت منها قوات الناتو العاملة في تلك المنطقة، بالرغم من أن الخطر لم يكن سوى نظرياً، فيما لا دليل مادي عليه، الا أنه إستعاد الصورة المرعبة للحرب النووية[5].

واذا كنا، فيما مضى، نجهل الكثير عن الكوارث الطبيعية والبشرية بفعل ضعف التواصل، فإن الثراء الاتصالي الذي حققه الانترنت والتلفزيون الفضائي، ينقل الينا معلومات عن دفعات هائلة من الجرائم الفردية والمنظمة وعمليات السطو والكوارث بكافة أشكالها بصورة لحظية. إن إنتاج الخوف، عبر قنوات البث الاعلامي، يهيمن على مجمل فروع الصناعة، فقد أصبح الخوف مفتاحاً لتكنولوجيا السلطة. وفي الوقت نفسه، فإن سيرورة انتاج الخوف قد غيّرت مفهومنا إزاء الخطر وكذا طريقتنا في التعامل مع الخوف. وفيما يبدو بجلاء، فإن آلة الخوف في حالة إزدهار، فالجيل المتواصل من مصادر ومضامين الخوف قد منحها وضع السيرورة التاريخية، المشفوعة بطلب متحوّل لوسيلة فهم، وسيطرة ومحو للأخطار الجديدة. يعتقد **باري جلاسنر**، بأن أي تحليل لثقافة الخوف يتجاهل الاعلام الخبري يعتبر ناقصاً. إن تأثير وسائل الاعلام (التلفزيون الفضائي بدرجة أساسية) مازال ضارياً بحيث يجعلنا نشعر بأننا نعيش في عالم خطر للغاية، ويجب علينا حماية أنفسنا بالسلاح، وتكثيف الرقابة البوليسية والاعتقالات، والتي من شأنها إشعار الناس بعدم الامن، حين يرون كثافة تواجد رجال الامن والشرطة بزيهم العسكري في الشوارع العامة. ويوجّه جلاسنر أصابع الإتّهام إلى وسائل الاعلام الاميركية في تغذية ثقافة الخوف، والتي تسعى إلى استقطاب جمهور المشاهدين والقراء من خلال تقديم أحداث تجمع بين الرعب والاثارة. إن تفشي مشاعر الهلع لدى المواطنين الاميركيين، يمنع المؤسسات الحاكمة والمواطنين من قبول فكرة تصحيح أية اخطاء مرتبطة بالمخاوف، التي قد لا تستند إلى أي أساس، بل إن انتشار الخوف أدى إلى اجهاض الجهود الرامية إلى استصدار قوانين لمنع انتشار الاسلحة النارية. وحتى على المستوى الاقتصادي، فإن **صناعة الخوف وترويجه**، باتا تجارة مربحة للغاية بالنسبة لبعض المؤسسات الاقتصادية والسياسية، بل إن وجود بعض أقسامها مرتبط بإستمرار

حالة الهلع، كما هو شأن **عقد صفقات الاسلحة الضخمة، واعلان حالة الطوارىء والاحكام العرفية**، التي تشكل بحد ذاتها بيئة خصبة لمناشط تجارية موصولة بمنسوب مرتفع من ثقافة الخوف. من منظور بعض الجماعات الدينية، فإن تفشي ثقافة الخوف يعيد إحياء الافكار المسيائية السكاتولوجية التي تبشّر بظهور المهدي المنتظر والمسيح عيسى بن مريم، حيث أن العقيدة الشيعية التقليدية تقوم على أن ظهور المهدي يؤول إلى (ملء الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً)، كمقدمة لانقشاع إشعاعات الخوف، وتبدّد سحب الكآبة عن كوكبنا. يمهّد لهذا الظهور عمل دؤوب تقوم به فرقة ضئيلة العدد كثيفة الحضور لترويج ثقافة الخوف من خلال الاستعانة ببعض الروايات الدينية الهزيلة في سندها وسبكها، تقول بأن تفشّي الانحراف والظلم والخراب ضرورات قبلية وتمهيدية، أو ما يسمى علامات لظهور المصلح المهدي عند المسلمين والمسيح عند النصارى، بل قد يجنح بعض رموز هذه الفرقة إلى حثّ أتباعها على الاسهام في المزيد من الاقترافات وارتكاب الرذائل والجريمة من أجل تسريع عملية ظهور المصلح، وتوفير الشروط الاجتماعية والدينية لظهوره.

وبوجه عام، فإن الخوف أصبح سلاحاً فتّاكاً يجري إستعماله في جبهات متعددة ولغايات مفتوحة. إن ثمة دوراً مشبوهاً تزاوله عن عمد، جماعات عديدة لاقناع العامة بأن الموت يحيق بهم من جميع الاتجاهات بدءاً من ركوب السيارة وحتى تناول الطعام. وكما يبدو بجلاء، فإن الغرض من تضخيم هذه الحوادث لاستغلالها بطريقة خاطئة، حيث يقع الافراد ضحية **نظرية المؤامرة.** فقد أظهرت إستطلاعات الرأى ان حوالى **75% من الاميركيين** يشعرون بمخاوف غامضة لا يعرفون مصدرها، اذ أن كلّ شئ تقريباً أضحى باعثاً على القلق والارتياب، ويؤكد الاميركيون أنهم يعيشون في ظروف إستثنائية عصيبة، بالرغم من الآراء التى تزعم سيطرة الولايات المتحدة على مقدرات العالم، ولكنها مع ذلك تعجز عن توفير الأمان لشعبها في الداخل. بل إن النخبة الحاكمة تتآمر على الشعب الأمريكي بهدف تعظيم مصالحها الخاصة، وذلك من خلال العمل على **الترويج لثقافة الخوف**، وقد تجسّد ذلك في الإقبال الواسع على الروايات التى تتحدث عن عالم الرعب بكل ما ينطوى عليه من مفارقات وغرائب، ولذا لم يعد أمراً مثيراً للدهشة في أن تحقق رواية هاري بوتر بأجزائها المتعددة أعلى نسبة مبيعات في الولايات المتحدة بالرغم من انتماء المؤلِّفة إلى بريطانيا، كما تشهد الولايات المتحدة

إقبالاً غير مسبوق على إنتاج الأفلام التى تجسِّد مشاهد الرعب والمعارك الهائلة من نوعية أفلام يوم الاستقلال، وعلى خط النار وغيرهما من الاعمال التى حصدت أرباحا تقدَّر بمئات الملايين من الدولارات. وفيما يبدو، وكمحاولة هروبية من الواقع، بات المجتمع الاميركي يدمن الاحساس بالخوف كتراث عزيز لا يسهل التفريط فيه، لدرجة أن أياً من المصنفات الفنية أو العلمية التى لا تتصل بهذه الظاهرة لا يكتب لها الرواج في الولايات المتحدة، مهما كانت درجة الاتقان والرصانة التى تتميز بها هذه المصنّفات.

في المشرق العربي، حيث يسكن الخوف، فإن الغني يجني المال ولا يصرفه، وهو متذرع بأن القرش الأبيض هو لليوم الأسود لأن الحياة ليست مستقرة في بلادنا الشرقية، فالغني يمكن أن يصبح فقيراً بين ليلة وضحاها، والخوف من المجهول، والمستقبل، والمستور، يستبطن تعبيرات خوف آني، وإن كان خوف المشرق يعبر عنه سلبياً بالصمت، بالانطواء على الذات، وبتغيير خارطة الاذهان وجدول الاهتمامات وقائمة الاولويات على مستوى الافراد والجماعات، عملاً بالقول الدارج (**الباب اللي يجي منه الريح سدّه واستريح**) أو (**إبعد عن الشر وغني له**) فالشر هنا يقصد به كل مايقرّب من نقطة الخطر ويجلب الضرر.

(إن الشيء الوحيد الذي يجب علينا الخوف منه، هو ذلك الخوف مما يصنعه الخوف)، حسب مقولة منقولة عن الرئيس روزفلت عام 1933. ويشير كيرتشوف وكيرت باك إلى أن (الاعتقاد بتهديد ظاهر يجعل من المحتمل شرح وتبرير إحساس شخص ما بعدم الارتياح). **فالخوف من الخوف** يثير فزعاً أشد من الخوف ذاته، وكما يقول علي بن ابي طالب عن الانسان (وإن غاله الخوف شغله الحذر)(6) ، فإندكاك الانسان في خوفه يستنزف طاقته الذهنية في تصنيع التدابير الاحترازية الحمائية، وهو ما تنهمك وسائل صناعة الخوف لأجل إدامته. إن التغطية الاعلامية تزيد في عدد الناس المصابين بأعراض تغذي التغطية الاعلامية.. فالخوف يخلق شيئاً ما نخاف منه، بحسب باري جلاسنر، وهو يدمّر تفاؤلنا ويجعلنا نعتقد بأننا غير قادرين على حل مشكلاتنا(7).

وينقل باري جلاسنر عن البروفسور Esther Madriz في كلية هنتر الاميركية بأنه أجرى مقابلة مع نساء في مدينة نيويورك حول مخاوفهن من الجريمة، فكنَّ يردِّدن عبارة (**شاهدت ذلك في الاخبار**). ويعلق هنتر على ذلك بأن الاعلام الخبري يشكّل مصدراً لخوفهن وسبباً يجعلهن يعتقدن بأن تلك المخاوف واقعية. وفي سؤال استطلاعي

على المستوى الوطني حول السبب الذي يجعل الافراد المشاركين في الاستطلاع بأن البلاد لديها مشكلة جريمة خطيرة، نقل **76 بالمئة** منهم قصصاً شاهدوها في وسائل الاعلام، و**22 بالمئة** فقط رووا تجاربهم الشخصية.

وكان البروفسوران Robert Blendon و John Young من جامعة هارفارد أجريا سبعة وأربعين مسحاً حول **استعمال المخدرات** ما بين عامي 1978 و1997، وتوصلا إلى أن أخبار الصحافة، أكثر من التجربة الشخصية، تزوّد الاميركيين بالمخاوف المسيطرة عليهم. إن القلق المنتشر على نطاق واسع حول مشاكل المخدرات تنبعث، حسب الباحثين، من المخاوف في الاعلام الخبري وبخاصة التلفزيون. وهذا يعني، بأن البرامج الخبرية المتلفزة تعيش على المخاوف. إن نشر احصائيات حول **الأمراض وعدد المصابين بها** تثير، دون ريب، حالة هلع وتدخل ضمن صناعة بيئة ثقافية للخوف. في عام 1996 قام الكاتب الأميركي بوب جارفيلد باستعراض مقالات حول الامراض الخطيرة المنشورة خلال عام واحد في كل من صحيفة (واشنطن بوست)، و(نيويورك تايمز)، و(يو إس أيه توداي)، وتوصل إلى أنه بالاضافة إلى **59 مليون أميركي يعانون من أمراض في القلب، هناك 53 مليون أميركي يعانون من الصداع النصفي، و25 مليون أميركي يعانون من هشاشة أو ترقق العظام osteoporosis، إلى جانب 16 مليون يعانون من داء السمنة أو زيادة الوزن obesity، و3 ملايين مصاباً بالسرطان. وفوق ذلك، فإن كثيراً من الاميركيين يعانون من أكثر من مرض معيق مرتبط بالمفاصل (10 ملايين مصاباً) وإمراض في المخ (2 مليون مصاباً)**. حين تجمع تلك التخمينات، يقرر جارفيلد بأن **543 مليون حالة مرضية خطيرة يعاني منها الشعب الاميركي، وهو رقم صادم لأمة يبلغ تعداد سكانها 266 مليون**. ويعلق جارفيلد على ذلك **(إما أن نكون كمجتمع متشائمين أو أن هناك شخصاً ما يرسم صورة مضخمة)**[8].

إن القلق إزاء الاخطار الحقيقية، حين يتجاوز حدوده المعقولة يسبب ضرراً فادحاً، كما هو شأن الخوف من بعض الامراض مثل **(السرطان، والايدز، وانفلونزا الطيور، والجمرة الخبيثه ، وجنون البقر..)**. فحين يصدر تقرير طبي يفيد بأن نسبة الاصابة بمرض سرطان الثدي بين النساء في سن الاربعينيات تتراوح مابين 1–10، فإن ذلك من شأنه صناعة بيئة **هلع من الموت الوشيك** لدى النساء في هذا السن وصاعداً. وقد لحظنا

كيف فعلت موجة الهلع العالمية فعلها حول خطر انفلونزا الطيور، والتي لم يتجاوز عدد ضحاياها المائة.

فنطاق المخاوف الصحية لا حدود له، وأن إغمار العالم بموجة رعب حول أخطار متخيّلة رسم، بلا شك، صورة سوداوية وتبعث على الهلع، وهذا يقرع وعينا بحقيقة مؤكّدة، **أن الخوف بات مكوّناً جوهرياً في ثقافة الاستهلاك**، فالاخبار المثيرة للفزع تدفع الناس لمشاهدة التلفاز وشراء الصحف، ونلحظ ذلك أيضاً من الاقبال الواسع على أفلام الرعب.. إن الاسواق تستقبل الخائفين من انعدام بعض السلع، وتتفشى عدوى الخوف في أوقات الحروب.

في القرن الماضي، كانت الحرب الباردة خاضعة تحت تأثير **الخوف من قيامة نووية**. ولأن الخوف هو وارث خوف آخر، فإن الخوف من الحرب النووية المتخيّلة تستعيد وتطوّر وتحتل الخوف من الآثار المدمرة للحرب العالمية الثانية وتحديداً مشهد القاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناجازاكي في اليابان. أما الآن، فيعاد إنتاج الخوف في صيغة أشد خطورة وانتشاراً من خلال الحديث عن تسونامي إرهاب أصولي يشنّه أناس مدججون بأشد الاسلحة فتكاً ويستعلمونها بطريقة سادية وجنونية.

3. **أنها واحدية التوجيه والغاية**، فوحدها ثقافة الخوف المراد ترسيمها ليكون تداولها مشروعاً، فيما يغدو غيرها مروقاً وكفراً، بل وجريمة يعاقب عليها القانون، فهي بهذا المعنى إقتلاعية وإقصائية.. حيث يغدو الخروج على المألوف شقّاً للصف، وهتكاً للستر، وخرقاً للاجماع، بل وضرباً من الجنون، فالاجماع متحقق ومحكم حين تكون ثقافة الخوف مصدره الوحيد. إنه لمما يدعو للسخرية أن يقرن الخائفون بين الشجاعة والبلاهة، وكأن ثمة مخبراً مندسّاً في اللاوعي الجماعي، يبثُّ رسالة منتظمة بأن المجنون من شذّ عن القطيع والهلاك نتيجة حتمية لمن فارق الجماعة. يتقمّص **أورويل** دور صنّاع ثقافة الخوف ليخاطب قُرّاءه بلغتهم (كل شيء في داخلك سيموت، لن تعود قادراً على الحب، والصداقة أو التمتع بالحياة أو الضحك أو التعجب أو الشجاعة أو الاستقامة، إنك ستكون كصَدفة فارغة، سنعصرك حتى تصبح كالجيفة الخالية من كل شيء ثم نملؤكَ بأنفسنا)(9).

4. **تعطيلية**، بمعنى الارتهان الجماعي لصنّاع ثقافة الخوف ومصادرها، والاستقالة أمام الواقع، والانغماس في الراهن والانحباس في اللحظة مع تخصيب أفق الخوف من

المجهول وعنصر المفاجأة ومداهمة الغيبي واللامحسوب. لقد نبّه **جورج أورويل** على مكمن خطورة ثقافة الخوف في سياق فحصه لمكوّناتها وأغراضها، حيث حددها بصورة مكثّفة في التفكير المزدوج الذي يفرز ثنائيات متضادة: المعرفة والجهل، الصدق والكذب، الايمان وعدم الايمان، المنطق وضد المنطق، الديمقراطية والاستبداد، الذاكرة والنسيان. هو هذا التفكير المزدوج المطلوب إستعماله بحسب كل حالة، وهو يلخّص عقيدة الحاكم المستبد في مواطنه: (ان عليك ان تهزم نفسك قبل أن يصبح بامكانك ان تكون سليم العقل)[10]. إن العقل السليم هنا هو ما يسهب الروائي السوري **سعد الله ونوس** في تعريته في مسرحية (يوم من زماننا)، حين ينتج العقل مضاداته عبر سلسلة ثنائيات متضاربة، حيث يبدو هذا العقل مركزاً للتفكير في الشيء ونقيضه، فهو مع الحرية وضدها، ومع القيمة العليا ونقيضها. هو عقل مصمم كي يكون مأجوراً دائماً لخدمة أغراض السلطة، وفي الوقت نفسه قادر على تكييف نفسه بصورة تلقائية مع متغيرات الواقع، مستعيراً من محفوظاته المنصوبة من خارجه ما يناسب كل مستجد. وهو عقل قادر أيضاً وبصورة مذهلة على أن يمنطق تحوّلاته من موقف إلى نقيضه، بل وأن يسبغ على القيم الفاسدة وشاحاً قدسياً، حين يبتكر لكل مفردة قبيحة مقابلها الجميل، فحتى الفساد يصبح مبرراً حين يستبدل عنوانه كما تستبدل السرقة بالكميسيون والرشوة بالربح المشروع، تماماً كما أستبدلت قيم عديدة في ثقافتنا اليومية، فصار الاستبداد، والحكم الفردي، والقمع، ومصادرة، الحريات، وانعدام التعددية الحزبية، ثاوية في جوف شعارات كبرى مثل الوحدة الوطنية، ومقاومة الاستعمار، ووحدة القيادة ضد مؤامرات الخارج والعملاء في الداخل. هذا العقل هو الذي أوصل فاروق، أستاذ الرياضيات في مسرحية (في يوم من زماننا) إلى إعلان التمرد على عقله المغصوم والفرار من عذاب تلك الثنائية المعيقة التي تجعل من الولاء للسلطان القيمة النهائية والوحيدة. فقد كان فاروق يريد أن يحمي الاخلاق، بينما كان مدير المدرسة يريد أن يحمي الرئيس، وأن أم الفضائل لدى المدير هو (محبة الرئيس والولاء له)[11]. ولكن فاروق الذي أعيته الوسائل الحوارية في التأثير على المدير والشيخ ومدير المنطقة، إكتشف غربته في مجتمع الخوف (في المدرسة، والجامع والشارع والمديرية وحتى بيوت البغايا)[12]، فقرر الرحيل لابطال مغنطة ثقافة الخوف، واختار الموت بديلاً عن فعل الخيانة مع (دولة هذه الايام)[13]. لقد

اكتشف فاروق بأن إنحلال المجتمع يبدأ، في إدراك الحاكم، في الخروج عليه وليس في فساد المجتمع أخلاقياً، ولذلك تصبح عبارة **(إنهم يشتمون الرئيس)** ناقوساً مدوّياً حيث تختزل الدولة في شخص الحاكم. فقد تربى كل فرد في مجتمع الخوف على أن كل فرد مسؤول مؤتمن على حماية مؤسسته من جرثومة السياسة وأن يربّي من يعمل معه على الولاء والطاعة. وفي رد فعل إنتحاري، قرر فاروق أن يتحرر من النفاق الخلاّق ونزع قناع الزيف المتعدد بحسب تعدد المواقف، وإن كان التحرر يتطلب التضحية بالروح، وكما قال الشاعر الفلسطيني **معين بسيسو**: (فأنتَ إنْ سكتَّ، متّ... وأنت إنْ نطقتَ متّ... قُلها،... ومُتْ.). هذه الأبيات، ردّدها الروائي الجزائري القتيل الطاهر جعوط، قبل اغتياله.

إن الهزّات الارتدادية العنيفة لثقافة الخوف تتجاوز بالتأكيد حافّات المجتمع الواقع ضمن مجال تأثير وجبروت تلك الثقافة، بل تستوعب الدولة بكاملها، فالخوف يسري في أحشاء رجل السلطة بنفس القدر الذي يطال رجل الشارع، فالكل في الخوف سواء، وإن كان الخوف مخلوقاً سلطوياً بإمتياز. ثقافة الخوف هذه ترهن أفراد السلطة والمجتمع إلى نوع من العلاقة المهجوسة بكل ما تنذر به من مفاجئات أو ما يختمر في أذهان ضحاياها على كونها كذلك، فالانحباس في اللامرئي والغائب والمستور يهيمن بسطوة على شبكة العلاقات الداخلية بين فئات المجتمع وبينها وبين السلطة. هذه بيئة الخوف التي تفرض أعرافها في مقابل القانون الناظم لكل علاقات سويّة، ومستقرة، وفي مثل هذه البيئة يصبح التراكم الرهابي بالغ الثراء وغزير الانتاجية، حيث الخوف يولد من رحم خوف آخر، لينضاف إلى أشكال أخرى من الخوف، وفي نهاية المطاف، تتظافر سوية لصناعة بيئة خصبة لثقافة الخوف، فالخوف في البيت يلتقي بالخوف في الشارع والمدرسة والسوق والمؤسسة والجامع والجامعة وصولاً إلى تلبيد الفضاء العام بكل محتوياته بخوف مطبق، لتلتقي في مصب واحد، هو **تصنيم السلطة المهيمنة صانعة الخوف الأكبر**. فالقابضون على مصادر السلطة سواء أكانت اجتماعية أو فكرية أو دينية أو سياسية، مفتونون بخنوع الاتباع حد الأسر، فالتلذذ بالسيطرة يغري أولئك بإبقاء سحرهم المطعّم بالفزع على أولئك الذين وقعوا في الأسر، ولا يمكن لغير ثقافة الخوف أن تحول دون بقاء الأسرى في أقفاصهم. إن هذه الثقافة يراد منها أن تكون ميراثاً ينتقل من جيل

لآخر، فلا تنعقد رابطة بين إثنين الا كان الخوف ثالثهما. ولذلك، فإن الحرية تصبح هنا ممقوتة لأنها تهشّم قيود الاسر، من كل أشكال العبودية. وحسب قول **إريك فروم:**

فالشخص الذي تغلب على الجشع ولم يعد يتشبث بأي معبود ولا بأي موضوع، وبالتالي لا يملك شيئا يجب أن يفقده: إنه غني لأنه مجرد وهو قوي لأنه لم يعد عبداً لرغباته. يستطيع أن يطرح الأصنام والرغبات اللامعقولة والهلوسات، لأنه على تلاؤم تام مع الواقع، في داخل نفسه وخارجها. فلو أن شخصاً كهذا الشخص قد بلغ "صحواً" كاملاً فلن يعرف بعدها الخوف. ولن تكون بسالته تامة إذا هو إتجه نحو هذا الهدف دون بلوغه. وكل شخص، مع ذلك، يميل نحو هذه الحالة التي يكون فيها هو ذاته على وجه تام، يعلم أن شعوراً من القوة والفرح، في كل خطوة جديدة تُسلك إليها، يستيقظ ولا يدع مجالاً لأي شك. ويحسّ بأن مرحلة جديدة من حياته قد بدأت. ويستطيع الشعور بحقيقة أقوال غوته: "لقد بنيت بيتي على لا شيء لذلك فإن العالم بأكمله هو ملكي"[14].

الحرية هي دون شك مبيد ثقافة الخوف، لأنها تبطل مفعول منظومة الفيروسات المندسّة في هذه الثقافة، من قبيل العبودية، والخنوع، والسكون، والانكفاء على الذات، واليأس، ليستعيد الفرد بالحرية إنسانيته بكل قيمها النبيلة ويرسم خطاً جديداً لحياة تقوم على الشعور بالكرامة، والأمل، والحركة، والسباق نحو التقدم على مستوى الفرد والمجتمع، والتنافس بكافة أشكاله، وتمزيق شهادة العبودية التي كتبت في لحظة ميلاده ليعيد كتابة حريته بخط يده. يعلن الفرد تمرده بعد أن أنصت بإهتمام إلى رسالة الضمير المدوّية التي أطلقها **جورج أورويل:** (أيها الإنسان احذر هذا الاستبداد وقاومه بكل ما لديك من قوة قبل فوات الأوان، وإلاّ سيقضي على شخصيتك وإرادتك ويحوّلك إلى أداة غير قادرة علي التفكير)[15].

العامل الاجتماعي: التنشئة الاجتماعية

إن كل خوف ذي طابع جماعي يتستر بثقافة، وليس هناك أقوى من المجتمع كوسيط نموذجي في صناعة ثقافة الخوف. فمجتمع الخوف مولّد نشط لأشكال متعددة من الخوف، فالاستبداد السياسي ينشأ ويتوسل بخوف المجتمع، والاستبداد الديني المولّد بدوره للاستبداد السياسي هو الآخر مكفول بخوف المجتمع. فالاخير وحده الذي يقرر متى يقلع عن أشكال الاستبداد المختلفة، أي متى ما تبدّل منسوب وعيه الثقافي، وهو

تبدّل منوط بقلب منظومة التنشئة االفردية والجماعية، أي محو آثار النظام القيمي المسؤول عن صناعة ثقافة الخوف.

في مشرقنا العربي، نولد بقائمة من **النواهر والزواجر**، التي تقرر وتقـدّر للمـرء مسيره ومصيره لينشأ على (ذهنية الممنوع) بالمعنى الواسع، لتصبح القاعدة: كل شـيء ممنوع أو حرام الا ما ثبت بالدليل. إن تمدّد منطقة الخطر والممنوع يبدأ بحظر ذهنـي حيث يكون اللامفكر فيه واللايجوز الاقتراب منه أكبر من المباح الذهني، ليعكس الحظر في السلوك الفردي والجماعي في هيئة انطواءات متعددة الاشكال اجتماعية وسياسـية.. قلة هي دفعة الحوافز التي يحصل عليها الفرد في مجتمع الخوف مـن أجـل المغـامرة والسباق نحو إقتحام المجهول، فثمة إختلال عميق بين الحوافز والكوابح. تسجّل الباحثـة النفسانية **سوزان جيفرز** في كتابها (Feel The Fear And Do It Anyway) خلاصـة تجاربها وتذكر بأنها لم تصادف في حياتها أن سمعت أمّاً تطلب من طفلها حين يـذهب إلى المدرسة قائلة له (قم يا حبيبي بالكثير من المغامرات اليوم)، ولكن من المحتمل جداً أن تنقل لطفلها عبارات من قبيل (حبيبي إنتبه لنفسك). وتعلّق الباحثة (إن عبـارة إنتبـه لنفسك تحمل في طيّاتها رسالة مزدوجة: فالعالم هناك خطر للغاية..و..لـيس بإمكانـك التعامل معه)[16] أو مقاومته. وكما يظهر من هذا المشهد، فإن الأم تنقل عدم ثقتها فـي القدرة على التعامل مع مايصدف في طريقها إلى إبنها. وإذا مـا تـذكّرنا لافتـة **ليفـي شتراوس** في كتابه (بلدان المدار الحزينة)، بأن الانسان، هو النتاج الأسـاس للمجتمـع الذي يعيش فيه، وهي لافتة تستظل بوجهة نظر أرسطو الذي كان يـرى فـي الانـسان حيواناً اجتماعياً خلق ليعيش في المجتمع[17]، فإننا ندرك حينئـذ بـأن الـضغوط التـي يمارسها المجتمع على أفراده هي من نوع سيكولوجي أولاً ثم تتخذ شكلاً ثقافيـاً، حيـث تصبح ثقافة الخوف مشروعة على وقع رهاب المصلحة العليا للمجتمع والصالح العـام، أو الاحساس المتفجر بالخطر إزاء شيء ما، قد يبدو أحياناً مجهولاً حتى لصاحبه، ولذلك فإن كافة إمكانات النمو الثقافي والذهني والعاطفي لدى الافـراد تتعطـل أو تُختَطـف، بصورة شبه كاملة، لمجرد إخصاب بيئة ثقافية تقوم على افتعال شعور جمعي بالتهديـد والخطر. فالوراثة الاجماعية، إي إعادة الانسان إلى وسطه الاجتماعي وربطه أكثر بمـا أو بمن يحيط به فرضت نمطاً صارماً من إندكاك الافراد داخل البيئة الثقافية السائدة، أي بيئة الوسط الناجمة عن الولادة، حيث تكون رؤية الاشياء ذات طابع اجتمـاعي ولـيس

فردياً، بحسب بيير إمانوييل في كتابه (من أجل سياسة ثقافية)[18]. إذن، **الخوف يستنسخ خوفاً** في عملية تكاثر مفرطة في انتشارها، فقد أريد لنمط التربية في المجتمع أن يكون موحّداً لتنشأ أجيال الخوف الخانعة، وهنا تكون التربية بحسب تعريف ماكس فيبر (وسيلة من وسائل الهيمنة الاجتماعية)، فالمجتمع يتكفّل بإنتاج الخوف والترويج له عبر نمط تربوي موحد وقهري، وهنا تتشوّه عملية التكامل الاجتماعي أو التوافق الاجتماعي كما يلفت اليها دوركهايم،فتصبح الشمائل المطلوب تنشئة الاطفال عليها لادماجهم في المجتمع عادات مروّضة تحول دون انفصالهم عن النظام الصارم للمجتمع أو الارتطام به.

وهنا يصبح تعريف **هيرسكوفيتس M.J.Herskovits** للتربية مناسباً بوصفها عملية تطبيع ثقافي أو دمج ثقافي enculturation، أي تبني الانماط السلوكية في الثقافة المحيطة، بكلمات أخرى تطبيع المعايير السائدة في ثقافة الاطفال. وبحسب تعريف **ميستشا تيتييف Mischa Titiev**، فإن الدمج الثقافي يعني (التطبيق الواعي أو غير الواعي الحاصل خلال السيرورة التعليمية حيث يحصل الانسان، طفلاً وراشداً، على كفايته من ثقافته)[19]. **أما الصائغ الأول لمصطلح (enculturation) هيرسكوفيتس عام 1948**، فيرى بأن الناس الذين يولدون بآليات بيولوجية موروثة، يجب عليهم إما التحوّل أو السيطرة في توافق مع طريقة مجتمعهم في الحياة، أو التحول إلى أشكال اجتماعية مقبولة للسلوك الثقافي[20]. **فالتطبيع الثقافي** يعني، في المنظور الاجتماعي، عملية تربوية يتم عبرها نقل القيم والعادات من جيل لآخر، وصولاً إلى تحقيق حالة من الانسجام الثقافي المرغوبة لاستقرار النظام والتعايش الخلاّق للمجتمع[21]. وبينما تخلق هذه العملية ــ في تطبيقها الصحيح ــ هوية خاصة بالأبناء تغدو موضع فخرهم وكرامتهم وتمايزهم الحضاري، فإن في مجتمع الخوف تصبح عملية التطبيع الثقافي ذات أغراض مضادة تماماً.

التطبيع الثقافي، حين يسري عبر الحقل التعليمي، يمظهر نفسه في محتويات وتدابير علم التدريس، فمن خلال المحتوى التعليمي يصبح الفرد أكثر إطّلاعاً وإلماماً بقيم وعادات مجتمعه، وعبر التدابير يكتشف بأن تقدّمه يقاس من خلال إنجازه في مجال المهارات والنظرات التي تطوّر مظهر وتطلعات مجتمعه. هذا كله يعني، أن قيم مجتمعه هي المقياس لمنجزه وتقدمه وتقديره.

في إدراك ذلك، يشتمل الحقل التعليمي بوصفه أداة التطبيع الثقافي، على قناة واسعة لانتشار عدوى الخوف حيث تسري بوتيرة سريعة في كل زوايا المجتمع وتمتد، لكي تشمل كافة الفئات، لتغذي رد الفعل التلقائي الغريزي، بما يشبه إلى حد كبير الحركة المضطربة التي تنتقل إلى الحيوانات عندما تتجمع في هيئة جمهور. وبحسب **غوستاف لوبون (فصهال حصان في إسطبل، ما سرعان ما يعقبه صهال الأحصنة الاخرى في نفس الاسطبل. وأي خوف أو حركة مضطربة ما تصيب الخراف، سرعان ما تنتقل إلى بقية القطيع)**[22]. فالانسان يشبه الحيوان حين يكون في هيئة جمعية، بحيث يميل أفراد المجتمع إلى تقمّص الزعماء الذين يمارسون عليه تأثيراً أخّاذاً، حيث لا مجال للمقاومة. إن ثقافة الخوف تتمظهر في لغة التخاطب اليومية والتي يعبر عنها في الاجابات السالبة (لا أستطيع، غير ممكن، صعبة، بعيد، مستحيل..). هذه الثقافة تستعير من ميراث المجتمع الثقافي والتاريخي الذي إندائت في وعيه اللاهوتي أفكار قدرية، وتحوّلت إلى مادة تربوية يتلقاها الفرد في البيت والمدرسة والجامع ويكرّسها الحاكم، لتسويغ الرضوخ والقبول بالهزيمة والانصياع تارة تحت عنوان **(القضاء والقدر)** وتارة **(الجبر)** وثالثة **(طاعة ولي الأمر)** ورابعة **(وحدة الجماعة واتقاء الفتنة)**، وهكذا..، وقد جرى توظيف هذه المنظومة العقدية لترسيخ الاستبداد والتماهي في المجتمع العضوي الذي يلغي فردانية الفرد، وتغييب العقل لحساب تلقائية القطيع. فمن جبروت النزعة الابوية داخل الاسرة إلى المجتمع الأبوي الذي يمارس دوراً سلطوياً طغيانياً على أفراده مكرهاً إياهم على إعتناق ما جبل عليه من أساطير وخرافات وهلوسات تشكّل مجتمعة مكوّنات لثقافة الخوف، التي يتعاطاها الأفراد بملء إختيار وإرادة المجتمع عبر مدمني تلك الثقافة وممثلين عنها كل من موقعه، في عملية تقاسم للأدوار، فالأب في أسرته، والمعلّم في مدرسته، والشيخ في جامعه، والمدير في شركته، وصولاً إلى **(ظل الله في الأرض)**، أي الحاكم في سلطته، لتتداح تلك الابوية في كل أوجه الحياة تقريباً، وحيثما وجدت رابطة مصلحية أو اجتماعية من نوع أو آخر. فإذا ما قلبنا الهرم الأبوي من فوق ــ السلطة إلى تحت ــ المجتمع، فستكون النتيجة مفجعة، حيث تنتقل ثقافة الخوف بكميات الهلع والقمع المحشوّة بداخلها إلى كل مكوّنات المجتمع وتشكيلاته، لتعود تلك الثقافة تنتج نفسها تلقائياً في عملية ميكانيكية بحيث تكون لغة الخوف بكل متوالياتها لغة التخاطب اليومية والعنصر الحاكم في علاقات فئات المجتمع ببعضها البعض. ولذلك، لا تتضمن

الشهوة في القوة الكامنة للسيطرة في اقتدار المستبد، إنما في الضعف النفسي الذي يتمتع به، وهذا العجز يقود إلى ما يطلق عليه ظاهرة "المازوكية" وهي شعور ينتاب المستبد بهم من أفراد المجتمع ويقودهم إلى اللاجدوى والتلذذ بالألم. يرى **إريك** فروم أن الفرد يكف عن أن يصبح نفسه، إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة إنه يصبح كما يريد له الآخرون وكما يتوقعون منه[23]. وهي ميول بصفتها العامة مرضية، وتعد هذه العلاقة المتبادلة ضرورة لكلا الطرفين، فالمتعة السّادية للحاكم يقابلها خضوع الأفراد لقوى تحررهم من الخوف، ومن هذا المنطلق تتشكل "ثقافة الخوف" في المجتمع.

لاشك، أن بيئة كهذه لا فسحة فيها للابداع، لأن الابداع ينمو في فضاء الحرية، أما الخائفون فمشغولون بالتفكير في توفير طرق آمنة لضمان بقائهم على قيد الحياة، والفرار من الموت، وإن مجتمعاً يكون أفراده على هذا النحو، تموت فيه الكفاءة وتخبو فيه العبقرية، وتنحسر فيه المنافسة نحو التقدم، فيكون مجتمعاً يدمن الخضوع، والقبول بالمقسوم، والاكتفاء بما في اليد، ونبذ التجديد والتغيير لأن كل جديد، من وجهة نظره، ينطوي على خوف من الاسوأ، في تعبير عن اليأس واستحواذ اللحظة على المستقبل.

إن الروابط الداخلية في مجتمع الخوف تنشأ على قواعد مختلفة، بل وغير ثابتة، فليس هناك ما يمكن أن يشكّل مرجعية معياريّة، بل هي روابط واجفة مرتجفة رهينة لوتيرة الخوف المتأرجحة، وللخوف قواعده كالمجاملة المفرطة، والكذب الملبّس زي الحقيقة، أو ما يصطلح عليه هشام شرابي التمويه وإن كان الكذب والتمويه يلتقيان في هدف واحد وهو حجب الحقيقة، مع اختلاف في الاسلوب، ففي الكذب، حسب شرابي، تُنفى الحقيقة وتُستبدل بكذبة، أما في التمويه فالحقيقة لا تنفى، ولا تظهر بشكل كذبة، بل تظهر في زي حقيقة أخرى تدّعي أنها الحقيقة الصحيحة، يضاف اليها قواعد أخرى من قبيل إزدواجية الشخصية التي تتمظهر في التضرّع للقوي والتنمّر على الضعيف[24].
ينبّه هشام شرابي إلى خطورة دور النظام التربوي في إعادة إنتاج التخلف المزمن ونظام القهر الموروث، ويلفت إلى أن "التمويه الذي يمارس في المدرسة يمكن نقده وتغييره، لكن التمويه الذي نتعرض له في السنوات الأولى من حياتنا يكون حاجزاً من الصعب تجاوزه. والضرر الذي تسببه طريقة تربيتنا ومعاملتنا في الفترة الأولى من حياتنا يصعب تشخيصه وإبراز معالمه في وعينا المباشر وبالتالي إصلاحه وتجاوزه"..
وحيث يخضع الطفل لاستبداد الأبوين المسقط من الاستبداد العام، وينشأ في كنف أم تقهر

في داخله نوازع المعرفة، يتعود على الخضوع لآراء الآخرين دون تردد أو تساؤل. "وهذا ما ينمي في نفسه الإذعان للسلطة ولكل ما هو أقوى منه أو أعلى مرتبة وجاهاً"[25]. وعلى أفق أوسع، يجادل شرابي بأن **النظام البطريركي** يستوعب الهياكل الكبرى (المجتمع والدولة والاقتصاد) كما يستوعب الهياكل الصغرى (العائلة أو الشخصية الفردية)، فالنظام الابوي يهيمن على المجتمع محافظاً كان أم تقدمياً، فهيمنة الاب هو المركز الذي تنظّم حوله العائلة الوطنية أو الطبيعية، وأن ثمة علاقات عمودية بين الحاكم والمحكوم وبين الاب والإبن.. فالارادة الأبوية هي الارادة المطلقة التي تتوسط في المجتمع والعائلة من خلال إجماع مفروض بالقوة قائم على الطقس والاكراه[26]. يفتح المولود في مجتمع الخوف عينيه على قوالب تربوية وثقافية جاهزة تغرس في روعه، منذ أيامه الأولى، مفهوم الطاعة والخضوع المطلق لينشأ عليها قبل أن تتفتح زهرة الحرية بداخله، فلا يولد الناس في مجتمع الخوف أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم، بحسب الخليفة عمر بن الخطاب، بل يولدون عبيداً، لا يشعرون بالمساواة مع غيرهم، ولا بالاستقلالية في تفكيرهم، فالأنا الاعلى، أي سلطة المجتمع تنشأ داخل الفرد لتكون السلطة المطلقة التي توجِّه سلوكه وتفكيره. إن ثقافة الخوف تنتج يأساً ليس على مستوى الفرد بل وعلى مستوى المجتمع، فيولد الافراد في مجتمع يائس تعطبه مشاعر الضعة والكآبة والضجر وفقدان الأمل. فتيئيس المجتمع يراد منه توفير بيئة لكل المتناسلين منه كي ينشأوا على اليأس السائد، وإمتصاص قيمه، فلا يحيد عن خط اليأس الذي يعيشه المجتمع بالغ ما بلغت قدرته. وبحسب ملاحظة **إريك فروم**: ولسوف نلاحظ بأن تنمية الأمل أو اليأس عند الفرد تكون محددة، على مدى واسع، بحضور الأمل أو اليأس في مجتمعه أو في طبقته. وأياً ما كانت الزعزعة التي يتعرض لها أمل الفرد في طفولته، إلا أنه لو عاش في حقبة من الأمل ومن الإيمان لبُعث رجاؤه. وفضلاً عن ذلك فإن الشخص الذي تقوده تجربته إلى الأمل، غالباً ما يكون لديه ميل إلى الاكتئاب وإلى اليأس إذا لم يبق للمجتمع أو للطبقة اللذين ينتمي لأحدهما من أمل[27].

ثقافة الخوف هي المسؤولة عن توسّل ضحاياها بما يصفه الدكتور مصطفى حجازي بالاساليب الدفاعية كرد فعل على اليأس من الانعتاق من ربقة الخوف، التي تعزل الانسان عن محيطه عبر الانكفاء على الذات والفرار أمام التحديات الراهنة والمستقبلية، والنكوص أي الارتداد إلى سلوكيات تعود خصائصها إلى مراحل عمرية

سابقة، أي التصرف ليس على أساس العمر والنضج بل على أساس الموقف والوضع النفسي، هذا النكوص الذي يأخذ أشكالاً عدة مثل: التمسك بالتقاليد، والعودة إلى الماضي، والامتثال للعرف السائد كقاعدة للسلوك والمعيار للنظر، والاحتماء بالأمجاد والمآثر الماضية، حيث يتم إعادة بناء صورة الماضي كيما تكون مصدر إلهاء وسلوة في مقابل العجز عن العيش في الحاضر فضلاً عن تغييره، والميل الشديد إلى تحميل الآخرين الفشل، أي التنصّل من المسؤولية. ويلفت د. مصطفى حجازي إلى العوامل النفسية والذهنية التي تنتاب الإنسان المقهور حيث تسوقه عقده وانفعالاته إلى البحث "عن مخطئ يحمّله وزر العدوانية المتراكمة داخلياً، ويغدو الاعتداء مشروعاً، لا يشكل عدواناً على قيمة إنسانية، بل على مصدر الشر"[28]. ويتطور الاعتداء إلى التماهي الذي يأخذ أشكالاً عدة: التماهي بأحكام المتسلط، أي توجيه عدوان المتسلط إلى نفسه وليس للمتسلط في عملية جلد للذات والحط من شأنها والاستسلام لشعور الهزيمة في الداخل، والتماهي بعداون المتسلط، حيث تتقمص الضحيّة دور الجلاد، فتفرغ ما وقع عليها من مظالم على من هم أضعف منها، والأخطر من ذلك هو التماهي بقيم المتسلط وأسلوبه الحياتي، حيث يتم إمتصاص قيم الظالم والرغبة عند الانسان المقهور للعيش في عالم المتسلط واقتفاء سيرته في الحياة والسلوك و التفكير[29]. لا تسمح ثقافة الخوف بنشوء علاقات سويّة بين أفراد المجتمع، فكل شيء يتعرض للتشوية بل لليبوسة والجفاف والموت، وأن منظومة القيم الانسانية تتمزق على نحو متسلسل، فلا حوار، ولا حب، ولا إبداع، ولا عاطفة، فثقافة الخوف تسوق الجميع نحو الأسر الجماعي لمركز القوة المتحكّمة لتملي عليهم طريقة في التفكير وقيماً للتبني، وصولاً إلى الحلول في جوف المستبد ــ المركز، الذي يستنسخ خلاياه السرطانية في بنية المجتمع ليخلقه على صورته. ينبغي في السياق نفسه، لفت النظر إلى تداعيات التشوّه الناشيء عن ثقافة الخوف على فئات أخرى من المجتمع، وبخاصة الاقليات. فالتباينات الثقافية ذات تأثير خطير على الاقليات التي تشعر بالتهديد والخوف من الضياع وهنا ينشأ خوف العزل والانطواء. وإذا ما أدركنا بأن ارتفاع درجة الخوف يعكس زيادة الاحساس بالخطر، سواء كان هذا الاحساس حقيقياً أم متخيلاً، تجلّت هنا مشكلة الاقليات، والتي تعاني نوعاً مختلفاً من الخوف، وهو الخوف من العزلة (**fear of isolation**)، والذي يعرّف عن طريقين: الاول اجتماعي/نفسي حيث تعرّف العزلة بوصفها تجارب جماعية سلبية وغير مرغوبة وتشمل الوحدة، وإنعدام الجماعة،

والوحدة، الانحباس، أو الحجر[30]. فالخوف من العزلة هو رد فعل عاطفي على العزلة الموصوفة والتي تشمل هدفاً أو حاجة قوية لتفادي تلك الخبرات السلبية. الثانية، تعرّف نظرية الاتصالات الخوف من العزلة بوصفها قوة طاردة، أي ضغط من المجتمع لتسريع لولب الصمت. ولولب الصمت، كطريقة يقترحها Noelle-Neumann، تسلّط الضوء على الاقليات وخوفها من التعبير عن آرائها بصورة علنية، وبالتالي فإنها تميل إلى إخفاء نظراتها حين يعتقد أفرادها بأنهم أقلية. والضغط الناشيء هنا على صلة وثيقة بمخاوفهم من كونهم قد يُقيّموا بصورة سلبية من قبل الآخرين[31]. وهذه النظرية ترى بأن الاعلام الجماهيري يعمل بصورة عفوية مع رأي عام الاغلبية. وبالتالي فإن الافراد الذين يخشون من العزلة اجتماعياً يميلون إلى التوافق مع ما يُعتقَد بأنه رأي الاغلبية. باختصار، فإن الخوف من العزلة يبدو كونه العامل العاطفي الذي يوجّه تصرفات الناس باتجاه الحالات المرغوبة في العالم عن طريق تحريك وجهات نظر ومصالح الناس إزاء المؤسسات الاجتماعية وآخرين حولهم من داخلهم.

في عرضه لنظرية **الوعي الزائف** (**false consciousness**)، يلفت جيمس سكوت إلى لجوء الطبقة الحاكمة إلى إقناع الجماعة المقموعة للاعتقاد بصورة فاعلة بالقيم التي تفسّر وتبرر خضوع أفردها. في المقابل، فإن الخوف من العقوبات يملي على **الطبقة المقهورة** اللجوء إلى وسائل في المقاومة خارج الفضاء العام في سبيل إخفاء نواياها الحقيقية درءا لانتقام الظلمة[32]. ولكن بالرغم من ضراوة التأثيرات الطاغية والمدمّرة لثقافة الخوف فإنها تصبح عرضة للزوال حين تبدأ أنوية التمرد بالتكاثر والالتحام مع بعضها لتشكّل تدريجياً بيئة مضادة، كيما تخلق وسيطاً نموذجياً لنشوء المجتمع المضاد الذي ينزع للانقلاب على ذاته وواقعه، ليرسي نظاماً جديداً يقوم على إحترام حرية وكرامة الفرد وحقوق المجتمع في بناء مؤسساته المدنية المستقلة.

العامل الديني: لاهوت الخوف

إرتبطت الثقافة الدينية بالبعد الغيبي المستبطن للمجهول، وكل مجهول ينطوي على خوف، حتى صار الدين نفسه، بحسب منهجية المنشغلين بتنضيده وترويجه، مصهراً تعبوياً لثقافة الخوف. وبحسب فحوى المنطق الديني الشائع (دع الناس يخافون وسيعبدون الله)، حيث تصبح صناعة الخوف جزءاً جوهرياً من الثقافة الدينية، ينبيء عنها رواج

الكتب ذات الطابع الترويعي والعقابي التي تدور حول الموت وألوان العذاب بدءاً من القبر وانتهاءً بأهوال يوم القيامة. فقد بات تجبيل الناس على الالتزام الديني عبر إغراق المجال الثقافي للمجتمع بكتلة ضخمة من النصوص الدينية المحمّلة بجرعات هلع واسعة الانتشار والتأثير، ينعكس ذلك بوضوح في المصاهرة غير الشرعية بين طبقتي العلماء والأمراء وما تفرزه من ممليات عاضدة للسلطة.

تتأوّل طبقة من الفقهاء والوعّاظ، النصوص الدينية والمحرّضة على السمع والطاعة للحاكم، والتخويف من الخروج عليه لاقتران طاعة الحاكم بطاعة الله والرسول وأن الخروج عليه خروج عليهما. تأوي هذه الطبقة سلطة الحاكم عن طريق **تسخير وتطويع النص الديني لبسط السيطرة وزرع الهيبة في المحكومين**، بما يجعل الدعوة إلى إصلاح السلطة انتهاكاً لحكم ديني ومنازعة لأمر الله سبحانه. ندرك ماذا تحمل كلمات (الفتنة) و(الخروج على الاجماع) و(المفسدة) من شحنة دلالات تكفي لسحق أي دعوة للاصلاح، فالصمت خوفاً من التجديد أو الحاكم الظالم يندرج في الخوف الحميد، أي الخوف من الفتنة، والخوف من الشقاق، والخوف من خرق الاجماع، والخوف من المفاسد. هكذا تصبح السلطة دينية كانت أم سياسية في مأمن لأن هالة الدين تحفّها من كل أطرافها.. تهمة (إثارة الفتنة) تكفي لعزلك اجتماعياً وتهمة (الافساد في الأرض)، تكفي لتهيئة الغطاء الشرعي الديني لتصفيتك جسدياً. ثقافة الخوف تأخذ شكلاً فارطاً في إنبثاثها وتغلغلها إلى حد باتت تشبه الخوف الجذامي الذي يولّد خوفاً آخر، وجاءت النصوص المقدّسة في الكتب القديمة لتسبغ عليه مشروعية، وبهذا يكتسب الخوف مشروعية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). لا ريب أن بعض التفسيرات للنصوص الدينية مسؤول عن الحض المفزع والثقيل الملقى على عواتق الخائفين في المجتمع الديني، حيث أن سطوة حضور تلك التفسيرات ساهمت في صناعة ثقافة الخوف بطابع ديني. هذا الخوف ينبغي أن يلفت إلى ظاهرة الاسلاموفوبيا ــ الخوف من الاسلام، بعد تصاعد المد الاصولي في نزوعه الارهابي الدموي. إن ثمة دعوات تسكينية بدأت تنطلق من زعماء دينيين ودعاة من أجل تهدئة تلك المخاوف عبر الدعوة إلى (تكاتف مسيحي إسلامي لوقف تيار الخوف من الإسلام)[33].

إن زيادة جرعة الخوف من **التنظيمات الارهابية** كونها تمثل وجودات غير متعيّنة، تسهّل لصانعي ثقافة الخوف أن يطلقوا عنان المخيال الشعبي إلى أقصى حدوده من أجل

إشاعة الفزع الجمعي وتثميره في وضع تشريعات الهيمنة.. في المقابل هناك من يقع ضحية خوف من نوع آخر، وهو الخوف من نقد الاسس الفكرية والإيديولوجية للتنظيمات الارهابية، خشية إندراجهم ضمن قائمة التصفيات الجسدية، أو الخوف من الخسارة المعنوية، متمثلة في القاعدة الشعبية العريضة المتعاطفة في بعض الساحات مع الجماعات الارهابية. يشير الكاتب السلفي المتنور محمد علي المحمود إلى (خوف من مواجهة خطاب الخوف..هو ــ هنا ــ الإرهاب، أو الوجه الآخر للإرهاب المباشر.. ومن هنا تأتي خطورة المقاربة، وهي خطورة قد لا تكون مادية بقدر ما تكون معنوية، لكنها – وإن كانت معنوية – أشد عنفاً وشراسة!..)[34].

– مهما إختلفت مع الكاتب المصري (**سيد القمني**) في طروحاته التي تبدو لدى البعض ذات طابع حاد وخشن، والى حد ما إستعراضية، فإن ذلك لا يبرر على الاطلاق تعطيبه بآلة الخوف الحادة[35]. وبصرف النظر عن ملابسات الانسحاب الغامض، والى حد ما المفتعل، للسيد القمني من الساحة الفكرية بكل تخاصماتها وجدالياتها الإيديولوجية، فقد كان صادماً إعلانه البراءة مما كتبه من مؤلفات ومقالات وبحوث، على خلفية تهديدات جديّة بقتله وأنه (ليس راغباً في الموت على هذه الطريقة)، وقراره بالامتثال للتهديدات التي تلقاها عبر عدة رسائل في بريده الإليكتروني، منها ما جاء تحت عنوان (رسالة تحذيرية) والتي جاء فيها:

اعلم ايها الشقي الكفور المدعو سيد محمود القمني، أن خمسة من أخوة التوحيد وأسود الجهاد قد انتدبوا لقتلك، ونذروا لله تعالى ان يتقربوا إليه بالإطاحة برأسك، وعزموا ان يتطهَّروا من ذنوبهم بسفك دمك، وذلك إمتثالاً لأمر جناب النبي الأعظم صلوات ربي وتسليماته عليه، إذ يقول "من بدل دينه فاقتلوه.

"أيها الدعي الأحمق، نحن لا نمزح.. صدق ذلك أو لا تصدقه، ولكننا لن نكرر تهديدنا مرة أخرى، لن ينفعك إبلاغ المباحث بأمر هذا التهديد، فلن يفلحوا في حمايتك إلا بصورة وقتية وبعدها سيتركوك فريسة لليوث الاسلام، هذا إن حموك اصلاً. ولن تنفعك أي حراسة خاصة أو إجراءات أمن، فالحارس لن يمسك الرصاصة التي تنطلق من سيارة مسرعة أو سطح منزل مجاور، وإجراءات الامان لن توقف انفجار القنبلة في سيارتك..أو أي وسيلة اغتيال أخرى..فاعتبر بمن سبقوك ممن أرسلناهم إلى القبورمع أنهم كانوا أصعب منك منالاً، والسعيد من وعظ بغيره[36].

– ومن السخرية حقاً أن تخول جماعة نفسها وصيّةً دينية وسياسية على المجتمع في تغييب مبيّت ومقصود لسلطة الدولة ومؤسساتها التشريعية والقضائية، من خلال قبول جماعة الجهاد ــ زعماً ــ التي تقف وراء تهديد القمني، توبته. وكانت الجماعة قد بعثت برسالة أخرى سابقة إلى القمني، جاء فيها (لقد نجوت بأعجوبة حقيقية، وكنّا قد أعددنا الخطة، وندرس تصوير عملية إغتيالك وإستثمارها، حيث أننا تعلّمنا من حادثة رضا هلال ــ مساعد رئيس تحرير صحيفة الاهرام ــ الذي أردي برصاص الموحدين، أن ذلك النمط من الحرب لا يكون مجدياً إلا إذا صاحبته دعاية)[37]. إن جرعات الهلع في رسالتي الجماعة تشي بحقيقة واحدة: أن صانعي ثقافة الخوف بطابعها الديني يستميتون في خلق مجتمع يتعايش أفراده مع الثقافة السائدة، ويسلكون معاييرهم، ويجترّون مقولاتهم ومبادئهم، أي يعيدون إنتاجها يوماً بعد آخر وجيلاً بعد آخر.. ينفر هؤلاء من الخارجين عليهم، كونهم يفسدون عليهم سلطة ونعيماً مقيماً.. يفرض هؤلاء منسوباً محدداً ومتدنياً للوعي، يتطابق مع مقاييس السلطة الدينية وشروطها، فأية تبدُّلات في المنسوب يعني بداية انحلال للسلطة. فالمثقف يبدو منبوذاً كونه كائناً مختلفاً، لا يتماهى مع مجتمع الخوف، فقد رسم مسافة احترازية منه، وإن كان منتمياً له، ومشتغلاً في ذات الفضاء الثقافي ولكنه ناقدٌ لكل محتوياته، وبخاصة تلك المسؤولة عن (تخويف) المجتمع وخنوعه. تتوسل بعض الجماعات الدينية بالمنشور الثقافي وأدوات النشر والتبليغ، وحالياً بقوة السلاح لنشر ثقافة الخوف، فاستثمار النص الديني في مناوئة الآخر، وتشجيع مبدأ العنف ضده، والانقطاع عن الواقع بزيادة جرعة المحرم (التابو)، يؤول إلى ضرب حصار على المجتمع وشلٍّ حركته، وإبقائه مرهوناً بتعاليم رجل الدين الذي يملي عليه قيم الطاعة والخوف من الله كمعبر شرعي للخوف من السلطان. فالاستبداد المؤاخي بين الديني والسياسي يفضي إلى مقاسمة السلطة بينهما، فالسياسي يستبدُّ بالاجساد والديني يستبدُّ بالقلوب، وكلاهما يستمدان قوتهما من جهل الرعية وحمقها وخوفها، فرابطة الحاجة لدى كل منهما تفرض رابطة التعاون لتذليل الانسان. وشرط إذلال الانسان جهله وخوفه، يقول الكواكبي (لا يخفى على المستبد أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء)[38]. إن إتساع **فضاء المقدّس**، هو ما يثري المتخيّل الجمعي، ويفرض حظراً فكرياً يحول دون الانشغال الذهني بمكوّنات الفضاء، حيث يكون الخوف حارساً على دائرة المقدّس، فتصبح النصوص والتفسيرات

والرموز الاجتماعية المرتبطة بالنصوص مركّبات مقدّسة يستحيل الاقتراب منها والتفكير فيها، كونها أدمجت في الفضاء المقدّس المحفوف بإشعاعات الهلع، والتي ينذر الاقتراب منها بسوء العاقبة وبئس المصير. إن الخوف المتعاظم بإتساع فضاء المقدس، هو ما يجعل النص صهراً للاجتهاد وكلاهما مجسّدان في الناطق لهما: الفقيه أو عالم الدين. فكل الذين تجاسروا على تخطي العتبات الاولى لمجال المقدّس إحترقوا، وكل الذي مزّقوا غلاف التقديس المتمدد نبذوا قصياً. إن الشعور بالخوف هو ما يمنع كثيرين من المساس بالارث المقدس أو الغوص في ثناياه للبحث عن إجابات لمسائل إشكالية غير قابلة للترحيل، أو لم يعد السكوت عنها خياراً مقبولاً، لأن ذلك يعطي زمناً إضافياً لتمدد غلاف المقدّس المحظور الاقتراب منه، فضلاً عن التصادم معه[39]. يتساوى لدى السلطة الدينية مبدأ النقد، ومبدأ والنقض، إذ لا فرق بين إستعمال النقد كأداة لتقويم وتحليل النص وبين هدم النص ذاته. والسبب في ذلك، أن عملية تحريك النص بأي إتجاه يعني تحريك مواقع السلطة، لأن النقد يلغي احتكارية الحقيقة المطلقة من قبل فئة أو طبقة، وهذا من شأنه أن يلغي امتيازها السلطوي، ولذلك فالنقد يكسر حاجز الخوف الذي صنعته السلطة الدينية.. فهناك عزف متواصل على وتر الثوابت والمقدّسات، التي أصبحت موصولة بأسلاك ضغط كهربي عالي التوتر، تصعق كل من يغامر بلمسها، عبر ممارسة النقد لتلك الثوابت المزعومة. على الضد، يفضي تكريس المألوف والسائد والجامد إلى تعزيز سلطة السدنة، وكأن ثمة خصومة تكوينية بين هؤلاء وبين مبدئي التعددية والاجتهاد، اللذين وإن جرى تمجيدهما في العلن، فإنهما يمثّلان آليتي هدم والغاء للسلطة الدينية، ولدعوى (الحقيقة المطلقة) التي يزعمون الامساك بناصيتها. إذن، هناك **خوف من النقد**، يحول دون تسوّر القلعة الحصينة للسطة الدينية، وصولاً إلى تبديد الهالة المقدّسة المحيطة بسدنتها. ثقافة الخوف المبثوثة في ألياف الوعي المجتمعي، أصبحت جارفة على إيقاع الاحكام النهائية المفزعة والمطرّزة بألفاظ دينية وأخلاقية كالحرام، واللايجوز، والارتداد، والشرك، والضلال، والعيب، والمكروه، حتى باتت هذه القائمة مشاعة وقابلة للاستعمال المفتوح من كل الطبقات والمستويات العمرية، تحقيقاً لهدف واحد منشود هو ممارسة المجتمع الرقابة على ذاته وفكره، والحراسة على موروثه العقدي، فيتقاسم الجميع **مهمة ترعيب مضادة على الخارجين عن خط الموروث والاجماع**، والا أصابتهم نبال الاحكام التحريمية: المروق من الدين، والشرك بالله،

والضلال البعيد، والارتداد عن سنة سيد المرسلين. فالذين يخوضون مبارزة مع منظوماتهم العقدية، إما يلجأون إلى المنبّه الذاتي أو آليات الدفاع المستورة في داخل المجتمع من أجل مزاولة عملية التطهير الذاتي والاستتابة، أو يتعرّضون للنبذ المجتمعي النهائي. إن التسالم الجماعي على الموروث والسائد مكوّنٌ جوهريٌّ من مكوّنات ثقافة الخوف، فرتابة السيرورة الثقافية تنبيء عن أن إتفاقاً يعقده الخوف مع المجتمع، كيما يضمن بقاء أبوية المتعالي، نصاً كان أو رجل دين، أو زعيم حركة أو حاكماً. ولابد هنا من العودة إلى السيرة الذاتية للدكتور **طه حسين**، كما دوّنها في كتابه **(الأيام)** سنة **1926**، للوقوف على واحدة من نماذج ثقافة الخوف، وتشخيص ملامحها في ضوء مقاربة للحياة الاجتماعية والفكرية في ريف مصر، حيث تقطن الأغلبية الساحقة من سكان مصر. يرسم طه حسين ملامح ثقافة الخوف، التي تنبذ كل مستحدث وجديد وطارئ، وتنزع بعنف إلى سوق الناس إلى التسالم على السائد والقائم. يتحدّث عن انثيال الناس إلى علماء الصوفية، هرباً من الخوف الذي يدهمهم بفعل الوعيد المتربّص بهم تحت وابل من نذر المشعوذين والسحرة، حيث مثّل شيوخ الطريقة ملاذاً للخلاص والأمن والعجز، لتبدأ سيرة عبودية من نوع آخر وخوف من نوع آخر أيضاً، "علماء منبثّون في المدينة والقرى والريف. لم يكونوا أقل من العلماء الرسميين تأثيراً في دهماء الناس وتسلطاً على عقولهم" حيث يصبح شيوخ الطرق مصدر العلم الوحيد والصحيح وهو "العلم الديني، الذي يهبط عليك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب، بل دون أن تقرأ أو تكتب"[40] . فيبني الخوف تماثيله في جوف الليل بأيدي البسطاء الذي يبحثون عن كرامة خارقة تضع حداً لمعاناة موهومة، وهنا يتقاطر البسطاء مثنى وفرادى لنيل بركة الشيخ ورجل الدين: "ينهض الشيخ ليتوضأ، فانظر إلى الناس يستبقون ويختصمون أيهم يصبُّ عليه، فإذا فرغ فانظر إليهم يتسابقون ويختصمون أيهم يصيب من وضوء الشيخ جرعة!، والشيخ عنهم في شغل، يصلي فيطيل الصلاة، ويدعو فيطيل الدعاء". ومن هنا ينشأ مجتمع الخوف حيث "كانت لأهل الريف شيوخهم وشبابهم وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصة فيها سذاجة وتصوّف وغفلة، وكان أكبر الأثر في تكوين هذه العقلية لأهل الطرق"[41] . ولا يمكن لهذا المجتمع أن يتماسك الا بعنصر الخوف الذي يصنع مشروعية الانقياد لرجل الدين، فتأجيج الخوف في نفوس الاتباع، بات مهمة مركزية وضرورة وجودية لرجل الدين كي يضمن هيمنته عليهم. فحين خشي شيخ

المدينة، الذي فشل في الحصول على درجة العالمية، من خسارة منصبه بفعل الفتى الأزهري المنافس له، التفت إلى الناس وقال: ومن كان منكم حريصاً على ألاّ تبطل صلاته فليتبعني[42]. حيث يلجأ الشيخ إلى تنشيط العاطفة الدينية وتخويف الاتباع من المصير الأسود في الآخرة لاستعادة مكسب مهدد بالزوال.

إن من طرد **نصر حامد أبو زيد**، خارج مصر كان الديني أولاً، وثانياً، وثالثاً، ثم السياسي، لأن (أبو زيد) هتك سلطة مستقرة للديني والسياسي، وقد وجد في هولندا فضاءً للحرية يسمح له بالافصاح عن مكبوتاته الفكرية، فقد ضاقت أرض الكنانة عليه ورَحُبَ خارجها. وقد تحوّل هذا النبذ إلى مواجهة مع الذات، وهو ما دفع به لتصنيف كتاب **(دوائر الخوف)**. فقد سئل عن مدى التداخل بين الهم الذاتي بالهم الجماعي، وكيف تركت محاولة فصله عن زوجته أثرها على مساره الفكري منعكساً في مقاربته لقضية المرأة في (داوائر الخوف)، فأجاب ما نصه: (الهم الذاتي كان دائماً موجوداً في أبحاثي، لكنه في هذا الكتاب أصبح مفصحاً عنه في شكل أوضح، وخصوصاً أنه كتاب عن المرأة. الازمة التي تعرضنا لها، زوجتي وأنا، لا تزال تسمّى قضية نصر حامد أبو زيد. حتى القوى الثقافية والوطنية التي تعتبر نفسها تقدمية في مصر، تناولت القضية على أنها قضية رجل تعرض للاضطهاد، مع أنها في الاساس والجوهر، ظلم فادح ارتكب في حق امرأة)[43]. إن الافراط في التأكيد على وحدة الجماعة وتماسكها، والتحذير من الخروج عن خط سيرها تحت وابل من الاتهامات، ووصمات الانغماس في الفتنة، وفصم العروة الوثقى أمات الاحساس بفردانية الفرد، ورسّخ ربقة الجماعة والوقوع في أسر التسلط القهري المجتمعي بقوالبه الفكرية الجاهزة. ولاشك، أن إنهمار نصوص دينية بإرتجاجاتها المفزعة كفيل باختطاف الوعي الجماعي ومصادرته من قبل فئات نفعية، تجد في إرتهان المجتمع وتخلفه شرطاً للهيمنة، فالتغيير بأي درجة يزحزح بنى الروابط القائمة، كما يفضي إلى تصديع البناء السلطوي.

العامل السياسي: سلطة الخوف

نقل **الكواكبي** في (طبائع الاستبداد) عن أحدهم قائلاً: "إني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عينه، فالملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة، ومكتبته، هي المذبح المقدّس، والأقلام، هي السكاكين، وعبارات التعظيم، هي الصلوات،

والناس، هم الأسرى الذين يقدّمون قرابين الخوف، وهو أهم النواميس الطبيعية في الانسان"[44]. فالحاكم يريد أن يخلق مجتمعاً على صورته ليصبح ربّاً عليهم. تلفت رواية **جورج أورويل** إلى تجربة الحكم في كوريا الشمالية، حيث ينشأ الناس في المحضن الشيوعي، كيما يخرجوا في هيئة (رجال ونساء شيوعيين)، إذ ليس من حقهم الموت قبل تشرّب تعاليم كيم إيل سونج، وبالتالي فإن الجميع مبرمجون على الولاء للحاكم، ومن يسوقه حظّه العاثر إلى المعتقل، فلن يخضع لمجرد العقاب فحسب، بل لابد من إعادة تأهيله ذهنياً كيما يعود للالتحاق بمجتمع الخوف[45].

إن انتاج الخوف يخدم استراتيجيّة التجديد الذاتي المجتمعي الثابت. وبمعنى ما وعليه، فإن ثقافة الخوف هي رد فعل انعكاسي لعجز النخبة السياسية لقيادة المجتمع. فقد فشلت السياسة في مواجهة مشكلات المجتمع ضمن رؤاها، ودوافعها، وحلولها، كما فشلت في تقريب المجتمع عبر آلية التفاهم المشترك والقنوات الدبلوماسية التقليدية. على الضد، فإن السياسة مارست في مشرقنا العربي فعلاً تهديدياً لنا جميعاً وتذّكرنا بصورة دائمة بوهننا. في الغرب والولايات المتحدة بخاصة، فإن الحملات المتواصلة ضد الارهاب، نجمت عن لاشيء بل عمّقت انعدام الثقة المتبادل، وضاعفت الاحساس بالعجز والعزلة. في عالم الخوف، لا تصبح للقوانين قيمة بل ليس لها وجود مادي في ظل سيادة الاعراف، وحالة الطوارىء، والمزاج الفردي ولغة الاملاءات الشفهية، إذ يحتكم الافراد والجماعات إلى شريعة من نوع آخر لا تمت بصلة إلى القانون، بل إلى الروابط الخاصة المشدودة في نهاية المطاف بمركز السلطة. وبحسب الدكتور عبد الرزاق عيد، فإن "الخوف لا يقتل الأنا الأخلاقية في الفرد فحسب، بل يقتل الأنا القانونية في داخله، عندما يكون جوهر العلاقات الحاكمة للنظام المستبد، هو الاعتباطية المقيدة على حد تعبير "حنة أرندت"، فان كل شيء يغدو ممكنا في ظل دولة جوهر نظامها الاستبدادي غياب القوانين، ولأنها اعتباطية تتيح بعض الحرية ولو كانت فوضوية، فإن في دولة غياب القوانين ليس كل شيء ممكناً فحسب، بل أيضاً يغدو كل شيء مستحيلا، وعلاقة الممكن بالمستحيل تحددها درجة القرب أو البعد من مركز القمع[46].

وينبهنا ماسبق إلى أن **ثقافة الخوف تستبطن صناعة الهيمنة**، فحين تسنّ **الادارة الاميركية**، تشريعات ضد الارهاب، تهدف من ورائها زرع مشاعر الخوف كيما تبرر تضييق فضاء الحريات العامة، وتوسعة مجال هيمنة الدولة على المجتمع. إن استعمال

العقوبات السياسية، وظهور الافكار الوطنية من قبيل (من لم يكن معنا فهو ضدنا)، وفرض رقابة سرية على أجهزة الاتصالات، وتشريع الاعتقالات العشوائية والاحتجاز والتحقيق وإنشاء أجهزة أمنية تحت شعار الحرب على الارهاب، بات مقبولاً من المجتمع الاميركي ومبرراً كافياً لتعقيم وعيه وشبكة عواطفه. السؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا قبل الناس بهذه التدابير الصارمة؟ إن الاجابة بلا شك ستكون: لأنهم يخافون[47].

تتحول الدولة في الغالب إلى جهاز نشط في إشاعة ثقافة الخوف عبر تضخيم أخطار إيديولوجيات محددة كالشيوعية في الدول الرأسمالية، أو الرأسمالية والرجعية الدينية في الدول الاشتراكية. فقد ارتبط **(الخوف من الشيوعية)** بمرحلة الحرب الباردة، والذي ساهم في توجيه الثقافة العامة ورسم السياسات العامة الاقتصادية والاعلامية والدفاعية. في المستوى الايديولوجي، تبرر كثير من الحكومات أفعالها للجمهور بالحماية ضد الخوف، والتهديد، والعنف، والارهاب المتخيّل من القوى السياسية المخالفة للسلطة، وتحويلها إلى قوى معادية للشعب ومصالح الامة. كما ترتبط الآن ثقافة الخوف في الغرب وانسحابها على الشرق من **خطر الارهاب الاصولي**. يرى **نعوم تشومسكي وأليكس جونزر**، بأن السلطات تستعمل الخوف كوسيلة للسيطرة الاجتماعية على الجماهير. إن الحوافز المدركة للتجارب الاجتماعية في انتاج الهلع تتضمن: إلهاء الجمهور عن موضوعات مثل الجريمة، التعليم، الفقر، البيئة والبطالة. كما أن الخوف يسهم في تبرير أعمال وحروب الحكومة التي بدونه ستكون غير أخلاقية، ولاقناع الجمهور بانتخاب قادة سياسيين محدَّدين أو سنّ قوانين، ولتشجيع الشعب على استهلاك المصادر والمشاركة في الاقتصاد، وإجراء تغييرات واسعة في السلوكيات الاجتماعية التي تكون مفضّلة لنظام الحكم[48]. في عالمنا العربي، حيث الخوف يكسو حياتنا اليومية، جرى إستنزاف الشعارات الكبرى من قبل النخب السياسية، التي وجدت في الخوف آلة سيطرة، فصادرت منذ عهد الاستقلال كرامة الامة بإسم محاربة الاستعمار والرجعية والاشتراكية وبإسم وحدة الامة وضرورات المعركة مع اسرائيل، كما تصادر الآن باسم الوحدة الوطنية والاصطفاف ضد مؤامرات الخارج. وقد شهدنا خلال العام الفائت كيف لجأت النخب الحاكمة إلى آلة خوف أخرى بتوصيم القوى الاصلاحية بالعمالة للخارج، وتلطيخ سمعتها تحت ذريعة تهديد الوحدة الداخلية والتآمر مع قوى أجنبية لضرب الاجماع الوطني!

إن التلاعب بمشاعر الجمهور من قبل الساسة عن طريق العزف على أوتار بالغة الحساسية من قبيل الوطنية بمتوالياتها، والدين بقيمه أفرز خوفاً غبياً، يشرعن الخضوع الطوعي البليد. كتب **صموئيل تايلور كولريدج**، (في السياسة، ما يبدأ بالخوف ينتهي إلى حماقة)، ويقول **ريتشارد نيكسون** (إن ردود أفعال الناس ناشئة عن الخوف وليس الحب).

يجب أن نتذكر على الدوام، بأن الخوف يعجز عن صناعة الولاء للسلطة، وانما الحب وحده الكفيل بذلك. وأن الحكومات الاستبدادية والفئوية غير القائمة على تعاقد اجتماعي وتوافق داخلي تنزع بشدة إلى استعمال مفرط لثقافة الخوف من أجل ترسيخ وجودها. فالولاء هو نتيجة طبيعية للحب وليس الخوف، فالخائف ليس موالياً وإن بدا غير ذلك. إن شواهد ذلك عديدة منها ما جرى في **العراق**، حيث تبدَّدت أشكال الاجماع المزعومة حول القيادة مع أول مؤشر على انفراط عقد السلطة وانهيار أسس الدولة.

ينقلنا ذلك مباشرة إلى الفارق بين **الهيمنة (hegemony) والسيطرة (dominance)**، فبينما تمثل الدولة حاصل جمع وتركيز قوة المجتمع، فإنها بحاجة إلى الهيمنة التي تعكس سيادتها، أما السيطرة، فهي من خصائص الدولة التسلُّطية القائمة على القوة الاكراهية. وهنا يكمن الفارق الجوهري بين الدولة التعاقدية، والدولة التسلطية، التي تتوسل بثقافة الخوف من أجل ترسيخ أسس إدامة وجودها. وبهذا، تتحدَّد ثقافة الخوف وفق درجة ديموقراطية الحياة الاجتماعية والسياسية، أو الهيمنة الشمولية الطغيانية.

مهما إختلفت مع المفكر والسياسي السوري **ياسين الحافظ** سياسياً وإيديولوجيا، فإنك دون ريب ستصغي إليه برهافة وهو يعقد تلك المقارنات المفزعة بين الغرب الديمقراطي والشرق الاستبدادي، في سياق تحليله لبنية ثقافة الخوف، الذي كان هو أحد شهودها وضحاياها. فكتابات الحافظ وأبرزها (الهزيمة والإيديولوجية المهزومة 1979)، تمارس جلداً للذات إلى حد الاحمرار. يقول في سيرته الذاتية: "في الغرب، كنت أذهل عندما أرى قوة الفرد وجرأته وثقته بنفسه أو تحرره الكلي من مختلف أشكال الخوف! **هناك الفرد ديك، هنا الفرد دودة.** هناك حبل صرة الإنسان موصول بالألوهة، وهنا حبله مقطوع بتاتاً، بما هو عبد، هناك العنفوان، وهنا الوداعة، هناك بروميثيوثية طاغية، وهنا القناعة وراحة البال، **هناك الشك والتساؤل والنقد، وهنا اليقين والتلقين والامتثال.**

وعندما كنت أتساءل من أين هذه القوة التي للفرد الغربي، كان الجواب يقفز من خلال ملاحظة بسيطة للعيان، دونما حاجة لبحث وراء الأسباب التاريخية والإيديولوجية والمجتمعية والسياسية: لأن بلاده كفت عن أن تكون بلاد الخوف. في ديارنا العربية، منذ سنواته الأولى، وربما منذ شهوره الأولى، تتعاور الفرد أشكال لا تحصى من الخوف: خوف من العائلة، من المعتقد الايماني، من التقليد، من المجتمع، من المدرسة، من الغد، وأخيراً من السلطة الاستبدادية الشرقية. في **بلاد الخوف**، سرير "بروكوست" ينتظر كل فرد، يتمدد فوقه ولكن لتقطع خصيتاه فيغدو ضحية وديعة مذعنة، حياتها فرار وموتها خلاص"[49].

بكلمات أخرى، لم يستقر الاستبداد في البلدان العربية عند مستوى الفئات العليا من أنظمة الحكم، إنما توارثته الأجيال عند مستوياتها الأدنى، وأصبحت الثقافة العربية تعكس حالات الاستبداد في مستوياتها العائلية، فالتسلط الذي يمارس في البناء العائلي يرتد بجذوره إلى الاستبداد في التاريخ العربي القديم. شاهدان يكفي للاعتبار:

* **الشاهد الاول:** كتب **معاويّة** في عام 55 هـ إلى كل الولايات أن يأتوا إليه لأخذ البيعة لإبنه يزيد، فلما حضرت الوفود إلى معاويّة وكان معه بعض أصحابه، طلب معاويّة من هؤلاء الأصحاب أن يبدوا رأيهم في يزيد، فتكلم بعضه، ثم قام يزيد بن المقفع فقال: أمير المؤمنين هذا".. مشيرا إلى معاويّة "فإن هلك فهذا"..وأشار إلى يزيد، ثم قال: "فمن أبى فهذا " وأشار إلى سيفه.. فقال له معاويّة: "إجلس فإنك سيد الخطباء"[50].
* **الشاهد الثاني:** حجَّ **عبد الملك بن مروان** بالناس سنة 75 هـ، وخطب فيهم قائلاً: (لست بالخليفة المستضعف ــ يعني عثمان ــ ولا بالخليفة المداهن ــ يعني معاوية ــ ولا بالخليفة المأفون ــ يعني يزيد ــ ألا وإني لا أداري هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم .. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله ــ بعد مقالي هذا ــ إلا ضربت عنقه، ثم نزل)[51].

لقد خلقت الانظمة الشمولية في المشرق مجتمعاً فصامياً تحت وطأة ثنائية متضادة ترفع شعاراً وتمارس نقائضه، هذه الفصامية التي تتعاطاها الانظمة قدّر لها أن تتفشى في ثقافة المجتمع الذي بات شديد الارتباك، بما يجعله في حالة تردد دائم، ولا يمكن للأيدي أن تبني وهي مرتعشة، كما يقول **جمال عبد الناصر**. فالازدواجية والنفاق

السياسي والمجاملة المريبة تمثل مكونات لسيكولوجية الانفصام القاهر. **فإطلاق شعارات الحرية، والديمقراطية، والتعددية والعدالة، والوحدة، وتكافؤ الفرص، وتوزيع الثروة، وسلطة الشعب، باتت مقتنيات سياسية بالغة الاهمية في طلاء وجه السلطة**، وإن كانت تخفي نقائضها ومضاداتها في العلاقة بين المجتمع والسلطة وبين المجتمع بعضه ببعض.

إن خطورة ثقافة الخوف تكمن في قدرة المجتمع الفريدة والبارعة على إنتاجها بصورة دائمة وتلقائية، بعد أن أفرغت السلطة كل سمومها في جسده، بحيث يكون أعضاء المجتمع متطوعين لتعميم ثقافة الخوف ووكلاء غير رسميين عن السلطة الجائرة في ترويجها. في سؤال: لماذا يعزف الشعب المصري عن المشاركة السياسية؟ لخّصت الدكتورة **منى مكرم عبيد**، الاجابة في كلمة واحدة: الخوف. وتؤكّد **شاهيناز عبد السلام** في مقالة بعنوان (أرض الخوف) على أن (الخوف هو السبب في الصمت..الخوف هو السبب في كتم مشاعرنا وحتى مشاعر الإحتجاج والتعبير عن الغضب والإستنكار بطريقة سلمية..) وتنقل الكاتبة تجربة شخصية لها بعد مشاركتها في مظاهرات حركة (كفاية)، حيث كانت لغة ثقافة الخوف، تفصح عن نفسها من قبيل (إنتي مجنونه مش خايفة على نفسك؟.. لن تتحملي ليلة في أمن الدولة.. إنهم يطلقون الكلاب على الجميع، ولا يفرّقون بين رجال ونساء..مش خايفة على أهلك)(52). إن الطاقة البشرية حين تضلل بالخوف، تصبح مشوّهة ومدمّرة، حسب ك. لورين دي بور K. Lauren de Boer في مقالته بعنوان (ماوراء ثقافة الخوف) المنشورة في مجلة (Earthlight) في 03/2002، حول كتاب (ثقافة الخوف) باري جلاسنر (CULTURE OF FEAR)(53). يروي عالم الاجتماع المصري ومدير مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية الدكتور **سعد الدين ابراهيم**، تجربة شخصية عثر على تفسيرات لها خارج أسوار معتقله. ففي تجربة اعتقال **أيمن نور**، مرشح حزب الغد في الانتخابات الرئاسة لعام 2005، يرتفع الستار عن مشهد سيكولوجية الخوف الجماعي، الذي ترجمه صمت عدد كبير من الساسة والمثقفين أثناء محاكمة أيمن نور في القضية المنسوبة اليه، والتي تكاد تكون، حسب سعد الدين ابراهيم، نسخة كربونية من السيناريو المرسوم لقضيته قبل خمس سنوات، ولكن ما يجمع بين القضيتين هو تفرّق الناس عنهما، فأولئك الذين يعلنون النصرة لهم في السلامة ويتخذون في الشدة مواقف نقيضة إنما يمنعهم الخوف (عن التعبير عن تضامنهم العلني)(54). تقول **الطبيبة الاسرائيلية روشاما مارتون**، التي كانت تقوم بالتحقيق في

استعمال التعذيب من قبل قوات الامن الاسرائيلية، إن الاعترافات المنتزعة عن طريق التعذيب هي بالطبع غير ذات معنى، فالغرض الحقيقي ليس الاعتراف، ولكن هو الصمت (الصمت الناجم عن الخوف)، و(أن الخوف معدٍ وينتشر إلى الاعضاء الآخرين للجماعة المقهورة، من أجل إسكاتهم وشلّهم)[55]. ويمثّل كتاب **كنعان مكيّة (جمهورية الخوف)**، الصادر سنة 1990 سجلاً توثيقياً لعشرين مليون خائف كانوا يقبعون داخل العراق لمدة نحو عقدين، تلك الثقافة التي خلقت مجتمعاً مهجوساً بكل أشكال الارتياب والهلوسة، إلى حد باتت أذهان الناس منهوبة بصورة دائمة للانشغال في وضع كافة التدابير الاحتياطية لدرء الاخطار الخفية من أجهزة الامن، فوشائج التضامن قد تمزّقت بضربات الخوف المتواصلة، وبات المنفى خياراً قهرياً وجماعياً للخلاص. إن استفحال ثقافة الخوف تعيق حتى مجرد البوح بالألم دع عنك الافصاح عن الأمل في حياة أفضل.

من الجدير بالاشارة، أن قوى معارضة في بعض البلدان العربية، استعارت مصطلح جمهورية الخوف ليكون توصيفاً مكثفاً للأوضاع الامنية في بلدانها. ومما يزيد الأمر قسوة، أننا نتحدث عن جمهورية الخوف في الوطن العربي، إما خارج الحدود إتقاءً للبطش وطلباً للسلامة، أو النأي عن تسميتها، ريثما تتهدم جدرانها فيكون حينئذ الكلام الحرام أمنياً مباحاً سياسياً ونفسياً. لقد أصبحت قاعدة الحكم: إن من يريد أن يحكم بإقتدار عليه أن يشيع موجات هلع بوتائر متواصلة في أوساط المحكومين في سبيل إدامة السلطة وتأمين أسس إستقرارها. إن صناعة مخيال الخوف مطلوب من أجل صناعة بيئة للخوف تمارس دوراً رادعاً وتحصينياً للنظام السياسي. تقول **سوزان جيفرز: إنّ** 90 بالمئة مما نخشاه ليس له نصيب من الواقع، أي لن يقع، وإنما هي مخاوف متخيّلة[56]. في حقيقة الأمر، أن العديد من الانظمة السياسية الشمولية منها بخاصة تميل إلى صناعة مخيال خوف لدى المواطنين من أجل تضخيم هيبة السلطة. تفرض هيمنة السلطة السياسية بصورة طاغية نوعاً من ثقافة الخوف، تحول دون الجأر بالتظلم فضلاً عن المطالبة بالحقوق. فقد نشرت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الانسان في الحادي وعشر من أبريل 2005 تصريحاً لناشطين ومراقبين لأوضاع حقوق الانسان في **الاردن**، يرجعون فيه عدم استشعار المواطنين بجدوى المؤسسات الاهلية العاملة في مجال حقوق الانسان إلى (ثقافة الخوف من تقديم شكاوى حول إنتهاك حقوقهم، أو لعدم تجاوب الحكومة مع فحواها..). ومن اللافت أن إقراراً ضمنياً صدر عن نائب رئيس الوزراء

للشؤون البرلمانية وزير التنمية السياسية هشام التل بوجود هذه الثقافة، داعياً المواطنين إلى (الابتعاد عن ثقافة الخوف)[57]. وقد أرجع الناشط الحقوقي فوزي السمهوري تفشي ثقافة الخوف إلى غياب (ضمانات تشريعية وتنفيذية من الحكومة) في التعامل مع شكاوى المواطنين في مجال حقوق الانسان. فيما أرجع أمين عام حزب الوحدة الشعبية سعيد ذياب ذلك إلى (تخوف المواطن من الأجهزة الأمنية في حال علمت بشكواه..). ولنتصور أن بلداً كالأردن، **الذي ينعم بهامش كبير من حرية التعبير والصحافة**، يكشف استطلاع فيه إلى أن (86 بالمئة من المواطنين لا يجرأون على إنتقاد الحكومة، وبالتالي، **عدم إمتلاكهم الجرأة لتقديم شكوى ضد إنتهاك حقوقهم**)، فبإمكان المرء تخيّل كيف تكون الحال في بلدان عربية أخرى تهيمن فيها الدولة على مجمل وسائل الاعلام وتفتقر إلى مؤسسات دستورية ونيابية مستقلة، أو مؤسسات أهلية فاعلة ومستقلة. تجدر الاشارة إلى أن **الاردن** يحتل المرتبة الثامنة في قائمة مؤلّفة من عشرين دولة عربية خضعت لدراسة أعدّها مركز المعلومات التابع لمجلة إيكونوميست على مستوى الحرية السياسية والمدنية في نوفمبر 2005، فيما جاءت كل من **سوريا والسعودية وليبيا** في المراتب الأخيرة[58].

خلاصات ومقترحات

- من يتأمل في المعطيات سالفة الذكر وبقليل من الفحص في المناخ الثقافي العربي اليوم، لا بد أن يلحظ طغيان ثقافة الخوف، التي تتغذى على مصادر متنوعة تربوية ودينية وسياسية واعلامية، وأن الانفتاح الاعلامي في شكله العولمي لم يزد ثقافة الخوف الا انتشاراً وسطوة. ومن المفارقات المذهلة أن التباينات الشكلية للسلطة في العالم العربي لم تعكس تبايناً في درجات تغلغل ثقافة الخوف، فالخطابات الثقافية المحشوّة بمواد هلع تتوحّد في كافة أقطار العرب من المحيط إلى الخليج، وكأن ثمة إجماعاً عربياً منقطع النظير على **توحيد خطاب الخوف ثقافياً**، لحظنا ذلك بجلاء في غمرة التجاذبات الداخلية في عدد من الاقطار العربية حول الاصلاح السياسي، كما نلحظها أيضاً في ردود الافعال على موضوعات التجديد الديني، والاصلاح الاجتماعي.
- في السياسة كما في مجالات أخرى عديدة، يراد للأفراد البقاء داخل دورة استهلاكية لثقافة الخوف الكفيلة بإبقائهم عناصر معطوبة، تستجدي العون من السلطة ولا تقرر

مصيرها، باعتبارها مدرجة خارج مفهوم المواطنة، بمملياته الدستورية، وبما يقتضي من حقوق وواجبات منصوصة، إذ تبدو منطقة الحقوق مقفلة تحت ستار الخوف من البطش، فيما يُنظَر إلى المطالبات الحقوقية بوصفها هتكاً لستار السلطة وافتئاتاً على حقها التاريخي والالهي. في حقيقة الأمر، أن المجتمع ينتج ثقافة خوفه في إنعدام قانون يحميه، ولذلك يتلبّس بالخوف كإجراء حمائي ضد مخاطر متخيّلة قد تدهمه من مصادر معروفة وأخرى مجهولة، فالمخيال الرهابي في غياب القانون يتحول إلى مصدر عبقري فريد في توليد أفكار تسوّغ خوف صاحبه، كما تسبغ على السلوك العام للمجتمع حلّة فاتنة تحيكها ثقافة الخوف، فيتحول هذا السلوك إلى مصدر إطمئنان، طالما أنه يكفل مجرد الوجود البيولوجي للمجتمع، المتساوي مع باقي الوجودات الطبيعية والحيوانية، ولذلك تصبح مقولة (بدنا نعيش) عقيدة إجماعية مقبولة ورائجة.

- في تقديرنا، إن رهان التغيير الشامل يتوقف على **الارتطام بجرأة عالية بثقافة الخوف، ونبش جذورها، وفحص مصادرها، وكشف تجسيداتها السياسية والاجتماعية والفكرية وصولاً إلى تبديدها.** وبطبيعة الحال، فإن محو ثقافة ما، ذات إمتدادت عميقة وبعيدة في الوعي والذاكرة التاريخية للمجتمع لا يتم بالضربة القاضية، فنحن أمام ظاهرة متفشية في كل حقول الحياة: الاجتماعية والسياسية والدينية والتربوية والاعلامية، وتتطلب ابتداءً تمشيطاً واسعاً لمناطق ثقافة الخوف كتدبير أولي لجهة تحديد رقعة الانتشار ومكامن قوته الفاعلة، كما نفعل الآن، ومن ثم البدء بوضع خطط عملية لقلب أنماط التنشئة التربوية السائدة في المجتمع بالتركيز على قيمة الانسان، وحقه في الحياة الكريمة، وحريته في التفكير والتعبير والتدبير. بمعنى آخر، إسقاط الاصنام الذهنية وأشكال السلطة كما غرستها ثقافة الخوف وإعادة إنسانية الانسان الحر، وهو تدبير تربوي يعضده تدبير قانوني آخر يتأسس على **إشاعة مفهوم المواطنة**، التي تحقق مبدأ المساواة بين الافراد، وترسم للجميع خطاً حقوقياً متساوياً بصرف النظر عن تحدّراتهم الاثنية والدينية والسياسية. ولا شك أن إنغراس فكرة المواطنة يؤدي تدريجياً إلى زوال شبح السلطة، كما تجسّدت في شخص الحاكم، ويحلّ مكانه مبدأ سيادة القانون، فلا سلطان على الجميع الا القانون.

ـ إن مصدر إبتلاء المجتمعات العربية، هو أن طغيان ثقافة الخوف أفضى إلى تلغيم الفضاء العام، وأشاد الاصنام محل الاحلام، فكان لكل حقل في تلك الثقافة أصنامه الخاصة، فالدولة صنم، ورجل الدين صنم، وزعيم العشيرة صنم، والعادات صنم..وهكذا، حتى بات الفرد يمشي داخل **حقل ألغام** إلى جانبه **مجموعة أصنام**، حيث يجتمع الخوف والرجاء في فضاء واحد، فالخوف يفني إنسانية الفرد والرجاء يجود عليه بشرعية الخوف أو الاطمئنان المقلوب أو الزائف.. إن تهديم الاصنام يتطلب دون ريب إزالة القيود الثقافية والنفسية التي رهنت الانسان إلى خوفه وأفضت إلى تلاشيه، فلم يعد مشاركاً، ولا فاعلاً، ولا إنساناً فهو مجرد تابع، وساكن ومستسلم، وأسير مصادر التهديد المحيطة به في كل الاتجاهات. ويكمن الحل في ممارسة عملية تفزيع مضادة لمصادر التهديد داخل الفرد والمجتمع بإتجاه التمرد على الذات وتكسير القيود الوهمية من أجل فتح جسر العبور إلى زمن آخر وثقافة أخرى ووضع آخر، حيث لا خوف ولا أصنام ولا ألغام ثقافية وتربوية وسياسية. وسنجابه بطبيعة الحال بالسؤال التقليدي: ولكن كيف؟ والجواب عن ذلك يتطلب عملاً جبّاراً نجح أحياناً على مستويات فردية، ولكننا نتطلع لأن يصبح العمل الجبّار جمعياً، أي **وضع إستراتيجية تغيير شاملة لمجمل مكوّنات ثقافة الخوف، وفضح أهدافها**، فالناس يخافون لأنهم يجهلون كيف تلبّستهم تلك الثقافة، ولكن حين يدركون بأنهم وقعوا تحت تأثير خديعة أو أنهم ضحايا وهم، فبالتأكيد سينهضون مثنى وفرادى وتالياً زرافات، بإعادة بناء الثقة بالذات الفردية والجماعية.

ـ ندرك بالتأكيد أن تمدد فضاء المقدّس، تماماً كتمدد مجال السلطة السياسية، والمجتمع الأبوي، وغيرها من أشكال التمدد المسؤولة عن تصنيع ثقافة الخوف، تملي خطة شديدة التعقيد من أجل ملامسة جذر المشكلة، فثمة مشكلات غير قابلة لمعالجات عابرة وسطحية وإنما تنذك في وعينا الديني والاجتماعي والسياسي. إن تمدد فضاء المقدّس، على سبيل المثال، لا يسمح بتطوّر العملية النقدية، وبخاصة حين يكون الفضاء متداخلاً مع فضاءات اخرى سياسية واجتماعية. وبالتالي فنحن بحاجة إلى **إختراق فضاء المقدّس** في مهمة عاجلة لاعادة ترسيم حدوده ومقاساته، تمهيداً لانحسار هيمنة الفضاءات الاخرى. ومن هذا المنظور، يمكن التشديد على دور **مؤسسات المجتمع المدني**، بوصفها الوسيط الطبيعي والحاضنة النموذجية لنمو

الحريات العامة، والبنية التي يعوّل عليها في تحويل المجتمع وإعادة تنظيمه على أسس جديدة. إن دور تلك المؤسسات يصبح مركزياً حين يستهدف تشكيل البيئة الثقافية للمجتمع، ويقوم بقطع إمدادات ومغذّيات ثقافة الخوف، وممارسة دور الفاضح لمصادرها وأدواتها، وتالياً في تأهيل المجتمع للدخول في أقنية فعل ثقافي واجتماعي وسياسي مستقل.

هوامش:

(1) Edward Burnett Tylor, Primitive Culture, vol. I: The Origins of Culture (New York: Harper and. Row, 1958); orig. publ. 1871; Chapter 1.see: http://www2.truman.edu/~rgraber/cultev/tylor.html. accessed on January 31, 2006

(2) لويس دولّلو، الثقافة الفردية والثقافة الجماهيرية، ترجمة خير الدين عبد الصمد، دمشق 1993 ص103

(3) مارتان هيدجر، الفلسفة في مواجهة العلم والتقنية، ترجمة د. فاطمة الجيوشي، دمشق ـــ 1998، ص13 ـــ 14

(4) Barry Glassner (1999) , The Culture of Fear, (New York: Basic Books), p.208

(5) Furedi, Frank (2002), Culture of Fear, New York, p.15

(6) علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، حكمة رقم 108 وأنظر: الشيخ ابو الفتوح الكراجكي، كنز الفوائد، تعليق الشيخ عبد الله نعمة، دار الذخائر بيروت، ج2 ص68

(7) Barry Glassner, op.cit., p.208

(8) Barry Glassner, ibid, p.209

(9) جورج أورويل، رواية 1984، ترجمة أحمد عجيل طبعة بغداد 1990 ص340

(10) جورج أورويل، المصدر السابق، صص 174، 289

(11) سعد الله ونوس، الاعمال الكاملة، يوم من زماننا، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ط1 1996، المجلد الثاني ص198ـــ199

(12) سعد الله ونوس، يوم من زماننا، مصدر سابق مج2 ص246

(13) سعد الله ونوس، الاعمال الكاملة، يوم من زماننا، مصدر سابق، المجلد الثاني ص248

(14) ذوقان قرقوط، إريك فروم: مختارات من "ثورة الأمل- نحو أنسنة التقنية" The Revolution of Hope بتاريخ 18 ديسمبر 2001، أنظر:
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?t=4&aid=501

(15) جورج أورويل، رواية 1984، مصدر سابق ص9

(16) Susan Jeffers (1987), Feel The Fear And Do It Anyway, London, p.17

(17) نقلا عن لويس دوللو، الثقافة الفردية والثقافة الجماهيرية، ترجمة: خيـر الـدين عبـد الـصمد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1992، صص 33 ــ 34

(18) لويس دوللو، الثقافة الفردية والثقافة الجماهيرية، المصدر السابق ص97

(19) Mischa Titiev, "Enculturation" in A Dictionary of the Social Sciences, Julius Gould & William L. Kolb, eds. (New York: The Free Press, 1965), p. 239.

(20) M.J. Herskovits, Man and His Works, Knopf, New York, 1948, cited by Titiev, ibid

(21) John W.M. Whiting, "Anthropological Aspect" of "Socialization," International Encyclopedia of the Social Sciences, David Sills, ed. (U.S.A.: The Macmillan Co. & The Free Press, 1968), XIV, 545-549

(22) غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الـساقي ــ لنـدن، ط1 1991 ص134

(23) إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد بيـروت: المؤسـسة العربيـة للدراسات والنشر، 1972 ص150

(24) أنظر: د. محمد عباس نور الدين، التمويه في المجتمع العربي السلطوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، تقدمة هشام شرابي

(25) أنظر: هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، 1985 ص74ومابعدها

(26) Sharabi, Hisham (1988) Neopatriarchy, A Theory of Distorted Change in Arab Society, Oxford, p.7

(27) ذوقان قرقوط، إريك فروم: مختارات من "ثورة الأمل – نحو أنسنة التقنية" The Revolution of Hope بتاريخ 18 ديسمبر 2001، أنظر:
http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?t=4&aid=501

(28) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيـروت، معهـد الانماء العربي 1976، ص49

(29) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص253

(30) see: Gilbert, D.T.; Fiske, S.&Lindzey, G., (eds). The Handbook of Social Psychology. (Boston:1988).

(31) see: http://www.12manage.com/methods_noelle-neumann_spiral_of_ silence .html, accessed on January 21, 2006

(32) Scott, James (1990), Domination and the Arts of Resistance, London, pp.72ff

(33) من كلمة إفتتاحية وزير الشؤون الدينية التونسي جلول الجريـبـي في الندوة المولدية 29 بعنوان (حضارة التسامح والتضامن) برعاية وزارة الشؤون الدينية بتاريخ 22ــ23 مـايو 2002 بمدينـة القيروان أنظر: http://www.ezzitouna.org/akhbar/220502-1.html

(34) محمد علي المحمود، تحديات ما بعد الإرهاب، جريدة الرياض الخميس 5 ربيع الأول 1426هـ – 14 إبريل 2005م – العدد 13443

(35) حلمي سالم، سيد القمني..قاتل أم قتيل؟، صحيفة الاهالي العدد 1239 (3ــ10) أغسطس 2005

(36) http://www.elaph.com/ElaphWeb/AkhbarKhasa/2005/7/76978.htm, accessed on January, 20, 2006

(37) الشرق الاوسط، العدد 9739 بتاريخ 28 يوليو2005

(38) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1980، ص30

(39) للمزيد أنظر: علي حرب، لعبة المعنى..فصول في نقد الانسان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991

(40) الدكتور طه حسين، الأيام، طبع دار المعارف بمصر، ط47، القاهرة 1971- الجزء الاول ص85

(41) الدكتور طه حسين، الأيام ج1 ص96

(42) المصدر السابق ج1 ص82 ـ 83

(43) مقابلة مع د. نصر حامد أبو زيد بتاريخ 10/17/ 2002 أجرى الحوار د.محمد علي الأتاسي، انظر: ملحق النهار الثقافي، بيروت

(44) الكواكبي، طبائع الاستبداد، مصدر سابق ص33

(45) George Orwell's Nineteen Eighty Four North Korea, Seoul, Korea, Tower Press, 1984, pp.67-69

(46) د. عبد الرزاق عيد، ثقافة الخوف، محاضرة ألقيت في منتدى الاتاسي ـ دمشق بتاريخ 2005/7/18 نقلاً عن موقع المواطن www.mowaten.org

(47) جويل إيجي، الحرية والتحرر من الخوف، جريدة المدى، بغداد، أنظر:

http://almadapaper.com/sub/01-306/p04.htm ; accessed on February 2, 2006

(48) Retrieved from http://www.articleworld.org/index.php/Culture_of_fear accessed on February 16, 2006

(49) ياسين الحافظ، الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1979

(50) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، 1965 ج3 ص352

(51) إبن الأثير، المصدر السابق، ج 4 ، ص33 ـ 34

(52) موقع جريدة الوعي المصري، جريدة اسبوعية الكترونية 15 أبريل 2005

(53) URL: www.earthlight.org/2002/essay47_deboer.html

(54) سعد الدين إبراهيم، أيمن نور وجمهورية الخوف، صحيفة الراية القطرية، 2 يناير 2006

(55) Noam Chomsky, The Culture of Fear, in Javier Giraldo, Colombia: The Genocidal Democracy, Common Courage Press, July, 1996. retrieved from: http://www.chomsky.info/articles/199607--.htm, accessed on January 20, 2006

(56) Jeffers, Susan, Feel The Fear and Do It Anyway, op.cit., p.72

(57) http://www.hrinfo.net/jordan/achrs/2005/pr0421.shtml, accessed on January 18, 2006

(58)http://news8.thdo.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_4451000/4451390.stm. accessed on February 2, 2006

الباب الثاني

ثقافة الخوف في الإطار السياسي

- عز الدين المناصرة: (مدخل): نَعيبُ زمانَنا، والعيبُ فينا...
- محمد صالح المسفر: ثقافة الخوف، وآليات صناعة التغيير بين الداخل والخارج.
- إبراهيم أبراش: ثقافة الخوف في مناطق السلطة الفلسطينية.
- مسعود ضاهر: من ثقافة الخوف إلى ثقافة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في (لبنان).
- ليلى رعد: ثقافة الخوف الناتجة من الحرب الأهلية اللبنانية.
- فاروق بوزكوز: الديمقراطية والخوف في (شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف.

مدخل: نَعيبُ زمانَنا، والعيبُ فينا!!

عز الدين المناصرة

يبدو أنّ (الخوف السياسي)، المكتسب نتيجة تفاعل الفرد مع جماعة سياسية، ومع السلطة في مجتمعه، هو الأكثر خطراً على المواطن، حيث أنّ (**مفهوم المواطنة**)، رغم كل الدساتير والمواثيق والصيغ القانونية العربية، ما يزال مفهوماً شبه غامض، ورغم وضوحه أحياناً، إلاّ أنّ سلطة النظام، بمؤسساتها، وجهازها الإديولوجي، تستطيع أن تفرغ معنى المواطنية من مضمونه الحقيقي. كل الدول شبه الديمقراطية في العالم، تأسست على مفهوم الاعتراف بالتعددية العرقية والدينية واللغوية، وبعد هذا الاعتراف، تتمّ **الشراكة الحقيقية**. ووظيفة الدولة الأساسية، هي مراقبة السلطة التنفيذية، كي لا تنحرف عن مفهوم الشراكة، وتوزيع الحقوق والواجبات بعدل وموضوعية، كما أن وظيفة (**البرلمان التعددي**)، ليس مراقبة السلطة التنفيذية فحسب، بل مراقبة الدولة نفسها. إنّ إشكالية البرلمانات العربية، هي أنها لا تمثل تعددية الشعب، تمثيلاً حقيقياً، فهي في معظم الأحوال، مخترقة من قبل السلطة، لهذا لابدّ من إصلاح قوانين الانتخاب العربية، بما يجعل شراكة الشعب، شراكة حقيقية. أحياناً يقال إنّ القانون الانتخابي، جيّد ومعقول، هنا في هذه الحالة، قد يكون تنفيذ الانتخابات، تنفيذاً سيئاً، بسبب هيمنة رأس المال، وهيمنة إديولوجيا السلطة الحاكمة المكرّسة في وسائل الإعلام،... الخ. وهكذا، فإن مفهوم المواطنة، ما يزال مُختطفاً بيد السلطة، تلعب به وفق مصالحها التي لا تُطابق بالضرورة، مصالح الوطن. الإشكالية هنا هي أنّ السلطة ترفع شعار: (**أنا الوطن، والوطن أنا**): في إحدى الدول العربية، سُحب جواز سفر أحد المواطنين، وتمّ إبعاده مع أسرته خارج البلاد، وعندما طلب المواطن جواز سفره، قيل له: (**الله أعطى، الله أخذ**). أمّا قصة (**السجن السياسي**) في بعض البلدان العربية، فقد باتت معروفة: يُمنع المواطن من التعبير عن رأيه، وإذا كان هذا الرأي مخالفاً، وتمّ التعبير عنه يُسجن بسبب رأيه المخالف، وتُستعمل أدوات التعذيب المادية، وأدوات الإهانة المعنوية، فيخرج السجينُ مواطناً مُدجّناً، بل قد يغتصبُ السجّانُ، التاريخَ، لاحقاً في مذكراته ليقول إنه كان بطلاً، وأنّ السجين كان جباناً!!. وبطبيعة الحال، لن تتم العدالة، إلاّ بتعبير السجين عن عذاباته،

برواية سرديته الخاصة، وتعميمها على الجمهور، عندئذٍ تحاكم السلطة العادلة – السجّان الذي أساء إلى مفهوم المواطنية.

– المشكلة الأخرى في (الخوف السياسي)، هي خوف السلطة من ضغوطات الخارج التي قد تكون أقوى من الدولة، فتلجأ السلطة إلى واحد من حلّين: تخويف شعبها، أو مقاومة الخارج بالاستعانة بالشعب، لكنّ معظم الأنظمة العربية، تلجأ إلى الحلّ الأوّل، أي تخويف شعبها، ومنعه من أية مقاومة. وهناك أنظمة عربية لجأت إلى (**الاستقواء بالخارج**)، ضدّ مقاومة شعبها المنتصرة على العدو، وهي مفارقة مضحكة مبكية. وهكذا لجأت بعض الأنظمة إلى بعض الشعارات الفارغة من مضمونها.

– إذا أردتَ أن تعرف حقيقة بعض الشعارات، في الحالة الفلسطينية، مثل: (**لا صوت يعلو فوق صوت المعركة**)، أو، (**الدم الفلسطيني، خطٌّ أحمر**)، أو، (**بالدم نكتسب فلسطين**)، أوْ: (**كلّنا مع المقاومة**)، أو: (**كلّنا فلسطينيون**) مثلاً، لابُدّ من اختبارها، وهنا تظهر الفجوات بين النظرية، والتطبيق. من جهة أخرى أيضاً، نجد أنّ الكلّ في الإدارات الجامعية، والمؤسسات، والوزارات في الوطن العربي، يرفع شعار: (**سياسة الباب المفتوح**)، ولكنّك عند الاختبار، تكتشف عكس ذلك. والكلّ، يرفع شعاراتٍ ضدّ (الفساد)، ولكن عند تحليل الفساد الواقعي، غير المتوهم، نجد كثيرين من هؤلاء، قد غرقوا في الفساد بأنواعه: المالي والسياسي والثقافي والإداري، حتى أدرك المحلّلون النفسانيّون، والاجتماعيون، أنّ الفساد، ظاهرة معقّدة، فالفاسد قد يتهم (الشخص النظيف)، بأنه فاسد، وينجح في تعميم التهمة الظالمة، مستنداً إلى قوة ما. وهنا لابُدّ من **تفكيك مفهوم** (**القوّة**)، و(**السيطرة**)، لكي نفهم الظاهرة، بعيداً عن الاستسلام، لظاهرة: (**الصوت العالي**)، و(قوّة العلاقات)، و(البلطجة الفارغة)، وبعيداً عن سلطة الداخل والخارج. لقد نجح الإسرائيليون، مثلاً في تعميم الفساد على السلطة الفلسطينية، (تحت الوصاية والاحتلال)، وكان فساد السلطة، الثغرة، التي تسلل الإسرائيليون منها، لتكون النتيجة الإعلامية: (إسرائيل، دولة نظيفة / في مقابل – السلطة الفلسطينية، سلطة فاسدة)، رغم أن إسرائيل، دولة فاسدة بكل المقاييس، (**التحرش الجنسي، الصفقات المشبوهة**)، أليست هزيمة الجيش الإسرائيلي أمام (المقاومة اللبنانية)، فضيحة من فضائح الفساد الكبرى. أليست سرقة أموال الشعب الفلسطيني، فضيحة فساد، أليس وجود إسرائيل نفسها، وجوداً فاسداً، ولكن... يجب أن يعترف العرب،

بميزة إسرائيلية إيجابية، ألا وهي: **(التحقيق، والمكاشفة، والعقاب)**، علــى عكــس السلطة الفلسطينية، التي لا تفعل شيئاً لمواجهة الفساد، بل تكتفي بالقول، دفاعــاً عــن نفسها: **(قياساً على الدول العربية المجاورة، فسادُنا، أقلُّ من فسادهم)**، تمامــاً، كمــا عولجت بطريقة خاطئة، فكرة الديمقراطية!!.

- إنّ اكتفاء علم النفس، بالوصف، هو نوعٌ من أنواع الخوف، تماماً، عندما يكتفي علــم النفس، بالوصفات التقليدية، عند العلاج. وهنا، أستعير من الأستاذ **إبــراهيم أبــراش**، إحدى طرق العلاج، التي عالج بها (إمام مسجد) في إحدى البلدان الإسلامية، مــشكلة تدنّي مستوى المناهج التعليمية في المدارس والجامعات، حيث قال في خطبته: **(اللهمّ، حَسِّنْ مناهجنا التعليمية)**!!، ويعلّق أبراش، (...وكأنّ الله، هو المــسؤول عــن فــشل المناهج التعليمية!). وقد استمعت لمثل هذا، وهو كثير: (اللهمّ، أعدْ لنا القدس!)، أو في أغنية لفيروز: **(خُذوني إلى بيسان!)**، فالتواكُل، ولا أقول: التوكّل، هو نوع من أنواع (الاستسلام للخوف والهزيمة): في عام 1967، عام الهزيمة، انتــشرت في مــصر، إشاعة تقول: إنّ، (العذراء)، ظهرت في كنيسة حلمية الزيتون في القاهرة، وهنا، هبّت الصحف لتضخيمها، لكنّ **جمال عبد الناصر**، آنذاك، أدرك أن مثل هذه العقليــة، هــي التي قادت إلى الهزيمة، فلجأتْ إلى جلد الذات، لهذا فَجَّرَ **(حرب الاســتنزاف)**، التــي كانت أساس حرب أكتوبر المجيدة، بغض النظر عن التوظيف السياسي السيئ لاحقــاً لنتائجها. وقد ظهرت مؤخراً، كتبٌ تقول: **إنّ إسرائيل، ستزول مــن الوجــود (عــام 2021)**، أو أنّ أمريكا ستتفكك من الداخل بعد عام 2015.!!. ومعنى ذلك: ناموا أيها العرب، حتى عام 2021. قال صديقٌ لصديقه الذي لم يعرف كيف يستعمل (المصعد): كيف ستواجه الإمبريالية والصهيونية، كما تُنظّر في كتاباتك، وأنت خائفٌ من إغــلاق المصعد!!. فالمعرفة، هي التي تهتك ستر المجهول، والخطر المتوقع، ولكن لا يكفــي أن تعرف، لأنّ السؤال الأكثر خطراً، هو: كيف نوظّف هذه المعرفة، وكيف نقاوم هذه الأخطار، لهذا ستظل فكرة المقاومة، فكرة جوهرية، ملازمة لجوهر الإنسان الخائف، لكنّ البعض يُحسن استعمالها، والبعض الآخر، يفشل، لأنه قد لا يتقن أدوات المقاومة، أو لأنه، لا يعرف الزمن المناسب، أو لأنه لا يعي ميزان قوته، أو قوة العدوّ، ســواءً أكان هذا العدو، كارثةً طبيعية، أم كلباً مسعوراً، أم احتلالاً قاسياً. هكــذا، لا نواجــه **(الإسلاموفوبيا)**، التي اخترعها الغرب، بِ **(فوبيا الكتلة الموحّدة)**، فالغرب ليس كتلةً

موحّدة: ما دام لهم أصدقاءٌمنّا، يروّجون لمشروع الشرق الأوسط الكبير، فلنا أصدقاء منهم، يقاومون العولمة المتوحشة: كان للثورة الفلسطينية المعاصرة (1964-1994)، أصدقاء فاعلون في كل أنحاء العالم، فقدناهم عندما، وقّع البعض منّا، اتفاق أوسلو، حتى وصلنا إلى نقطة الصفر: **(يا وحدنا!! – كمال ناصر)**، وجاء انتهاك شعار: (الدم الفلسطيني، خطّ أحمر)، ليفقدنا آخر ما تبقى من الصورة. ولم يكن الشعب الفلسطيني العظيم، هو السبب. فالمشكلة، لم تكن في (التبوّل اللاإرادي)، عند أطفال فلسطين، بل المشكلة، تكمن في (بول رصاصِ حافةِ الحرب الأهلية).

– ليست مشكلتنا في الخوف الطبيعي، وإنما مشكلتنا في (التخويف) الصناعي، الذي يمارسه الغرب علينا، وفي (الاستقواء بالخارج)، وفي التكيُّف المسبق مع هذا التخويف، وهي مشكلة أنظمةٍ، تخافُ من التخويف الخارجي، فتقوم بتخويفنا، مستخدمةً أدوات البطش والتعذيب والتجويع، انطلاقاً من نظرية: **(جوّعْ شعبك، يتبعْك)**. ومشكلتنا تقبع في شرائح من المثقفين (الطليعة) الانتهازيين، الذين يبرّرون للسلطة، كلّ فعل قبيح، ومشكلتنا في صفوف هؤلاء الذين ينتظرون (الزعيم المخلّص)، ومشكلتنا تقع في مثقفين منافقين، لا يقولون الحقيقة لسلطة بلادهم، وفي مثقفين يمتدحون (الزعيم)، والحاكم، ويضعون الحقّ على الطبقة المحيطة بالزعيم، أو على الطليان!!، ومشكلتنا في مثقفين، يقومون بتبرئة (الطبقة الحاكمة)، ويلخّصون الشعب في (الزعيم الأوحد)، حتى لو كان الحاكم عادلاً. مشكلتنا في هذا الاختصار، وهذا التلخيص، وهذه التصنيفات الهيكلية الشكلانية.

* * *

– أبحاث هذا الفصل من الكتاب، للأساتذة: **(مسعود ضاهر، ليلى رعد، إبراهيم أبراش، محمد صالح المسفر، فاروق بوزكوز)**، تفكّك أشكالَ الخوف والتخويف، بدرجات متفاوتة، تصل إلى حدّ الشجاعة، ويصل بعضها إلى حافة الحذر، والحذر نوعٌ من أنواع الخوف الخفيف، انطلاقاً من مقولة: **(ليس كلُّ ما نعرفه، نقوله)**، وهي مقولةٌ تنطلق من الواقع، لا من الرغبة، فالذي لا يخاف، لا يُخوّف.

– يقدّم، **الأستاذ محمد صالح المسفر (قطر)**، مقاربة لثقافة الخوف، انطلاقاً من علم السياسة، حيث ينطلق من الفكرة التالية: المجتمعات العربية في المرحلة الراهنة، واقعة تحت حالة ضغط مزدوجة من التخويف: أولها، موجة تخويف الأنظمة

لشعوبها، وثانيها، موجة تخويف الدول الغربية للمجتمعات العربية (خوف داخلي، خوف خارجي). ويرى الباحث أن استخدام آلية التخويف لإحداث تغيير من خلال الغزو والاحتلال والتعذيب – لم يحصل على النتيجة المطلوبة، بل حدث العكس. ثمّ يستعرض الباحث – أشكال التخويف في التاريخ: في **فرنسا**، **والولايات المتحدة**: **قطع** الرؤوس بعد الثورة الفرنسية، وترويض العبيد في الولايات المتحدة. ثمّ في مرحلة تالية، توسعت آلية التخويف، حيث تحول الخوف من حالة طبيعية إلى دافع ومحرّك في كل مجالات الحياة داخل المجتمع، وكنمط لإحداث التغيير. كما أصبح الخوف، آلية ومحركاً لتغيير المجتمعات من الخارج. ويلخص الباحث، الدراسات العربية حول الخوف. كما يشير الباحث إلى تعدد أشكال الخوف في المجتمعات العربية، التي تحولت إلى أنماط قيميّة، وسلوكات ثابتة، بحيث ولدت الإشكالات الجديدة. ويطرح الباحث عدة أسئلة هامة:

1. ما مدى تأثير استمرار عمليات التخويف في تشكيل نمط قيمي مستمر.
2. ما مدى تأثير عملية التخويف الخارجي في الأنظمة العربية.
3. ما مدى تأثير عملية التخويف كآلية في تغيير النمط الثقافي، والقيم الثابتة في المجتمعات العربية.
4. ما هي نتيجة تضاد الأهداف بين التخويف الداخلي، لمنع التغيير، وبين التخويف الخارجي من أجل التغيير.
5. ما مدى قدرة النمط الحضاري القيمي العربي على مواجهة الثقافة المستحدثة.

– ثمّ يناقش الباحث، مستويات وأنماط التخويف، أخطرها، التهديد بالغزو والاحتلال، والإطاحة بالنظم، وتفكيك المجتمعات، وإشاعة القتل والإرهاب، وتحويل الترهيب والترويع إلى فلسفة رسمية للسلطة. ويناقش الباحث أمثلة التخويف: الولايات المتحدة، مصر، الجزائر، العراق، أفغانستان، فلسطين، لبنان. كما يناقش فلسفة: (**الفوضى البناءة**)، التي صدّرتها الولايات المتحدة إلى فلسطين، ولبنان، والعراق، فالحالة العراقية، حسب الباحث، هي: (أخطر حالة فوضى (بناءة) مدروسة ومخطط لها بدقة، منذ احتلال العراق، 2003. ويشير الباحث إلى **آلية خطيرة في النظام البصري البشري**، تسمح للمُخّ، برفض تسجيل ما تراه العينان بالفعل. كما يشير الباحث مرّات عديدة إلى (المقاومة) في فلسطين والعراق ولبنان، وأفغانستان، والشيشان، فالمجتمعات

العربية والإسلامية، لا تخاف الموت، لأنها حريصة على (الاستشهاد)، بصفته منبعاً، لثقافة الحياة الكريمة، أما الاستسلام لحياة ذليلة، فهو الموت.

- يتقاطع بحثا الأستاذين: **ليلى رعد (لبنان)**، و**إبراهيم أبراش (فلسطين)** في كونهما يعالجان مسألة **الفرق بين المقاومة، والحرب الأهلية**، بوضوح وجرأة، متخذين من نموذج: فلسطين: (مقاومة تتحول إلى حافّة الحرب الأهلية)، و(حرب أهلية خالصة)، كما هو في نموذج الحرب اللبنانية الأهلية.
- أما، **الأستاذ إبراهيم أبراش (فلسطين)**، في دراسته لثقافة الخوف في مناطق السلطة الفلسطينية، فالخوف لم يعد حالة نفسية انفعالية وعاطفية، بل تأصّل الخوف، حسب الباحث، ليتحوّل إلى ثقافة يمارسها مواطنون من شتى المستويات الثقافية والاجتماعية، وهو يشير إلى أن خطورة الخوف، تكمن في حرف النضال الوطني الموحّد ضدّ الاحتلال إلى **(ما يشبه الحرب الأهلية الباردة)**، والمسلّحة حيناً آخر. وبالتالي، يكون الأستاذ أبراش، قد استشرف هذه النتيجة: (أحداث يناير وشباط، 2007، بين حركة حماس وحركة فتح)، قبل وقوعها، مع وجود مقدمات واضحة لذلك، عندما كتب بحثه عام 2006، وهاهي الحرب الأهلية الباردة، تصبح ساخنة، حيث حصدت في مقدماتها أرواحَ الأبرياء والمتورّطين.
- وهو (الباحث)، يُجري مجموعة من المقاربات، تجاه قضايا عامّة، لها خصوصيتها الفلسطينية: ثقافة الخوف، نتاج ثقافة مأزومة، فكرة (المؤامرة الحقيقية، والمؤامرة الوهمية)، القلق على الهوية الفلسطينية، سبب ونتاج لثقافة الخوف، والانفلات الأمني والقيمي، كتعبيرات عن ثقافة الخوف. وهو يعرّف الثقافة السياسية، بأنّها، (طرق التفكير، والشعور والسلوك السياسي، الخاص بجماعة ما)، فالثقافة تحتوي على ثلاثة أبعاد: معرفي، وعاطفي، وتقويمي، حسب **مقاربة (الموند – فيربا)**: الثقافة السياسية الرعوية، ثقافة الخضوع، وثقافة المشاركة، حيث يحدث التطابق بين الثقافة السياسية، والبنية السياسية، لتأمين استقرار النظام. ويذكر الباحث (12 تعبيراً عن ثقافة الخوف). وهو يقرر أن لثقافة المؤامرة، مكاناً مرموقاً في الثقافة السياسية: فكل مراقب حصيف، لما يجري في المنطقة العربية الإسلامية، يقول الباحث: (يشتَمُّ رائحةَ المؤامرة الأجنبية: فلسطين، الجزائر، مصر، السودان، ليبيا، العراق، المغرب، يشتمّ تآمراً مادياً مباشراً، ومكشوفاً، وتآمراً إعلامياً وسياسياً). أما الجديد على فكر المؤامرة، فهو،

حسب الباحث، أنه أصبح جزءاً من ثقافة أشمل، هي ثقافة الخوف. ثمّ يحلل الباحث (نظرية المؤامرة)، و(المؤامرة الحقيقية)، فيقرر بأن القول إنّ (السياسة)، لا تعرف الصراع والتآمر، هول قولٌ لا يستقيم مع فهم السياسة على حقيقتها، كسياسة بشر، لا سياسة ملائكة. وبالتالي، يذكر الباحث مجموعة من المؤامرات الحقيقية، لكنّه يستدرك بأن تضخيم المؤامرة وتهويلها، قد يتحول إلى مؤامرة (**مؤامرة من الذات ضدّ نفسها**)، كما قال الشاعر: **نعيبُ زماننا والعيبُ فينا ... وما لزماننا عيبٌ، سوانا.**

فنحن، نضخم المؤامرة، ونستسلم لها، لكي نخلي مسؤولياتنا، تجاه مقاومتها، لكنه يعدد المؤامرات الغربية: **تقرير كامبل بنرمان، عام 1907، (بينما ذكر مازن مطبقاني، أنه صدر عام 1905)، مراسلات الحسين – مكماهون، وعد بلفور، سايكس-بيكو، التآمر على القضية الفلسطينية باسم التسوية السياسية، التآمر على العراق والخليج العربي، النهب الذي تمارسه الشركات متعددة الجنسيات، ترويج النمط الاستهلاكي الرأسمالي**، وغيرها، غير أن الباحث يرى أنّ المؤامرة الحقيقية، هي في: (تحالف جزء من الغرب المسيحي مع جزء من العالم العربي الإسلامي – ضدّ الجزء الآخر من العالم العربي الإسلامي). ثمّ ينتقل الباحث إلى الجزء التطبيقي الخاص بثقافة الخوف في المناطق التي تسيطر عليها السلطة الفلسطينية: فهناك **قلق على الهوية: فالهوية لا تصاغ بقوانين، ولا تندثر بقوانين**، وهو يصف الحالة العربية، بأنها، تعددية الهويات وتداخلها، مع هذا، فالثقافة الحزبية شوّهت الهوية: (**الأممية ألغت الوطنية والقومية، والقوموية**، ألغت الوطنية، **والإسلاموية**، ألغت كلّ شيء، حتى العلم الوطني، والنشيد الوطني). فأصبح تقديس الأشخاص والرموز، أهم! **من** تقديس الوطن. وهو يقرر بوضوح: (**يجب أن لا تمتلك الفلسطيني عقدة ذنب أو تقصير، إن هو طرح مسألة الهوية**)، أمام المحاذير الشكلية. فالحديث عن (**الهوية الفلسطينية**)، لا يعني القطيعة مع هويّات الفلسطيني الأخرى: الإسلام، العروبة، الأممية. ثمّ يشرح الباحث مسألة (الانفلات الأمني) في مناطق السلطة الفلسطينية. حيث لا ينكر الباحث (**الجهود التي بذلها الرئيس أبو مازن، والمخلصون في مراكز القرار**)، لكنّه يضع المسؤولية على أباطرة الفساد السياسي!!. ويتساءل: كيف نوفق بين القول بأن السلطة قادرةٌ على حفظ الأمن، وشكوى المسؤولين من الفَلَتان الأمني، وكأن الأجهزة الأمنية، أجهزة لسلطة أخرى. هكذا عمّت الفوضى المسلحة. وهو يقرر أن **الانفلات الأمني، يخدم العدو الإسرائيلي مباشرة.**

ويرجع الباحث هذا الانفلات إلى (غياب المرجعية في حركة فتح)، ويدعو إلى ثقافة متحررة من الخوف).

- ثمّ، تقرأ **أستاذة التاريخ، ليلى رعد (لبنان)**، ثقافة الخوف الناتجة من الحرب الأهلية اللبنانية، فهي ترى أن الاستقلال والدستور، قاما على ركيزتين: (**تجميع الطوائف، وتجمع المناطق**)، لهذا قام الميثاق اللبناني على تجميع سطحي لكافة التناقضات الطائفية والوطنية، والاجتماعية والقومية على الساحة اللبنانية. وهي تنطلق من (**مذبحة عين الرمّانة، 1975/4/13**)، التي كانت الشرارة التي فجّرت الحرب الأهلية، والتي قال العميد ريمون إدّة عن أسبابها، ما يلي: (**الحربُ الأهلية اللبنانية، ليست حربَ الآخرين، بل هي حربٌ فجّرها حزب الكتائب اللبناني، بالتعاون مع إسرائيل**). وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، إهمال العاملين: السوري، والفلسطيني، لكن الأستاذة ليلى رعد، تبدأ بحثها من نتائج الحرب، ومظاهرها، حيث، كما تقول: (قامت (**الأحزاب والمليشيات**) في بادئ الأمر بالتمرد على سلطة الدولة، ثمّ ما لبثت أن تغلغلت في أجهزتها، بعد أن تعاظمت كماً، ونوعاً وقوة، لتفرض سيطرتها داخل الإدارات، فقد اغتصبت سلطة الدولة في المناطق، وزرعتْ التفرقة الطائفية، والانغلاق الطائفي، والفرز الطائفي، وبَنَتْ شبه دولة، بإقامة مؤسسات ثقافية، واجتماعية، وإيديولوجية). لقد تعرّف اللبناني إلى ثلاثة أنواع من الضغوط النفسية، خلال الحرب، حسب الباحثة، هي: الضغط النفسي الجسدي، الضغط النفسي العصبي، والضغط الاجتماعي، فاتّسم سلوك اللبنانيين بالخوف، والسلبية، والأنانية المتطرفة. لهذا عمد اللبنانيون إلى حمل السلاح، أو العزلة، أو الهروب من الواقع، أو الهجرة الداخلية والخارجية، وتقلّصت العلاقات الاجتماعية، وحدث تمرد على الواقع، بالتوجه نحو: الجنوح، العُصاب، أو الإدمان على الكحول والمخدرات. وتقرر الباحثة، أنّ المؤشرات، تدلّل على التقاء (**الحقد السياسي الطائفي**)، مع (**الحقد الاجتماعي الطبقي**)، عند الميليشيات، وخصوصاً عند الشباب. وهكذا تحوّل لبنان إلى مجموعة جُزر، تحكمها الميليشيات، وأصبح بمقدور (**اللصّ**) أن يخضع القاضي لمتطلباته، فبرزت **الجغرافيات المسلحة**، وانتشرت (**الخُوّة**)، تحت ذريعة، حماية المؤسسات. وبات كل فرد، لا يشعر أمام هذه العدوانية، بالطمانينة. وهذا ما انعكس تقسيماً جغرافياً، حسب الوجود الطائفي، والمذهبي. وحسب الباحثة أيضاً: (لم تعد كلمة

(الغريب)، تقتصر على الأجنبي، وإنما على كل من لا ينتمي للطائفة نفسها). وهكـذا أسهمت الحرب في خلق حالة أمنية، سبّبتْ الفرز الطائفي، وولادة المعـابر وخطـوط التماس، كما سبّبت التهجير من مكان إلى آخر، وانعكست الحرب، سلباً، على مسلكية بعض المعلمين وانضباطهم وأدائهم التعليمي، وأصبح (**المثقف الحرّ**)، لا يجرؤ علـى التعبير بصراحة عن تطلعاته. وهذا ما أحدث لدى الفرد، الإحساس الـدائم بالتهديـد، والرعب المستمر، والخوف من الموت، حتى لدى الأطفال: كوابيس، ونوبـات قلـق، واضطراب. لقد ارتفع عدد المهاجرين إلى الخارج (1975-1989)، إلى: (**606500 مهاجراً لبنانياً**). فالحرب كما تقول الباحثة: (لم تكن ظاهرة عابرة في التاريخ الحديث للبنان، بل كانت نظام حياة). لهذا دعت في نهاية بحثها إلى: (خطـة لبنانيـة تنموية وطنية شاملة)، لمواجهة أعباء المشاكل الداخلية، وخطة إستراتيجية وطنية، لمواجهـة العدو الخارجي.

- ترتبط ثقافة الخوف، بثقافة المقاومة ارتباطاً وثيقاً، فالخـائفون علـى وطـنهم مـن الاحتلال، هم الذين يقاومون هذا الخوف. يرى **الأستاذ مسعود ضاهر (لبنان)** في بحثه (من ثقافة الخوف إلى ثقافة مقاومة الاحتلال الإسـرائيلي في لبنـان) أنّ إسـرائيل لم تتوقف عن تهديد لبنان منذ عام 1948 وحتى الآن. وقد طالب اللبنانيون بتعديل اتفاقية الهدنة عام 1949، مرات عديدة دون جدوى، فالأمم المتحدة كانت وما تـزال تتحـاز للدولة المغتصبة للأرض اللبنانية. وكانت إسرائيل قد دمّرت قرى لبنانية (**هونين، آبل القمح، قدس، المالكية، تربيخا، صلحا، النبي يوشع**)، عام 1948، وأقامـت مكانهـا مستوطنات استعمارية، واغتصبتْ أجزاء من قرى كثيرة أخرى. وأقام لبنان مخيمـات للاجئين الفلسطينيين في لبنان. ورافق عملية تهجير اللبنانيين الجنوبيين إلى بيـروت، إفراغ قرى بكاملها من سكانها مع توسيع الشريط الشائك. وواصلت إسرائيل عدوانها على اللبنانيين والفلسطينيين في لبنان، عام 1978 (عملية الليطـاني)، وعـام 1982 (عملية سلامة الجليل)، أو حصار بيروت، وقبل ذلك، قصف مطار بيروت في أواخر الستينات، فلم تتوقف إسرائيل طيلة (1948-2007) عن تهديد لبنان، وضرب مرافقه الحيوية، لكنّ النظام السياسي اللبناني، ظلَّ بدون **خطّة وطنية اسـتراتيجية مقاومـة**، طيلة الفترة (1948-1982)، فانتشرت ثقافة الخـوف في مقـولات روّج لها بعـض الزعماء اللبنانيين: (**قوة لبنان في ضعفه**)، و(**الصداقات الدولية، هـي التـي تحمـي**

لبنان) من العدوان الإسرائيلي المتكرر، ويرى الباحث أن هذه المقولات، ثبت بُطلانها بعد أن فقد لبنان أجزاء واسعة من أراضيه الجنوبية. وهكذا **تصدّت المقاومة اللبنانية الوطنية، بالتحالف مع المقاومة الفلسطينية، وسوريا**، لثقافة الخوف، فتحقق (الانتصار اللبناني – 2000)، حيث خرج جيش إسرائيل، هارباً مع ذيله اللبناني (جيش لحد)، وأسباب هذا النصر كثيرة، أهمها، صلابة **تحالف (المقاومة – الشعب – الدولة)**، فأصبح هذا الانتصار ورقة ضاغطة في المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، وأصبح ورقة مؤثرة في الانتفاضة الفلسطينية الثانية. إنها **(لُعبة المساطر)**، فالمقاومة اللبنانية نشأت بتأثير المقاومة الفلسطينية في لبنان، وتسلّمت الراية منها، مستفيدةً من أخطاء الثورة الفلسطينية، لتعمّق نوعية المقاومة. وهكذا تأثرت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، بالنموذج اللبناني المقاوم، لتخلق ما يُسمّى بِ (توازن الرعب) مع دولة العدو. ثمّ يقول الباحث بأن **(مطلب نزع سلاح المقاومة)، هو مطلبٌ إسرائيلي بالكامل**، لأن إسرائيل تخشى هذا السلاح، الذي قادها إلى الهزيمة الأولى، ولذلك يقرر **مسعود ضاهر، المؤرخ والمفكر اللبناني المعروف** في بحثه ما يلي: (لبنان مطالبٌ اليوم، بالاحتفاظ بسلاحه المقاوم، إلى حين الوصول إلى حلّ عادل وشامل لمسألة الصراع العربي – الصهيوني، وليس من الحكمة أن يتخلّى اللبنانيون عن هذا السلاح، الذي أثبت كفاءة عالية، فليس هناك ما يؤكد أن إسرائيل، تخلّت عن العدوان على لبنان). وهكذا، فإنّ (لبنان الجديد)، حسب الباحث، هو الذي يتخلى عن ثقافة الخوف، فالتجربة أكّدت أن تحالف الثلاثي: (المقاومة – الشعب – الدولة)، بصياغة خطة وطنية لبنانية استراتيجية، هو الذي يحمي لبنان، ولا تحمي لبنان، ثقافة الخوف: (قوة لبنان في ضعفه)، أو (السفراء الأجانب)، أو (الأمم المتحدة).

- أمّا، **الأستاذ فاروق بوزكوز (تركيا)**، فيقرأ ثقافة الخوف في علاقتها مع الديمقراطية في منظور الروائي عبد الرحمن منيف في (شرق المتوسط)، و(الأشجار واغتيال مرزوق) وغيرها، حيث يقرر الباحث أن دول الشرق الأوسط، ترفع شعارات الديمقراطية، لكنها تمارس عكس ذلك. وهو يرى أن منظور عبد الرحمن منيف إلى (الأديب)، يؤكد أهمية دور المثقف في مجتمعات العالم الثالث، فهو شريك أساسي في عملية التغيير. **فالمثقف ليس بديلاً من الحزب السياسي، كما أنه ليس مجرد صدى لهذا الحزب، ولهذا يجب أن يكون له موقف نقدي**. ويشير الباحث الأستاذ فاروق

بوزكوز إلى أسماء روائية عالمية، عالجت الرواية السياسية، مثـل: دوستويفـسكي، تولستوي، ديكنز، أورويل، جاك لندن، الشاعر بوشكين، ياشار كمال، أورهان بـاموق (الروائي التركي الحائز على نوبل، 2006)، وغيرهم. كذلك يـشير إلى عـدد مـن الروائيين العرب الذين عالجوا الموضوع السياسي في رواياتهم. ثمّ يـدرس الباحـث المجتمع العربي من منظور عبد الرحمن منيف، الذي يرى أنّ (**عدداً مـن الكيانـات القطرية العربية، مصطنعة، نشأت نتيجة الصدفة، أو نتيجة الأطمـاع الاسـتعمارية، وبالتالي، فهي قابلة للزوال، بزوال أسباب نشوئها**)، أي أنهـا غيـر قـادرة علـى الاستمرار. كما يقرأ الباحث منظور منيف من زاوية (**أدب السجون**)، حيـث يـصف منيف الشرق الأوسط، بأنه (**سجن كبير**)، ولهـذا تنتـشر مظـاهر اللاديمقراطيـة، والديمقراطية الزائفة. وهكذا يلجأ الروائيون إلى الرموز، والإيماءات المجازية، أو إلى أقنعة التاريخ. لهذا وقف عبد الرحمن منيف ضدّ الخوف، حين طالب بالديمقراطيـة، ورسم الحلّ على النحو التالي: **أولاً**: ضرورة الاعتراف بالآخر، اعترافاً فعلياً وواقعياً. **ثانياً**: الحقيقة ليست كتلة صلبة، يحتكرها طرف أوحد. **ثالثـاً**: لابدّ أن يكون الاعتراف المتبادل، متكافئاً، ونديّاً، يستند إلى الاحترام المتبادل. ويخلص الباحـث بوزكـوز إلى القول: (هناك قوّة بلا ضوابط، لذلك فإن الذين يعيشون ثقافة الخوف، يبتعـدون عـن جوهرهم الإنساني. لهذا لابدّ من التصدّي لمشكلة الخوف، مثل: فضح ظاهرة الـسجن السياسي، وأنْ تتم عملية مُساءلة الجلاّدين ومحاكمتهم).

ثقافة الخوف...

وآليات صناعة التغيير بين الداخل والخارج

محمد صالح المسفر

جامعة قطر

مقدّمة:

تأخذ هذه الدراسة من العلاقة الجدلية بين الإنسان الفرد، والثقافة السائدة في البيئة السياسية والنفسية في المجتمعات العربية، نتيجة عمليات القهر والتخويف من قبل **الأنظمة العربية**، لمنع احتمالات التغيير، وبين عمليات التخويف المتصاعدة من **الدول الغربية** تجاه المجتمعات وأنظمة الحكم العربية، بالغزو والاحتلال والتعذيب والجوع، لإحداث التغيير وفق نمط آخر – إشكالية لها. وترى الدراسة أن المجتمعات العربية واقعة في المرحلة الحالية، تحت حالة ضغط مزدوجة من (**التخويف**) أولها موجه من قبل أجهزة الدول في الداخل، حتى لا تتجرأ الشعوب على التغيير، وثانيها من قبل الدول الغربية التى تضغط على المجتمعات وعلى الحكومات العربية (معا)، لإحداث تغيير في المجتمعات و أنظمة الحكم، باتجاه تغيير النمط الثقافى للمجتمعات، ولتنصيب أنظمة حكم اشد موالاة للغرب، ليست معارضة له، أو متمنعة عن تنفيذ كل طلباته دفعة واحدة. وتستنتج الدراسة أن استخدام **التخويف، كآلية** من قبل أجهزة الدول من خلال آليات القمع لمنع حدوث التغيير في أنظمة الحكم، واستخدام التخويف كآلية من قبل الدول الاستعمارية لإحداث التغيير في المجتمعات العربية وأجهزة الدول –من خلال عمليات الغزو والاحتلال والتعذيب والقبض على القادة –لم يحدث التغيير المستهدف في المجتمعات العربية، وان المحصلة عمليا تأتي عكس المحصلة المستهدفة من أجهزة الدول في الداخل، ومن الدول الاستعمارية وباتجاه تحدي الخوف وثقافته، وان التغيير يجري في المنطقة باتجاه مختلف عن أهداف كلا الطرفين المستخدمين للخوف كآلية للتغيير. وذلك بسبب الأبعاد الحضارية المشكلة للفرد والمجتمعات العربية والإسلامية.

*　　　*　　　*

– الخوف شعور انسانى كامن في النفس الإنسانية. وقد أثيرت مشاعر الخوف في نفوس المقاتلين، خلال الصدامات المسلحة منذ المراحل الأولى في التاريخ الانسانى،

عبر استخدام الأصوات البشرية المجمعة والنيران والحيوانات الضخمة في المعارك، لإفقاد المقاتلين في الطرف الآخر، روح الشجاعة وعوامل القوة النفسية، وإضعاف إرادتهم على القتال، ودفعهم إلى اليأس من إمكانية تحقيق النصر على هذا "العدو المرعب".وتشير الدراسات والأحداث التاريخية إلى توسع استخدام مشاعر الخوف في التأثير على النفس البشرية مع تشكل الأنماط الأولية من التنظيم في التكوينات الاجتماعية لتثبيت سلطاتها، حيث جرى استخدام التهديد وعمليات التعذيب والقتل للأفراد الخارجين على سيطرة وعادات وتقاليد ومفاهيم تلك التكوينات في تلك الأزمنة، إذ شهد التاريخ تعذيبا –وقتلا– لأنبياء، ورسل، وعلماء، وفلاسفة، حاولوا التقدم بالبشرية إلى أنماط جديدة من الاعتقاد والتفكير والعلم والنظام الاجتماعي الأكثر تطورا وتقدما، لإكراههم على التخلي عن أفكارهم المخالفة للفكر والعلم السائد في هذه المجتمعات. غير أن ظاهرة الخوف، لم تتبلور كعامل من العوامل المؤثرة في صناعة القرار السياسى إلا في عام 1793، عندما وظفها بعض **فلاسفة الثورة الفرنسية**، أمثال روبسبير وسان جيست وكوثون وغيرهم على نطاق واسع.فقد عرفت الفترة من مارس عام 1793 حتى يوليو عام 1794، بعهد الإرهاب أو عهد الرهبة، وتم خلالها قطع رؤوس 40 ألف شخص بالمقصلة، واعتقل 300 ألف شخص آخر" [1]. وإذا كانت **الولايات المتحدة**، هي الأكثر استخداما للخوف كآلية لإحداث التغيير في المنطقة العربية حاليا، "فان من يرغب في فهم سياسة الولايات المتحدة اليوم وغدا، عليه الرجوع إلى خلفياتها وتقاليدها التاريخية " [2] حيث ترجع الأصول والخلفيات الأولى في استخدام الخوف محركا ووسيلة لإخضاع "وترويض " وتغيير السلوك الانساني للمجموعات العرقية، في نمطها الأكثر وضوحا مع نشأة الولايات المتحدة –وهو ما أصبح جزءا من ثقافة السلوك تجاه المجتمعات الأخرى فيما بعد –حين اعتمد الخوف نظرية في "**ترويض العبيد**" كما شرحه احد اكبر ملاك العبيد (وليم لانش) خلال محاضرة له في ملاك العبيد حين قال لهم: "**استخدم أكثر الزنوج عنادا واخلع عنه ملابسه أمام الزنوج الذكور الآخرين وأمام النساء والأطفال واطله بالقار، وضع عليه ريش، واربط كل ساق له بحصان يتجه عكس الحصان الآخر، ثم اضرب الحصانين لتشطره أمام الزنوج الموجودين، والخطوة الثانية أن تمسك بسوط وتضرب الزنوج الباقين حد الموت أمام النساء والأطفال، لا تقتلهم، ولكن اجعلهم يخافون، لأنهم يمكن أن يكونوا مفيدين في استولاد الأطفال بعد ذلك** "[3] وقد

شهدت المرحلة الحالية من عمر البشرية وتشهد استخدام مشاعر الخوف الانساني على نطاق واسع كآلية ودافع، لإحداث تغييرات ثقافية وسياسية واجتماعية داخل المجتمعات من قبل أجهزة الدول ومن قبل دول تجاه مجتمعات أخرى، حيث تجري إخافة مجتمعات كاملة وإدخال الرعب في نفوس مواطنيها ومؤسساتها، للنيل من روحها المعنوية، وإضعاف إرادتها على المواجهة، وإجبارها على تقديم تنازلات للطرف الذي يتمكن من تسييد ثقافة الخوف في داخلها منه، كآلية لإجبارها على التماهي مع ثقافته ومطالبه. وقد جاءت هذه النقلة في التوسع في استخدام الخوف كآلية لتغيير المجتمعات بالترابط مع التطور الحادث في الوسائل القتالية التي أصبحت اشد فتكا وتدميرا بما يحدث تأثيرا بالغا على النفس الإنسانية، وفي وسائط الإعلام التى باتت تخترق الحدود والأجواء والعقول وعلى مساحة كل الفئات في المجتمعات، لتضاف قوة هائلة للخوف كآلية للتغيير في المجتمعات إلى جانب النمط الأكثر استخداما من قبل من تركيز لنشاط التخويف على الجنود خلال المعارك وعلى الأفراد في المعازل والمعتقلات، وبما أنتج حالة من "ثقافة الخوف" لدى هذه المجتمعات المتلقية للحالة التخويفية التى تشن ضدها على مستوى الفرد والجماعة، إذ تكاملت منظومة تأثير الخوف، لتشمل خوف المواطن من عمليات المداهمة والتعذيب في وطنه وعمليات الخوف من الغازي الخارجي ولتتشكل منظومة متكاملة من ثقافة الخوف.

تعيين المصطلح:

"الخوف مشكلة وجودية وتاريخية، لم تقتصر على الإنسان وحده، بل شملت كل الكائنات الحية، وأي كائن حي وخاصة الإنسان – موضوع دراستنا – تتجاذبه منذ اللحظة الأولى لبدء حياته، مشكلة وجودية، على غاية من الأهمية، مكوّنة من نقيضين: أ- البقاء (الحياة)، ب- الفناء (الموت)"(4). ويقصد "بثقافة الخوف" تحول الخوف من ظاهرة إنسانية نفسية فردية، ومن حالة اضطرارية طارئة في حياة المجتمعات خلال مواجهة كوارث الطبيعة أو أثناء العمليات الحربية، **إلى دافع ومحرك في كل مجالات الحياة داخل المجتمع، و كنمط من أنماط تغيير المجتمعات، بعوامل من خارجها، ناتجة عن تأثير الخوف من مجتمعات أخرى.**

ففى داخل المجتمعات الحديثة، **أصبح الخوف دافعا مستديما في النشاط الانساني**، سواء أكان خلال ممارسة الإنسان "لعمله" أو لمنع أية عملية تغيير سياسى في داخل المجتمع ككل، كما هو أصبح في حالات أخرى **محركا** لعمليات **التغيير** من خارج المجتمعات، التي تتعرض إلى أنماط مكثفة من التخويف، تستهدف دفعها إلى التماهى مع مطالب الطرف "المخوف " عبر تحويل الخوف إلى ثقافة عامة دائمة داخل النسق القيمي والسلوكي من أهوال ونتائج رفض مطالب الطرف المخوف.

وقد ارتبط هذا التحول في استخدام "الخوف"، كنمط ثقافى داخل المنظومة القيمية، كمحرك ودافع دائم ونمط سائد في داخل المجتمعات مع التحول من الإقطاع إلى النظام الفردى الراسمالى وبشكل خاص مع ظهور مدارس الإدارة الحديثة، "ففي الإدارة الحديثة، استخدم الخوف كمحرك لأنه من السهل تطبيقه، والرمح الموجه إلى الظهر هو الضغط المادي، وفرض المهام، وتهديدات الوقت الإضافي، وإقحام شريك في العمل، والتلويح بخطة الاستغناء، وفرض نطاق معين من الحرية في القيام بالعمل."[(5)]

كما أصبح **الخوف آلية ومحركا لتغيير المجتمعات من الخارج**، حيث "الحركة يمكن توليدها من الخارج ويمكن تنفيذها بنجاح طالما ظل التهديد متواجداً."[(6)]، ومن ثم أصبح الخوف كآلية داخل نظم الإدارة في المجتمع، كما تحول إلى عمل سياسى واعلامى مخطط يتحول بنتيجته مجتمع كامل – أو مجتمعات كاملة– إلى حالة دائمة من الخوف من الخصم الجبار الساحق المرعب الذي لا يمكن مواجهته، في عملية جدلية معقدة تؤدى إلى قبول إرادة الخصم وتقديم تنازلات سياسية له نتيجة الشعور بالدونية والضعف أو الخوف والى تقليد القاهر في " امتثالية تصل حد التماهي بالأقوى، ويؤدلج هذا السلوك تحت أقنعة أخلاقية أو عقائدية (سياسية أو دينية) تعطي مبرراً لهذا السلوك، وتغطي ظاهرياً على حالة الخوف الداخلي المتفاقم حد الرعب، والرهاب النفسي والسلوكي"[(7)]

والخوف يختلف عن الإرهاب، حيث أنّ الإرهاب – أيا كان مصدره وبوضع الفارق بينه والمقاومة في الاعتبار– هو أحد وسائل تحقيق الخوف أو احد وسائل إشاعة ثقافة الخوف، "فالإرهاب يستخدم العنف أداة ليس لإلحاق الأذى بالضحية، إنما لتوظيف الأذى في ممارسة ضغط معنوي على جهة أخرى"[(8)] وإنْ كان الاثنان مترافقان منذ الأزل.

يأتي استخدام مصطلح "ثقافة الخوف " للتعبير عن توسع مضمون الخوف وتحولـــه إلى نمط قيمى يحكم سلوك الفرد خلال نمط حياته، وفي مواجهة أجهزة الدولة والمجتمع في مواجهته مع الخارج، وذلك ضمن ما شهدته الدراسات والبحـــوث الـــسياسية خـــلال الآونة الأخيرة من توسع في نسبة مصطلح "ثقافة" إلى مصطلحات أخرى، لتوسيع صـــفة التعبير ومساحة الشمول للمعنى، وللتشديد على تعدد مجالاته، فظهر مـــصطلح "**ثقافـــة الديموقراطية**"، تعبيرا عن تحولها من ثقافة سياسية لدى النخبـــة الـــضيقة إلـــى حالـــة جماهيرية في مواجهة نمط ديكتاتورى أو شمولى في الحكم، وأصبح مـــصطلح "**ثقافـــة المقاومة**"، تعبيرا عن تحول المقاومة من ظاهرة مسلحة إلى نمط تـــشارك فيـــه فئـــات جماهيرية واسعة وباليات أخرى، كالمقاطعة ومختلف أشكال الاحتجاج، بديلا من حالـــة المقاومة العسكرية التى تقوم بها مجموعات منعزلة، ومـــصطلح "**ثقافـــة الاستـــسلام**"، لتوصيف محاولة نشر الهزيمة في صفوف المواطنين، وجعلها ضمن المكـــون النفـــسى والقيمى في المجتمع، و"**ثقافة العمل الحر**"، تعبيرا عن سيادة نمط قيمي يعلي مـــن نمـــط العمل الفردى ويعضد مناخ المشروع الخـــاص بـــديلا لـــنمط العمـــل فـــي الـــدووراين الحكومية..الخ.

يأتي استخدام مصطلح "**ثقافة الخوف** " في معظم الأدبيات والكتابات كحالة توصيف وكشف لنمط سلبى من الممارسات السياسية والثقافية والعسكرية، وعلـــى نفـــس نمـــط استخدام مصطلحى (ثقافة الهزيمة، وثقافة الاستسلام)، وذلك في حالة مختلفة عن نمـــط استخدام تعبير **ثقافة المقاومة**، الذي يأتي ليشير إلى حالة ايجابية قائمـــة علـــى توســـيع وتعميق ظاهرة المقاومة.(9)

أدبيات ربطت الخوف بالتغييرات السياسية

ما يزال تعبير ثقافة الخوف جديدا على الاستخدام الموسع في الأبحاث السياسية من زاوية تخصيص دراسات مكرسة له، وهو إذ نال في الفترة الأخيرة قدرا مـــن الاهتمـــام من قبل الكتاب والصحفيين أكثر من الباحثين في العلوم السياسية، فقد لامست العديد من الدراسات والأدبيات التى لامست هذه القضية من زوايا متعددة:

* ففى دراسة حول **صناعة "ثقافة الخوف"** في **تونس**، لأجل شل قـــدرة الـــشعب علـــى التغيير، قدم **عبد الرؤوف العيادي**، دراسة متميزة حول صناعة الخوف والترهيـــب،

تناول فيها دور الأدوات الأمنية والقانونية والقضائية والإدارية والحزبية في تونس في صناعة الخوف مع ادعاء التغيير في الظاهر الدعائي والسياسي لتغليف الخوف.الباحث شدد على ارتباط نشأة أجهزة البوليس السياسي بالحقبة الإستعمارية، وإلى طبيعة الدور الذي كان يقوم به في قمع الوطنيين، والى تحول ذلك إلى فلسفة في التعامل مع المواطن (المعارض)، الذي أصبح عدوا يتعيّن تحطيمه معنويا، وإيذاؤه ماديّا، وقد يصل الأمر إلى تصفيته والقضاء عليه.(10)

* وحول إشكالية الاستعصاء الديموقراطى في الوطن العربى، قدم **عبد النور بن عنتر** رؤية تحليلية للحجج والمبررات، التي ساقتها أجهزة الحكم في الدول العربية لتأجيل الأخذ بالديموقراطية.الباحث حدد الأسباب الحقيقية لغياب الديموقراطية، وحالة استعصاء التداول السلمى للسلطة، كما تناول بالبحث والتحليل التجارب الديموقراطية المزيفة، باعتبارها محاولة لحل مشكلات السلطات لا الجمهور حيث خرجت الدولة التسلطية منها بلا تغيير.وعالج الباحث حالة الازدواجية بين نمط ليبرالى في الاقتصاد ونمط تسلطى في الحكم، مشددا على انه لا تنمية اقتصادية سليمة مع استمرار الظلم وعدم الاستقرار السياسى، كما ربط الديموقراطية بالعدالة الاجتماعية.وتوصل الباحث إلى أن الاضطرابات التى شهدتها الدول العربية في الآونة الأخيرة تعبر عن نقلة نوعية في علاقة السلطة بالمجتمع، باعتبارها تشير إلى نهاية عهد الاذعان الاجتماعي المفروض قهريا.(11)

* وحول علاقة سلطات الدولة الوطنية مع النظام والعلاقات الدولية الجديدة في ظل العولمة، إلى جانب فرض "الديموقراطية"، درس **حسن محمد سلامة**، أثر العولمة على تطور النظام السياسى في داخل الدول الوطنية في ضوء الحديث عن تراجع دور الدولة وفقدها لسيادتها. ويشدد الباحث على أن الوجه السياسي للعولمة تمثل في سقوط الشمولية والسلطوية، وفي النزوع المقابل إلى الديموقراطية، وعلى أن الدول لم يعد أمامها من سبيل للانضمام للمؤسسات الدولية والتجمعات، إلا بالتحول إلى الديموقراطية، والى أن العولمة باتت تفرض النظام الديموقراطي على جميع الدول.(12)

* وحول سياسة القوة في المشروع الامريكي، قدم **احمد فاروق عبد العظيم**، دراسة متميزة –فى إطار مفاهيم الفلسفة السياسية –للرؤية الأمريكية لدور القوة في صناعة

التغيير في العالم.تناول الباحث الأطروحات الأمريكية، مشيرا إلى أن خطاب القوة الامريكي ضعيف، ولا يمكن قبوله أو حتى تبريره في إطار المنظور الليبرالي، وحدد الباحث مصادر وأبعاد القوة الأمريكية، مشيرا إلى أن الأمريكيين يرون العالم مقسما بين الخير والشر، وأنهم في المواجهات يفضلون الإكراه على الإقناع، ويؤكدون على العقوبات بدلا من الإغراء ويشددون على العصا بدلا من الجزرة.[13]

* "تغيير الثقافة باستخدام السياسة: الولايات المتحدة وتجربة العراق" عنوان اختاره الباحث المتميز **حسن الحاج علي أحمد**، ليدرس العلاقة بين فعل الاحتلال كمقدمة لإعادة صياغة التركيبة الثقافية والاجتماعية في المنطقة العربية، لتفضي بدورها إلى تحولات سياسية، إذ درس تجربة احتلال العراق، وحلل أهداف الغزو والاحتلال، مقدما هدف التغيير الثقافي في أهداف الاحتلال على مجمل الأهداف الأخرى (البترول خاصة)، كما هو، اعتبره الأساس لإحداث التغييرات السياسية المستقبلية. الباحث درس أهمية **البعد الثقافي** في صياغة المجتمعات على البعد السياسي، في رؤية مقارنة بين تجربتى احتلال اليابان والعراق، كما ناقش محدودية النظرة للثقافة باعتبار الدين عاملها الوحيد أو الأكبر تأثيرا، كما فعل **فوكوياما**، باعتبار أنّ **الشيوعية والاستعمار**، اللتين أثرتا في أحداث العالم، لم تكونا ظاهرتين دينيتين، كما ناقش أطروحات ودور المحافظين الجدد في الولايات المتحدة.وخلص الباحث إلى أن الولايات المتحدة ترمي من غزو العراق إلى تحقيق عدة أهداف، أهمها التأثير في البيئة الثقافية والاجتماعية للعراق، ومن ثم الوطن العربي، في تكاتف بين استخدام **القوة الخشنة، والقوة الناعمة**، لتغيير الثقافة السائدة ومحاولة تغييرها من أعلى، وذلك بالإضافة إلى الأهداف الأخرى المتعلقة بجعل إسرائيل صاحبة الكلمة الفاصلة في شكل ومحتوى السلام في المنطقة، وتكريس فكرة قيام الولايات المتحدة، بتجاوز قرارات الأمم المتحدة حال تعارضها مع مصالحها، والتحكم في النفط الذي وضعه في الترتيب الرابع لأهداف الغزو.[14]

* وفي محاولة متميزة لدرس الأصول والجذور الفكرية للاستراتيجية الأمريكية، ودور القوة فيها كآلية رئيسية دوما، قدم **شريف دولار**، تحليلا للتطور التاريخي للهيمنة والسيطرة الأمريكية، وصل نتيجة له، إلى أن الخريطة الإيديولوجية الأمريكية الراهنة ودور القوة، واستخدام الخوف كآلية مرتبط بالجذور والأصول الممتدة عبر

تاريخ الولايات المتحدة، باعتبارها دولة قامت على كارثتين، أولهما إبادة حضارة كاملة (**الهنود الحمر**)، وتخريب أفريقيا (**تجارة العبيد**) بالقوة والقهر، وأن التيار المحافظ الجديد في الولايات المتحدة، والمتحالف مع اليمين الديني، هو نتيجة حتمية للأصول والجذور في الفكر الأمريكي تاريخيا، كما استنتج أن، **وجود عناصر مشتركة بين الأصول الفكرية للاستراتيجية الأمريكية، ونظيرتها الإسرائيلية في ممارسة القوة على مستوى الشرق الأوسط، يعود إلى الجذور المشتركة لا المصالح فقط.**(15)

أهداف الدراسة وتساؤلاتها:

تأخذ هذه الدراسة من تعدد وتصاعد أنماط التخويف للمواطن العربى من الداخل والخارج، ومحاولة تسييد ثقافة للخوف في المجتمعات العربية، لتتحول إلى نمط قيمي وسلوك ثابت، إشكالية لها.

وتسعى الدراسة إلى تفحص أشكال التغير في الممارسات الداخلية من قبل أجهزة الدول للتأثير على موقف المواطن والمجتمع من مسالة التغيير في ضوء الضغوط الخارجية الحادثة على الدول، كما تسعى إلى تفحص مضمون الممارسات والرسالة العنفية والإعلامية والسياسية، الموجهة من الغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة خاصة للحكومات من أجل تغيير نمطها المؤسسي في الداخل وسلوكها السياسى الخارجى، كما تسعى إلى تفحص التأثيرات المحتملة لرسائل التخويف الموجهة من الخارج للفرد والمجتمعات العربية، ممثلة في العودة إلى الاحتلال بالقوة العسكرية، وممارسة العنف ضد القيادات الرافضة للاحتلال، وعمليات القبض عليها، وعملية الكشف المخططة عن جرائم التعذيب وغيرها. كما تسعى الدراسة إلى تلمس النتائج المحتملة لكلا النمطين من وسائل التخويف، وما إذا كان نمط جديد عميق من ثقافة الخوف، بدأ يتولد في المجتمعات العربية أم العكس.

وتحاول الدراسة إزاء ذلك، الإجابة عن أسئلة أربعة كبرى:

1- ما مدى قدرة استمرار **عمليات التخويف والترهيب والتعذيب الداخلي** على تشكيل نمط قيمي مستمر في المجتمع، قائم على ثقافة الخوف، لمنع ووقف محاولات تغيير النظم المستبدة ؟

2- وما مدى تأثير **عملية التخويف الجارية من الخارج على النظم العربية**، وهل نجحت في تغيير سلوكها السياسى تجاه الثوابت الخارجية وتجاه الشعوب في الداخل؟

3- وما مدى تأثير عملية التخويف الخارجى على المجتمعات العربية، أو تأثير استخدام الخوف، **كآلية لتغيير النمط الثقافي والقيم الثابتة في هذه المجتمعات** في مواجهة الخارج.

4- وما هي نتيجة **تضاد الأهداف** خلف فعل التخويف الداخلي، لمنع التغيير وفعل التخويف الخارجى من أجل التغيير، في وقت تتضاد فيه مصالح المجتمعات مع أهداف المخوفين من الداخل والخارج ؟

5- وما مدى **قدرة النمط القيمي الحضاري** السائد في المجتمعات العربية والإسلامية **على مواجهة الثقافة المستحدثة**، تحت الضغط و التخويف لتغيير النمط القيمي والسلوكى والثقافى في المجتمعات العربية والإسلامية من المقاومة إلى التماهى مع مطالب الخارج؟.

أهمية الدراسة ومبرراتها

تأتى أهمية الدراسة من جدة الموضوع على صعيد الأبحاث في المكتبة العربية، حيث لم يجر تناول وتحليل النتائج المحتملة لاستخدام "التخويف كآلية" لمنع التغيير الداخلي، و"دافع "من الخارج في المرحلة الراهنة، لإحداث تغييرات ثقافية وسياسية في المجتمعات العربية. كما تأتى أهمية الدراسة من ضرورة التصدي البحثي، لحالة التناقض البادية بين تصاعد وكثرة استخدام "إخافة" المجتمعات كآلية لفرض الاستسلام والهزيمة، وبين تصاعد عمليات التحدي والمواجهة والمقاومة بالسلاح، والقدرة على إحراز انتصارات في نفس الوقت. ويقتضى هذا الاهتمام البحثى ملاحظة مستجدات أنماط التخويف على مستويات متعددة:

- **المستوى الأول: التغير في أنماط التخويف الداخلى للشعوب، بقصد مواجهة التخويف الخارجى الواقع عليها لتغيير النظم، سواء بالتحايل على التخويف الموجه مباشرة للنظم أو بالقيام بعملية تخويف مضادة على الشعوب من مخاطر الاستجابة، والتماهي مع مطالب التخويف الخارجى وذلك لضمان استمرار النظم بلا تغيير.**

- **المستوى الثاني: التغير الحادث في نمط التخويف الخارجي للحكومات، سواء باستخدام آليات التخويف العسكرية من خلال التهديد بالغزو والملاحقة للقادة وتفكيك الدول، أو بمحاولة استخدام رغبة الشعوب في التغيير (نظرية الفوضى البناءة أو الخلاقة) لإخافة الدول والنظم وإكراهها على تغيير سلوكها السياسي.**
- **المستوى الثالث: العوامل المستحدثة في ممارسة التخويف الخارجي، التي ساهمت في التوسع والانتشار لفعالية وتأثير الخوف كآلية، ممثلة في تطور القدرة التكنولوجية المستخدمة لدى الجيوش والمستخدمة في أجهزة الإعلام، لا سيما الصورة من خلال أمثلة وممارسات عملية فعلية.**

منهجية الدراسة، وإجراءاتها:

للإجابة عن هذه الأسئلة الخمسة، تتبع الدراسة مجريات **المنهج التحليلي التاريخي المقارن،** بكل ما يقدمه هذا المنهج للباحث من عمق معرفي، وفهم للمحاور الأساسية للدراسة. فلا يتيح هذا المنهج **تشخيص** ظاهرة استخدام الخوف كآلية من حيث ما عليه الوضع **الآن** فحسب، وإنما يتيح أيضا تتبع **تطورات استخدامه والجذور الفكرية والتاريخية لنشاته وتطوره** عبر مراحله **وتطوراته** المتعددة لتحديد واستخلاص ثوابته. كما أنه يمكّن الباحث من الوقوف على **التأثيرات** الفعلية لاستخدام الخوف **وتطوراته ونتائجه** الممكنة، واحتمالات تطوره المستقبلي في ضوء الأبعاد والثوابت الحضارية في المنطقة العربية واحتمالات التغيير فيها. وستعامل الدراسة **الأسئلة الخمسة الكبرى، كوحدات تحليلية كبرى في إطارها التاريخي وتجسيداتها الواقعية** على صعيد القضايا العربية الرئيسية في الوقت الراهن خاصة قضيتي **العراق وفلسطين،** وليس كأحداث تاريخية متناثرة أو وقائع منفصلة عن سياقها في إطار الصراع الجارى حول الوطن العربي.

أولا: الجديد في آليات إشاعة ثقافة الخوف

عرفت المجتمعات البشرية منذ بداية تشكل أجهزة الدولة، استخدام عوامل القوة والقمع كأحد آليات السيطرة على المجتمعات والحفاظ على ثوابتها.واختلف بعضها عن

بعض في تقييد استخدام وسائل القوة والعنف والقمع بالقانون من عدمه.وكانت النظم الديكتاتورية بمختلف أنماط إيديولوجياتها وتوجهاتها السياسية، هي الأكثر اعتمادا على إشاعة الخوف وتحويله إلى ثقافة عامة شائعة لدى المواطنين في المجتمع من خلال وسائل خارجة على القانون لاستمرار سيطرتها على مقدرات الحكم في مجتمعاتها، من خلال وسائل التعذيب والقتل ومنع حريات الراى والتعبير، **الأولى** لإشاعة ثقافة الخوف في نفوس المواطنين من التعرض لمصير معلوم، **والثانية** لعدم ظهور منافذ ومنابر سياسية وإعلامية تبرز قدرا من تحدي "الخوف" وثقافته، وترسي أسسا للمواجهة والتغيير.

ولم تخرج الدولة القطرية في المنظومة العربية منذ الاستقلال وحتى الآن، مع اختلاف أنماط مؤسسات الحكم وفلسفاتها وطبيعة تشكلها والفئات المسيطرة عليها، عن قاعدة استخدام الخوف كآلية لاستمرآها في السيطرة على المجتمع وضمان بقائها في السلطة، مع الوضع في الاعتبار أن بعضها استخدم الخوف كآلية في مواجهة فئات مرتبطة بالاستعمار الخارجي، وأن بعضها الآخر استخدمه في مواجهة فئات ترفض الارتباط بالاستعمار وتنفيذ أهدافه ومطالبه. وإذ جرى تغيير في الوضع الدولى في المرحلة ما بعد نهاية الحرب الباردة باتجاه إفقاد الدولة الوطنية صلاحياتها السيادية السابقة مع ضغط خارجي بأدوات، وآليات متعددة لإدخال مناهج تعددية على أساليب الحكم في الدول العربية – **أخطرها التهديد بالغزو والاحتلال، وإطاحة النظم وتفكيك المجتمعات، وإشاعة القتل والإرهاب، كما هو الحال في العراق وأفغانستان** – فقد لجأت النظم العربية إلى أنماط أخرى من الوسائل لاستمرار ثقافة الخوف داخل المجتمعات، أو لاستمرار آلية الخوف في التأثير على النمط القيمي السائد في المجتمعات العربية، كان أهمها استخدام جماعات غير نظامية أو غير عاملة داخل سلك وظائف أجهزة الدول، كما في حالات الاعتداء على أفراد من المعارضين، واستخدام مجموعات من البلطجية خلال المواسم الانتخابية لتخويف المواطنين وإرهابهم من الذهاب إلى صناديق التصويت في الانتخابات، وكذا استخدام تشكيلات من "عصابات الموت" في عمليات القتل والترويع خلال حالات الاضطراب السياسي، وإلصاق الاتهام بمجموعات المقاومة المسلحة، أو بمجموعات المعارضة المسلحة الفاعلة ضد أجهزة الدولة. كما أن النظم العربية وفي مواجهتها للاستخدام المكثف من القوى الخارجية للخوف كآلية لإجبارها على تغيير

سلوكها السياسى الخارجى والداخلى، باتت هي الأخرى تستخدم نفس السلاح باتجاه المجتمعات لمنعها من تغييرها بتخويفها من الغرب على صعد مختلفة، كما هي باتت تستخدم نفس سلاح التخويف الذي يواجهها به الغرب في ضغطه عليها، لتحقيق قدر من الديموقراطية، تسمح للأكثر ارتباطا بالغرب في المجتمعات العربية بحرية الحركة والوصول للحكم، بإبراز القوى الأخطر على الغرب في المجتمعات العربية على ساحة الصراع السياسي الداخلي، لوضع الغرب في اختيار صعب بين النظم في ذاتها أو القوى المختلفة جذريا مع الغرب سياسة وثقافة.

1/1 الخوف والقمع الداخلى المبرمج

عقب حالات الاستقلال كانت الحالة النمطية لممارسة القهر في داخل الدول العربية –مثلها مثل مجتمعات العالم الثالث –تتمثل في قيام الأجهزة الأمنية مباشرة، وفي بعض الأحيان القوات المسلحة، بممارسة القهر والتعذيب لإنتاج حالة من الخوف داخل العقل الجمعي في المجتمع، لاستمرار نظم الحكم والفئات الحاكمة كما هى، حيث "تتم عملية تحويل التّرهيب والترويع إلى فلسفة رسمية للسلطة، قصد من ورائها كسر كل إرادة مخالفة والإخضاع النفسي للمواطن، وصولا إلى ترسيخ القناعة لديه بأنه لا جدوى من التّصدي للسلطة" [16]. وقد شهدت المجتمعات العربية أشكالا مختلفة من الحكم الجمهوري والملكي، وكلاها وعبر تقلباتها المتعددة كانت تحظى بموقف غربى مساند لها –فى المراحل التي ساد فيها نمط صراع الحرب الباردة–كان له اكبر الأثر في استمرارها ومنع محاولات تغييرها أو تطويرها، إذ "ليس هناك شك انه لولا تدخلات معاكسة من أوروبا وأمريكا طوال العقود الثلاثة الماضية، لكان الكثير من النظم العربية الحاكمة قد تغير جذريا ولكانت أكثر قبولا من مجتمعاتها الراى العام المحلى فيها"[17]. وفي ظل تلك الأحوال، ورغم دخول بعض مظاهر التعددية في بعض البلدان العربية في السبعينات، خاصة **مصر والأردن**، فقد ظل "من الصعب جدا أن تتمكن المعارضة من تشكيل حكومة، مما جعل التداول على السلطة أمرا مستحيلا (مثال مصر) وألا تلتزم السلطة، القبول بتشكيل الأغلبية البرلمانية من المعارضة للحكومة، (حال الأردن): إنها **الديموقراطية بحد السيف**" [18]

وإذ ظل الصراع حول الديموقراطية في المجتمعات العربية، وقوده قوى الـداخل، بينما الدول الغربية متضامنة مع الحكومات، التي تعمد الخوف آلية لمنع التغيير وقمعـه، فقد كان استخدام الخوف كآلية خارجية مقتصرا في ممارسته على الـدول التـى كانـت مواقفها السياسية متناقضة من المصالح الغربية، ودون قدرة من الغرب على تفعيل آليات الخوف إلى حالة مطلقة –كما جرى من بعد –بسبب ظروف وموازنات مرحلة الحـرب الباردة، وصراع القطبين الرئيسيين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

2/1 آلية إنتاج الخوف:طرق جديدة

وفي أعقاب **أحداث 11 سبتمبر 2001**، وأثر الرؤية الغربية، التي جـرى تناولهـا على نحو موسع بان أعمال الإرهاب ووالقمع الداخلى في النظم العربية والإسلامية، هـي المسئولة عن نمو ظاهرة **الإسلام المسلح** إلى درجة ضرب الأمن القـومي الامريكـي، وان الولايات المتحدة أخطأت، حين غضت الطرف عن ممارسات القهر والتعذيب التـى قامت بها الحكومات، جرى التحول إلى رؤية جديدة تقوم على استخدام كل سبل الضغط والتخويف لتغيير نمط السلوك السياسى للنظم العربية تجاه مواطنيها، ولإدخال أسـاليب ومناهج تعددية في الحكم، "إذ أن مثل هذه المجتمعات تفرخ المتطرفين والإرهابيين الذين يستهدفون الولايات المتحدة لتأييدها للنظم التى تحكمهم وأن الاستقرار القائم على التسلط وحده ليس سوى وهم، وهو شيء لا يمكن تحقيقه في نهاية المطاف" (19).

ووفق تلك الرؤية بدأت الدول الغربية في ممارسة أنماط من التخويف على الـنظم، من خلال تهديدها بالغزو والاحتلال والقبض على الرؤساء ومحاكمتهم وبإثارة الـشعوب ضدها لإسقاطها وفق نظرية "الفوضى الخلاقة ".وقد جاءت عمليـات التخويـف هـذه مشمولة بتخويف النظم كذلك من مخاطر الحركات الإسلامية المسلحة عليها هي نفـسها "إذ أعلن جورج تينت أن الولايات المتحدة تقدم مبادرة استراتيجية لـدعم الديموقراطيـة والاصلاحات السياسية في العالم الاسلامي، والا فإنّ الدول العربية ستكون معرضة إلى هجمات من القاعدة وغيرها من المنظمات " (20)

وفى مواجهة استثمار الولايات المتحدة لرغبـة الـشعوب فـي الديموقراطيـة، وتشهيرها بالنظم، وبسبب خوف النظم من حالات الغزو العـسكرى فـي الآن ذاتـه، اندفعت النظم إلى القيام بخطوات باتجـاه إدخـال أشـكال مظهريـة مـن الممارسـة

الديموقراطية، استجابة **"لآلية الخوف من الخارج، وبهدف التغطية والحفاظ على حالة الشمولية التى كرستها طوال العقود السابقة دون تغيير.** وقد جرت انتخابات تعددية في بعض البلدان العربية حرصت أجهزة الدول خلالها على عدم التدخل السافر المعتاد – تحت ضغط آليات المراقبة الخارجية للانتخابات –لكنها بالمقابل قامت بالاستعانة بمجموعات من محترفى الإجرام **(البلطجية)**، لتخويف الناخبين من الإدلاء بأصواتهم، وتخويف القضاة ولجان الرقابة من الاعتراض على التزوير أو رصد وقائعه، كما جرى استخدام مجموعات من أجهزة الأمن بالملابس المدنية، للعمل على **إشاعة ثقافة الخوف لدى جمهور المواطنين** من التغيير، في الوقت الذي شنت فيها **حملة "تخويف " للجهات الغربية من وصول الإسلاميين إلى الحكم**، إذا ما جرى تطبيق آليات الديموقراطية وفق الشروط المطلوبة غربيا. ففى **(مصر)** التى جرت فيها واحدة من أهم الانتخابات البرلمانية وسط أجواء "نموذجية" لتلك الحالة بكافة أبعادها، فمن ناحية جرى استخدام مجموعات من البلطجية على أوسع نطاق "إذ إنّ (الإخوان المسلمين)، حققوا نجاحهم هذا في مواجهة حالة خطيرة من استخدام سلاح البلطجة وسلاح المال في مواجهة مرشحيها، إضافة إلى عمليات التزوير والتلاعب في جداول الانتخابات وتحويل قيد مواطنين بالآلاف من دوائر لأخرى..الخ.(21)، ومن ناحية أخرى وربما الأهم والجدير بالملاحظة بالتأمل، هو أن ثقافة الخوف التى حاولت الإدارات الغربية استخدامها كآلية للتغيير في نمط السلوك السياسي للأنظمة العربية، جرى استخدامها في هذه المعركة الانتخابية بشكل عكسي لتخويف الغرب من قدوم الحركات الإسلامية الأكثر عدائيةً للولايات المتحدة من خلال صناديق الانتخاب، حيث يرى بعض المحللين أن إحراز الإخوان لنتائج انتخابية غير متوقعة في الانتخابات، لا يعود فقط إلى فشل النظام في منعها أو فقط بالنظر إلى أشكال الرقابة على الانتخابات، ولكن تقف وراءه أيضا، محاولة لتخويف الدول الغربية من نتائج ضغوطها لتغيير النظم باستحضار الخصم الرئيسى للغرب من خلال صناديق الانتخاب.

غير أن ثمة وجه آخر لاستخدام الخوف "كآلية " لمنع التغيير الداخلى، ظهر بكل واضح في **(الجزائر)** عقب إلغاء نتائج الانتخابات ووسط الاضطرابات التى شهدتها البلاد وأحداث العنف حيث "هناك إعدامات تمارسها فرق دولة، تختفي وراء قناع مكافحة الإرهاب"(22) و"اختراق الجماعة الإسلامية المسلحة من طرف **مخابرات النظام**،

وأن العمليات التى تنفذها موجهة عن بعد، وأنه عندما تزول أهداف تلك العمليات تتوقف الجماعة عن النشاط دونما اى مصالحة وطنية"[23]، وهو ما أثار حالة من الرعب، حيث "أن الجنون الدموى، أثار أحاسيس لم يسبق أن عرفها الإنسان. هي مزيج مـــن الخـــوف والغثيان"[24]، وذلك في نمط جديد على دور الدولة في المنطقة العربية.

ثانيا: الولايات المتحدة وتفعيل آلية الخوف لتغيير النظم والمجتمعات العربية

تشهد الحروب الاستعمارية عادة، أنماط متعددة من حالات استخدام الخوف كآليـــة لتحقيق الأهداف، سواء على صعيد الجيوش المتقاتلة أو على صعيد المجتمعات – التـــي تخوض جيوشها هذه الحرب – لإحداث تغيير شامل، وليس هزيمة الجيش المحارب فقط حيث " أن الاستعمار ليس عدوانا فقط، وليس ظاهرة سياسية عسكرية تأتي ثـــم تـــذهب منفردة، ولكنه مثل أي مؤثر اجتماعي تاريخى ذي فاعلية، يولد آثارا ويغير من أوضاع. وأن وجوده من شانه أن يغير من هيكل الأوضاع التى كانت قائمة قبل وجوده، فينهـــي عناصر قوة كانت موجودة وينهي أيضا عناصر ضعف كانت قائمة قبله"[25]

ومن ثم، فإذا كانت عمليات إشاعة الخوف في نفوس المقاتلين، تستهدف التأثير على عزمهم مباشرة على القتال أو مواصلته في ارض المعركة والوصول إلى حالة الهزيمـــة النفسية، وكذا، إذا كانت إشاعة الخوف في نفوس المواطنين خلـــف منـــاطق العمليـــات الحربية مباشرة تستهدف منع مساندتهم للقوات المسلحة لبلادهم في مناطق العمليات، فإن إشاعة الخوف في نفوس مواطني أي مجتمع، تهدف إلى أحـــداث تغييـــرات كليـــة فـــي المجتمعات وأجهزة الدول وقيادتها السياسية على اعتبار أن الحرب ليست إلا اســـتمرار للسياسة بوسائل أخرى. وهو أمر يتحدد حـــسب أهـــداف الحـــرب أو أهـــداف الدولـــة الاستعمارية التي تشن العمليات الحربية. وفي ذلك يتمـــايز نمطـــان، نمـــط الاســـتعمار والاحتلال الذي يستهدف تغيير النظم واستغلال واستنزاف الثروات ونمـــط الاســـتعمار الاستيطاني الذي يستهدف ابادة وتهجير أصحاب الأرض، وإقامة مجتمعات بديلة سكانيا وحضاريا محل السكان الأصليين، بما ينعكس على أهـــداف وأســـاليب اســـتخدام "آليـــة "الخوف. على صعيد النمط الأول من أهداف استخدام آلية التخويف، فقد شهدت الحـــرب العالمية الأولى والثانية، أنماطاً من إشاعة الخوف لدى المقاتلين خلال الحروب (الحرب النفسية)، كما شهدت نمط حاد من إشاعة الخوف في داخل المجتمعات من خلال القصف

المنهجي والمنظم للمدن والتركزات السكانية، وكذلك شهدت **حرب فيتنام** نمطا واسعا من إرهاب وتخويف السكان المحليين لوقف مساندتهم للثوار.وعلى صعيد النمط الثاني فقد شهدت الصراعات استخدام آلية الخوف وثقافته من خلال المذابح وعمليات الإبادة، بهدف تهجير السكان المحليين وابادتهم لإقامة تجمعات سكانية غربية محلها، كما في حالتي **جنوب أفريقيا** التي انتهت لصالح السكان الأصليين، **وفلسطين**، التي لا تزال المعركة حولها متواصلة، فيما يطلق عليه الاستعمار الاستيطاني.

والجديد، هو أن المرحلة الراهنة التي شهدت عودة إلى نمط الاستعمار القديم بالقوة العسكرية -كما هو الحال في **أفغانستان، والعراق** - قد شهدت توسعا وتعميقا في نشر وتعميم وتعميق ثقافة الخوف، واستخداما للخوف كدافع والية لإحداث التغيير في المنطقة العربية والإسلامية -حيث الخطة الأمريكية لاحتلال كلا البلدين ترتبط بخطة بناء الشرق الأوسط الكبير- من خلال الاستخدام الواسع للقوة العسكرية، وفق آخر تطوراتها التكنولوجية ولأجهزة الإعلام في مرحلة الفضائيات العابرة لكل الدول والقارات -وبشكل خاص للصورة- كما هو حادث الآن في العراق من نشر صور التعذيب في السجون والمعتقلات الأمريكية وفي معتقل جوانتنامو وقلعة جانجي بالنسبة لأفغانستان.كما تشهد هذه المرحلة توسعا في استخدام **ثقافة الخوف من الجوع، كما هو الحال في فلسطين**، ما بعد انتخاب حماس، وذلك إلى جانب الاستعانة المكثفة بالعناصر والمجموعات "غير النظامية " في النشاط العسكري والنفسي.

1/2 العراق: الخوف بين القوة العسكرية والصورة الإعلامية

لقد تميز النشاط الاستعماري الامريكي، بممارسة العنف على أوسع نطاق، إذ "مضى الزحف الامبراطورى الجديد من أول خطوة بالعنف"[26]، "وفي حين أن الامبراطويات السابقة مارست زحفها تسللا، فإن الإمبراطورية الأمريكية مارسته اقتحاما"[27]. ويعود ذلك إلى "أن الولايات المتحدة أقيمت على كارثتين لا مثيل لهما في التاريخ البشري، وهما **تدمير السكان الأصليين من الهنود الحمر، وتخريب أفريقيا بتجارة العبيد**، وهي السياسات المتسقة أيضا مع فكر ادم سميث الأب الروحي للرأسمالية، والذي أكد أن النجاح الأوروبي، تحقق بفضل التمكن من وسائل ثقافة العنف"[28]. وخلال العدوان الامريكي الأخير على العراق، قامت وزارة الدفاع الأمريكية

باختيار شعار "**الصدمة والترويع**"، أساسا لعملياتها العسكرية، بناءً على مذكرة كتبها **الدكتور هارلان أولمان**، المستشار في البيت الأبيض "بعنوان (**الصدمة والرعب** shock and awe)، وضعت أمام الرئيس الامريكي، يقول فيها بالنص: "على أن الولايات المتحدة أن تستعمل أقوى شحنة من القوة المركزة والمكثفة والكاسحة -بحيث تنهار أعصاب أي عدو يقف أمامها، وتخور عزيمته، قبل أن تنقض عليه الصواعق من أول ثانية في الحرب حتى آخر ثانية، ويتم تقطيع أوصاله، وتكسير عظمه وتمزيق لحمه دون فرصة يستوعب فيها ما يجرى له"[29]. كما جرى تفعيل نتائج هذا الشعار من خلال دعاية واسعة حول القدرة التكنولوجية الساحقة للجيش الامريكي، حيث صدرت تقارير إعلامية كرست لإظهار قدرات القنابل والصوارخ والطائرات بمختلف أنماطها وقدراتها على إنهاء الحياة تماما في مناطق القصف ودقتها في الرصد والإصابة، وذلك في تكرار متطور للسيناريو والدعاية التي، وجهت للجيوش والمجتمعات العربية من قبل حين جرى إطلاق صفة "الجيش الذي لا يقهر" على الجيش الاسرائيلى – الذي يقهر الآخرين بطبيعة الحال -للتأثير على معنويات الجيوش والمجتمعات العربية، وهو ما احتاج إلى عدة حروب لإثبات العكس، كما حدث في عام 1973. غير أن ثقافة الخوف أو توسيع قدرة "آلية الخوف" على أحداث تأثيرها التى كانت مرتبطة خلال الحروب السابقة في أداء دورها بالكلمة المطبوعة أو المنطوقة، أو في إشاعة "ثقافة" خوف من العدو – تساهم في إنفاذ أهدافه على أرض الدولة أو في داخل المجتمع – قد أضيفت لها قدرة هائلة في الحروب الأمريكية على العراق وأفغانستان، مع التوسع في استخدام دور الصورة وهو الأخطر في التأثير النفسى، ما بعد التليفزيون والفيديو والفضائيات والبث المباشر، وذلك بسبب تجسيد الصبورة للمشاهد وتكثيفها وارتباط تأثيرها بالعين البشرية بما تثير من تجسيد وخيالات داخل العقل البشرى.

فى بداية العدوان على أفغانستان، طرحت الإدارة الأمريكية شعار: (**من ليس معنا في الحرب فهو ضدنا**)، "وبدأت وزارة الخارجية بنقل رسالة الرئيس بوش إلى حكومة باكستان وطالبان -إما أن تكونوا معنا -أو أنكم ضدنا"[30]، بما مثل تخويفا من استخدام القوة العسكرية ضد نظامي الحكم في البلدين إذا لم تقفا مع الولايات المتحدة ضد القاعدة، وهو ما أثر على إرادة الدولة الباكستانية وغير توجهاتها تجاه حركة طالبان، التي كانت من قبل أهم حلفاء باكستان في المنطقة، دون أن يؤثر على إرادة حركة طالبان فشملها

العدوان على أفغانستان. وقبل بدء العدوان على العراق –بعد فشل آلية الخوف في كسر إرادة القيادة العراقية –ومع بدء الاستعدادات للحرب، وصلت رسائل تهديد وتخويف لنظم الحكم في الدول العربية، فكان هناك من استجاب (الحالة الأكثر وضوحا كانت **الكويت**)، وكان هناك من رفض (الحالة الأكثر وضوحا كانت **سوريا**). غير أن الأوضاع ما بعد بداية العمليات العسكرية، شهدت تفعيلا لآلية الخوف في اتجاهات أكثر اتساعا وحدة، فإذا كان استخدام الكلمة في التخويف يؤثر بالدرجة الأولى على النخب الفكرية والسياسية التى تدرك مغازى التهديد خاصة إذا جاء مبطنا، فإنّ الاهتمام بدء يتحول إلى استخدام الصورة باعتبارها الأشد تأثيرا على جمهور المواطنين في المجتمع لعدم الحاجة عند رؤيتها إلى تفسيرات أو فهم وإدراك عميقين.

لقد جرت وقائع الحرب على **شاشات الفضائيات** في متابعة حية لسقوط القنابل والصواريخ وتأثيراتها المدمرة، باستهداف أحداث اكبر قدر من التأثير النفسي على الشعب العراقي والشعوب العربية.ومن بعد استخدمت أجهزة الإعلام الأمريكية، **صور الرئيس صدام**، كوسيلة من وسائل تفعيل التخويف، كآلية في تحقيق أهداف الاحتلال وإجهاض روح المقاومة، كما استخدمت نشر صور التعذيب الوحشى في السجون العراقية خاصة أبو غريب لتحقيق نفس الهدف. فعند القبض على الرئيس صدام جرى إظهاره في (حفرة) خلال عملية القبض مع التركيز على انه "استسلم" دون مقاومة، وذلك في "رسالة ملغومة تنفجر في عدة اتجاهات، أولها، إلى الشعوب العربية والإسلامية بأن هذا الذي كان عنيدا، بزيادة، في مواقفه ضد الولايات المتحدة، ها هو انتهى إلى الاستسلام..وان الولايات المتحدة ذات قدرة لا يقف أمامها احد مقاوما وثانيها، موجه إلى المقاومين من رجال صدام، بأن كبيركم استسلم فلا ضير عليهم أن يستسلموا..فهل يكونوا أكثر عزيمه من قائدهم الذي استسلم ؟"[31]. "كما أن الإدارة الاميركية أرادت أن تسحب منا رموزنا السياسية والتاريخية، وأن المثال لحكام مهزومين يعيشون تحت المظلة الاميركية، فالرئيس صدام حسين هو من قال لا للإدارة الاميركية، وهو من ضرب الكيان الصهيوني في العمق، وهو من بنى القاعدة الصناعية، وجيش العلماء في العراق، وهو من جعل الثروات الوطنية العراقية عصية على أعداء الأمة، لذلك تجمع كل رجال الاستخبارات وعلماء النفس في الإدارة الاميركية، لصياغة **مشهد الإهانة** لهذا الرمز التاريخي، الذي يمثل الأمة في حاضرها ومستقبلها"[32]. ومن بعد نشر الإعلام

الأمريكي صور للرئيس صدام في أسره، وهو يغسل ملابسه بنفسه، "السبب كما راج كثيرا، هو دفع المقاومة الصدامية إلى اليأس، وردا على ما أشيع بأن الاميركيين يفاوضون على إطلاق سراحه، وإعادته للسلطة من اجل إيقاف الهجمات. الصور تقول ها هو الرئيس عاريا، ها هو الملهم عاجزا. والاحتمال الآخر لدوافع تسريب الصور، تذكير القادة الذين يختلفون مع الولايات المتحدة بأنها قادرة عليهم، والدليل صور أقوى ثلاثة رجال في العالم في ضيافتها: **صدام حسين** في زنزانة حتى ملابسه يغسلها بنفسه، كما يسكن **مانويل نورييغا**، رئيس بانما في سجن من مترين مربعين في فلوريدا، وكما يعيش مثله زعيم يوغوسلافيا الصربي **ميلوسيفتش** المسجون على ذمة المحاكمة."[33]*

ثم ومن بعد بدأت سلطات الاحتلال في إذاعة جلسات محاكمة الرئيس صدام حسين، وقد "جرت مناقشة في شأن إخراج محاكمة الرئيس صدام حسين وإنه اتُّفق أو رُئِي أن تحذف بعض المشاهد – ظهر فيها الرئيس صدام وهو صامت لا يتكلم – لكن الرؤية رغم ما قد يبدو في ذلك من تناقض في الجزء الخاص بكلامه هو عن التعذيب.. عن تعذيبه وعن ضربه في السجن، رؤي أن تترك مع إنه كان المفروض أن تحذف لكنه تُرك بقصد أن يكون درسا لآخرين، ليقول لجميع الناس في العالم العربي أنه ليس هناك أحد يمتلك حصانة، وأنّ الكل معرّض أن يُعذّب ويُعتَقل ويُضرَب، وها هو أمامكم النموذج، هذه رسالة.[34]. كما سربت أجهزة الإعلام الأمريكية بعد احتلالها للعراق وفي مواجهة تصاعد المقاومة **صور للتعذيب في سجن أبو غريب**، في محاولة منها لإثارة الرعب في نفوس المواطنين العراقيين، وكذا كانت "صورة جنود المارينز، وهم يدخلون **مسجد الفلوجة** ويقتلون جريحا أعزل للإجهاز عليه دون أن يهدد هذا المسكين أحدا"[35]

2/2 فلسطين، والعصابات، وثقافة الخوف:

يستخدم الجيش الأمريكي المجموعات شبه النظامية في تفعيل ثقافة الخوف داخل المجتمع العراقي، خلال المرحلة الأولى من الحرب، التي انتهت عمليا باحتلال بغداد في 9 مارس 2003، لكنه عاد من بعد واستخدام هذا النمط في المرحلة الثانية المتواصلة حتى الآن، عن طريق "تشغيل مقاولين مدنيين في أنشطة استخبارية وفي عمليات

*** – كُتب هذا البحث، قبل وفاة ميلوزوفتش، وقبل إعدام صدّام حسين – المحرّر.**

التعذيب وفي المهمات الخاصة.وهؤلاء اغلبهم خدموا في الجيش الأمريكي"[36]، توسعت أدوارهم باضطراد. غير أن القضية الفلسطينية، هي أكثر ما شهد ويشهد استخداما لـنمط المجموعات غير النظامية أو العصابات المنظمة في إنتاج ثقافة الخوف أو تفعيـل آليـة الخوف، لتحقيق أهداف سياسية وذلك يلتقى مع نفس الأهداف الأمريكيـة فـي الـوطن العربي، وإنْ اختلفت أهداف توسيع هذه الآلية باختلاف نمطـي الاسـتعمار الأمريكـي والاسرائيلى. لقد شهدت المرحلة ما قبل عام 48، استخدام اليهـود لهـذه المجموعـات بصورة كثيفة. وإذا كانت الجماعات اليهودية، قد شكلت مجموعـات عـسكرية متعـددة – العصابات الصهيونية – خلال مرحلة ما قبل إعلان الدولة، مثل شتيرن، والبالمـاخ، والهاجاناه، التي قامت خلال مرحلة ما قبل إعلان الدولة بارتكاب المذابح لنشر الخـوف في صفوف المواطنين الفلسطينيين، فإن استخدام المجموعات غير النظامية قد تواصـل استخدامه من بعد، لاستدامة فعل الخوف وتحويله إلى ثقافة لدى الشعب الفلسطيني مـن خلال المجموعات الخاصة التى يمكنها العمل في المراحل التى لا تجرى فيها عمليـات عسكرية حربية واسعة أو حروب.

وتأتى كثافة استخدام إسرائيل للمجموعات غير النظاميـة كآليـة لإنتـاج الخـوف وتحقيق أهداف سياسية من خلاله تعود إلى النمط الاستيطانى للمشروع الصهيونى القائم على تهجير السكان المحليين بالنظر إلى نمط الاستعمار الاستيطانى للدولـة الإسـرائيلية المرتبطة في تكوينها بشروع استيطاني في المنطقة "حيث الصهيونية الحقيقية ليست أكثر من تاريخ قرن من الزمان من الطرد والمحاولات التى لا تنتهى لإبعـاد العـرب مـن البلاد"[37]. فخلال حرب عام 47 وما تلاها في حرب عـام 48، ارتكبـت العـصابات الصهيونية **العديد من المجازر**، أهمها: **دير ياسـين، والقـسطل، والفالوجـا، وعـراق المنشية، والدوايمة**، وغيرها، وكان الهدف منها **خلق نمط من ثقافـة الخـوف داخـل المجتمع الفلسطينى** للرحيل من الأرض. "ولقد تفاخر مناحيم بيغن– من بعد – **بأنه لولا مذبحة دير ياسين لما قامت دولة إسرائيل**" [38]، وهو مــا أوجـد **مـشكلة اللاجئـين الفلسطينيين** الذين خرجوا تحت ضغط المذابح باتجاه دول الجوار(سوريا ولبنان والأردن خاصة)، وقد تواصلت سياسة المذابح كما هو الحال في عام 1956 حين "كـان النـاس يعيشون وفي ذاكرتهم الوطنية مذابح دير ياسين وقبية وغزة والرملة ونحالين، ثم جاءتهم مذبحة جديدة في **كفر قاسم** في عام 1956"[39]، كما واصل نفس السياسة ما بعد حـرب

عام 67، إذ جرى توظيف جماعات لبنانية تحت الإشراف المباشر من الجيش الاسرائيلي وتحت غطائه العسكري وبقيادة شارون شخصيا للعملية في **مذبحة صابرا وشاتيلا** في لبنان، ومن ناحية ثانية فقد تواصلت المذابح من بعد عن طريق قطعان المستوطنين كما حدث في (**مذبحة الخليل**)، و**مذبحة مخيم جنين**، وغيرها، كما جرت عملية إخافة العرب بالمتطرفين الصهاينة، كما هو الحال في محاولات اقتحام المسجد الأقصى، وفي تهديد العرب بأنهم إذا لم يستجيبوا لما تطرحه الحكومات الإسرائيلية فإنهم سيجدون أنفسهم في مواجهة إسرائيل جديدة، إسرائيل يقودها عسكريون أصوليون خطرون سيأتون للحكم وفق سيناريو انقلاب عسكري، بما يعنى ضمنيا أن العرب سيكونون أمام حالة منفلتة تماما من عقالها، مزودة بالقوة العسكرية الهائلة الحالية لإسرائيل من أسلحة نووية وكيماوية وبيولوجية، حيث المتطرفون الدينيون الذين يقولون إنّ العرب حشرات وصراصير، الذين يجب إبادتهم، سيكونون هم أصحاب القرار في إسرائيل على صعيد استخدام هذه الأسلحة"، ودون أن يعنى ذلك أن إسرائيل لم تستخدم النمط المعتاد من تفعيل ثقافة الخوف خلال المعارك الحربية سواء على صعيد إخافة الجيوش، وفق مقولة الجيش الذي لا يقهر أو بالضغط على سكان المناطق المتاخمة للعمليات، كما في **مدن القناة في مصر** بعد عام 67، بما دفع الحكومة المصرية وقتها إلى فتح باب التهجير الطوعى للمواطنين، والقيام بعمليات مخططة لنقل السكان بعيدا عن مناطق التماس، كما هو مارس نفس السياسة بعد انسحابه في غزة، إذ عمد إلى إقامة منطقة خالية من السكان الفلسطينيين في شمال غزة، وإضافة لتهديدات (400 مستوطن إسرائيلي) لسكان مدينة الخليل، المقسّمة.

3/2 ثقافة الخوف والجوع

إذا كان الخوف أمراً كامناً في النفس البشرية، فإنّ الجوع خطر يهدد حياة الإنسان.وفى عمليات الضغط الخارجى لتغيير سلوك المجتمعات، فجرت إشاعة الخوف بالتهديد بالجوع، وليس بالقتل المباشر فقط، من خلال **التهديد بقطع المعونات والمساعدات الخارجية**، لتخويف المواطنين من هذا السلوك السياسى أو ذاك.

وقد استخدمت عملية **التخويف من قطع المعونات** في عدة قضايا ضد الحكم في مصر للتأثير على السلوك السياسى للحكومة المصرية في قضايا تتعلق بنشطاء يحظون

برعاية ومساندة الولايات المتحدة، كما هو الحال خلال محاكمات: **سعد الدين إبـراهيم، وأيمن نور.**

غير أن الحالة الأبرز في استخدام وسيلة التخويف بالجوع للتـأثير علـى السلوك السياسى للمواطنين من خلال التهديد به، كان ما حدث خـلال **الانتخابـات البرلمانيـة الفلسطينية**، التي جرت في 25 يناير 2006، حين هددت **أمريكا والاتحـاد الاوروبـى**، المواطنين الفلسطينيين، بقطع المعونات عنهم، إذا هم صوتوا لحركة المقاومة الإسـلامية (حماس)، حيث جرى شن حرب تخويف عن طريق الجوع، وصدرت "دعوات لتجويع الفلسطينيين"[40]. فقبل الانتخابات " انتاب مجلس النواب الأمريكي، شعور بالرعب، ممـا دفع به إلى تبني قرار، يؤكد عدم السماح لحماس بالمشاركة فـي الانتخابـات النيابيـة الفلسطينية..ولم يكتف مجلس النواب الأمريكي بذلك، فاتبع قراره بقرار تال ينص علـى أن دخول حماس الحكومة الفلسطينية أو اى منظمة أخرى مدرجة في القائمـة الـسوداء للمنظمات الإرهابية – أي فصائل المقاومة – التي اعتمدتها وزارة الخارجية الأمريكيـة على إعادة النظر في المساعدة المالية للفلسطينيين والعلاقات الطبيعيـة مـع الولايـات المتحدة"[41].

كما هدد **خافير سولانا**، بوقف الدعم المالي للسلطة الفلسطينية، فـي حـال مـا إذا فازت حماس في الانتخابات ألتشريعيه بعد يومين فقط من صدور قـرار عـن مجلـس النواب الأمريكي، يقضي بقطع الدعم المالي (الأمريكي) عن السلطه الفلسطينيه في حال ما إذا فازت حماس.. وكأننا بالفعل (وهذا صحيح)، أمام **موقف واحد**، وإنْ عبـر عنـه الطرفان الأمريكي والأوروبي(كل على طريقته)..."[42]

وفور نجاح حماس في الانتخابات اتخذت الولايات المتحدة خطـوة أخطـر، حـين "طالبت الإدارة الأمريكية السلطة الفلسطينية بإعادة 50 مليون دولار كانت دفعتها العـام الماضي"[43]. وكذلك "أعلن **مارك ريجيف**، المتحدث باسـم الخارجيـة الاسـرائيلية، أن إسرائيل أوقفت دفع الضرائب الشهرية للسلطة الفلسطينية، والتي كان من المقرر دفعهـا أمس، وقال إنّ الضرائب لن يتم دفعها للـسلطة الفلـسطينية، حتـى تنتهـي الحكومـة الاسرائيلية من مراجعة السياسة الخاصة بذلك، وفقا لقرار رئيس الـوزراء الإسـرائيلي بالوكالة **إيهود اولمرت** بهذا الشأن،، ولم يحدد المتحدث موعدا للانتهاء من مراجعه هذه السياسة. ويذكر أن الضرائب المستحقة للسلطة الفلسطينية لدى إسرائيل، تقدر بنحـو55

مليون دولار شهريا، وهي قيمة الرسوم الجمركية التي تحصل عليها إسرائيل من الصادرات التي تصل الأراضي إلى الفلسطينيه عبر إسرائيل."(44)

4/2 الخوف والفوضى "البناءة"

وبين استخدام القوات العسكرية الساحقة، والعمل الاعلامى المخطط، والمجموعات غير النظامية، لتفعيل آليات الخوف ونشر ثقافته ضغطت الولايات المتحدة الأمريكية على نظم الحكم العربية بالمجتمعات، وفق **نظرية وممارسة "الفوضى الخلاقة"**، التي هي خطة أمريكية" لهدم كيان الدول وتفكيك المجتمعات أو لتغيير النظم غير الموالية أو غير كاملة الولاء للولايات المتحدة ومصالحها الاستعمارية في العالم. وبطبيعة الحال، فإن نظرية الإطاحة بالنظم الوطنية، والفوضى البناءة هي النظرية البديلة لمقولة حماية النظم المرتبطة بالولايات المتحدة، حتى ولو كانت نظماً غير ديمقراطية أو مستبدة، كما هي نظرية بديلة لأنماط الانقلابات العسكرية وعمليات اغتيال القادة السياسيين الممثلين لشعوبهم من قادة التحرر الوطنى في العالم الثالث، التي سادت خلال الحركة التحررية في العالم في الستينيات. وكان النموذج الأخطر في تطبيق هذه النظرية هو ما جرى في **العراق** في أشرس عملية تطبيق لهذه النظرية، إذ جرت بعد الاحتلال **أخطر حالة فوضى «بناءة» مدروسة ومخططة**، بدأت بتفكيك جهاز الدولة العراقي، «حل الشرطة والجيش والوزارات»، وترك كل ممتلكات المجتمع التى كان يسيطر عليها جهاز الدولة العراقي، عرضة للنهب والسلب من مصانع ومختبرات علمية وقصور رئاسية ومستودعات للسلاح وبنوك، وحتى المتاحف التى تركت بلا حماية أو إدارة أو سيطرة، وبعدها جرى تفكيك كل أسس تماسك المجتمع العراقي إلى مكوناته الفسيفسائية العرقية والقبلية والطائفية، كل ذلك كان في إطار هذه النظرية. وإذا كان ذلك هو شق «الفوضى»، فإن كلمة بناءة هنا تأتي من أن كل هذا الذي جرى قد أزال الحواجز – أو وجه ضربة لعوامل تماسك الدولة والمجتمع – أمام إعادة تشكيل العراق بطريقة بناءة من وجهة نظر الولايات المتحدة، بإنهاء قدرته على مواجهة الخارج وإنهاء وجود الجيش العراقي في مواجهة أمريكا أو إسرائيل.. الخ."، وهو ما شكل إغلاقا للحلقة حول رقاب النظم العربية من مختلف الاتجاهات.

ثالثا: المجتمعات العربية، ومواجهة آلية الخوف المزدوج

تتعرض المجتمعات العربية والإسلامية منذ الحرب على العراق وأفغانستان إذن، إلى نمط مزدوج من المؤثرات لإشاعة ثقافة الخوف داخلها، لتطويع إرادتها وتحقيق أهداف سياسية تكتيكية واستراتيجية، حيث المواطن العربي في المرحلة الراهنة يتعرض إلى مؤثرات داخلية متعددة لتخويف المواطنين من العمل على تغيير أنظمة الحكم القائمة من خلال التظاهر أو من خلال صناديق الانتخاب، كما يتعرض في الوقت ذاته إلى مؤثرات خارجية متعددة، لتخويفه من مواجهة عمليات الاحتلال، ولمنعه من مساندة حركات المقاومة، وهي حالة مزدوجة -وان تضاربت أهدافها لدى المخوفين من الخارج والداخل -حيث الخارج يحرض على الأنظمة الداخلية، ويسعى لإنهاء حالة الخوف الداخلي، لكي يأتي بنظم أشد تحقيقا لمصالحه، مع تعميم ثقافة الخوف من الخارج نفسه- في الوقت الذي يسعى الداخل إلى استثمار حالة الخوف من الخارج، للحفاظ على أوضاعه في السيطرة على مواطنيه، بما يجعل كلا الضغطين الخارجى والداخلى يصبان في خلق حالة من الخوف المركبة والمعقدة وفي اتجاهات متعددة.غير أن المتابعة الدقيقة لتأثيرات تلك الحالة المزدوجة من استخدام آلية الخوف تكشف عن نتائج أخرى.

فإذا كانت ثمة مؤشرات على أن نظم الحكم قد استجابت بطريقة أو بأخرى لتخويف الخارج في تصرفات محددة، فإنّ اللافت هو أن ظاهرة التخويف أو هذه الحالة الضارية من استخدام آلية الخوف، قد ووجهت بضغوط مقابلة من قبل الأنظمة في مواجهة الخارج، والاهم إنها مع ضراوتها ووجهت بتصاعد في التحرك الشعبى في مواجهة التخويف الداخلى، وفي قدرة حركات المقاومة رغم كل التخويف الخارجى الذي استهدف إضعاف روح المقاومة وتغيير النمط المفاهيمى السائد في المجتمعات العربية، حيث تشهد المنطقة العربية تحركات للتغيير الداخلي دون ارتباط بأهداف الحث الخارجى على التغيير بل في مواجهتها، كما لم تضعف المقاومة للغزو الخارجي، حيث **المقاومة العراقية** تصاعدت إلى درجة أجبرت الإدارة الأمريكية على وضع خطط للانسحاب من العراق، كما أوصل الشعب الفلسطينى حركة حماس إلى سدة الحكم في الاراضي الفلسطينية في الانتخابات التى جرت في 25 يناير 2006.

1/3 ثقافة الخوف والتأثير في الحكومات

كما كانت سمعة (التتار) تسبق سيرهم إلى بلـدان أخـرى، بفعـل المـذابح التـي ارتكبوها، فيهرب السكان من المدن ويرتعب المقاتلين قبل مواجهة قواتهم، وكما كانـت سمعة عنترة بن شداد وسمعة هرقل (مع اختلاف النمط القيمى) وغيرها من الشخصيات التاريخية باعثة للرعب في نفوس الذين يفكرون في المبارزة أو التصدى أو المواجهـة، فقد نقلت الولايات المتحدة نتائج "انتصارها " العسكرى على العراق في عام 1991 إلى مختلف إرجاء المعمورة بشكل عام، والى المنطقة العربية بشكل خاص، بعد أن "حـدث بالفعل التأثير النفسى المطلوب، فنتجت موجة من التحليل السياسى العربى، تتحدث عـن النظام العالمى الجديد وضرورة الالتحاق به، وأخذ بعضها يتـساءل إنْ كـان العـرب قادرين على الارتقاء نحو **هذا النظام العالمي الجديد**، ونشا بالمقابل لـدى المعارضـين والمتخوفين قبول سلبى يسير بالاتجاه نفسه، ويتحدث عن قبول المر، كشر لابد منـه ولا بديل له"[45]

"لقد بدأت مفاوضات السلام مسيرتها بعد انتهاء حرب الخليج مباشرة، إذ بدأ **جيمس بيكر**، وزير خارجية أمريكا اتصالات مكوكية مكثفة مـع الإسـرائيليين والفلسطينيين والعرب، بهدف دفعهم جميعا نحو طاولة المفاوضات.كان بيكر يتحـرك مـستندا إلـى **الانتصار الأمريكي على العراق**، والى **انهيار الاتحاد السوفييتي**، والى كـون الولايـات المتحدة أصبحت **زعيم العالم** بلا منازع، واجتهد أن ينتقل التأثير النفسى لكل التطـورات الساحقة من اجل خلق قناعة بان لا مفر من قبول ما يطرحه وان مـن لا ينـسجم مـع الطرح الأمريكي سيبقى خارج النظام العالمى الجديد وسينبذ بالتالى ويتحطم [46]"

وفيما بعد العدوان الأمريكي على العراق في عام 2003، تكرر ما جرى، ليس فقط على صعيد بعض النظم العربية، بل حتى على صعيد الدول الأوروبية، إذ أدت الحـرب إلى "انتشار **حالة من الخوف والجبن اجتاحت الدول الأوروبية**، بعد أن هددت واشـنطن باتخاذ إجراءات انتقامية واقتصادية ضد اقرب حلفائها"[47]، وكذلك كان حال معظم الدول العربية التى أدخلت تغييرات على سياستها الداخلية والخارجية، والتى لم تستثن منهـا إلا سوريا، فكان أن بدأت الولايات المتحدة دورة أخرى من تفعيل "آلية"التخويف ضد الحكم فيها ورموزه من تهديد بالاحتلال بعد احتلال العراق إلى محاكمة القادة ما بعـد اغتيـال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق **رفيق الحريري**.

غير أن تصاعد حالات المقاومة الشعبية في مواجهة حالة التخويف الخارجي، وكذا الداخلي، وما باتت تحمل من إمكانية لإحداث تغييرات ضد المخوفين من الخارج والداخل، بات يدفع الطرفين إلى الاقتراب من بعضهما، وتقليل مساحات الاحتكاك والصراع، ففي مواجهتها للمقاومة العراقية ولعجزها عن مواجهة عمليات القاعدة ولقلقها من تنامي حالة المقاومة والرفض والكراهية، لجأت الولايات المتحدة إلى بعض النظم العربية لمساعدتها في المواجهة – كما هو الحال في **انعقاد مؤتمر المصالحة العراقية في القاهرة، بضوء اخضر امريكي** – في مقابل تخفيف الضغوط عليها، كما تساوم الولايات المتحدة (**سوريا**) على موقفها من الاعتراف بشرعية المقاومة العراقية واللبنانية مقابل وقف تفعيل آلية التخويف من الإطاحة بنظام الحكم السوري. وربما كانت هذه الحالة المتراجعة في نمط التخويف الأمريكي، هي ما دفعت الرئيس المصري إلى القول بأن الولايات المتحدة تراجع موقفها من الفوضى الخلاقة.[48]

3/3 الشعوب العربية ومواجهة آلية الخوف

نشرت مجلة Nature، دراسة عن **آلية خطيرة** في النظام البصري البشري، تسمح للمخ برفض تسجيل ما تراه العينان بالفعل. تقول الدراسة –منذ اللحظة التي يقرر فيها المخ تأييد تفسير معين للصور التى يتلقاها من العينين، تختفى كل المحفزات التى تدعم اى تفسير آخر"[49]. وأهمية تلك الدراسة هي إنها تطرح علاقة جدلية تربط بين الفعل الموجه لتسييد نمط ثقافة الخوف في أهم وسائلها، تجاه الإنسان الفرد–الصورة –وبين مقاومة ثقافة الإنسان الفرد والشعوب لهذه الأعمال الموجهة بفعل تكوينتها الحضارية.وبما يفسر الحالة المتناقضة بين مقدمات وأهداف فعل التخويف ونتائجه بالنظر إلى تصاعد المقاومة ونجاحها المضطرد في المنطقة العربية. فإذا كانت النظم والحكومات قد خضعت واستجابت لفعل آلية الخوف بمختلف أبعادها، فان نفس المرحلة شهدت تصاعدا في المد الشعبي في مواجهة التخويف الخارجي والداخلي إلى درجة يمكن القول معها أن محصلة الخوف الخارجى والداخلى وأهدافها المتضاربة، قد صبت في النهاية في صالح التحرك الشعبى للتغيير الداخلى ولصالح الفعل المقاوم في مواجهة آلية الخوف الخارجي. فعلى صعيد التحركات الداخلية لمواجهة آلية الخوف، بدأت **تحركات شعبية** غير مسبوقة في قوتها وجرأتها بما أعطاها الثقة حتى رأت إنها نجحت

"في هزيمة ثقافة الخوف وكسبت الحق في التظاهر"[50] كما جرت تظاهرات في **السعودية** غير مسبوقة من قبل في تاريخ المملكة، وكذا جرت انتخابات بلدية في سابقة هي الأولى بهذا البلد، وكذا بدأت العديد من الحكومات تراجع مواقفها، تحت الضغط الشعبى المتصاعد من قضايا تعديل الدساتير (**مثال مصر**)، ومن المعتقلين في السجون (**مثال ليبيا وتونس**). وذلك كله يشكل حالة يمكن القول معها أن "الاضطرابات التى شهدتها دول عربية في السنوات الأخيرة تعبر عن نقلة نوعية في علاقة المجتمع بالسلطة، لأنها تشير إلى نهاية الاذعان الاجتماعي المفروض قهريا"[51]. وعلى صعيد **المقاومة للفعل التخويفي الخارجي**، ففي مواجهة العنف الاسرائيلى والتخويف بالمتطرفين والضغط الدولى بسلاح الجوع، **انتخب الشعب الفلسطينى حركة المقاومة الإسلامية حماس**، كما تواصلت **العمليات الاستشهادية**، وفي مواجهة العنف والتخويف الأمريكي تواصلت **المقاومة العراقية** وتصاعدت، حتى أخذ **الكونجرس الأمريكي** يطالب مطالبا بتحديد موعد لانسحاب القوات الأمريكية من العراق، دون أن يخاف الشعب العراقي لا من القبض على الرئيس صدام، ولا من صور أبو غريب. هذا في الوقت الذي بدأت تتراجع فيه بعض ممارسات التخويف بالجوع ضد الشعب الفلسطينى، فإذا كانت **دعوة روسيا لوفد حماس**، بزيارة رسمية بداية تصدع للحصار الذي فرضه الخوف من أمريكا، فقد "قرر الاتحاد الأوروبي الإفراج عن مساعدات رئيسية للسلطة الفلسطينية قيمتها 120 مليون يورو، لتفادي أزمة مالية وشيكة، تزامنت مع تكليف حركة حماس بتشكيل الحكومة القادمة" [52].

وهى جميعها تطورات لا يحل تناقضها – بين تصاعد التخويف وفشله وتصاعد المقاومة ونجاحها – إلا إدراك **دور التشكيلة الحضارية (الدينية والثقافية والاجتماعية) للشعوب العربية، في مواجهة وإفشال "آلية وثقافة الخوف".**

4/3 ثقافة الخوف..وثقافة المجتمعات

الاستخدام المكثف لآلية الخوف لتغيير الإرادة السياسية في المجتمعات العربية، ولجعل ثقافة الخوف من المعتدي الخارجي ضمن النسق المفاهيمي والقيمي السائد في المجتمعات العربية والإسلامية، كان من نتيجته بروز ثقافة مقاومة لثقافة الخوف واليات متعددة لمقاومة آلية الخوف، بل أن آلية الخوف أصبح لها تأثير ارتدادي داخل

المجتمعات المصدرة للخوف ذاتها، ليس فقط باعتبارها مصدرة لخوف ناتج عن خوف في داخلها ولكن لأسباب تتعلق بالعمليات التى جرت في داخلها (كما هو الحال في مدريد ولندن –والتى كشفت عدم قدرة حكوماتها على حمايتها من نتائج تصدير آليات الخوف وتعميمها في العلاقات أو الصراعات مع الدول الأخرى.

ومن ثم يكون "السؤال الآن هو: من يخاف من؟ من يصدّر الخوف لمن؟ من يرعب من؟"[53] حيث " إن المغالاة في استعمال القوة من طرف ضد الطرف الآخر، إنما يهدف إلي تصدير الخوف منه إليه."[54] كما أن "التهديد المستمر علي **سوريا وليبيا وإيران والسودان واليمن**، كل ذلك من أجل تصدير الخوف، حتى لا يجرؤ أحد علي تكرار ما حدث في أيلول (سبتمبر)."[55] لقد كانت "**المغالاة في استعمال القوة في غزو أفغانستان، إطلاق صاروخ بملايين الدولارات علي خيمة بعشرة دولارات**، واستعمال أحدث أنواع الأسلحة، بما في ذلك **أسلحة الدمار الشامل** علي مقاتلين في الجبال ببنادق تعود إلى الحرب العالمية الثانية، من أجل تصدير الخوف إلى الآخر بعد أن خاف الطرف المعتدي، على نفسه وقوته وصورته وهيبته بعد حوادث 11 أيلول (سبتمبر) 2001، والمغالاة في استعمال **القوة في العدوان على العراق**، بكافة أنواع الأسلحة، إنما هو أيضا **تصدير للخوف**. وما يفعله الكيان الصهيوني ضد **الشعب الفلسطيني، والمخيمات، والمقاومة**، إنما هو تصدير للخوف أيضا بدلا من الرعب الذي يعيشه من العمليات الاستشهادية، التي جعلتهم يتوقعون الموت في أية لحظة (**فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب**)."[56]

والفارق هو أن مجتمعات الثقافة العربية والإسلامية لا ترهب الموت كما ترهبه الحضارة الغربية، حيث "المقاومة الوطنية في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان. وهي حريصة علي الموت والشهادة، قدر حرص الأمريكي الصهيوني على الحياة والدنيا.. [57]. لقد فعلت حالة المواجهة الحادة ما هو ايجابي في النمط القيمي الاصلي في التشكيلة الحضارية في المجتمعات العربية، بما أنتج حالة متصاعدة من نمط المقاومة.

الهوامش والمراجع

1– محمد السماك، الإرهاب في العمل السياسي، القاهرة:وجهات نظر، العدد 65، يونيو 2004 ص 6.

2– حمدى عزام، الرابحون والخاسرون في عالم الغد، القاهرة:وجهات نظر العدد 74 مارس 2005 ص27.

3- عايدة العزب موسى، نظرية ترويض العبيد، القاهرة:سلسلة استراتيجيات، السنة الأولى ، العدد الثانى أكتوبر 2004 ص90
4- نجم عبوش، مشكلة الخوف (مفاهيم أولية)، النبأ شهرية ثقافية العدد 77 يونيو 2004
5- مركز التمييز للمنظمات غير الحكومية، الخوف محرك وليس حافزا، مهارات تدريبية، العدد 23، 21 نوفمبر 2002
6- مركز التمييز للمنظمات غير الحكومية، الخوف محرك وليس حافزا، مهارات تدريبية، العدد 23، 21 نوفمبر 2002
7- نجم عبوش، مشكلة الخوف (مفاهيم أولية)، النبأ شهرية ثقافية العدد 77 يونيو 2004
8- محمد السماك، الإرهاب في العمل السياسى، القاهرة:وجهات نظر، العدد 65، يونيو 2004 ص 6
9- راجع، بلال الحسن، ثقافة الاستسلام، بيروت:رياض الريس للكتب والنشر، يناير 2005
10- عبد الرؤوف العيادي، صناعة التغيير أم صناعة الخوف و الترهيب؟، موقع كلمة تونس الشبكة الدولية للانترنت، 7 فبراير 2006.
11 - عبد النور بن عنتر، إشكالية الاستعصاء الديموقراطى في الوطن العربى، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل (30) الديموقراطية والتنمية الديموقراطية في الوطن العربى، صص 51-74
12- حسن محمد سلامة، اثر العولمة على تطور النظام السياسى، القاهرة:مجلة الديموقراطية، العدد الثانى، ربيع 2001 ص 27-40.
13 - احمد فاروق عبد العظيم، سياسة القوة في المشروع الأمريكي للنظام العالمى، القاهرة: السياسة الدولية العدد 158 أكتوبر 2004
14- حسن الحاج على احمد، تغيير الثقافة باستخدام السياسة، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربى (32) احتلال العراق الأهداف -النتائج-المستقبل، 2004
15- شريف دولار، الأصول الفكرية للاستراتيجية الأمريكية، القاهرة:مجلة قضايا فكرية، الكتاب الحادى والعشرون، يناير 2005
16-عبد الرؤوف العيادي، صناعة التغيير أم صناعة الخوف و الترهيب؟، موقع كلمة تونس الشبكة الدولية للانترنت، 7 فبراير 2006.
17-حسن أبو طالب، ثلاثية الإصلاح والحريات والمعرفة، القاهرة:التقرير الاستراتيجي العربى، مؤسسة الأهرام 2003 -2004 ص 9
18- عبد النور بن عنتر، إشكالية الاستعصاء الديموقراطى في الوطن العربى، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل (30) الديموقراطية والتنمية الديموقراطية في الوطن العربى، ص 61.
19 - راجع تصريحات رتشارد هاس، طلعت رميح هجوم المبادرات الأمريكية، الشرق القطرية
20- راجع تصريحات جورج تينت، طلعت رميح: هجوم المبادرات الأمريكية، الشرق القطرية

21- طلعت رميح، الانتخابات المصرية:رهان الداخل والخارج، الشرق القطرية أحوال عربية 19 نوفمبر 2005
22- محمد الميلي، الحرب غير المرئية، القاهرة:وجهات نظر، العدد 36 يناير 2002
23- تمام مكرم البرازي، الجزائر تحت حكم العسكر، القاهرة:مكتبة مدبولى، 2002 ص 84
24- محمد الميلى، الحرب غير المرئية، القاهرة:وجهات نظر، العدد 36 يناير 2002
25- طارق البشري، في المواطنة والانتماء والدولة، القاهرة وجهات نظر العدد 70، نوفمبر 2004 ص 9
26- محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأمريكية، لبنان:السفير، 1 مارس 2003
27- محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية على الطريقة الأمريكية، لبنان:السفير، 1 مارس 2003
28-شريف دولار، الأصول الفكرية للاستراتيجية الأمريكية، القاهرة:قضايا فكرية، العدد 21 يناير 2005، ص 125
29- محمد حسنين هيكل، هذا الإعصار الأمريكي، القاهرة:وجهات نظر، العدد 51 ابريل 2003 ص 5
* على صعيد الكلمة، فقد كان آخر هذا النمط من استخدامها في صناعة الخوف، تصريحات الرئيس الفرنسى جاك شيراك الذي هدد باستخدام الأسلحة النووية ضد من يقوم بعمليات إرهابية في فرنسا خلال الصراع الاوروبى الايرانى على خلفية البرنامج النووى الايرانى، كما كان أكثرها سفورا تهديد رحبعام زئيفى وزير السياحة الاسرائيلى -قبل قتله -بقصف السد العالى في مصر، لإشاعة الخوف في المجتمع المصرى من تأثيرات انهيار السد على مختلف النشاطات الاقتصادية والحياتية اليومية باعتباره مصدرا رئيسيا للطاقة الكهربائية في مصر، وكذا بالنظر إلى مخاطر الفيضان المتوقع حال انهيار السد.وهو ما جاء لتخويف المصريين من أعمال التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية.
30- محمد حسنين هيكل، قراءة في أوراق إدارة بوش وعقلها، القاهرة:وجهات نظر، العدد 53، يونيو2003، ص 11
31-" طلعت رميح، الاستعراض المسرحى في أسر صدام، الإسلام اليوم،
32- صدام حسين يقود معركة بطولية استمرت ثلاثين ساعة-موقع البصرة الالكتروني، 6- 12 - 2005
33 - عبد الرحمن الراشد، هل يستحق صدام كل هذا..؟، الشرق الأوسط، العدد 9674، 24 مايو 2005
34- راجع هيكل.. الملفات السياسية في عام الفزع، قطر:قناة الجزيرة، الموقع الالكتروني، تاريخ الحلقة: 2005/12/31
35- د. أحمد القديدي، من يفرخ الإرهاب؟ بدأ الغرب يتساءل!، قطر:جريدة الشرق 20 - 200
36- سلامة احمد سلامة، نون، القاهرة:وجهات نظر العدد 65 يونيو 2004، ص 5
37- عميرام كاهان، رحبعام زئيفى، ملحق عل همشمار 25-11-1988

38- د.محجوب عمر، الترانسفير، القاهرة دار البيادر للنشر والتوزيع الطبعة الأولى عـــام 1990 ص 20

39- د.محجوب عمر، الترانسفير، القاهرة دار البيادر للنشر والتوزيع الطبعة الأولى عـــام 1990، ص 26

40- مشعل يطالب العرب بمواجهة دعوات تجويع الفلسطينيين، دولة الإمارات:البيان، 10-2-2006

41- احمد عمورابى، أميركا تعاقب الديموقراطية، دولة الإمارات:البيان 21-12-2005

42- د.سعيد اللاوندي، تناقضات اورو بيه: الموقف من حماس نموذجـــا!، القـــاهرة: الأهـــرام العـــدد 43482، السنة 130-24-12- 2005

43- واشنطن تطالب السلطة بإعادة 50 مليون دولار، دولة الإمارات:البيان 18-2-2006

44- غزه من اشرف ابوالهول، إسرائيل توقف دفع الضرائب للسلطة الفلسطينيه، القاهرة:الأهرام العدد 43522، السنة 130، 2-2- 2006

45- بلال الحسن، السلام الأجوف، دمشق:الاهالى للطباعة والنشر والتوزيع، ، الطبعة الأولـــى 1994 ص 12

46- بلال الحسن، السلام الأجوف، دمشق:الاهالى للطباعة والنشر والتوزيع، ، الطبعة الأولـــى 1994 ص 12

47- سلامة احمد سلامة، أبو غريب..الوجه الآخر للإرهاب، القاهرة:وجهات نظر العـــدد 65 2004، ص 4

48- راجع الأهرام القاهرية في 1-3-2006

49- جاكلين روز، دولة تحتضر، القاهرة:وجهات نظر العدد 65، يونيو 2004، ص 33،

50- كفاية".. توم بيري، هزيمة ثقافة الخوف و إحياء حق التظاهر، القـــدس العربـــي عـــن رويتـــر- 2005/04/07

51- عبد النور بن عنتر، إشكالية الاستعصاء الديموقراطى في الوطن العربى، بيروت:مركز دراســـات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل (30) الديموقراطية والتنميـــة الديموقراطيـــة فـــي الـــوطن العربى، ص 74

52- الاتحاد الأوروبي يفرج عن 120 مليون يورو مساعدات للفلسطينيين، الجزيرة.نت، 28-2-2006

53- حسن حنفي، جريدة، تصدير الخوف: هل تتحقق المصالحة التاريخية ما بين مـــصدري الرعـــب وضحاياه؟ (الزمان) -العدد 1845 -26-6- 2004

54- المرجع السابق.

55- المرجع السابق.

56- المرجع السابق.

57- المرجع السابق.

المؤامرة... ونظرية المؤامرة:

(ثقافة الخوف في مناطق السلطة الفلسطينية)

إبراهيم أبراش
جامعة الأزهر، غزة، فلسطين

تشهد مناطق السلطة الفلسطينية حالة غير مسبوقة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، تولد حالة من الخوف والقلق على الحاضر والمستقبل. خوف شخصي وذاتي وخوف على الهوية والوطن والانتماء، هذه الحالة من الخوف تفرز سلوكيات وأنماط تفكير غير سوية، مقارنة بالمجتمعات المستقرة، كالانفلات الأمني والعصبوية القبلية والعائلية، وإن كانت التمظهرات الخارجية لهذه الحالة تتبدى في اللجوء للعنف الجسدي واستعمال السلاح بين المواطنين بعضهم بعضاً. وإن كانت القراءة السطحية ترجع هذه الحالة لأسباب سياسية داخلية وخارجية – وهي بلا شك موجودة – إلا أن هناك أسباباً عميقة وغير مرئية تشكل الدافعية والموئل الذي يجعل العنف ظاهرة عامة وطبيعية، هذه الأسباب هي الخوف بكل إشكاله، خوف تعززه تنشئة اجتماعية وسياسية وتحوله إلى ثقافة اجتماعية.

لم يعد الخوف في مناطق السلطة الفلسطينية مجرد حالة نفسية انفعالية وعاطفية، بل تأصل الخوف ليتحول إلى ثقافة يمارسها مواطنون من شتى المستويات الثقافية والاجتماعية. عنف داخل الأسرة، وعنف داخل المدارس والجامعات، وعنف بين الأسر، وعنف بين الجماعات السياسية، وعنف ضد السلطة، بل عنف بين مراكز وجماعات السلطة. خوف على المستقبل وخوف من الحاضر، خوف من الاحتلال، خوف من موروث ثقافي يُقيد الحرية، وخوف من غزو ثقافي يُغيب الهوية، بالإضافة بطبيعة الحال العنف الثوري الموجه ضد الاحتلال.

صيرورة الخوف في مناطق السلطة إلى ثقافة اجتماعية وسياسية مضادة للثقافة الثورية التي عهدتها شعوب مستعَمرة سابقا، يجعل من هذه الثقافة خطرا داهما ومعيقا لكل مسعى تحرري وطني أو ديمقراطي سلمي. خطورة ثقافة الخوف تكمن أيضا في حرف النضال الوطني، من نضال شعب موحد ضد الاحتلال إلى **(ما يشبه الحرب**

الأهلية الباردة) أحيانا، والمسلحة حينا آخر، فثقافة الخوف لا تعترف بالعدو المشترك أو العدو الواحد بل تعمم مصادر الخوف، وتخلق حالة من الشك والريبة حتى في أقرب الأقرباء.

وسنحاول معالجة الموضوع من خلال المحاور التالية:

أولا: مقاربة مفاهيمية عامة لثقافة الخوف:

1- ثقافة الخوف، نتاج لثقافة مأزومة

2- فكر المؤامرة، كأحد تعبيرات ثقافة الخوف في المجتمع العربي

ثانيا: ثقافة الخوف في المناطق الفلسطينية:

1- القلق على الهوية الوطنية، كسبب ونتاج لثقافة الخوف

2- الانفلات الأمني والقيمي، كتعبير عن ثقافة الخوف

أولا: مقاربة مفاهيمية:

1- ثقافة الخوف نتاج لثقافة مأزومة

من المعلوم بأن مفهوم الثقافة أصبح على درجة من التباين والتوسع، وإذا تجاوزنا التداخل الحاصل ما بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة(1) والمقاربات العنصرية للثقافة والحضارة(2)، فيمكن القول بأنه يجوز القول بأن **كل سلوك ونمط تفكير جمعي**، هو ثقافة خاصة بهذه الجماعة، وحيث أن الجماعات والمجتمعات تتباين حسب الشروط التاريخية والمادية الاجتماعية والاقتصادية فأن كل جماعة تنتج ثقافتها الخاصة بها.

فالثقافة بشكل عام، هي **مجموع من العناصر -فن، قانون، عادات، سياسة الخ - له علاقة بطرق التفكير والشعور والسلوك، وتكتسبها الجماعة وتتعلمها وتشارك فيها، وتعطي للأشخاص شخصيتهم المتميزة**. ويمكننا أن نستنتج من هذا التعريف عدة خصائص للثقافة لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا (ثقافة الخوف)، فهي **أولا:** طرق في التفكير والشعور والسلوك، أي أنها تتصل بكل نشاط الجماعة الحسي وغير الحسي. **وثانياً:** أن هذه الطرق من التفكير والشعور والسلوك تعبر عن ذاتها في العادات والتقاليد وبقواعد السلوك الخاصة بالجماعة، بل تبحث الجماعة عن تبريرات لهذا السلوك في تراثها الديني. **ثالثا:** إن هذه الطرق في التفكير والشعور والسلوك، مشتركة بين مجموعة

كبيرة من الأشخاص، أو بشكل أخر أن مجموعة من الأشخاص يحددون بالانتماء إلــى مجموعة واحدة من خلال اشتراكهم في هذه الطرق. رابعا: إن الثقافة لا تنتقل بالوارثــة ولكنها تكتسب اكتسابا عن طريق مصادر تنشئة محلية وخارجية.

أما **الثقافة السياسية**، فهي جزء من الثقافة بمفهومها العام، إنهــا **طــرق التفكيــر والشعور والسلوك السياسي الخاص بجماعة ما**، وعليه يمكن القول إن خصائصها هي نفسها خصائص الثقافة – المشار إليها أعلاه –مطبقة على مستوى السياسة، فهي ثقافــة فرعية تتأثر بالثقافة الأشمل، فهذه الأخيرة تؤثر بشكل كبير على ثقافة المجتمع السياسية، وتكتسب مقوماتها، ويتحدد طابعها من خلال الثقافة العامة للمجتمع، فالشخص العادي أو رجل السياسة لا يمكنه أن يحمل قيما سياسية أو يمارس سلوكا سياسيا متناقضا مع ثقافة المجتمع، إلاّ ويُعتبر شاذا عن المجتمع، ومغتربا عنه، إن لم يتهم بأنه يمثل رأس حربــه لغزو ثقافي ولأفكار دخيلة.[3]

أعطيت للثقافة السياسية عدة تعاريف، فاعتبرها (روي ماكريدس،Roy Macridis) أنها تمثل الأهداف المشتركة والقواعد العامة المقبولة، أما (روبيــرت داهــل Robert Dahl) فالثقافة السياسية بالنسبة له هي العامل الذي يفسر أنماط التعــارض الــسياسي، وعناصرها هي **أولا**: التوجهات الخاصة بحل المشكلات، وهذه التوجهات قد تنحو نحــو النزعة البراجماتية –النفعية– أو العقلانية. **ثانيا**: التوجهات نحو السلوك الجمعي: ويقصد بذلك هل هي ثقافة تشمل التعاون والاندماج بين أفراد المجتمع أم هي تناحرية انــشقاقية. **ثالثا**: التوجهات نحو النسق السياسي: أي هل تكرس الولاء لــه أم تقــف منــه موقــف اللامبالاة. **رابعا**: التوجهات نحو الأشخاص الآخرين: فهل تغلب عليها الثقة أم تخلو مــن الثقة.[4]. إلا أن أهم مقاربة علمية للثقافة السياسية يعتمد عليها بالرغم من قِــدمها، هــي تلك التي قام بها كل من **الموند (Almond)، وفيربــا (Verba)**، وهي دارسة استغرقت حوالي خمس سنوات 1958–1963 وتركزت على خمسة بلدان، هي الولايات المتحــدة وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا والمكسيك، فانطلقا أولا من أن **الثقافة تحتوي علــى ثلاثــة أبعاد: جانب معرفي وجانب عاطفي وجانب تقييمي، الأول يتكون من المعارف العامــة حول النظام السياسي، والثاني يتعلــق بــالولاء الشخــصي للزعمــاء والمؤســسات السياسية، والثالث يتضمن الأحكام القيمية حول الشأن السياسي**. وانطلاقــا مــن هــذا التعريف وضعا ثلاثة أنماط للثقافة السياسية: فهناك **الثقافة السياسية الرعوية**، وهي ثقافة

تستوعب الثقافات المحلية القائمة على علاقات القرابة والعرف والدين، فهي ثقافة ما قبل الثقافة السياسية الخاصة بالدول أو بالمجتمع الوطني، وينتشر هذا النوع من الثقافة في بلدان العالم الثالث التي تلعب فيه العلاقات القرابية والعشائرية والطائفية دورا في تحديد الولاءات والانتماءات السياسية. والنوع الثاني هو **ثقافة الخضوع**، والثالث **ثقافة المشاركة**، وهذان النوعان يسودان في المجتمعات الأكثر تطورا التي وصلت إلى مرحلة الدولة الوطنية أو دولة المؤسسات، هذان النوعان من الثقافة يبلوران توجها من المواطنين تجاه النظام السياسي بكامله، فالعواطف والولاءات والمشاركة لا تتجه نحو أنظمة فرعية أو ثانوية – كالعشيرة أو الطائفة – بل نحو النظام ككل.

ويرى الموند وفيربا: "إن كل نمط من هذه الأنماط الثلاثة، يتوافق مع بنية سياسية خاصة به، فالثقافة الرعوية ترتبط ببنية تقليدية غير مركزية إلى حد كبير، أما ثقافة الخضوع فتتعلق ببنية سلطوية وممركزة، في حين تتعلق ثقافة المشاركة ببنية ديمقراطية. . . ويخلصان إلى القول بأن **التطابق بين الثقافة السياسية، والبنية السياسية ضروري لتأمين استقرار النظام**". (5)

من خلال المقاربة السالفة للثقافة بشكل عام والثقافة السياسية على وجه الخصوص، يمكن القول بأن ثقافة الخوف هي منظومة نفسية واجتماعية وسياسية، فكرية وسلوكية، وهي نتاج لبنى ومؤسسات سياسية واجتماعية مأزومة لا تعبر عن ثقافة الديمقراطية والمشاركة والمواطنة. فالخوف كسلوك جمعي يعني انعدام الثقة أو الإيمان بالمؤسسات القائمة، ثقافة لا تثق بالحاضر ولا بالمستقبل، ولأن الخائف يبحث عن مقاومات لخوفه، فهو يبحث عنها من خارج المؤسسات القائمة، سياسية كانت أم اجتماعية، وغالبا ما يلجأ إما إلى العنف أو الاغتراب.

أيضا، فإنّ ثقافة الخوف، بما هي فعل أو نسق ثقافي، فهي (تهيئ الشروط والظروف لنماء الاستعداد لتقبل الخوف لدى المتلقي، فهي تستهدف فيه شل إرادته، وإعادة تكوينه إنسانا سلبيا محاطا بشبكة عنكبوتية من النواهي والمحرمات. هذا النوع من الثقافة في مجتمعاتنا الشرقية للأسف الشديد، مزدهر إلى حد كبير، وهو يشمل طيفا واسعا من المنتجات الثقافية، بدءاً من أبسطها، أعني الشفاهي منها، إلى أعقدها وأكثرها تأثيرا، أعني الثقافة الدينية والسياسية)(6).

- مما سبق يمكن القول بأن أهم **تعبيرات ثقافة الخوف**، كتفكير وسلوك سياسي جمعي هي:

1. عدم الإحساس بالأمان.
2. انعدام الثقة بالمؤسسات القائمة.
3. الخوف من السلطة ورموزها.
4. سيطرة برادغم الخضوع، والطاعة للأقوى.
5. انعدام الثقة بالأخر مما يضعف العمل الجمعي.
6. عدم الاندماج، وعدم المشاركة بالحياة السياسية.
7. الاغتراب السياسي.
8. هيمنة فكر المؤامرة.
9. اللجوء للعنف الاجتماعي والسياسي.
10. الاحتماء بالتفكير الغيبي.
11. اختلال المنظومات القيمية والاجتماعية.
12. عدم الثقة بالمستقبل.

2. فكر المؤامرة كأحد مشتملات ثقافة الخوف

في ظل ثقافة الخوف المعممة في المجتمعات العربية ليس راهنا فقط بل منذ عهود سالفة، في ظل هكذا ثقافة **يكون لفكر ونظرية المؤامرة مكانا مرموقا**، وعليه نلاحظ بان القول بوجود مؤامرة تستهدف الأمة العربية الإسلامية والقضية الفلسطينية، أصبح أمرا شبه مسلم به ضمن ثقافة الخوف. صحيح بأن فكر المؤامرة ليس بالأمر الجديد، فمنذ الخمسينات والخطاب السياسي لقوى سياسية عربية قومية واشتراكية وإسلامية، تتحدث عن وجود **مؤامرة استعمارية صهيونية**، تهدف إلى تفتيت الأمة العربية والعالم الإسلامي، بافتعال حروب أهلية، وإثارة صراعات بين شعوب المنطقة، تطبيقا لمبدأ فرق تسد، وعملا على إضعاف شعوب المنطقة لتنشغل بمشاكلها وحروبها الأهلية، ليعيش الكيان الصهيوني بسلام، وتتمكن القوى الأجنبية من فرض سيطرتها ونهب ثروات المنطقة، وبطبيعة الحال فهذا الفكر يعتبر الحركة الصهيونية هي العقل المدبر وراء هذه المخططات.

هذا الخطاب الثقافي - خطاب التآمر الخارجي - ولأنه كان خطاب قوى سياسية معارضة، أو خطاب أنظمة متنافسة ومتصارعة، أو في حالة مواجهة وعداء مع الغرب أو مع المعسكر الاشتراكي، فلم ينل مصداقية أو اهتماما، حيث اعتبر جزءا من الحرب الدعائية التي هي محايثة للحرب الباردة، بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، أو المعسكرين العربي التحرري، والعربي المحافظ، كما كان واقع الحال خلال عقدي الخمسينات والستينات.

تجدد الحديث عن المؤامرة، بعد انهيار المعسكر الاشتراكي المتزامن مع حرب الخليج الثانية، وما عزز من خطاب المؤامرة الجديد، انه أصبح يصدر عن كتاب عرب ومسلمين، بل وقادة سياسيين يحسبون على الخط المعتدل، ويترافق مع خطاب سياسي أمريكي أوروبي يتحدث بوضوح عن الخطر الإسلامي، وضرورة مواجهته بكل الطرق، وتضخيم الغرب للخطر الإسلامي يعني تبريره لكل فعل ضد الأمة العربية الإسلامية، بزعم مواجهة الخطر الأصولي، بالإضافة إلى ذلك أن **كل مراقب حصيف لما يجري في المنطقة العربية الإسلامية، يشتم رائحة المؤامرة الأجنبية، من فلسطين إلى الجزائر فمصر، فالسودان فليبيا، من العراق إلى المغرب. يشتمُّ تآمراً مادياً مباشراً ومكشوفاً، أو تآمراً إعلامياً وسياسياً.**

المستجد على فكر المؤامرة أنه أصبح جزءا من ثقافة أشمل هي ثقافة الخوف، وهي ثقافة لم تعد تقتصر على شعوب المنطقة العربية، بل أصبح لها حضور عند المجتمعات المتقدمة، ولكن لأسباب مختلفة. في مجتمعاتنا، الفقر والجوع والدكتاتورية والهيمنة الخارجية وعدم الثقة بالمستقبل، وخصوصا بعد حرب الخليج، وتفشي مظاهر العنف السياسي، كل ذلك ينتج ثقافة الخوف، أما ثقافة الخوف عند الدول الأخرى وخصوصا الرأسمالية، فتُستمد من الخوف على المصالح والامتيازات ونمط المعيشة، والخوف مما يهدد هذه الامتيازات، سواء أكان تهديدا حقيقيا أم متوهما، ومن هنا نلاحظ كيف تُروج مراكز القرار في أمريكا والغرب لمقولات الخطر الأخضر، وتنظيم القاعدة، والحرب الحضارية، فهناك **صناعة ثقافة الخوف**، لتوظيفها لخدمة سياسة عدوانية.

فما هي حقيقة نظرية المؤامرة؟ وهل فكر المؤامرة، فكر نخبة أم تحول إلى أداة ناظمة ومحركة لثقافة الخوف؟.

نظرية المؤامرة بين التحليل العلمي، والتهويل السياسي:

هناك مستويان يمكن الانطلاق منهما لمقاربة ما يمكن تسميته بنظرية المؤامرة ارتباطا بالثقافة السائدة: مقترب التحليل السياسي العلمي، ومقترب التهويل السياسي.

في المستوى الأول: كل مُطلع وملم بعلم السياسة، يعرف أن **السياسة هي سعي لتحقيق المصالح**، فالمصلحة هي الهدف الأول الذي تسعى إليه الدول والأنظمة في سلوكها السياسي الداخلي والخارجي. وتحقيق المصلحة الوطنية لدولة ما يتم بإحدى الطريقتين: إما بالسلم وحسب قواعد القانون والأعراف الدولية، أو بالحرب والصراع وما يصاحبهما من خداع ومناورة وتآمر. والوسيلتان معا هما السياسة أو هما وجها عملة واحدة هي السياسة، **والقول إن السياسة لا تعرف الصراع والتآمر، هو قول لا يستقيم مع فهم السياسة على حقيقتها**، كسياسة بشر، لا سياسة ملائكة.

فمنذ مكيافللي – إن لم يكن قبل ذلك – جردت السياسة من الأخلاق، أو فلنقل أصبح للسياسة اخلاقياتها الخاصة بها، ومن أخلاقياتها الحرب والخداع أو التآمر، والإرهاب الخ، فتحقيق المصالح أو الأهداف الوطنية في عالم تتناقض فيه المصالح يبرر للدول نهج ما تراه ضروريا من وسائل. وهذا هو توصيف نظرية (السياسة الواقعية) للسياسة، إنها سياسة تقوم على قاعدة (الغاية تبرر الوسيلة)، وأن السلم والحرب وجها عملة واحدة، وأن ما لا يمكن تحقيقه بالقانون وبالسلم، يجوز تحقيقه بالحرب والخداع والتآمر، وقد عرّف أحد علماء السياسة وهو **جوليان فروند**، **السياسة** بالقول: **إنها تشبه كيس سفر، به ما شئت من الأشياء، القانون، والحرب، الأخلاق، الخداع، المناورة، الإرهاب... الخ.**

ومن هنا يمكن القول، إن **التآمر هو قلب السياسة**، ونقصد به أن ما لا تستطيع السياسة تحقيقه بالمكشوف وعن طريق القانون والاتفاقيات، تسعى لتحقيقه عن طريق الحرب والخداع والمناورة، **وكل دولة من دول العالم لها سياستان: سياسة معلنة، مزينة بشعارات ومبادئ أخلاقية وقانونية، وسياسة سرية أو خفية يرسمها إستراتيجيون، وأجهزة المخابرات يطبقونها في الخفاء**، أو يلجئون إليها وقت الحاجة – في الولايات المتحدة مثلا، هناك **التآمر ضد كوبا، وفضيحة، ووترجيت، وإيران جيت، وكونترا جيت**، وغيرها، وهي أوجه تآمرية من السياسة – والسياسية الذكية هي التي تأخذ بكل الاحتمالات، فتعمل علنا ضمن القانون والشريعة والمبادئ الإنسانية، ولكنها لا

تسقط من حساباتها التآمر والخديعة لأن مواقف وسلوكيات الطرف الآخر في العلاقة السياسية ليست مضمونة دائما، ولأن المصالح غالبا في حالة تضارب.

المستوى الثاني: التهويل السياسي لنظرية التآمر

مما سبق يمكننا القول: لا سياسة تخلو من التآمر، والقول بأن الولايات المتحدة والدول الغربية يتآمرون على الأمة العربية والإسلامية ليس بالشيء المثير أو المستهجن أو حتى بالشيء الجديد، ولكن السؤال لماذا تثار مجددا فكرة التآمر؟، وما هو الهدف من إثارتها؟، وكيف يمكننا التمييز بين **المؤامرة كحقيقة**، وبين القول **بالمؤامرة كذريعة**، للتهرب من المسؤولية عن الأخطاء؟ وهذا ما يدفعنا للحديث عن تهويل القول بالمؤامرة الخارجية لتوظيفها سياسيا لخدمة مصالح وأهداف محددة.

إذا كان من المقبول والمعقول الحديث عن وجود مؤامرة أجنبية ضد الأمة العربية والإسلامية، فإن غياب الإرادة والإستراتيجية الواضحتين، للتعامل مع هذه المؤامرة والاكتفاء بالحديث عنها وتضخيمها، يتحول بدوره إلى مؤامرة، ولكنها في هذه الحالة **مؤامرة من الذات ضد نفسها.**

وللأسف، فإن بعض القوى والأنظمة السياسية **توظف القول بوجود مؤامرة خارجية، لتخفي عجزها وفشلها، ولتتهرب من تحمل المسؤولية عن الأوضاع المتردية التي تعيشها شعوبها،** وكأنها بذلك تريد ان تبعد الأنظار عن مسؤوليتها عن تردي الأوضاع بالزعم أن الخارج هو المسئول، ويصبح بذلك الحديث عن المؤامرة، المشجب الذي تعلق عليه كل الأخطاء والتجاوزات وأوجه القصور والخلل في المجتمع العربي الإسلامي.

إنّ طبيعة بنية العقل العربي المنغلق أمام الديمقراطية، والرافض لمبدأ النقد والنقد الذاتي، والمتلبس بحال من الاستعلاء والاستغلاق وحب السلطة، أو الخضوع لمن هو في السلطة، وانتشار ثقافة الخوف التي تعبير عن العجز وبحث عن مبررات له، كل ذلك يجعل فكرة المؤامرة، مقبولة وسريعة الانتشار، لأنّ العقل العربي المتلبس بثقافة الخوف هو عقل يرفض الاعتراف بالخطأ، ويرفض أن يراجع حساباته، ويراجع تاريخه المتوهم والمضخم، ويرفض أن يضع أقانيم أضفى عليها طابع القدسية موضع التساؤل، فالذات دائما لا تخطئ والخلل دائما سببه خارجي، وقد صدق الشاعر عندما وصف هذا النمط من التفكير بالقول:

نَعيبُ زمانَنا، والعيبُ فينا... وما لزماننا عيبٌ، سوانا.

وهكذا استراح العقل العربي عقل ثقافة الخوف إلى مقولة المؤامرة الخارجية وتبرئة الذات من الخطأ، منذ الأندلس إلى اليوم، والعقل العربي المتسربل بثقافة الخوف، يعتبر كل ما أصابنا هو تآمر أو أمر لا إرادة لنا فيه، وهكذا استسهلنا **توظيف الدين للتهرب من المسؤولية**، فكل شيء قضاء وقدر: **(وقل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم)**. ولا قدرة لنا على الرد على إرادة الله، وكل ما يمكن فعله التوجه إلى الله ليرفع عنا البلاء، وينقذ العباد والأرزاق – حتى أنه في إحدى خطب الجمعة، وفي دولة عربية إسلامية: **وقف الخطيب ومن على شاشة التلفزة، يرفع يديه إلى السماء، طالبا من الله تعالى، أن يحسّن مناهج التعليم في البلاد!!**. وكأن الله هو المسئول عن فشل مناهج التعليم أو هو الذي قام بوضعها، وبالتالي نطالبه بتغييرها بما نشتهي ونريد.

وتحت غطاء هذا المنطق السلبي المشوه لحقيقة الإسلام – وهو منطق يقوم على مسلمات المؤامرة الخارجية – قبلنا بأنظمة دكتاتورية وعشائرية متخلفة، وسكتنا عن نهب ثرواتنا وخيراتنا من طرف الأجانب وقلة من المسئولين الفاسدين، وسكتنا على ان يأكل القوي الضعيف، وان تنتهك الحقوق وتداس الكرامة والمقدسات، ولم نبذل إلا أقل الجهود لإعادة النظر في نمط تفكيرنا وتصورنا وفي طبيعة العلاقات والمؤسسات التي نعيش فيها، فمادمنا مسيرين لا مخيرين، وما دام كل ما يجري هو من إرادة الله ومشيئته أو عقابا منه لنا على أخطائنا، فلنجلس وننتظر الفرج والرحمة.

وفي مرحلة لاحقة، عندما أصبح لدينا دول وحكومات وتبنينا شعارات وأيديولوجيات انتقلت فكرة المؤامرة لتأخذ طابعا سياسيا إيديولوجيا، فعندما عجزت الأنظمة العربية عن تحقيق ما تطمح إليه الجماهير من حرية وحياة كريمة، وعندما بدأت الجماهير تستفيق من خدر الأيديولوجيات وتتذمر من حكامها، وتوجه أصابع الاتهام إلى النخبة السياسية الحاكمة، وظفت هذه الأخيرة نظرية المؤامرة للتهرب من المسؤولية ولشغل الجماهير بالخطر الخارجي عن الانشغال بالأسباب الحقيقية للفقر والتخلف وسوء الأوضاع، وهكذا اعتبرت الأنظمة الثورية والقومية ان ما يحول دون تحقيقها للأهداف التي وعدت بها الجماهير، هو **التآمر الصهيوني الاستعماري**، واعتبرت الأنظمة المحافظة أن سبب تعثرها في مسيرتها التنموية، وفي تحقيق الاستقرار، هو **التآمر الشيوعي**، ففكرة المؤامرة وتوظيفها بشكل مضخم، هي أقصر

طريق وأفضلها للتهرب من المسؤولية ولإلهاء الجماهير، وخصوصا إذا كانت هذه الجماهير أمية وجاهلة، وتم توظيف فكرة المؤامرة في موضوعات تمس الدين والثقافة والهوية والتاريخ، أي تمس مقدسات الأمة، المقدسات الحقيقية أو ما أضفي عليه طابع القدسية من أمور دنيوية.

ولكن هل هناك مؤامرة أمريكية غربية صهيونية ضد الأمة العربية والإسلامية؟

طبيعة العلاقات العربية الإسلامية من جهة والغربية الأمريكية الصهيونية من جهة أخرى، تاريخيا، وطبيعة المصالح الإستراتيجية للطرف الثاني في المنطقة العربية، كل ذلك يجعلنا **لا نستبعد وجود المؤامرة**، وخصوصا عندما دخل الكيان الصهيوني كمكون رئيس في هذه العلاقة. **ولو نظرنا إلى تاريخ العلاقة بين الطرفين منذ الأندلس إلى اليوم، لوجدناها علاقات حرب وصراع واستعمار متبادل، أو سلام مشوب الحذر.**

ولن نذهب بعيدا في التاريخ للتدليل على وجود تآمر على الأمة العربية والإسلامية، ولكن سنأخذ بعض المحطات أو المؤشرات الدالة على وجود سياسة تآمرية، هي جزء من السياسة الاستعمارية الإمبريالية، **ففي عام 1907**، طلب رئيس الحكومة البريطانية كامبل بنرمان من لجنة من الاستراتيجيين والخبراء، وضع تصور عن المخاطر التي قد تتعرض لها الإمبراطورية البريطانية والحضارة المسيحية. وكانت خلاصة التقرير الذي سمي **بتقرير – كامبل بنرمان – أن الخطر يكمن في الشعوب التي تقطن السواحل الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط، نظرا لما يجمعها من تاريخ مشترك ودين وثقافة، ونصح التقرير بتقسيم المنطقة وتفتيتها إلى دويلات طائفية متناحرة، كما نصح بزرع جسم غريب، يفصل شرقها عن غربها، ونصح التقرير بريطانيا بإسكان اليهود في فلسطين** – وهي نفس خلاصات الاستراتيجيين الغربيين والأمريكيين كنظرية نهاية التاريخ لفوكوياما، ونظرية صراع الثقافات لهانتنغتون حول الخطر الإسلامي المهدد للحضارة المسيحية – وفي عام 1915 وأثناء الحرب العالمية الأولى، دخلت بريطانيا في مفاوضات مع العرب لتشجيعهم على التمرد على الإمبراطورية العثمانية، مقابل إقامة دولة عربية موحدة في المناطق العربية من الدول العثمانية، وقد سميت هذه المباحثات **بمحادثات حسين – مكماهون**، ولكن في نفس الوقت التي كانت تجري فيه هذه المحادثات، كانت بريطانيا تجري محادثات سرية موازية مع فرنسا من جهة، والحركة الصهيونية من جهة أخرى، وهي **مفاوضات تمثل قمة التآمر**، فمع فرنسا

وقعت اتفاقية سايكس–بيكو 1916، لتقسيم المنطقة العربية إلى مناطق نفوذ بين الدولتين، ومع الحركة الصهيونية توجت المفاوضات بإعلان وعد بلفور، الذي أعطى اليهود وطنا في فلسطين، أما العرب الذين تحالفوا مع بريطانيا وفرنسا، فقد تحولوا إلى شعوب مُستَعمرَة.

وتواصل مسلسل التآمر، حيث وضعت الدول الأوربية والولايات المتحدة كل ثقلها لإقامة الكيان الصهيوني وضمان تفوقه، وعملت على إثارة الصراعات والحروب الأهلية في المنطقة، بدءا من سياسة الأحلاف خلال الخمسينات، إلى تغذية الحرب الأهلية في لبنان، ودعم متمردي جنوب السودان، والعمل على فصل جنوب وشمال العراق عن الدولة المركزية، ودعم كل الحركات والجماعات الطائفية والإثنية المعارضة للدول العربية والإسلامية باسم حقوق الإنسان والديمقراطية، واحتضان جماعات معارضة عربية وإسلامية، لا تخفي استعمالها للعنف ضد بلدانها، ولا ننسى في هذا السياق أحدث تآمر صهيوني أمريكي وهو **التآمر على القضية الفلسطينية باسم التسوية السلمية**، حيث أوقعت أمريكا الفلسطينيين والعرب في المصيدة الصهيونية باسم التسوية والسلام وتركتهم لمصيرهم.

أما أعظم تآمر ضد الأمة العربية الإسلامية، فهو الذي يجري في **الخليج العربي**، باسم الشرعية الدولية، فمع عدم تجاهل أخطاء أنظمة المنطقة ومسؤوليتهم في نشوب الأزمة، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا والحركة الصهيونية، وظفوا الأزمة بشكل تآمري مكنهم وتحت شعارات الشرعية الدولية وأمن المنطقة، تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه طوال عشرات السنين من التآمر على شعوب المنطقة، وهو التآمر الذي أدى إلى **احتلال العراق**.

إن المتفحص للخارطة السياسية العربية والإسلامية يجد أن كل دولة من دول المنطقة، منشغلة بمشكلة، إما داخلية تهدد وحدتها واستقرارها، وإما مع جيرانها تستنزف خيراتها ومواردها وتحول دون إقامة علاقات سوية، فبالأحرى توحيد المنطقة، وفي جميع الحالات، نجد الدور الاستعماري الأمريكي او الأوروبي أو الصهيوني أو جميعها، متجسدا في دعم طرف ضد طرف أو في دعم الطرفين المتنازعين، بالعلن أو بالسر.

إذا كانت هذه هي الأشكال السياسية للتآمر، فالأوجه الاقتصادية والثقافية لا تقل خطورة، فالعلاقات الاقتصادية غير المتكافئة، **والنهب الذي تمارسه الشركات متعددة**

الجنسيات، وربط اقتصاديات البلدان العربية بالمركز الرأسمالي من خلال وسطاء محليين هم الشريحة الفاسدة في المجتمع، وفرض وترويج نمط الاستهلاك الرأسمالي، كل هذه أمور تدخل في باب التآمر وإن أخذت أشكالا قانونية، لأنها في النهاية تضعف الاقتصاديات الوطنية وتلحقها بالاقتصاد الرأسمالي الغربي، وتأتي سياسة العقوبات والحصار كنوع جديد من التآمر، وعلى المستوى الثقافي والإعلامي، فإن هيمنة وسائل الإعلام المسيطر عليها من طرف الصهيونية العالمية ومؤيديها في الولايات المتحدة، هيمنتها على شبكات نقل المعلومات والأخبار، يعمل على تشويه الحقيقة، ونقل صورة مغرضة عن الشعوب العربية والإسلامية، فتحول المسلم أو العربي إلى إرهابي لمجرد دفاعه عن حقوقه المشروعة، والثقافة العربية تتحول إلى أساطير شعب بدائي وهمجي والدين الإسلامي يتحول إلى تعاليم تحض على العنف وتحتقر المرأة ولا تعترف بحقوق الإنسان، الأمر الذي ينتج عنه تعميق العداء بين الشعوب الغربية والأمريكية من جهة والشعوب العربية الإسلامية من جهة أخرى، ومن خلال حالة العداء هذه التي تصنعها وسائل الإعلام يمرر الغرب وأمريكا والصهيونية مؤامراتهم ضد العرب والمسلمين.

نستخلص مما سبق أن الحكمة تستدعي وضع مقولة وجود مؤامرة ضد العرب والمسلمين في سياقها الصحيح وحجمها الصحيح، فهناك دول ذات شأن **كالصين، وروسيا، واليابان، وفرنسا،** وغيرها، يمكن أن تكون عونا للعرب والمسلمين في تحقيق نهضتهم ووحدتهم، بل يمكنهم أن يكونوا ومن خلال خلق مصالح متبادلة عونا في إفشال التآمر الأمريكي الصهيوني على ودول المنطقة، فهذه الدول ذات ثقافات عريقة وأسس حضارية يجعلها ذات وزن دولي، يمنعها من الاستتباع للولايات المتحدة أو للكيان الصهيوني، بل هناك مصلحة إستراتيجية تجمع هذه الدول والعالم العربي والإسلامي، وهي مواجهة التطلع الأمريكي للهيمنة على العالم في إطار ما يسمى بالنظام الدولي الجديد. والمطلوب عربيا وإسلاميا التمييز بين خطاب التحريض السياسي وبين والواقع السياسي، ففي ظل غياب عالم إسلامي واحد و- أمة إسلامية - ذات مصالح مشتركة قائمة وأهداف مشتركة مجمع عليها، وفي ظل تناقض المصالح والأهداف بين الدول العربية الإسلامية وبعضها البعض، يصبح الحديث عن وجود مؤامرة ضد (أمة عربية إسلامية) هو كلام غير علمي، **إنّ ما يجري هو مؤامرة، مؤامرة تقوم على تحالف جزء من العالم الغربي المسيحي مع جزء من العالم العربي الإسلامي ضد الجزء الآخر**

من العالم العربي الإسلامي، وهو صراع على المصالح ولأجلها. وعندما تشعر الدول العربية والإسلامية أن مصالحها المتبادلة مع بعضها البعض أقوى من مصالحها مع الآخرين وعندما تضع هذه الدول لنفسها **براداغم**، Paradigm، **أو نموذج مرجعي**، يوحد هدفها آنذاك تسقط المؤامرة ويحتار المتآمرون في أمرنا وعليه يمكن القول إنّ الرد الصحيح على المؤامرة، هو **أن نوقف تآمرنا على بعضنا البعض أولا، ثم نتجه لوقف تآمر الآخرين علينا**، أي أن نفقد المتآمرين، الأدوات والمبررات المحلية التي تسهل عليهم مخططاتهم التآمرية.

ثانيا: ثقافة الخوف في مناطق السلطة الفلسطينية

1- القلق على الهوية الوطنية كسبب ونتاج لثقافة الخوف

الفرد كجزء في جماعة يؤثر ويتأثر بها، وبالتالي هناك ارتباط قوي ما بين الهوية والثقافة وما بين الثقافة والتنشئة الاجتماعية، الهوية المستقرة والمنسجمة تخلق ثقافة مستقرة ومبدعة، وعندما تكون الهوية مهددة أو مأزومة تنتج ثقافة الخوف والقلق. الهوية تتكون من خلال عمليات توحد وتطابق ومزج بين المسلمات الشخصية للفرد، ومن يؤثرون فيه اجتماعيا ونفسيا.(7) ثم تقوم التنشئة الاجتماعية بعملية ربط الهوية الفردية بالهوية الجماعية، وتعزيز الشعور بالانتماء للجماعة داخل الفرد، بالإضافة إلى تحقيق بنية دافعة بداخل الفرد، وظيفتها قبول هذا الأخير وتكيفه مع النموذج السياسي والاجتماعي والاقتصادي السائد في المجتمع. وتتقوى هذه النزعة في المجتمع حين تتحول إلى حركات سياسية أو اجتماعية احتجاجية، إما في مواجهة تهديد من هويات محلية متعارضة معها، أو في مواجهة تهديد من هويات أو ثقافات خارجية.(8) كما أن الهوية تتحدد كثقافة في سياق العلاقات الإنسانية، حين إدراك المسائل العالمية والوعي بتعقدها.(9)وهذا ما نلمسه اليوم مثلا، فيما يسمى بخطر العولمة الثقافية أو صراع الحضارات. لكن تكوين الهوية وتمايزها -إنتاجها- يحتاج إلى زمن طويل، حيث يؤكد R. Stavenhagen، ان الجماعة الإثنية تعد نتاجا للتاريخ، وتقاوم من أجل الأرض أو طريقة الحياة. (10)ومن ضمن المعالم المحددة للإثنية أو الهوية العرقية، نذكر (الخصوصيات الثقافية والدين والعرق والسلالة والاقتصاد والقومية والبيولوجيا...) وهذه كلها بنيات ثقافية وبنيات للهوية تشكل معاني مشتركة للانتماء.(11)

واليوم تتفاقم أزمة الهوية في العالم الثالث كظاهرة يطلق عليها **برتراند بادي**، أثننة العالم، فالعالم يشهد اليوم حالة لا تخلو من تناقض ظاهري، فمن جانب تتعرض ثوابت الهوية للزعزعة، ومن جهة أخرى تنبثق هويات كان يُعتقد أنها تلاشت، وهويات كانت كامنة، وخصوصا في مجتمعات فقيرة وضعيفة وجدت في الهوية العرقية أو الدينية، الجدار الأخير الذي يحفظ لها كينونتها ويحول دون اندثارها بعد انهيار الإيديولوجيا. اليوم "يجري إخراج الإنسان من يقينيته وذاتيته وكينونته، وربطه إلى عصر الكونية الذي تذوب فيه كل الخصوصيات".(12) انقلبت إحدى أدوات العولمة ضدّ مسارها، حيث شجعت هذه الأخيرة، المجموعات الإثنية والدينية والقومية على لبس **عباءة الديمقراطية**. كما أصبح خطاب الهوية القومية، يشكل شعارا أيديولوجيا تحتمي به الجماعات الاجتماعية المهمشة. ولهذا **فالهوية لا تصاغ بقوانين ولا تندثر بقوانين**، ولكنها كالكهرباء تتغلغل في حياة البشر، وتكمن في روح القوانين، وفي سلوك الناس وتفكيرهم ومشاعرهم، وتستمر ما استمر الانتماء والارتباط بوطن خاص بالجماعة.

لا غرو أن التهديد الرئيس للهويات الثقافية في عالم اليوم، يتأتى من العولمة الثقافية التي هي تعبير عن الهوية الثقافية للآخر –الثقافة الغربية المسيحية – التي تتوافر على عناصر القوة والتأثير، بحيث تصبح الهويات الثقافية للمجتمعات الضعيفة في حالة خطر، إلا أنه ومهما بلغت قوة العولمة، فليس بمقدورها تقديم نموذج ثقافي بديل، يستطيع تهميش الثقافات المحلية وإفراغ الهويات الثقافية من محتواها، أو الحيلولة دون التصادم بينها. وهذا ما أكد عليه شاهد من أهلها، وهو **هنتنغتون** في كتابه صدام الحضارات. تَشكُّل ثقافة عالمية هو نوع من المحال، لأن البشر بطبيعتهم مختلفون والله خلقهم كذلك، **ولم يحدث في تاريخ البشرية أن توحد العالم ضمن هوية**، فلا الديانات السماوية نجحت في ذلك ولا الإمبراطوريات بقوتها نجحت في ذلك. قد تنجح العولمة الاقتصادية والعلمية أو المعلوماتية، لأنها ترتبط بالجوانب المادية من حياة الإنسان، إلا أن البعد المتعلق بالهوية والثقافة أي بالجوانب المعنوية، من لغة وعقيدة وتراث حضاري غير قابلة للتوحد، وبالتالي، ستبقى مسألة الهوية ملازمة لوجود الدول والمجتمعات.

وفي حالتنا العربية يعتبر **تعدد الهويات وتداخلها**، أمرا يميز العرب عن غيرهم، فمن هوية وطنية أو قطرية إلى قومية إلى إسلامية إلى أممية. و إن كان التعدد أمراً إيجابياً، إلا أن التربية الحزبية والثقافة السياسية لبعض الأحزاب العقائدية عملت على

تشوهه الهوية والثقافة، حيث غلبت الإيديولوجيا على الهوية: **فالأممية ألغت الوطنية والقومية، والقوموية ألغت الوطنية، والإسلاموية ألغت كل شيء حتى العلم الوطني والنشيد الوطني.** إن أزمة الهوية في مجتمعاتنا مرتبطة بأزمة الدولة وأزمة الدولة مرتبطةً بأزمة الهوية، وكلاهما يبرران شرعية طرح السؤال من نحن؟. بالإضافة إلى ما سبق، فإنّ الهوية العربية الإسلامية مشبعة بالأشخاص، **فتقديس الأشخاص والرموز، أهم من تقديس الأرض والوطن، وتاريخ هويتنا وثقافتنا هو تاريخ أشخاص زعماء وليس تاريخ منجزات أو تاريخ دولة ووطن.**

لقد أصبح القلق والخوف على الهوية والانتماء، جزءاً من ثقافة الخوف في ظل عالم يتعولم قسرا. إذا كان هذا حال الهوية في المجتمعات المستقلة و المستقرة، فكيف بهوية كالهوية الوطنية الفلسطينية التي تتعرض لتهديد متعدد المصادر: استراتيجيا من **العدو الصهيوني**، الذي يشكل حالة نفي للهوية الفلسطينية، ومن **العولمة الثقافية**، وبدرجة اقل من **إيديولوجيات الهويات الصديقة أو التي نتشارك معها في الانتماء القومي والديني والإنساني، كالقومية العربية والإسلام والأممية**، هذا ناهيك عن **خطر الغربة والشتات.**

لا شك أن كثيرا من الشعوب العربية تعيش حالة خوف على الهوية إلا أن هذا الخوف، وإن كان يعبر عن أزمة هوية، فهذه ألازمة بالرغم من خطورتها إلا أنها لا تهدد وجود الهوية، **أما الفلسطيني إن ضاعت هويته الوطنية، تضيع الأرض أيضا**، لأن عدوه يريد تغييب هويته لطمعه بالأرض، فالهوية الفلسطينية مرتبطة بالأرض أكثر من أي هوية أخرى، فإن ضعفت الهوية أو غابت تضيع الأرض ويضيع الوطن، ومن هنا نجد ما يبرر الخوف الشديد على الهوية، وهو خوف يتجسد في الثقافة، في الشعر والقصة والأغنية الخ.

الخوف على الهوية الفلسطينية، أصبح ثقافة لها رموزها وتعبيراها، والتي قد تصل أحيانا إلى درجة تستفز الأشقاء من مسلمين وعرب، الذين يفسرون هذه المبالغة بالتركيز على الهوية أنه انفصال عن الانتماء الأكبر للأمتين العربية والإسلامية. و من هنا **يجب أن لا تتملك الفلسطيني عقدة ذنب أو تقصير إن طرح مسالة الهوية**، وإن طالب بفك الاشتباك أو إعادة صياغة الأولويات ما بين الهوية الوطنية الفلسطينية، والهويات الأخرى المتقاطعة معها، او بحث عن حلول سياسية تثبت وجوده الوطني في دولة

مستقلة. لا شك أن للحديث عن الهوية الآن محاذير، فإن أعلى الفلسطيني شأن الهوية الوطنية على حساب القومية والإسلام، يكون كمن يخدم العدو الذي يريد أن يفصل بين فلسطين ومحيطها العربي والإسلامي، ليتمكن من الانفراد بالفلسطينيين، وإنْ تجاهل هويته لمصلحة أبعاد قومية وإسلامية مأزومة، فهذا يحرف القضية عن مسارها. **فالنظام الرسمي العربي، هو الذي أضاع ثلثي فلسطين عام 1948، وأضاع بقيتها عام 1967،** والحركات والأنظمة القومية العربية انشغلت بهمومها القطرية على حساب الاهتمام بالقضية الفلسطينية. والحسم بمسألة الهوية من حيث (الدين) له مخاطر أيضا، فإنْ ركزنا على البعد الديني دون تعقل، نكون كمن يدعم جماعات دينية توظف الدين بطريقة خاطئة، ونخسر بذلك الرأي العام العالمي، فتطرف بعض المسلمين هو الذي دفع العالم ليدرج حركاتنا الجهادية في قائمة الإرهاب، و لكن إن تجاهلنا البعد الديني، نخسر دعم الشعوب المسلمة ولو كان دعما محدودا وعاطفيا، في وقت (تشهد إسرائيل والعالم المسيحي الغربي)، أصوليا. إن المتابع للسياسة الإسرائيلية في حربها ضد الشعب الفلسطيني، يلمس أن هذه السياسة تعمل على جبهتين: جبهة عسكرية لاحتلال الأرض، وجبهة سياسية ثقافية لتدمير ذاكرة الإنسان الفلسطيني، وتشويه تاريخ القضية، ليصبح الشعب الفلسطيني شعبا بلا تاريخ، وبالتالي بلا هوية، وعندما تنتفي الهوية الوطنية عن شعب، يسقط حقه في دولة مستقلة، بل يفقد حقه بالحياة.

إن كان الدين والقومية جزءا من الهوية الفلسطينية، فهذا لا يعطي للهوية الفلسطينية أي خصوصية، لأنهما قاسم مشترك بين عدة دول عربية. الهوية الفلسطينية هي ما سبق، **ذاكرة الشعب الفلسطيني، تقاليده ولهجته ولباسه ومعاناته ومشاعره وأحاسيسه المشتركة**، ورموز أخرى يجب استحضارها إن كانت مغيبة وخلقها إن كانت غير موجودة، وهي فوق كل ذلك، الأرض والدولة التي يجب ان يؤسس بأي شكل وبأي ثمن. أنْ تكون فلسطينياً، معناه أن تكون مختلفا عن الآخر، ليس اختلاف النقيض، بل اختلاف التميز، أيّاً كان هذا الأخر. من خلال ما سبق يمكن القول إن **الحديث عن هوية فلسطينية لا يعني القطيعة مع الهويات الأخرى**، ولا تطابق أفراد الجماعة – الشعب الفلسطيني – في الدين والفكر والعرق، **فالتعددية جزء من الهوية بالمفهوم الحضاري الديمقراطي ولكنها تعددية في إطار الوحدة، هوية لا تقوم على الإقصاء، بل على الاستيعاب والتعايش**. وعلى هذا الأساس يمكن للدين أن يكون جزءا من الهوية لا أن

تُغيب الهوية الوطنية في إطار الدين، أو بالأصح لمصلحة إيديولوجية دينية، ويمكن للعروبة أن تكون جزءا من الهوية الفلسطينية، لا أن تغيب الهوية الوطنية في إطار العروبة أو بالأصح أيديولوجية قوموية مأزومة، وخصوصا أن العروبة والإسلام، اليوم هي أدوات بيد أحزاب أو أنظمة توظفها لمصالحها، أو لخدمة هويات قطرية. فقد اتضح من خلال تجاربنا السياسية في العقود السابقة أن **انضواءنا تحت رايات هويات قومية أو أممية أو إسلامية آل إلى تبعية ممقوتة لأنظمة و قيادات لم تكن أمينة، أمناء لا للقضية الفلسطينية ولا للإيديولوجيات التي يزعمون الانتساب إليها.**

2- الانفلات الأمني كتعبير عن ثقافة الخوف

خلال السنوات الثلاث الماضية انشغل الشارع الفلسطيني وصناع القرار بموضوع **الانفلات الأمني والفساد السياسي**، وارتفعت دعوات من كل حدب وصوب، من الجمهور الفلسطيني المكتوي بنار الفساد والانفلات الأمني، ومن مثقفين ومناضلين ومن المعارضة ومن رجالات في السلطة، والطريف في الأمر، هو أنّ الصوت الأعلى من بين هذه الأصوات المطالبة بالإصلاح، كان **صوت رجالات السلطة، ومنهم رموز الفساد**، ومسببي الانفلات الأمني، ومثيري فتن، وحيث أنه اسند أمر بحث الموضوع لأيد إما غير فاعلة أو غير أمينة وغير صادقة، بحيث صدق فيهم المثل (وداوني بالتي كانت هي الداء)، فقد تمت لملمة الموضوع بتواطؤ ما بين الفاسدين النافذين في السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، ولم تتمكن السلطة في عهد الرئيس أبو مازن من عمل الكثير في موضوع الانفلات الأمني، لأنه ببساطة يوجد غياب للمرجعيات الناظمة للحياة السياسية سواء عند السلطة أو المعارضة. فعلى **مستوى السلطة:** في الوضع الطبيعي يفترض أن تكون السلطة الوطنية هي الجهة الوحيدة المحتكرة لاستعمال القوة وحفظ الأمن وخصوصا في قطاع غزة بعد خروج جيش الاحتلال، ولكن الواقع يقول انه لا توجد حكومة حاكمة ولا سلطة تمارس حقها بالتسلط المشروع، بل توجد عدة سلطات وعدة حكومات، فهناك سلطة وحكومة: الرئيس وسلطة وحكومة رئيس الوزراء وسلطة وحكومة الأجهزة الأمنية وسلطة و**حكومة تنظيم حركة فتح** – وداخلها عدة سلطات وحكومات- وهناك سلطة وحكومة مافيات الفساد وتجار السلاح (طبقة الفرسان)،

المتحالفون مع تجار بيع الوطن، حتى جاز السؤال، مَن يحكم في مناطق السلطة ومَن هو صاحب القرار؟.

وعلى **مستوى المعارضة**، فليس هناك معارضة واحدة بل معارضات بعدد القوى السياسية غير المشاركة بالسلطة، ولكل منها سلطة وحكومة، حتى مع بعض التصريحات هنا وهناك تقول بأنها تعترف بالسلطة، إلا أنها تتصرف على ارض الواقع باعتبارها خارج سلطة أو نفوذ السلطة الوطنية. المشكلة ليست فقط بعدم خضوعها لمرجعية السلطة أو مرجعية منظمة التحرير، بل غياب مرجعية واحدة لها كقوى معارضة أو قوى مقاومة، فلا توجد إستراتيجية مقاومة يلتزم بها الجميع ولا قرار سياسي موحد، بل ما بين هده القوى من التنابذ والتعارض ما يفوق أحيانا ما بينها وبين السلطة، حتى حق التساؤل أيضا، ما معنى حركة المقاومة؟ ومَن هو المقاوم أو المجاهد؟ وما هو سلاح المقاومة، وكيف نفرق بينه وبين السلاح غير المقاوم؟. ولا داعي للتأكيد مرة أخرى للقول بأننا لسنا ضد مبدأ المقاومة وشرعيتها، بل نناقش التباس وارتجالية الممارسة. دون إنكار الجهود التي بذلها **(الرئيس أبو مازن)** والمخلصون في مراكز القرار لإصلاح حال البلد، إلا أن الواقع يقول بأن الأمور تزداد سوءا وتعقدا، فكأنه لا يكفي المواطن والوطن ما يعانيه من الاحتلال، فجاء الانفلات الأمني، ليكسر ما تبقى من قوة في ظهر المواطن وليطرح تساؤلات كبيرة وعميقة، هل الانفلات الأمني هو انفلات أفراد عاديين؟ أم هناك علاقة ما بين الانفلات الأمني والانفلات السياسي أو غياب المرجعية الواحدة؟ ألا تشير كل الوقائع بان هناك أياد خفية وراء الانفلات الأمني، ومن ضمن هذه الأيادي أيادي **أباطرة الفساد السياسي**، وغالبيتهم منفلتون ومتمردون على أية مرجعية قيمية وسياسية و يسعون عن طريق الانفلات الأمني إلى التغطية على فسادهم السياسي؟.

في نفس السياق يأتي العمل المشين، وهو **(خطف أجانب)** من طرف مسلحين. فبكل بساطة يعلن مسؤول أمني كبير وفي مؤتمر صحفي، بأنه تم إطلاق سراح المخطوفين، وأن الخاطفين معروفون، ولهم مطالب من السلطة، وأن الشرطة تبحث عنهم! الغريب هنا والخطير أن كل من له مطالب أصبح يلجأ لخطف من يصادف من أجانب أو من مسئولين أو يهاجم مقرات السلطة، وكأننا نعيش في **شريعة الغابة**، والأغرب أن يقول المسئولون بأن الخاطفين، معروفون والشرطة تبحث عنهم **وكأن**

خانيونس أو قطاع غزة مجاهل أفريقيا أو الربع الخالي داخلها مفقود وخارجها مولود!.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها خطف أجانب، وهو عمل في ظل ظروفنا الحالية **يرقى لدرجة الخيانة العظمى**، نظرا لنتائجه المدمرة على قضيتنا الوطنية، بل سبقتها مرات عديدة، وكانت سابقاتها من عمليات على يد محسوبين على حزب السلطة، وللأسف لم تتخذ بحق هؤلاء أي إجراءات عقابية تكون رادعا لغيرهم، بل كانت السلطة تدخل في مفاوضات مع الخاطفين، وتلبي لهم مطالبهم أو تعدهم بتلبيتها أو تعدهم بعدم المتابعة القانونية. كثير من الأمور تربك المواطن العادي وتثير قلق وخوف كل متابع غيور على القضية وملم بخفايا الأمور. ما نود الحديث عنه بشيء من التفصيل، هو كيفية التوفيق بين ما يجري في مناطق السلطة اليوم من فلتان أمني وفوضى معممة من جانب، وتباكي وشكاوى مسؤولي السلطة من هذا الفلتان من جهة أخرى. وكأن الأجهزة الأمنية أجهزة سلطة أخرى أو مفروضة على السلطة وليست جزءا منها؟! **كيف نوفق بين الزعم بأن السلطة قادرة على حفظ الأمن والقيام بمهامها بعد الانسحاب الإسرائيلي من غزة، فيما نشاهدها عاجزة عن حفظ الأمن في المناطق التي تحت سيطرتها الآن!. والأهم من ذلك، هل يمكن لمجتمع تسوده ثقافة الخوف: الخوف على الذات والخوف على الوطن، أن يربح المعركة مع العدو الخارجي؟**

اليوم لم يعد السكوت مبرراً على ما يجري من فوضى معممة ومسلحة في مناطق السلطة، كنا قبل ذلك نقول بأن **الحوادث الفردية** التي تجري هنا وهناك أمر طبيعي، وكل دول العالم تعرف حالات مشابهة، كنا نكابر ونهون من الأمر، حتى لا نشوه صورة **شعب الانتفاضة وشعب الجبارين**، وهو شعب يستحق كل احترام وتقدير وشرف لنا أن ننتمي لهذا الشعب. ولكن، وصل السيل الزبى، بحيث بات الصمت يأخذ معنى التواطؤ، وأصبح التبرير جريمة. **الفوضى المسلحة** أصبحت بنيوية وتقوم بوظيفة تخدم العدو بشكل مباشر، بنيوية من حيث شموليتها وتعدد الأطراف المشاركة بها: عنف بين الأفراد، وعنف بين الأسر والعشائر، وعنف ما بين الأجهزة الأمنية، وعنف داخل الجهاز الواحد والتنظيم الواحد، **واحتقان يهدد بالانفجار ما بين السلطة وأحزاب المعارضة.** أما كون **هذا العنف، يقوم بوظيفة خدمة إسرائيل**، فهو أمر طبيعي ليس فقط لأنه لا يمكن لعنف سياسي ومجتمعي أن يخدم مصلحة وطنية، ربما يخدم مصلحة

أشخاص أو البعض من النخبة أو حزب ما، ولكن كل هذه المصالح لا تعبر عن مصلحة وطنية بل تضر بالمصلحة الوطنية عندما تتعارض مع بعضها البعض، **الفلتان الأمني يخدم العدو**، لأنه يتصاعد في الوقت الذي نحن فيه مقبلون على دفع استحقاقات خطة شارون، وفيما هذا الأخير وقوى خارجية أخرى يشككون بقدرة السلطة على حفظ الأمن.

التهديدات المتكررة للرئيس ولرئيس الوزراء بالاستقالة أو بتعليق عمل الحكومة – وتهديد رئيس حكومة بتعليق العمل احتجاجا على تقصير أجهزة أمنية تابعة للحكومة! هو أمر جديد وغريب وغير موجود بأية حكومة بالعالم – لم تعد تنطلي على أحد، بل أصبحت تأخذ شكلا تهريجيا. الأجهزة الأمنية جزء من السلطة: إشرافا وتمويلا، والأجهزة الأمنية ليست وليدة اليوم، فعمرها أكثر من عشر سنوات، وهي جُهزت عدداً وعدة –يصل عدد أفرادها حوالي **50 ألف مسلح**– لتقوم باستلام مهام أمنية في كل الضفة وغزة، وإسرائيل أراحتها وتريد أن تعهد لها فقط بضبط الأمن في شوارع وحواري قطاع غزة دون حدوده وسمائه ومياهه، ثم يقولون بأن الأجهزة الأمنية عاجزة عن ضبط الأمن!. الانفلات الأمني ليس حدثا عاديا كما هو الشأن في المجتمعات الأخرى، وليس شأنا أمنيا خالصا ولا سياسيا خالصا، فهو حالة ثقافية راكمتها سنوات من الإحباط واليأس وانعدام الثقة من الساسة وصناع القرار، الانفلات الأمني هو نتيجة لانفلات أو غياب المرجعيات القيمية والسياسية داخل المجتمع، وهذا الغياب ولد حالة من الخوف المعمم، ولكي يحصّنَ المواطن نفسه ضد الخوف وضد التهديد الواقع أو المنتظر، يلجأ لسياسة وقائية أحد تمظهراتها هو اللجوء للعنف واستعراض مظاهر قوته.

لا شك بأن بعض مراكز النفوذ في السلطة لها ضلع بالانفلات الأمني، بل تقوم بتعزيزه، وهم بذلك ومن حيث يدرون أو لا يدرون يخدمون مصلحة العدو، إنهم يريدون أن ينشغل المواطن بأمنه الشخصي والغذائي، بحيث يصبح كل همه هو كيف يحافظ على ذاته وماله، وكيف يؤمن رغيف الخبز لأولاده، وبذلك لا يصبح المواطن مهتما بأمن الوطن ولا باقتصاد الوطن. الانشغال بالهم اليومي لا يفسح المجال للمواطن ليحاسب المسئولين الفاسدين على فسادهم، ولا أن يتفرغ للاهتمام بما يجرى من مساومات وبيع وشراء للوطن. كما أن فساد مسئولين كبار في الأجهزة الأمنية وفي مختلف مناصب السلطة التنفيذية والتشريعية، يشكل عائقا أمام وضع حد للفوضى لأن

الفاسد الكبير لا يستطيع أن يمنع مواطنا عاديا من الفساد ومن الفلتان، هو لا يستطيع أن يفتح عينيه بعين المواطن، فكيف يستطيع اعتقاله أو قمعه، من يستطيع فتح ملفات الفوضى والفساد والفلتات، يجب أن يكون نظيف اليد ونموذجا للاستقامة والنزاهة.

ومع ذلك يمكن القول إنه لو توفرت الإرادة عند السلطة – تنفيذية وتشريعية وأجهزة أمنية– بوضع حد لحالة الفلتان الأمني لكان باستطاعتها فعل ذلك وسيكون كل الشعب إلى جانبها لأنها سلطة ممثلة للشعب، ولكن المشكلة لا تكمن بغياب القدرة بل في غياب الإرادة، المشكلة هي في مراكز نفوذ بعضهم، يتقلدون مناصب رفيعة يعتاشون على خراب البلد وتجويع الشعب والمساومة على الحقوق. وللأسف فإن المعارضة تتحمل جزءا من المسؤولية، فلو كانت **حماس والجهاد والشعبية وغيرها** من الفصائل المسلحة معنية بمصلحة الوطن، وبالتالي بوضع حد لحالة الفوضى لتم وضع حد لها. السلاح الشريف في السلطة وعند الفصائل، لو توفرت الإرادة يمكنه أن يضع حدا للفوضى ويقيم دولة القانون خلال أيام، ولكن فصائل المعارضة تعتبر أن كل ما يُضعف السلطة يقوى المعارضة، وبالتالي فإن مزيدا من الفوضى يجعل المعارضة أقرب للسلطة!.[1]

إن ما يجرى من فوضى، يعود لغياب المرجعية السياسية الناظمة للحياة السياسية، **تعدد المرجعيات** على المستوى الوطني يضعف السلطة الوطنية داخليا وخارجيا، ويؤدي لحالة الانفلات الأمني، و**غياب المرجعية الواحدة لحركة فتح**، يشجع آخرين على التمرد والفوضى لأن الحزب الحاكم ليس قدوة حسنة، وتعدد المرجعيات السياسية والتنظيمية والأمنية داخل جامعة الأزهر، هو السبب في الوضع المزري لهذه الجامعة التي شاءت الظروف أن أكون أحد أساتذتها.

– وأخيرا نقول هناك وطن يُعاد بناؤه، وهذا الوطن ليس مجرد أرض، وليس أيضا مجموعة من المواطنين ولكنه ثقافة وهوية. إعادة بناء الوطن سواء سلما أم بالنضال العسكري يحتاج إلى استراتيجيات وطنية، وإلى فكر ومفكرين، وفوق ذلك إلى ثقافة جديدة، ثقافة متحررة من ثقافة الخوف والجهل. قد يحتاج الأمر لوقت طويل لتجاوز

---

(1)– كُتب هذا البحث، قبل الانتخابات التشريعية، التي فازت فيها، حركة حماس (2006/1/25) – المحرّر.

الثقافة السائدة المأزومة، ولكن يقيننا أننا كعرب وفلسطينيين لن نفلح في تحقيق أهدافنا المشروعة في ظل نفس أنماط السلوك والتفكير، وفي ظل تسيد نفس النخب المأزومة.

الهوامش:

1. يعد ادوارد تايلور Sir Edward Tylor من أهم المفكرين الذين تناولوا موضوع الثقافة من وجهة نظر انتربولوجية، وفي تعريفه لها لم يفرق ما بين الثقافة والحضارة، فالثقافة بالنسبة له هي ذلك الكل المركب من العادات والتقاليد وأنماط السلوك التي تميز مجتمعا عن مجتمع آخر.
   - يمكن الرجوع حول الموضوع لمزيد من التفاصيل إلى:
   - إبراهيم أبراش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية، دار بابل للطباعة والنشر، الرباط، 1998، ص: 26.
2. أنظر حول الموضوع: حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول و عوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، العدد 237 الكويت، 1998، ص: 45.
3. إبراهيم أبراش، علم الاجتماع السياسي، دار الشروق، عمان، ص: 208
4. هناك دراسة حديثة لنظريتهما حول الثقافة السياسية يمكن الرجوع إليها في:
5. Michel Tompson and other, cultural theory, Westview Press, Bouldr, San Francisco USA and oxford UK 1990.
6. أنظر: موريس دوفرجيه، سوسيولوجيا السياسة، ترجمة هشام دياب، دمشق 1980، ص:39.
7. منذر خدام، الحوار المتمدن - العدد: 1486 - 2006 / 3 / 11
8. خليل فاضل، سيكولوجية الإرهاب السياسي، ط1، 1991، القاهرة، ص: 304.
9. السيد يسين، النظام السياسي العربي بين الأزمة والانهيار، التقرير الاستراتيجي العربي: 1995، ط1، القاهرة 1996، ص: 20.
10. المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، منشورات العيون، البيضاء، 1991، ط 2، ص:270.
11. Rodolfo Stavenhagen, Ethnic conflicts and the nation state. (London. Macmillan Press Ltd)1996. in. Human Rights quarterly. Vo. 19. N4. (November 1997) [The jons Hopkins university press] p. 865 1.
12. جان فرانسوا بايار، سياسة ملء البطون: في سيسيولوجيا الدولة الإفريقية، ترجمة حليم طوطوس، ط 1، دار العالم الثالث 1992، ص: 73-79.
13. إبراهيم محمود العالم، العولمة هل هي انفجار الهوية؟ مجلة الفكر العربي، عدد53، ص:165.

من ثقافة الخوف

إلى ثقافة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في لبنان

مسعود ضاهر

الجامعة اللبنانية

ثقافة الخوف من الاحتلال ومقولاتها النظرية 1948 -1982

إبان حكم الانتداب البريطاني على فلسطين عملت الحركة الصهيونية على استقدام عشرات الآلاف من يهود العالم. وأقامت لهم مستوطنات على أرضها، وقدمت لهم كل أشكال الدعم المالي، ودربتهم على القتال. وبعد أن أنجزت شعار"كل مستوطن مقاتل" بدأت، وبدعم مباشر من سلطات الانتداب البريطاني، بانتزاع مساحات واسعة من أراضي فلسطين والمناطق المجاورة لها، خاصة أراضي المشاع، والأملاك السلطانية والأميرية، وأراضي الموات، والأراضي المتروكة أو المهملة وغيرها. ثم بادرت إلى شراء المزيد منها بأسعار بخسة مستخدمة كل أشكال الترغيب والترهيب مع المالكين العرب. نتيجة لذلك ضاعت جميع أراضي اللبنانيين في سهل الحولة، وفي القرى التي هجرها سكانها تحت ضغط الإنكليز، بالإضافة إلى مساحات واسعة من سهول لبنان الجنوبية.

بعد قيام دولة إسرائيل، ومع بناء كل مستوطنة صهيونية جديدة قرب حدود لبنان الجنوبية، كان الشريط الشائك الإسرائيلي يتمدد داخل الأراضي اللبنانية ليقضم سنويا عشرات الهكتارات من أفضل الأراضي الزراعية، والتلال المحيطة بها.كذلك تم إخلاء المنطقة من سكانها البدو الذين كانوا يترحلون على مساحات شاسعة تمت مصادرتها لأسباب متنوعة.

هناك آلاف الوثائق التي توضح أساليب الخداع التي لجأ إليها الصهاينة لاغتصاب مساحات واسعة من أراضي اللبنانيين، داخل لبنان وفي فلسطين المحتلة.وقد تمت عملية السيطرة بأساليب سرية طوال فترة ما بين الحربين العالميتين ثم تحولت إلى اغتصاب مكشوف ضمن إستراتيجية ثابتة مارستها الدولة الصهيونية بشكل علني.

سيطر المستوطنون اليهود على مساحات واسعة من سهول الخيام والمطلة والمنارة اللبنانية منذ عام 1892 وأنشأوا مستوطنة "المطلة " عام 1896 بعد تهجير أهلها من

اللبنانيين. وكانت السلطنة العثمانية قد أقطعت بعض العائلات اللبنانية مئات الآلاف من الدونمات في (سهل الحولة) الخصب، فعمدت إدارة الانتداب إلى التضييق على أصحابها حتى اضطروا إلى بيع قسم منها، وبأسعار بخسة للحركة الصهيونية، التي صادرت القسم الآخر حتى **بلغ مجموع ما سيطرت عليه من أراضي اللبنانيين في سهل الحولة وحده قرابة 165 ألف دونم** خلال سنوات قليلة. ومع ترسيم الحدود بين لبنان وفلسطين عام 1923 أضيفت مساحات كبيرة من الأراضي اللبنانية إلى فلسطين المحتلة.

عند إعلان دولة إسرائيل عام 1948، كانت قيمة أملاك اللبنانيين وأموالهم المحجوزة من جانب الحكومة الإسرائيلية في المناطق المحتلة من فلسطين تقدر بنحو ماية مليون جنيه استرليني. وقد وضعت الأراضي المحتجزة تحت إشراف حارس مختص يتصرف بها تصرف المالك بملكه فيؤجرها ويستوفي ريعها ويبيعها كيفما شاء. كان المالك اللبناني يجهل تماما مصير ملكه المصادر والمحجوز في إسرائيل. لم تكلف الحكومة اللبنانية أحدا من قناصل الدول الأجنبية الصديقة للقيام بما يصون مصالح اللبنانيين هناك كما هي الأعراف المتبعة في العلاقات الدولية. ولم تعرض البعثات الدبلوماسية اللبنانية التي كانت تشارك في مؤتمرات دولية وفي اجتماعات الأمم المتحدة موضوع أملاك وأموال اللبنانيين المحتجزة في فلسطين.

رفع أصحاب الأراضي من اللبنانيين عرائض كثيرة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة **مطالبين بتعديل إتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل**، لصيانة حقوقهم وإسترداد أملاكهم التي وضعت إسرائيل يدها عليها. لكن الأمم المتحدة، ومنذ اليوم الأول لقيام دولة إسرائيل، أظهرت انحيازا سافرا إلى جانبها، مما سمح لها بالسيطرة التامة على جميع أراضي اللبنانيين في فلسطين المحتلة. فاضطر بعضهم لبيع أراضيه بأسعار بخسة للغاية بعد أن يئس من إمكانية استردادها. فخسر لبنان قرى بكاملها ومساحات كبيرة من الأراضي الزراعية للقرى المجاورة لفلسطين. على سبيل المثال لا الحصر دمرت إسرائيل قرية "**هونين**" اللبنانية لتقيم على أرضها مستوطنة "موشاف مرجاليوث".وحولت قرية "**آبل القمح**" إلى مستوطنة "موشاف يوفال"، وقرية "**قدس**" إلى قلعة "يفتاح"، وقرية "**المالكية**" إلى كيبوتز "ملكياه"، وقرية "**تربيخا**" إلى مستوطنة "شومراه"، وقرية "**النبي يوشع**" إلى مخفر "متسودت يشع"، و قرية "**صلحا**" إلى مستوطنة "ييرون". ودمرت بشكل كامل قرى: **الناعمة، والخالصة، والخصاص، ودفنة، والدوارة، والزوية، والزوق**

الفوقاني، **والزوق التحتاني**، **والمنصورة**، **ولزازة**، **وخان الدوير**، **وشوكة**، **وحانوتا**، **وإقرت**، **وكفربرعم**، وكثير غيرها.وسيطرت إسرائيل تباعا على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التابعة لقرى وبلدات: **مرجعيون**، **وكفركلا**، **ودير ميماس**، **وحاصبيا**، **والقليعة**، **ويارون**، **ورميش**، **وعيترون**، **وبليدا**، **وميس الجبل**، **وحولا**، **وعديسة** وغيرها.

أحدث قيام دولة إسرائيل على حدود لبنان الجنوبية تأثيرات اقتصادية واجتماعية بالغة الخطورة على لبنان واللبنانيين. فبعد حرب فاشلة شنتها الجيوش العربية مجتمعة لاستعادة فلسطين أصبحت سياسة الاحتلال والتوسع على حساب الأراضي اللبنانية،قاعدة ثابتة في صلب السياسة الإسرائيلية طوال النصف الثاني من القرن العشرين.وتحول عدد كبير من الفلسطينيين الذين طردتهم إسرائيل من وطنهم إلى لاجئين في الدول العربية المجاورة لفلسطين، خاصة لبنان. ومنهم من كان على درجة عالية من العلم والخبرة الإدارية والتربوية. **أقام لبنان عدة مخيمات مؤقتة للفلسطينيين على أرضه**، وذلك في جوار المدن الكبرى: بيروت، وطرابلس، وصيدا، وصور، وبعلبك، وجونيه. وأجمعت القوى والمنظمات السياسية اللبنانية، على اختلاف اتجاهاتها الطائفية والوطنية والقومية، على رفض توطين الفلسطينيين في لبنان، وأصرت على تنفيذ قرارات الأمم المتحدة التي نصّت على حقهم المشروع في العودة إلى أراضيهم وإقامة دولتهم المستقلة على أرض فلسطين وعاصمتها القدس. ورغم عمق المأساة، لعبت نكبة فلسطين وما رافقها من مقاطعة عربية لإسرائيل دورا إيجابيا في تطوير الاقتصاد اللبناني. فساهم **رأس المال الفلسطيني**، وأصحاب الكفاءة الإدارية والثقافية العالية من الفلسطينيين، في تنشيط بعض فروع القطاع الخاص، وفي مجالات عدة طوال الحقبة التي سبقت إندلاع الحرب الأهلية في لبنان عام 1975. من ناحية أخرى، استغلت إسرائيل هزيمة الدول العربية في حرب 1948 لتباشر مفاوضات مكثفة مع الحكومة اللبنانية انتهت بتوقيع "**اتفاق الهدنة العامة بين لبنان وإسرائيل**" **بين الجانبين في 23 آذار 1949**، وتضمن البنود التالية:

1. يجب على الفريقين كليهما من الآن فصاعدا أن يحترما بكل أمانة توصية مجلس الأمن بعدم اللجوء إلى القوة العسكرية في تسوية القضية الفلسطينية.

2. لا يجوز للقوات المسلحة البرية أو البحرية أو الجوية التابعة لأي من الفريقين القيام بأي عمل عدواني أو التخطيط له أو التهديد به ضد شعب الفريق الآخر أو قواته المسلحة.
3. يحترم احتراما تاما حق كل من الفريقين في أمنه واطمئنانه إلى عدم الهجوم عليه من جانب القوات المسلحة التابعة للفريق الآخر.
4. تعتبر إقامة هدنة بين قوات الفريقين المسلحة **(خطوة)** لا بد منها في سبيل تصفية النزاع المسلح وإعادة السلم إلى فلسطين.

لكن تلك الهدنة التي طالما تذكّر بها الدولة اللبنانية لم توقف تعديات إسرائيل على الأراضي اللبنانية، والتي تحولت إلى سياسة رسمية حققت من خلالها الدولة الصهيونية اختراقا كبيرا في جميع مناطق جنوب لبنان المجاورة لها.

بالمقابل، التزم لبنان بصورة تامة ببنود اتفاق الهدنة من موقع الدولة الضعيفة التي اعتمدت **سياسة "الحياد" في الصراع العربي-الصهيوني** لسنوات طويلة.واستمرت سياسة التمسك باتفاقية الهدنة إلى أن أبرم لبنان في عام 1969 **"اتفاق القاهرة"** مع منظمة التحرير الفلسطينية، واعترف لها رسميا بحق المقاومة انطلاقا من الأراضي اللبنانية. فتحول جنوب لبنان إلى منطقة صراع دموي شبيهة بما يجري على أرض فلسطين الملتهبة على الدوام.

أكدت تقارير الأمم المتحدة على قيام إسرائيل بانتهاكات شبه يومية ومستمرة لأراضي لبنان وسمائه، ومياهه الإقليمية. ووسعت من دائرة سيطرتها على عشرات القرى في جنوب لبنان، وضمت أجزاء واسعة من أراضيها.ومع الزيادة السنوية في عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين وارتفاع حجم المساعدات الأميركية لدولة إسرائيل، كانت تتصاعد حدة الاعتداءات على جنوب لبنان والتي أدت إلى تهجير عشرات آلاف الجنوبيين إلى بيروت وضواحيها. **ورافق عملية التهجير القسري إفراغ قرى بكاملها من سكانها، وتوسيع الشريط الشائك** الذي يفصل الأراضي اللبنانية عن أراضي فلسطين لصالح إسرائيل، وعلى حساب لبنان واللبنانيين. واستمر مسلسل اقتطاع الأراضي وتهجير السكان طوال النصف الثاني من القرن العشرين.فتمدد شريط الاحتلال الإسرائيلي داخل الأراضي اللبنانية في أقضية صور، وبنت جبيل،ومرجعيون، وحاصبيا وغيرها. ثم كان الاجتياح الكبير الأول لجنوب لبنان في **"عملية الليطاني" عام 1978**،

والثاني في **عملية "سلامة الجليل" عام 1982**، والتي قادت إسرائيل إلى احتلال العاصمة بيروت وأجزاء واسعة من جبل لبنان، وجنوبه، والبقاع الغربي.

– قامت إيديولوجيا النظام السياسي اللبناني التي اعتمدت خلال سنوات 1948 – 1982 على مبدأ أن **لبنان ليس دولة مواجهة مع إسرائيل**. ونظرا للفوائد المالية التي جنتها البورجوازية اللبنانية من نكبة فلسطين ومن المقاطعة العربية لإسرائيل عمدت الحكومات اللبنانية المتعاقبة إلى السكوت عن أعمال إسرائيل العدوانية في جنوب لبنان.ونادرا ما رفعت شكوى إلى مجلس الأمن حتى لا تحرج الولايات المتحدة الأميركية، حليفة إسرائيل الرئيسية. وكانت الحكومات اللبنانية ترفض تثقيف الجيش والشعب في لبنان بثقافة العداء لإسرائيل. **ونشرت مقولات تؤسس لثقافة الخوف من إسرائيل منها:" قوة لبنان في ضعفه"، و" لبنان تحيمه صداقاته الدولية وليس قواه العسكرية".واعتبرت معظم القيادات السياسية اللبنانية أن الصداقات الدولية هي ضمانة لبنان وشعبه من مخاطر الاحتلال الإسرائيلي. وقد ثبت بطلان تلك المقولات بعد أن فقد لبنان مساحات شاسعة من أراضيه الجنوبية**، وتهجير أعداد كبيرة من الجنوبيين باتجاه بيروت.ومع تقاعس الدولة اللبنانية عن حماية شعبها وأراضيها، وخوفها من المواجهة العسكرية مع العدو الصهيوني، تفككت أوصالها، وتفرق جيشها وقواها الأمنية، وانقسمت مؤسساتها. كان الشعور بالخوف والإحباط من الجيش الإسرائيلي يسود غالبية اللبنانيين. مما سمح لشريط الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب أن يتوغل عميقا داخل الأراضي اللبنانية، ومعه الشعور بخوف دائم من احتلال لبنان وتشريد شعبه.

جدلية الاحتلال / المقاومة ورفض ثقافة الخوف

بدأت مقاومة الاحتلال في جنوب لبنان منذ اليوم الأول للاجتياح الإسرائيلي عام 1978، ثم تحولت إلى مقاومة وطنية شاملة بعد احتلال بيروت عام 1982. فقد أحدث احتلال إسرائيل لبيروت هزة كبيرة في الرأي العام اللبناني والعربي لأنها كانت العاصمة العربية الأولى التي تسقط تحت الاحتلال. نتيجة لذلك انفجرت المقاومة الوطنية اللبنانية، بتسميات متعددة، ضد إسرائيل من جهة، وضد مواقف الحكومات اللبنانية المتخاذلة والتي كانت تنشر ثقافة الخوف من إسرائيل وتمنع تجنيد الطاقات اللبنانية في مواجهتها. وخشية أن يفقد اللبنانيون المزيد من أراضيهم، وأمام خطر ضياع لبنان بكامله بعد

احتلال عاصمته بيروت ومعها قرابة نصف الأراضي اللبنانية، وقع عبء النضال على كاهل **المقاومة الوطنية اللبنانية بالتحالف مع المقاومة الفلسطينية وسوريا.**

لقد كسر اللبنانيون حاجز الخوف من الاحتلال، وأنزلوا ضربات موجعة بالجيش الإسرائيلي. وسرعان ما تحولت المقاومة إلى عنصر استقطاب للقوى اللبنانية المناهضة للاحتلال والحريصة فعلا على استقلال لبنان، وسيادته، ووحدة أرضه وشعبه ومؤسساته. وخاضت المقاومة معركة قاسية من أجل اجتثاث ثقافة الخوف من نفوس اللبنانيين عبر الانخراط المباشر في المقاومة الوطنية، وبناء الوحدة الوطنية، وتنشئة الجيش اللبناني على إيديولوجية العداء لإسرائيل.

بعد أن استعادت الدولة اللبنانية وحدتها على **قاعدة اتفاق الطائف عام 1989**،جرى تثقيف الجيش اللبناني بثقافة العداء لإسرائيل. مما سمح بقيام تحالف وثيق بين المقاومة الشعبية والقوى العسكرية الرسمية على قاعدة حماية المقاومة من خلال جبهة وطنية، رسمية وشعبية. فحقق ذلك التحالف أول نصر عربي حقيقي على إسرائيل التي اضطرت للجلاء عن جميع الأراضي اللبنانية المحتلة منذ 1923، **باستثناء مزارع شبعا**، ودون قيد أو شرط أو تقديم تنازلات من أي نوع كان. وتخلى الإسرائيليون عن كثير من أفراد ميليشيا جيش لبنان الجنوبي من الذين خدموهم طوال 22 سنة. فشكل انتصار المقاومة الوطنية على الجيش الإسرائيلي وعملائه من جيش لبنان الجنوبي نقطة تحول أساسية في تاريخ لبنان المعاصر.وبدأت نتائجها الإيجابية جلية في تعزيز جبهة المقاومة الفلسطينية، وبشكل خاص الانتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ 28 أيلول 2000. ويمكن تلخيص أبرز العوامل التي ساعدت على تحقيق (الانتصار اللبناني بتاريخ 24 أيار 2000) ضمن أربعة محاور أساسية، هي:*

1. **التمسك بالكفاح المسلح أسلوباً، أثبت صدقيته في مواجهة نظام إسرائيلي يخاف من الخسائر البشرية** في صفوفه أكثر مما يخاف من الشرعية الدولية وقراراتها التي لم تنفذ. فليس بمقدور الدول أو الشعوب الصغيرة كلبنان وفلسطين الركون إلى

***- كُتب هذا البحث، قبل (الانتصار الثاني العظيم) للمقاومة اللبنانية في تموز وآب 2006: (الوعد الصادق)، حيث سحق الفدائيون اللبنانيون، غطرسة الجيش الإسرائيلي، ومرّغوا أنفه في التراب. ويختلف هذا الانتصار في أسبابه ونتائجه وظروفه عن انتصار عام 2000، وإنْ كان تتويجاً له – (المحرّر).**

إتفاقيات غير متكافئة مع دولة محتلة كإسرائيل لا تفهم إلا لغة العنف والقتل والتهجير وتضرب عرض الحائط بكل النظم والقيم الإنسانية.

2. **التنسيق الجيد ما بين المقاومة الوطنية على الساحة العسكرية وتحركات الدولة اللبنانية في المحافل العربية والدولية**، وصمود المجتمع المدني اللبناني في مواجهة بربرية القصف الإسرائيلي التي طالت مرارا البنى التحتية اللبنانية خاصة الجسور، والكهرباء، والطرقات، والمستشفيات، والمدارس.

3. **الاستفادة من أشكال الدعم العربي المتنوعة**، التي ساعدت لبنان على الصمود والتصدي، والذي تجلى بتقديم مساعدات عاجلة للبنان، ويعقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب في بيروت وما صدر عنه من قرارات ساهمت في رفع معنويات اللبنانيين وتعزيز الجبهة الداخلية والإصرار على انسحاب إسرائيل من لبنان دون قيد أو شرط، ورفض توقيع معاهدة معها أو تقديم تنازلات لها من أي نوع كان. وليس من شك في أن الاحتضان العربي للبنان، وبشكل خاص في السنوات الأخيرة ساهم في دعم لبنان عبر منظمات عربية ودولية دون أن يرتقي إلى مستوى الدعم المالي الضروري لإنقاذ لبنان من الأزمة الاقتصادية الحادة التي يتخبط فيها منذ سنوات طويلة دون أن يصله إلا النزر اليسير.

4. **تمسك لبنان بالقرار 425 لعام 1978**، الذي يفرض على إسرائيل الانسحاب الفوري من لبنان دون قيد أو شرط. لذلك حرص الإسرائيليون، ومعهم الأمين العام للأمم المتحدة وكل القوى الحليفة والصديقة لإسرائيل، على وصف الهزيمة الإسرائيلية في لبنان في أيار 2000 بأنها تنفيذ لقرارات دولية مضى عليها أكثر من عشرين عاما ولم تطبق إلا بقوة سلاح المقاومة.

على جانب آخر، تحول الانتصار اللبناني إلى **ورقة ضاغطة على مفاوضات السلام** بحيث لم يعد المفاوض الإسرائيلي المدعوم أميركيا قادرا على فرض إرادته على المفاوض الفلسطيني الرافض لتقديم أية تنازلات إضافية.وبات المناضل الفلسطيني مطالباً بالصمود والتصدي للمشروع الصهيوني لانتزاع الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني وفي طليعتها حق العودة، وإقامة دولته المستقلة على أرض فلسطين، والتمسك بقرارات الأمم المتحدة التي تضمن حقوق الفلسطينيين والتعويض على تهجيرهم من ديارهم، وإعلان القدس عاصمة للدولة الفلسطينية، وإجبار إسرائيل على تفكيك مستوطناتها في

غزة والضفة الغربية. وأكد الانتصار اللبناني على وجود حاجة ماسة لتطوير النظام السياسي في لبنان بحيث يحافظ على تعدد الطوائف والقوميات والاتجاهات السياسية والثقافية لكي تتعايش جنبا إلى جنب ضمن نظام ديموقراطي يكفل الحريات الأساسية للإنسان. وتمسك اللبنانيون بنظامهم المتعدد الطوائف والذي يشكل نقيضا للنظام العنصري السائد في إسرائيل.

من خوف اللبنانيين من إسرائيل إلى خوفها من السلاح المقاوم

بعد هزيمتها في لبنان تبدو إسرائيل شديدة الحرص على **(نزع سلاح المقاومة)** اللبنانية بأقصى سرعة ممكنة. وذلك لأسباب عديدة أبرزها الهلع الحاصل في صفوف المستوطنين الإسرائيليين على الحدود اللبنانية – الفلسطينية حيث يتم نقل الطلاب بالسيارات العسكرية المصفحة من بيوتهم إلى المدارس. وتقوم إسرائيل بتكثيف تواجدها العسكري في مستعمراتها القريبة من لبنان بهدف طمأنة السكان فيها ومنع الهجرة المضادة من تلك المستعمرات إلى داخل إسرائيل أو إلى الخارج. يضاف إلى ذلك أن بقاء سلاح المقاومة بأيدي اللبنانيين يؤثر كثيرا في الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، ويشجع المنظمات الفلسطينية مجددا على استخدام أسلوب الكفاح المسلح داخل الكيان الصهيوني مما يهدد عملية الاستقرار والإنتاج فيه. لذا **تبدو مقولة جمع سلاح المقاومة الوطنية اللبنانية وكأنها مطلب إسرائيلي بالكامل،** لأن إسرائيل تخشى السلاح الذي قاد إلى هزيمة جيشها في لبنان. كما أن الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي ما زال متفجرا، وهو مرشح للاستمرار لعقود إضافية، طالما بقي حلم إسرائيل ببناء المشروع الصهيوني عبر إسرائيل الكبرى ما بين الفرات والنيل.

مع ذلك، يرى بعض المحللين بحق، أن هزيمة إسرائيل في جنوب لبنان لا تعني هزيمة كاملة للجيش الإسرائيلي الذي ما زال يحتفظ بكامل طاقاته القتالية. وهو يتزود بأحدث الأسلحة لخوض حروب مدمرة مع العرب في حال تم الإعلان عن الفشل النهائي لمفاوضات السلام، وقد تطال الحرب الجديدة بعض الجبهات العربية مع سوريا ولبنان. ويخشى اللبنانيون من نوايا إسرائيل المبيتة لضرب البنى التحتية في لبنان مجددا من الجو والبحر والبر. لكن بمقدور المقاومة اللبنانية أن تنزل ضربات موجعة بالإسرائيليين من خلال مرابطة قواها على الحدود معهم في جنوب لبنان. فالوضع اللبناني ما زال في غاية التعقيد بسبب الظروف الإقليمية المحيطة بلبنان والتي ليست مرشحة للانفراج على

المدى القريب. وهنا تبرز حاجة اللبنانيين إلى الالتفاف حول ضرورة تحصين الانتصار الذي حققه اللبنانيون بدمائهم طوال أكثر من عشرين عاما.، ومنع إسرائيل من احتلال لبنان مجددا. لذلك يرفض قسم كبير من اللبنانيين فكرة تجريد الشعب في جنوب لبنان من سلاحه المقاوم لأسباب موضوعية أبرزها:

- أن إسرائيل نفسها تطبق **مقولة الشعب المقاتل** في جميع المستوطنات القريبة من الحدود اللبنانية بالإضافة إلى جميع المستوطنات القريبة من المخيمات الفلسطينية. وبالتالي، فإن من حق المواطن الجنوبي أن يحافظ على سلاحه لمواجهة شعب مسلح حتى الأسنان على حدوده المقابلة.
- أن **قوات حفظ السلام الدولية** لم تكن معنية يوما بالدفاع عن أمن اللبنانيين طوال العشرين سنة التي مضت على وجودها في جنوب لبنان. فقد ارتكبت إسرائيل أبشع المجازر في المناطق اللبنانية الخاضعة لسيطرة القوات الدولية وأبرزها مجزرة قانا عام 1996. كما أن الخسائر البشرية التي حلت بقوات الطوارئ الدولية من جراء القصف العسكري على جنوب لبنان تعد بعشرات القتلى المدونة أسماؤهم على لوحة وضعت خصيصا عند مدخل استراحة صور الدولية. هذا، بالإضافة إلى مئات الجرحى ومشوهي الحرب.
- أن **الجيش اللبناني** الذي سيرسل إلى الجنوب سيكون عاجزا عن حماية نفسه وحماية الجنوبيين بسبب عدم التكافؤ بينه وبين الجيش الإسرائيلي من حيث التسلح والمعدات والقدرة القتالية. ومن الخطأ الفادح زج الجيش اللبناني في معارك عسكرية ضد إسرائيل التي اعتادت إنزال ضربات خاطفة ومدمرة في حروبها ضد الجيوش النظامية العربية.

– إن لبنان مطالب اليوم بالاحتفاظ بسلاحه المقاوم إلى حين الوصول إلى حل نهائي وشامل للصراع العربي – الصهيوني. وليس من الحكمة أن يتخلى اللبنانيون عن السلاح المقاوم الذي أثبت كفاءة عالية في تحرير الأرض اللبنانية والإرادة الوطنية. وليس ما يؤكد على أن إسرائيل تخلت نهائيا عن أسلوبها العدواني ضد جيرانها، وبشكل خاص ضد اللبنانيين والفلسطينيين. كما أن أي تأزم على المسار الفلسطيني يمكن أن ينقلب إلى اعتداء كثيف على المناطق اللبنانية، وعلى المخيمات الفلسطينية في لبنان. وليس ما يؤكد على أن الحل النهائي والعادل والشامل للصراع بين

العرب وإسرائيل قد انتهى. وذلك يتطلب الاحتفاظ بسلاح المقاومة على درجة عالية من الجهوزية واليقظة لأن إسرائيل لا تخاف إلا كثرة القتلى في صفوف قواتها.

يمكن استخلاص بعض الدروس من نجاح المقاومة الوطنية في تحرير الجنوب لبناء لبنان جديد قادر على مواجهة التبدلات الإقليمية المتسارعة، وغير مرتهن لسياسية الأحلاف الإقليمية والدولية، والتأسيس على الانتصار اللبناني لإفشال المشروع الصهيوني في فلسطين. فمع هزيمة إسرائيل في جنوب لبنان دخل المشروع الاستيطاني الصهيوني مأزقه النهائي الذي ينبئ بزوال النموذج الأخير في سلسلة مشاريع الاستعمار الاستيطاني في التاريخ الحديث والمعاصر والتي انتهت بالفشل التام في الجزائر وجنوب أفريقيا.

المقاومة الوطنية تلغي ثقافة الخوف وتؤسس لقيام (لبنان الجديد):

نصت ديباجة الميثاق التأسيسي لمنظمة الاونيسكو على أن كرامة الإنسان تفترض تنشئة الناس جميعا على مبادئ الحرية والعدالة والسلام. فالاحتلال يناقض كل ادعاءات إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية وتحترم حقوق الإنسان. فهي تعمل على طمس الثقافة العربية والتراث العربي والتاريخ العربي في المناطق الخاضعة لاحتلالها في لبنان وسوريا وفلسطين. وحذرت منظمة الاونيسكو، من خلال توصيات المؤتمر الذي عقدته في نيروبي في 26 تشرين الثاني 1976 من تغيير المعالم الثقافية في المناطق المحتلة، واعتبرت ذلك مخالفة لكل مبادئ حقوق الإنسان. ولا بد من التذكير هنا أن الأمم المتحدة أدانت الصهيونية واعتبرتها شكلا من أشكال التمييز العنصري. لكن الضغط الصهيوني استطاع لاحقا إلغاء ذلك القرار الذي ساعد على تعرية إسرائيل أمام الرأي العام العالمي كدولة عنصرية ذات أطماع لا حدود لها.

كان من حق اللبنانيين، لا بل من واجبهم الوطني والقومي والإنساني، أن يقاوموا الاحتلال الإسرائيلي بكل الوسائل المتاحة لديهم. وتوقعوا أن يلقوا التأييد من كل القوى الحرة والمحبة للسلام العادل والشامل والدائم في هذه المنطقة، وان تطبق القرارات الدولية خاصة القرار 425. وتعززت لديهم مقومات الصمود على أراضيهم، كما عززوا قدراتهم القتالية ضد احتلال لا يقيم أي اعتبار لقرارات الأمم المتحدة بقدر ما يزعجه مقتل عدد من جنوده على أرض لبنان. أدرك اللبنانيون، من مسئولين ومنظمات سياسية وجماهير شعبية، أن مقاومة الاحتلال الإسرائيلي بكل الوسائل المتاحة، هي المدخل

الوحيد لإعادة لبنان إلى خارطة المشرق العربي كدولة مستقلة، وذات سيادة تامة غير منقوصة على أراضيها المعترف بها دوليا.

ودلت تجربة تحرير بيروت وأجزاء واسعة من جبل لبنان وجنوبه وبقاعه الغربي على أن المقاومة المسلحة هي أرقى أشكال المقاومة الفاعلة التي ترهب الاحتلال الإسرائيلي وتجبره على الخروج من لبنان دون قيد أو شرط. فالمقاومة المسلحة في المناطق المحتلة تجبر جنود الاحتلال على حياة لا تعرف الهدوء أو الاستقرار طوال اليوم. فيشعر المحتل أنه على أرض معادية، وان الشعب اللبناني مستعد للموت عليها دفاعا عن أرضه ووطنه.

لقد جربت إسرائيل سياسة احتلال جنوب لبنان لأكثر من عقدين من الزمن إلى أن أجبرت على الانسحاب منه مهزومة أمام الرأي العام العربي والدولي. وباتت على قناعة تامة من أن قواتها العسكرية لم تعد قادرة الآن على إرهاب المواطن اللبناني، أو تخويفه وإجباره على ترك أرضه للمستوطنين الصهاينة. كما أن المجازر الجماعية ضد الجنوبيين، والتي كانت مجزرة قانا واحدة من أبشع تجلياتها، ألبت الرأي العام الدولي ضد الهمجية الإسرائيلية التي تشبه جميع الممارسات الفاشية والنازية والعنصرية التي مورست ضد شعب جنوبي أفريقيا.

على العكس من ذلك، زادت الاعتداءات الإسرائيلية اليومية من روح التضامن الوطني بين اللبنانيين، حكومة وشعبا.وأثبتت أن التصالح مع العدو الصهيوني أمر مستحيل ما لم تتخل إسرائيل عن مشروعها الاستيطاني التوسعي الذي يبتلع لبنان بكامله كما يبتلع دولا عربية أخرى.

فاستمرار مقاومة اللبنانيين للمشروع الصهيوني بكل الوسائل الممكنة، وفي طليعتها المقاومة المسلحة، هي الطريق الأجدى لردع إسرائيل عن ارتكاب أية مغامرة عسكرية جديدة ضد الأراضي اللبنانية. فالاعتداء الإسرائيلي على لبنان سيكون مكلفا جدا لأن المقاومة اللبنانية المسلحة، على تعدد تسمياتها وتنوع الهوية السياسية للقوى المشاركة

فيها، هي مقاومة وطنية لبنانية وتلقى الدعم والتأييد من غالبية اللبنانيين، على اختلاف مناطقهم وطوائفهم وميولهم السياسية.*

لقد أصبح مطلب دعم المقاومة الوطنية اللبنانية وحمايتها في صلب مشروع إصلاح النظام السياسي اللبناني. وتم تثقيف جيشه بعد اتفاق الطائف لعام 1989 بإيديولوجية العداء الصريح لإسرائيل. فحلت جميع الميليشيات المسلحة باستثناء السلاح المقاوم والموجه ضد إسرائيل.

هكذا نجحت المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي خلال سنوات 2000-2005 في تحويل لبنان إلى مجتمع أكثر تماسكا ضد المشروع الصهيوني. **فالمقاومة ذات أهداف وطنية لا طائفية**، وتتعزز باستمرار من خلال إدراك اللبنانيين للمخاطر التي تهدد وجودهم كشعب حر ودولة مستقلة ذات سيادة على ترابها الوطني.وثقافة المقاومة هي ثقافة من نوع جديد، ثقافة وطنية وقومية شمولية وليس ثقافة عصبيات مناطقية وطائفية ومذهبية وإيديولوجية ضيقة. وهي ثقافة إنسانية تستند إلى إنسان حر منتفض ضد الظلم والإرهاب، والى تراث عربي عريق في مقاومة الاستعمار. نتيجة لذلك خفتت الأصوات الداعية إلى نزع سلاح المقاومة المسلحة في لبنان إلى حين صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1595 في عام 2005. ثم ارتبكت الساحة اللبنانية مجددا، وزاد الارتباك بعد استشهاد الرئيس رفيق الحريري في 14 شباط 2005.وأعقبت ذلك الحدث الكبير محاولات اغتيال متكررة، وأزمة ثقة بين لبنان وسوريا أدت إلى خروج الجيش السوري من لبنان.وطرح سلاح المقاومة مجددا على بساط البحث المناطق المحتلة بعد أن أثبتت أنها الأشد إيلاما للعدو الصهيوني الذي يعيش حرب استنزاف يومية ترفع باستمرار عدد القتلى الإسرائيليين على ارض لبنان.

بعض الملاحظات الختامية

نجحت ثقافة مقاومة الخوف في تحرير كامل التراب اللبناني من نير الاحتلال في 24 أيار 2000، واعتبر يوم 25 أيار من كل عام عيدا وطنيا للمقاومة والتحرير.وتوقع

*** ارتكبت اسرائيل مغامرة جديدة في صيف 2006، وقد منيت بالفشل وكانت مكلفة جداً لإسرائيل، رغم ما خلفته من تخريب وقتل وتهجير في الأراضي اللبنانية. وللتذكير فقد قدم د. ضاهر بحثه هذا في أعمال المؤتمر في شهر نيسان 2006 - (المحرر).**

اللبنانيون أن يشهد نظامهم السياسي تبدلات جذرية تطول الأسس التي بني عليها وهي تشكل توازنات طائفية متوارثة منذ عقود طويلة، وتسببت بحروب أهلية متقطعة لكنها مستمرة منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى الآن.لكن الانتصار الكبير الذي حققته المقاومة الوطنية اللبنانية بدماء آلاف الشهداء والجرحى والمعوقين، لم تساهم في إدخال تغييرات جذرية وعاجلة في بنية هذا النظام لتمنع تجدد الاشتباكات الطائفية الدموية من جهة، ولتقطع الطريق على أي تدخل إسرائيلي في شؤون لبنان الداخلية من جهة أخرى. وبعد خمس سنوات على نجاح معركة التحرير يبدو اللبنانيون وكأنهم نجحوا فقط في تحرير أراضيهم المحتلة لكنهم فشلوا في تحرير نفوسهم من حمى النزاعات الطائفية التي باتت تهدد بطمس كل إيجابيات التحرير.

فالنظام السياسي اللبناني ما زال قائما على توازنات طائفية هشة وغير عقلانية، وهو المسبب الأساسي في نزاعات دموية تعيد سيطرة زعماء الطوائف على مقاليد الحكم، وتبدد الموازنة والمال العام على المصالح الشخصية. وازدادت حدة الأزمات الاجتماعية مع زيادة الإنفاق غير المجدي ومعه زيادة الدين العام على حساب مآسي اللبنانيين الذين يعيشون أزمة اقتصادية خانقة لم يشهد لبنان مثيلا لها في تاريخه المعاصر. وارتفعت معدلات البطالة، والفقر، والأمية بشكل ملحوظ، وزادت وتيرة انهيار الطبقة الوسطى بسرعة قياسية.وفتح باب الهجرة على مصراعيه ليدفع إلى الخارج بآلاف الشبان اللبنانيين من أفضل الكادرات العلمية المثقفة وذوي الشهادات المهنية التخصصية.

تجدر الإشارة إلى أن إيجابيات كثيرة رافقت عملية الصمود اللبناني الرائع والذي توج باستعادة كامل التراب اللبناني المحتل منذ 22 عاما باستثناء مزارع شبعا التي أراد الإسرائيليون الاحتفاظ بها ذريعة لاستمرار تدخلهم في الشأن اللبناني. ومن أبرز تلك الإيجابيات تنشئة الجيش اللبناني على أسس مغايرة تماما لما كانت عليه عقيدته في السابق. وقد تبنت القيادة السياسية والعسكرية اللبنانية تنشئة الجيش الجديد على أساس عقيدة العداء الصريح والواضح لإسرائيل كدولة عدوة تحتل أجزاء واسعة من لبنان ويجب إخراجها منها بكل الوسائل المتاحة ومنها المقاومة المسلحة.

ورفض لبنان، حكومةً وشعباً، تجريد المقاومة الوطنية اللبنانية من سلاحها.وأجمع اللبنانيون على دعم مقاومتهم المسلحة لأنها مقاومة وطنية يفاخر بتضحياتها كل مواطن

حر في لبنان وعلى امتداد الوطن العربي جربت إسرائيل مرارا تأليب الشعب اللبناني على مقاومته الوطنية المسلحة من طريق ضرب البنى التحتية، وهدم الجسور، وتدمير المباني والمحطات الكهربائية، وتعطيل مواسم السياحة والاصطياف لزيادة تأزم الأوضاع الاقتصادية، والدين العام، والهجرة إلى الخارج.* ودفع اللبنانيون ثمنا باهظا للبربرية الصهيونية لكنهم ازدادوا تمسكا بمقاومتهم المسلحة مما اضطر إسرائيل إلى الاعتراف بالهزيمة، وانهيار الميليشيات العميلة التي كانت تتعاون معها، وحوكم أفرادها أمام القضاء اللبناني على دفعات متلاحقة.

ويظهر اللبنانيون اليوم، أكثر من أي وقت مضى، لخشيتهم الكبيرة من بعض التحالفات الداخلية التي تظهر استعدادا واضحا لنزع سلاح المقاومة الوطنية التي ناضلت ببسالة ونكران ذات دفاعا عن سيادة لبنان، واستقلاله، وتحرير كامل ترابه الوطني. وعاد الرهان الإسرائيلي مجددا على تفجير التناقضات الداخلية في لبنان، وتشجيع النزاعات الطائفية بين اللبنانيين.

لقد استعاد لبنان عافيته في السنوات الخمس الماضية التي أعقبت التحرير استطاع خلالها تأمين تغطية رسمية وشعبية وعربية ودولية كاملة لمقاومته المسلحة. إلا أن نظامه السياسي لم يعرف كيف تؤسس لمرحلة جديدة من تاريخ لبنان تصبح فيها النزاعات الطائفية من ماضي هذا الوطن المبتلى بها منذ أكثر من قرن ونصف القرن. وما زال اللبنانيون يأملون في أن تكون تضحيات المقاومة الوطنية المدعومة بقوة من الدولة والشعب قد مهدت الطريق لتجاوز ظاهرة الحرب الأهلية نهائيا لأنها حالة مرضية خطيرة يجب استئصالها من الجسد اللبناني تمهيدا لولادة لبنان الجديد على أسس وطنية لا طائفية.

بعد تحرير الأراضي اللبنانية من الاحتلال الإسرائيلي عمل اللبنانيون على إعادة بناء الوحدة الوطنية على أسس جديدة، ونجحوا في إعادة إعمار لبنان وتجاوز ما خلفته الحرب من دمار هائل. وتميزت السنوات الخمس الماضية بالدفاع الثابت عن وحدة لبنان

***- بعد (الانتصار الثاني، 2006) للمقاومة اللبنانية، برزت (شريحة طائفية)، تطالب بنزع سلاح المقاومة، بتأثير من الضغوطات الأمريكية الإسرائيلية الفرنسية، لكنّ التظاهرات المليونية الشعبية التي تساند المقاومة، أثبتت أن معظم الشعب اللبناني ما يزال مؤيداً للمقاومة – (المحرّر).**

أرضا وشعبا ومؤسسات، والتصدي لكل أشكال الفتن والحروب الأهلية وذهنية الميليشيات، وحماية المقاومة الوطنية لأنها السلاح الأساسي للدفاع عن لبنان واللبنانيين، ورفض الارتهان إلى الخارج، والسير قدما في عملية الإنماء والإعمار، وتعزيز روابط لبنان العربية، والانفتاح الكامل على ثقافة العصر والاستفادة منها لبناء دولة ديمقراطية عصرية قادرة على مواجهة تحديات عصر العولمة. واكتسبت المقاومة الوطنية ثقة اللبنانيين، والقوى الديمقراطية في العالم كله.

تبقى الإشارة إلى أن الساحة اللبنانية تعرضت لهزة عنيفة ما زالت نتائجها تتفاعل منذ **إغتيال الرئيس رفيق الحريري في 14 شباط 2005**. ويبدو أن معظم زعماء لبنان لم يتعلموا جيدا دروس المقاومة الوطنية اللبنانية، ومنهم من يساوم اليوم على السلاح الذي حرر لبنان من الاحتلال الإسرائيلي. في حين أن المطلوب حماية هذا السلاح الذي كسر عقدة الخوف لدى اللبنانيين من الاحتلال الإسرائيلي، وأعطاهم منعة وطنية لمقاومة أي قوى أجنبية تسعى لدخول لبنان متحدية إرادة شعبه المقاوم.

لكن **هزيمة إسرائيل في جنوب لبنان** بعد 22 عاما من المقاومة الوطنية اللبنانية أجبرت النظرية العنصرية الصهيونية على تغيير مخططاتها بعد خسائرها الكبيرة في لبنان وفلسطين. وقد اضطرت إلى الانسحاب من غزة وتفكيك مستوطناتها الصهيونية، مما شكل ضربة مباشرة للمشروع الصهيوني نفسه، شرط أن يبقي العرب على سلاح المقاومة ولا يتخلوا عنه حتى قيام سلام دائم وعادل يضمن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني ويحرر الأراضي العربية المحتلة. لقد أثبتت المقاومة اللبنانية خطأ نظرية إسرائيل عن الإفراط في استخدام القوة العسكرية لفرض الاستسلام على لبنان وإجباره على توقيع اتفاقية سلام معها. فمهما بلغت قوة جيش الاحتلال، تبقى عاجزة عن كسر إرادة شعب يطالب بحريته واستقلاله. كما أن جيش الاحتلال يمكن أن يهزم عبر مقاومة شعبية كسرت حاجز الخوف، وحظيت بدعم شعبي مستمر. ولعل أبرز دروس تاريخ لبنان المعاصر أن إستراتيجية المقاومة، بكل أشكالها العسكرية والمدنية والثقافية والسياسية وغيرها، هي الطريق الوحيدة لتحرير إرادة الإنسان من عقدة الخوف. وقد أثبت انتصار الثقافة المقاومة في لبنان على أنها متجذرة في تراث شعبه النضالي. لذلك نجحت المقاومة فعلا في تحرير كامل ترابه الوطني، باستثناء مزارع شبعا، وحررت معها الإرادة اللبنانية من كل أشكال الخوف على المستقبل. فالشعب اللبناني لم يعد يخاف

إسرائيل بعد أن لقن جيشها الذي كان يوصف بأنه "لا يهزم"، هزيمة واضحة على أيـدي المقاومين اللبنانيين. وألزم الحكومة اللبنانية برفض توقيع أي اتفاقية مع إسرائيل طالمـا أن المقاومة اللبنانية ما زالت تمتلك سلاحها الذي حرر اللبنانيين من عقدة الخوف، ومن أوهام الضمانات الأجنبية.

– ختاما، تصدت المقاومة اللبنانية، وبنجاح بارز، لثقافة الخـوف مـن إسـرائيل والقوى التي تدعمها. وتبنت ثقافة عقلانية مقاومة تدعو إلى إكتشاف الطاقـات الكبيـرة الكامنة لدى الشعب اللبناني وتوظيفها من أجل حماية الإنسان وتحريـر الأرض.وبفعـل تضامن السلطة والشعب، نجح لبنان في بناء مجتمع مقاوم لا يخاف من إسرائيل وثقافتها العنصرية وأسلحتها النووية، بل يقاومها بكل ما لديه من إمكانات.وبعد تحصين الـشعب اللبناني ضد ثقافة الخوف من إسرائيل، تحول لبنان إلى مجتمـع موحـد وقـادر علـى مواجهة التحديات الخارجية، ولديه مقاومة وطنية قوية تخاف منها إسرائيل بعد أن كـان الجيش الإسرائيلي يثير الرعب في نفوس اللبنانيين لعقود عدة.

بعض مراجع الدراسة

- **أيوب، عفيف:**" قرارات ومقررات مجلس الأمن الدولي حول لبنان 1946–1990"، بيروت 1991.
- **تويني، غسان:** "القرار 425: المقدمات، الخلفيات، الوقائع، الأبعاد"، دار النهار، بيروت 1996.
- = ، =: "1982 عام الاجتياح، لبنان والقدس والجولان في مجلس الأمن: القرار 508 والقرار 520"، دار النهار، بيروت 1998.
- **جابر، منذر محمود:** " الشريط اللبناني المحتل: مسالك الاحتلال، مسارات المواجهة، مصائر
- الأهالي "، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1999.
- **الجمهورية اللبنانية**، وزارة الإعلام، مديرية الدراسات والمنشورات اللبنانية (ناشر): " الجنوب
- اللبناني: 1948 – 1986:حقائق وأرقام "، بيروت 1986.وترجم إلى الفرنسية والإنكليزية.
- **الجمهورية اللبنانية**، وزارة الإعلام (ناشر): " العدوان الإسرائيلي المستمر "، بيروت 1994.
- = = ، = = =: " حرب الأيام السبعة "، بيروت 1995.
- **سلمان، سعيد:**"لبنان والطائف"، بيروت، 1990.
- **سويد، محمود** (مشرف):"يوميات الحرب الإسرائيلية في لبنان:حزيران، – كـانون الأول 1982 "، وقائع ووثائق ومقالات مختارة من مصادر عبرية، وقائع ووثائق ومقالات مختـارة مـن مـصادر عبرية، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، قبرص 1985.
- = =: " الغزو الاقتصادي الإسرائيلي للبنان 1982 "، وقائع ووثائق ومقالات مختارة مـن مـصادر عبرية، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، قبرص 1985.

- = =:" الاحتلال والمواجهة 1983: من صعود المقاومة الوطنية إلى إلغاء اتفاق الطائف أيار/ مايو 1983". وجهات نظر إسرائيلية من مصادر عبرية، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، قبرص 1985.
- **سويد، ياسين:** " عملية الليطاني 1978: نظرة استراتيجية "، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، الطبعة الثانية، بيروت 1993.
- **السيد، حسين، عدنان:** " الاحتلال الإسرائيلي في لبنان: الاقتطاع ومسألة الانسحاب "، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت 1998.
- **شماس، نقولا:**"مستقبل لبنان الاجتماعي – الاقتصادي أمام التساؤلات: عناصر أجوبة"، لبنان 1996
- **شوفاني، الياس(إشراف):**" عملية الليطاني، رواية العدو الصهيوني عن حرب الجنوب، آذار/ مارس 1978"، بيروت 1978.
- **شولتزه، كيرستين:**" ديبلوماسية إسرائيل في لبنان 1948 – 1984 "، ترجمة أنطوان باسيل، منشورات شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998.
- **صادق، حبيب (إشراف):**"الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان وتحديات المرحلة "، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بيروت 1995.
- **مسعود ضاهر:**" مجابهة الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني للمشرق العربي، دراسة في الثقافة المقاومة"، كتاب صادر عن منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط 1989.
- = = "البعد الثقافي للحجر المقاوم"، مقالة منشورة في مجلة "الموقف العربي"27 /1988/6.
- = = " المشروع الصهيوني وكانتونات الطوائف في لبنان "، مقالة منشورة في مجلة " الفكر العربي المعاصر"، العدد 56– 57، بيروت، تشرين الأول، 1988.
- = = " الفكر السياسي في لبنان 1996 "، مجلة " الشاهد " العدد 132، بيروت آب، 1996.
- = = "تحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي: دروس وعبر" جريدة "الاتحاد"، أبو ظبي، 2000/5/27.
- = = " نحو توظيف الانتصار العسكري في الجنوب لتعميق الوحدة الوطنية اللبنانية"، "الاتحاد"، 20 / 6 / 2000.
- **المجلس الثقافي للبنان الجنوبي** (ناشر): " من أجل الجنوب، من أجل لبنان"، بيروت 1979.
- **مجلس النواب اللبناني** (ناشر): "جدول بالاعتداءات الإسرائيلية على الجنوب والبقاع الغربي في العام 1995"، بيروت 1996.
- **مركز دراسات الوحدة العربية** (ناشر):" لبنان وآفاق التسوية "، أوراق ومناقشات الندوة الفكرية.
- = = = = (ناشر) ندوة: "العرب ومواجهة إسرائيل "، جزءان، بيروت 2000.
- **المركز العربي للأبحاث والتوثيق:** " وثائق الحرب اللبنانية "، وصدرت منها مجلدات سنوية، بيروت 1982، 1983، 1984، 1985، ، 1986، 1987.

- المركز العربي للمعلومات (ناشر): " لبنان 1949 – 1985: الاعتداءات الإسرائيلية، يوميات – وثائق – مواقف "، بيروت، 1986.
- النادي الثقافي العربي(ناشر):"بناء الجمهورية الثانية ومشكلات السلام في لبنان"، بيروت 1992.

- Barakat ,Halim (editor): " Toward a viable Lebanon ", Georgetown, University, washington DC,1988.
- Massoud DAHER: " Le Liban après l'Indépendence: Aux origines de la guerre libanaise", In: Cahiers de l'Institut de Recherches Marxistes, Paris ,1983.
- = = :"The socio –economic changes and the civil war in Lebanon 1943-1990", Institute of Developing Economies ", V.R.F Series, No.201, Tokyo, March 1992.
- Hamdan,Kamal: " Le conflit Libanais " ,Genève 1997.
- Hanf ,Theodor:" Coexitence in Wartime Lebanon", London , 1993.
- Kassir ,Samir: " La guerre du Liban", CERMOC ,Beyrouth ,1994.
- Khashan,Hilal:" Inside the Lebanese confessional mind",London,1984.
- Kiwan ,Fadia (directrice):" Le Liban aujourd 'hui ", Paris,1994.
- Picard,Elizabeth: " Liban, Etat de discorde ", Paris 1988.
- Republic of Lebanon, Ministry of Information ,Department of Lebanese
- Studies: " South Lebanon 1948-1986: facts and Figures", Beirut,1986.
- Republique Libanaise,Ministère de l'Information,Direction des Etudes
- et des Publications: " Liban-Sud 1948-1986: Faits et Realités".
- Beyrouth,1986.

ثقافة الخوف الناتجة من الحرب اللبنانية

ليلى رعد

الجامعة اللبنانية، طرابلس

إن القوى السياسية التي حكمت لبنان باسم الصيغة الطائفية والميثاق الطائفي 1943، لم تكن مجرد قوى طائفية بل طبقية إذ حاولت التمسك بكافة الشعارات التجميعية لا التوحيدية الحقيقية، وذلك تحت ستار الخوف من زوال الاستقلال. وهذا ما أكده ادمون رباط، بقوله إن الاستقلال والدستور قد قاما على ركيزتين أساسيتين، هما **تجميع الطوائف وتجمع المناطق**[1] رغم أن هناك فارقاً جذرياً بين التجميع وإبقاء التناقضات الطائفية، وبين التوحيد والصهر في بوتقة الوحدة الوطنية اللبنانية.

في الواقع، كانت لحمة الميثاق لحمة هشة، **لم تُبْنَ على قاعدة صلبة من الوحدة الوطنية الحقيقية، بل كانت مجرد تجميع سطحي لكافة التناقضات الطائفية والوطنية الحقيقية والاجتماعية والقومية على الساحة اللبنانية**. كما أن الصيغة اللبنانية الفريدة، أي صيغة التعايش بين الطوائف والتهويل بزوال لبنان في حال زوال الطائفة منه، لم تهدف إلى إيجاد صيغة لحل أيٍّ من الأزمات، بل كانت تضاعف هذه الأزمات وتسعى إلى تأجيل انفجارها،[2] حتى اشتدت التناقضات السياسية بين القوى الطائفية – الطبقية الحاكمة، حول القضايا المصيرية، فانفجر الوضع في 13 نيسان عام **1975**.

وما إن اندلعت الحرب وأخذت الدولة تفقد هيبتها وسلطانها تدريجياً على الأرض. حتى أخذ (سلطان الزعيم السياسي) يتراجع ويتقلص نفوذه أمام (سلطان القوى المسلحة)، التي بدأت تبرز وتحل تدريجياً مكانه بقوة، بعد أن كانت مؤسسات الدولة وإدارتها تلعب نسبياً دور صمام الأمان، وتزوّد المواطنين بالأمن والاطمئنان. كما تضاءل الاتصال بين الأفراد والجماعات ضمن المؤسسة الواحدة بسبب تخويف المواطنين من وجودهم في مناطق تختلف دينياً عن مناطقهم أو بسبب عدم الانتقال إلى تلك المناطق، الأمر الذي انعكس سلباً على المؤسسات نفسها، فأدّى إلى تفككها وانعدام فعاليتها أيضاً.

قامت **الأحزاب والميليشيات** في بادئ الأمر بالتمرد على سلطة الدولة، ثم ما لبثت أن تغلغلت في أجهزتها، بعد أن تعاظمت كماً ونوعاً وقوة، لتفرض سيطرتها داخل

الإدارات. وفي الوقت نفسه كانت هذه الأحزاب تنتزع من الدولة سلطتها على المناطق التي هيمنت عليها، إذ كانت الميليشيات الطائفية تقتلع بقوة سلاح السلطة داخل طوائفها، فأبطلت وجه الديموقراطية، لتحتفظ بالطائفية الضيقة المتعصبة والبالغة العنف. وعلى أيدي هذه الميليشيات المتشابهة المصالح مع بورجوازيات الطوائف، أخذت تغيب السلطة التشريعية والقوانين، وتتفكك الدولة لتتحول إلى دويلات تسودها السلطات المتعددة، ويسيطر عليها القمع والاستبداد بقوة السلاح، فانتقلت معها **علاقات الاستزلام** إلى الاستزلام لأصحاب النفوذ الفعليين من رؤساء الأحزاب والميليشيات.

ليس هذا ما أحدثته الحرب وحسب بل زرعت **التفرقة الطائفية** بين سكان المناطق حيث أخذت كل جماعة طائفية داخل حدودها الجغرافية تبث سموم الكره وتقوّي الشعور بالقلق، والخوف من الجماعات الأخرى، وتشحن النفوس برغبة **الانغلاق الطائفي** ورغبة التمذهب عن طريق الإيحاء الدائم بأنهم مهددون من قبل الجماعات الأخرى أو الدويلة المجاورة، الأمر الذي يعبئهم ويضعهم في حالة الاستعداد الدائم للحرب فيما بينهم، لكي تنهار علاقات التعاطف والمشاركة عند أتفه الأسباب، وتفتح طريق العنف بوجه الجماعة الأخرى دون قيد أو شرط، وخاصة بعد أن تظهرها عدوّاً يهدد وجودها، وهذا ما سهّل عملية **الفرز الطائفي**. ومع استمرار الحرب باتت الحياة اليومية للّبنانيين محكومة بهاجسِ الأخطار المباشرة، واتجهت أحياؤها إلى الانطواء على ذاتها حول قائد ميليشيا أو (قبضاي) أو زعيم، فاعتاد المواطنون العيش مع الميليشيات التي أقدمت من جهتها – باسم الدفاع عن مصالح الطائفة – على إنشاء أنظمة دفاع، (كانت تشمل الميليشيا بحد ذاتها وأجهزة أمن داخلي، قوات خاصة، وأجهزة استخبارات إلخ..)، وبناء **شبه دولة**، ومؤسسات ثقافية وأيديولوجية...

لقد بلغ اندماج الميليشيات بحياة اللبنانيين مستوى بات معه من المستحيل تحييد أو تعطيل تدخلاتها، لكن ينبغي الاعتراف بأن هذه المصادرة ليست من فعل الميليشيات وحدها، لو لم تكن منذ البداية الانعكاس والتعبير عن **اللاوعي الطائفي** للمجموعات اللبنانية. كما أن جزءاً كبيراً من المسؤولية يقع على عاتق **الذهنية الطائفية**، والمجتمع المدني المتبني لهذه الذهنية. ولكن شيئاً فشيئاً أخذت تضعف هذه العلاقة بين المجتمع المدني والميليشيات مع يقظة **المجتمع المدني**، وإن كانت متأخرة، إذ عمد، وبأشكال مختلفة، إلى التحرك وإلى تنظيم وسائل دفاعه بوجه الميليشيات وممارستها، عبر

النقابات والمهن الحرة ورجال الأعمال الحكومية والناشطين الاجتماعيين والمعاقين ومشوهي الحرب، فأسهموا كلهم إلى حد بعيد وحسب إمكانية كل منهم، في تطوير دينامية **مضادة للميليشيات.**(3)

ويجدر القول هنا إن عدم الاستقرار السياسي والأمني ساعد إلى حد بعيد على تحكّم الطائفية بسلوك الإنسان أكثر فأكثر، إذ كانت خلال الحرب القذرة قد عصفت بالمواطن وطمست معالم المواطنية اللبنانية الحقة، فأخذ كل القياديين يضربون على وتر الطائفية أو على وتر المذهبية، فيتحولون إلى زعماء طوائف، وكأن البلاد ذاهبة إلى **فيدرالية طوائفية**، وخاصة عندما أصبحت تتعالى الأصوات المطالبة بالغبن اللاحق بها أثناء توزيع المناصب الإدارية وأثناء تقسيم المشاريع الإنمائية. وباتت كل الطوائف مظلومة تشكو الحيف والحرمان، وفي النتيجة الشعب برمته هو الذي يعاني مغبة التمييز والشرذمة والتفتت.

وبما أن الخوف أو القلق على المصير يحسبها كل إنسان أثناء حياته، فمن الطبيعي لهذا الكائن الحيّ أن يخاف من بعض المواقف التي تهدده بالخطر، لذلك فالخوف هو أساس لجميع الحالات العصبية، أو هو بالأحرى حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان في بعض المواقف وتجبره على أن يسلك سلوكاً يبعده عادة عن مصادر الضرر. وهذا كله ينشأ عن استعداد فطري لأنه يدفعه إلى حماية نفسه وإلى المحافظة عليها. ومن الطبيعي أن تقترن هذه الحالة الشعورية الانفعالية بالخلاص من الخطر، إذ إنّ الخوف هو أمر طبيعي ومعقول وضروري أن **يعمد الفرد إلى حماية نفسه** مما يمكن أن يسبب له ضرراً.(4)

ويمكن القول إن الخوف هو ظاهرة انفعالية، لذلك هي متعلقة بموقف الشخص من الباعث على هذا الخوف، وبالأرضية النفسية التي ترتكز عليها شخصية هذا الإنسان في أية مرتبة كان، وفي أي موقع، أسياسياً كان أم من عامة الشعب. وسبب هذا الخوف هو العلم بالسبب الذي يؤدي إلى المكروه، والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لقوة الخوف الذي إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه. والعمل هو ذلك السلوك الذي هو محصلة تفاعل الفرد مع البيئة، ووراء كل سلوك دافع أو دوافع معينة شعورية أو لاشعورية تدفع إليه. والدافع هو حالة جسمية أو نفسية تثير السلوك في ظروف معينة توصله إلى غاية معينة، وغاية السلوك هي إرضاء الدافع بإزالة التوتر واستعادة

التوازن، كما يتضح في حالة الانفعالات لخوف يبرز فيه التوتر الجسماني أو النفساني بشكل واضح،[5] **والحرب هي إحدى نواقيس الخطر**، التي تجعل المرء في حالة استعداد دائم للدفاع عن حياته، وتلك الحالة التي تسمى الخوف من الموت تجعل التفكير مركزاً في نطاق الذات، فتؤدي إلى شلل جميع النشاطات الإنسانية. كما أن الحرب تشكل نكبة اجتماعية حقيقية ومخاطرها متعددة ومتنوعة، تهدد الإنسان وتحدث عنده انقلاباً يشمل كل قيمه الأخلاقية والمعنوية والاقتصادية والثقافية..وغيرها

في الحقيقة، إن **اللبناني تعرّف بثلاثة أنواع من الضغوط النفسية خلال الحرب: الضغط النفسي/الجسدي، الضغط النفسي/العصبي، الضغط الاجتماعي**. وهذا ما خلق لديه مشاعر النقمة والعدوان، أو أصابه بانحرافات نفسية وسلوكية تنمّ عن انعدام الشعور بالأمن والرضى، فاتسم إلى حد بعيد **بالخوف والسلبية والأنانية المتطرفة**. لهذا اتّخذ اللبنانيون خلال تعاملهم مع الحرب مواقف مختلفة إذ عمد قسم كبير منهم، حفاظاً على سلبيتهم، إلى حمل السلاح لكي تتلاءم مع واقع الحرب، بينما اختار الآخرون **العزلة أو الهروب من واقعهم**، متجهين نحو **الهجرة**، تحصيناً للنفس. وقد تمظهر ذلك في ازدياد الهجرة **وتقلص العلاقات الاجتماعية** أو التمرّد على الواقع بسلوك عدواني عن طريق **الجنوح أو العصاب أو الإدمان على الكحول والمخدرات**، وهذا ما يعكس غياب الآمال والطموحات لدى هؤلاء واستحالة رؤية المستقبل المشرق، واستحالة تفكيرهم بمشاريع تجسّد أحلامهم المستقبلية، فوجد السلبيون أنفسهم أمام خيار التمرد الذي يتمثل في الاشتراك في الحرب.[6]

هذا الحل الذي لجأ إليه الميليشيويون الشباب وحوّلهم إلى أناس متعبين، غير قابلين للضبط في فترات الهدوء، ومناضلين في سبيل قضيتهم عندما تندلع الحرب. ومن المسلّم به أن المشاركة في القتال وفي الخطف لم يكن وقفاً على طبقة معينة أو على أبناء مهنة محدّدة، ولكن كل المؤشرات تدل على أن **الحقد السياسي الطائفي** لدى هؤلاء الميليشويين كان يلتقي **بالحقد الطبقي الاجتماعي**، ويتحول في نفس كل منهم إلى حماسٍ ضد الطرف الآخر وضدّ ممتلكاته، بعد أن رأى فيه الخصم السياسي والطائفي والطبقي. إن هذه المرحلة التمردية - كما يقول كمال حمدان – أصبح العنف فيها حالة خاصة في قلب **المناطق المختلطة**، وباتت كل واحدة منها مسرحاً للصراعات على السلطة ومسرحاً للتفتت على أسس داخلية تخص كل طائفة بحد ذاتها. لقد مال العنف إلى الانتشار في كل

الاتجاهات، وتسرَّب إلى كل تفاصيل الحياة اليومية، فتعرّض معظم المواطنين لفظاعة العنف الذي أصبح مشرعاً باسم الاستقلال والدفاع عن الذات، وهذا ما أدى إلى إثارة الذعر في وسط السكان الذين تسهل قيادتهم من خلال إثارة عصبيتهم، وبقدر ما كانت الحرب تستمر كان العنف يتخذ أشكالاً أكثر تطوراً.(7)

وفي خضم هذا الواقع المضطرب سيطر شيء واحد هو فقدان الشعور بالأمان، وتميز الوجود المعاصر بانزلاق الكل في المسالك العداونية والعنفية، وتشجع أصحاب النوايا السيئة على ابتكار التقنيات الأكثر تحديثاً في التخويف أو الترويع، منطلقين من مبدأ عرض القوة. ولكن مهما يكن من أمر، فإنّ موجات العنف المبررة للحصول على بعض المطالب لا بدّ من أن تثير موجات عنف مقابلة كردة فعل، ومن هنا سيطر مبدأ العنف يبرر العنف.(8)

وهكذا عاش **لبنان** تجربة الانقسام والتفتيت باسم العزل والانقسام، وتحول إلى **مجموعة جزر محكومة بميليشيات**، تدعي حماية نفسها ومناطقها مستخدمة العنف الأعمى والاغتيالات وعمليات الخطف والاعتداءات التعسفية ضد المواطنين حتى أصبحت الخبز اليومي للبنانيين.وهذا العنف هو الذي أسهم في تدهور الوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

هؤلاء المقاتلون كانوا يعيشون عنفاً لا حدود له، إذ كان هدفهم إنقاذ حياة أطفالهم وحياتهم من الخطر الذي يهدّدهم. **وهكذا أصبح بمقدور اللص أن يُخضع القاضي لمتطلباته**، كما استطاع بمكانته الميليشوية أن يُلزم الطبيب بزيارته في منزله بدلاً من الخضوع لموعد مسبق معه، كما أخضع التعيينات في أية تراتبية اجتماعية لانتمائه السياسي ولمكانته في النظام القائم بقوة السلاح بدلاً من أن تخضع لقيمته الشخصية.(9)

في الواقع لم يعد النظام والقانون في هذا الإطار مسألة تخص قائداً واحداً بل مسألة تخص مختلف القادة، وهذا ما أدى إلى بروز **الجغرافيات المسلحة**، لا بل الجزر السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وأصيب المجتمع اللبناني بحالة من التفكك والتشرذم والتسيب الأمني وفقدان الضبط الاجتماعي، حيث كانت الميليشيات تحاول بكل الوسائل الممكنة تأمين الاكتفاء الذاتي بالسيطرة على مدخرات اللبنانيين أو التجارة بالممنوعات، أو محاولة السيطرة على المؤسسات والشركات والمصارف، ولم توفِّر حتى المؤسسات العامة ولا الوزارات ولا المديريات ولا المدارس ولا حتى المستشفيات أو دور العبادة.

كما عمد هؤلاء المقاتلون إلى فرض (الخُوّة) على المواطنين بحجة حمايتهم أو حماية مؤسساتهم، فكان لا بدّ، في ظل غيابٍ سلطة القانون وشل قدرته التنفيذية، من الرضوخ لتلك المطالب اقتناعاً بها أو استسلاماً لها أو للاثنين معاً.(10)

نستطيع القول إن الذهنية الحربية والميليشيوية، كانت نتيجة عدم الشعور بالأمان والطمأنينة، لذا اتجه هؤلاء نحو **العدوانية** كي يتمكنوا من المحافظة على ذاتهم وحماية أنفسهم تجاه الأخطار التي تَجْبَهُهُم داخلياً أو خارجياً، لذا كانوا يسيّرون الأمور حسب مآربهم، وكان العداء المستشري هو الذي كان يغذّي أحقادهم ويشجع العنف ويحوّله إلى توتر نفسي وتخويف من الآخر، الشرك في الوطن. وهذا ما انعكس تقسيماً جغرافياً حسب الوجود الطائفي والمذهبي، وبات كل فرد لا يشعر أبداً بالطمأنينة إلا إذا كان مع أقرانه لأن كلمة (**الغرباء**) لم تعد تقتصر على الأجنبي أو عما هو كائن خارج الحدود، وإنما على كل من لا ينتمي إلى الطائفة نفسها أو يقيم على البقعة الجغرافية عينها. كما أخذت هذه المذهبية لا تبالي بالانضباط القانوني، حتى كان بإمكانها أن تلغيه، متى أرادت، وحسب مقتضيات مصالحها، وكانت تضع أولوية أمورها فوق كل الاعتبارات الوطنية، والأخلاقية، والمسلكية. إن مشكلة هذه الذهنية الميليشيوية هي في علاقتها مع **القانون والسلطة**، فهي، وإن احترمت السلطة ظاهرياً، تفتش عن كل الوسائل والأساليب التي تمكنها من التلاعب أو الاحتيال على القانون، لأنها في الواقع وريثة ذهنية الحرب التي استباحت المحرمات وتخطّت كل الحواجز النفسية التي تحدّ من حرية التصرف.(11)

وهكذا أسهمت ظروف الحرب في خلق حالة أمنية مُزْدراة، وهذا ما سبّب الفرز الطائفي، ووجود المعابر، وخطوط التماس، كما سبّب التهجير والانتقال إلى أماكن أخرى لأسباب أمنية وطائفية، تركت أثراً سلبياً كماً ونوعاً، فانعكست ظروف الحرب على مسلكية بعض المعلمين وانضباطيتهم، وذلك بسبب تعرض الأساتذة للخطف والاغتيال والقتل والتهجير، إذ كثرت التقارير الطبية والغياب الكيفي وتراجعت المراقبة الذاتية، ولم يعد بإمكان التفتيش التربوي الطعن بتلك التقارير أو ملاحقة الموظفين غير المنضبطين، لأن الجوّ المشحون بالإرهاب والعنف والقتل والقلق على المصير والأزمات الاقتصادية المتلاحقة قد أثرت في **أداء الكوادر التعليمية والتربوية والثقافية**. وتحوّل الموظّف ولا سيما المعلم إلى إنسان بعيد عن الانضباطية في العمل، لا يحترم

السلطة، في حين اكتفى المعلم الجيد من الذين ما زالوا يتمتعون بمزايا خلقية حسنة بالأداء الجيد، ولكن دون أن يهتم بتحسينه أو بتجديد مستوى العطاء.(12)

كما أن تأثيرات الحرب وانعكاساتها السلبية على الإنسان أدت إلى انتشار **(المهدئات)** التي عمّ استعمالها بمختلف الفئات، وكانت هذه الوسيلة تعبيراً عن الهروب من الواقع الأليم والقلق على الغد ومن الضغوطات الاجتماعية، التي كانت تخيم على كل المستويات العمل، مستقبل الفرد، والعائلة، والوطن. وأمام هذا الواقع لم يكن بإمكان البعض أن يخطط للمستقبل، فحاول الهرب عبر الاستهلاك المفرط للمهدئات.

فالحرب اللبنانية، فجّرت لدى المواطن اللبناني مشاعر الخوف ودفعته إلى إدمان **المخدرات** في محاولةٍ لهروبٍ وهمي من الواقع الأليم، فقويت لديه نزعة الخروج على القانون، كما قويت الغرائز السلبية كالحقد والثأر والتطرف. ولهذا كانت المخدرات الطريق المُثلى بالنسبة إلى المقاتل لتجنب المواجهة مع الواقع الأليم الذي يعيش، فاعتبرها البديل عمّا أضاعه من السلام الداخلي والاطمئنان، بعد أن منحته تلك اللذة المخيفة التي كانت تحرّك قادة الميليشيات وعناصرها.(13)

ولقد شمل الخوف، أيضاً، **الحرية الفكرية**، إذ إن بعض الناس كان لا يجرؤ على التعبير بصراحة عن تطلعاته، وهذا الوضع الخطير كان يُجبر المثقف الحرّ على التحفّظ في كلامه أو أن يلجأ إلى المداورة والعمومية، لإيصال كلمته أو رأيه إلى الناس، وكثيراً ما كان يؤثر الصمت حتى لا تتعرض حياته للخطر المميت. وقد خلق هذا الوضع تراجعاً حسياً في **التعبير النقدي**، وابتعد كثير من الكتاب والنقاد عن الموضوعية، وتعوّدوا السلبية في معالجة الأمور والأحداث والمواقف. يمكن القول هنا،إن الانعكاسات السلبية للحرب اللبنانية التي ضربت الإنسان اللبناني لم تؤثر فقط في حريته الجسدية، بل كذلك في حريته الفكرية إذ شلّت قدرته على التعبير عن مكنوناته من جراء الاضطرابات التي تعرض لها نفسياً واجتماعياً، لكن هذا لا يشمل بروز بعض المفكرين الذين عملوا في أسوأ الظروف الاجتماعية، وكان إبداعهم تعبيراً عن معاناتهم في ظل تلك الظروف القاسية.

في الواقع، إن كارثة الحرب هي أقسى الصدمات الإنسانية، وتمتاز بأنها تخلق محيطاً مهدداً بالموت، بحيث يشمل هذا التهديد أعداداً كبيرة من الناس حتى إنه يترافق مع فقدان الأعزاء من الأهل أو الأقارب أو الأصدقاء. فإذا ذكرنا، على سبيل المثال،

الاعتداءات الإسرائيلية وما ولدته من انتهاكات لحرمة الوطن أو تهديد لأمن السكان، نجد أنّها أحدثت لدى الأفراد الإحساس الدائم بالتهديد المباشر للحياة، وهذا ما شكل **الرعب المستمر، والخوف من الموت**، الذي يعبر عن أكثر مولدات القلق تطوراً.

إن هذا التهديد الخارجي المفاجئ والمكثف وغير الممكن تجنبه، قد هدّد أكثر الأحيان التكامل العقلي لدى الشخص من جراء الخوف الذي تعرض له وخلق عنده مظاهر هستيرية يفرج من خلالها عن قلقه بنوع من المقاومة والمواجهة ومحاولة لتخطّي الأزمة، وصولاً إلى اللجوء إلى الحيلة الدفاعية المسماة بالتماهي بالمعتدي، وغير ذلك من الاهتمامات التي من شأنها أن تحد من عنف ردود فعله الهستيرية.(14)

كما أن **السيارات المفخخة** شكلت أكثر الكوارث التي يمكن توقعها بين الحين والآخر، والهدف من هذه التفجيرات هو العمل على زرع الخوف وتعميمه ليشمل كل شخص، إذ إن عدد ضحاياها يكون محدوداً نسبياً، ولكن الذعر يكون جماعياً وهذا هو المقصود. وهذا ما يؤدي إلى تعميم مشاعر فقدان الأمن أو التهديد الدائم على المنطقة المقصودة ولدى كافة السكان. ويمكن القول إن هذه الانفجارات أكانت مجهزة ضمن سيارات مفخخة أم كانت عبوات ناسفة أم انفجارات صوتية، تهدد أمن المواطنين وتثير لديهم كل أنواع الانهيارات العصبية من القلق إلى البكاء إلى اضطرابات النوم، وقد تستمر بعض تلك الظواهر مع الفرد بشكل يومي وكأن الحدث يتكرر من جديد.(15)

أما بالنسبة إلى **الطفل**، فهو لا يتفاعل مع الانفجارات أو القذيفة أو الرصاصة، بالطريقة نفسها التي يتفاعل معها الراشدون، وقد تظهر ردات فعله في رفضه للنوم في غرفته لأن نوافذها تطل على الجهة التي تأتي منها القذائف، إذ إنه لا يشعر بالطمأنينة إلا في **مكان مغلق النوافذ**، لأنه يعتقد أن القذائف تدخل من الفتحات. كما أن ردات فعله قد تظهر بشكل انتفاضات أثناء النوم والاستيقاظ خائفاً ليهرول إلى أحضان أمه وأبيه طالباً حمايتهما. ونستطيع أن نفسر الاستعانة بالأهل على أنها إحدى الوسائل التي تشعره بالاطمئنان إلى السيطرة على العالم الخارجي المحيط به. فهذا الخوف الذي يتعرض له الطفل يسبب له **الكوابيس ونوبات القلق والاضطراب**. فالقلق الكبير الذي يساور الطفل لا يتعلق بالحوادث التي لا قدرة لديه على تقدير مقدار الخطر فيها، ولا مقدار التهديد الذي تختزنه، فالطفل لا يصاب بالصدمة كالمراهقين.(16)

وقد عاش الإنسان اللبناني حالة حرب مستعرة كانت تتفاقم يوماً بعد يوم، مهددةً توازنه المادي والنفسي نظراً للآثار المتراكمة على مدى السنين. **فالخطف وحالة التمزق والقلق**، الذي كان يجتاح نفوس الأهل ويحرمهم لذة الاستمتاع ببقية حياتهم، جرّ سلسلة عمليات نفسية مرضية كالانهيار والهلوسة وعدم الارتياح الداخلي، بالإضافة إلى أفكار الاضطهاد والاضطرابات النفسية والجسدية، وغير ذلك من حالات القلق الانهياري. إن هذه العوارض الانهيارية التي اجتاحت الشعب اللبناني جعلته حزيناً متشائماً وشكاكاً حيال مستقبله، وهذا الرعب الذاتي أو التهديد المبطن الذي هيمن على حرية الفرد دفعه إلى الهجرة لأنه أصبح غير قادر على تحمل الضغوطات الجغرافية. كما أنه أصبح عاجزاً عن جبْه التعرض لحريته ولأمنه، لأن الحرية باتت مسألة مهمة وأساسية بالنسبة إليه لا يمكن التنازل عنها. وتظهر الاحصاءات بأنه خلال سنتين، أي ما بين عامي 1975 و1977، ارتفع أعداد **المهاجرين من لبنان**، بسبب الحروب التي اجتاحت البلاد التي كانت نتائجها عديدة وعلى جميع الأصعدة إلى حوالي **272500 مهاجراً**،[17] ثم تسارعت في عام 1978 بسبب اندلاع المعارك بين الجيش السوري والميليشيات المسيحية، وبسبب الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان في الربيع من العام نفسه، فبلغت أعداد المهاجرين 76000 **نسمة**، كما كان للغزو الإسرائيلي لعام 1982 انعكاسات سلبية أدت إلى نزوح قسري كثيف بلغ حوالى **33000 نسمة**، وبسبب استئناف المعارك بين العماد ميشال عون والقوات اللبنانية، ذكرت الإحصاءات التي أجريت عام 1989، أن عدد اللبنانيين الذين تركوا الأراضي اللبنانية ذلك العام بلغ حوالى **225000 نسمة**.[18]

وهكذا تبين الوقائع أن الأسباب الموجبة للهجرة هي أسباب سياسية، وظاهرة الهجرة التي شملت كل الشرائح الاجتماعية كانت خطرة لأنها شكلت تهجيراً قسرياً. وقد دفعهم الخوف إلى إخلاء مناطقهم واللجوء إلى أماكن أكثر أمناً، لأن الخطر واحد أمام انفجار قذيفة أو سيارة مفخخة أو إطلاق نار. إن الجميع يصبحون متساوين أمام خطر الموت الذي يشمل معظم شرائح المجتمع دون تمييز، والصدفة هي التي تلعب دورها وتعمل على التحكم في مجريات الحياة اليومية.

وشكلت **العوامل الأمنية** والسياسية عاملاً في غاية الأهمية لدفع الناس الهاربين منها إلى إخلاء مناطق سكنهم الأصلية طوال الفترة التي كان يسودها التوتر، على أمل العودة إليها بعد انتهاء المعارك الدموية أو استتباب الأمن، أو بالأحرى إلى الهجرة كلياً

بعد المجازر الجماعية التي كانت ترتكب بحق المواطنين القاطنين في هذه المناطق أو البلدات لتجعلها ذات لون طائفي واحد، وقد أحدثت هذه التحركات خللاً اجتماعياً في البنية الديموغرافية، كما أن هناك مهاجرين انتقلوا من بيئة مختلطة، لكي يعيشوا في بيئات متجانسة، إلاّ أنّ المشاكل الاقتصادية والنفسية- الاجتماعية لديهم تكون مختلفة عمّا هي عليه لدى المهاجرين الذين غيروا البلد والثقافة.[19]

إذاً الخوف على الحياة كان عاملاً كافياً لمغادرة البلاد سعياً وراء مستقبل أفضل، إن لم يكن لهم فلأبنائهم على الأقل، وخاصة بعد أن تسببت الحرب بانعكاسات خطيرة على التطور الاقتصادي، لأنه شمل معظم شرائح الاقتصاد اللبناني جزئياً أو كلياً، فأصبحت **غير قادرة على الانتاج**، وهذا ما أدى إلى **التسبب بانتشار البطالة**، والتي احتلت نسبة عالية في البلاد إذ قدرت بحوالي **30%** .[20] وقد أعتبرت هذه نكبة من أهم النكبات الاجتماعية، إذ إنها شكلت خطراً على السلوك الأخلاقي، وقدأدى انعكاسها على المجتمع إلى تهيئة الفرص المناسبة لسلوك الجريمة، التي ظهرت بشكل واضح في سن الشباب أو المراهقة حيث تعتبر فترة **البحث عن العمل** حافزاً خطيراً لممارسة السلوك المضاد للمجتمع، وقد تكون العامل الأقوى أو السبب المباشر لاقتراف الجريمة أو السرقة أو غيرها من الأفعال المخالفة للقانون، لأن هذا الشابّ لديه المتّسع من الوقت لقضاء وقته في الشارع بدون اهتمام، وقد يلتقي ببعض الأصحاب من ذوي السلوك المنحرف ليدفعوا به في طريق الجريمة. فالبطالةاذن من الأسباب الرئيسية في سلوك درب الجريمة، والحصول على العمل يعتبر مصدراً للاستقرار والأمان، فالشباب العاطل عن العمل يشعر بالخوف على المستقبل، وكلما امتلأت نفوسهم حقداً أو كراهية للآخرين دفع بهم الأمر نحو الانحراف، لذلك فالارتباط بالمهنة، يعطي الفرد الإحساس بكيانه الاجتماعي وعدم الارتباط يشكل عاملاً هداماً بالنسبة إليه.[21]

إن **الحرب** لم تكن ظاهرة عابرة في التاريخ الحديث للبلد، بل على العكس من ذلك، فقد **كانت نظام حياة**، كما كانت متواصلة ومحكومة بفعل قوانينها الداخلية؛ وأنماط الحياة والتفكير والسلوك التي تولدت عن الحرب لا تمحى لحظة انتهاء الحرب، بل هي بحاجة إلى عملية تطهير من العنف وإفرازاته، كحالات الكراهية والانفعالية والحقد وكسر الحواجز النفسية، ويكون ذلك بتقديم ثقافة لا عنفية تعيد الإنسان إلى اعتباره وتؤهله لكي يكون مواطناً في شعب، لا رقماً في طائفة، وعلينا إدراك تاثيرات الحرب

وذيولها وانعكاساتها السلبية والعمل على ضرورة إزالة هذه الآثار، إنما على ضوء تخطيط ناضج ودراسات عملية وعلمية شاملة، ولعلّ المسؤولية هي تلك الملقاة على عاتق **الأسرة**، والأهم على عاتق **الدولة**، لأنها هي تبقى الأهم والأشمل في هذا المضمار، وذلك يندرج في إطار **خطة تنموية شاملة للمجتمع اللبناني**، خطة يتكامل فيها الصحي والتربوي والاقتصادي والسياسي.

الهوامش:

1. Edmond Rabbath: (La formation historique du Liban), p 447.
2. مسعود ضاهر: "لبنان،الاستقلال، الميثاق والصيغة "، ص 241.
3. كمال حمدان: "الأزمة اللبنانية "،ص 226 -228.
4. عبد العزيز القوص: "أسس الصحة النفسية"، ص 316.
5. عبد الله عبد الحي موسى: "مدخل الى علم النفس"، ص 227.
6. محمد نابلسي: "الأمراض النفسية وعلاجها"، ص 22.
7. كمال حمدان: "الأزمة اللبنانية"، ص 197.
8. كريستين نصار: "واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل"، ص 46.
9. عدنان حب الله: "جرثومة العنف، الحرب الأهلية في صميم كل منا"، ص24.
10. حسن قبيسي: "الجريمة في الحوادث اللبنانية 1975 – 1985"، ص 70.
11. عدنان حب الله: "جرثومة العنف....."، ص 193- 194.
12. فاطمة بدوي: "الحرب، المجتمع والمعرفة، الحرب الأهلية"، ص 139.
13. محمد نابلسي: "الأمراض النفسية وعلاجها...."، ص 137.
14. محمد نابلسي:"العلاج النفسي للأسرى وضحايا العدوان"، ص 50 -51.
15. مجموعةمن الباحثين، سلسلة الثقافة النفسية: "الصدمة النفسية"، ص 68 – 189.
16. كريستين نصار: "واقع الحرب..."، ص182 وكذلك عدنان حب الله: "جرثومة العنف..."، ص55.
17. Edward Georges: (Les données socio –démographiques du Liban bouleversées), p16.
18. François Chip aux: (un million de réfugies sur les routes), p6.
19. Robert Kasparian, Adre Beaudouin: (la population déplacée par la guerre au Liban), p24.
20. Jean Mourad: (l'emploi et ses problèmes), p37.

المراجع باللغة العربية والأجنبية:

1. حسن قبيسي: (الجريمة في الحوادث اللبنانية 1975- 1985)، دار قدموس للكتاب والإعلام، بيروت، 1986.

2. مجموعة من الباحثين: سلسلة الثقافة النفسية: (الصدمة النفسية، علم نفس الحروب والكـوارث)، دار النهضة العربية، بيروت، 1991.

3. عبد العزيز القوص: (أسس الصحة النفسية)، مكتبة النهضة المصرية.

4. عبد الله عبد الحيّ موسى: (مدخل إلى علم النفس)، 1988.

5. عدنان حب الله: (جرثومة العنف، الحرب الأهلية في صميم كل منا)، دار الطليعة، بيروت، 1998.

6. علي محمد جعفر: (الأحداث المنحرفون، دراسة مقارنة، عوامل الانحراف – المسؤولية الجزائية – التدابير)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1996.

7. فاطمة بدوي: (الحرب، المجتمع والمعرفة، الحرب الأهلية وتغير البنى الاجتماعيـة والعقليـة فـي لبنان)، دار الطليعة، بيروت، 1994.

8. كمال حمدان: (الأزمة اللبنانية، الطوائف الدينية، الطبقات الاجتماعية، الهوية الوطنية)، دار الفارابي، بيروت، 1998.

9. كريستين نصار: (واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل)، جروس برس، طرابلس، 1991.

10. مسعود ضاهر:(لبنان، الاستقلال، الميثاق والصيغة)،معهد الإنماء العربي، بيروت، 1977.

11. محمد أحمد نابلسي: (العلاج النفسي للأسرى وضحايا العدوان)، مركز الدراسات النفسية والنفسية–الجسدية، طرابلس، 2001.

12. محمد أحمد نابلسي: (الأمراض النفسية وعلاجها، دراسة في مجتمع الحـرب اللبنانيـة)، مركـز الدراسات النفسية والنفسية– الجسدية، طرابلس، 1987.

13. Edmond Rabbath: (La formation historique du Liban politique et constitutionnel: Essai du synthèse), Beyrouth, 1973.
14. Edward Georges: (Les données socio-démographiques du Liban boulversées), Revue l'économiste arabe, Beyrouth 15 Mai 1979.
15. François Chipaux: (Un million de réfugiés sur les routes), Journal le monde, Paris, 24 Août 1989.
16. Jean Mourad: (L'emploi et ses problèmes), revue le commerce du Levant, spécial économie, Beyrouth, Janvier, 1986.
17. Robert Kasparian, André Beaudoin: (La population deplacée par la guerre au Liban), Editions l'Harmattan, Paris, 1995.

الديمقراطية والخوف في شرق المتوسّط
(منظور عبد الرحمن منيف)

فاروق بوزكوز
جامعة دجلة، ديار باقير/تركيا

لسنا بصدد تحليل الواقع السياسي والاجتماعي للعالم العربي والشرق الأوسط الذي لا تتألف فيه الديموقراطية إلا بغيابها، ولا نريد هنا أيضا أن نتكلم عن مزالق الديمقراطية والمآخذ التي أخذت عليها إفراطا كعقيدة وفكرة وطريقة ودين.. وإنما ينحصر همنا بمعرفة عالم وأفكار الروائي عبد الرحمن منيف حول الديمقراطية وغيابها في الشرق الأوسط. تطرق منيف لهذا الموضوع قبل أربعين سنة من دعوة الرئيس بوش لترويج الديمقراطية في الشرق الأوسط. وبطبيعة الحال هناك فرق بين ديمقراطية منيف وديمقراطية بوش مفهوما وغرضا.

1. الديمقراطية بمفهومها العام

الديموقراطية كلمة من أصل يوناني وتتشكل من جزأين: ديمو(demos)؛ شعب وقراطيوس(Kratein)؛ حكم الشعب[1] وتعني كمصطلح حكم الشعب بالشعب ومنع الاستبداد والخوف في المجتمع ومشاركة الناس في إدارة شؤونها ومواردها، واحترام العقل والمعتقد، والاعتراف بحق الآخر ووجوده والتحاور معه نحو الأفضل؛ أي أن يكون له حقّ في إدارة شؤون دولته أو مدينته، وأن يكون له دور في اختيار حاكمه ونظام حكمه[2]. وكل الأنظمة الديموقراطية يجب أن تستهدف بأن تحقق الحرية للشعب في الاعتقاد والتعبير والرأي وإدارة شؤونه، والتقدم والكرامة والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى تصبح هذه القيم الديموقراطية روحية عامة، وأخلاقية عامة، تنتشر في كل نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي العلاقات بين الناس وفي الثقافة والأديان[3]. بالنسبة للجيفارت أن للديمقراطية ستة شروط أساسية، وفي العالم كله، منذ الحرب العالمية الثانية حققت إحدى وعشرون دولة فقط تلك الديمقراطية الحقيقية بشروطها الستة دون انقطاع[4]. وبالطبع لا توجد بينها أي دولة في الشرق الأوسط، وفي الوقت عينه نرى في الشرق الأوسط كله أنظمة تدّعي الديموقراطية لكنها

تمارس الضغط على شعوبها عبر وسائل متعددة، منها احتكار الإعلام وسيطرة قوى الرأسمال وقوى الضغط كما نجد أنظمة تتخذ الديموقراطية "شكلا خارجيا" لكنها في الجوهر خالية من القيم الإنسانية وقيم الحق والعدالة.

و من جانب آخر، يجب ألا ننسى السياسة والأحزاب، لأنها جزء لا يتجزأ من الأنظمة الديمقراطية الحقيقية ومعها الأحزاب السياسية المتعددة طبعا. في الوقت الحاضر، السياسة لم تعد شغل السياسي وحسب، بل كل إنسان الآن معني بالسياسة، طالما السياسة هي لحمة حياتنا وسداتها، لها علاقة بكل شأن من شؤوننا، تتغلغل في كل مسام حياتنا. بؤسنا، سعادتنا، فرحنا، ترحنا، نصرنا، هزائمنا كلها تتوقف على السياسة. حياتنا اليوم رهن السياسة، كيفما كان شكل النظام السياسي الذي نعيش في ظله.

2. الأديب والسياسة

إن هذه هي حالة المواطن العادي، فما موقع الأديب الذي يعد رائد أهله وطليعة قومه، بل يعده بعضهم الممثِّل الحقيقي للشعب من حيث التكون الوجداني والوعي الفكري، اتقاد المشاعر والقدرة على التعبير، وهم أصحاب قلم وقدرة ومن أقدر من الأديب شاعراً أو روائياً على التعبير عن هموم الناس ومشاكلهم، أفكارهم ومشاعرهم؟ الأديب، في الحقيقة، هو ضمير شعبه ولسانه الناطق، إنه الأقدر دائماً على التعبير عما في نفسه ونفوس من حوله من آمال وتطلعات، عما يلاقيه هو ومن حوله من معاناة وآلام، ضنك وعذاب. ولذلك نجد أن الأدباء والمثقفين يتخذون في المجتمع دورا مهما، يقول منيف في هذا: "أما بالنسبة إلى دور المثقف الآن في العالم الثالث، فهذه دون شك قضية كبيرة ومهمة ويجب أن تناقش بعناية، وأنا على قناعة بأن المثقف عبارة عن شريك أساسي في عملية الوعي والتغيير، ويجب أن يكون موقفه نقديا وأن يتخلى عن موضع التحريض والدعاية المباشرة ليخوض حوارا واسعا سواء أكان مع فكره هو نفسه أو فكر الآخر من أجل الوصول إلي تحديد الصيغ المناسبة. بمعنى آخر، لا يمكن أن يكون المثقف بديلا من الحزب السياسي، كما أنه يجب ألاّ يكون المثقف مجرد صدى للحزب السياسي. من هنا، عليه أن يكون لديه موقف نقدي، ومختلف، وهذا يتطلب صيغة ديموقراطية وتعدد وجهات النظر والآراء.[5] "

من خلال هذا التعبير غالباً ما يجد الروائي نفسه وجهاً لوجه أمام السياسة، وجهاً لوجه أمام السلطة، خاصة حين تكون السلطة والشعب على طرفي نقيض، آمالهما

مختلفة، منطلقاتهما متناقضة، إذ ذاك تكون السلطة في وادٍ والشعب في واد آخر، وتكون العلاقة بينهما قائمة على القمع، على القسر والإرغام، ولما كان الأديب هو الممثل الحقيقي لشعبه وهو الذي يعبر عن آلامه وآماله، فإن علاقته بالسياسة والسلطة في مثل هذه الحالة، لابد من أن تكون علاقة خلاف وتناقض، من هنا غالباً ما يكون الأديب عموماً والروائي خصوصاً على علاقة عضوية بالمعارضة للسياسة القائمة والسلطة الممسكة بزمام الحكم، لسبب بسيط، ربما، هو أن الشعب، خاصة في العالم الثالث المتخلف، يطمح نحو الأفضل، يريد أن يبدل شروطه الموضوعية التي لا أمل له معها بالتخلص من فقره وبؤسه، جهله وتخلفه، أي يريد التغيير. بينما تعمل السياسة في هذه البلدان على تكريس الوضع القائم والحفاظ عليه، تثبيت أقدام السلطة وترسيخ جذورها ولا عدو لها سوى التغيير(6).

إن الصراع في هذه النقطة يتحقق بين إرادة التغيير والحيلولة دونه، بين الشعب والسلطة فأما المبدع الحق فهو دائماً طليعة من يسعى للتغيير، هو الخارج على القديم، الراغب في الجديد، هو الكاره للسكون والموت، المتطلع للتجديد والحركة والحياة، فنتيجة ذلك تكون العلاقة بين الرواية والسياسة علاقة صراع وتناقض تصل أحياناً درجة "to be or not to be" أي حياة أو موت. إن ذلك يتوقف فقط على درجة قمعية السياسة أو نزعتها المحافظة من جهة ونزعته هو للتغيير والتجديد من جهة أخرى. وها هو ذا الروائي الأديب عبد الرحمن منيف من هذا النوع في العالم العربي وفي الأدب العربي.

3. الرواية السياسية

إن الرواية السياسية هي التي تعنى أساساً بالسياسة وانعكاساتها على الإنسان، فرداً ومجتمعاً في زمان ومكان معينين، ترتكز على إضاءة الاهتمامات السياسية للناس والجوانب السياسية من حياتهم الاجتماعية أو تتناول فئة حاكمة، نظاماً سياسياً قائماً بالنقد والتحليل وعلى نحو يسهم في توضيح صورته للقارئ وزيادة وعيه السياسي أو معارفه حوله. فإن الرواية السياسية تطورت مع تطور المجتمع وظهور المجتمع الصناعي بكل ما يعنيه من تطور مفهوم الدولة، سيادة القانون والنظام، النزوع نحو الحكم الديمقراطي أي حكم الشعب بالشعب وللشعب، ترسيخ مفهوم حقوق الإنسان وعلى رأسها حقه في التعبير، حريته في إبداء الرأي والدفاع عنه. كل ذلك أسهم في نشوء الرواية

السياسية مع صعود الطبقة المدينية المتوسطة وصعود مفاهيمها وقيمها. الكتاب الذين يكتبون في مجال الرواية السياسية كثر ومن الصعب تعدادهم لكن لابد من التوقف عند بعض الكتاب الذين يعتبرهم الدارسون اليوم أهم وأخطر من كُتّاب الرواية السياسية:

1. **جورج أورويل**، هو الذي كتب العديد من الروايات وكلها تدخل في باب الرواية السياسية، لكن أهم هذه الروايات إنما هي "مزرعة الحيوانات[7]" و"1984"[8]. ان هذا الكاتب كتب الرواية السياسية الخالصة، وكان في كل من روايتيه المذكورتين تحديداً يستهدف نظاماً سياسياً بعينه، إلا أنه كان يعمل مبضعه في ذلك النظام، مشرحاً، محللاً، مسلطاً الأضواء، مستكشفاً ما فيه من ثغرات وعيوب بتحيز وحقد حيناً وبموضوعية وحيادية أحياناً أخرى. وهو ما رفعه إلى مصاف مشاهير الكتاب العالميين في ميدان الرواية السياسية وجعل رواياته من عيون الأدب الكلاسيكي.
2. **دوستويفسكي**، كتب في السياسة حين كتب عن سجون الطبقة الحاكمة، فقر الشعب، ذله وحرمانه، جور القوانين السائدة، ونظام القنانة خصوصاً[9].
3. **تولستوي**، كتب في السياسة أيضاً حين كتب ملحمة "الحرب والسلم" ملحمة الوطن الذي يدفع عن نفسه القوة الغاشمة وهي تغزوه مدمرة مخربة حارقة قاتلة والقيصر يفر من وجه نابليون تاركاً الشعب والعاصمة لقدرها الأسود[10].
4. **ديكنز**، كتب الرواية السياسية حين كتب عن الثورة الفرنسية في "قصة مدينتين" وما تركته من آثار على النظام السياسي القائم في كلتا المدينتين: لندن وباريس[11].
5. **جاك لندن**، كتب أكثر ما كتب الرواية السياسية، كما نرى في "العقب الحديدية" مثلاً، حيث يحلل النظام السياسي القائم، يشرح مظالم الطبقة الرأسمالية المستغلة ويسلط الأضواء على ما يعانيه العامل والكادح والفقير في ظل نظام كذلك النظام وتحت نير طبقة كتلك الطبقة [12].
6. **بوشكين**، في روايته ــ ابنة القائد ــ كتب نوعاً من الرواية السياسية حين تناول انتفاضة فلاحية قامت على ظلم الإقطاع الذي يعمل بنظام القنانة يستعبد الفلاحين ويشيئهم تشييئاً ينفي عنهم كينونتهم البشرية، وكل ما كان يهدف إليه بوشكين هو وضع اليد على الجرح للحد من ظلم تلك الطبقة واستبداد القيصر وحواشيه[13].

ثمة أمثلة عديدة في الأدب التركي الحديث على الرواية السياسية، معظم المؤلفات في هذا المجال نشأت بعد الانقلابات العسكرية في تركيا مثل 12 مارس 1960، و12

أيلول 1980 و28 شباط 1997. لا شك أن هذه الهزات عكست في الأدب وأتت بها كتابة الروايات السياسية وألفت عدة روايات. من بينها؛ "أنت المجروح (1974)" لأردال أوز[14]، هذه الرواية تتشابه مضمونا وموضوعا وأسلوبا مع رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف، و"ملء اليد من السماء (1974)" لجتين آلتان، و"الفجر (1975)" لسوكي صويصال، "الجدال (1976)" صميم قراكوز، "ليلة من حفلة الزواج (1979)" لعدالت عغاأوغلو[15]. و"عبد الله المنيوي (1967) " و" المظنون (1970)" لحكيم أوغلو إسماعيل[16].

7. **ياشار كمال**، وهو كتب العديد من الروايات باللغة التركية في مجال السياسة " مهمت النحيف (1968)"، "سلطان الأفيال"، "زادك الله ظلمك[17] ".
8. **أورهان باموق**، في روايته "الثلج (2002)[18]"، تناول فيها القضايا السياسية في تركيا ولكنه قال عن روايته "الثلج"؛ "هذه روايتي الأولي والأخيرة في الرواية السياسية".

- إن كانت الرواية العالمية، بمعناها الحديث، قد بدأت في مطلع القرن الثامن عشر، فإن الرواية العربية لم تبدأ حتى مطلع القرن العشرين. ذلك أن "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران تلك التي يعتبرها بعض النقاد أول رواية عربية، بالمعنى الحديث للكلمة، لم تنتشر إلاً سنة 1912، بينما نشرت "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل التي يعتبرها بعض النقاد الآخرين هي الرواية العربية الأولى، عام 1914، وفي كلتا الحالتين هناك مائتا عام فارق زمني بين الرواية العالمية والرواية العربية. هذا الفارق الزمني ليس في عمر الرواية فحسب بل هو في عمر النهضة والارتقاء الحضاري والسياسة والاقتصاد والرواية السياسية أيضاً. ولكننا بدأنا نشاهد بعض النماذج في هذا المجال. والأمثلة كثيرة، مثلاً؛ **الطاهر وطّار، ورشيد بو جدرة وواسيني الأعرج** من الجزائر، **عبد الرحمن الربيعي** من العراق، **إلياس خوري** من لبنان، **غسان كنفاني** الذي كتب عن الوطن المغتصب ومعاناة شعبه على أيدي المغتصبين والأنظمة العربية على حد سواء ولكن ربما يقع في رأس قائمة الروائيين العرب الذين قاربوا السياسة بشيء من الجرأة وكتبوا الرواية السياسية بالشكل الأقرب لمعنى السياسة هم؛ **عبد الرحمن منيف** في روايتيه "**الأشجار واغتيال مرزوق**" و"**شرق المتوسط**" و"**الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى**". **مؤنس الرزاز** الذي حاول أن يرصد العلة الحقيقية لتردي الوضع العربي من محيطه إلى خليجه ألا وهي تردي النظم السياسية، غياب الحرية

والديمقراطية، تفشي الفساد والاستبداد. **غازي القصيبي** الروائي العربي السعودي الذي يحاول أن يسلط الأضواء على تحجر معظم الأنظمة السياسية العربية، انعدام علاقتها بشعوبها، تفضيلها مصالحها الذاتية على مصالحها الوطنية، بعدها عن قضاياها القومية.. الخ. وروايته الأخيرة ليست ممنوعة في بلاده ــ السعودية ــ وحسب، بل في معظم البلدان العربية.

4. المجتمع العربي والقمع – السجن – الخوف

يرى منيف، أن المجتمع العربي الآن، مجتمع انتقالي لا يملك أية قيم أو موازين. ما عدا هناك نموذج أو مركز للاستقطاب يقود نحو آفاق أكبر، ومتقدمة أكثر. وهو يعتبر أن الكثير من العاملين في السياسة من هذا الجيل هم من الهشاشة والفجاجة إلى درجة أنهم هم المسؤولون عن الهزائم والخيبات التي مرت بالعرب. فأما القيم السابقة، برغم عدم قناعته بها، فإنها تمثل نوعا من الصلابة والثبات. وهو يقارن بين الجيل الذي حقق الاستقلال والجيل اللاحق. إن الجيل الراهن جيلٌ هشّ وغير مبني على أسس قوية وسريع التخلي. وما نراه حاليا هو نتاج هذه المرحلة الانتقالية التي لا تمتلك قيما.[19]

و بالنسبة له أيضا إن **عدداً من الكيانات القطرية الحالية مصطنع تماما، ونشأ نتيجة الصدفة، أو نتيجة الأطماع أو التوسع الاستعماري، أو نتيجة اعتبارات آنية عارضة.** وهذه الكيانات، بزوال المسببات التي أوجدتها غير قادرة على الاستمرار، ولذلك يجب أن نميز بوضوح بين الكيانات الكبيرة والقديمة، والتي كان لها وجود وملامح متميزة في فترات زمنية متعاقبة وبين هذه الكيانات المصطنعة. فإذا كانت الضرورة تقضي بمراعاة بعض الاعتبارات في العمل من أجل الوحدة، فإن هذه الاعتبارات تتفاوت بين قطر وآخر، بين فترة وأخرى [20]. وهو يرى المجتمع العربي في صورة سجن كبير في رواياته ويقول عنه في حوار معه: "نعم.. نعم.. وفوق ذلك هناك السجن الكبير الذي هو من القسوة والشمول، بحيث أنه صار يعطل تدريجيا معظم الطاقات، وبالتالي صار يعيق ويؤخر أي عملية تقدم. لذلك أكرر القول هنا، كان لا بد من التصدي لهذه الظاهرة بتطورها منذ كتابة الرواية الأولى "شرق المتوسط". وكان لا بد من تنبيه الناس لها بشكل أكثر تحديدا وتوضيحا مما سبق. لكي يحاولوا عمل شيء ما من أجل وقف هذا الغول والتصدي له[21]. ويصف منيف حالة المواطن العربي بقوله:

"أن تكون منفيا يعني أنك، منذ البداية، إنسان متهم. ليس المهم نوع الاتهام، أو الجهة التي تتهم، لأن ذلك شيء لاحق ومتعدد، وشديد التباين أيضا؛ الأكثر أهمية أنك اكتسبت وضعا، حتى لو كان غير محدد أو غير معلن، ونتيجة لذلك تترتب مجموعة من الصفات الملتبسة، وهذه الصفات لا تقتصر على المنفي وحده، إذ تمتد إلى أسرته، حتى الأطفال. وإلى الأصدقاء والمعارف، وأغلب هؤلاء يكونون منفيين أيضا، أو فضوليين دفعتهم الصدفة أو الضرورة وربما أسباب أخرى! لعلاقة من نوع ما مع المنفي."(22)

"والقاعدة القانونية التي تؤكد براءة الإنسان ما لم تثبت إدانته، ويجب أن تتوفر لذلك الأدلة القاطعة من خلال محاكمة علنية وعادلة مكفول فيها حق الدفاع المشروع؛ إن هذه القاعدة بالإضافة إلى عدم وجودها أو الاعتراف بها، فان مواطني البلدان القمعية، منذ البداية، متهمون، ويبقون كذلك، ما لم تثبت براءتهم! وحتى هذه البراءة ليست دائمة أو مستمرة، وإنما مرهونة بأوقات معينة، كما أنها عرضة للسقوط والتآكل ما لم تجدد باستمرار، من خلال إظهار الولاء أو الارتباط بالأجهزة أو الانضواء تحت سقف حماية من الحمايات الكثيرة الموجودة في هذه البلدان. (23)"

يقول منيف في الكتابة عن **السجن** وانعكاساته المنتظرة بالنسبة للضغط علي الأدباء والمفكرين والمثقفين: "إن الكتابة عن السجون العربية أحد الحقول المهمة في الأدب العربي المعاصر. فقد كُتب حول هذه التجارب – المحن عدد غير قليل من السير الذاتية والروايات، ولاقت هذه الكتابة اهتماماً ملحوظاً من القراء، وخصوصاً أن ظاهرة السجن السياسي من أكثر الظواهر اتساعاً على امتداد المنطقة، وتتبارى الأنظمة العربية، من أجل الحفاظ على بقائها واستمرارها، لتطوير وسائل القمع وزيادتها، حتى ليمكن القول أن نسبة كبيرة من مواطني هذه المنطقة عانت، ولا تزال تعاني، بشكل مباشر أو غير مباشر، من هذه الظاهرة. فمن لم يسجن حتى الآن، معرّض لذلك في أي وقت، والأسباب دائماً موجودة أو يمكن تلفيقها. ومن يقدّر له أن يفلت شخصياً من هذه المحنة لا بد أن يكون له قريب أو صديق تعرّض لها. وبالتالي فإن هذا الوباء لحق الجميع بمقدار ما، في مرحلة ما، ومن لم يصبهم حتى الآن، لا بد أن يلحق بهم ويطالبهم في وقت لاحق، وتحت أي عنوان، وخصوصاً أن الدولة الشمولية تزداد حضوراً وهيمنة، ويتراجع في المقابل حكم القانون ويغيب القضاء المستقل وتنعدم وسائل الرقابة والحماية بالنسبة إلى المواطن الفرد.(24)"

هكذا يصف الروائي عبد الرحمن منيف **الشرق الأوسط بأنه السجن الكبير** الذي هو من القسوة والشمول، بحيث أنه صار يعطل تدريجيا معظم الطاقات، وبالتالي صار يعيق ويؤخر أي عملية تقدم. رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف و"شرق المتوسط مرة أخرى" هي في الواقع تجسيد للحالة الدائمة التي سادت المنطقة ولا تزال مستمرة حالة القمع والخوف في الشرق الأوسط. ومن الطبيعي، عندما يصبح للقمع وللخوف مؤسسات وحجم من هذا النوع وامتداد يشمل المنطقة كلها، لا يصبح فقط شالا للحركة، وإنما يغيب كل إمكانية لمحاولة التقدم ومواجهة الأعداء الأساسيين. هكذا يتحدث منيف عن غرضه في كتابته روايتيه، وكان هاجسه الأساسي الدائم هو معالجة هذه القضية أي قضية القمع والخوف. طبعا للقمع والخوف مظاهر وأشكال متعددة وهو يكاد يشمل الحياة العربية من جميع جوانبها، لكن أبرز الرموز المعبرة عنهما هو السجن. فالسجن تجسيد لعملية اضطهاد الإنسان ومحاولة إلغائه. ولذلك عندما كتب رواية "شرق المتوسط" أراد أن تكون نوعاً من الاقتراب من الموضوع والتنبيه له. ومنذ كتابة تلك الرواية وحتى الآن، وحتى تطور كبير يمكن أن يكون الأبرز والأهم في حياة المواطن المعاصرة من حيث اتساع ظاهرة وحجم القمع والاضطهاد. ولذلك كان لا بد من التصدي مرة أخرى لهذه المشكلة، ومحاولة فحصها من جديد، والتعرف على الكثير من مظاهرها وأشكالها وأساليبها، وخاصة تعبيرها الأبرز "السجن" الذي صار يتسع يوما بعد يوم، ويلتهم الكثيرين. بل يمكن القول انه ليس هناك أحد بوسعه أن يكون آمنا أو أن يظل خارج السجن، وإذا حصل فبشكل مؤقت وشكلي. هذه الصفات، وما يماثلها، تحدثت عنها من قبل، طبعت تلك السجون بطابعها نتيجة للمناخ العام المسيطر، إذ تنتقل إلى داخل السجن أسوأ القيم والأساليب الموجودة خارجه، وتصبح هذه القيم والأساليب القانون السائد والسلوك الطبيعي. فغياب الديموقراطية وحقوق الإنسان مثلاً داخل المجتمع بصورة عامة، وغالباً ما يموّه هذا الغياب بإجراءات شكلية ومظاهر زائفة لإقناع العالم الخارجي، في الدرجة الأولى، فإن غياب أي مظهر من مظاهر الديموقراطية وحقوق الإنسان داخل السجن يعتبر أمرا بديهياً، بل ويعتبر مصدراً للقوة واثبات الوجود، ومجالاً للزهو والشعور بالتفوق(25).

إن المهانة التي يواجهها السجين، ومنذ البداية، مدروسة ومدبرة، وهي تهدف إلى كسر معنوياته وإذلاله قبل التعامل معه، إذ يُعرض لحظة وصوله، إلى مقدار كبير من

المعاملة القاسية والمذلة والجارحة، بالكلمة والنظرة والتصرف، وحول ابسط المطالب الحياتية: حين يقدَّم له الأكل أو يحرم منه. حين يذهب إلى المرحاض. حين يسمح له بالاستحمام. حين يحشر مع كثيرين في مساحة ضيقة جداً تفتقر إلى الحد الأدنى من الشروط الصحية والنظافة. هذا عدا الصور والقصص الشائعة التي سمعها، وهي تملأ الذاكرة حول ما يلاقيه الإنسان إذا وقع بين أيدي المخابرات.(26)

نتيجة تلك الحالات والضغط والقمع، يلجأ بعض الروائيين إلى الرمز وإلى دلالات استعارية وإيماءات مجازية ويلتفون ويداورون ويناورن أو يلجئون إلى التاريخ ليقول بعض ما يريد قوله، نرى نموذجه الأول لدي نجيب محفوظ في روايته "القاهرة 45"، حين كتب عن حريق القاهرة المفتعل، عن مفاسد النظام الملكي، عن ابتذاله وسقوطه. كذلك فعل عبد الرحمن منيف في رواياته "الأشجار واغتيال مرزوق"، "حين تركنا الجسر" و"شرق المتوسط".

إن صورة المطارد الغريب والمنفي الذي تلاحقه "الكلاب"، بكل ما يتحمل به دال "الكلاب" من دلالات استعارية وإيماءات مجازية تنتقل به من حقل الحيوان المعروف إلى حقل الإنسان الخائن، المهادن، العميل، الخ... هذه الصورة أصبحت صورة متواترة في كثير من روايات المنفى العربية، لكن جذورها تكمن في رواية نجيب محفوظ "اللص والكلاب" التي أرست دعائم هذه الاستعارة التمثيلية الكبرى في الأدب العربي عامة والروائي بصفة خاصة، الأمر الذي وصل إلى درجة توغل مفردات هذه الصورة في "رواية السجن" أيضا لدى عبد الرحمن منيف، حيث يصبح شرق المتوسط سجنا كبيرا تملؤه الكلاب التي تؤكد كوننا نعيش في أزمنة القمع وان الواقع العربي لا يزال يفتقر إلى تمرد وعي المقموع على سلطة القمع بمؤسساته وتجلياته المنتشرة في ربوع الوطن العريض، كما يقول رجب إسماعيل (الراوي): "سيطول الانتظار أيها المسافر، ستموت قبل أن تسمع الكلمات التي تنتظرها، شاطئ المتوسط الشرقي لا يلد إلا المسوخ والجراء، وأنت تنتظر الخيول والسيوف! انتظر، سيظل الشاطئ يقذف كل يوم عشرات الجراء" (27).

تتصل صورة "الكلاب" في مرويات المنفى، بتجليات عدة، ترسم كلها معالم وطن منفي، ممسوخ، وطن أشبه بسجن كبير كما يقول راوي عبد الرحمن منيف في أغلب رواياته، فـ"شاطئ المتوسط الشرقي لا يلد إلا المسوخ والجراء.. وأنت تنتظر الخيل والسيوف" ولان راوي منيف يعيش في "عالم الكلاب" والنفي الأبدي فانه يخلق -حتى

على مستوى اللاوعي- صورة للخيول، بتداعياتها التي تنهل من عالم الفروسية وتوهج رغبة التحرر والخلاص والجموح: "فالأفكار تتراكض في رأسه كأنها الخيول الجامحة[28] "، أو: "تتراكض (..) مثل خيول مجنونة[29] " وعندما تموت الأفكار بفعل برودة المنفى ووحشته تشعر الخيول بمشاعر الغربة والنفي ذاتها، وتغدو "عيونها كامدة مليئة بالحزن والعذاب" حتى تموت معلنة عن موت الرمز نفسه، فلا خلاص[30]". وفي مقابل موت الخيول، تكون حياة الكلاب وتكاثرها الدائم[31] وفي مثل هذا العالم الموحش، تكون المدن مخذولة، خاسرة، "تشبه كلبا وضع ذيله بين رجليه[32] ".

أما صورة الأشجار، بكل محمولاتها الدلالية التي تتحمل بها مرويات المنفى من جذور تتصل بالأرض وثبات في وجه العواصف والرياح، فهي رمز للهوية والرسوخ وامتداد الجذور في عمق أعماق الأرض، وأشجار الزيتون، بصفة خاصة، توغل في رسم معالم صورة "الهوية"، لأنها أشجار معمرة تقاوم أزمنة الشتات والتيه الأبدي الذي اقتلع الفلسطينيين من أراضيهم وتركهم عرضة لرياح المنافي وغطرسة الآخر المحتل.

وفي مقابل تصريح بعض رواة المنفى أو شخصياته بلفظ "الشجرة" أو صورة "الإنسان/ الشجرة" كما فعل جبرا في روايته "البحث عن وليد مسعود"، يكني البعض الآخر عنها ويأتي بإحدى لوازمها، فمريد البرغوثي، مثلا يسمي تجربة الشتات الأول تجربة "الاقتلاع الأولى[33]"، وراوي عبد الرحمن منيف يصف السلطان أبا مشعل في المنفى بأنه "المنبّت" كعنوان الرواية. وليس "الاقتلاع" أو "المنبت إلاّ كنايةً عن "الشجرة" التي غادرت تربتها / وطنها ووضعت في تربة أخرى "منفى". لذا، ليس غريبا أن تتواتر تشبيهات "الشجرة" أو "النخلة" أو "النخيل"، بصفة مباشرة، أو بلوازمها اللفظية: فها هو السلطان بعد أن أدرك أبدية المنفى كانت يداه "ترتجفان مثل سعفة [34]". أما رجب إسماعيل فقد زرعت له أمه شجرة بعد شهرين من سجنه الأول [35] حتى تزرع بداخله حب الأرض وعدم اليأس أو الجزع، لكنه حين خرج بعد ان قدم تنازلاته وذكر أسماء رفقائه بالخارج، اقتلع الشجرة بنفسه إذ "تصورها عدوا [36]" عندما أيقن أن السجن العربي كبير يكاد يشمل "شرق المتوسط" كله.

إن كتابة المنفى كتابة تتكئ على هذيان رواة منفيين تفيض ذاكراتهم بمشاهد شتى تجسد آلام المنافي وعذابات الشتات، ولأن "المنفى"- في جوهره- عقوبة لا تقل وطأة عن عقوبة "السجن"، بل تزيد في أغلب الأحوال، فان رواية "البحث عن وليد مسعود"

بوصفها رواية منفى تعمل على سرد الذاكرة، مثلما تعمل ذاكرة الراوي رجب إسماعيل في رواية عبد الرحمن منيف "شرق المتوسط (1975)" الذي خرج من سجنه داخل الوطن بعد مدة خمس سنوات قضاها وسط أجواء مشحونة بألوان من التعذيب والتشويه الجسدي والنفسي داخل "سجن" وكأنه "المنفى" أو "وطن/ منفى":

"لست متأكدا مما يجب أن أفعله، سأدرس الأمر قبل أن أفعل أي شيء، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبرى، جريمة يدفع ثمنها الناس المنفيون على شاطئ المتوسط الشرقي، بتقديري جميع الناس، ولكن أكثرهم السجناء السياسيون[37]".

5. الديمقراطية ضد الخوف عند عبد الرحمن منيف

كان لا بد من التصدي لهذه الظاهرة بتطورها منذ ظهورها. وكان لا بد من تنبيه الناس لها وتحذيرهم منها بالوسائل المناسبة، ولذلك يبحث منيف في أدبياته ورواياته عن الوسيلة التي تستطيع أن تبيد الخوف والعنف والتخلف وخيبات الآمال والهزائم التي لحقت بالشرق الأوسط. بالنسبة له طريق هذا طريق الديمقراطية ولكن بقيمها الحقيقية والإنسانية، ليست ديمقراطية عبد الرحمن منيف التي يتمنى أن تحقق في الشرق الأوسط ديمقراطية مصطنعة من ورق، وهو يبحث عن المخرج من المأزق والمشاكل في الشرق الأوسط ويري الحل الوحيد للمشاكل بأن تتوفّر الديمقراطية بكل عناصرها ومقتضياتها.

إن معظم الذين يرفعون السلاح في وجوه بعضهم، ويثيرون المخاوف جوارهم، ويتبادلون الاتهامات، ويطلقون الأوصاف والأحكام، لم يكتشفوا الأفكار والمصالح التي تجمعهم، ولم يختبروا إمكانيات التعايش والتعاون من أجل تحقيق أهداف مشتركة، ولم يستطيعوا تحديد نقاط الاتفاق والاختلاف فيما بينهم بشكل دقيق. لقد حصل ذلك نتيجة تغليب الآني على الاستراتيجي بالنسبة للروائي عبد الرحمن منيف. لقد وجد الخوف مكانا في الشرق الأوسط بانعدام الجو الديموقراطي، وعدم وجود تقاليد أو صيغ للتعبير عن الفكر والمواقف، والركون إلى قناعات بدائية، أو إلى يقين لاهوتي بأن الحقيقة، كل الحقيقة، في هذا الجانب وحده، وعدم الرغبة في فهم الآخر أو محاورته، إضافة إلى العلاقات القبلية داخل المؤسسات السياسية جميعها، والخوف من الفكر المختلف، كل ذلك جعل الأمور تتداخل وتتشابك إلى درجة يصعب معها الوصول إلى الشيء المشترك، والفهم المتبادل، وتحديد أولويات كل مرحلة. ولذلك تراكمت الأخطاء والأحقاد

والمخاوف، وغابت الأسئلة الصحيحة والأجواء السليمة، بحيث لم تعد تعرف بدقة وجوه الاختلاف والائتلاف، ومتى تكون القوى السياسية متحالفة على خصام.

ويجد الحل كبداية في الحوار داخل المجتمع ويقول: "إزاء وضع مثل هذا، مليء بالتعقيد والخيبة والضياع، كيف نفترض أو كيف نتصور البداية أو الحل؟ نفترض، بداية، إن الحوار، والحوار بالذات، الخطوة الأولى على هذا الطريق الطويل والوعر، والحوار هنا يعني الإقرار بثلاث مسلمات جوهرية: - **الأولى:** الاعتراف بالآخر، الاعتراف الفعلي والواقعي، وليس الشكلي، وهذا الاعتراف يعني إن الآخر جزء من البنية التي تشكل المجتمع، مما يقتضي التعايش والتعامل معه، أي بمقدار ما أنا موجود فإن الآخر موجود أيضا، وهذا الوجود حق وليس منة ومنحة، وهو دائم ومستمر، وليس نتيجة حاجة طارئة أو استكمالا لبعض الشكليات. - **الثانية:** ليست الحقيقة كتلة صلبة يحتكرها طرف واحد، وإنما هي نسبية وموزعة، وبداية اكتشافها، أو الوصول إليها لا تكون إلا بمحاورة الآخر وفهمه، تمهيدا للوصول معه إلى الحقيقة الفعلية، أي الممكنة، والتي تجعل العمل بالتالي عقلانيا وممكنا مستمرا. - **الثالثة:** أن يكون الاعتراف والحوار في جو من التكافؤ والاعتراف المتبادل، ومستندا إلى الاحترام والرغبة في التعاون تمهيدا للوصول إلى ما تتطلبه المرحلة.

هذا الحوار المفترض، والذي يجب أن يجري على كل المستويات، ويتناول جميع القضايا وبين جميع القوى والعناصر، يرتكز أساسا وجوهريا إلى حقيقة كبرى ينطلق منها، ويجب أن توجهه دائما هي:الديمقراطية، لأن الديمقراطية، وقبل كل شيء، هي ممارسة يومية، طريقة في التعامل، وهي تتناول جميع مناحي الحياة، بدءا من اصغر خلية وحتى قمة السلطة، من ابسط القضايا حتى أكبرها وأكثرها خطورة. في مثل هذا المناخ، وعلى ضوء هذه الممارسة، يمكن أن نتصور بداية معالجة القضايا والوصول إلى صيغ وقواعد تحكم التعامل بين الأفراد، وبينهم وبين السلطة، وبينهم وبين الآخرين[38].

الخلاصة:

يجب ألا ننسى قبل كل شيء؛ إن المعين الوحيد في ثقافة الخوف هو القوة، من يملك القوة فهو يحدد القوانين والحدود. والقوة بلا ضابط لا تحترم بأية قيمة ولذلك فإن

الذين يلدون في ثقافة الخوف يبتعدون عن جوهرهم الإنساني أو فطرتهم الإنسانية حتى إن صاحب القوة يستطيع أن يحدد عدد حبات (الفلافل) الذي سيأكله الشخص يوميا، ونتيجة ذلك لا يستطيع الإنسان أن يحقق نفسه وشخصيته وهويته، إذن ماذا سنفعل؟ سنبني وسنزرع ثقافة القيم بدل ثقافة الخوف.

ربما يقال أن الرهبة التي فرضتها السلطة بأساليبها القاسية، بالمناخ الذي ولّدته لتضمن حماية النظام وأشخاصه، ولغياب القانون والقضاء المستقل، جعلت الكثيرين يبالغون في التنازل عن حرياتهم وحقوقهم، ويفقدون غريزة الدفاع عن النفس، ويسلّمون بما تريده الدولة وبإقرار أساليبها، وغالباً ما تكون مزاجية أو بدافع الإذلال والانتقام، بحيث يتحول البشر إلى قطعان، ويتحول الحاكم وحاشيته إلى آلهة، يعطون ويمنعون من دون القدرة على مناقشتهم أو الاعتراض على ما يفعلون.

الحاكم الفرد هو الذي يدير المجتمع. بكلمة واحدة منه يمكن أن يُزجّ الإنسان في السجن والى الأبد. وبكلمة منه يمكن أن يُفرج عن السجين مهما كان الجرم الذي ارتكبه. والى أن تصدر من لسان الحاكم هذه الكلمة أو تلك، تبقى مصائر الكثيرين معلّقة، ومؤجلة، وخاضعة لشتى الاحتمالات.(39)

بالطبع إن الحل بهذه المشاكل والقضايا في الشرق الأوسط سيكون بالديمقراطية أولا ودائما، وفي بحثنا هذا تناولنا هذه المشاكل والقضايا حول الديمقراطية ضد الخوف والعنف حسب وجهة نظر الروائي عبد الرحمن منيف. وباعتقاده أنه ما لم يتم التصدي لظاهرة القمع والخوف وما لم يتم الوصول إلى قيم ديموقراطية في كل أطراف الحياة يكون فيها القانون هو الحَكَم والحاكم في العلاقة، وأن يسود المجتمع المدني وتسود العقلانية والتعددية، فسوف يبقي الشرق يدور في نفس الدائرة.

إن تحشيد القوى من أجل فضح ظاهرة السجن السياسي، بهدف تدميرها، قضية تفوق في أهميتها أي ظاهرة أخرى، لأن الوطن ليس مكاناً فحسب، إنما هو، وفي الدرجة الأولى، مواطن حر، مواطن غير خائف، مواطن مصونة كرامته وحقوقه. ومثل هذه الأمور ليست منة من احد، وإنما تولد مع الإنسان وتستمر إلى النهاية، من دون أن يستطيع أحد انتزاعها أو التقليل منها، لأنها ثابتة بحكم القانون، والمجتمع ككل يدافع عنها ويحميها ويحاسب أي إنسان، مهما كان موقعه، إذا حاول أن يتجاوزها أو يجرحها.

أكثر من ذلك: يبقى هؤلاء الجلادون معرضين للمساءلة ذات يوم، ويمكن أن يكونوا عبرة لغيرهم، لأن الحياة دولاب كما يقال، ومن كان جلاداً في الأمس يمكن أن يتحول إلى ضحية اليوم أو غداً، وقد يتعرض للتعذيب والأذى والانتقام إذا ظل القانون غائباً والقضاء معطلاً.(40)

هناك فرق بين ديمقراطية عبد الرحمن منيف وديمقراطية أمريكا؛ لا خلاف بين جميع المراقبين العقلاء للمواقف الأمريكية وسياستها أن أمريكا في الشرق الأوسط تتخذ من الديمقراطية ذريعة للاستعلاء.. والاعتداء.. والاستيلاء.. والتدخل في شؤون الآخرين ولكن عبد الرحمن منيف مختلف تماما. ربما يقال ان ديمقراطية منيف طلب وجداني لحل مشاكل الشرق الأوسط. أما ديمقراطية أمريكا فهي الديمقراطية التي تعمل على تحقيق وحماية أطماع أمريكا ومصالحها وسياساتها الخارجية الداعمة والمؤيدة للصهاينة اليهود المستوطنين في فلسطين والمناهضة لأي توجه إسلامي فهي الديمقراطية المحمودة والمثالية والمتحضرة من المنظور الأمريكي. علي كل حال يجب أن نكون موضوعيين؛ هل كانت الديمقراطية موجودة في الشرق الأوسط وأتت أمريكا وأفسدتها؟

الهوامش:

1. Kemal Gözler, *Türk Anayasa Hukuku,* Bursa, 2000, p.131-135.
2. انظروا: Erdoğan, Anayasal Demokrasi, op. cit., p. 205.
3. انظروا:

- Giovanni Sartori, *Demokrasi Kuramı,* Ankara; Giovanni Sartori, *Demokrasi Teorisine Geri Dönüş,* (Trans. Tunçer Karamustafaoğlu and Mehmet Turhan), Ankara, 1993; Giovanni Sartori, "Democracy", *in International Encyclopedia of the Social Sciences,* New York, Macmillan and Free Press, 1968, IV, p.112-121; Robert A. Dahl, *Polyachy: Participation and Opposition,* New Haven, Yale University Press, 1971; Robert A. Dahl, *Demokrasi ve Eleştirileri* (Trans. Levent Köker), Ankara, 1996; Herry B. Mayo, *Demokratik Teoriye Giriş* (Trans. Emre Kongar), Ankara, 1964; Arend Lijphart, *Çağdaş Demokrasiler* (Trans. Ergun Özbudun ve Ersin Onulduran), Ankara, 1988, p.1-2, 23-28; Bingham Powel, *Çağdaş Demokrasiler* (Trans. Mehmet Turhan), Ankara, 1990, p.1-16.

4. Arend Lijphart, Çağdaş Demokrasiler, Ankara, 1988, p.1.
5. عبد الرحمن منيف، " أزمتنا: النفط والديكتاتورية " من حوار حاوره اسكندر حبش ونشر هذا الحوار أولا بالفرنسية، نقلا عن السفير اللبنانية.
6. عبد الكريم ناصيف، الرواية والسياسة، مجلة الموقف الأدبي، دمشق – العددان 416 كانون الأول 2005.

7. George Orwell, Animal Farm, London 1998, 112p.
8. George Orwell, Nineteen Eighty-Four, London 1999, 336p
9. Fyodor Mihaylovich Dostoyevski, Ezilmiş ve Aşağılanmışlar, İstanbul 2000, 368p.
10. Lev Nikolayevich Tolstoy, Savaş ve Barış, İstanbul 2000, 4v.
11. Charles Dickens, İki Şehrin Hikayesi, İstanbul 2005, 448p.
12. Jack London, Demir Ökçe, İstanbul 2005, 376p.
13. Aleksander Sergeyevech Pushkin, Yüzbaşının Kızı, İstanbul 2005, 210p.
14. Erdal Öz, Yaralısın, İstanbul 1974, 277p.
15. Berna Moran, Türk Romanına Eleştirel Bir Bakış, III, Istanbul 2004, p. 13.
16. Hekimoğlu İsmail, Minyeli Abdullah, İstanbul 1967, 258p; Hekimoğlu İsmail, Maznun, İstanbul 1970, 305p.
17. Yaşar Kemal, Zulmün Artsın, İstanbul 200, 275p; Filler Sultanı, İstanbul 2002; İnce Memed, İstanbul, 1968, 4v.
18. Orhan Pamuk, Kar, İstanbul 2002

19. عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفي، ص. 165.
20. منيف، الديمقراطية...، ص. 128.
21. عبد الرحمن منيف،الكاتب والمنفي، ص. 332.
22. عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفي، ص. 85.
23. عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفي، ص. 88.
24. عبد الرحمن منيف، الظلمة تعمّ المكان فضح السجن السياسي بهدف تدميره، ملحق النهار – الأحد 27 تموز 2003.
25. نفس المرجع.
26. نفس المرجع.
27. عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط،عمان 1993، ص. 100.
28. عبد الرحمن منيف، المنبت، ص:146
29. عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، ص. 21.
30. عبد الرحمن منيف، المنبت، ص: 236-239، 248، 258.
31. عبد الرحمن منيف، المنبت، ص: 127.
32. اتيل عدنان، الست ماري روز، بيروت 1979، ص:26.
33. مريد البرغوثي، رأيت رام الله، المركز الثقافي العربي 1998، ص:157.
34. عبد الرحمن منيف، المنبت، ص: 241.
35. عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، ص: 57.
36. ن.م.، ص: 58.
37. عبد الرحمن منيف، شرق المتوسط، ص 136.
38. عبد الرحمن منيف، الديمقراطية أولا والديمقراطية دائما، عمان، 1992، ص. 23.

39. عبد الرحمن منيف، الظلمة تعمّ المكان فضح السجن السياسي بهدف تدميره، ملحق النهار - الأحد 27 تموز 2003.

40. عبد الرحمن منيف، الظلمة تعمّ المكان فضح السجن السياسي بهدف تدميره، ملحق النهار - الأحد 27 تموز 2003.

المراجع

1. Aleksander Sergeyevech Pushkin, *Yüzbaşının Kızı*, İstanbul 2005, 210p.
2. Arend Lijphart, *Çağdaş Demokrasiler* (Trans. Ergun Özbudun ve Ersin Onulduran), Ankara, 1988.
3. Arend Lijphart, *Çağdaş Demokrasiler*, Ankara, 1988.
4. Berna Moran, *Türk Romanına Eleştirel Bir Bakış*, III, Istanbul 2004.
5. Bingham Powel, *Çağdaş Demokrasiler* (Trans. Mehmet Turhan), Ankara, 1990.
6. Charles Dickens, *İki Şehrin Hikayesi*, İstanbul 2005, 448p.
7. Erdal Öz, *Yaralısın*, İstanbul 1974, 277p.
8. Erdoğan, Anayasal Demokrasi, op. cit., p. 205.
9. Fyodor Mihaylovich Dostoyevski, *Ezilmiş ve Aşağılanmışlar*, İstanbul 2000, 368p.
10. George Orwell, *Animal Farm,* London 1998, 112p.
11. George Orwell, *Nineteen Eighty-Four*, London 1999, 336p
12. Giovanni Sartori, "Democracy", *in International Encyclopedia of the Social Sciences,* New York, Macmillan and Free Press, 1968, IV
13. Giovanni Sartori, *Demokrasi Kuramı*, Ankara, 1995.
14. Giovanni Sartori, *Demokrasi Teorisine Geri Dönüş,* (Trans. Tunçer:Karamustafaoğlu and Mehmet Turhan), Ankara, 1993.
15. Hekimoğlu İsmail, *Maznun*, İstanbul 1970, 305p.
16. Hekimoğlu İsmail, *Minyeli Abdullah*, İstanbul 1967, 258p
17. Herry B. Mayo, *Demokratik Teoriye Giriş* (Trans. Emre Kongar), Ankara, 1964.
18. Jack London, *Demir Ökçe*, İstanbul 2005, 376p.
19. Kemal Gözler, *Türk Anayasa Hukuku,* Bursa, 2000.
20. Lev Nikolayevich Tolstoy, *Savaş ve Barış*, İstanbul 2000, 4v.
21. Orhan Pamuk, *Kar*, İstanbul 2002.
22. Robert A. Dahl, *Demokrasi ve Eleştirileri* (Trans. Levent Köker), Ankara, 1996.
23. Robert A. Dahl, *Polyachy: Participation and Opposition,* New Haven, Yale University Press, 1971.
24. Yaşar Kemal, *Filler Sultanı*, İstanbul 2002.
25. Yaşar Kemal, *İnce Memed*, İstanbul, 1968, 4v.
26. Yaşar Kemal, *Zulmün Artsın*, İstanbul 200, 275p.

27. اتيل عدنان، الست ماري روز، بيروت 1979.

28. عبد الرحمن منيف، " أزمتنا: النفط والديكتاتورية " من حوار حاوره اسكندر حــبش ونــشر هــذا الحوار أولا بالفرنسية، نقلا عن السفير اللبنانية.
29. عبد الرحمن منيف، الديمقراطية أولا والديمقراطية دائما، عمان، 1992
30. عبد الرحمن منيف، الظلمة تعمّ المكان فضح السجن السياسي بهدف تدميره، ملحق النهار – الأحــد 27 تموز 2003.
31. عبد الرحمن منيف، الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، بيروت، 1992.
32. عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى، بيروت، 1994.
33. عبد الرحمن منيف، المنبت، بيروت، 1992.

الباب الثالث

ثقافة الخوف بين العرب والغرب

- عز الدين المناصرة: مدخل: عنصرية القوة، وصناعة الأساطير.
- يحيى الشيخ صالح: الإسلام بعيون غربية: الخوف والتخويف.
- مازن مطبقاني: مصدر الخوف: الإسلام، أم الغرب.
- سالم ساري: العرب والخوف من العولمة: نحو سوسيولوجيا جديدة للمجتمع المذعور.
- خالد سليمان: ظاهرة الإسلاموفوبيا.
- محمد عبد الله الجعيدي: التكنولوجيا الحديثة بين خوفين: يقظة الآخر، وسطوة القوة.

مدخل: عنصرية القوّة، وصناعة الأساطير

عزالدين المناصرة

نعني بِ (الآخر)، غير العرب وغير المسلمين في هذا العالم، أما – إسرائيل، فهي (آخرُ خاص)، له تحليله الخاصّ، لأنها الحالة الوحيدة الشاذّة في العالم المعاصر. هناك (آخر)، لم ننفتح عليه نحن العرب، هو **الصين، اليابان، كوريا**، أو المثلث البوذي، كذلك: **أمريكا اللاتينية**، التي تحتوي على أضخم رصيد من المهاجرين العرب، **وروسيا**، التي تخلّت عن الشيوعية، والتي تعرض صداقتها على العرب، لإقامة مصالح متبادلة، وهناك: **الشق الديمقراطي في الاتحاد الأوروبي**،هو العقل الأوروبي المقاوم لِ: (عسكرة العولمة) الأمريكية، وهناك **نمور آسيا**، التي تعتمد نظرية الاعتماد على الذات، وهناك **افريقيا السوداء**، التي لا تمتلك المال، ولكنها تمتلك علاقات واسعة ذات جذور حضارية وثقافية مع العرب، وتمتلك أسواقاً، يتغلغل فيها الفرنسيون، والاسرائيليون، لجعلها أكثر فقراً. هناك إذن آخر، يمكن أن يوطد العرب علاقتهم معه، دون الحاجة إلى الولايات المتحدة، ودون الحاجة إلى الشقّ الاستعماري في الفكر الأوروبي وأدواته المادية. الحلّ ببساطة، هو أن **نمسك بكل خيوط اللعبة**، بتوظيفها لمصالحنا، حسب قدرتنا. الحلّ ببساطة أن ننفتح على الدول الإسلامية غير العربية: **ماليزيا، تركيا، إيران، أندونيسيا، باكستان، دول آسيا الوسطى**. صحيحٌ أن لهذه الدول مشاكلها، لكن الانفتاح عليها، يُخفف من وطأة الاعتماد على الولايات المتحدة، ويخفّفُ من ضغوطات دولة الاحتلال الإسرائيلي على الشرق الأوسط كله.

– طبعاً، منذ العالم القديم، يتوجّسُ الإنسان من (الغريب)، ولكنّ معرفة الآخر من الداخل، عملية ضرورية ومتاحة في العالم المعاصر. أما علاقتنا مع الغرب، وهو ليس كتلة موحّدة، فهي علاقة صراع وحوار، **فالحالة الأندلسية**، كانت علاقة إيجابية، طيلة ثمانية قرون، ورغم أن العرب ذهبوا إليها فاتحين، **إلاّ أنّ** العرب تركوا تراثاً ثقافياً راقياً في الأندلس، يعترف به معظم الإسبان، لكنّ الإسبان حين انتصروا، أقاموا محاكم التفتيش، والمحارق الشهيرة لكتب المعرفة العربية، وطردوا المسلمين من القارة كلها، رغم أنهم يمتلكون هوية إسبانية عمرها ثمانية قرون. وبما أن **الامبراطورية الرومانية**، هي جذر أوروبا، وبما أنّ الصراع بين العرب والرومان كان قائماً من خلال معارك شهيرة، فقد ورثت أوروبا الحقد على العرب والمسلمين، تلتها **حروب الفرنجة**

(الصليبية)، وهي أبشع أنواع الحروب في العصر الوسيط، ثمّ تلاها **الاستعمار الحديث** منذ القرن الثامن عشر، الذي ازداد شراسة في القرن العشرين، حيث نهبت خيرات الأرض في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. ومنذ نهاية الحرب الباردة، بدأ الاستعمار الأمريكي وحيد القرن، يمهّد لحروب الردع الاستباقي ضدّ العرب والمسلمين، حيث أصبح الإسلام، هو العدوّ الجديد، بدلاً من الشيوعية، رغم أنّ كثيراً من العرب ساهموا في (مكافحة الشيوعية)، وأصدروا القوانين لها، خوفاً من أمريكا وبريطانيا، وعلى رأس هؤلاء العرب (جماعة القاعدة بقيادة أسامة بن لادن)، الذي كان طيلة عشرين سنة، يسير في الركب الأمريكي!!. ولايزال عدد هام من المراجعين الأمريكيين والأوروبيين، يُشكك في قدرة جماعة القاعدة في صنع أحداث (11 سبتمبر 2001)، فالذين يؤكدون دور القاعدة، هم الولايات المتحدة، وأسامة بن لادن... فقط. على أي حال، فإنّ الرأي العام الإسلامي والعربي، مقتنعٌ أنه، تمّ **(اختراع ابن لادن)**، لمصلحة الولايات المتحدة، لتبرير الحروب الأمريكية – الإسرائيلية في العراق وأفغانستان، وفلسطين، ولبنان، والسودان، وغيرها، وأنّ اليمين الرجعي الأمريكي، هو مخترع (براءة اختراع الإرهاب)، بمساندة اللوبي الصهيوني. وحين تحوّل العراق، إلى **(فيتنام أخرى)**، وتحولت فلسطين إلى درجة **(توازن الرعب)**، وسحقت المقاومة اللبنانية، غطرسة الجيش الإسرائيلي،لجأ الإسرائيليون والأمريكيون إلى سياسة (الفوضى البنّاءة!!)، بإثارة الفتن المذهبية.

وهكذا استقبلنا المشروع الإسرائيلي: **(الشرق الأوسط الكبير)**، على أنه أحد تجليات العولمة الطبيعية، عند البعض، حيث تُمنع المُساءلة حتى عن طبيعة المشروع: أخطاره، وفوائده (إن كانت له فوائد!)، تحت ذريعة تقول: إن العرب يخافون من هذا المشروع، دون مبرّر منطقي!!. وهكذا لا تقال الحقائق التالية:

1. الهدف الجوهري لهذا المشروع، هو دخول إسرائيل فيه، قائدةً للمشروع.
2. أوصاف دولة إسرائيل، هي: دولة نووية خطرة، دولة التكنة العسكرية المغلقة، آخر دولة استعمارية استيطانية في العصر الحديث، دولة إرهابيّة مارست المذابح والتدمير، دولة مغتصبة لأرض الآخرين، ففي إطار (الحلّ العادل)، لا يمكن إقامة سلام معها، وفي إطار (الحلّ الممكن)، هي تقول: (لا للقدس، عاصمةً للشعب الفلسطيني، لا لتفكيك المستوطنات، لا لعودة اللاجئين)، فماذا يبقى من مشروع **(الدولة الفلسطينية المستقلة)** الممكنة!!. يبقى مشروع: (دولةُ مدنٍ فلسطينية، تحت الوصاية الإسرائيلية)!!.

3. في إطار هذا المشروع، هناك خطر على **(الهويّة الفلسطينية)**، لأنّ الهوية، عندئذ، تصبح: **(كلُنا شرقٌ أوسطيين)**، والمعروف أن الإسرائيليين، بمساندة من بعض العرب، حاولوا تدمير الهوية الفلسطينية، على وجه التحديد، بل إنّ دولة إسرائيل، تعرف تماماً أنها تأسستْ، قياساً على تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية على المقابر الجماعية للهنود الحمر، – بنفس الطريقة: قال بيغن، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق: (لولا مذبحة دير ياسين، لما تأسست دولة إسرائيل!!)، ولم أُشر حتى الآن للخطر الاقتصادي: يصبح (الشرق الأوسط الكبير)، سوقاً موحدة لاستهلاك البضائع الإسرائيلية – الأمريكية، ما دامت النُخب السياسية والاقتصادية العربية، الفاسدة، تستفيد مادياً، وتزيد أرباحها من هذا المشروع، حيث قد يعود ماركس من قبره، يصرخ: (ألم أقُلْ لكم... إن الصراع الطبقي، قد أصبح مخيفاً)، ولن تمنع (مؤسسات المجتمع المدني)، القائمة على (أخوّةٍ كاذبة) بين السلطة والمجتمع، وبين المثقف والسلطة، لن تمنع ولادة الفجوات الطبقية، واتساعها، ولن تمنع الانفجار الكبير، بالرشوات، والترقيع المستمر... ألا يحقّ لنا أنْ نخاف!!. وفي المقابل، نتساءل: ماذا فعلنا من أجل مقاومة المشروع.!. وهل طرحنا البديل الإيجابي الفعّال. نحن لم نفعل شيئاً، سوى التكيّف المسبق مع الخوف.

– إنّ **(عسكرة العولمة)**، ليست تلقائية، ولا بريئة، بل تمّ التخطيط لها في مقرّ البنتاغون، واستُعملت كل مراكز البحث العلمي في الولايات المتحدة، ونحن نحكم على السكّين الذي نراه بين يديّ الصيّاد، ولا تخدعنا دموع الصيّاد!!. فالنتائج والأفعال يراها حتى الأعمى البصيرة والبصر، لكنّ (الآخر العربي) يقاوم احتلال أرضه في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان. إنّ ظاهرة الإسلاموفوبيا هي نتاج تاريخ طويل، وحالة حديثة أيضاً من علاقات غير متكافئة، وغرب يغلق الباب على نفسه هذه المرّة. أمّا (التكفيريّون الإسلامويّون)، فهم شريحة ضئيلة جداً من المجتمعات الإسلامية، ولا يمثلون الإسلام السمح التعددي العالمي، لا من قريب أو بعيد، لأنهم مرفوضون في مجتمعاتهم نفسها. أما قلب الحقائق، مثل مساواة المقاومة بالإرهاب، فهو فعل إسرائيلي أمريكي، وهو قول يخالف حتى قوانين الأمم المتحدة التي سخّرتها أمريكا لصالحها.

* * *

- يرى **الأستاذ سالم ساري (جامعة فيلادلفيا، الأردن)**، أن العرب خائفون من العولمة، وهو يرى أن مناهج علم الاجتماع التقليدية، لا تصلح لقراءة ثقافة الخوف، لهذا يقدّم مجموعة من الاجتهادات في نهاية بحثه لقراءة سوسيولوجية لمجتمع الخوف من وجهة نظر (جديدة)، حسب تعبيره. كما يطرح الباحث، مجموعة من الأسئلة:

1. كيف ينفذ الخوف من العولمة إلى العرب (الآليات والتأثيرات).
2. ممّ يخاف العرب: من العولمة، أم عليها: (العرب بالعولمة وبدونها).
3. هل هناك مبررات موضوعية لخوف العرب من العولمة: (الخوف الحقيقي، والمتوهم).
4. هل يمكن للباحثين في علم الاجتماع، دراسة مجتمعاتهم العربية المذعورة، بوساطة المناهج التقليدية.

ويرى الباحث أن العولمة، ليست **(ظاهرة عالمية، تلقائية، بريئة)**، وإنما هي: **(مشروع غربي بأهداف واضحة ومستترة)**، وهي أيضاً: (قوة غربية، **بآليات أمريكية**). وهو يقرّر أن وصول العولمة إلى (الثقافة)، سواءٌ أكان متوهماً أم حقيقياً، هو الذي يخيف العرب، (أولاً وأخيراً!). وهو يقدّم ثلاثة مخاوف، يخاف منها العرب: **الخوف من العلمانية، الخوف على الهوية، الخوف على الخصوصية**. أمّا الخوف على المجتمع عند العرب، فيتجلّى في مظاهر عدّة، يذكرها الباحث، هي: الخوف على مؤسسة الزواج والأسرة، الخوف على روابط الوحدات الاجتماعية الكبرى، والخوف من انهيار الضوابط الاجتماعية الاجتماعية والأخلاقية التقليدية... ويزداد الخوف، عند العرب، عندما تنهمر أشكال ثقافة الحياة الأمريكية، نحو العالم العربي، لستم مضطرين للذهاب إلى أمريكا، أمريكا، ستكون عندكم، حسب تعبير فريدمان. وإزاء تلك الاختراقات الاجتماعية والثقافية - يقول الأستاذ ساري - تأخذ المخاوف الشعبية، مسمّيات دفاعية عربية متعددة، يذكرها الباحث. أمّا الخوف السياسي عند العرب، فيتمركز في الخوف من العولمة السياسية: خوف من الهيمنة والتسلط والمعايير المزدوجة، والخوف من الانحياز الأمريكي لإسرائيل، والخوف من التفتيت الطائفي والعرقي، والخوف من اختراق الدولة الوطنية، وتحوّلها إلى مجرّد حامية لمصالح الشركات العالمية الكبرى. ويرى الباحث أن مخاوف العرب في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق، مبرّرة، لكنّ الباحث بعد كل هذه المقدمات المنطقية، يفاجئنا بالقول: (**إنّ العرب، لم يُظهروا، إلاّ شكاً، وتجاهلاً،**

واستهتاراً **بمشروع الشرق الأوسط الكبير، بأهدافه المعلنة: إعادة بناء الشرق الأوسط، وتأهيل العرب عالمياً على ممارسة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان... الخ)!!**، لكنّ المنطق يقول: إن تشكك، وتجاهل، واستهتار العرب، بمشروع **(الشرق الأوسط الكبير)**، له ما يبرره، قياساً على مقدّمات الباحث المنطقية. فالعرب، يعرفون أن الهدف من هذا المشروع، هو جعل (إسرائيل)، قائدة للاقتصاد والسياسة في الشرق الأوسط، وتأهيل الأسواق العربية، لتكون سوقاً نموذجية، لاستقبال بضائع الاستهلاك الأمريكية والاسرائيلية!!. ثمّ ينتقل الباحث لمعالجة موضوع **(الخوف من الفقر)**: خوف من البطالة والاستغلال، خوف من صندوق النقد الدولي، وسياسة البنك الدولي، خوف من منظمة التجارة العالمية والأسواق المفتوحة، خوف من تدفقات رأس المال الأجنبي، خوف من سيطرة الشركات الأجنبية العملاقة... الخ. أما **(الخوف من الاتصال)**، فقد تجلّى – والكلام للباحث – في: الخوف من تشويه جديد للصورة العربية والإسلامية: خوف من التضليل والتزوير، بتزييف القضايا العادلة، خوف من تسفيه القيم العربية والإسلامية... الخ. وباختصار بتشويه: الإسلام، المرأة، العقل. ثم يصل الباحث الأستاذ سالم ساري في نهاية بحثه إلى شرح منطلقاته المنهجية (الجديدة) لمعالجة موضوع ثقافة الخوف.

– ويقرأ الأستاذ **يحيى الشيخ صالح (الجزائر)**: الإسلام بعيون غربية: الخوف والتزييف، فيقر مسبقاً بأن الخوف في العلاقات الدولية، هو **(خوف متبادل)**: فإذا كانت الولايات المتحدة، ضحية في أحداث 11 سبتمبر، 2001، فإن العالم الإسلامي، هو أيضاً ضحية الهجوم نفسه. ويفرّق الباحث بين (الإسلام) كعقيدة، وبين الممارسة الدينية الفعلية للمسلمين. وهو يرى أن الخصوصيات، لا تؤشر في الأصل إلى أية أحكام قيمية، لكن الرؤية الأورو–أمريكية للإسلام، تحددت بأوصاف سلبية، حيث يشير الباحث إلى: حيوية الميدان الديني، وعدم اقتصار تلك النظرة السلبية على وسائل الإعلام، والسياسيين، واتساع الرقعة الجغرافية، واستهداف الإسلام، يقول الباحث: **(لعلّ السمة للصورة – الحكم على الإسلام، لا على المسلمين – هي أقسى ما في نظرة الغرب للإسلام)**. ويستعرض الباحث مع المناقشة، أفكار هنتنغتون في (نهاية التاريخ)، مستشهداً بخللين في هذه النظريات، أوردهما الباحث سليمان العسكري (الكويت)، وهما: إطلاق عبارة الحضارة الغربية على مجموع بلدان الغرب، بتجاهل الدول والمؤسسات السياسية، وإطلاق عبارة الحضارة الغربية في العصر الراهن، دون مراعاة تمثلها في الكيان

السياسي. وبالتالي، حسب الأستاذ يحيى الشيخ صالح، يكون الصراع، صراع حضارة ضدّ دين فحسب، أو صراع دولة ما، ضدّ دين ما، أي صراع دولة مسلحة، ضدّ دين أعزل. ويناقش الباحث – صورة الإسلام من وجهة نظر استراتيجية، وصورة الإسلام من وجهة نظر دينية، وصورة الإسلام من وجهة نظر، حداثية، بمناقشة **برنارد لويس،** الذي يقول بأن: **(الإرهاب الإسلامي، موقف عُصابي، تجاه، حداثة مستحيلة)**، ولتحقيق الحداثة، حسب لويس، يجب الانسلاخ والانفصال عن الإسلام. وهو بذلك: **(يتجاهل اعتراف الإسلام بالمسيحية، حيث امتصّها، وامتصّ رسالتها، وأعلن احترامه لها في نصوص العقيدة، ويتجاهلُ الجذرَ الشرقي للمسيحية الحقيقية – المسيحية التلحمية في فلسطين – المحرّر)**. ويرى الباحث أنّ تصحيح الصورة المتبادلة، يقتضي، حسب الأستاذ يحيى الشيخ صالح: ضرورة تقبل الآخر، وممارسة النقد الذاتي.

– أمّا – الأستاذ **مازن صلاح مطبقاني (السعودية)، فيقرر أن مصدر الخوف، هو الغرب، وليس الإسلام،** فبعد أن استبدلت أمريكا، العدو الشيوعي، بالعدو الجديد، الذي هو الإسلام، ولد مصطلح: الخوف من الإسلام **(الإسلاموفوبيا)**. ويرجع الباحث أصول الخوف السياسي من الغرب الحديث إلى المؤامرة ضد الدولة العثمانية، وإلى **(مؤامرة كامبل بنرمان)** عام 1905، التي لم يشرحها الباحث، وبإمكان القارئ العودة إلى بحث **(الأستاذ إبراهيم أبراش)**، في هذا الكتاب، من أجل فهمها. كذلك يشير الباحث إلى مؤامرات: وعد بلفور، واتفاقية سايكس–بيكو. أما التهديد الحالي، فمصدره الغرب، حسب الباحث: (الذي أسس الشركات المتعددة الجنسيات، وأنشأ مؤسسات الاستخبارات الضخمة، التي تؤجج الحروب، وأسس صناعات السلاح، وباع السلاح، لإحداث انقلابات عسكرية). ثمّ تناول الباحث، مصادر الخوف، السياسية والاقتصادية والثقافية: فالغرب، الذي لا يزيد تعداده عن **20%** من سكان الكرة الأرضية، يستهلك **80%** من موارد وثروات العالم، والغرب هو الذي ينتج أكبر كمية من السلاح في العالم: سلسلة من الفضائح، إيران غيت، كونترا غيت، الشرق الأوسط الكبير، مذابح البوسنة والهرسك، وكوسوفو، والشيشان، إنشاء دولة إسرائيل، ودعمها في امتلاك أسلحة الدمار الشامل، حيث **ينتج (مصنع نيس زيونا) الإسرائيلي، 43 نوعاً من الأسلحة الفتّاكة، كما تمتلك إسرائيل، ترسانة نووية ضخمة.** وهكذا أصبح الإسلام، هو العدو الجديد. أما لجهة الأطماع الغربية في ثروات الأمة الإسلامية، فقد طالب المفكرون الأمريكيون (بضرورة

قيام الولايات المتحدة، باحتلال منابع النفط)، وهم يطرحون مشروع (الامبراطورية الأمريكية، بديلاً من التعاون الدولي)، للسيطرة على الخليج العربي. أما التهديد الحقيقي، الذي مصدره الغرب أيضاً، فهو تأسيس الشركات متعددة الجنسيات، المتعاونة مع الدولة القطرية، لقمع الشعب. كما يشير الباحث إلى الخوف من المساعدات المالية والأجنبية، ودورها في اختراق السيادة الوطنية، كذلك إلى الديون الأجنبية، وهروب الأموال العربية إلى الدول الغربية: العالم الإسلامي، **مساحته 30%** من مساحة الكرة الأرضية. مليار وربع مسلم، ينتج كمية هائلة من البترول، ولكن، هناك إحصائيات مخيفة حول حجم الأموال العربية في الخارج: (**1300 مليار دولار، يمتلك نصفها السعوديون**). كما أن العالم الإسلامي، يعاني من الديون الخارجية: (**325 مليار**، 2000)، وتشكل (**خدمة الديون**)، عبئاً على مالية الدولة. ويناقش الباحث مصدر الخوف الثقافي: السيطرة على وسائل الإعلام، اختراق التعليم الجامعي، دور المراكز الثقافية الأجنبية، هجرة العقول أو الأدمغة، عقد المؤتمرات الثقافية المخترقة... الخ. وفي نهاية بحثه، يقدم الأستاذ مازن صلاح مطبقاني، خلاصة لبحثه، حيث يربط الحلّ بوجود **زعيم مخلّص**: (فمن لنا، بقائد يقودنا في غزوة، كغزوة تبوك... الخ)!!.

– ويرى **الأستاذ خالد سليمان (الأردن)**، أنّ **ظاهرة الإسلاموفوبيا**، هي ظاهرة الرُهاب والخوف المرضي الأورو–أمريكي من الإسلام، لها جذور قديمة، وتفاقمت بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، التي تُنسب لجماعة القاعدة. ثم يقف الباحث عند المفهوم، وأسباب الظاهرة:

أولاً: احتشاد التاريخ بالكثير من وقائع الصراع بين الإسلام والغرب: معركة اليرموك، فتح الأندلس، معركة بلاط الشهداء، فتح القسطنطينية.

ثانياً: الجهل بالإسلام، الذي روّجت له دوائر الاستشراق الأورو–أمريكي، وجاء الاستشراق الجديد، ليواصل عملية التجهيل بالإسلام، وسانده اللوبي الصهيوني في توزيع المعلومات الخاطئة.

ثالثاً: تضارب المصالح، واختلاف المنطلقات القيمية، فالبراغماتية الغربية تهدف إلى تعظيم الربح، واللذّة، والمنفعة الخاصة. وفي المقابل تمّ تشويه منطلقات العقيدة الإسلامية.

رابعاً: الخلط بين الدين الإسلامي، وواقع الملسمين، حيث تمّ اختراع التماهي بين الفقر والتخلف، وبين الإسلام، مع التنكر الأورو-أمريكي، لدوره الأساسي في هذا الفقر والتخلف.

خامساً: تبني صورة نمطية سلبية عن المسلمين، حيث أُسقطت مجموعة من الأوهام على الشخصية المسلمة في ثقافة الاستشراق. ولعب بعض أبناء المسلمين في الغرب دوراً في ترسيخ هذه الصورة.

ثم جاءت تفجيرات نيويورك، لتزيد تصاعد الخوف من الإسلام. ثمّ يتناول الباحث خالد سليمان أعراض ظاهرة الإسلاموفوبيا، ومظاهرها: الطعن في رسالة الإسلام، والتشكيك في الرسول محمد (ص)، كما في كتابات: ڤولتير، دانتي، سلمان رشدي، جريدة (يولاندز بوسطن) الدنماركية، وبعض الصحف الفرنسية، وبعض دور النشر البريطانية... الخ. ومظاهرها، إثارة النزاعات بين المسلمين، والسعي إلى إخضاع بلاد المسلمين واحتلالها، وتفعيل أنشطة التبشير المسيحي في بعض البلدان الإسلامية. ثمّ يشرح الباحث ظاهرة الإسلاموفوبيا في الوطن العربي. ويختتم بحثه بمجموعة من المقترحات الإيجابية من أجل تغيير الصورة.

- أمّا - **الأستاذ محمد عبد الله الجعيدي من فلسطين، (جامعة مدريد المستقلة - إسبانيا)**، فيرى في بحثه: (التكنولوجيا الحديثة بين خوفين: سطوة القوة، ويقظة الآخر)، أنّ علاقات الدول التكنولوجية بالبلدان النامية، تقع بين خوفين: أحدهما وهمي مختلق، مصدرة اختلال نفسي، والآخر، تجربة حقيقية معيشة، مصدرها واقع قاسٍ، وتجربة مريرة، حيث هيمنة المتخيل المرضي على الواقع الحقيقي. وقد سعى **(غرب النخب الحاكمة)**، منذ انطفاء أنوار الأندلس إلى الاحتلال والاغتصاب والإبادة والتدمير، وحصار العالم الإسلامي: تركيا، قبلها الاتحاد الأوروبي كقوة بطش وهيمنة في قوات حلف الناتو العسكري الأطلسي، لكنه رفض دخولها في الاتحاد الأوروبي!!. أما التكنولوجيا الغربية، فقد تمّ تجريبها في ڤيتنام، وهيروشيما ونغازاكي، وفلسطين، والعراق ولبنان، حيث منحت إسرائيل، حق امتلاك مئات الرؤوس النووية، برعاية فرنسا أولاً، ثم الولايات المتحدة، لكنّها أقامت الدنيا، ولم تقعدها، ضدّ إيران المسلمة، ومشروعها النووي السلمي. أمّا **روبرت مردوخ**، وهو إسرائيلي استرالي، فهو يسيطر على مئات الصحف، وعشرات القنوات التلفزيونية، لهذا قال تيد ترنو (مدير محطة

CNN): **(لا تسمحوا بدخول هذا الرجل إلى بلادكم، فهو يريد السيطرة على جميع محطات التلفزيون في العالم، ويريد التأثير في كل الحكومات)**. أمّا البحث العلمي الخاص بتفتيت الذرّة، وفك شيفرة الجينات الوراثية – يضيف الباحث الأستاذ الجعيدي – فقد وظفها الغرب لصالحه ولصالح إسرائيل فقط، فيما انفضح الأمر فيما يتعلق بالتكنولوجيا المتطورة التي أخذت البلدان النامية منها: تدمير البيئة، وتسميم الأرض، وإجراء تجارب تكنولوجيا الحرب الوبائية والكيماوية والإشعاعية على الأغيار والمتاجرة بأعضاء أجسادهم. ويرى الباحث أن النموذج الصيني التكنولوجي، بالاعتماد على الذات، فيستحيل أن تحتذي الدول النامية، هذه التجربة بسبب هيمنة القطب الواحد الأمريكي!!. أما التجربة الإيرانية، فهي محاصرة. ويشير الباحث إلى أن الولايات المتحدة، ترفض أي حديث عن دورها في التلوث النووي والبيئي، رغم أنها أكبر مقترف لمثل هذه الجرائم في العالم. ويختتم الباحث محاضرته بالدعوة إلى التخلص من الخوف والتخويف.

الإسلام بعيون غربية: الخوف والتزييف

يحيى الشيخ صالح
جامعة قسنطينة، الجزائر

1- تحديد الإشكالية:

الثقة والخوف مصطلحان يحملان دلالتين متناقضتين، وفي حقل كل من الدلالتين تتولد تداعيات... ففي حين تستدعي الثقة الطمأنينةَ والتوقع الإيجابي... لا يستدعي الخوف إلا الحذر والتوجس وما يتبعهما على مستوى السلوك وردود الأفعال...من استعداد للمجابهة وتأهب للانتقام، كما أنهما متنافيان حضورا وتأثيرا، فحيث يكون أحدهما يغيب الآخر بالضرورة،وتغيب معه كل تداعياته، لتفسح المجال – بالمقابل– لكل تداعيات الحاضر الفاعل... إن المتأمل في العلاقات الدولية القائمة بين الغرب والعالم الإسلامي (والعالم العربي كجزء منه) ليهوله مدى سيطرة الخوف عليها، بماله من تداعيات موغلة في السلب، يزيد الأمر ترديا كون ذلك الخوف **علاقة متبادلة**، فالغرب يخاف الإسلام ويتوجس منه خيفة...والعالم الإسلامي بدوره يخاف الغرب ويحذره، ويتعمق حذره بتوقع شرور ما فتئت تتحقق على ارض الواقع، والنتيجة تحول جزء كبير من العالم إلى ساحة قتال وحرب، بدلا من اتخاذها ساحة سلام وتعايش بين من لا وطن لهم غير هذه القرية الصغيرة على ظهر هذا الكوكب الصغير.

أسباب تجذّر علاقة الخوف المتبادل كثيرة، وأي واحد منها قد يتحول إلى نتيجة لسبب آخر، في سلسلة لا متناهية من الأسباب والنتائج، والأفعال وردود الأفعال، نظرا لتوغل القضية في أعماق التاريخ،وخضوعها لمسارات من الأجيال والقرون والحضارات... فمنذ قرون طويلة من الزمن وعلاقة الشرق بالغرب بعامة عرضة للمد والجزر، تصفو أحيانا لتتوثق علاقات الصداقة والتعاون في ظل معاهدات واتفاقات تجسد ذلك الصفاء، وتتوتر أحيانا لتصل حد حمل السلاح وإعلان الحرب، لأسباب "معلنة وغير معلنة" تتغير على الدوام من صراع على النفوذ، وثأر للماضي البعيد، واستعمار تعقبه مقاومة.... لتصل في مطلع الألفية الثالثة إلى منعرج خطير أدت إليه أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001. ففي ذات اليوم يستيقظ العالم على صورة غير معهودة في الصراع بين الشرق والغرب،صورة الغرب / الضحية في موقف دفاع

لا هجوم.... ولحظتها تنبأ العارفون في الشرق والغرب بأنه إذا كان الغـرب **(أمريكـا) ضحية هجوم معلن** محدد في الزمان والمكان والنتائج، بمحصلة مأسـاوية ثقيلـة مـن الأبرياء، تنتزع التعاطف وشجب ما حدث.... فإن **الشرق (العالم الإسلامي)، هو الآخـر ضحية الهجوم نفـسه**، لكن بشكل أكثر تأثيرا، وأطول زمنا وأوسع رقعة وأكثر تـوغلا في مناحي الحياة العامة، بكل جوانبها، بما فيها الجوانب الروحية والدينية التي سـتكون الهدف الأساس في تشكيل رؤية غربية إلى الإسلام، قوامها الخوف والتزييف. وقوفنا من خلال هذه المقاربة عند الرؤية الغربية للإسلام تحديدا، وتحليلها واستنباط مواطن الخلـل فيها، سعيا لمستقبل أحسن لعلاقات الغرب بالعالم الإسلامي... لا يعني أبدا سلامة المجال الذي تصوره (واقع العالم الإسلامي) من الخلل، فما أكثر اختلالات ذلك العالم، وما أشـد حاجته إلى التغيير والإصلاح، لكن الشطط الذي تتضمنه تلك الرؤية الغربية يتمثل فـي إقحام المقدس بمفهومه المجرد في الصراع، والحديث عن الإسلام وضرورة إصـلاحه (بدلا من الحديث عن فهم ما للإسلام أو قراءات له)... و تحميلـه مـسؤولية الـسياسي والاجتماعي والاقتصادي والاستراتيجي... وبالفعل، ومنذ الحدث شرعت فـي الظهـور سلسلة لا متناهية من الدراسات في اتجاه تحميل الإسلام مسؤولية مـا حـدث، تـصفه بالإرهاب والعنف والتلذذ بسفك الدماء.... وتنادي بـ"تطهيره" وإنقـاذه مـن التطـرف، وإدخاله – ولو بالقوة – إلى حظيرة الحضارة والمدنية!!. وإذا كانت نتائج الحدث علـى العالم الإسلامي كثيرة ومتنوعة، وتطال مجالات شتى من الحياة الإنسانية فيه.... فإن ما سنتناوله في مقاربتنا الموضوع هذه، سيمس جانبا محددا دون غيره،هـو تلـك **النظـرة الغربية إلى الإسلام**، في تشوهها، وابتعادها عن الحقيقة، ودورانها في فلـك الاتهامـات والإسقاطات، بعيدا عن الروح العلمية وآليات مناهج التحليل والدراسـة ، وإجراءاتهـا العملية الكفيلة بالتوصل إلى آراء صائبة، ونتائج تتمتع بالصدق والصحة إلى أقصى حـد ممكن. وقد يتساءل البعض عن مدى أهمية تخصيص بحث للوقوف على اتهامات غربية للإسلام، انطلاقا من أنها مجرد آراء ومواقف فكرية لا تعبر إلا عن أصحابها،وليـست رسمية في كل حال، إضافة إلى أن تلـك النظـرة قديمـة ومعروفـة، والعـلا قـات الغربية/الإسلامية مستمرة.... تساؤل لا يعدم بواعث له ودوافع، فالاهتمـام فـي هـذه المرحلة من مطلع القرن الواحد والعشرين بالعلاقات الإسـلامية/الغربيـة المترديـة، لا ينبغي أن يفهم منه أن تلك العلاقات كانت على أحسن ما يرام، وأن التفـاهم والاحتـرام

كانا متبادلين إلى حد بعيد...فـ "**نظرة الغرب نحو الإسلام والمسلمين، تشكلت عبر مراحل زمنية طويلة**، تعددت خلالها رؤى رجال الدين والسياسة والمستشرقين، واتفقت في النهاية على جملة من التصورات، التي تمخض عنها الوعي الذي منح من خلاله الغرب نفسه مواقع "الحقيقة" و"المركز" و"العقل" و"المدنية" مقابل إبقاء الآخر في مواقع "الضلال" و"الهامش" و"التخلف"[1]. وعلى العموم لم تكن صورة الإسلام عند الغربيين مشرقة ولا الإنصاف حليفها، على مدى القرون الغابرة،(باستثناء بعض مواقف بعض المستشرقين الموضوعيين، وعدد من المفكرين المعاصرين)، لكن لا ينبغي تجاهل فارق شاسع بين ما حدث في الماضي وبين ما يحدث اليوم، فإذا كانت أخطاء الماضي ومواقفه بعامة مبررة إلى حد ما، أو بعيد... لبساطة وسائل المعرفة، وجهل كل طرف بالآخر... فإن الأمر على غير ذلك اليوم، نظرا للتقدم العلمي والتكنولوجي والمعرفي وبخاصة في وسائل الإعلام التي حولت العالم إلى قرية صغيرة، وجعلت الفرد يتابع من زاوية في بيته مجريات الأحداث في العالم، ويتعرف على الشعوب والثقافات والأديان بشكل عميق، الشيء الذي يقطع أي عذر لأي كان في أن يجهل الآخر، أيا كان هذا الآخر، وأينما كان موقعه من العالم.

وبصرف النظر عن الفروق التاريخية، فالواقع يؤشر إلى أنه بالرغم من قدم عداوة الغرب للإسلام، التي تتخذ في كل فترة تاريخية تجليات ما، تجد متكئا لها في الظروف المتجددة وملابساتها.... فإنها – في هذه المرة– اكتست طابعا خاصا أكثر توغلا في التوتر،وفي التأثير على مجريات الواقع المعيش للشعوب الإسلامية، ويتجلى ذلك في ما يأتي:

2- خصوصيات رؤية الغرب للإسلام:

قد لا تؤشر لفظة "**خصوصيات**" في أصلها إلى أية أحكام قيمية، بالسلب أو الإيجاب على حد سواء... وأساس توظيفنا إياها هنا نابع من تلك الخصوصية، لكن عند الرؤية إلى "رؤية" الغرب للإسلام، وتأمل تلك الصورة المرسومة، تتجلى الصدمة قوية في أن نجد كل خصوصياتها ذات دلالات سلبية، نحددها في العناصر الآتية:

- **حيوية الميدان الديني**، وأهميته في حياة الإنسانية جمعاء، حتى بالنسبة للشعوب التي لا يبدو أن لمرجعياتها الحياتية صلة ما بالدين، فلو أن التوتر شمل كل الجوانب

الحياتية من سياسة واقتصاد ونفوذ واستراتيجية.... دون الجانب الديني، لهان الأمر، ولأمكن التنبؤ بانفراج وشيك له بشيء من الإرادة المشتركة وتغليب منطق العقل، لكن إقحام الدين في الصراع، وتحميله مسؤولية الأحداث وإخضاعه للابتزاز ومشاريع الإصلاح الغربية، مما يشكل أهم ملامح صورة العالم الإسلامي في عيون الغرب... أمر أقل ما ينتج عنه تمديد أزمة الثقة، وإطالة عمر الصراع وتعميقه. تفسير ذلك أن الدين بصورة عامة، وعند المسلمين بخاصة، أهم ما يشكل الشعور الجمعي، ويتغلغل في وجدان الفرد، وعلى أساسه يتشكل معنى الحياة..ولعل عالم اللاهوت الألماني **(هانز كونج)** كان يدرك هذه الحقيقة عندما أطلق مقولته الشهيرة:

"**لن يكون هناك سلام بين الأمم، ما لم يكن هناك سلام بين الأديان،ولن يكون هناك سلام بين الأديان، ما لم يكن هناك حوار بين الأديان**[2]. وبديهي أن الحوار لا يتنفس في أجواء التجريم، وسيطرة الروح الأبوية، والوصاية والتعالي... وما إليها، مما يطبع صورة الإسلام في عيون الغرب.

- **عدم اقتصار تلك النظرة على السياسيين والصحفيين**.... ومن يشتغلون في مجالات الإعلام، ممن يمكن أن ينظر إلى رأيه من زاوية العمل اليومي الاستهلاكي.... وتجاوزها إياهم إلى شرائح أخرى من **مفكرين وأكاديميين ومثقفين**... ممن يسهمون بدور رئيس في تشكيل الرأي العام، وبلورة قناعات الشعوب في الغرب، مما يجعل من تناولها – وغيرها من القضايا المصيرية – بالأسلوب العلمي الرزين البعيد عن التشنج والانفعالات الآنية.... أحسن مقاربة لها،وأقوى سبب لتأسيس علاقات الثقة والتعاون الإنسانية المنشودة بين مختلف شعوب المعمورة .
- **اتساع الرقعة الجغرافية**، المسهمة في رسم تلك الصورة، فبالرغم من أن الأحداث التي كانت عوامل مباشرة للصورة تمت في مكان محدد، إلا أن التداعيات شملت جل العواصم الغربية، وبدا الاتجاه واضحا نحو تعميم الخوف، وتوسيع الهجوم المضاد في الجانب الفكري، الذي يشكل مجال الصورة /موضوع البحث.
- **اتساع الرقعة الجغرافية** مجال الصورة: لو توفر العنصر السابق وحده، أي اتساع رقعة العنصر الرائي الفاعل، الراسم للصورة، لهان الأمر بعض الشيء، لكن الذي حدث هو اتساع الرقعة الجغرافية التي تنتج الصورة (الغرب)، بالتوازي مع اتساع الرقعة الجغرافية للصورة المرسومة، (العالم الإسلامي)، وهذا الاتساع الأخير ناتج

عن بعض خصائص الصورة كما أرادها الغرب، وهو الحكم على الإسلام بصورة عامة،ودون أي تمييز... الشيء الذي تولد عنه دخول كل العالم الإسلامي مجال الصورة وتشكيله ملامحها... وشعور المسلمين في أي مكان من العالم بأنهم مستهدفون بتلك الصورة، وموجودون داخلها، ما دام عنوانها هو "الإسلام" وهو دينهم على أية حال.

- **استهداف الإسلام** في شكله المجرد باعتباره دينا، يقوم على تعاليم ومبادئ تشكل صورته بشكل نظري وعام من خلال الوحي الإلهي الذي نسب إليه الخلل أصلا، دون إرجاعه إلى الجانب البشري الذي تحتمل قراءاته للمقدس الخطأ والصواب، في حين أن **المنهجية العلمية، تقتضي ضرورة التفريق الدقيق بين الإسلام باعتباره دينا بالمفهوم المجرد ورسالة سماوية مقدسة، وبين "سلوكيات" أي منتسب إليه**، لأن هذه الأخيرة، ليست – أولا وأخيرا – إلا مجرد "قراءات" له، تتفاوت في درجة الاقتراب منه والابتعاد عنه[3]، لكنها لا يمكن بأي حال أن تصل **حد المطابقة الكلية** معه، وبالتالي، فلا يمكن لسلوك أي فرد أو أية جماعة أن يكون حجة على الإسلام سلبا أو إيجابا، بذريعة الانتساب أو تحديد المرجعية أو حتى إعلان الدفاع عنه، والأمر نفسه يصدق على الديانات المقدسة السماوية الأخرى، بل يصدق إلى حد كبير على مختلف الإيديولوجيات والفلسفات، فالطرح المنهجي يميز دائما بين الجانب العقدي أوالايديولوجي أو الفكري التنظيري.... وبين تجليات كل ذلك على مستوى السلوك، وشتى مجالات الحياة . ولعل هذه السمة الأخيرة للصورة **(الحكم على الإسلام لا على المسلمين)**، هي أقسى ما في الأمر، لأنه من وجهة نظر العالم الإسلامي تطاول على المقدس، تبعا للصورة القائمة المنعكسة في أذهان المسلمين عن صورة الإسلام في العيون الغربية، وما يكتنفها من شعور بالامتعاض والإحباط .... ولأنه – – بنظرة استراتيجية – ارتماء في أحضان الصعب أو المستحيل !!، فما دام الإسلام المجرد هو المتهم، فما الحل الذي يرتضيه الغرب بناء على نظرته تلك؟. أهو إصلاح؟ لكن إصلاح ماذا؟ أهو إصلاح عقيدة تجاوز عمرها الأربعة عشر قرنا من التاريخ، وشكلت ثراء معرفيا أضخم من أي تراث معرفي ديني على الإطلاق !! وأسست حضارة لا تزال معالمها قائمة في أجزاء كبيرة من الكون، بما فيها العالم الغربي؟!. وإذا سلمنا جدلا بضرورة الإصلاح، فما هي حظوظه من النجاح في ظل

تطبيقاته القسرية التي تتم بناء على إيحاءات الغرب أو إلحاحاته أو تلويحاته بالغضب؟[4] .... وإذا سلمنا جدلا – مرة ثانية – بنجاح تمرير ذلك الإصلاح، ألا يكون قبوله وتبنيه مجرد سلوكات وقائية ظاهرية تبطن تململا أو رفضا... مما يجعله عديم الجدوى لعدم تغلغله في النفوس؟؟. وإذا كانت الدراسات الحضارية والتاريخية والاجتماعية تثبت أن التغيير الأصعب هو تغيير الفكر والثقافات والإيديولوجيات... فكيف سيكون الأمر عند ما يتعلق بعقيدة يعتنقها أكثر من مليار شخص، تغلغلت مفاهيمها ومنطلقاتها في شتى جوانب حياتهم !!

أقل ما يقال عن تلك الصورة (الإسلام في عيون الغرب)، أنه تنقصها الاستراتيجية والمنطقية والواقعية... ممن يرون أن كل ذلك من مميزاتهم وأسلوب تعاملهم مع القضايا والأحداث، مما يجعلنا نطرح تساؤلا مهما، يتعلق بمدى توغل تلك الصورة في أساليب الحوار والأخذ والرد الهادئين، أو في الصراع و"تسخين العضلات"... وبعبارة أدق: هل تندرج رؤية الغرب للإسلام المتقدمة في إطار حوار حضاري أم في إطار صراع حضاري؟؟

3- رؤية في إطار حوار الحضارات، أم صراع الحضارات:

المصطلحان معروفان ومتداولان بشكل واسع على الساحة الدولية، ولعل من الضروري التفريق بينهما، قبل الولوج في متاهاتهما، ويمكننا – بادئ ذي بدء – تبني مقولة أن "الحوار بحضور حسن النوايا تثبيت المتفق عليه، وتصويب بالعقل والحجة للمختلف عليه، أما الصراع، وبكل اختصار، فهو إلغاء الآخر، وهنا تصبح جميع أدوات الصراع مسموحة ضمن المستوى الذي يتم فيه الصراع"[5]. تاريخيا، يعود مصطلح "صراع الحضارات" إلى صامويل **هانتغتون** (**S. Huntington**) الذي "دخل على خط الحوار لأول مرة في العام 1993، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، من خلال مقالته التي نشرها في مجلة [شؤون خارجية] "Foreign Affairs" وطور أفكارها لاحقا في كتابه الشهير الذي حمل اسم المقالة نفسها أي "**صدام الحضارات**[6] وإعادة بناء النظام الجديد" " The Clash of Civilization and Remaking New Order". قد تطول محاولة الإلمام بتلك النظرية المؤسسة والمبررة للصراع... لكن يمكن اختصار تعريفها في أن صاحبها حدد "**أن هذا الصدام الحتمي سيكون بين شعوب ذات ثقافة بروتستانتية/ كاثوليكية، أي أوربية وأمريكية من جهة، وشعوب ذات ثقافة إسلامية، أو ثقافة**

كونفوشية (العالم الإسلامي والصين وكوريا الشمالية) من جهة أخرى، غير أنه عاد فركز على أنّ الصراع حتميٌّ بين الحضارة البروتستانتية/الكاثوليكية من جهة، والإسلام من جهة أخرى، وعدد أسبابا لذلك..."[7]

الحديث عن صراع الحضارات يجرنا حتما إلى نظرية أخرى آزرت الأولى، وكان توجههما واحداً، بالرغم من اختلاف زوايا النظر والحيثيات، حيث يمكن اعتبارهما أساسا نظريا لنظرة الغرب إلى الإسلام موضوع المقاربة... إنها نظرية **"نهاية التاريخ"** التي طرحها **فرنسيس فوكوياما** سنة 1989في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، (The end of History And The Last Man)، والتي "ترى "أن الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية الأمريكية تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ"[8]. ودون أن نتوقف مليا عند النظريتين ومدى ما تنطويان عليه من علمية أو تهافت... مما له مجالاته ولا يتسع له صدر هذه المقاربة، نشير إلى خلل منهجي في (صدام الحضارات)، يتمثل في القفز على دلالات المصطلحات، وتوظيفها بكثير من تجاوز الدقة العلمية المطلوبة...ولعل أهمها عدم دقة مصطلح الحضارة عند صاحبها، الشيء الذي أدى إلى خلل في تشكيل النظرية أصلا. من ذلك ما يذهب إليه **الدكتور سليمان العسكري** في إشارته إلى خللين في النظرية هما:

- إطلاق عبارة "**الحضارة الغربية**" على مجموع بلدان الغرب، بـ"تجاهله للدول والمؤسسات السياسية،رغم الدور المحوري الذي تلعبه الدولة، سواء إمبراطوريات الأسر القديمة أو الدولة الحديثة،في قيام أي حضارة، فالغرب عنده هو كتلة واحدة متجانسة، رغم الاختلافات الشديدة بين أمريكا من جهة، والدول الغربية من جهة أخرى"[9] ولعل ذلك واضح في مدى التنافر أو على الأقل، التململ الذي يلاحظ في محاولات "العالم الغربي" أحيانا أخذ قرارات مشتركة تجاه قضايا حساسة، مما يؤشر إلى دول تتبنى مواقف تبعا لمصالحها الاستراتيجية على أساس أنها دول قد تختلف مع دول أخرى، لا على أساس أنها تمثل حضارة واحدة.
- إطلاقه عبارة "**الحضارة الإسلامية**" في العصر الراهن دون مراعاة تمثلها في الكيان السياسي الذي يمنحها التجلي والازدهار...فـ"من المعروف أنه لا يمكن لأي حضارة أن تقوم من دون وجود مركز– الدولة – قوي اقتصاديا وعلميا وعسكريا، يقوم بدور

الحاضن لها، ووفقا لهذه الرؤية كانت الدولة العثمانية آخر مركز قوي – على الأقل عسكريا– للحضارة الإسلامية... وهكذا، فإن الإسلام اليوم يبقى دينا، وليس حضارة ذات دولة مركزية تقودها في مواجهة الحضارات الأخرى، والحضارات تقوم وتزدهر ثم تهزم وتأفل، لكن الدين يبقى جزءا جوهريا من النسيج الروحي المكون للبشر ولا يمكن لأحد انتزاعه "[10]، وبهذا يكون الصراع **صراع حضارة ضد دين** فحسب، أو **صراع دولة ما ضد دين ما**، أي صراع كيان مدجج بكل أنواع الأسلحة،ضد دين أعزل من كل أنواع الأسلحة، إلا من كونه دينا سماويا ووحيا منزلا، وهو بالتحديد ما يتم التركيز عليه كهدف أساس في الصراع لتشويه صورته وإلصاق العنف واللاإنسانية به. إذن "ليست المسألة مسألة صدام حضاري على وجه التحقيق، وإنما مسألة عوارض تاريخية ذات مخاطر وجودية وصدام مصالح وغايات، تبعث على الخوف وتتطلب الردع، تكمن مصلحة الغرب في حماية وجوده وضمان مصالحه والحفاظ على هيمنته الكونية قبالة أي مصدر من مصادر الخطر الكامنة أو الصريحة، وغاياته تحقيق السيطرة الكاملة على جميع "الأغيار"؛ وفي عالم تسوده المنافسة والمنفعة وطلب الظفر تفعل هواجس الخوف وفقدان الثقة والحذر والريبة والخطر دورا حاسما في توجيه الفعل...وبالطبع تتدخل العوامل الأخرى...بما هي عوامل قوية مساعدة، لتعزز الأزمة أو تسوغها أو ترفع من وتيرتها وتحرض عليها، إن المسألة الغربية/الإسلامية الحالية لا تخرج عن هذا المنظور..."[11]. هذا مع الاعتراف بأن تحديد الثنائيات التي منها "إسلام/غرب "حوار الحضارات أو صدامها"... غير دقيق في نظر بعض الدارسين، بل مستحيل، إذ يتحقق ذلك "من وجه الاستحالة المتعلقة بقدرة الباحث على تفريد العناصر الفاعلة في مجاري العلاقات ما بين الأفكار والثقافات... فهو أمر أكثر تعقيدا وتركيبا لدرجة يصعب(كي لا أقول يستحيل) على الباحث أن يفرد العناصر المتأتية عن سلم أو حرب، عن حوار أو صراع..."[12]

وبغض النظر عن وجهات النظر المختلفة حول الصراع وعلاقته بالحضارة،مما يدخل في إطار توظيف المصطلحات ومناهج الدراسات، ومن باب إطلاق التسميات على المسميات... يبقى الواقع المعيش يعرف صراعا لا مجال لإنكاره، "والمتتبع لسير الأحداث لابد من أن يجزم أننا نعيش وسط معمعة الصراع الحضاري بكل أدواته، لأن الآخر أرادها على الرغم من بعض المساعي للحوار الحضاري"[13].

4- ثلاث زوايا للرؤية، والصورة واحدة:

يمكننا أن نميز داخل إطار الصورة المشار إليها ثلاث اتجاهات تتفق في الملامح والنتائج، ولكنها تختلف في المنطلقات وزوايا النظر التي قد تكون استراتيجية، وقد تكون دينية، وقد تكون حداثية، وسنحاول رسم الملامح الخاصة بكل منها في الإطار الكلي للصورة، على النحو الآتي:

أ - صورة الإسلام من وجهة نظر استراتيجية:

من حيث سعة الانتشار وغزارة الكتابات، تحتل هذه الصورة، المرتبة الأولى بالنسبة للأخريين المواليتين، لأنها موقف الساسة والقادة ومن يدور في فلكهم من المفكرين، ومن ينطلق باعتبارات عملية تركز على ما للإسلام من ثراء جغرافي وبشري يشكل قوة، ويمكن أن يشكل تحديا للغرب، وللريادة التي يسعى جاهدا إليها للسيطرة على العالم. كما أنها – الصورة– الأسبق زمنيا، حيث أن جذورها المتمثلة في الفضاء الاقتصادي والعسكري...معروفة قبل أحداث الحادي عشر أيلول 2001، وقد أعطتها البعد النظري وملامح التوجس والخوف والحذر، نظرية **صامويل هانتغتون** حول "صدام الحضارات" المشار إليها سابقا، والتي مفادها أن **مشكل الغرب "ليس مع الأصولية الإسلامية، بل مع الإسلام، الذي هو حضارة مختلفة،** تعتقد شعوبه بتفوق ثقافتهم ويملكهم هاجس انحطاط قوتهم "، ومادام الإسلام هو المشكل، فإنه يتحول إلى مصدر للقلق والخوف عندما يكتسب قوة استراتيجية ما.... مما يجعل توتر الغرب ينبع أساسا من القوى الإسلامية الآسيوية المتنامية باستمرار،عسكريا واقتصاديا (**إندونيسيا والباكستان،** مثلا)،ومن **الدول العربية النفطية،** المتحكمة في شريان الاقتصاد العالمي... مما سيمكنهما من لعب أدوار هامة على حساب الهيمنة الغربية[14].

هذه الآراء المنذرة للغرب بالتصادم مع الإسلام (والتي أفرزها الغرب نفسه من خلال بعض مثقفيه)، وجدت ما رأت أنه يمثل مصداقيتها في أحداث الحادي عشر أيلول،لذلك راح الكثير يعمقها ويشرح الأحداث على أساسها.

فهذا الصحفي الأمريكي **توماس فريدمان،** يرى أن"اعتداءات 11سبتمبر تمثل حربا عالمية ثالثة "لا تواجه فيها دولة عظمى أخرى، بل هي حرب تضع الدولة العظمى الوحيدة في العالم في مواجهة رجال غاضبين ونساء غاضبات لا يشاركوننا قيمنا، ويقاومون النفوذ الأمريكي على حياتهم، ويلومون أمريكا على فشل مجتمعاتهم في تبني

التحديث، **ناهيك عن تأييدنا لإسرائيل**، وهؤلاء يمتلكون قوة عظمى أيضا، تتمثل عبقريتهم في استخدام شبكة الإنترنت والتكنولوجيا المتقدمة للغاية - رغم انهم يكرهونها - في الهجوم علينا، ولقد حولوا أكثر طائراتنا المدنية تقدما إلى صواريخ كروز ذات توجيه بشري ودقة بالغة في التصويب، **مزج شيطاني بين تعصبهم وتقنيتنا** - جهاد أون لاين"[15]. الموقف نفسه يتبناه المفكر والسياسي الأمريكي الاستراتيجي صاحب العلاقات مع العالم الإسلامي **هنري كسنجر** الذي كتب بعد خمسة أيام من أحداث سبتمبر يقول:

"الهجمات على نيويورك وواشنطن تمثل تحديا كبيرا **للمجتمع المدني** الأمريكي والأمن الأمريكي، يتجاوز الهجوم الغادر على بيرل هاربور، ذلك أن الهدف لم يكن القدرة العسكرية للولايات المتحدة، وإنما **معنويات وطريقة حياة المدنيين**.... وقبل كل شئ تقدم الكارثة قناعة بأن بعض افتراضات **العالم المعولم**، التي تؤكد قيم التوافق والانسجام والمزايا النسبية لا تنطبق على ذلك الجزء من العالم الذي يلجأ إلى الإرهاب....ويبدو أن ذلك الجزء **مدفوع بالكراهية العميقة للقيم الغربية**، بحيث أن ممثليه مستعدون لمواجهة الموت وإنزال المعاناة الهائلة بالأبرياء، والتهديد بتدمير مجتمعنا لمصلحة ما يعبر عنه بصدام الحضارات"[16]. موقف كسنجر لا يحتاج إلى جهد لبلورة مفهومه ومنطلقاته، فقد صنف العالم الإسلامي بصورة عامة في خانة العداء، متحدثا عن ممثليه الذين يقصد بهم مجموعة منفذي الهجمات المعروفة، مما يجعلنا أمام صورة عن الإسلام وليس عن تيار معين، أو تنظيم محدد، ولا حتى عن توجه فكري أو سياسي أو ديني ما. وغير بعيد عن ذلك، يتموقع توجه ما فتئ ينمو ويستقطب شخصيات فكرية وسياسية غربية وبخاصة في الولايات المتحدة، بقيادة المفكر السياسي الاستراتيجي الأمريكي **دانيال بايبس**، الذي يذهب - كما يرى السيد ولد اباه - "إلى أن **الإرهاب** ليس في ذاته الخطر، وإنما الخطر يتمثل في الرؤية العقدية والفكرية التي تتبناها القوى التي تستخدمه تقنية إجرائية، أي **الإسلام والمسلمين**"[17]. لقد كتب **بايبس** بعد أربعة أشهر من أحداث سبتمبر متسائلا: "من هو العدو الذي تحاربه الولايات المتحدة منذ 2001/09/11، ويعتبر أن الإجابة السائدة في الخطاب السياسي الأمريكي غامضة وغير مقنعة ، **فالإرهاب، هو مجرد تقنية عسكرية تستخدمها مجموعات كثيرة متباينة لها أهداف مختلفة** عن بعضها البعض، فالحديث عن الحرب ضد الإرهاب، هو مثل الحديث عن الحرب ضد أسلحة الدمار الشامل.... إن العدو الذي يهدد الولايات

المتحدة منذ ثورة الخميني 1979، ومنذ انحسار اليسار الشيوعي، واليمين الفاشي في أوربا، هو "**الإسلام الاحتجاجي**، التيار الكلياني الوحيد في العالم" الذي يستهدف الحضارة الغربية، والذي سيكون مصدر قلق للعالم الغربي خلال عدة عقود قادمة"(18).

وقبل أن نقف وقفة متمعنة في هذا الاتجاه في ما يلي من البحث، نشير إلى خطل هذا التوجه الذي يتلخص في نقطتين:

- **إعتبار الدين الإسلامي في مفهومه المجردِ المسؤولَ عن العنف بكل أشكاله.**
- **إعتبار المسلمين كلا متجانسا بدون أية اختلافات بينهم في فهم الإسلام، ولا تعدد في قراءاته.**

ب- صورة الإسلام من وجهة نظر دينية:

لقد تم رسم ملامح هذه الصورة انطلاقا من النظر إلى الإسلام في الفضاء الديني السماوي،أي في علاقته بالديانتين: المسيحية واليهودية. فبالرغم من أن الإسلام يتحد في مصدره بالديانتين السابقتين له زمنيا، باعتبار الجميع وحيا من الله، وبالرغم من اعترافه بجميع من سبقه من الأنبياء والرسل أي بحملة الديانات السابقة، بكونه آخر الديانات،وكون كتابه آخر الكتب المنزلة، وبكون رسوله آخر الأنبياء وخاتمهم....إلا أن هذا التوجه الغربي الديني يحاول إقصاء الإسلام من ذلك الفضاء الجامع، ويرسم له صورة المتحجر المتأبي عن الإصلاح والتطور ومسايرة العصر... خلافا للديانتين السابقتين اللتين – ومنذ القرن السادس عشر– عرفتا ثورات إصلاحية جعلتهما ينبذان ما فيهما مما يعيق التطور والحداثة من رؤى وقناعات.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن هذه الرؤية المعاصرة ليست – في الواقع – إلا محاولة إعادة انتعاش جديد لنظرات استشراقية قديمة معروفة، أثبتت الدراسات تهافتها وتجاوز الزمن إياها....لكن بفارق ربطها بالأحداث المعاصرة وتطورات الساحة الإسلامية/الغربية. هذا التوجه تبناه بعض من رجال الدين المسيحي، أبرزهم الأب موريس بورمان في كتابه حول الحوار المسيحي الإسلامي الذي يرى أن مشكلة الأصولية متجذرة في الإسلام نفسه، باعتباره عقيدة وشريعة، والحل عنده هو "النصح" الذي يقدمه للمسلمين بإصلاح دينهم أسوة بتجربة الإصلاح البابوي التي اختارت السير في ركب الحداثة، بينما بقي المسلمون مترددين وخائفين من خوض تجربة الحداثة وقطع الصلة بكل ما يعيقها من أفكار ومعتقدات تقصي الآخر وتشجع على العْدوانية

والعنف....مثل مفهوم الإسلام عن السلم الذي يقوم على "السيف"، وينحصر في طرح أخروي لا علاقة له بالدنيا وبالبشرية، اللهم إلا بالنسبة للمسلمين أنفسهم فحسب (دار السلم مقابل دار الحرب)[19]. وإذا كان هذا رأي واحد ممن تبنوا قضية الحوار الإسلامي/المسيحي، فإننا، ولتحقيق أقصى درجات الموضوعية، لن ننظر إليه إلا من خلال نظرة مفكر آخر،كرس كثيرا من جهوده لدراسة الموضوع، إنه المستشرق أليسكي جورافسكي صاحب كتاب " الإسلام والمسيحية"، حيث يذهب إلى أن "الحوار الإسلامي-المسيحي في ملامحه الكبرى ليس إلا عملية تفاعل ثقافي تاريخي بين الشرق والغرب، واليوم تحظى قضية الشرق والغرب باهتمام كبير.... وللتدليل على هذه الأهمية، نكتفي بالقول إنه في حل إشكالية التفاهم المتبادل بين الشعوب يتعلق مستقبل الإنسانية جمعاء....أما كيف عولجت هذه المسألة، فإنه في نطاق العلوم الإنسانية يلاحظ وجود أسلوبين متطرفين لحلها: إما النفي التام لحقيقة التناقض بين الشرق والغرب، وإما التشديد على التعارض المطلق بينهما،والمنطلقان.... لا يفعلان سوى إبعادنا أكثر فأكثر عن الحل الواقعي لهذه القضية، ففي الموقف الأول نحن نغلق أعيننا عن تجربة الشرق الغنية، المغايرة للتجربة الأوروبية (والغربية عموما)، أما في الموقف الثاني فإننا نؤكد ببساطة قناعتنا بعدم إمكان اللقاء بين الشرق والغرب، ولكن من الناحية الأخرى، فإن التسليم بالتطابق العميق في المضمون الإنساني الذي تتسم به الثقافات الشرقية والغربية لا يلغي إطلاقا الاختلافات والتمايزات في أسسها الداخلية "[20].إذ يمكن ببساطة بريئة القول بأنه "يشترك الإسلام مع غيره من الأديان المتعارف عليها بالسماوية، وغيرها من الأديان الكبرى في العالم في أمور ويفترق عنها في أمور"[21]. وغير خفي أن موريس بورمان يتموقع ضمن الفريق الذي لا يرى إلا كيانين متناقضين هما الشرق والغرب، ولا يتبنى إلا " التشديد على التعارض المطلق بينهما" بدليل مطالبته أحدهما(الإسلام) بالانسلاخ عن مرجعياته، والتحول إلى نسخة ثانية للآخر (المسيحية) بتبني تجربته الإصلاحية. مفكر آخر يذهب مذهب موريس بورمان، إنه المفكر الأمريكي مايكل نوفاك الذي يرى أن الإسلام ينبني على نفي حرية الإنسان ودور عقله وإرادته، بتركيزه على العبودية للإله المهيمن والقادر على كل شئ، بما في ذلك مصير الإنسان.... بينما "الحرية هي جوهر التقليد اليهودي والمسيحي " مما أدى إلى نشوء النزعة الإنسانية فيهما وإفراز نظام الليبراليات الحديثة[22]. الاتجاه نفسه يذهب إليه المؤرخ "بول جونسون"،

ففي رأيه "أن الإسلام عقيدة عنف، وأن أهله لا يتقبلون أي نوع من الحوار الايجابي البناء، ويزعم أن القرآن هو الذي يمد المسلمين بالرغبة في قتل الأبرياء، ويزعم في كثير من كتاباته أن البحث عن كنه الإسلام الحقيقي بمحاولة فهم القرآن عبث، فهو كتاب بزعمه مليء بالمتناقضات، فإنك تجد فيه النهي عن الحرب، بجانب الاستثارة للجهاد، وتجد أيضا تعبيرات جميلة عن التسامح بجانب التحريض الشديد على قتل غير المسلمين من الكفار، وإن وضع المسلمين المعاصرين ليدلنا كيف يختار المسلم عبارات القرآن التي تتوافق مع غرائزه الشريرة، الإسلام يضاد المثل العليا للجنس البشري، بعكس المسيحية التي دعمت من خلال تاريخها الطويل حقوق الإنسان ورفاهيته، بعيدا عن التعصب"[23].

يبدو هذا الرأي في ظاهره مختلفا ومتميزا عما سبقه بشيء من الدقة الناتجة عن الرجوع إلى الأصل الذي هو القرآن (بدلا من الرجوع إلى سلوكات المسلمين التي لا تطابق المرجع بالضرورة) لكن إذا كان الإجراء سليما ومنهجيا إلى حد بعيد...فإن نتائج "قراءته" ليست كذلك،لا من وجهة نظر إسلامية فحسب، بل من وجهة نظر علمية، فالملاحظ أن قراءته ترفضها حتى مناهج مقاربة النصوص الغربية نفسها، إذ لا بد له من عُدة لغوية وأدبية وبلاغية وخلفية معرفية تراثية عربية عميقة، لا تغني عنها الترجمات مهما بلغت دقتها....ثم إن الفكرة في حد ذاتها استشراقية قديمة، وجدت في مستجدات الساحة الدولية باعثا لها، متجاهلة كل ما حققته الإنسانية من تقدم في شتى مجالات المعرفة، وما قطعته من أشواط في طريق علاقات الشرق بالغرب.

ج- صورة الإسلام من وجهة نظر حداثية:

هذه الصورة هي الأخرى، تنسب التخلف إلى الإسلام في حد ذاته، باعتباره نتيجة لتوجهاته وقيمه، التي ترفض التحديث والعصرنة.... وهي تدعو مثل سابقاتها إلى "إصلاح الإسلام"، لكن بفارق يتمثل في عدم النظر إليه من خلال الأبعاد الاستراتيجية أو الديانات الأخرى، بل من خلال مقولات الحداثة ومنجزاتها في المجتمعات الغربية التي تشير الصورة إلى مقاطعة الفكر الإسلامي لها بحكم قناعاته الرافضة لمنطلقاتها وفلسفتها.... وكما رأينا في الصورتين السابقتين،فما تطرحه هذه ليس جديدا، فقد تمت العودة إلى أفكار ورؤى سابقة، ليعاد توظيفها في تفسير أحداث حديثة، بينما أصل الصورة يعود إلى عالم الاجتماع **إرنست غلنر** في كتابه "المجتمع الإسلامي" الذي ظهر

في بداية الثمانينيات[24]. يرى إرنست أن الإسلام دين نصي له مضمون ثابت غير قابل للتغيير إلا في الحدود التاريخية والمجتمعية للعالم الإسلامي، ويتسم بالانغلاق والتقوقع ضد منجزات الحداثة ومشاريع التطور.... " فمرتكزات الحداثة من هذا المنظور، وأهمها نزع القداسة عن العالم والنزعة الذاتية الفردية غير قابلة للاستيعاب داخل الرؤية الإسلامية القائمة على مركزية مفهوم الأمة وهيمنتها والربط بين الدولة والدين"[25]. وقد ردد هذا الرأي، و"عمقه" بعد أحداث ديسمبر، المستشرق **برنارد لويس، (Bernard Lewis)**، الذي طرحه باعتباره تفسيرا لتلك الأحداث، و"فصل الخطاب" في حقيقة الإسلام، وذلك في كتابه الموسوم بـ "**أزمة الإسلام**"[26] الذي أصدره بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر. فهو يرى أن "الإرهاب الإسلامي"، يمكن تفسيره بأنه **موقف "عصابي"** غير سوي إزاء "**حداثة مستحيلة**" تتطلب لتحقيقها الانسلاخ والانفصال عن المرجعية الإسلامية[27]، و"معضلة الإسلام" التي تحول بينه وبين الدخول في الحداثة، هي **الامتزاج الجوهري بين الدين والسلطة** فيه، "فالمجتمع الإسلامي منذ نشأته في عصر النبي له طبيعة مزدوجة، فهو من جهة كيان سياسي، سلطة قبلية أصبحت دولة ثم إمبراطورية، ومن جهة أخرى،وفي نفس الآن هو مجموعة دينية أسسها نبي، ثم حكمها قادة كانوا هم أيضا خلفاؤه"[28]. الصراع بين الخير والشر، هو الآخر، له في نظر هذا المستشرق "بعد سياسي، بل عسكري، والنبي رسول وحاكم، و(الله حاكم أعلى للدولة)، له جيشه المشكل من الرسول وخلفائه، ودوره هو طرد أعدائهم ومعاقبتهم انتظارا لخلودهم في جهنم"[29].

النتيجة التي ينتهي إليها هذا التوجه المتهافت – القافز على حقائق توسعت في دراستها المراجع الإسلامية وغير الإسلامية... والمتجاوز للقراءات الإسلامية المتعددة للقضايا التي يطرحها، والتي شكلت فروقات عرفتها حركة المدارس الإسلامية في نقاشاتها وجدلها العميق.... – هي أن معالجة "الداء الإسلامي" على حد قوله "يكمن في خلخلة هذه البنية الميتافيزيقية، وتقويض التصورات المتولدة عنها، من خلال عملية مراجعة جذرية للنسق الإسلامي كله"[30].

5- ملامح الصورة:

إن نظرة فاحصة إلى مجمل الآراء التي سالت – ولا تزال – بغزارة على صفحات الجرائد والمجلات، وبين دفات الكتب في الغرب، وبلغاته الأساسية، والتي قدمنا

عينة منها.... لتؤشر إلى عنصرين أساسيين، تتصف بهما تلك الرؤية، همـا: الخـوف والتزييف،فإليهما يعود تشكل تلك الصورة عن الإسلام في عيـون الغـرب باعتبارهمـا عاملين،وقد يكون من الطريف أن نلحظ أنهما يتبادلان المواقع ليتحول أحدهما إلى نتيجة للآخر، بشكل تبادلي، مما يؤشر إلى تهافت تلك النظرة وقفزها علـى الواقـع الحقيقـي للإسلام، وانطلاقها من أوهام يرى أصحابها أنها الحقيقة التي لا مراء فيها....

- **الخـوف**: الخوف من الإسلام في الغرب ليس جديدا،في مسار التاريخ الحديث.... وقد يكون صامويل هنتنجتون (S.Huntington) صاحب النظرية المشهورة حول "صـدام الحضارات" في كتابه الذي ظهر في التسعينيات، أهم من فلسف هذا الخوف وحـاول تعليله بالاعتماد على ما زعم أنه في الإسلام من مؤشرات تدعو إلى الخـوف منـه، والى التنبؤ بصراع حاد بينه وبين الحضارات الأخرى. وإذا كان الخوف – كما رأينا في مقدمة المداخلة – متبادلا بين الغرب والعالم الإسلامي، ولا نقـول بـين الغـرب والإسلام ! بحيث يشوب نظرة كل طرف إلى الآخر بدون استثناء، وحيث أصبح "من اللافت للنظر أن الصورة المتبادلة بين الغرب والعرب، وبشكل خاص في الـصحافة والكتب المدرسية ووسائل الإعلام، كانت مشوهة إلى حد بعيد فـي الـدول العربيـة والغربية معا"(31)... فإن ما نركز عليه هنا – بدافع منهجي يتمثل في تخصيص هـذه المقاربة لنظرة الغرب إلى الإسلام، وليس العكس– هو خوف الغرب بـشكل محـدد، دون أن يعني ذلك انتفاءه بالنسبة لنظرة المسلمين إلى الغرب، لكن تناول ذلك خـارج عن مداخلتنا هذه. إن خوف الغرب من الإسلام عند الـبعض لـيس نتيجـة **أحـداث سبتمبر**، وما تلاها من موقف ورؤية خاصة، بل إنه السبب الرئيس في تلك الأحداث، فقد ذهب محللون أمريكيون إلى التشكيك في ما أعلن بصدد مسؤولية تلك الأحـداث، ورجحوا أن تكون الواجهة المرئية منها **مفبركة** لأسباب مختلفة، أهمها الخوف الـذي أصبح هاجس الغرب تجاه الإسلام، من زحفه على العالم باعتباره إيديولوجية عالميـة تعارفية، لا تعترف بالحدود الـسياسية، ولا بـالفوارق التقليديـة مـن لـون ولغـة وأرض،ولا بالفوارق الطبقية والاجتماعية....مما يسهل من انتشاره وتأثيراته... فقـد "أوصى" **فوكوياما** بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر "**بـضرورة تـصدي الغـرب للإسلام بحزم، خوفا من انتشاره في الغرب، لما له من جاذبية، ولما تظهره شريعته من عدل سياسي واجتماعي، وهي قيم قـد تكـون خطـرا علـى انتـشار القـيم**

الديمقراطية، وكذلك تكون خطرا على رأسمالية السوق، وكل القيم الحضارية الغربية"[32]... بالإضافة إلى ما يتمتع به العالم الإسلامي من عناصر القوى الاستراتيجية من (**مناخ واقتصاد وطاقة**) ... الشيء الذي يجعل من السيطرة الغربية على العالم محل تنافس... (وهو ما يمكن تصنيفه في إطار الرؤية الاستراتيجية للغرب كما رأينا)... وهذا الخوف – في نظر فريق من المحللين – تحول إلى دافع لاصطناع الأحداث،أو – على الأقل– إلى عامل استثمار لها يمنح الحق في توظيف القوة، ويفتح أبوابا – بدونه كانت موصدة – باسم محاربة الإرهاب، وتجفيف منابعه...وإلى ذلك يذهب "فهمي جدعان بقوله: "لست أشك أبدا في أن هاجس "الخوف" و"أمر الردع" هما المسوغان لهذه الأزمة، الخوف من ماذا؟ الخوف من تعاظم قوى سياسية إيديولوجية كامنة معادية للغرب وقادرة،هنا أوهناك، على اجتياز الحكم في هذا البلد أو ذاك، وعلى التزود بأسلحة مدمرة من شأنها أن تشكل خطرا حقيقيا على حاضر الغرب ومستقبله،ويكتسب هذا الوضع خطورة أعظم إذا ما نجم في فضاء بشري وجغرافي واسع يحمل طاقات ديموغرافية وطبيعية واقتصادية هائلة... كالعالم العربي... أو الإسلامي"[33]. الخوف من هذا المنظور،أو الخوف الاستراتيجي، سيصبح – في مفارقة لافتة للنظر– مصدرا أو وسيلة للأمن، في نظر"القوة العظمى"، وحربا في سبيل انتفاء الحرب، "بالطبع هناك هواجس الكرامة والهيبة السياسية وإعادة تعزيز "تقدير الذات"لدى القوة العظمى، فضلا عن اعتبارات الثأر والانتقام وغير ذلك، لكن الأصل هو الخوف الاستراتيجي، وهذا الخوف يتطلب ردا ردعيا قويا، هو الحرب القصوى، وملاحقة جميع "البؤر" المحلية والإقليمية والدولية التي يمكن أن توجد فيها أو تتشكل فيها قوى معادية تمثل على المدى القريب أو البعيد خطرا حقيقيا"[34]. هذا الرأي ليس فقط لعربي يحسب ضمن مواطني العالم الإسلامي الذي هو مقابل للغرب،على ألطف تعبير، بل هو أيضا رأي جملة ممن ينتمون إلى عالم الغرب، بل إلى أمريكا بالذات،فهذا رجل الأعمال الأمريكي المشهور **"جورج سوروس"** (G.Soros)، يذهب إلى أن: "**الزلزال وفر لإدارة بوش فرصة تجسيد مشروعها الإمبراطوري للهيمنة ذي الخلفية الإيديولوجية المحافظة القائمة على ثلاثة ركائز أساسية هي: التفوق العسكري والأصولية الدينية، وأصولية السوق، ولقد استخدمت الإدارة الأمريكية الهزة النفسية الهائلة، التي خلفها الحدث،**

لتمرير أجندتها وتبرير مضاعفة الإنفاق العسكري وتكثيف التدخل العسكري في الخارج"[35]. رأي سوروس قد يجد مصداقيته في وضعية الغرب بعد سقوط الشيوعية، حيث أنه "بعد سقوط المعسكر الاشتراكي، ونهاية خطر الشيوعية احتاج الغرب إلى عدو جديد كي يوحد قواه، ويشحذ همته، ويسيطر عليه، فوجده في الأصولية الإسلامية في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي، بل وفي قلب الغرب والولايات المتحدة الأمريكية، فهي كلية شمولية تمارس العنف، وتتحدى القيم الغربية، وتعادي الغرب، وتجند الجماهير، وتقلب النظم السياسية الصديقة للغرب والتابعة له..."[36]. وقد يلاحَظ أن لفظ "الخوف"غير وارد في كلام "سوروس"، لكن عبارات "تجسيد مشروع الهيمنة، والتفوق العسكري، وتكثيف التدخل الخارجي..." تحمل ضمنيا دلالة الخوف من تحقق النقيض، الذي هو هيمنة الخصم المحارب وتفوقه العسكري الذي سيكون بطبيعة الحال على حساب أمريكا.

مع كل ذلك، يمكن أن ينظر إلى الخوف، في ظل الحيثيات المتقدمة، وبخاصة الاستراتيجي منه، على أنه نوع من الدفاع عن الذات، أو المحافظة على مكسب التفوق والهيمنة...مما يخفف إلى حد ما من حدة وقعه وتأثيره... لكن هناك "درجة " أخرى من الخوف تثير مشاعر الاشمئزاز لتطاولها على المقدس الإسلامي مباشرة، لا على من ينتمون إليه.

المشكلة في هذا الخوف، هي أنه تجاوز إطار النظرة والرأي إلى موقف عملي تمثل في الدعوة إلى إزالة الخوف بإعلان الحرب على الإسلام، فهذا "**روبير موراي**"، يدعو إلى **حرب صليبية جديدة ضد الإسلام والمسلمين تفضي إلى تدمير المدن المقدسة.... أما، بات روبرتستون، فاعتبر المسلمين "أسوأ من النازيين**"[37].... إلى غير ذلك من الآراء التي نشرت وتنشر تباعا باللغات الغربية في شكل كتب مستقلة[38]، أو على صفحات المجلات والجرائد، والتي لم يترجم منها إلى العربية إلا القليل[39]!

- **التزييف:** نقصد به تزيف الصورة إما نتيجة للخوف، وإما باعتباره سببا للخوف، حيث **شكلت الصورة المزيفة للإسلام، أهم عوامل الخوف منه**، و يتجلى هذا الزيف بشكل أساس في **الخلط اللاعلمي بين المجرد المقدس، وبين "القراءات"** ومحاولات الفهم التي نشأت حوله واكتسبت كثيرا من قداسته، بالرغم من أنها مجرد محاولات بشرية من كثيرات أخر قد تختلف معها إلى حد بعيد، إن لم تناقضها في بعض

الأحيان. من جهة أخرى، يتجلى التزييف في أن الغرب لـم يفتـأ يمـارس سياسـة **الهروب إلى الأمام**...فهو بتعليقه كل المسؤولية على الإسلام باعتباره دينا، لا علـى مجموعة أو مجموعات إسلامية باعتبارها تمثل فهما ما للإسلام... إنما يهـدف إلـى التخلص من تحمل أية مسؤولية قد يُحملها... لأن التفكير المنطقي يتطلب لأي صراع أو عدم تفاهم أسبابا محددة، تعود– بالضرورة – إلى واحد من الطرفين على الأقـل، فإذا أعيدت إلى الإسلام، كما هو واقع، كان معنى ذلك بـراءة الغـرب، بـل كونـه الضحية التي لا يد لها في توتر العلاقات، وكان معناه أيضا، بالنتيجـة الحتميـة، أن الإسلام – لا سياسات الغرب – يتطلب إصلاحا... وهذه النتيجة هي بيت القصيد فـي ما يهدف إليه الغرب: **إصلاح الإسلام وإدخاله بيت الطاعـة، بتـشكيله كمـا يريـد الغرب**، مقابل الإبقاء على سياساته هو –وبخاصة ما له منها علاقة بالعالم الإسلامي– كما هي، بدون أي تغيير، اللهم إلا في اتجاه الـسلب، فـي حـين تتطلـب النظـرة الموضوعية للأمور أن يشمل "الإصلاح" كلا من سياسات الغرب وسياسـات العـالم الإسلامي (وليس الإسلام).

6-الإصلاح وتغيير الصورة:

لقد بدا واضحا مما تقدم أن **الخوف علاقة متبادلة** بين العالم الإسلامي والغـرب، وأن آثارها تطال كلا العالمَين،على الأقل باليقظة الشديدة واستنفار الحـواس، وتـضييق الحريات، وسيطرة الكوابيس باستمرار... كما هو ماثل في الغرب، وأن السبب والنتيجة، في آن واحد، هو الصورة المرسومة عند كل طرف عن الآخر، الشيء الذي يجعل مـن الضرورة التحلي بالشجاعة لتصحيح الوضع. إن المخلصين في كلا العـالمين يـدركون بكل تأكيد ضرورة ذلك، وكل منهم واع باختلالات بيته قبل اختلالات بيت الآخـر، وإذا كان موضوع مقاربتنا يخص صورة الإسلام في عيون الغرب،على ما هي عليـه مـن الخلل كما رأينا... فإن من منطق ورود النتائج بعد المقدمات أن نفكـر فـي تـصحيح الصورة، لكن بالرغم من بساطة الأمر ظاهريا، فهو معضلة ليس مـن اليـسير حلهـا، لتداخل عوامل متشابكة تعود إلى الرائي الذي يرسم الصورة، والى المرئـي موضـوع الصورة في آن واحد، غير أنه تبعا لخصوصيات الصورة التي رأيناها من خـلال هـذه المقاربة وأهمها تركيزها على الإسلام باعتباره سبب التردي وموضوعا "للإصلاح"،مما

يصطدم بحق حرية المعتقد الذي تكفله الأديان والقوانين... يمكننا أن نحدد طرحين، أحدهما يتوجه إلى الآخر (الغرب)، مفاده ضرورة إبعاد الأديان عن لعبة السياسة والاستراتيجيات وإشكالات النفوذ... تحقيقا لفائدة الغرب نفسه بالدرجة الأولى، فتحميله الإسلام مسؤولية تردي العلاقات ومطالبته بإصلاحه... إنما يجعله في مواجهة حوالي **مليار ونصف المليار من سكان المعمورة**، وعشرات من دول العالم، وهو مالا يتم في الإشكالات السياسية والاستراتيجية خارج الأديان. الطرح الثاني يتوجه إلى كلا العالَمين، ولعله يمسهما بدرجة متساوية من المسؤولية، يتمثل في **ضرورة تقبل نقد الآخر**، **وممارسة النقد الذاتي**، واستبطان الرؤية ومحاولة وضع المرئي نفسه مكان الرائي واتخاذه مرآة عاكسة على وجهها يرى نفسه... للنظر إلى السلبيات بدون تشنج، والقيام بإصلاحات على الذات دون الوقوف طويلا أمام إشكالية مصدرها، ولعل ذلك هو بعض ما بدأ يرسم فيه خطاه العالم الإسلامي (والعربي بصفة خاصة) بغض النظر عن الجدل القائم[40]... فقد عرف هذا الأخير حركية في رؤية الذات ومحاولة إصلاحها بكثير من التجرد العاطفي، مما أدى إلى تبني الإصلاح باعتباره موقفا داخليا ينبع من قناعة ذاتية، قبل أن يكون موقفا خارجيا يطالب به الآخر!!، ويتجلى ذلك في ما يأتي:

- **أولاً**: سيل من الدراسات والتحليلات والدعوات المرتفعة من هنا وهناك في العالم العربي، لرؤية الذات رؤية غير ذاتية، تتلمس مواقع الخلل... فهذا الدكتور جابر عصفور يرى "أن التحديق في الغرب بعيون عربية انطوى على صدمة المعرفة بمدى تخلف الأنا القومية عن الآخر الذي يواجهنا، فالعلاقة بيننا لم تبن على مبدأ التساوي والتكافل بين طرفيها، لذلك لم نر الغرب بطريقة صحيحة، ولم نر أنفسنا بطريقة صحيحة أيضا..."[41]. إن العالم الإسلامي، (والعربي باعتباره جزءا منه) مدرك تمام الإدراك ضرورة تطوره و"إصلاح نفسه"، وفق آليات تتناسب و واقعه وآفاقه في شتى الميادين، قد تصل حد إعادة قراءة المقدس، لكن ليس حد تغيير المقدس نفسه، مبعث كل ذلك قناعة بتشوه الصور المتبادلة بينه وبين الغرب،لأسباب كثيرة، أهمها تاريخي واستراتيجي، لكن ليس دينيا ولا ثقافيا. "إن صورة الآخر ليست حقيقة، إذ لا يظهر الشرق على حقيقته ولا الغرب على حقيقته، بل صورة كل منهما معكوسة في مخيلة الطرف الآخر، صحيح أن الغرب اخترع شرقه، ولكن من الصحيح كذلك أن الشرق اخترع غربه، كل من موقعه، وكل بطريقته وآلياته، وإذا كانت السمة الغالبة في

الخطاب العربي المعاصر هي رفض الصورة التي يحملها الغرب تحديدا، عن العربي والمسلم، مع البحث لها عن سياقات ودوافع، فإن هذا الرفض لا يوازيه تساؤل عن الصورة التي يبنيها العربي عن الغرب، إنه يتشكى من تشويه الغرب لصورته، لكنه لا يتنبه إلى أن صورة الغرب ليست أقل تشويها لديه"[42].

- **ثانيا:** حركية نشيطة (رسمية وغير رسمية)، تمثلت في عقد ندوات ومؤتمرات[43] تتناول إشكالية الإصلاح ورهانات التغيير، تنم عن وعي عميق بإشكالية العلاقات الغربية/الإسلامية يفضي إلى تحديد سلم للأولويات، يحتل فيه **إصلاح الذات** الدرجة الأولى بكثير من التذمر لحالها المتردي، لعله أكبر من تذمرها لحال العلاقات المتوترة مع الغرب، وما يمنح هذا الموقف الواعي قيمته وخطورته هو أنه يمثل مواقف جماعية لنخب مثقفة،مما ينأى بها عن شطط التشرذم والانغلاق على الذات وضيق الرؤية، ففي الندوة التي أقامتها مجلة "العربي"[44] في موضوع "الغرب بعيون عربية" وضمت ثلة من خيرة المثقفين العرب... تجلى موقف مشترك يسير في اتجاه الاعتقاد بأن "كمية الغضب الكامن في النفوس لم تكن موجهة بالدرجة الأولى إلى الآخر، ولكن للذات العربية التي تقاعست طويلا، وتمسكت بأهداب التخلف والنظرة الأحادية، ولم تعرف شروط النهضة الواجب توافرها..."[45]. أمام هذا الموقف العربي الذي يتسم بالموضوعية ومحاسبة الذات بشيء من الصرامة، وربما القسوة الممنهجة! يبرز سؤال يطرح نفسه بحدة ويتلخص في ما يأتي:

موازاة مع تلك المؤتمرات والندوات التي تعقد في العالم الإسلامي على مختلف المستويات للنظر في الذات وتقويم اعوجاجها... هل عرف الغرب مؤتمرات مماثلة لمحاسبة الذات والاعتراف بالأخطاء... لتوجيه "كمية الغضب الكامن في النفوس" إلى الذات بدلا من توجيهها إلى الآخر؟؟.

سؤال مشكلته أننا لا نملك الإجابة عنه، لكن مشكلته الكبرى، هي أنه عليه يتوقف أكبر جزء من مبادرة "الإصلاح" وحل إشكالية علاقة إسلام/غرب.

الإحالات

1. د/علي القريشي، (حوار الحضارات والحاجة إلى كبح جماح "الهويات المتغطرسة")، مجلة "العربي"، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 525، أغسطس 2002، ص 164.

2. ينظر: أليسكي جورافسكي- الإسلام والمسيحية ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 8.
3. نستثني من هذا التوجه السلبي الذي يجرّم الإسلام، **بيان المثقفين الأمريكيين**" الذي وقعه بتاريخ 2002/02/12 ستون مثقفا أمريكيا، من ضمنهم صمويل هنتنجتون صاحب نظرية صدام الحضارات وفرانسيس فوكوياما صاحب كتاب نهاية التاريخ، والذي - بالرغم من سلبيته في أكثر من نقطة، وبخاصة في تبريره لما أسماه الحرب العادلة - يفرق بشكل واضح بين الإسلام والمسلمين، وينأى عن تحميل الإسلام باعتباره دينا مسؤولية ما حدث في ذات يوم،ويقر أنه واحد من أكبر الديانات في العالم، يدين به حوالي 1.2 مليار مسلم بمن فيهم عدة ملايين من مواطني أمريكا،يتبعون تعاليم الإسلام ويتمتعون بالاحترام والإيمان وحس السلام، يقابل ذلك جماعات "راديكالية" متطرفة، لا تعارض السياسات الغربية فقط، ولكنها تعارض أي مبدأ للتسامح الديني...."(ينظر: مجلة العربي، ع523، يونيو 2002، ص11.
4. ينظر الهامش رقم: 37.
5. عبد الرزاق خليل، الاستشراق والاستشراق العربي، مجلة "آفاق الثقافة والتراث"،دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد،دولة الإمارات العربية المتحدة، عدد 49،السنة 13، إبريل 2005. ص100.
6. د سليمان العسكري، ماذا يتبقى من نظرية صراع الحضارات؟، مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 518، يناير 2002، ص 10.
7. د. السيد احمد فرج، حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هن ممكن؟، دار الوفاء، ط 1، 2004، جمهورية مصر العربية، ص 9.
8. م ن، ص 22.
9. د سليمان العسكري، ماذا يتبقى من نظرية صراع الحضارات؟، مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 518، يناير 2002، ص 11.
10. م ن، ص ن.
11. فهمي جدعان، متى تحين لحظة الحوار؟ بحثا عن الإسلام الحضاري، مجلة "العربي"، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 519، فبراير 2002، ص 118.
12. د/ وجيه كوثراني (علاقة شائكة وأسئلة ملتبسة) مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 519، يناير 2002، ص 123.
13. عبد الرزاق خليل، الاستشراق والاستشراق العربي، مجلة "آفاق الثقافة والتراث"، دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد،دولة الإمارات العربية المتحدة، عدد 49،السنة 13، إبريل 2005. ص100.

14. ينظر: ينظر: د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001 – الدار العربية للعلم – بيروت، لبنان – ط 1 – 2005 – ص 148. وأيضا: s.Huntington :The Clash of Civilization and the Remaking of world ,Order Simon and Schuster 1997

15. توماس فريدمان: الحرب العالمية الثالثة (نيويورك تايمز)، النسخة العربية في الشرق الأوسط 2001/09/15. وينظر أيضا: د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001. ص ص 149-150.

16. هنري كسنجر – معنا أم مع الإرهاب – نيويورك تايمز – النسخة العربية في الشرق الأوسط – 2001/09/16 .

17. د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001 – الدار العربية للعلم – بيروت، لبنان – ط 1 – 2005 – ص 150.

18. ينظر: د. السيد ولد أباه (مرجع سابق) ص ص 150-151. وأيضا:

Daniel Pipes: Who is the enemy ?- Commentary ,29 janvier 2002.

19. ينظر: Maurice Bormans :.Dialogue Islamo-Chrétien ,Ed. Saint Paul 2002

20. أليسكي جورافسكي- الإسلام والمسيحية ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 22.

21. د. معن زيادة، معالم على تحديث الفكر العربي، ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1987، ص 96.

22. ينظر: Michel Novak.Another Islam American Enterprise Institute.November 1,2002. وأيضا: أيضا د. السيد ولد أباه (مرجع سابق) ص 139.

23. د. السيد احمد فرج، حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هن ممكن؟، دار الوفاء، ط 1، 2004، جمهورية مصر العربية، ص 29.

24. هو كتابه: Muslim Société ,Cambridge University Presse 1981.

25. ينظر: د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001 – ص 143.

26. هو كتابه: L'Islam en crise ,Gallimard 2003, p.35 .

27. ينظر: د. السيد ولد أباه، مصدر سابق،ص 144.

28. م ن، ص ن.

29. م ن، ص ن.

30. م ن، ص ن.

31. مسعود ضاهر، (العرب والغرب،تاريخ من العلاقات المشوهة)، مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 518، يناير 2002، ص 140.

32. ينظر: د. السيد احمد فرج، حوار الحضارات في ظل الهيمنة الأمريكية هل هن ممكن؟، دار الوفاء، ط 1، 2004، جمهورية مصر العربية، ص ص 87-88.

33. فهمي جدعان، متى تحين لحظة الحوار؟ بحثا عن الإسلام الحضاري، مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 519، فبراير 2002، ص 116.
34. م ن، ص 116-117.
35. ينظر: د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، ص 12. والمصدر هو كتاب سوروس:
-G.Soros: The Bubble of American Supremacy , Public Affairs ,2003.
36. د/ حسن حنفي، الغرب وأزمة البحث عن عدو، مجلة " العربي"،وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 518، يناير 2002، ص ص 135- 136 .
37. ينظر: د. السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001 – ص 150.
38. صدرت كتب كثيرة تتهجم على الإسلام والعرب، لعل أكثرها تطرفا وتوظيفا للمصطلحات المثيرة مثل "التوحش والتعصب" كتاب الصحفية الإيطالية أوريانا فالاشي:
La Rage et l'orgueil (الغضب والكبرياء): Plon 2002.
39. لقد صدمنا ونحن نحضر هذا البحث بقلة ترجمات الكتب التي تصور نظرة الغرب للإسلام من تأليف غربي، بل ندرة تلك الكتب في لغاتها بالمكتبات في الوطن العربي، وهو أمر يقوم على أساس هش من غض البصر بالأسلوب النعامي، إنه وجه آخر للخوف.
40. عرفت مشاريع الإصلاح العربية جدلا عميقا ، فهناك من يرفض أية إصلاحات بحجة عدم الحاجة إليها،وهناك من يرفضها بحجة أنها مفروضة من الخارج، وهناك من ينظر إلى مضمونها صارفا النظر عن مصدرها....
41. ينظر: د. محمد المنسي قنديل، متى نتخلص من الرؤية المشوهة للذات وللآخر؟، مجلة "العربي"، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 544، مارس 2004، ص ص 116-117.
42. مسعود ضاهر،(العرب والغرب، تاريخ من العلاقات المشوهة)، مجلة "العربي"، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 518، يناير 2002، ص 144.
43. نذكر منها على سبيل المثال:
- مؤتمر القاهرة حول "مستقبل الثقافة العربية: تجديد الخطاب الديني" في مطلع شهر جويلية 2003.
- مؤتمر الإسكندرية حول "قضايا الإصلاح العربي" في فترة 12- 14 أفريل 2004.
- ندوة تونس حول "التفكير الإصلاحي والتحديثي العربي" بتاريخ 24 أفريل 2004.
- مؤتمر الدوحة حول "الديمقراطية والإصلاح"، مطلع شهر حزيران 2004 .
- يضاف إلى ذلك: مؤتمرات جامعة فيلادلفيا، عمّان، اعتباراً من: مؤتمر: التفاعل الثقافي، 1996، وحتى مؤتمر: ثقافة الخوف، 2006.
44. عقدت الندوة بالكويت أواخر سنة 2003.
45. ينظر: د. محمد المنسي قنديل، متى نتخلص من الرؤية المشوهة للذات والآخر؟، مجلة "العربي"، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 544، مارس 2004، ص 118.

مصدر الخوف: الإسلام، أم الغرب؟

مازن صلاح مطبقاني

جامعة الملك سعود، السعودية

منذ سنوات وبالتحديد بعد سقوط (الشيوعية) وانهيار الأنظمة المختلفة في روسيا، وأوروبا الشرقية، ظهر مصطلح **الخوف من الإسلام Islamophobia** (وكثرت الكتابات حول الخوف من الإسلام، بل تمادوا في تهويل هذه المخاوف حتى صوروا المسلمين يخططون لمؤامرة عالمية ضد الغرب، ولكن لم يلتفت الكثير إلى أن **الخوف من الغرب** هو الأولى بالبحث والدراسة، فهو الذي يملك القوة المادية والفكرية والثقافية والسياسية في العصر الحاضر، فقد كتب بكر بصفر، قبل سنوات، حول تصريحات الرئيس الأمريكي جورج بوش عن النظام العالمي الجديد قائلاً: "لا أدري أين يجد الحالمون بالنظام العالمي الجديد له أثراً وهم يشاهدون تفاقم هيمنة الغرب على العالم بأقماره الصناعية وبوكالات أنبائه وإذاعاته وبقية وسائل إعلامه، التي يذيب بواسطتها ثقافات الشعوب ويهيّؤها للاندماج في المركزية الثقافية الغربية؟". ألا نخشى الغرب، وهو الذي ساعد أو خطط لتدمير آخر خلافة إسلامية حينما أطلق على الدولة العثمانية (**رجل أوروبا المريض**)، ولم يكتف بذلك، فعقد المؤتمرات للتخطيط لتقسيم البلاد العربية والإسلامية التي كانت ضمن الدولة العثمانية ليتقاسمها، وكانت أولى المراحل في العصر الحاضر، مؤامرة كامبل بنرمان Sir Henry Campell Bannerman التي عقد في عام 1905 في لندن. ولم يتوقف الأمر عند هذه المؤامرة فقد تبع ذلك بسنوات وبالذات في عام 1917م اتفاقية سايكس وبيكو التي تقضي بتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، وهذه الاتفاقية جزأت البلاد العربية إلى دويلات كثيرة بعد أن كانت ولايات تابعة للخلافة العثمانية.

وليس هذا فحسب، فإن الغرب قد أصبح منذ أكثر من مائتي عام مصدر العلوم المختلفة، فقد درس وما زال يدرس أعداد من أبناء هذه الأمة في جامعاته ومراكز بحوثه، وهو الذي يعقد المؤتمرات للحديث عن أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعن أدبنا وعن الفلكلور وغير ذلك. ليس المقصود بالحديث عن تهديد الغرب للإسلام والعالم أن يصيبنا الخوف والجبن والهلع من هذا الغرب، فما كان المسلم ليخاف

أحداً إلاّ الله، كما علّمنا القرآن الكريم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً)، فمن هذا المنطلق لا يمكن للمسلم الحق مهما كانت قوة الغرب وجبروته وسطوته أن يخشاه. فالتهديد الحقيقي هو الصادر من الغرب الذي أسس الشركات المتعددة الجنسيات، وقدم الخبرات، وأنشأ **مؤسسات الاستخبارات الضخمة** جداً ذات الأيادي الطويلة، وهو الذي يؤجج **الحروب** ويبيع السلاح، ويخطط **للانقلابات العسكرية**، ويدعم بعض الحكومات ضد شعوبها.وسوف يتناول هذا البحث مسألة الخوف من الغرب في ثلاثة محاور هي: المحور الأول: الغرب مصدر الخوف سياسياً.

المحور الثاني: الغرب مصدر الخوف اقتصادياً.

المحور الثالث : الغرب مصدر الخوف ثقافياً.

المحور الأول: الغرب مصدر الخوف سياسياً

بدأ الرسول في إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها، وكان من هذه الرسائل إلى قيصر الروم وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى ملوك آخرين وتضمنت رسالته إلى هرقل أنه إن أسلم، فيمكنه البقاء في ملكه، أو عليه أن يدفع الجزية ويمكن المسلمين من الدعوة إلى الإسلام ويبقى في ملكه كذلك. هل الحديث عن التهديد (المزعوم) للإسلام ذريعة لمنع أو إيقاف الحديث عن تهديد الغرب للإسلام؟. إن **(الغرب)** أو الشمال النصراني –كما يسميه محمود شاكر رحمه الله– **لا يزيد تعداده عن عشرين في المئة من سكان الكرة الأرضية ويستهلك حوالي ثمانين بالمائة من مواردها وثرواتها. هذا الغرب هو الذي ينتج أكبر كمية من السلاح في العالم**، ولا تقع حرب في أي بقعة من الأرض، حتى تتداعى دول الغرب تبيع السلاح لهذا الطرف أو ذاك وتقف تتفرج على الفريقين، وقد تساعد فريقاً على الفريق الآخر إما لإطالة أمد الحرب واستمرار الحاجة للسلاح الغربي أو لأهداف أخرى. وقد سمع العالم وعرف ما سمي **بإيران جيت وكونترا جيت** وغيرها من الغيتات أو الفضائح حتى إن إحدى القنوات الفضائية أعدت برنامجاً اسمه فضائح القرن العشرين. ومن صاحب هذه الفضائح –غالباً– إن لم يكن الغرب؟. وتأتي خطورة الغرب في الجانب السياسي أنه لا يرى أن العالم عرف نظاماً سياسياً على مر العصور أفضل من النظام الديموقراطي – صرح بذلك المستشرق **برنارد لويس** قبل أكثر من خمسين سنة، وجاء **فوكوياما** ليكرر

الزعم نفسه – ولذلك فهو يسعى لنشر هذا النظام حتى إن جامعة جورج تاون في واشنطن العاصمة، قد أنشأت مؤسسة بعنوان (مؤسسة الديموقراطية والتغيير السياسي في الشرق الأوسط)، ورئيسها هو البروفسور **دانيال برمبيرج** Daniel Brumberg ، ويعمل فيها **ستيفن هايديمان.** وتعقد هذه المؤسسة وغيرها من المؤسسات ومراكز البحث العلمي، الندوات والمؤتمرات لتنظر في كيفية تصدير الديمقراطية إلى العالم كله. وقد عقدت ندوة بالتعاون مع مركز دراسات الشرق الفرنسية في الدار البيضاء عام 1997م.

واستمرت تطلعات الغرب إلى فرض نظرياته السياسية على العالم العربي وبخاصة فيما عرف منذ سنوات قليلة، **بمشروع الشرق الأوسط الكبير**، وبدأت الإدارة الأمريكية في التحرك لتحقيق نشر (الديمقراطية)، وزيادة على ذلك، فإن الأمم المتحدة قامت بإعداد تقارير عن التنمية البشرية (أطلقوا عليها إنسانية) في الشرق الأوسط لتوضح مدى الوضع الخطير الذي نعيشه والتخلف غير المحدود الذي يخيم على البلاد العربية الإسلامية، ولذلك فلا بد من الديموقراطية الغربية لتنقذنا من هذه الأزمة. ويمكن للمرء أن يتساءل كيف يريد الغرب أن ينشر الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي والشركات المتعددة الجنسيات، التي أصبحت هي التي تدير السياسة الدولية–إلى حد كبير– تكره أنظمة الديمقراطية لأن تلك الأنظمة يصعب فيها رشوة المسؤولين بدون فضائح ولا يتم تسليم الامتيازات وغيرها دون الرجوع إلى البرلمانات والمجالس المختلفة بينما في النظم غير الديمقراطية يمكن للشركات الأجنبية أن تفعل ما تشاء. أما الأمر الآخر فإن الدول الغربية لا تفتأ تزعم أن **الدول النامية** (تعبير لطيف) لدولٍ "غير مؤهلة للحكم الديمقراطي، وهم يتحدثون باستمرار عن تناقض الديمقراطية مع الإسلام بصورة خاصة، لكنهم قلما يذكرون الدور الذي قامت به شركاتهم وحكوماتهم في قتل النبتة الديمقراطية، حينما بدأت بالتبرعم والتجذر في العالم الثالث، وفي دعمهم للأنظمة الفاشية التي فتكت بألوف الأحرار من المناضلين من أجل الديمقراطية والشرعية."

أما التساؤلات، فإن الغرب لم يعد خافياً عليه أن هذه اللعبة أو هذه السياسة لم تعد خافية على الشعوب العربية الإسلامية والشعوب في العالم الثالث، فالمسؤولون الأمريكيون يتجولون في أنحاء العالم العربي الإسلامي، يقابلون المثقفين ويعرفون منهم حقيقة موقفهم من سياسات الولايات المتحدة واعتمادها على المعايير المزدوجة.

وكتب الأستاذ فائق فهيم، أنّ الرؤساء الذين وصلوا إلى الحكم بالانقلابات العسكرية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية المدعومة من أمريكا، وخدموا أسيادهم، ثم إذا انتهى دورهم تنوعت مصائرهم بين ذل وقتل أو طرد وتشريد. وقدم الأستاذ فهيم نصيحته لهؤلاء الرؤساء بقوله: "فبعض الحكام لا يظن أنه مجرد مرحلة وأن القاعدة هي الزوال، وإنما يتصرف وكأنما سيقف الزمان عنده ولا يتحرك."

ومن الخطر الأوروبي الحقيقي ما حدث للمسلمين في **البوسنة**، وفي **الشيشان**. ففي الوقت الذي كان الصرب ومن معهم من شعوب أوروبا – بدعم صريح وواضح – يرتكبون المجازر التي راح ضحيتها مئات الألوف من المسلمين، يتداعى العالم كله لاستنكار مقتل عدد من المستوطنين اليهود في فلسطين. وقد ظهر في الأوروبيين من يعترض على ما فعله الغرب، من بينهم، كاتب بريطاني قد أصدر كتاباً بعنوان: (**الجيب الآمن :سربيرينتسا: أبشع مذبحة عرفتها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية**)، وفي هذا الكتاب يوضح حجم المجازر التي ارتكبت من قبل الصرب وسكوت الغرب بل ومعونته للمجرمين. حتى لقد كتب مصطفى أمين – رحمه الله – غاضباً، يقول:" عجز الدول الكبرى عن مساعدة البوسنة، فضيحةٌ كبرى، العمالقة يتحولون إلى أقزام.والدول الصغيرة تقف ذاهلة أمام تردد الأقوياء وضعفهم وهزالهم ولا نريد أن نقول وجبنهم."

ويضيف مصطفى أمين:" ذنب البوسنة أنها شعب مسلم، وأنه اعتمد على الأمم المتحدة، فخذلته، وصدّق كلام الدول الكبرى، فخدعته، وتصور أن ميثاق الأمم المتحدة هو وثيقة محترمة، وإذ به يكتشف أن هذه الوثيقة هي قطعة ورق وقعتها الدول الكبرى ونسيت أنها وضعت إمضاءها عليها"

ولماذا لم يعاقب **النظام الروسي**، الذي دمّر العاصمة الشيشانية تدميراً شاملاً؟، بل إن البنك الدولي، ضخ آلاف الملايين من الدولارات في الاقتصاد الروسي – وما يزال- لدعم الروس. ويتساءل- بحق- عبد الواحد الحميد :" أي متابع لأحوال العالم لا بد أن يعرف لماذا"يستأسد" الروس على المسلمين في جمهورية الشيشان وفي جمهورية البوسنة والهرسك، في الوقت الذي يسجلون تراجعاً على الساحة الدولية في كل المجالات؟"

إن **المجلس الوزاري للاتحاد الأوروبي**، قد أقرّ **عضوية إسرائيل** الكاملة في برنامج الأبحاث والدراسات العلمية لاتحاد الدول الأوروبية....وتتيح هذه العضوية للدولة الصهيونية، المشاركة الكاملة في كل برامج ومشاريع الدراسات والبحوث العلمية للاتحاد

الأوروبي والاطلاع على نتائجها، وهو أمر لم تتمتع به أية دول في العالم خارج عضوية الاتحاد.

- **دعم إسرائيل في امتلاك أسلحة الدمار الشامل:** ومن مظاهر سكوت الغرب عن **أسلحة الدمار الشامل في إسرائيل، أن مصنع "تيس زيونا"** للأسلحة الكيميائية والبيولوجية في إسرائيل ينتج 43 نوعاً من الأسلحة الفتاكة، وأضافت أن 120 عالماً، و180 عاملاً، يعملون في هذا المصنع الذي يضم معهداً علمياً سرياً به مختبرات ومعامل للتجارب، ويدار بوساطة مكتب رئيس الوزارء الإسرائيلي مباشرة. وعند الرجوع لموقع هيئة الإذاعة البريطانية حول **الأسلحة النووية الإسرائيلية** وترسانتها الضخمة من هذا السلاح، نجد آلاف الصفحات التي تتحدث بوضوح، حتى إن هذه الإذاعة، أعدت استطلاعاً عن هذه الأسلحة، وأجرت لقاءات مع عدد من المسؤولين اليهود في الموضوع، ومنهم رئيس الوزراء السابق أريئيل شارون، وعندما سألته عن المواطن الإسرائيلي الذي كشف عن هذه الأسلحة وما تعرض له من عقوبة في إسرائيل، كانت إجابات شارون بعيدة عن أدب الحوار، إن لم تكن وقحة.

أمام كل هذه الحقائق عن موقف الغرب من الإسلام والمسلمين أتينا إلى زمن زعموا أن الإسلام، هو الذي يخيف الغرب، وظهر في أوروبا وأمريكا مرضٌ نفسيٌّ، اسمه **الخوف من الإسلام Islam phobia**، حتى عقدت مئات الندوات والمؤتمرات لتدرس ما سمي "الإسلام السياسي" أو" الأصولية". ومن الطريف أن أستاذ التاريخ بالجامعة العبرية مارتن فان كريفيلد، يرد على هذه الأوهام بقوله: "ليس من الصحيح القول بوجود نوع من "مؤامرة إسلامية عالمية على الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها زعيمة الغرب" أو "العالم الحر" أو "المسيحي"، كما ليس من الصحيح أننا نشهد "حرب الحضارات" (نظرية المفكر الأمريكي صاموئيل هنتنجتون)، إذا كان يراد بهذا التعبير صراعاً شاملاً تخوضه "حضارة" ممركزة معينة ضد أخرى مثلها". وينقل الباحث عن **فردريك نيتشه** قوله: **"على من يقاتل الوحوش أن يحرص على ألاّ يصير هو الآخر وحشاً".**

وقد كتب مصطفى أمين- رحمه الله- منذ وقت مبكر يحذر من خطورة ما بدأ يظهر في الغرب **عندما سقطت الشيوعية**، أن **الإسلام هو العدو الجديد**، وأن الغرب لا بد ان يتخذ الخطوات المناسبة لمقاومته والقضاء عليه. ويقول مصطفى أمين: "ونحن في بلاد الإسلام لا نشعر بهذه الحرب، ولا نستعد لها، ولا نصدق أننا أصبحنا خطراً على أحد،

فالأخطار هي التي تحيط بنا، وتأخذ برقابنا" ويوضح هذه المسألة بقولـــه: "المـــسلمون لا يعادون أحداً ولا يعدون أنفسهم لغزو أي بلد في العالم، وهم لديهم هموم تكفيهم وبعضهم يبحث يومياً عما يأكله أو يشربه، ومثل هؤلاء ليس لديهم وقت للغـــزو والفـــتح وإنـــشاء الإمبراطوريات، المسلمون لا يريدون مستعمرات، ولا يفكرون في إمبراطوريات، كل ما يريدون أن يدعهم العالم يعيشون في سلام ووئام".

المحور الثاني: مصدر الخوف اقتصادياً

يعاني العالم الإسلامي اقتصادياً، فدولة مثل فنلندا مثلاً أو إسـبانيا تتجـاوز قـدرتها الاقتصادية عدداً من الدول العربية، ويعاني المسلمون من احتياجهم المستمر للاسـتيراد من الدول الغربية، وبخاصة في مجال السلع الاستراتيجية كالغذاء، حيث بلـغ الاعتمـاد على الغذاء الأجنبي حداً خطيراً. ويأتي التهديد الاقتصادي الغربي للعالم الإسلامي مـن عدة نواح:

أولاً: الأطماع الغربية والعالمية في ثروات الأمة الإسلامية

نشرت صحيفة لوس أنجلوس تايمز مقالة للسفير الأمريكي الأسبق جـيمس أتكنـز James Atkins تحدث فيها عن مخططات المحافظين الجدد للسيطرة على منطقة الخليج العربي منذ عام 1975م، حيث ذكر أنه بعد **أزمة النفط** عـام 1973 وارتفـاع أسـعار النفط، وقيام المملكة العربية السعودية بقطع إمدادات النفط عن الغرب، تنادى عـدد مـن الكتاب والسياسيين في أمريكا إلى **ضرورة قيام الولايات المتحدة باحتلال منابع الـنفط،** وأشار إتكنز إلى بعض هذه المجلات مثل مجلة كومنتري وغيرها، ولكن تم استبعاد هذا الخيار، حتى جاء غزو صدام حسين للكويت، فكانت الفرصة مواتية لأمريكا لوجود شبه دائم في المنطقة، وقد عنون مقالته بأننا وقد أصبحت المنطقة في قبضتنا فهـل نتخلـى عنها.

وقد اتخذت الإدارات الأمريكية المختلفة، الخطـوات اللازمـة للـسيطرة والهيمنـة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وبخاصة حينما استولى المحافظون الجدد على البيـت الأبيض الذين يعرف عنهم الدعوة إلى **الإمبراطورية**، والسيطرة على العـالم ومقدراتـه، وذلك من خلال الحروب واستعمال القوة، ويُصَـرّحون بأن على الولايات المتحـدة ألاّ تخجل من استخدام قوتها، التي لا منافس لها وبعنف إذا تطلب الأمر للترويج لقيمها حول

العالم، حتى أن البعض يتحدثون عن الحاجة لإنشاء **الإمبراطورية الأمريكية**، وأن أمريكا يجب أن تكون القوة العظمى الوحيدة لعدة عقود، وأن تستخدم القوة لتحقيق ذلك **بدلاً من التعاون الدولي**. وكأنّ خطوات السيطرة على العالم تبدأ في نظر اليمين الجديد من **نزعة السيطرة على الخليج العربي**، فهذه الخطة تعود إلى أكثر من ثلاثين سنة، ويرون أن الوقت قد أصبح مناسباً الآن للوصول إلى ذلك، وقد اتخذوا عدداً من الخطوات، وهي:

1. إنشاء قوة الانتشار السريع.
2. إنشاء القيادة العسكرية المركزية (للإشراف على المنطقة).
3. حرب الخليج الثانية بعد احتلال صدام للكويت التي وفرت فرصة الوجود الدائم.
4. الحرب في أفغانستان (الحرب على الإرهاب).
5. الحرب على العراق.

ثانياً: الشركات المتعددة الجنسيات

فالتهديد الحقيقي هو الصادر من الغرب، الذي أسس الشركات المتعددة الجنسيات، وقدم الخبرات، وأنشأ مؤسسات الاستخبارات الضخمة جداً ذات الأيادي الطويلة وما خبر (لعبة الأمم) عنّا ببعيد. ومن الأمثلة على ما تفعله بعض الشركات المتعددة الجنسيات في الشعوب الإسلامية بخاصة، والشعوب الأسيوية والأفريقية بعامة ما كتبه خالد الحروب عن **شركة شل**، وما حققته من أرباح من نشاطاتها البترولية في نيجيريا وبخاصة الواقعة في أراضي قبائل الأوغون. كما تناول خالد الحروب ما حدث في كولومبيا من قبل شركة بريتش بتروليوم التي اكتشفت حقلاً نفطياً غنياً من أغنى حقول العالم، ويقول حروب:" ثم ... بدأ النهب وجاءت السياسة تبارك رأس المال، فزار جون ميجور منشآت الشركة برفقة **الرئيس الكولومبي** عام 1992م، والناس ينتظرون وعود الازدهار وخيرات النفط..." وكانت النتيجة أن **أصبحت الشركة متعاونة مع قوات تلك الدولة لقمع العمال والشعب الكولومبي**...". وما زلت أذكر برنامج (الرأي الآخر) حول الشركات متعددة الجنسيات حيث كان أحد المتحدثين ينتقد الشركات المتعددة الجنسيات بأنها إذا دخلت بلداً عاثت باقتصاده وغيرت أنماط حياته وسلوكه الاجتماعي، وأصبح الغني أكثر غنى والفقير أكثر فقراً. والنتيجة النهائية أن تخرج هذه الشركات بأكبر قدر من الأرباح بينما لا يستفيد البلد المضيف الاستفادة الحقيقية. إن الشركات المتعددة الجنسيات، أصبحت شريكة لشركات محلية في مجالات عديدة، فهذه المياه تقوم بتعبئتها **شركات المرطبات**

العالمية في عدد من الدول العربية، حتى إن بعضها يباع بأسعار أغلى من أسعار المياه التي لا تحمل اسم هذه الشركة أو تلك. ولا تكاد شركة أو صناعة محلية تصل إلى درجة من النجاح حتى تستولي عليها إحدى الشركات المتعددة الجنسيات.

ثالثاً: المساعدات الأجنبية

يقدم الغرب الثري مساعدات مالية إلى عدد من الدول العربية والإسلامية لإنجاز مشاريع تنموية في مجال التعليم والصحة والطرق والغذاء وغير ذلك، ولكن هذه المساعدات لا تحقق الأهداف المعلنة، وقد كثر الحديث عنها من خلال كتب صدرت في الغرب ومقالات صدرت في الصحف العربية والغربية. والغرب يمن على الدول الفقيرة أن هذه المساعدات، إنما هي لوجه الله أو لأهداف إنسانية، ولكنها في الحقيقة إنما هي "وسيلة من وسائل الاستعمار والهيمنة، حتى وإن بدت في ظاهرها بريئة وبعيدة عن الأغراض السيئة". ومن الأهداف التي تسعى المساعدات الأجنبية إلى تحقيقها أن تصبح البلاد التي تتلقى المساعدات، سوقاً لمنتوجات الدول المانحة، وبخاصة القمح، فبعض البلاد رغم رقعتها الزراعية الكبيرة لكنها تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية في القمح الذي لا تعطي منه أمريكا إلاّ بقدر.

ولمّا كانت (**مصر**) من الدول التي تتلقى المساعدات الأجنبية، فكان لا بد لها من تقديم المقابل، فكانت كما تقول التقارير الأمريكية "**قدمت مصر دعماً ضرورياً للوجود العسكري الأمريكي في الشرق الأوسط**"، هذا بالإضافة إلى المردود الأكبر من هذه المساعدات يعود إلى الدول المانحة من خلال ما ينفق فيها على الأجهزة والموظفين، ويختم طاش بقوله: "فهل رأيتم أبشع من هذا الاستغلال باسم الإنسانية، وهل رأيتم كيف يخدعوننا بشعارات الكرم والأريحية، التي تخفي وراءها نوازع الطمع والأنانية".

رابعاً: الديون الأجنبية وهروب الأموال العربية إلى البلاد الغربية.

قدمت تقارير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية للأعوام الماضية صورة كئيبة عن أوضاع العالم العربي، من ناحية نسبة البطالة والفقر والجوع والمرض، ونسبة الأمية والإنتاج العلمي وما ينفق على البحث العلمي، كل هذا والعالم العربي بخاصة والعالم الإسلامي بعامة لا تنقصه الموارد والأموال. **فالعالم الإسلامي** "غني بمساحته وسكانه وموارده، فمساحته تصل إلى **ثلاثين بالمائة من مساحة الكرة الأرضية، ويبلغ سكانه أكثر من مليار وربع المليار، وينتج العالم الإسلامي كمية هائلة من البترول**، فأين

تذهب هذه الثروات والأموال؟. إن الإحصائيات كثيرة ومخيفة حول الأموال العربية في الخارج ومن آخر التقارير عن هذه الأموال أن **الأرصدة المالية العربية في المؤسسات البنكية خارج العالم العربي، تقدر ب1300 مليار دولار، وأنّ السعوديين يملكون أكثر من نصف القيمة المذكورة في حين أن بين 55% و 60% من الأرصدة في الخارج، تصب في حسابات بنكية أمريكية.** كما أن العالم الإسلامي، يعاني من **الديون الخارجية**، وقد بلغت هذه الديون **325 مليارا في عام 2000م.** ولم يصاحب هذا الارتفاع زيادة مماثلة في الناتج المحلي الإجمالي. في بداية الفترة كانت الديون الخارجية تشكل 12% من الناتج المحلي الإجمالي العربي، فأصبحت في نهايتها 46% منه. **وتشكل خدمة هذه الديون عبئاً ثقيلاً على مالية الدولة**، وتؤثر تأثيراً سلبياً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

المحور الثالث: الغرب مصدر الخوف، ثقافياً

ولئن كان خطر الغرب واضحاً في المجالات السياسية والاقتصادية فإنه أهم وأخطر في الجوانب الفكرية والثقافية، فقد كتب الأستاذ بكر بصفر حينما كان الرئيس الأمريكي جورج بوش يبشر بالنظام العالمي الجديد قائلاً: "لا أدري أين يجد الحالمون بالنظام العالمي الجديد له أثراً وهم يشاهدون تفاقم هيمنة الغرب على العالم بأقماره الصناعية وبوكالات أنبائه وإذاعاته وبقية وسائل إعلامه التي يذيب بواسطتها ثقافات الشعوب ويهيّؤها للاندماج في المركزية الثقافية الغربية"، ويقدم الأستاذ بصفر إحصائية لهذه السيطرة، فيذكر أن **أربع وكالات أنباء غربية، تسيطر على 80% من جميع الأخبار**، التي تبثها وسائل الإعلام في العالم، ويسيطر الغرب على المواد الإعلامية الترفيهية والثقافية، كما الأفلام والمسلسلات، فشركة(CBS) التلفزيونية الأمريكية توزع برامجها في **100 دولة**، بينما تعرض البرامج والأفلام التي تنتجها شركة ABC في **60%** من تلفزيونات العالم". وقد اتحدت شركة سي إن إنCNN مع شركة التايمز لتصبح بحق إمبراطورية إخبارية. أما في المجال الإذاعي، فتتحكم الدول الغربية في **90%** من الموجات الإذاعية.

كتبت مجلة الشرق الأوسط عن **(الإنتاج السينمائي المشترك)** الذي تقوم فيه مؤسسات غربية وبخاصة الفرنسية بدفع مبالغ لإنتاج أفلام بين بلدين وقد ظهرت

مجموعة من الأفلام في (مصر وتونس والجزائر والمغرب ولبنان) بتمويل فرنسي. وجاء في المقال -وهو غني عن التعليق- ما يأتي: "ووجه [الإنتاج المشترك] بهجوم شديد وصل في بعض الأحيان إلى اتهام المخرج بالعمالة والخيانة على المستوى الثقافي والخضوع للأفكار المغرضة التي يفرضها الطرف الفرنسي (القوي) على الطرف العربي الضعيف والمضطر لقبول شروط الممول.." وقد ذكر المقال مثال فيلم **(وداعاً بونابرت)** الذي كان النقد الموجه إليه أنه "تحريف للتاريخ الحقيقي لحملة نابليون والمقاومة التي قابلتها من جانب المصريين لحساب إبراز الدور" الحضاري" الفرنسي المزعوم". ومن المخاطر الثقافية، **قيام الغرب بدعم بعض المراكز الثقافية والمعاهد الأجنبية، ومن ذلك، مركز ابن خلدون الإنمائي** – الذي كتب عنه الدكتور محمد عبد العليم مرسي قائلاً: "وهناك صنف من الباحثين العرب يضعون أنفسهم في خدمة هذه المراكز، ويؤدون لها دور حصان طروادة، عن جهل وسذاجة حيناً، وعن قصد وسوء نية، بل عمالة مكشوفة أحياناً أخرى..".

المعاهد والجامعات الأجنبية والمراكز الثقافية

سعى الغرب منذ عهد الاستعمار أن ينشر ثقافته ومبادئه وعقائده، ومن هذه الوسائل تأسيس المدارس والمعاهد الثانوية والجامعات، وكذلك إنشاء المراكز الثقافية، التي تقوم أيضاً بتقديم دورات في تعليم لغة البلد الذي تتبعه. ومن أقدم الجامعات في البلاد العربية، **الجامعة الأمريكية**، ولكن ظهر في السنوات الأخيرة تنافس بين الدول الأوروبية، فقام **الألمان** بتأسيس جامعة في مصر، ويسعى **الفرنسيون** إلى تأسيس جامعة كذلك. وقد كتب فؤاد مطر عن إنشاء الجامعة الفرنسية بأنها بدعم وتأييد من الرئيس الفرنسي الحالي جاك شيراك، وإن ظهر أنها مشروع تجاري يقوم به بعض الشخصيات التي وصلت إلى مراكز القيادة والتأثير في المجتمع المصري، بهدف توفير فرصة الدراسة للطلاب الذين تخرجوا في المدارس الفرنسية، ولا يستطيع بعضهم السفر إلى فرنسا أو الدول التي تدرّس بالفرنسية. ولكن الدعم الفرنسي لهذه الجامعة واضح من خلال تكفل فرنسا بتعيين عدد من الأساتذة ودفع مرتباتهم. و**الجامعة الأجنبية**، ليست مجرد مقررات وكتب، ولكنها نقل ثقافة بلد إلى آخر فما بالك إذا كانت الثقافة ذات المكانة الأعلى والمتفوق. إن الخطورة كبيرة أن يتكون جيل مستلب فاقد لهويته وانتمائه لأمته وعقيدته.

أما المراكز الثقافية وما تروجه من ثقافة البلد الذي تنتمي إليه، فهي أيضاً وسيلة من وسائل نشر الثقافة والفكر الغربيين، وقد علّق الكاتب المغربي **عبد الكريم برشيد** على هذا الموضوع حيث قال: "إن طرح هذه القضية بات ضرورياً خصوصاً في هذا الظرف التاريخي المتأزم، لأن كل ما نعيشه ونشاهده اليوم ليس هو كل الحقيقة، فهناك مخططات يراد تطبيقها، وواقع يراد فرضه وتأصيله وتجذيره، وهناك ثقافات وطنية وقومية يراد طمسها وقمعها وربطها إلى حدودها الفلكلورية، وهناك لغات يراد لها أن تظل في دائرة اللغات الميتة ...المراكز الثقافية الأجنبية المبثوثة في هذه الأيام في أرجاء الوطن العربي تؤدي دوراً ظاهره الرحمة، وباطنه العذاب...".

هجرة العقول أو الأدمغة

ألا نخاف من الغرب الذي يستولي على أفضل العقول والأدمغة العربية المسلمة؟ إن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية في الوطن العربي كانت مجتمعة أو متفرقة وراء وجود مناخ خانق لا يساعد على نمو الإبداع في الوطن العربي،

وأشارت الدراسة إلى أن العقل العربي ينشأ في الوطن العربي ثم يهاجر إلى أوروبا لاستكمال النمو الإبداع ثم يدخل العقل في مرحلة الإنتاج في ظروف لا يمكن توفرها في البلاد العربية. إن الضياع الحقيقي للثروة هو غياب العقل عن الإبداع في موطنه وتلبسه هوية أخرى فنحن نقدم دعماً لا محدوداً لدول وتحالفات وننعم نحن بالشقاء الأبدي.

مؤتمرات الأمم المتحدة ودعم الانحرافات الأخلاقية

لقد واجه الغرب موجة كبيرة من الانحلال الأخلاقي، تمثلت في انتشار موجة الهيربيز والإيدز وغيرها من الأمراض الجنسية، كما أن مؤسسة الأسرة واجهت ما يشبه الانهيار، حيث انتشر ما سمي" المساكنة" وتقلص عدد المواليد، كما انتشر لديهم الشذوذ الجنسي الذي يطلقون عليه تلطفاً(المثليّة)، وأصبح هؤلاء ينادون بحقوق تماثل حقوق الزواج الطبيعي وخضعت برلمانات العديد من الدول الأوروبية وبعض الولايات الأمريكية فجعلت الارتباط بين الشاذين قانونياً. ولعل الأمم المتحدة بمؤسساتها المختلفة التي يسيطر عليها الغرب رأت أن العالم الإسلامي مازال يعيش خارج ما يسمى الثورة الجنسية فسعت من خلال مؤتمراتها المختلفة إلى تكريس نشر الرذيلة والفساد. وكان من

أول هذه المؤتمرات مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية عام 1995م، ثم جاء بعده مؤتمر اسطنبول وما نادى به. ومن المؤتمرات التي تسعى إلى إشاعة الفاحشة والفساد ما يسمى مؤتمر الشباب الذي عقد في مصر وشاركت فيه عدد من المنظمات الأهلية 6فبراير 1999م حضره 300 شاب يمثلون 120منظمة شبابية من أنحاء العالم وجاء في توصياته: إيقاف آفات التفرقة العنصرية ومرض الخوف من الشباب، والمطالبة بتعميم التعليم الجنسي بصفة إجبارية وهذا يتضمن المتعة الجنسية والثقة والحرية للتعبير الجنسي والسلوك الجنسي غير النمطي (المقصود به الشذوذ الجنسي واعتباره سلوكاً طبيعياً مختلفاً عن السلوك "النمطي" الذي عرفته البشرية ويتعين على المجتمع القبول به.

التنصير والجامعات الأجنبية وإفساد العقائد والأخلاق:

قيام بعض المنظمات التنصيرية في **الصومال** بتأسيس شركات صغيرة تعمل ليل نهار لترجمة الأفلام الخليعة لعرضها في دور السينما المحلية، وهكذا نرى أن المنظمات التنصيرية، قد كشفت بممارساتها اللاأخلاقية واللاإنسانية تلك عن الهدف الحقيقي لحملاتها المركزة في بلاد المسلمين والمتمثل، ليس بنقل المسلمين من دين إلى دين، إنما الهدف قتل المسلمين عن طريق تسميمهم بالأدوية الفاسدة وإفسادهم أخلاقياً بواسطة ترويج أفلام الدعارة.

الخاتمة

صحيح أن البحث قد انطلق من التساؤل عن مصدر الخوف: الغرب أو الإسلام، وسعى إلى الإجابة عن هذا السؤال، ولكن حقائق التاريخ والواقع أكدت على أن **الغرب هو مصدر الخوف**، ليس في الجوانب الثلاثة، التي كانت موضع البحث، ولكن هناك جوانب أخرى تستحق البحث والدراسة. أسباب الخوف من الغرب كثيرة جداً أكثر مما هي أن يخاف الغرب من الإسلام والمسلمين، حتى إن البعض يخشى أن يؤدي الخوف الشديد من الغرب إلى ظهور ما أسماه "السخط المعقلن" الذي سيتحول إلى عمل حقيقي لمواجهة هذا الخوف فمن الصعب على أمة أن تعيش في الخوف إلى الأبد.

إن الغرب إن لم يفق لتلاشي الأسباب التي تؤدي إلى خوف العالم العربي الإسلامي منه وبقية العالم، ويعتذر عمّا تعرض له العالم الإسلامي من مآسي على يد الغرب

ومازال، فإن هناك من سيحرك في العالم الإسلامي الصور الحقيقية إلى أن تاريخ العلاقة مع العالم الغربي، إنما هو" تاريخ من الغزو والقهر والظلم من جانب قوى توسعيه، وهم يرددون الشعائر المعادية نفسها لكن بشكل معكوس مثل: المسيحية المقاتلة واليهودية المغتصبة، وهي الأسباب الجذرية وراء فشل المجتمعات المسلمة في بناء مؤسساتها وعدم استقرارها كما تبينها: **الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش** في اسبانيا، **والاستعمار** الأوربي بعد انهيار الامبراطوريه العثمانية، **وتأسيس دولة إسرائيل** على ارض فلسطين، **واحتلال أراض في مصر والأردن وسوريا ولبنان**، وأخيرا **احتلال أفغانستان والعراق، وتهديد دول إسلاميه أخرى مثل إيران.**

وخوف العالم الإسلامي من الغرب، ليس مصدره القوة العسكرية الهائلة التي يملكها الغرب، وتتفنن وسائل الإعلام العربية الرسمية وشبه الرسمية والتجارية في عرضها بأسلوب ينطلق من الحرب النفسية ضد الإسلام والمسلمين، ولكن من الوهن الذي تعيشه معظم الشعوب الإسلامية، وكأنه قد انطبق عليها (حديث المصطفى): يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كتداعي الأكلة إلى قصعتها، قيل أو من قلة نحن يومئذ، قال لا: بل أنتم كثير، ولكن غثاء، كغثاء السيل، وقد أصابكم الوهن، قيل وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهة الموت). فمن لنا **بقائد** يقودنا في غزوة كغزوة تبوك، لنتخلص من الوهن ومن الهيبة من الغرب المحتل لأراضينا والناهب لخيراتنا، وأن يعيد للأمة الإسلامية ثقتها، وأن نؤكد للعالم أن مدافع نابليون، لا يمكن أن تهزم إرادة هذه الأمة، إن صدقت التوكل على الحي الذي لا يموت.

المراجع العربية

- أمين، مصطفى، فكرة-(زاوية يومية) صحيفة الأخبار ،العدد (13479)، 21صفر 1416هـ، 19 يوليو1995 م.
- أمين، مصطفى، فكرة (زاوية يومية)، في صحيفة الشرق الأوسط العدد (4241)، في 9يوليو 1990م.
- الحميد، عبد الواحد." روسيا... ذلك الوجه القبيح" في صحيفة عكاظ، العدد (10358) في 15 رجب 1415هـ(17 ديسمبر 1994م)
- الحياة في 26رجب1417 هـ
- خروب ،تيسير في الحوار المتمدن – العدد، 20051159 /6/4- م

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=34944

- رسول، محمد رسول، الغرب والإسلام: استدراج التعالي الغربي (عمّان: دار أسامة النشر، 2000 م).
- سويد، ياسين. مؤامرة الغرب على العرب: محطات في مراحل المؤامرة ومقاومتها).بيروت: المركز العربي للأبحاث والتوثيق، 1992م)، ص21 وما بعدها
- الشايجي، عبد الرزاق، الوطن (الكويت) العدد 8248 في 14 شوال 1419هـ/ 31 يناير 1999م
- الشرق الأوسط24 ،شوال 1419هـ
- صلاح الدين، محمد، "مكفآت صنّاع الموت"، صحيفة المدينة المنورة عدد (13100) في 14 ذي القعدة 1419هـ 2 مارس 1999م.
- طاش، عبد القادر" المساعدات الأجنبية"، في صحيفة المدينة المنورة1995/9/10 ،م.
- فان كريفيلد، مارتن" الحرب على الإرهاب: الانتصار له شروطه والهزيمة ممكنــة" فــي الــشرق الأوسط ،ع 7212في 5 جمادى الأولى 1419هـ (27 أغسطس 1998م).
- القشطيني، خالد،-الشرق الأوسط، 1997/9/7م)
- مجلة المجتمع، (الكويت) 1995/7/18م.
- المدينة المنورة22 شعبان 1419هـ.
- المسلمون 9ذو الحجة1414 هـ)
- المسلمون4 ،شوال 1411 هـ
- المسلمون، 4شوال1411 هـ.
- "من يدفع لمن في الإنتاج المشترك"، مجلة الشرق الأوسط (الأسبوعية) 27مايو2- يونيو 1992م
- المهنّا، عبد العزيز، صحيفة الجزيرة العدد 9642 في 5 ذي القعدة 1419هـ (21فبراير1999 م)
- عبد الله فهد النفيسي. هل يشكل الإسلام خطراً على الغرب؟ (بيروت: المؤسسة العربيــة للدراســات والنشر،2003 م)

المراجع الأجنبية

- Ahmad Bin Yousef and Ahmad Abuljobain. The Politics of Islamic Resurgence: Through Western Eyes (Springfield: Indiana(USA) 1992)
- James E. Akins. "Now that our Troops Are in the Oil fields, Will we Let Go?". In Los Angeles Times. September 12, 1990.

العرب والخوف من العولمة

نحو سوسيولوجيا جديدة للمجتمع المذعور

سالم ساري

جامعة فيلادلفيا

"تعيد العولمة هيكلة الطرائق التي نحيا بها، وبصورة بالغة التأثير، ويقود الغرب العولمة، التي تحمل بصمات تعكس بوضوح القوة الإقتصادية والسياسية الأمريكية، كما أنها ذات آثار غير متكافئة، الى حدّ بعيد. على أن العولمة ليست مجرد هيمنة الغرب على بقية العالم.إنها تـؤثّر في الولايات المتحدة، كما تؤثّرفي البلدان الأخرى" (جدنز، عالم منفلت...،2000:14)

مقدمة: مختبر العولمة

إبتداء من القرن الخامس عشر تقريبا، بادر الغرب بصناعة ثورات عالمية تغييرية هائلة، غيّرت وجه أوروبا والعالم في شتّى أوجه الحياة– الدينية العلمية،الإنسانية الإجتماعية، والتقنية الإتصالية. فكانت، في حينها، مصدر نعمة وخير وتقدّم لأهلها، وموضع نقمة وخوف وقلق لمجتمعات غير غربية مختلفة، خاصة تلك المجتمعات "المتخلفة"، المتلقية لتأثيراتها بشكّ وقدرية وسلبية، لعدم قدرتها أن تفعل حيالها شيئا.

ولكن عولمة القرن الحادي والعشرين، بحجمها وتأثيراتها وامتداداتها،ليست مجرد ثورة، كبرى أو صغرى، شهدها العالم، فتغيّربها، بشكل أو بآخر. إنما العولمة قوة جديدة مذهلة للعالم الواحد في التحرك نحو ذاته الواحدة، باختزال هائل للمكان والزمان،واتصال دائم بين الدول والمجتمعات، وتفاعل متزايد بين الثقافات والحضارات،وتشكيل مستمر للوعي والهويّات. فالعالم يمضي في حركته اليوم، بجرأة وتصميم،على إزالة جميع الحواجز والموانع والمعوقات ، من كل نوع، أمام الحريات والتفضيلات والخيارات،من كل نوع أيضاً: حرية تبادلات السلع والإنتاجات، الخدمات والمعلومات،المال والأعمال،السياسات والتشريعات، اللغات والثقافات، وحتى تبادل الحلول والإجراءات للمشكلات والتحدّيات. وهذه جميعاً والكثير غيرها، تضيق اليوم، بازدياد، بمحلّياتها الضَيقة، وتجتاز حدودها المتصلبة، وتتمرد على قيودها المترسّبة. والعولمة بهذا والكثير غيره، تعيد إنتاج الخوف القديم المألوف للدول والمجتمعات والثقافات.

فلا تستطيع أية دولة أو مجتمع أو ثقافة، أن تدّعي أنها مازالت ذاك الشيء الذي كانته يوماً. أو أن تقرر، بدرجة من التأكد،أنها مع العولمة تماماً. أو أن تقوى على الإعلان، بدرجة من الصراحة، أنها على قطيعة مع العولمة بالفعل. كما أنها لاترغب في المفاخرة، بدرجة من الصدقية، أنها مستعصية على العولمة! فهل العولمة قوة شمولية طاغية في العالم الجديد؟. هل هي حركة حتمية لا مردّ لها للعالم الجديد؟. هل هي قدر المجتمعات اليوم وغدا؟؟. من الأفضل للباحثين، إذن، النظر إلى العولمة باعتبارها واقعا حاسما، لملاحظة و تسجيل الوقائع والتغيّرات في كل الدول والمجتمعات والثقافات، واعتبارها مرصدا هائلا لرصد التنوعات والتعقيدات في الصور والتصورات والإدراكات لحقيقة ما يجري. والتعامل معها باعتبارها مخبرا عالميا ضخما لاكتشاف القدرات والإمكانيات وتقييم السياسات والاقتصاديات، وتقدير المصالح والاهتمامات، ومراجعة المفاهيم والممارسات جميعا. ولتفحّص العرب في هذا المخبر العولمي الهائل، لابد أن تثور أسئلة:

- ما الذي يخيف العرب من العولمة؟. (ضغوطات وتهديدات العولمة)
- كيف ينفذ خوف العولمة الى العرب؟. (آليات وتأثيرات العولمة)
-ممَّ يخاف العرب، هل يخافون من العولمة..أم عليها؟؟. (العرب بالعولمة... وبدونها)

وفي كل هذا وذاك:

- هل للخوف العربي من العولمة ما يبرره موضوعيا؟. (الخوف الفعلي والمتخيل)
- هل يمكن للباحثين في علم الاجتماع اليوم، دراسة مجتمعاتهم العربية الخائفة المذعورة، بمفاهيمهم النظرية ومناهجهم البحثية التقليدية القديمة؟

أولاً: مواضع الخوف العربي المعوّلم

ليست العولمة مجرد فكرة مجردة عابرة، وانما هي ممارسة ميدانية يومية أيضاً. **وليست العولمة، ببساطة، ظاهرة عالمية تلقائية بريئة، وإنما هي مشروع غربي بأهداف واضحة ومستترة.** كما أن العولمة ليست مجرد قوة غربية محدودة الحضور في مجتمعات العالم، أو النفاذ اليها، وإنما هي **قوة غربية بآليات أمريكية**، واسعة التأثير والإمتداد عبر العالم. ولأن العولمة ظاهرة/ قوة كليّة قاهرة، فإن **الخوف (العالمي)** منها، خوف كليّ محيط بشتى أوجه الحياة الإقتصادية السياسية، الثقافية الأجتماعية، والإعلامية الإتصالية. ولكن المخاوف العربية، إزاء العولمة، لاتتحرك بدرجات متساوية. فرغم أن

الهدف/ الشعار المعلن للعولمة: "الاقتصاد أولا.. والثقافة أخيرا"، فإن **وصول العولمة إلى الثقافة، فعليا أو متخيلا، هو الذي يخيف العرب أولا وأخيرا**. وما بين الثقافة والاقتصاد، تقع مخاوف عربية أخرى، متفاوتة الحدّة والتأثير.

1. الخوف على الثقافة

هذا خوف تاريخي قديم متجدد. يأتي دائماً على قمة المخاوف العربية الإسلامية في أية مواجهة، فعلية أومحتملة، بين العرب والغرب. وهوأكثر أنواع الخوف ظهوراً على السطح،في أية فترة زمنية. وهناك، عند العرب، خوف وجودي، دائم التعبير عن نفسه.لا يظهر صريحا ومباشرا في أوقات الأزمات والإضطرابات والفجائيات فحسب، وإنما في فترات الاستقرار والتوازن والاستمرار أيضا. وليس هذا الخوف، في جوهره، إلاّ خوف على الدين والقيم والمعتقدات، في أي اتصال أو تفاعل مع الآخر(الضدّ الغربي المواجه تاريخيا للذات العربية). وقد اعتاد العرب، التعبير عن خوفهم الثقافي المزمن بأشكال شتّى، تأخذ صورة قوالب جامدة، و**دلالات مبهمة**، تتجسّد،عادة، في ثلاثة أنماط متساندة:

- خوف من " **العلمانية**": باعتبارها فصلاً للديني عن الدنيوي.
- خوف على " **الهوية**":باعتبارها وجوداً، وانتماء للدين والقومية.
- خوف على "**الخصوصية**": باعتبارها ذاتية نوعية خاصّة.

و تعكس هذه المخاوف إحساس العرب الدائم بالمرارة من استمرار "تخلّفهم" وتراجعهم، أمام تفوّق الغرب و ضخامة إنجازاته الحضارية، وجاذبية امتداداته الثقافية.

ويظهر عمق هذه المخاوف في شدّة التعبيرات الإيدلوجية التي تحملها ردود أفعال العرب الانفعالية، ومواقفهم الدفاعية عن عالمية حضارتهم، وإنسانية ثقافتهم.

فما كانت تقوم به الثقافة الغربية، ليس إلا " استعماراً" و"هيمنة" و"إخضاعاً". وما تقوم به اليوم ماهو إلا " غزو" و"اجتياح" و"تدمير". وما تسعى إليه في ظل العولمة ليس إلا "مسخ" العقيدة، و"تشويه" القيم، و"تغريب"المجتمع. ولا يجد الخائفون من المربين والمصلحين وحراس الأخلاق الاجتماعية العرب، قوة وشجاعة وجرأة أكثر من تلك التي تمنحها إياهم المهمة المقدسة في الدفاع عن مكوّنات ثقافتهم العربية. ولا يجدون طرقا أفضل من ردّ الوصمة بوصمات أشدّ وأبعد. وذلك بالذهاب الى أن ثقافتهم/ حضارتهم العربية الإسلامية (الدينية) **مكتفية ذاتيا، كاملة أساسا بعالميتها، سامية أصلا بإنسانيتها**، وليس بإضافات أو مضامين وأهداف العولمة الدنيوية.

فلا يتردد أحد هؤلاء المدافعين المتحمسين بالقول:

"إن الاعتقاد بأن ثقافة الغرب هي ثقافة العالم، من شأنه تقويض أي محاولة لعولمة الثقافة. فالثقافة الأفضل والأكمل والأرقى ستكون في النهاية، الثقافة الوطنية، وليست الثقافة الوافدة، الخارجية الغازية المستوردة"!. "إن حضارة الغرب ناقصة غير متكاملة، ولا تفي بكل أغراض الحياة الإنسانية. ومن شأنها أن توجد إنسانا مشوها ومعوقا.."!! (طاحون،2003:78)

ويذهب مدافع آخر:

"ومما يؤسف له، فقد تساقطت كل القيم والرؤى والآمال والأحلام، وتهاوت نظم، وألغيت نظريات، وأبطلت أنساق،. ولم تعد الإنسانية تستند الى مرجعية تحافظ على توازنها الفكري والنفسي والمعتقدي. وراحت سادرة في إفراغ كامل محتوى حضارتها لتعيش تغريباً وعبثاً مدمرين... " لقد غزا الفكر الغربي المنفلت كل المحصّنات القيمية لتراث وثقافات وتقاليد ومعتقدات الشعوب."(الحافظ:2005:62) ويعترف منظّرو العولمة بالضغوط الهائلة التي تمارس على الكيانات الاجتماعية الثقافية، كي تضع نفسها داخل التاريخ العالمي والمستقبل الكوني. ولكنهم يرون أن العولمة، في حدّ ذاتها، تنطوي كذلك على نشر آمال إعلانات تلك الهوية. (روبرتسون، 1998:62)

2. الخوف على المجتمع

خوف العرب على مجتمعهم العربي الإسلامي من تهديدات العولمة الاجتماعية خوف شامل، على الوحدات والنظم والمؤسسات الاجتماعية، وعلى القيم والعلاقات والتفاعلات، من الانحلال والتفكك والفساد:

- **خوف على مؤسسة الزواج والأسرة: العائلة والمرأة والشباب.**
- **خوف على روابط الوحدات الاجتماعية الكبرى: القبيلة والعشيرة والجيرة.**
- **خوف من انهيار الضوابط الاجتماعية والأخلاقية التقليدية: النزعة الجمعية، التكافل الاجتماعي، والدفء العاطفي.**

وتزداد هذه المخاوف الاجتماعية حدّة أمام شراسة هجمات العولمة في الموضات والتقليعات والصرعات، في اللباس والمأكولات والمشروبات، ونجاحها المذهل في **عولمة أسلوب الحياة الأمريكي، وتسويق القيم والخيارات والتفضيلات الأمريكية** (العملية)، ونشر ما يسمّيه **فريدمان** (2000:373) **"الفانتازيا الأمريكية حول العالم " عالم**

ديزني لاند، وكنتاكي شيكن، وماكدونالدز. **فلم يعد أفراد المجتمعات الأخرى مضطرين للذهاب الى أمريكا. وإنما أمريكا هي التي تأتي إليهم حيثما كانوا!!** وإزاء تلك الاختراقات الاجتماعية، تأخذ المخاوف الشعبية **(مسميّات دفاعية عربية)** متعددة مثل:

المحافظة على العادات والتقاليد العربية الإسلامية الأصيلة في السلوك والملبس والمأكل والمشرب (ابتداء من إلقاء التحية التقليدية بالسلام،والمشاركة في الأفراح والأتراح، مرورا بارتداء الثوب العربي والحطة والعقال، وانتهاء بأكل المنسف وشرب القهوة السادة)! كما تأخذ صورة التمسك بمجموعة من المثل والمبادئ والأخلاقيات العربية الإسلامية (العزّة والكرامة،الكرم والضيافة، الشهامة والرجولة،صون العرض والشرف، صلة الرحم وودّ ذوي القربى..الخ) كما تأخذ هذه المخاوف الاجتماعية، ذات القاعدة الشعبية العريضة، صور المقارنة الدائمة بين "مقدّسات" المجتمع العربي و"مدنّسات" العولمة،وبين "ثوابته" و"متغيرات" العولمة. ولا تعني هذه المخاوف، في مدلولاتها الحقيقية، شيئا خاصا بالمجتمع العربي، كمجتمع تقليدي متحوّل، أبعد من **خوفه من العولمة" كمشروع غربي للتنوير والحداثة"، ومحاولة غربية لاختراق المجتمع العربي تحت غطاء "التنمية والتحديث"**، أو باعتبارها، قرارا أمريكيا خالصا بفرض "الإصلاح والتغيير". وكل تلك المحاولات الإختراقية لاتصل،لعدم جدّيتها، مستوى التغييرات الجوهرية البنيوية العميقة. وإنما تأخذ فقط صورة إضافات سطحية شكلية،وتحديثات خارجية مظهرية. وإذ تحاط هذه التدخّلات التغييرية العولمية بشكوك شعبية واسعة حول أهدافها وأبعادها ونتائجها الحقيقية، فإنها تثير المخاوف الاجتماعية، إلى درجة الفزع المجتمعي العام، حول المدى الذي يمكن أن تصل إليه. ويعود هذا الفزع المجتمعي إلى إحساس المجتمع العربي، بأنه، بإمكانياته الفعلية الراهنة، لن يستطيع إدارة مجريات هذه التغييرات العبثية، أو السيطرة على تدفقاتها المجنونة، أو حتى القدرة المستقبلية المحتملة على ضبط نتائجها.

3. الخوف من القهر

تحمل العولمة السياسية للعرب مخاوف متزايدة: **-خوف من الهيمنة والتسلّط والمعايير المزدوجة، والإنحياز لأسرائيل. -خوف من التدخّل والتقسيم والتفتيت بخلق توترات إثنية، وتمردات عرقية وثقافية. -خوف من تراجع وظائف الدولة الوطنية من حامية تقليدية للقيم المجتمعية الكبرى، الى حامية جديدة للشركات والمشروعات**

والمصالح **العالمية الكبرى**. وتجد هذه المخاوف السياسية العربية مبرراتها الفعلية في ممارسات العولمة/ "الأمركة" الميدانية، بتفردها بقوة العولمة الاقتصادية السياسية والعسكرية، فلا تتردد أمريكا أن تعلن للعالم أنها تستطيع أن تفعل ما تشاء،حينما تشاء، كما تشاء، وأينما تشاء!! وما على العرب(خاصة)إلا الإذعان.

وأكثر ما يثير غضب العرب ويبعث على قهرهم، هو تفرّد أمريكا بالعولمة، واستغلال العولمة في تحالفات عالمية، **بانحياز صارخ، لصالح إسرائيل**. فبالعولمة نفسها، أكثر من أية حقبة تاريخية أخرى، تسدّ أمريكا أبواب العالم كله في وجوه العرب، وتدير ظهرها، في المؤسسات العالمية المشتركة، لقضاياهم العادلة، والعمل المنهجي على إفشالها، بتبريرات وسياسات ومسمّيات مختلفة. فبالإضافة لاحتلال العراق، والتدخّل في **سوريا ولبنان وفلسطين**، تواصل أمريكا سياساتها المؤسسية الراسخة، بكثير من الكذب والخداع والتضليل،لضمان تهميش العرب وقهرهم وإذلالهم، لدفعهم للدخول في "اللعبة السياسية الدولية"، والقبول "بسياسة الأمر الواقع". ولا تعني هذه السياسة العولمية، في مضمونها الفعلي للعرب(المسيّسين فعلا بالتجربة المباشرة والمعاناة الحثيثة)، شيئا أكثر من قبول ما ترضى به أمريكا وإسرائيل لهم!. وبشأن **قضية فلسطين**، مثلا، يجد المراقبون الدوليون، أن ما يثير حنق العرب حقا لا يبدأ من قيام إسرائيل، وحرمان الفلسطينيين من حقهم في إقامة دولتهم في أرضهم فحسب، وإنما في المراوغة والمماطلة اليوم في تنفيذ "اتفاق أوسلو" التوفيقي، الذي تأسس على رؤية إسرائيلية، ومبادرة ومباركة ومشاركة أمريكية أصلا.

فيلاحظ **فريد هاليداي** (2003:158)، مثلا، "أي شعب فقد 70% من أرض وطنه في بحر جيلين، سيكون لديه سبب للشعور بالحيف. وبموجب **اتفاق أوسلو**، يفترض بالفلسطينيين أن يعترفوا بالإسرائيليين، ويكونوا عقلانيين بما فيه الكفاية للقبول ب 30% من أرض وطنهم. وأن يعرض عليهم الآن نصف هذه ال 30% فقط، إنما هو إهانة).

ونظرا لرسوخ سياسات الكذب والخداع والمعايير المزدوجة الغربية/ الأمريكية نفسها، يبدو العرب، وكأنهم قد عزموا أمرهم، فرادى و مجتمعين، أحزابا وجماعات، على عدم المضي في أخذ المشروعات والوعود والمبادرات السياسية العالمية مأخذا جديا. فلم يظهروا إلا شكا وتجاهلا واستهتارا بِ: "**مشروع الشرق الأوسط الكبير**": بأهدافه المعلنة: إعادة بناء الشرق الأوسط، تأهيل العرب عالميا على ممارسة الحرية

والديموقراطية وحقوق الإنسان، وتحقيق التعايش والتعاون، والاعتماد المتبادل بين دول المنطقة، للوصول إلى مستويات عالية من التنمية والسلام والأمن والأمان لمجتمعاته ومجتمعات العالم الكبرى. (انظر نصّ المشروع،2004).

– كما يدرك نقّاد العولمة السياسية العرب، من المثقفين والإعلاميين والناس العاديين جميعا، شكلية المشروعات والمبادرات والإصلاحات العولمية. فلم تعد الأهداف الحقيقية الكامنة وراءها خافية على أحد.

ويؤلم المواطن العربي أن دولته تلزم نفسها بتنفيذ **رزمة من الإصلاحات والتحديثات والمشروعات السياسية، المموّلة تمويلا أجنبياً**، و المفصّلة على مقاس عربي هزيل، دون سياق عربي من الناحية الفعلية، ودون جدّية في إنجازها. فتبقى، لشكوك العرب في مصادرها وأهدافها، شكلا دون مضمون حقيقي، رغم حاجة المجتمعات العربية إليها. ومن هذه المشروعات مثلا: تحديث النظم والتشريعات السياسية والقضائية، وتحقيق المشاركة السياسية، وتمكين المرأة، والشفافية، والتعددية الحزبية والثقافية، ومكافحة الفساد..الخ. ويبدو واضحا أن المواطن العربي **لم يعد، بالعولمة السياسية، يخاف حقيقة من دولته الوطنية/ القومية، بقدر ما يخاف عليها**. وكلما ازدادت ضغوط العولمة السياسية وتصاعدت وتيرة مطالبها من دولته الوطنية، بتحديث النظم والمؤسسات والتشريعات، كلما كان العربي أكثر جرأة في ممارسة النقد لدولته. ويتركز نقد المواطن العربي العادي لدولته الحائرة/السائرة في طريق العولمة السياسية، في ثلاثة مواضيع:

- نقد لارتباطاتها العالمية.
- لوم على تحوّل وظائفها وأدوارها.
- تجاهل لوعودها التنموية السياسية.

فبمراقبة أداء دولته العربية، يلاحظ المواطن العربي أنها لا تجني شيئا من وراء تخليّها عن محيطها العربي، و ارتباطها بهذا العالم المجنون القائم. كما يلاحظ أن العولمة تجرّد دولته من قوّتها وهيبتها وسلطتها. ويراها تفقد، بسرعة مذهلة، مناعاتها الذاتية، وتتجه طواعية أو قسرا، نحو الإذعان لإملاءات السياسات العالمية الظالمة. ويؤلمه أن العولمة الاقتصادية السياسية، تحوّل دولته، بسرعة فائقة، من "إدارة اللعبة

السياسية" لصالح مواطنيها، إلى حماية "السوق الاقتصادية" لصالح أصحاب رؤوس الأموال والأعمال والاستثمار الأجنبي العالمي.

4. الخوف من الفقر:

ما تراهن عليه العولمة أن يكون مركز الجذب الأول للدول والمجتمعات نحوها، يدلل على أنه بالذات موضع خوف يومي للعرب من العولمة. ونظرا لجاذبية الاقتصاد وواقعيته، فإن الاقتصاد العالمي المتحرك، وليس العلم أو السياسة أو الاتصال مثلا، هو الذي يجعل من حركة العولمة، بمجملها، عولمة اقتصادية مؤثرة، تطال، بعمق، معيشة الناس وأرزاقهم، وتؤثّر، بصورة مباشرة، في مجريات حياتهم اليومية. ويعتقد العرب، أكثر من غيرهم، أنهم الأكثر تضررا من حركة هذا الاقتصاد المعولم. وبدلا من الاطمئنان إلى وعود العولمة الاقتصادية، تثور لدى العربي العادي مخاوف متعددة:

- **خوف من الفقر والبطالة والإستغلال.**
- **خوف من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي**
- **خوف من منظمة التجارة العالمية والأسواق المفتوحة.**
- **خوف من تدفّقات المال والأعمال والإستثمارات الأجنبية.**
- **خوف من سيطرة الشركات العالمية العملاقة عابرة القارات ومتعددة الجنسيات.**

لا يخشى العرب حركة الإقتصاد الرأسمالي. فقد كانوا دائماً رأسماليين، بمستوى أو بآخر. ولكنهم يخشون نتائج تطورها إلى الآن. ويخافون من الآثار المحتملة الى ما يمكن أن تصل إليه. والمفارقة هنا أن العولمة تسوّق وعودها الاقتصادية بالرفاه والتنمية والتقدّم بتوقّعات عالية من الصدقية، ولكن العرب العاديين، الذين يعانون وطأتها ولا يرون خيراتها، يأخذون هذه الوعود بأنها "**تسويق للوهم**"، وأنها ليست إلا "**حلما أمريكيا**" آخر معولما، لا يمكن تحقيقه عربيا.

ما يراه العرب من العولمة الاقتصادية، حقيقة، هو جملة معيشة من المظالم: "**خصخصة**" التعليم والصحة، الماء والكهرباء، المواصلات والاتصالات دون تهيئة. تنافس على الوظائف دون تأهيل. فتح الأسواق طبقاً للعرض والطلب دون إعادة هيكلة. رفع الدعم عن السلع الأساسية دون تعويض. الترحيب بالشركات الأجنبية دون التزام بتوظيف داخلي. استقبال شبكات العمل الدولية دون ضمان توسيع فرص العمل المحلية ...الخ. ولا تعني هذه المخاطر أن العرب في ما قبل العولمة كانوا أفضل حالا أو أكثر

أمنا. وإنما يعني أن "التنمية المعولمة" لم تعمل، إلى الآن، على تحسين أحوال العـــرب، وإنما هي تعمل على إضافة مصادر خارجية لخوفهم الداخلي القديم، وأبعاد عالمية جديدة لمعاناتهم الاقتصادية الاجتماعية الدائمة. فرغم ما تؤديه العولمة الاقتصادية مـــن إتقـــان "فنيّات تجميل" وجه الفقر والبطالة، هناك خوف موضوعي ملموس لدى عامة الناس في المجتمع العربي من مجموعة من الشرور والمخاطر والتهديدات القائمة مع العولمـــة أو المتفاقمة بها: تغوّل الفقر. استفحال البطالة. فقدان الأمن الوظيفي. انخفـــاض الأجـــور. تفاوت الحظوظ في فرص العمل والأجور بين القطاعات المعولمة (على العـــاملين فـــي تقانة المعلومات والاتصالات والحاسبات). إرتفاع أسعار السلع والخـــدمات. إستـــشراء ثقافة الاستهلاك. تزايد القابلية للفساد المالي والإداري (الرشوة. تبييض العملة، الإثـــراء السريع..). تنوّع القيود العالمية المفروضة (على الهجرة والاقتـــراض مـــثلا). انـــسداد القنوات الداخلية (أمام الحراك الاجتماعي والتحصيل العلمي مـــثلا). تهمـــيش وإقـــصاء اجتماعي (من المشاركة والتأثير). تمركز رأس المال واتـــساع الهـــوّة بـــين الأغنيـــاء والفقراء...الخ.

5. الخوف من الإتصال:

من شأن الفضاء المفتوح أن يبعث على الحرية والخفّة في الحركـــة والانطـــلاق، للأفراد والدول والمجتمعات. ولكن ما زال كثير من العرب يخشون الأجواء الاتـــصالية الحرة المفتوحة. وخوف العرب القديم المتجدد من الإعلام والاتصال والتفاعل المعـــولم، هو خوف رمزي من الغرب الرأسمالي الاستعماري في مواضع متعددة:

- خوف من تشويه جديد للصورة العربية الإسلامية.
- خوف من تضليل العالم وخداعه بتزييف القضايا العربية العادلة
- خوف من تسفيه القيم العربية الإسلامية الكبرى
- خوف من السيطرة على أذواق الناس، وقولبة عواطفهم، وتنميط حياتهم.

مازال العرب المسلمون يعانون من رواسب "الصور الاستشراقية" السلبية، ومزاعم "المركزية الغربية" المغلوطة، المشوهة والمعوّقة، اتصالياً، لثلاثة قوى محورية محرّكـــة لجميع أوجه الحياة في المجتمعات العربية:

– الإسلام: تشويه رسالته الإنسانية العالمية السامية، وتقديمه باعتباره "دينا عربيا دمويـــا عدائيا متعصبا: !(أنظر، مثلا، إدوارد سعيد 1991؛ سالم حميش 1 199)

- **المرأة**: تشويه إنسانيتها ومكانتها وأدوارها، والحديث عنها باعتبارها مجرد كائن محجوب مقهور ! (سعيد 1991؛ مصطفى حجازي1980)
- **العقل** : تشويه بنيته وقدراته وإسهاماته، بوصفه بالنقص الفطري، والعجز والجمود (الجابري 1989؛ عبدالله إبراهيم 1996)

ويأخذ العرب اليوم مقولات **هنتنغتون** بحتمية "**صدام الحضارات**" كنوع قديم من الخوف، ونوع جديد من التخويف ، ضمن اتجاهات وأهداف "الاستشراق الجديد" في تعزيز الصور النمطية الثابتة، وتكريس حواجز الاتصال الحضاري السويّ بين العرب والعالم. ويذهب نقّاد الاتصال الثقافي المعاصر، من الإسلاميين والقوميين والليبراليين على السواء، إلى أن الخوف من الإسلام والتخويف به لا يقتصران على **هنتغتون**، **وبرنارد لويس، وبتاي**، وإنما يتعداهم إلى كثير من الإستشرافيين والساسة والصحفيين. (أنظر، الحلقة النقاشية لمجموعة من المفكرين العرب، 2002)

فلا يأخذ العرب، بالتالي، مأخذا جديا كل ما تبشّر به العولمة الإعلامية من نشر مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان،وتعميم التعددية الثقافية والدينية واللغوية، وتنويع المصادر الإعلامية، وتعليم المشاركة في صنع الرسائل الإتصالية..الخ. فيتساءل **جلال أمين** (166:98 19)، مثلا، "ما سرّ هذا الإصرار الغريب على **الاهتمام بتعددية (صورية) في التعبير عن الرأي لا تزيد في الحقيقة عن كثرة عدد المجلات والصحف، وعدد القنوات التلفزيونية، وعدد الأحزاب المسموح بها**، بينما تردد كل هذه الصحف والقنوات والأحزاب الأفكار نفسها في الحقيقة، بما يتّفق مع استراتيجية الشركات العملاقة متعدّية الجنسيات؟". وترجع قوة الخوف العربي من الإعلام المعولم إلى قوة الإعلام نفسه، وفعالية تأثيراته في السيطرة على طرق التفكير والتعبير والسلوك. وإذا كان الجيل العربي الأكبر سنا يعتبر نفسه، بحكم الخبرة والتجربة، الأكثر تحصينا ضدّ التدفّقات والتأثيرات والتوجيهات الإعلامية الأجنبية، فانه يخشى دائما على **(جيل الشباب)** العربي الأكثر استهدافا والأقلّ مناعة، ضدّ تأثيرات الرسائل الاتصالية المعولمة، البارزة والخفيّة. وهذا النوع الرمزي، بالذات، من الخوف، هو أشد أنواع الخوف المعاصر من العولمة الممارسة، مصدرا وحجما وأبعادا، في كل بيت عربي.(أنظر، ساري،2002).

ثانيا: الخوف من العولمة والخوف عليها

ليست العولمة ظاهرة تلقائية بريئة. وليست، بالطبع، حركة أمينة مأمونة، سواء للعرب أو لغيرهم من الدول والمجتمعات والثقافات. وإذا كان بعض الخوف العربي من العولمة خوفا موضوعيا مبررا، فإن **بعضه الآخر ليس إلا خوفا رمزيا متوهما.**

وبتحليل مصادر واتجاهات هذا الخوف المركّب، نجد أن **العولمة العصرية لم تخلق للإنسان العربي خوفا عصريا جديدا، بقدر ما أعادت إنتاج خوفه العالمي القديم،** بصيغ وأشكال وأبعاد جديدة معولمة. ويمثّل التوتر والعجز والإحباط المتراكم في علاقات الصراع والتضادّ والتشارط مع الغرب التاريخي، مخزونا هائلا في الذاكرة العربية الجمعية. تسكن أنواع من الخوف في وعي كل منهما من الآخر الضدّ.

وهكذا نجد أن العولمة، كحركة جديدة للعالم (وليس للعرب فحسب)، ليس من شأنها أن تحرّك كل هذا الخوف العربي منها. فلا شيء من التوتر متأصل،حقيقة، في بنائها الداخلي حتى يمكن أن تثير كل هذا التوتر العربي تجاهها. وإنما التوتّر متأصل، بالأحرى، في البناء الداخلي للمجتمع العربي نفسه. فكل هذا الخوف والشك والتوترمن الآخر ومعه، **هو إشكالية دائمة في المجتمع العربي نفسه، وقائمة مع المجتمع العربي نفسه، وليس إشكالية للعولمة ذاتها،** أو لإحدى مراكزها العالمية

ومن المصادر العريضة القائمة للتوتر البنائي العربي، والحاملة الدائمة لشتى أشكال الثنائيات والازدواجيات والتناقضات في العلاقات والتفاعلات:

- **التوتر بين الدين والدنيا:** (الحرام والحلال في التفكير والتعبير والسلوك)
- **التوتّر بين السلفية والحداثة:** (الممنوع والمشروع في الإصلاح والتنمية والتحديث)
- **التوتر بين الدولة والمجتمع:** (القرار والخيار في المشاركة والتغيير والتأثير)
- **التوتر بين التجانس والتعدد:** (الداخل والخارج في الهويّة والولاء والانتماء)
- **التوتر بين الخصوصية والتعميم:** (الانغلاق والانفتاح في المعتقدات والعادات والتقاليد)

وترى حركة العولمة أن هذه الثنائيات التقليدية الراسخة، هي الباعثة على التوتر والخوف، والمعوّقة للحركة والتفاعل. فتتجه إليها،مباشرة،بالعزل والفصل والاختزال. فتبرهن العولمة، بالممارسة العملية، على حقائقها الجديدة: – ليست مسألة التقدّم والتفوّق والإنجاز الحضاري العالمي مسألة دينية، بل دنيوية. فلم يصل الغرب إلى ما وصل إليه

بفضل تعظيم الدين، وإنما بفضل فصل الدين عن الدولة. – من المؤكد في إنتاجات العولمة أن الدنيوي، وليس الديني،، هو البضاعة الصالحة للتصدير أو القابلة للاستيراد.

- لم تعد إشكالية الهويّة إشكالية أحادية المصدر مبنيّة على التطابق والتماثل و التجانس، وإنما هي مركّبة، تقبل التعدد والتنوّع والاختلاف.
- لم تعد دعوى الخصوصية قائمة على مبررات التحيّز والتعصّب والانغلاق، وإنما على مقتضيات التميز والتفرد والتفاعل.
- ليست المجتمعات المدنية والتنظيمات الأهلية بديلا للدولة العصرية، أو عبئا عليها. وإنما هي موازية متكاملة معها، وعونا لها. وأمام هذه الحقائق العالمية الجديدة، لا يجد الخوف العربي لنفسه إلا مصدرا عربيا داخليا. ولا يمكنه أن يجد بالعولمة إلا مبررا خارجيا. ويسجّل محللو ونقّاد هذا المصدر الداخلي للخوف، أن **الإنسان العربي اليوم، كما كان دائما، إنسان مقهور مهدور، ومستلب مغترب. وهو، بالعولمة وبدونها، خائف مذعور.** لا يتمّ الاعتراف به باعتباره قيمة أو قدرة أو وعيا. وإنما هو محلّ للتحريم والتجريم والتكفير. بل هو مباح للقتل والنفي والإبعاد، داخل الوطن وخارجه. (انظر، حجازي، 1980، 2005؛ثناء عبدالله،2005).

ثالثا: العولمة الواثقة والمجتمعات المذعورة

تمارس العولمة عملها بالدخول، كشرط مسبق، بمفاوضة معنى نوعين من المحددات المركزية:

1- **مفهوم المكان:** ليعني العالم الواحد كله، المنضغط حول ذاته الواحدة، (بامتداد افتراضي لأمكنة ممكنة).

2- **مفهوم الزمان:** ليعني زمن العولمة الذي يبدأ من القرن الحادي والعشرين (بامتداد افتراضي لأزمنة ممكنة).

وتباشر العولمة الممارسة عملها بسلسلة متماسكة من الاختراقات والتجاوزات والاختزالات في شتّى أوجه الحياة:

1- **تجاوز حدود الاقتصاد المحلي الراكد**- اقتصاد القطاع العام وتدخلات الدولة الحمائية...إلى **اقتصاد السوق الحر المخصخص، المفتوح على التجارة الحرة**، إنتاج على مستوى واسع للاستهلاك على مستوى واسع أيضا. بالمنافسة والاندماج والاعتماد المتبادل.

- **تجاوز مفهوم العمل التقليدي**: من العمل اليدوي الشاق إلى العمل الذهني الخلاّق.
- **تجاوز مفهوم الإنتاج نفسه**: من إنتاج التصنيع الثقيل، إلى إنتاج المعلومات والخدمات.

2- **تجاوز حدود سلطة الدولة الوطنية**: بتحويل تدريجي أو سريع للدولة من حامية للمصالح الوطنية/ القومية الرئيسية، وحارسة للقيم الاجتماعية الكبرى (الحرية، العدل، العدالة الاجتماعية، الكرامة /السيادة الوطنية) إلى حامية محلية للقيم العالمية والمصالح المعولمة للشركات عابرة القارات،والمشروعات العملاقة متعددة الجنسيات..

3- **تجاوزحدود الإعلام الرسمي الساكن**، ذا البعد الواحد..الى إتصال عالمي فضائي بلا حدود أو رقابة فعلية.

4- **تجاوز حدود العلم والتعليم والمعرفة التقليدية** الى تقنيات ومضامين وقدرات جديدة.(حاسوب،إنترنت، مهارات متطورة)

5-**تجاوز حدود النظام الاجتماعي القديم الساكن** إلى النظام الاجتماعي العالمي المتحرك. بتفكيك المجتمع التقليدي، بوحداته المحلية الساكنة الرافضة للتغيير(الجماعة، مؤسسة الزواج والأسرة، العائلة الممتدة والقرابة، الجيرة والحيّ، العشيرة والقبيلة) إلى مجتمع حديث بوحدات عصرية متحركة مفتوحة (الفرد المستقل، الأسرة النووية، الزمالة، الصداقة، روابط المجتمع المدني الطوعية)

- تجاوز الثوابت الى المتغيرات.
- تجاوز البنى التقليدية للعقول والنفوس، وتحويل مسارات الميول والإتجاهات.

6- **تجاوز حدود الثقافة المجتمعية المتصلّبة المنغلقة** إلى الثقافة العالمية الديناميّة المنفتحة. - تجاوز الديني إلى الدنيوي. -تجاوز المقدسات التقليدية(الدين، العادات ، التقاليد، الأعراف)..إلى المقدسات الدنيوية (العقل، الإقتصاد، الدولار، المنفعة).

رابعاً: حقائق العولمة والسوسيولوجيا الجديدة

تجاوزت العولمة عمليا كثيرا من المفاهيم النظرية التقليدية لباحثي العلوم الإنسانية والاجتماعية- حتى أكثرها رسوخا وثباتا وإصرارا. تقتضي وقائع العولمة الممارسة، أن يعيد السوسيولوجيون صياغة مفاهيمهم ونظرياتهم ومناهجهم التقليدية، والدخول فورا في مشروعات جديدة مطابقة من التحليل والتفسير والاستنتاج:

1- مشروع فهم حركة الاقتصاد الحديث، بأنه **تدفقات حرّة عبر المجتمعات**، وليس داخلها.

2- مشروع فهم **محدودية الدولة الوطنية والقومية**، ونزع قدرتها على العمل -فهم حدود قوّتها الجديدة بمدى قدرتها على ضبط عمليات تصدير واستيراد المشكلات الإجتماعية. واستقطاب المشروعات الإستثمارية ' و حماية مصالح رأس المال للأشخاص و الشركات العالمية.

3- مشروع فهم الإتصال ومؤسساته وتأثيراته كإمبراطوريات ضخمة ممتدة في فضاءات بلا حدود. وفهم طرق نشر التغيير والتجديد والخيال على مستوى كوني

4- مشروع فهم نشاطات العلم والتقنية والمعلومات بالإقبال على منجزاتها المتسارعة بكثير من المخاطرة وعدم السيطرة وانعدام اليقينيات. (جدنز:2000)

5- مشروع فهم الحياة الإجتماعية الجديدة دون "مجتمع"(روبرتسون1998:) فهم فاعلية مفهوم **"المجتمع المدني"العصري**، بدلاً من مفهوم "المجتمع" التقليدي الساكن. وفهم التغيرات الصغرى والكبرى دون "ثنائيات"من أي نوع-"داخل" /" خارج"،"محلي"/ "عالمي"، "خاص" /"عام" ..الخ.. وفهم حركة العالم دون "صراعات" مع العولمة، لم تعد هناك حاجة فعلية لمفهوم " البناء الإجتماعي" أو مفهوم "السياقات الإجتماعية" بكل القداسة التي تربطهما في ذهن باحثي العلوم الإنسانية والإجتماعية-من علماء الأنثروبولوجيا، الاجتماع، والإقتصاد والسياسة. ليست هناك "سياقات محلية" متعددة اليوم، وإنما سياق عالمي واحد محيط التأثير.

6- مشروع فهم الثقافة بدون إطار الهوية والخصوصية والتعددية والسكون:

- فهم "الهوية الثقافية " باعتبارها قائمة على التميّز وليس التحيّز.
- فهم "الذات " دون مقابلتها "بالآخر
- فهم سير الإنتاج الثقافي من **الاختلاف والتغاير والتنافر** في مجتمعات العالم، إلى **التجانس والتماثل والتقاطع** عبر مجتمعات العالم.
- فهم حركة الثقافة، بوتيرة أسرع، دون "إيدولوجيات".

وتتطلب هذه المشاريع البحثية الجديدة لفهم العولمة الواحدة، عولمة العلوم الاجتماعية، بالضرورة، لتكون مؤهلة لدراستها. (فمن التعسف منطقيا فهم العام بالخاص، أو الكوني بالمحلي أو الكلي بالجزئي..)، وتتطلب عولمة علم الاجتماع،

لتأهيله، توحيد نظريته ومنهج دراسته. ومن المهمّات العاجلة في هذا الاتجاه العولمي التأهيلي:

أولا- مهمة منهجية: البدء بدراسة العولمة كما هي، كما تمارس نفسها في واقع الأمر، بموضوعية وبلا تحيزات ومواقف إيديولوجية. (مع أو ضدّ. تضخيم / تبخيس الذات أو الآخر. تعظيم / تحجيم الإيجابيات أو السلبيات. وأقصر الطرق لهذه المهمة، هي الانطلاق من ممارسات العولمة نفسها للوقوف على القوى والأسباب (الموضوعية) ، واكتشاف الآليات والديناميات (الذاتية)، دون فصل تعسفي بين الموضوعي والذاتي، المادي والمثالي، وإنما التعامل معهما باعتبارهما في تفاعل دائم وتأثير متبادل.

ثانيا- مهمة نظرية: البدء بنزع البعد المكاني عن النظرية الاجتماعية .

فإذا كان باحثو العلوم الاجتماعية والإنسانية، قد مارسوا عملهم طويلا بنزع البعد الزماني عن مناهجهم العلمية، فقد حان الوقت لنزع **البعد المكاني** عن نظرياتهم الاجتماعية أيضا لتخليصها من طابعها الإيدلوجي، وإكسابها صفتها العلمية الفعلية.

ففي عالم واحد ملتق مع ذاته الواحدة، لم يعد ممكنا دراسته بتجزيئه، كما اعتاد الباحثون طويلا، إلى "شرق" و"غرب" لا يلتقيان. أو شطره إلى "شمال" و "جنوب" لا يتساويان. أو تصنيفه إلى "عالم أول" وعوالم ثانية وثالثة.. متباعدة. أو تقسيمه إلى معسكرات وتجمعات واستقطابات "رأسمالية" و"اشتراكية". كما لم يعد ممكنا دراسته، بتجزيء النظرية الاجتماعية نفسها إلى نظرية "للمجتمعات الغربية" الصناعية المنمّاة المتقدمة، ونظرية أخرى "للمجتمعات غير الغربية" الزراعية المتخلفة أو السائرة في طريق النمو. كما لا يمكن للباحثين العرب، بالطبع، بإصرارهم الدائم على "**الخصوصية**"، المضيّ ب "**أسلمة**" نظرياتهم الاجتماعية أو محاولة "**تعريبها**"- إلا إذا كانوا مصرّين على أن لهم عالمهم الخاص وعلومهم الخاصة، أو قد قرروا الانسحاب من العالم. وفي عالم تحوّله العولمة بمضامين وأشكال ومسارات جديدة، كما يرى **هاردت ونيغري**، صاحبا المؤلف الشهير "إمبراطورية العولمة الجديدة"، **لم يعد المكان إلا مكانا افتراضيا أو انعداما للمكان**. و حقبة الصراعات وصلت إلى نهايتها. وكذلك "الثنائيات التي كانت تحدد الصراع الحديث قد طمست. والآخر المؤهل لتحديد الذات صاحبة السيادة قد تشظّى، وأصبح غير قابل للتمييز. ولم يعد أي خارج يمكنه أن يحيط

بمكان السيادة". إنه عالم جديد يتخلّق اليوم. تبلوره العولمة كنظام اجتماعي ثقافي جديد. وتظهره بوضوح ككيان جديد من البنى والمكوّنات الجديدة، وتصوغه بإحكام كنسق من الوحدات والضوابط، وتقدّمه بإصرار في صور من الهيبة والإلزام.

ولدراسة هذا النظام الكوني الاجتماعي الثقافي الواحد المتماسك، كما يقترح **روبرتسون** (1998:141)، يجب تحاشي كل أشكال "**النزعة الاختزالية**" (العملية والنفعية والمادية). والبحث بدلا منها،عن إطار تحليلي واحد ومترابط. لا يتحرك هذا العالم الجديد إلا بديناميكيته العالمية الذاتية. ولا يتكلم إلا بمنطقه العالمي الخاصّ. ولا يسير إلا نحو أهدافه العالمية المشتركة. ولا يمكن تفسيره إلا بنظريته العلمية العالمية الواحدة. ولا تقوى النظريات الكلاسيكية على تفسير الحقائق الجديدة لهذا العالم الجديد:

- فتعجز النظرية/ **المنهج الوضعي** بنظرتها الآلية إلى البشر والعلاقات الإنسانية، وانشغالها بالبيانات الرقمية والإحصائية، على حساب القيم والمعايير المحددة للعلاقات والتفاعلات، عن تقديم تفسيرات مقنعة للسلوك الإنساني التفاعلي في إطار عالمي.
- وتفشل النظرية/**المنهج البنائي الوظيفي**، في تمسكه بالاعتقاد، من دوركايم إلى بارسونز، أن البشر ليسوا إلا فاعلين سلبيين. سياقات مجتمعاتهم وبناها ونظمها (الثابتة نسبيا)، هي التي تكوّن أفعالهم وسلوكياتهم وأدوارهم. وأن النظم (الأسرة، المدرسة، المؤسسة الدينية، المدرسة، الجامعة، الدولة..الخ)، وجدت لتبقى بوظائفها المستمرة بفعالية- حتى وان تعطلت تلك الوظائف، أو اختلفت، أو فقدت بالمرة. ويلاحظ **جدنز**، أن العولمة تحوّل النظم التقليدية اليوم إلى" نظم صدفية"؛مازالت قشرتها الخارجية كما هي، ولكن الداخل قد تغيّر تماما. فلم تعد مواتية لأداء الوظائف أو إنجاز الأهداف التي وجدت للقيام بها. ولابد من الاعتراف أن هذا لا يحدث اليوم، بدرجات متفاوتة، في أمريكا و بريطانيا وفرنسا فحسب، وإنما في كل مكان تقريبا. ولا تستطيع نظرية "**ما بعد الحداثة**" بمناهجها وأساليبها "التفكيكية"، وعدائها للنزعة العقلانية، إلا تقديم تفسيرات عبثية للعولمة، باعتبارها نظاما عقلانيا منظما ومتماسكا. أو باعتبارها إنتاجات واقعية لأفعال موجهة توجيها عمليا، يحكمها العقل والمنطق، وتساندها سلامة النتائج العملية. ولابد من فهم العولمة بجدّية، باعتبارها قوة هائلة مصممة على تنظيم فوضى العالم. وإنقاذ الإنسان ومجتمعات العالم التاريخي

وثقافاته، من سجونها الإيديولوجية، ومعسكراتها الاجتماعية، ومعتقلاتها الثقافية. فتتيح العولمة للإنسان المعاصر أنماطا من الحياة، وأنماطا من الثقافة، وأنماطا من الوعي، لم تكن ممكنة في حقب سابقة، ولم تكن لتسمح بها أية مجتمعات أو ثقافات أو سياسات تاريخية.

تعرف العولمة تماما ما تريد. تعرف من أين تبدأ. وبماذا تنتهي. وإذا كانت العولمة الممارسة ترفع شعارها المعلن "**الاقتصاد أولا**"، فانه عندها البداية وليس النهاية. الاقتصاد أولا لمحوريته، وواقعيته، وحياديته، وجاذبيته، وسهولته. ولكن **الثقافة هي الهدف، المعلن والخفي، للعولمة**. لا ترتاح العولمة إلا بإنجار المهمة الثقافية.: عولمة ثقافات مجتمعات العالم المنغلقة المتصلبة ، الخائفة المذعورة، والخجولة المترددة. تدرك العولمة تماما أنه لا يمكن عولمة العالم، بفعالية إلا بعولمة، ثقافاته بفعالية. قد لا تحتاج الثقافة الى عولمة. ولكن العولمة بحاجة ماسة لثقافة معولمة. تضمن عولمة الثقافة لحركة العولمة، عولمة الاقتصاد والسياسة، الاتصال والمعلومات، والعلم والتعليم، الإنسان والمجتمع، جميعا، مرة واحدة، وبصورة مستمرة.

ومادامت الثقافة التقليدية بارتباطها "بتابوهات" المجتمعات التقليدية (الهوية، المعتقدات، والخصوصية)، هي الإشكالية الأصعب أمام العولمة، فسيظل من الصعب عليها أن تنجز مهمتها الثقافية جملة واحدة. وإنما يمكن لها أن تنجزها، عمليا، على مراحل، بأنواع إنسانية جديدة، متزامنة متساندة، من الثقافة العولمية، تغذّيها وتتغذّى منها، في الوقت ذاته.

- **ثقافة مدنية: تقوم بتأسيسها أو نشرها منظمات المجتمع المدني، بمساندة شبكة عالمية، تتغذّى من ثقافة مدنية عالمية**
- **ثقافة اتصالية: تنشر الديمقراطية، وحريات الرأي والتعبير، وحقوق الإنسان، على مستوى كوني.**
- **ثقافة سياسية: بتشريع وتفعيل النظم الديمقراطية والتعددية والحريات**
- **ثقافة علمية تقنية: تأسيس المناهج العلمية، العقلية،النقدية، التحليلية، وتهيئة مناخات التجديد والخلق والإبداع.**
- **ثقافة اقتصادية: تؤسس على قيم العمل والمصلحة ولإنجاز.**

ويشكّل تبلور هذه الأنماط من الثقافة، بمجملها، الثقافة الكونية المشتركة. وتسير العولمة، بصعوبة متفاوتة ولكن بثبات، نحو جعل وجود هذه الثقافة الكونية الواحدة هي القاعدة السائدة، ووجود غيرها هو الاستثناء الغريب. وبنظرة إستشرافية لحال الدول والمجتمعات والثقافات، سيكون صعبا على كل دولة أن تحلّ مشكلتها الثقافية إن لم تكن مشاركة ومساهمة بصورة فعالة في إنتاج الثقافة الكونية بهذه المكونات. وبدون ذلك، تبقى الدولة معولمة على السطح وليس في العمق. ، وتظل تعيش حقائق العولمة بالتأثر، لا بالتأثير. فخارج الإطار الثقافي،سيكون صعبا على الباحثين في علم الاجتماع العرب، في السنوات القليلة القادمة، تفسير استمرار هذا الوضع الغريب لعولمة مجتمعاتهم العربية على السطح، وليس في العمق، واستمرار بقائها متأثرة بالعولمة، غير مؤثّرة فيها. ولكن لن يكون صعبا عليهم تبرير هذا الوضع الغريب داخل الإطار الثقافي نفسه.

مراجع الدراسة

- أمين، جلال، (1998)، العولمة والدولة، ص 153-170 في كتاب: العرب والعولمة، مجموعة باحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- إبراهيم، عبد الله، (1996)، المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- الجابري، محمد عابد (1989)، تكوين العقل العربي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- جدنز، انتوني (2000) عالم منفلت: كيف تعيد العولمة تشكيل حياتنا، ترجمة محمد محيي الدين ميريت، القاهرة.
- الحافظ، منير (2005)، منهج العولمة اللانمطي: تشخيص جمالي في بؤس العولمة، دار الفرقد، دمشق.
- حجازي، مصطفى (1980) التخلف الاجتماعي: سيكولوجية الإنسان المقهور، مركز الإنماء العربي.
- حجازي، مصطفى (2005)، الإنسان المهدور: دراسة نفسية اجتماعية، المركز الثقافي العربي، بيروت، (مراجعة أمينة غصن، الحياة، 12 مايو 2005).
- حميش، سالم (1991)، الاستشراق في أفق انسداده، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط.
- طاحون، زكريا (2003)، بيئات ترهقها العولمة، جمعية المركز العربي للبحوث والبيئة، القاهرة.
- روا، أوليفييه (2003)، عولمة الإسلام، ترجمة لارا معلوف، دار الساقي، بيروت.
- روبرتسون، رونالد (1998)، العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافية الكونية، مترجم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

- ساري، سالم (2003)، "الشباب العربي الخليجي والغرب: الوعي بالهوية والتحديات" في كتاب العرب والغرب، منشورات جامعة فيلادلفيا.
- ستيغليتز، جوزيف (2003)، خيبات العولمة، ترجمة ميشال كرم، دار الفارابي، لبنان والجزائر.
- سعيد، إدوارد (1991)، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ط3، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
- فريدمان، توماس (2000)، سيارة لكساس وشجرة الزيتون، مترجم.
- عبد الله، ثناء (2005)، "آليات الاستبداد في الواقع العربي"، ص 80-119، في المستقبل العربي، مارس/ آذار، مركز دراسات الوحدة العربية.
- مارتين، هانز، وشومان، هارالد (1996)، فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، مترجم، المجلس الوطني للثقافة، الكويت.
- مجموعة مفكرين (2002)، حلقة نقاشية في كتاب: العرب والعالم بعد 11 سبتمبر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- مشروع الشرق الأوسط الكبير (2004)، مؤسسة المنارة للإعلام.
- هاردت، مياكل ونيغري، أنطونيو (2000)، الإمبراطورية: إمبراطورية العولمة الجديدة: تعريب فاضل جيتكر، مكتبة العبيكان، الرياض.
- هاليداي، فريد (2003)، ساعتان هزتا العالم: 11 سبتمبر 2001: الأسباب والنتائج، مترجم، دار الساقي، لندن، بيروت.

ظاهرة الإسلاموفوبيا

(قراءة تحليلية)

خالد سليمان

الأردن

تقديم:

يعد مصطلح "الإسلاموفوبيا" من المصطلحات الحديثة التداول نسبياً في الفضاء المعرفي المعني بصورة خاصة بعلاقة الإسلام بالغرب. وقد تم نحت المصطلح الذي استعير في جزء منه من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن **ظاهرة الرهاب أو الخوف المرضي الأورو-أمريكي من الإسلام**. وهي في الواقع ظاهرة قديمة جديدة، قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه، وإن كانت قد تصاعدت حدتها في عالم اليوم، وبخاصة في دول الغرب بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في **الحادي عشر من أيلول عام 2001**، التي تُنسب إلى تنظيم القاعدة. وربما كان من الممكن القول إن تلك الظاهرة تضرب بجذورها عميقاً في تاريخ قديم حافل بمسلسل طويل من العلاقات المضطربة بين الغرب و الإسلام، استقر فيه هذا الأخير في الذهنية الغربية بوصفه تعبيراً عن خطر داهم محدق يتهدد كل ما هو غربي، ربما انطلاقاً من الاقتران المتكرر الذي يمكن ملاحظته في مسيرة التاريخ، الذي يوحي وكأن هناك نوعاً من العلاقة الحتمية بين صعود نجم الحضارة الإسلامية وانحدار نظيرتها الغربية!.

هذا، ولا تعد تلك الظاهرة حكراً على مجال العلاقات بين الإسلام والغرب كما قد يتبادر للذهن، بل إنها تمتد لتطال رقعة العالم الإسلامي نفسه أيضاً. إذ إن ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام قد نشأت في الأصل بين أوساط العرب واليهود في جزيرة العرب، وثمة من المؤشرات ما يؤكد استمرار حضورها على ساحة الأرض العربية والإسلامية حتى الآن!. وانطلاقا من الزعم بأن الفهم الجدي والعميق لأي ظاهرة من الظواهر هو الخطوة الأولى الضرورية للتمكن من علاج ما يرتبط بها وينجم عنها من مشكلات؛ يأتي إجراء هذه الدراسة، ذات الطابع التحليلي، في محاولة لتناول تلك الظاهرة بالفحص والتشريح، بما يتضمن بيان أسبابها، وعوارضها المختلفة المتصلة بالعلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي. إضافة إلى التوقف عند مسألة تفشي تلك الظاهرة إلى الوطن العربي،

وتنامي مخاوف بعض الأطراف المنتمية إلى المجتمع العربي من تصاعد المد الإسلامي، وصولاً إلى اقتراح بعض المقاربات التي قد تسهم في معالجة تلك الظاهرة المقلقة، التي تجعل من العالم الإسلامي وآهليه عرضة لمسلسل مستمر من إساءة الفهم والإدراج ضمن **صور نمطية سلبية شائهة**، مع ما يترتب عن ذلك من مخاطر وتحديات جسيمة، تعصف بإمكانات تبلور مفاهيم التسامح والتعايش السلمي والاحترام المتبادل، ليس على مستوى العلاقات بين العالم الإسلامي ودول الغرب فحسب، وإنما على مستوى العلاقات داخل المجال الإسلامي أيضاً.

الإسلاموفوبيا/ وقفة عند المفهوم:

كما سبقت الإشارة، فإن مصطلح "الفوبيا" أو الرهاب، مستمد في الأصل من علم الأمراض النفسية، ليتم التعبير بواسطته عن نوع من أنواع العصاب القهري، بحيث لا يملك المريض القدرة على التحكم في ردود أفعاله عند تعرضه لموضوع خوفه، فيضيق صدره ويجف ريقه وتتزايد ضربات قلبه ويشحب وجهه وترتعش أطرافه، ليدخل في حالة فعلية من الفزع غير المسيطر عليه. كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن مخاوف المريض بالرهاب لا تستند إلى تهديد جدي وفعلي في أغلب الحالات، كأن يخاف المرء من قطة صغيرة أليفة، أو من مكان مرتفع لا مجال لسقوطه منه، أو من وجوده في قاعة مكتظة بأشخاص ودودين لا يمكن أن يشكلوا خطراً عليه، ...الخ. وهذا يعني أن المرض يعبر في حقيقته عن اضطراب نفسي وإدراكي، لعل بالإمكان أن نعزوه إلى أسباب متعددة، ربما كان من أبرزها معايشة خبرات مؤلمة تتعلق بموضوع الرهاب، وبخاصة في مرحلة الطفولة المبكرة، حيث تتسرب تلك الخبرات غير السارة إلى ما يعرف باللاوعي عند الإنسان، ليقوم عند مواجهته لموضوع خوفه، وبصورة غير إرادية يصعب السيطرة عليها، باستحضار مظاهر الاضطراب التي عايشها عند التعرض لتلك الخبرات للمرة الأولى، وبشكل قد يكون أكثر تضخماً وحدة.

في أسباب الظاهرة:

كأي ظاهرة أخرى تعصى على الانحصار ضمن إطار الأحادية السببية، فإن لظاهرة "الإسلاموفوبيا" أسباب متعددة تتفاوت في أهميتها وقوتها، بيد أنها تتضافر فيما بينها لتشكيل الظاهرة على النحو الذي تتراءى به. وفيما يلي محاولة لاستعراض أبرز الأسباب التي يمكن أن تكون مسؤولة عن إيجاد تلك الظاهرة:

أولاً: احتشاد التاريخ بالكثير من وقائع الصراع بين الإسلام والغرب:

قد يمكن القول إن الفتوحات الإسلامية التي بدأت منذ عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وتوسعت حدودها وآفاقها على امتداد قرون طويلة لاحقة، قد شكلت بما ارتبط بها وتمخض عنها من دحر جحافل الروم وتهديم معاقل وجودهم في المناطق التي اكتسحتها راية الإسلام، أولى وأبرز الخبرات المؤلمة التي تعرض لها الغرب في علاقته بالعالم الإسلامي، تلك الخبرات التي غرست بذور الخوف من الإسلام في ذهنيته، وجعلته يطور نزوعاً مرضياً يحكم تفاعله مع ذلك الدين وأتباعه. فعلى سبيل المثال، وبعد الهزيمة المنكرة التي منيت بها جيوشه الجرارة في **معركة اليرموك** في السنة السادسة عشرة للهجرة، التي ترتب عنها جلاء الاحتلال الرومي عن المنطقة العربية حيناً من الدهر، نُقل عن **(هرقل)** عظيم الروم قوله: **"السلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء بعده،ونعم البلد أنت للعدو وليس للصديق، ولا يدخلك رومي بعد الآن إلا خائفاً"**[(1)].

ويزخر التاريخ بسلسلة لا تكاد تنتهي من الخبرات غير السارة التي اتخذت طابعاً دموياً في كثير من الحالات، التي كرست النظرة المرتابة، بل العدائية، من جانب الغرب – وهو الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية – حيال الإسلام وأهله. إذ لم تتوقف تلك الخبرات المؤلمة عند حدود معركة اليرموك المشار إليها بكل تأكيد، بل تعدتها إلى سلسلة طويلة من مواقف المجابهة العنيفة، التي سجلها التاريخ في العديد من المعارك الحاسمة، التي جسّد بعضها، أو كاد، تهديداً جدياً للعالم الغربي، **كفتح الأندلس سنة91هـ، ومعركة بلاط الشهداء (لابواتيه) سنة 114هـ، التي لو انتصر المسلمون فيها لدخل الإسلام إلى باريس نفسها، وفتح القسطنطينية على يد العثمانيين سنة 857هـ**... الخ قائمة لا تكاد تنتهي من وقائع الصراع الدامي بين الجانبين.

ويبدو أن التفاعل المباشر لأبناء الغرب مع المسلمين لعقود طويلة، سواء في سياق احتلالهم بعض الديار الإسلامية إبان ما عرفت عند بعض المؤرخين بالحروب الصليبية، أو في إطار استفادتهم عن طريق رحّالتهم وطلابهم من النهضة العلمية والحضارية التي ازدهرت في كثير من مدائن العالم الإسلامي، يبدو أنه لم يكن كافياً للنجاح في تبييض الصورة القاتمة التي رسموها في أذهانهم تجاه الإسلام وأتباعه، بوصفه ديناً دموياً لا يمكن أن يقترن إلا بالعنف والتخلف والإرهاب!.

ثانياً: الجهل بالإسلام:

وفقاً لمقولة دارجة لا تخلو من الصحة، يميل الإنسان في العادة إلى معاداة ما يجهل، بوصفه يشكل خطراً غامضاً يحسن الاحتراس منه وتجنبه. وهذا ما قد يفسر خوف الكثيرين من الإسلام وميلهم إلى معاداته والنفور منه، حتى بين بعض أبناء المسلمين أنفسهم، الذين يملكون معرفة سطحية بالإسلام!. والواقع إن هناك جهلاً صارخاً بحقيقة الإسلام، وبخاصة في العالم الغربي، الذي يستقي معلوماته عن الإسلام من مصادر قد تفتقر في كثير من الحالات إلى الموضوعية والنزاهة والتجرد، أو الإحاطة الكافية بحقيقة الإسلام وجوهره. فالمناهج المدرسية وحتى الجامعية في العالم الغربي، ما تزال مثقلة بكم هائل من المعلومات المغلوطة والمضللة عن الإسلام، التي تعود في جذورها إلى **نتاجات المدرسة الاستشراقية**، إحدى الأذرع التقليدية الرئيسة للاستعمار الغربي. التي يوجد من الشواهد ما يؤكد انطلاقها من مرجعيات قروسطية مصطبغة بروح **الحروب** (الصليبية)، لا ينقصها الكثير من التعصب والتحيز وتزييف الوقائع وليّ أعناق الحقائق لإثبات مزاعم وافتراضات قبلية عارية عن الصحة[2].

وفي هذا الإطار، يشير أحد الباحثين إلى "أن القليل من إنتاج المستشرقين الجدد، وهو كثير في حد ذاته، يذهب إلى صانعي السياسة والقرار في الغرب. بينما يذهب الكثير من إنتاجهم إلى الرأي العام عن طريق أجهزة متطورة للإعلام والدعاية ليؤكد صوراً نمطية أو يشوهها"[3]. وحول النوايا العدائية للاستشراق وسعيه إلى المزيد من اختلاط الأوراق وتوتير العلاقات بين الإسلام والغرب يتابع الباحث نفسه القول: "إن **الاستشراق الجديد** الساعي قولاً وفعلاً إلى صدام (حضاري) مع الشرق الإسلامي حريص أيضاً على فتح حوار على مستويات متعددة يختلط فيه الدين بالسياسة والفاهمون بغير الفاهمين"[4].

ويشكل الجهل بالإسلام وحمل تصورات مغلوطة عنه، مع ما يترتب عن ذلك من الحيلولة دون تشكل أرضية ملائمة لفهمه وتفهمه والتواصل الإيجابي مع معتنقيه، معلماً بارزاً من معالم الحياة في العالم الغربي. وربما كان هذا هو ما دفع عضو مجلس النواب الأمريكي السابق (**بول فندلي**)، الذي خبر العالم الإسلامي عن قرب، إلى أن يأخذ على عاتقه السعي إلى كسر حاجز الجهل الغربي بالإسلام، والعمل على تصحيح المفاهيم والصور النمطية الخاطئة المتصلة به، ودحض الأضاليل التي تستوطن أذهان الغربيين

بشأنه، وبخاصة في المجتمع الأمريكي. ويجمل (فندلي) **الأسباب التي تقف خلف جهل الأمريكيين، والغربيين عموماً، بالإسلام وتبنيهم صوراً نمطية مضللة عنه فيما يلي من أسباب**[5]:

1. دور **اللوبي اليهودي** في تقديم صورة سيئة عن المسلمين، وتصوير (إسرائيل) على أنها دولة ضعيفة يهدد العرب والمسلمون أمنها ووجودها.
2. الاقتصار على الحديث عن **الأخلاق اليهودية والمسيحية** في المجتمع الأمريكي، بوصفها الأخلاق العالية المقبولة الجديرة بالاتباع، مع تجنب الإشارة إلى الأخلاق الإسلامية، وتصويرها بشكل سلبي منفر في حال الحديث عنها. بحيث غدت اليهودية والمسيحية في نظر الأمريكي أنموذجاً للتقدم والحضارة والأخلاق، وأصبح الإسلام تعبيراً عن القوة المتخلفة والخطرة.
3. وسم الإسلام **بالإرهاب والتعصب، واحتقار المرأة، والافتقار إلى التسامح** مع غير المسلمين، ورفض الديمقراطية، وعبادة إله غريب وانتقامي.
4. تخوف الغربيين من **خطر إسلامي متصاعد**، وخشيتهم من الحرب الإسلامية – الغربية القادمة، وتغذية الهيئات الصهيونية لتلك المخاوف، حتى لا يتراجع الدعم الغربي للكيان الصهيوني في فلسطين.
5. تركيز وسائل الإعلام الغربي على تصوير الحركات الإسلامية، وبخاصة **حركات المقاومة، على أنها حركات إرهابية** لا تحترم الديموقراطية وحقوق الإنسان. وعمل تلك الوسائل في بعض الأحيان على فبركة برامج يتم عن طريقها تضخيم دعوات بعض المسلمين إلى محاربة أمريكا و (إسرائيل) والغرب، وإخراج تلك الدعوات عن سياقها الأصلي.

ثالثاً: تضارب المصالح واختلاف المنطلقات القيمية:

على الرغم من أن الجهل بالإسلام قد يشكل سبباً أساسياً للخوف منه ومعادته، إلا أنه ليس السبب الوحيد بكل تأكيد. فقد سجل التاريخ أن معرفة الكثيرين بالإسلام لم تحل دون الخوف منه ومناهضته، بل ربما يمكن القول إن تلك المعرفة قد كانت المدخل الرئيس لاتخاذ موقف سلبي منه. فقد جاء الإسلام ليشكل مشروع رؤية تجدد ما دأبت تعاليم السماء على الدعوة إليه والمناداة به مذ وجد الإنسان على الأرض، رؤية تقوم على تدمير معاقل التظالم بين البشر، ونشر قيم العدالة والأخوة والمساواة والفضيلة فيما

بينهم. وبطبيعة الحال، كان من المحتم أن يصطدم ذلك المشروع بمصالح كثير من الفئات الانتهازية التي كانت تحرص على استمرار الأوضاع المختلة القائمة، بكل ما فيها من استغلال وظلم واعوجاج. فاليهود في الجزيرة العربية على سبيل المثال، وهم الذين احترفوا العمل بالمراباة والدعارة وتجارة الخمور... الخ، كانوا متأكدين من صدق النبي محمد (عليه السلام) وصدق رسالته، حسب ما جاء في أسفارهم المقدسة من نبوءات. إلا أنهم أصروا على معاداة الإسلام والكيد له، استناداً إلى رفضهم التضحية بالمكاسب غير المشروعة التي لا يقرها الإسلام، التي كانوا يجنونها جرّاء استغلال الناس وإشاعة الرذيلة بينهم، وانطلاقاً من استكبارهم عن اتباع رسول ليس من أبناء جلدتهم، بعد أن انحصر كل الأنبياء المعروفين ضمن نطاق بني إسرائيل منذ عهد النبي إسحق (عليه السلام). وقد فضح القرآن الكريم مكر اليهود وإنكارهم معرفة الرسول تبعاً للنبوءات التي تبشر به في كتبهم المقدسة بقوله تعالى: "**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**"[(6)].

هذا، وقد انسحب الحال نفسه على كثير من زعماء قريش والعرب في بداية الدعوة الإسلامية، الذين رفضوا اتباع الرسالة المحمدية، ليس من منطلق عدم تصديقها، بل من باب الاستكبار والحرص على مكتسبات الزعامة ورفض النزول عنها. فقد ورد عن (أبي جهل) أحد أشهر أعداء الإسلام عبر التاريخ في معرض تفسيره الإصرار على عدم الإيمان بالرسول ومعاداة رسالته قوله: "والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء. إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي، فلا والله لا أفعل"[(7)].

والواقع إن المنطق ذاته يمكن أن ينطبق على الحالة الغربية اليوم. فمن المعروف أن الغرب يتبنى الكثير من السلوكيات الخاصة به، التي ترتبط في كثير منها بالنظام الرأسمالي ومبادئه البراغماتية الساعية إلى **تعظيم الربح واللذة والمنفعة الخاصة**، وتدخل في الوقت نفسه ضمن دائرة الحريات الاجتماعية والاقتصادية المعترف بها هناك من قبيل: **حرية المقامرة، وتناول الكحول، والاشتغال بالربا، وقوننة ممارسة البغاء والعلاقات الجنسية المثلية، والسماح بالعلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية** ... الخ. وبكل تأكيد، لا يمكن أن تحظى مثل تلك السلوكيات بمباركة الدين الإسلامي، الذي يعدها

ومثيلاتها من المحرمات التي يستدعي اقترافها التجريم والعقاب. ومن ثم، فإن من الطبيعي أن يجد كثير من أبناء العالم الغربي في الإسلام وتعاليمه تهديداً صارخاً لما يعتبرونها حريات أساسية، لا ينبغي المساس بها أو التفريط فيها!.

وتتداخل التعارضات المصلحية والحضارية لترسيم شكل العلاقة بين الإسلام والغرب إلى حد بعيد. فبينما يمكن الإقرار – إلى هذا القدر أو ذاك – بأن الصراع الذي يحكم علاقة العالم الغربي بالإسلام يستند في جزء منه إلى اختلافات حضارية عميقة ضاربة بجذورها في التاريخ، كما تزعم نظرية (صراع الحضارات) الشهيرة لصاحبها المنظر الأمريكي (صامويل هنتجتون)[8]، فإن من الممكن أيضاً القول إن جزءاً مهماً من ذلك الصراع يرتكز إلى تضارب المصالح بين الإسلام والغرب، بحيث يبدو هذا الأخير على درجة من الاستعداد للقبول بإسلام (معتدل) يضمن مصالحه السياسية والاقتصادية ولا يشكل تهديداً لها[9].

رابعاً: الخلط بين الدين الإسلامي وواقع المسلمين:

ليس من الخافي على أحد أن الأمة الإسلامية تعاني منذ قرون عديدة واقعاً مأزوماً على مختلف الأصعدة والمستويات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهو ما ينعكس في وقوف تلك الأمة في ذيل سائر أمم الدنيا على صعيد الإسهام الحضاري والمشاركة في ارتقاء الإنسانية وتقدمها. فعلى المستوى السياسي، عصفت الحروب والنزاعات المسلحة وما تزال تعصف بأرواح الآلاف من أبناء العالم الإسلامي كل عام، كما هي الحال في كل من **(فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والسودان والجزائر)** على سبيل المثال. وتبدو الدول الإسلامية عاجزة عن فعل الكثير من أجل إيقاف تلك الصراعات أو الانتصار فيها أو تسويتها. كما ما يزال العديد من الدول الإسلامية يخضع بشكل أو بآخر لقوى أجنبية تصادر حريتها وتحد من إمكانات استقلالها الفعلي.

وعلى الصعيد الاقتصادي، تشير الإحصائيات إلى أن أكثر من نصف مليار مسلم يعيشون تحت خط الفقر، وهذا يعني أن أكثر من ثلث سكان العالم الذين يعيشون تحت مستوى خط الفقر هم من أبناء العالم الإسلامي، على الرغم من كل ما تتمتع به دول ذلك العالم من ثروات بشرية وطبيعية هائلة[10]. الأمر الذي يوجه الأنظار إلى ما تكابده تلك الدول من **استشراء الفساد وسوء الإدارة واختلال العدالة في توزيع الموارد والثروات.**

ليس هذا فحسب، بل إن دولاً إسلامية عديدة قد اجتاحها شبح المجاعات وافترس وحش الجوع مئات الآلاف من أبنائها، كما جرى في كل من النيجر والصومال والسودان.

وفي المجال الاجتماعي، يمكن الحديث، بوجه عام، عن معاناة دول العالم الإسلامي **تفاوتات طبقية صارخة** تتفاقم حدتها عاماً بعد آخر، فضلاً عن تصدع بناها المؤسسية التقليدية مع العجز عن إيجاد بناءات حديثة قادرة على الإنجاز الناجح الفعال، وانحطاط مكانة المرأة، وتهميش دور الشباب، وضعف الاهتمام بالأطفال، ناهيك عن اهتزاز المنظومات القيمة وتخلخلها تحت وطأة القيم الغربية الغازية.

وعلى الصعيد الثقافي، يبدو العالم الإسلامي منقطعاً بصورة شبه تامة عن الثورات المعرفية والمعلوماتية والعلمية التي يشهدها العالم، فيبدو الأقل إسهاماً في تلك الثورات، سواء على مستوى الإبداع أو التطوير، ليغدو في أفضل الحالات مستهلكاً نهماً، وبصورة استعراضية فجة، لما تنتجه تلك الثورات من تطبيقات وتقانات!.

إزاء الواقع المتردي الذي يتخبط فيه العالم الإسلامي، ومع أخذ الجهود الصهيونية والاستعمارية في تعميق ذلك الواقع وإبرازه وتضخيمه بعين الاعتبار، يغدو من الطبيعي **انبعاث حالة من المماهاة التلقائية بين الإسلام من جهة، والفقر والتخلف من جهة أخرى**، ليتم تحميل الإسلام جرائر ضعف أبنائه وتخلفهم. وعليه؛ يبدو أن من العسير أن يتعاطف الغربي الذي لا يعرف إلا صورة مشوهة عن الإسلام مع هذا الدين، بل إن من الطبيعي أن يتخذ منه – وهو يظنه سبباً رئيساً لتخلف أرجاء واسعة من العالم – موقفاً سلبياً عدائياً، ويولي جزءاً من اهتمامه لمحاربته واستئصال شأفته!.

خامساً: تبني صورة نمطية سلبية للمسلمين:

في الأصل، تتمتع المبادئ والنظريات، وبخاصة العقائدية، بطابع مثالي يتيح هامشاً معقولاً من الانفصال بينها من جهة، وبين أتباعها وتطبيقهم لها على أرض الواقع من جهة أخرى. إلا أنه وفي كثير من الأحيان، يتم الخلط بين الأفكار ومعتنقيها، فيتم عزو ما يقترفه هؤلاء من أخطاء وتجاوزات إلى الأفكار التي يزعمون تبنيها. وهذا يظهر واضحاً تماماً في حالة الإسلام والمسلمين، إذ يتم تحميل الإسلام مسؤولية السلوك غير السوي الذي يصدر عن بعض المسلمين. وبالإضافة إلى الجهل بحقيقة الإسلام، كما سلفت الإشارة، فإن من مصلحة الكثيرين من أنصار التوجهات الاستعمارية والصهيونية استغلال السلوك السيء للمسلمين للنيل منهم ومن دينهم، وإثبات صحة الصور النمطية

المرتسمة في أذهان الكثيرين من أبناء الغرب عنهم. وبتسليط الضوء على تلك الصور النمطية الماثلة في الذهنية الغربية عن المسلمين، التي تطورت عبر قرون طويلة ظللتها أجواء التصارع والتفاعل المتوتر غير المتوازن بين الجانبين، فإنها تسقط على الشخصية المسلمة كماً هائلاً من الافتراءات والخيالات المريضة، فتصورها بالجشع والنهم والغباء والسفه والمكر واحتقار المرأة والتكالب على الشهوات ..الخ. وقد لعبت **السينما العالمية ووسائل الإعلام** المغرضة التي تخضع لسيطرة واضحة من جانب الدوائر الصهيونية في العالم دوراً أساسياً في ترسيخ معالم تلك الصور النمطية وتضخيمها وتعميمها، حتى غدت بمثابة الحقائق الثابتة التي لا تحتمل النقاش، التي تحكم تعاطي كثير من أبناء الغرب مع الإسلام والمسلمين!. وللحقيقة، فقد **لعب بعض أبناء المسلمين أنفسهم دوراً لا يستهان به في تصديق تلك الصور النمطية الشائهة، وذلك عن طريق سلوكهم المتخلف والمنحرف أثناء تجوالهم في عواصم الدنيا، مقدمين بذلك الأنموذج الأسوأ عن الشخصية المسلمة**، ومن ثم عن الإسلام نفسه!. كما كان للتطبيق المتزمت للاسلام، الذي يركز على الشكل على حساب الروح والمضمون، من جانب بعض أنظمة الحكم التي تزعم اتخاذ الإسلام منطلقاً للتشريع فيها، نصيب في عملية الإساءة إلى الإسلام وتخويف الناس منه. إذ أظهرته تلك الأنظمة وكأنه جلاد قاس متحجر يطارد الناس لسلب حرياتهم وحرمانهم من كل مظاهر البهجة، وإجبارهم على إتيان الفرائض والطقوس الدينية على الرغم منهم!.

وجاءت **التفجيرات المدوية** على أهداف مدنية في عدد من البلدان الغربية، كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسبانيا، والإسلامية أيضاً، كالسعودية ومصر وباكستان والأردن، التي تبنتها **جماعات تزعم انتماءها للإسلام، كتنظيم القاعدة بتفرعاته، لتصب في تيار تصعيد المخاوف من الإسلام**، ولتعطي لأعدائه المزيد من المبررات لمحاربته وتضييق الخناق عليه، بحجة مسؤوليته المباشرة عن توليد الإرهاب والإرهابيين!.

أعراض ظاهرة "الإسلاموفوبيا" ومظاهرها:

منذ بروزها الذي تزامن مع بدايات الفتوحات الإسلامية، عبرت ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام عن نفسها عبر جملة من المظاهر، التي تفاوتت ما بين فترة زمنية

وأخرى وحيز مكاني وآخر في طبيعتها، وفي درجة سلبيتها وحدتها. ويمكن الحديث في هذا الإطار عما يلي من مظاهر:

1. الطعن في رسالة الإسلام والتشكيك بنبوة الرسول (عليه الصلاة والسلام):

منذ انبعاث رسالة الإسلام، لم تكد تتوقف الأصوات التي تشكك بصحة تلك الرسالة وصدق صاحبها (عليه السلام). فكما هو معلوم، تعرض الإسلام منذ بزوغ نجمه إلى حملة شرسة من جانب كثير من قبائل العرب واليهود لمحاربته وإجهاض دعوته. حيث أسند إلى الرسول الكريم الكثير من الصفات والنعوت الباطلة التي تطعن فيه على المستوى الشخصي، وترميه بالكذب والجنون والكهانة والسحر والاستبداد والتهالك على الشهوات...الخ. وبطبيعة الحال، لم تقف تلك الاتهامات المغرضة عند حدود الرسول (عليه السلام)، بل تعدته لتطال الإسلام أيضاً، الذي اتهم من بعض الحاقدين بأنه دين مادي لا يأخذ الأبعاد الروحية بعين الاعتبار، وأنه دين دموي قام وانتشر بقوة السيف، وأنه دين يخلو من الأصالة فيسرق أفكاره من الأديان السابقة عليه كاليهودية والمسيحية ...الخ. وفي الواقع، فإن من نافل القول إن من المحال الفصل بين الإسلام ورسوله، فالرسول (عليه السلام)، هو صاحب الدعوة إلى الإسلام، وهو رمزها الأهم وهو التجسيد العملي لتعاليمها. ومن ثم فإن الإساءة إلى الرسول لا يمكن إلا أن تعد إساءة للإسلام نفسه، والعكس صحيح بكل تأكيد. وكأمثلة عارضة على ما تقدم، كان التنويري الفرنسي الشهير (**فولتير**) قد نشر في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي كتاباً بعنوان: (**التعصب أو النبي محمد**)، وصف فيه الرسول الكريم بأنه "منافق وخداع ومحب للملذات الجسدية ومستبد"[11]. وقبل ذلك بقرون، أي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، كانت ملحمة (**الكوميديا الإلهية**) لكاتبها (**دانتي أليغري**) قد تطاولت على شخص رسول الإسلام وصورته بما لا يليق به. وهو ما كرر فعله قبل عدة سنوات الكاتب الهندي (**سلمان رشدي**) عندما نشر سنة 1988م روايته الشهيرة (**آيات شيطانية**)، التي حظيت وصاحبها وما يزال بدعم الغرب وحمايته وتكريمه، بدعوى الانتصار لحرية التعبير!.

وتأتي **الرسومات الكاريكاتورية** التي نشرتها **صحيفة (يولاندز بوسطن) الدنماركية** في الثلاثين من شهر أيلول عام 2005 لتنضاف إلى قائمة الإساءات المتعمدة ضد الإسلام ورموزه. فقد نشرت تلك الصحيفة 12 رسماً هزلياً للرسول محمد (عليه الصلاة والسلام)، وصفت من جانب الكثيرين بأنها في منتهى الصفاقة والانحطاط. واقترن نشر

تلك الرسوم مع مقال لرئيس تحرير الصحيفة يعرب فيه عن دهشته واستنكاره لهالة القداسة التي يتوج بها المسلمون نبيهم، معتبراً أن ذلك لا يعدو كونه ضرباً من ضروب الهراء المستند إلى جنون العظمة، وداعياً إلى التحلي بالشجاعة للإقدام على كسر ذلك (التابو)، عن طريق فضح (التاريخ المظلم) لصاحب الرسالة الإسلامية، وإبراز حقيقته إلى الرأي العام العالمي![12].

ويجدر التنويه إلى أن تلك الرسومات لا تعد الأولى من نوعها، فهي ليست إلا حلقة في سلسلة ممتدة من الحلقات التي لا تريد أن تنتهي. فعلى سبيل المثال، نشرت إحدى دور النشر البريطانية عام 2001 كتاباً لمؤلف يدعى (**عبد الله عزيز**)، يتضمن صوراً هزلية في منتهى السخرية والتطاول على عقيدة المسلمين وقرآنهم وسنة نبيهم. إذ عرضت تلك الصور بمنتهى الفحش والابتذال النبي الكريم وزوجته عائشة وبعض الصحابة أثناء تطبيقهم العديد من تعاليم الإسلام وأحكامه، بل إنها تجرأت على تصوير الذات الإلهية على شكل هلال يجلس على كرسي، ويقوم النبي محمد (عليه السلام) بالسجود له![13].

2. إثارة النزاعات بين المسلمين:

ما انفكت الدول الغربية، وبخاصة الاستعمارية منها، تبدي حرصاً واضحاً على تسليط الأضواء على مواطن الاختلاف القائم على أسس دينية في العالم الإسلامي والعمل على تضخيمها وتطويرها إلى مستوى الخلاف، سعياً إلى إثارة الصراعات بين المسلمين أنفسهم من جانب، والمسلمين والأقليات غير المسلمة من جانب آخر. وفي هذا المقام، ربما كان بالإمكان استذكار الجهود الحثيثة التي بذلتها فرنسا في أوائل القرن الماضي لتمزيق وحدة لبنان وإذكاء نار الخلافات الدينية بين أبنائه، وذلك بعد تمكن الدول الاستعمارية من تشظية المشرق العربي إلى دويلات ضعيفة عقب **توقيع معاهدة سايكس بيكو عام 1916**، حيث غدا لبنان مسرحاً لتوازنات دينية وطائفية هشة، أثبتت الأيام قابليتها للانهيار وتفجير الصراعات الدموية أكثر من مرة. ويكاد المسلسل ذاته يتكرر في **العراق** تحت هيمنة قوات الاحتلال الأمريكي. إذ يقف العراق اليوم على شفير حرب أهلية طاحنة تعصف بعشرات الأبرياء من أبنائه كل يوم، مردها الخلافات الطائفية والمذهبية، التي يسهم الاحتلال الأمريكي بتحالفاته المغرضة وتوجهاته المنحازة لبعض الفئات على حساب فئات أخرى في تأجيج اشتعالها[14]. وفي ذات الإطار، يحسن التنبيه

إلى البرامج الأكاديمية التي تحرص الدول الغربية على إنشائها وتطويرها في الجامعات والمراكز الأكاديمية والبحثية، التي تنصرف عناية جزء كبير منها إلى دراسة الاختلافات المذهبية والفرق الغالية التي تزعم انتماءها للإسلام – وهو منها براء – في محاولة لرمي الدين الإسلامي بما ليس فيه من التناقض والانفلات والشذوذ ...الخ[15].

3. السعي إلى إخضاع بلاد المسلمين واحتلالها:

كانت **حروب الفرنجة** على العالم الإسلامي، التي سماها البعض حروباً صليبية، قد انطلقت بذريعة تحرير المدينة المقدسة، أي القدس، من أيدي المسلمين (الوثنيين) في زعمهم. والواقع إن المذابح التي ارتكبها (الصليبيون) في المدن الإسلامية خلال تلك الحملات قد لا تعكس مجرد الخوف المرضي من الإسلام وأتباعه، بل تعكس درجة متقدمة من الحقد والرغبة في الانتقام. وكأن في الانتقام الدموي البشع من المسلمين ضرباً من ضروب التعويض عن الخوف المزمن منهم ومن دينهم. فقد روي عن **أحد شهود العيان من رهبان الفرنجة**، الذين شهدوا احتلال (الصليبيين) لمدينة القدس سنة 492 هـ قوله: "**كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية !!! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث**"[16]. ويصف راهب آخر المجزرة نفسها دون أن يخفي شماتته بقوله: "**حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم؛ فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا**"[17].

ويبدو أن تلك الروح (الصليبية) الحاقدة على الإسلام والمذعورة منه قد ظلت تتلبس العالم الغربي حتى أيامنا، وربما كان هذا يفسر جزءاً من الهوس الغربي بمحاربة المسلمين وإخضاعهم إلى هيمنته. فقد ظل العالم الإسلامي محط أنظار المطامع الغربية

التي تقنعت خلف الرغبة في نشر رسالة المسيح وإنقاذ ذلك العالم من تخلفه وانحطاطه!. وهو ما ترجم على شكل عشرات الحملات والمؤامرات الاستعمارية التي انتهت باحتلال معظم أرجاء العالم الإسلامي وتمزيق وحدته، بإسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية عام 1918. وقبل ذلك بسنوات قليلة، وفي ظل الشعور المستمر بالتهديد المحتمل للإسلام، كانت بريطانيا قد دعت **عام 1907** إلى تشكيل لجنة عليا تألفت من سبع دول استعمارية غربية، وذلك لمناقشة الخطر الذي تشكله الخلافة العثمانية الإسلامية على تلك الدول. وقد خلصت اللجنة إلى تقرير أكدت فيه أن مصدر الخطر الحقيقي على تلك الدول يتمثل في "الولايات العربية في الدولة العثمانية، وفي الشعب العربي المسلم الذي يعيش في تلك الولايات"[18]. وقد خلص التقرير المذكور إلى الخروج بجملة من التوصيات أبرزها:

1. العمل على خلق حالة من الضعف والتمزق والانقسام في المنطقة.
2. إقامة دويلات مصطنعة تتبع لتلك الدول الاستعمارية وتخضع لها.
3. محاربة أي شكل من أشكال الوحدة والاتحاد الروحي أو الثقافي أو التاريخي بين أبناء المنطقة.
4. وكسبيل لتحقيق كل ذلك، ينبغي إقحام حاجز بشري غريب يتمتع بالقوة على المنطقة، بحيث يجسد قوة معادية لسكانها، تنسجم في مصالحها مع مصالح الدول الاستعمارية الراعية لذلك الكيان المختلق، الذي لعب دوره بإتقان مميز الكيان الصهيوني الغاصب[19].

وتتعدد الشواهد التي تؤكد استمرارية حضور الذهنية التي انطلقت منها (الحروب الصليبية) في أعماق الكثيرين من أبناء الغرب حتى عصرنا الحديث. فعلى سبيل المثال، عندما احتلت القوات البريطانية مدينة القدس سنة 1917 بقيادة الجنرال (اللنبي) الذي كان أول غربي يدخل المدينة منذ تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي، هتف (اللنبي) معلناً: "الآن انتهت الحروب الصليبية"[20]. وعندما اجتاحت القوات الفرنسية مدينة دمشق بعد انتصارها في **معركة ميسلون عام 1921**، توجه قائد القوات الفرنسية **الجنرال (غورو)** إلى قبر صلاح الدين الأيوبي قائلاً "أنظر يا صلاح الدين، ها قد عدنا"[21]. ويقال أن في جنوب فرنسا، وفي المكان الذي انطلقت منه الحروب الصليبية على وجه التحديد، جمعية تعقد اجتماعاً دورياً كل عام حتى يومنا هذا لاستحضار الأجواء التي احتضنت ولادة الحروب الصليبية، حيث يتم في الاجتماع إلقاء الخطب المحاكية لخطبة

البابا (**أوربان الثاني**) الذي أعلن عن انطلاق تلك الحروب، كما يجـري إعـادة تمثيـل انطلاق الحملة الصليبية الأولى[22]. وتشكل (زلة اللسان) الـشهيرة للـرئيس الأمريكـي الحالي (**جورج بوش**) التي انزلق فيها إلى القول بأن حربه على الإرهاب بعد تفجيـرات الحادي عشر من أيلول هي (**حرب صليبية**)، مؤشراً مهماً على استيطان فكرة الحـروب الصليبية في أذهان كثير من رجال السياسة في العالم الغربي، وتعبيراً عن إرث غربـي قديم يتم توارثه[23]، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية[24]، التي شهدت بعـد تلـك التفجيرات استحضاراً صاخباً لتلك الفكرة[25]. فعلى سبيل المثال، يجاهر القس الأمريكي (**فيليب بينهام**) بالدعوة عبر منابر الإعلام إلى إطلاق "الحملة الصليبية ضد الشر لإنقـاذ الولايات المتحدة... عن طريق كشف كذبة اسمها الإسلام"[26]، معلناً أن "النبي محمد ذبح الملايين منذ ظهوره مطلع القرن السابع"[27]. وتكمن المفارقة في تقاطع هذا الخطاب مع خطابات علمانية تتردد أصداؤها في دهاليز السلطة والإعلام الأميركي، مرددة المفردات العدائية للحروب الصليبية، وداعية لانقسام العالم إلى معسكرين متناقضين: أحدهما خيّـر ومتحضر، والآخر – وهو المعسكر الإسلامي – شرير وبربري![28].

4. تفعيل أنشطة التنصير:

ربما كان من الجائز القول إن هناك علاقة طردية بين ازدياد المخاوف الغربية من الإسلام وتصاعد وتيرة الأنشطة التنصيرية التي يلجأ إليها، وكأن في الـسعي إلـى تنصير المسلمين وإدخالهم في "المحبة المسيحية" شكلاً مـن أشـكال الحيـل الدفاعيـة للتعويض عن كراهيتهم!. فعلى سبيل المثال، وقبل أن يمضي وقت طويل علـى جفـاف حبر المعاهدة التي وقعتها مملكة إسبانيا مع الأمير (أبو عبد الله الأحمر) آخـر أمـراء **غرناطة سنة 897هـ**، تم إنشاء ما عرفت تاريخياً **بمحاكم التفتـيش**، التـي تورطـت باقتراف كثير من الفظائع والمجازر بغية إجبار المسلمين على تـرك ديـنهم واعتنـاق الديانة المسيحية. وكان أول ما قامت به تلك المحاكم هو جمع كل المـصاحف والكتـب العلمية والدينية وإحراقها على الملأ في ساحة عامة، كخطوة أولى لتنـصير المـسلمين بقطع صلتهم مع كتبهم الدينية والتراثية والعلمية. ثم عمدت عقـب ذلـك إلـى تحويـل المساجد إلى كنائس، وإجبار من تبقى من الفقهاء وأهل العلم علـى التنـصر، ليوافـق بعضهم مكرهاً ويواجه بقيتهم القتل شر قتلة، مع التمثيل بجثث الضحايا، وذلك لبث الهلع

في صفوف المسلمين وإيصال رسالة لهم مفادها التخيير بين التنصر أو التعذيب والقتل وسلب الأموال والممتلكات[29].*

أما في عالم اليوم، فتشهد عملية التنصير نشاطاً محموماً في العالم الإسلامي، وبخاصة في البلدان الفقيرة التي تعاني من عدم الاستقرار السياسي، التي يؤمن الغرب أنها تشكل بيئة مناسبة لتفريخ ما درج على اعتباره إرهاباً. ففي **أفغانستان** وحدها على سبيل المثال، التي تولت الولايات المتحدة الأمريكية قيادة حملة عسكرية شعواء لإسقاط نظام طالبان الإسلامي فيها بذريعة دعمه للإرهاب، هناك حالياً ما لا يقل عن (1000) منظمة أمريكية وأوروبية تعمل في مجالات الإغاثة والتنمية، يمارس كثير منها أنشطة تبشيرية مختلفة. الأمر الذي دفع القس (بن هومان) رئيس إرسالية التنصير المسيحي المجرية إلى أن يصرح في عام 2003، وبعد زيارة استطلاعية استغرقت شهراً كاملاً، عن اعتقاده بنجاح "عقيدة التثليث" في تثبيت أقدامها، وعن إمكان نجاح برنامج التنصير في أفغانستان[30].

ظاهرة "الإسلاموفوبيا" في الوطن العربي:

مع صدمة احتكاكه بالغرب قبل قرابة القرنين، بات المجتمع العربي يعاني حالة من الانفصام والانشطار الحضاري، تتجسد وعلى شتى المستويات في سائر أنساق حياة ذلك المجتمع وتفاعلات أبنائه. فبات أسير التخبط والاضطراب والتصارع بين تيارين رئيسين يتنازعان الساحة: تيار إسلامي يعبر عن الفهم الذي حمله المسلمون للإسلام منذ وجد، الذي يدعو إلى جعل الشريعة مرجعية حاكمة وموجهة لسائر شؤون المجتمع، وتيار علماني ينادي بإقصاء الدين عن التدخل في مسائل إدارة المجتمع وتسيير أموره، ناظراً إليه – في أفضل الأحوال – باعتباره شأناً شخصياً بين الإنسان وربه، بما يذكر، إلى حد بعيد، بوجهة النظر السائدة عن طبيعة الدين في المجتمعات الغربية.

وبطبيعة الحال، وبحكم استلهام منطلقاته ومقولاته المرجعية الرامية إلى تحييد المكون الديني من معين التجربة الغربية، ومحاولة إسقاط تلك التجربة على الواقع الإسلامي، دون الأخذ بعين الاعتبار مواطن الاختلاف ومواضع الخصوصية بين

***– كذلك قام الفرنسيون أثناء احتلالهم للجزائر (1870–1962)، بعدّة حملات تنصيرية، حيث نُقل آلاف الأطفال المسلمين الجزائريين إلى فرنسا، وتمّ تنصيرهم – (المحرّر).**

التجربتين الإسلامية والغربية، لم يكن للتيار العلماني إلا أن يتورط - بصورة واعية أحياناً وغير واعية أحيان أخرى - في تبني كثير من المقولات التي يتبناها الغرب حيال الإسلام. ومن هنا يمكن تفسير معاناة أصحاب الاتجاه العلماني في الوطن العربي من ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام، التي لا تتردد في التعبير عن نفسها، بصورة عدائية أحياناً، كلما نجح الاتجاه الإسلامي في إحراز نصر سياسي هنا أو هناك، كما شهدنا عند حصول حركة الإخوان المسلمين في مصر على نسبة معتبرة من مقاعد المجلس التشريعي في الانتخابات التي أجريت في شهر كانون الأول من عام 2005[31].

وبعيداً عن اللجوء إلى توظيف نظرية المؤامرة، والافتراض بأن بعض أرباب الاتجاه العلماني ومروجيه يرتبطون بعلاقات نفعية - بصورة غير واعية أحياناً - مع بعض الدوائر الغربية المشبوهة[32]، فإن المرء لا يحتاج إلى كثير من التدقيق كي يلاحظ قدراً كبيراً من الالتقاء بين المخاوف التي يحملها العلماني في الوطن العربي من الإسلام، وتلك التي يتم تداولها على نطاق واسع في الأوساط الغربية، وكأن الأولى مستمدة في أصلها من الثانية!. فالإسلام في وعي كثير من العلمانيين العرب، بوجه عام، عصي على الانسجام مع الديموقراطية ومقتضياتها، وبعيد عن الإقرار بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل، وقصي عن احترام حقوق الأقليات غير المسلمة، وقاصر عن امتلاك أو تطوير برامج عملية ناجعة للتعامل مع قضايا العصر ... الخ[33].

الخاتمة:

معقدة العناصر ومتشعبة الأبعاد ومتداخلة الارتباطات وعميقة الآثار، هي ظاهرة الخوف من الإسلام. ومن ثم فإن التعامل مع تلك الظاهرة يستوجب تضافر كل الجهود الممكنة في العالم الإسلامي من أجل الخروج باستراتيجية شاملة، ترتقي بإحكامها وتماسكها وإحاطتها إلى مستوى تلك الظاهرة البلغة الخطورة، التي تقف عقبة جدية أمام تمكن دول ذلك العالم من **إقامة علاقات إيجابية سليمة، ليس مع بقية دول العالم، وبخاصة الدول الغربية، وحسب، بل فيما بينها ومع أبنائها أيضاً.**

غير أن الخروج بتلك الإستراتيجية المنشودة يستوجب العمل على **تحديد معالم المنظومة المرجعية المتماسكة والموحدة التي ستنظم سبل التعامل مع تلك الظاهرة،** وتضمن الانطلاق في ذلك من صف متضامن موحد. إذ إن من المستبعد أن يتمكن العالم

الإسلامي من مجابهة وعلاج ظاهرة خوف الآخر من الإسلام، ما زال هو نفسه يختبر الظاهرة نفسها في ربوعه!. وعلى الرغم من إقرارنا بصعوبة الاتفاق على مثل تلك المرجعية المتوخاة، إلا أننا نزعم أن الخطوة الأولى إلى ذلك تتمثل في وجوب الإقرار الفعلي من جانب المجتمعات الإسلامية بأن الإسلام، بثوابته وأصوله العامة، هو الإطار العريض الذي يحتضن تلك المرجعية ويحتوي قواعدها. إذ يغدو انتساب تلك المجتمعات إلى الإسلام واعتبارها (مجتمعات إسلامية) محض لغو لا طائل منه، ما لم يشكل الإسلام بالفعل الأرضية التي تنطلق منها في تعريف نفسها وتحديد هويتها الحضارية، مقارنة بالهويات الحضارية الأخرى.

إن إقرار أبناء المجتمع العربي الإسلامي بأنهم أبناء حضارة عربية إسلامية حقاً، لا يعبر، فيما هو مفترض، عن مجرد شعارات مثالية خالية من الدلالة، يتم ترديدها بلا روح في الخطب والمؤتمرات. بل ينبغي أن يعبر عن **هوية حقيقية** تتم ترجمتها إلى أفعال ملموسة، تقضي بأن تكون ثوابت تلك الحضارة وأصولها وقواعدها الكلية هي الإطار الذي يستلهم منه أبناء تلك الحضارة رؤيتهم للواقع وسبل فهمهم له وتعاملهم معه. وهذا هو السبيل الأمثل، فيما نزعم، لإبراز الهوية الحضارية المتميزة للإسلام، وصونها من أخطار التهميش والتشويه. وتشكل تلك الثوابت والأصول والقواعد الأنموذج المرجعي الذي يحتكم إليه أبناء الحضارة في تشكيل نظرتهم إلى الوجود وموقفهم منه، وفي إسباغ المعاني والدلالات على موجودات هذا الكون، بما يتصل بذلك من مسائل بالغة الأهمية، تتعلق بمفهوم الإنسان نفسه، وأسباب وجوده، ومواصفات دوره الحياتي، وعلاقته بنفسه وبالآخر وبالطبيعة... الخ. ويجسد ذلك الأنموذج حضوراً واضحاً يحل في سائر أنشطة المجتمع الذي يقر بتبنيه، فنستطيع تحسس آثارة جلية في كل بعد من أبعاد الحياة في ذلك المجتمع، ونراه علامة فارقة مميزة في الآداب والفنون وطرق العيش ووتائر التفاعل والسلوك. ومن هنا تظهر إمكانية الحديث عن حضارات متمايزة، يصدر كل منها عن أنموذج موجه له سمات خاصة، تضفي عليه التميز والاختلاف عن بقية الحضارات، وتمنحه هويته وشخصيته المتفردة. والإسلام، وهو الذي وقف خلف صنع حضارة بالغة الفرادة والقوة والرقي والتميز، لم يأت ليكون مجرد دين روحاني لا شأن له إلا بأمور الآخرة والاعتكاف في انتظارها. بل جاء ليكون ديناً شمولياً – ليس بالمعنى السلبي للشمولية الذي أثر عن الأنظمة الاشتراكية الآفلة – ينظّم لأتباعه كل

جوانب حياتهم: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والروحية، والحضارة المبدعة التي تشكلت في رحم ذلك الدين شاهدة على ذلك!. وعليه؛ فقد يكون من أفضل السبل لمواجهة ظاهرة الخوف من الإسلام بعث الحياة في الجوانب الحضارية لذلك الدين، عبر **إبراز أبعاده المشرقة وتجليتها للعالم، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه،** انطلاقاً من منطق المبادرة الفاعلة الواثقة بقوة هذا الدين وإمكاناته الرحبة غير المتناهية، وليس من منطق ردة الفعل الاعتذارية الخجولة، الذي يحكم حتى الآن تفاعل العالم الإسلامي مع معظم التحديات التي تعترض سبيل تقدمه!.

إن هناك حاجة ملحة للتعرف إلى الإسلام، من جانب أبنائه أولاً، تمهيداً لتعريف العالم به. وهذا يتطلب جهوداً حثيثة صادقة من لدن الحكومات الإسلامية لتعريف الناس بجوهر دينهم وتعاليمه الحقيقية. مع ما يرتبط بذلك من وجوب وضع تلك التعاليم موضع التطبيق الفعلي، سعياً إلى تجاوز حالة النفاق والتذبذب والتنافر المعرفي التي تعيشها المجتمعات الإسلامية، نتيجة التأرجح بين الإيمان بمبادئ عقدية وعدم القدرة على الالتزام السلوكي بها!.

وبكل تأكيد، فإنه ليس من الحكمة إحجام العالم الإسلامي عن تعريف أمم الأرض بالإسلام إلى أن يحسم مشكلاته الداخلية المتشابكة المتعلقة بهذا الدين. بل إن من الحكمة المسارعة إلى بذل قصارى الجهود الممكنة لتقديم الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أكبر عدد ممكن من الناس على امتداد المعمورة. إذ تثبت الآلاف المؤلفة من الذين يدخلون في الإسلام كل عام في أرجاء الأرض – على الرغم من الواقع المزري للمسلمين – أن البشرية التائهة تتعطش إلى التفيؤ تحت ظلال الدين الذي ارتضاه الله خاتماً للأديان والرسالات، بعد أن أضناها اللهاث في بيادي العبثية والعدمية والضلال.

الهوامش:

(1) تمام، أحمد. معركة اليرموك وانحسار دولة الروم، مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني **(إسلام أون لاين)** على الرابط التالي:
http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/09/article22.shtml

(2) للوقوف على الدور الخطير الذي لعبته المدرسة الاستشراقية في تزييف الوعي الغربي بحقيقة الإسلام، أنظر: سعيد، إدوارد. **الاستشراق: المعرفة/ السلطة/الإنشاء**، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 2001، ط5.

(3) مطر، جميل. "حوار الحضارات .. السياسي أولاً"، **المستقبل العربي**، العـدد 325 (آذار 2006)، ص 57.

(4) المرجع السابق، ص 57.

(5) فندلي، بول. **لا سكوت بعد اليوم**، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2001. نقـلاً عـن مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني **(ثمرات المطابع)** على الرابط التالي:

http://www.thamarat.com/TourPage3.htm

(6) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 146.

(7) البيهقي، الإمام أحمد بن الحسين. **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب الجامعية، 1985، 207/2.

(8) أنظر:

Hintington, Samuel. The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, New York: Simon&Schuster, 1996.

(9) أنظر:

Gerges, Fawaz. America and Political Islam: Clash of Cultures or Clash of Interests?, Cambridge: Cambridge University Press, 1999.

(10) ملكاوي، أسماء. "حالة العالم الإسلامي: أرقام ومؤشرات"، مقالة منشورة في الموقع الإلكترونـي **(الجزيرة)** على الرابط التالي:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/DD9C49C9-12A3-4E93-A3A7-E37389C9C711.htm

(11) "نظرة الغربيين للإسلام: جانب من الدراسات الغربية التي تناولت الإسلام"، مقالة منـشورة فـي الموقع الإلكتروني **(بلاغ)** على الرابط التالي:

http://www.balagh.com/mosoa/garb/uq0xm36j.htm

(12)هويدي، فهمي. "إهانة نبي الإسلام تجدد السؤال: من يكره من؟"، **جريدة الشرق الأوسـط**، العـدد 9913 (18 كانون الثاني 2006).

(13) أنظر:

Aziz, Abdullah. Mohammed's Believe it or Else!,Kent: Crescent Moon Publishers, 2001.

(14) أنظر: بجك، باسيل يوسف. "قراءة قانونية لمستقبل وحدة شعب العراق"، **المستقبل العربي**، العـدد 323 (كانون الثاني 2006)، ص 100- 104.

(15) على سبيل المثال، صدر عن مراكز البحث الغربية المعنية بالإسلام مئات الكتب التي تركز علـى بعض الشخصيات الخلافية في التاريخ الإسلامي، التي اتهمت بالكفر والزندقة والخروج عن تعاليم الدين الإسلامي، كالحلاج، وابن عربي، والسهروردي...الخ.

(16) لوبون، غوستاف. **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتـاب، 2000، ط2، ص 325.

(17) المرجع السابق، ص 326.

(18) العويسي، عبد الفتاح محمد. "دور بريطانيا في تأسيس الدولة اليهودية (1840-1948)"، **شـؤون اجتماعية**، عدد 75 (خريف 2002)، ص152.

(19) المرجع السابق، ص152.

(20) الميلاد، زكي. **نحن والعالم: من أجل تجديد رؤيتنا إلى العالم**، الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، 2005، ص 90.

(21) المرجع السابق، ص 90.

(22) المرجع السابق، ص 91.

(23) يزخر كتاب نشره جورج بوش الجد عام 1831 بعنوان (حياة محمـد) بالحقـد علـى الإسـلام والمسلمين، حيث نقرأ في الكتاب: " ما لم يتم تدمير إمبراطورية المسلمين، فلن يتمجد الرب بعـودة اليهود إلى وطن آبائهم وأجدادهم"، أنظر: العكش، منير. **حق التضحية بالآخر.. أمريكا والإبـادات الجماعية**، بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، 2002، ص 149.

(24) للأبعاد الدينية، وبخاصة المستمدة من مقولات العهد القديم (التوراة)، حضور واضح فـي أروقـة صنع السياسة الأمريكية منذ زمن بعيد يتزامن مع قيام الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، للتوسع في هذا الموضوع، أنظر: الحسن، يوسف. **البعد الديني في السياسة الأمريكية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000.

(25) الشيشاني، مراد بطل. "المجتمع الأمريكي بعد 11 سبتمبر"، مقالة منشورة في الموقع الإلكترونـي **(الجزيرة)** على الرابط التالي:-http://www.aljazeera.net/NR/exeres/647C5FC5-657D-465D-A995-09D53CF8D25F.htm

(26) المرجع السابق.

(27) المرجع السابق.

(28) المرجع السابق.

(29)"الأندلس بعد سقوط غرناطة: ماذا حدث لأمة الإسلام وفارس الأندلس الأخير، مقالة منشورة فـي الموقع الإلكتروني **(الأندلس للأخبار)** على الرابط التالي:
http://press.arabandalucia.com/?p=1081

(30) الأعظمي، حفيظ الرحمن. "أخطبوط التنصير يجتاح أفغانستان"، مقالـة منـشورة فـي الموقـع الإلكتروني **(الحقائق)** على الرابط التالي:.http://www.alhaqaeq.net

(31) على سبيل المثال، وفي سياق تخوف أحد الكتاب المصريين من فوز حركة الإخوان المسلمين في مصر في الانتخابات التشريعية، ينهي الكاتب مقالة له بقوله: "الجماعة روعتنا في بداياتها بـالعنف، وشغلتنا دائماً بالأمور الهامشية ودعم ركائز الدولة الدينية الفاشية، وسعت لتخريب علاقات مـصر الدولية، ولم تقترب من تحديات الحياة المعاصرة المعقدة وحقوق المواطن في دولة حديثة". أنظـر: خليل، مجدي."الإخوان المسلمون في البرلمان المصري .. وقائع وشواهد قريبة"، مقالة منشورة في الشبكة الإلكترونية على الرابط التالي:
http://www.amcoptic.com/n2005/magdy_khaleel.htm

(32) للمؤلفة فرانسيس ساوندرز: **(الحرب الباردة الثقافية)**، كتاب مهم يتناول بالوثائق والأسماء أساليب عمل المخابرات الأمريكية، بالتعاون مع المخابرات البريطانية أحياناً، في دعم وتمويل أنشطة ثقافية وسياسية تصب في خدمة المصالح الأمريكية. وتشير المؤلفة إلى كيفية عقد ندوات واجتماعات وتمويل مؤسسات عالمية ثقافية وبحثية من جانب المخابرات الأمريكية دون معرفة أصحابها في كثير من الأحيان. لمزيد من التفصيل أنظر:

Saunders, Frances Stonor. The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters, New York: The New Press, 2000.

(33) للاطلاع على آراء بعض المفكرين والأدباء العلمانيين العرب في الإسلام، أنظر: باربولسكو، لوك ؛ كاردينال، فيليب. **رأيهم في الإسلام: حوار صريح مع أربعة وعشرين أديباً عربياً**، ترجمة ابن منصور العبدالله، لندن: دار الساقي، ط2، 1990.

انتقال التكنولوجيا الحديثة، بين خوفين:
يقظة الآخر وسطوة القوة

محمد عبد الله الجعيدي

جامعة مدريد المستقلة - إسبانيا

تسارعت الفتوح وانتشر الإسلام في العالم في وقت قياسي، ودخلت فيه شعوب الأرض أفواجا، فتذمرت كيداً النخبة المتخمة المهيمنة في الغرب، وبخاصة أباطرة الكنيسة وعتاة النبلاء والإقطاعيين الذين ارتعدت فرائصهم، وانغلقوا على ما بأيديهم من مكاسب وامتيازات مشروعة وغير مشروعة، كما انغلقوا على عداء أعمى للفاتح الجديد القادم من الشرق العربي، فسممت الكنيسة الغربية المتهودة مجتمعاتها طوال قرون بعُقد زعاف من الأنانية والحقد والتعالي على الآخر، وبخاصة على العرب والمسلمين، ووجدت عقد الخوف الغربية لها موئلاً في أيديولوجيا عمياء وأنانية تدفع بصاحبها استقواءً واستكباراً إلى التشبث بتميز ظالم على الآخر واستغلاله وإبادته، وحقد لا يرى أحقية الغير في العيش والأمن والتنافس الشريف، وتعالٍ قصُرت مدارك أصحابه عن استيعاب ناموس المساواة بين البشر.

بتلك العُقد النفسية، التي لا تزال الكنيسة الغربية تمكن لها من نفوس مرتاديها ومجتمعها، وبغيرها من النفاثات في العقد التي تبثها بالتبشير المسمم في العالم النامي، يعبّر الغرب المتطور مادياً، وهو وذيوله[1] في الإجمال، من القوى العاتية ذات التاريخ الاستعماري الدموي، عن خوف، بل فزع يساوره، من مجرد التفكير في فقدان التميز والامتياز، أو مجرد التفكير في إمكانية مساءَلتة عن جرائمه المتناسخة، ومطالبته بإيقافها، إن لم يكن بتعويض الضحية، بل الضحايا، إذا أصبحت هذه الأخيرة في وضع الندية، وربما التفوق القادر على المحاسبة. ففي كيمياء خوف الغرب من الآخر، عربياً كان أم مسلماً، مشاهدة للذات في المرآة مشاهدة تمتزج فيها أيديولوجيا التطرف الذرائعي في إنكار الغير وجنون الاستحواذ على مقدراته ومستقبله، بوعي الذات الخائفة نفسها بقدرة هذا الآخر على الانبعاث والنهوض من كبوته، إذا سيطر على ثرواته وتوفر لديه الحد الأدنى من الحرية والأمن والأمان والقدرة في الدفاع عن النفس وخيار تقرير المصير، وكلها من حقوقه الأولية غير القابلة للمساومة أو للنيل منها.

أما العالم النامي، ومنه العرب والمسلمون، فالخوف أو التوجس الذي يرقى عندهم إلى درجة الحدس أو حتى اليقين، فيتأتى من خشيتهم من الشروط التي يفرضها أو قد يفرضها عليهم، بسطوة القوة وسياسة فرّق تسُد، ذلك الغرب المستأثر لنفسه بمقومات التكنولوجيا الحديثة وبعصب الاقتصاد العالمي ووسائل الإعلام، وكلها شروط، بل قيود، لا تصل باستفادتهم من التكنولوجيا المجلوبة إلى مستوى المستهلك المنتج العارف بما بين يديه، وإنما تبقيهم مستهلكين غافلين عبيداً لما بين أيديهم. وهو خوف مشروع يتأطر في إطار الدفاع عن النفس والحفاظ على الذات، وقد أكدت عليه تجربتهم مع الدول المتطورة عدواناً وتكنولوجيا، من حيث استهدافها كيانهم وكينونتهم واستنزافها ثرواتهم الوطنية ومقدرات حياتهم، إذ ترتبط حالات الحصول على استخدام التكنولوجيا بشكل عام، بفرض شروط الظلم والتخلف والتصارع واستنزاف مقدرات الأوطان وتجاهل حقوق الإنسان، وتكييف الوضع كله على ما لا يخرج عن مركزية الغرب المهيمن وأطماعه المتعارضة في جلها مع مصالح البلاد والعباد في العالم النامي الذي يعيش بأكمله تحت وطأة الابتزاز والتهديد المستمر، من موقع الاستكبار والاستقواء، باستخدام فصل "التخويف" السابع من ميثاق الأمم المتحدة، استخداماً انتقائياً جائراً، لحصار بلدانه المتمردة على الإرادة الاستعمارية الغربية، وغزوها واحتلالها واستنزافها وتفكيكها وتدميرها.

وبهذا يمكننا القول إنّ ازدواجية الخوف التي تحكم العلاقة التكنولوجية وغيرها من علاقات الدول المتطورة بالبلدان النامية، تراوح بين قطبين أو خوفين متباينين، أحدهما **وهمي مختلق مصدره اختلال نفسي**، يترتب عليه سلوك غير سوي لنخبة مهيمنة في المجتمع قد تنتقل عدواه، إلى ما سواها، إذا توفرت لها الشروط الملائمة واستطاعت اختراق جدار المناعة الأخلاقية والعقلية، في محيطها أو في محيط القطب الآخر[2]، وثانيهما **تجربة حقيقية معيشة مصدرها واقع قاس وتجربة مرة**، يتحسسها الإنسان في لحمه الحي ويعاني المجتمع بأكمله من سلبياتها المادية والمعنوية الملموسة. وبهذا فليس الغرب في هذه الدراسة وطناً أو شعباً، ولا حتى تاريخاً أو جغرافيا، أو عرقاً أو ديناً، بقدر ما هو ظاهرة أيديولوجية وسلوكيات بشرية، كصاحبها عابرة، حتى وإن تواترت فصولها وتشابهت أدواتها ودوافعها المعلنة. أما **البلدان النامية**، فهي حقيقة واقعة أرضاً وإنساناً يقع عليهما أذى نخب الغرب المهيمنة الذي قد تتورط فيه نخب أخرى معزولة

من البلدان النامية ذاتها. وتسلمنا معطيات مفهوم الخوف التحليلية، بهذا المعنى، إلى فرضية **هيمنة المتخيّل المرَضي على الواقع الحقيقي،** في سياق تفرضه موازين القوة والضعف في ظل اختلال ميزان العدل، حتى تتراءى الذرائع، أمام البعض الواهم، براهين بينات، أو في الأقل، مسائل متشابهات، تحيل الحق جانباً وتحل محله.

والشيء بالشيء يذكر، فبدون تلكؤ أو تردد، قبل الغرب **(تركيا)** النامية المسلمة في حلف الناتو العسكري الأطلسي أداة بطش وهيمنة، لكنه تردد وخاتل وماطل وارتعدت فرائصه، لأكثر من أربعة عقود من مجرد التفكير في إمكانية الشروع في مفاوضات معها، للتوافق على شروط، قد تؤدي إلى انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، ولما لم يجد مفراً من ذلك طالبها، بلهجة متعالية لا تخلو من أحقاد عنصرية ودوافع مذهبية، وربما ترسبات تاريخية موروثة، على لسان الرئيس الفرنسي(3) بالتثقف، فتأكدت من جديد طروحات ادوارد سعيد في استشراقه بهذا الشأن.

إن كان الخوف الطبيعي المبني على معطيات حقيقية للواقع حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وظاهرةً صحية مشروعة، تزن الأمور بالقسطاس وتدفع الذات، عند الحاجة، إلى الأخذ بزمام المبادرة أو إلى التريث في الحكم على المتشابهات واتخاذ القرار خشية التورط فيما لا تحمد عقباه، فالخوف المرضي وباء فتاك يحيل حاضنه ذئباً شرساً أو ثوراً هائجاً لا تحكمه غريزة ولا يردعه رادع. وبتمكن أحد الخوفين من النفوس(4): سيان كان خوف الغرب من يقظة الآخر، وهو خوف مرضي مصدره هاجس فقدان الهيمنة أوقعه في تهيؤات محادثة الله لرؤسائه المنتخبين وحضِّه إيَّاهم على انتحال مشروعية الهيمنة والعدوان والاغتصاب والقتل باسمه، أم خوف البلدان النامية من سطوة القوة الخارجية الغاشمة وهو خوف طبيعي مصدره غريزة الدفاع عن النفس، يتعثر نقل التكنولوجيا الحديثة من مناشئها، كما تتعثر إعادة توطينها خارج تلك المناشئ. طوال ثنائية دامية من الاستهداف ورد الاستهداف أو المقاومة، **سعى غرب حكومات النخبة الفرنجية المدمن على صناعة الاحتلال والاغتصاب والإبادة والتدمير، منذ أن أطفأ أنوار الأندلس، إلى حصار العالم الإسلامي** والهيمنة عليه من أقصى شرقه في جنوب شرقي أسيا، فقادت الصدف، في حينها، مغامراتِه الجغرافية، المدفوعة بأسباب أيديولوجية استكبارية ونهم في الاستحواذ على ما بيد الغير، حول رأس الرجاء الصالح وفي المحيط الأطلسي، إلى اكتشاف العالم الجديد؛ إلاَّ أن ذلك العالم، بذهبه وخيراته

وأراضيه وعبيده، لم يُنس **غرب الحملات الفرنجية على بلاد الشام ومحاكم التفتيش في شبه الجزيرة الأندلسية** وصكوك الغفران البابوية عداءَه المزمن للإسلام ودياره ومعتنقيه، فعاد الكرّة، وراح يبحث عن وسائل لحصاره وخنقه[5]، وأجج الصراع في حوض البحر الأبيض المتوسط، ليبلغ مداه بسيطرته الاستعمارية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، على العالم الإسلامي، وعلى بلدان أخرى غير إسلامية، ومن ثمة إقامة قاعدته الصهيونية على اغتصاب **أرض فلسطين**. "فالغرب الذي نحن بصدده هو غرب النخبة الحاكمة المهيمنة ذات الإرث الأيديولوجي الفرنجي والتربية الصهيونية[6]، مهما حاول التستر على حقيقته غير السوية التي تُضمر للآخر حقداً أصفر ينذر الإنسانية بالإفناء، وهو ذاته الذي سقطت شرعيته السياسية ومصداقيته الأخلاقية تحت أقدام الملايين التي غصّت بها شوارع عواصم العالم، ومنها عواصم غربية وأوروبية، في ربيع 2003، غضباً واحتجاجاً على غزوه العراق وتدميره ونهبه وقتل إنسانه والعبث بوحدته ومستقبله، بذرائع واهية وكاذبة. وتحت الأقدام المتوقدة غيظاً نفسها سقطت ذرائع غرب تكنولوجيا **قنبلة هيروشيما ونابالم فيتنام وجنون البقر** وأقنعته، يوم اعتبر 57% من مواطني دول الاتحاد الأروبي، تحالفاً للقتل كانت أم عجوزاً مقعدة! بلا خوف أو تردد، رأسَه الولايات المتحدة الأمريكية وصنيعتَه إسرائيل خطراً حقيقياً على السلام العالمي"[7].

في وقت معلوم، راحت دول الغرب الاستعمارية المنفردة اليوم بأسباب التكنولوجيا ورخاء العيش، تتنافس في **نهب خيرات مستعمراتها**، وتراكم الغنائم والتحف في بلدانها، حتى تحقق لها ما تعيشه اليوم من تطور مادي ورفاه معيشي، دون أيِّ اعتبار لآلام الضحية أو هويتها الثقافية أو حقوقها الوطنية أو مصالحها الاقتصادية، حتى تجسد المشروع الاستعماري اليوم في "النظام العالمي الجديد" الذي أرادته طائفة المحافظين الجدد الحاكمة في واشنطن "فوضى عالمية جديدة"[8]، تسعِّر وطيسها أيديولوجيا مفاهيم استعمارية غربية ملتوية، أسقطها "الشيطان الأكبر" على واقعنا في العالم النامي، بمعايير صهيوفرنجية مزدوجة مثل"**دولة إسرائيل اليهودية!**" و"الصليبية الجديدة!" و"محاربة الإرهاب!" و"المكعب الأحمر طامس جرئم الصالبين"، و"العقوبات الدولية" و"فرض الديمقراطية!" و"معاداة السامية الخزرية!" والمحرقة النازية بالمقاسات الصهيونية!!"[9] و"الشرق الأوسط بمقاساته الغربية!" و"الإصلاح!"، و"حقوق الإنسان!" و"الانفتاح!". ولأنَّ

إسرائيل التكنولوجية القاتلة دولة واقع وليست دولة شرعية[10]، ظلّ يتملك الغرب الاستعماري الممسك بخناق التكنولوجيا الحديثة، وخناق العالم بأكمله، خوفٌ بل رعبٌ من حقيقة أنَّ صنيعته، راعية مصالحه ومحققة مخططاته وأطماعه في المنطقة العربية الإسلامية، لا محالة زائلة، وأنَّ انسياق الأنظمة الحاكمة في الوطن الإسلامي في ركابها، لم يعد كافياً لتأخير أجلها، مما جعل استهداف هذا الوطن وتمزيقه والهيمنة عليه، من الخارج بالحصار والغزو الأجنبي، ومن الداخل بصراعات وحروب أيديولوجية، طائفية وعرقية، داخلية وحدودية، ضمانة مرجّحة لذلك التأخير، يجهد غرب النخبة المهيمنة في تحقيقها وتصييرها واقعاً مفروضاً ومألوفاً، وفي ذلك يكمن سر الهجمة الغربية الاستعمارية المتهودة، بالتكنولوجيا وبغيرها من وسائل الفتك والسيطرة، على آخر معاقل صمود العرب والمسلمين[11] في **سورية وإيران**، وعلى آخر معاقلهم المقاومة في **فلسطين والعراق ولبنان**، فأين نحن إذاً من توطين التكنولوجيا في بلادنا، والأمن لم تطأ قدمه من بعد تراب أوطاننا! وعين الحقيقة هي أنَّ استنساخ الكيان الصهيوني من خلايا الغرب الفرنجي الاستعماري الحاقد الممسك بخناق التكنولوجيا وفرضه بقوة التدمير والإبادة والتهجير والاغتصاب والإذلال على أرض فلسطين العربية الإسلامية سيظل، إلى أن يزول، مصدر خوف وكراهية وفعل ورد الفعل بين العالم الغربي وبين العالم الإسلامي، على المستويات جميعها، ومنها المستوى التكنولوجي. وما اعتداءات الغرب المعاصرة على العالم الإسلامي، تكنولوجياً كان قناعها أم سياسياً، إلاَّ برادع متعددة الأشكال والألوان لحمار واحد هو إسرائيل.

بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، وبنادي السبع الصناعية الكبار ونادي باريس، وباتفاقيتي التجارة العالمية وحقوق الملكية الفكرية، وبقرارات مجلس الأمن الدولي النافذة استضعافاً للغير وقهراً لإرادته، وبغيرها من مكائد ما أنزل الله بها من سلطان، جعلت الدول المتطورة، وجلها غربية، بقيادة يانكية[12]، كلَّ مُستقرٍ في العالم النامي الذى استعمرت معظم بلدانه ممراً لعدوانها وأطماعها وهيمنتها لبلوغ غاياتها الكريهة، كما جعلت منه **سوقاً استهلاكية بامتياز لمنتجات شركاتها عابرة القارات**، وفرغته من التصنيع ومن الحياة الكريمة، ليعيش ثلث سكانه في فقر مدقع، ويعاني بأكمله من التهميش والحصار والديون الخارجية والمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المزمنة، وهي في مجملها أعراض عابرة واختلالات مصطنعة، تنبع من

سلوكيات نفوس خائفة، وتزول بزوال اليد التي تفرضها، وبتطهير الذات من الأنانية والحذر من الوقوع في شرك السموم الأجنبية المسماة أحياناً "معونات إنسانية وتنموية!" تفرضها الضغوط السياسية الخارجية، على ضعفاء، تحرّك ذوي الأمر فيهم مصالح شخصية، ومخاوف من كشف المخفي من جرائمهم، أو بطش سطوة القوة بسلطانهم وحرمانهم من امتيازاتهم، حتى أصبح انتقال التكنولوجيا إلى العالم النامي رهين ثقافة الخوف بكل مظاهرها واتجاهاتها ودوافعها، من وفاقات سياسية دولية ظالمة، وموازين قوى مختلة ومزاجية مجتمع دولي غير مبالية متقلبة، ومكاييل سياسية مزدوجة قاهرة، تسلب الضحية حقوقها الثابتة وأسباب بقائها.

فقد فهم الغرب الاستعماري ذو المعايير المزدوجة، والذمم الفضفاضة العولمة التكنولوجية والاقتصادية والثقافية، من خلال أيديولوجيته الاستعمارية المتعالية المسئولة عن استمرار الوجع الفلسطيني وأوجاع إنسانية أخرى، على أنها تبعية الآخر له، متجاوزاً بمسُوحه المادية الصارخة، وفهمه الملتوي للأمور، وليبرالية الإفساد الأخلاقي والاجتماعي التي يسعى لتصديرها إلى الآخر[13]، حقيقة أنّ **العلم هو مجموع ما وصل إدراك الإنسان من معارف في مختلف الأماكن والعصور، حول الكون ومكوناته، الظاهر منها والباطن، وأنه من العلم انبثقت التكنولوجيا، كمعرفة بدقائق الأنشطة التنموية وتفاصيل فنونها، وكمقدرة على توظيف كل المعارف والكفاءات المتاحة فيها لزيادة الإنتاج وتحسينه ورواج التجارة وحسن القيام على رعاية الأرض وما عليها**. وهذا كله يندرج في باب التقدم، وهو غير ما أصاب الغرب الذي تطور اقتصادياً وتكنولوجياً، دون أن يقرن ذلك بما يلتقي مع ما في النفس السوية المطمئنة من وازع أخلاقي وعطاء غير ممنون، يجعلنا نصنفه في باب التقدم بمعنى التغيير نحو الأفضل والأنفع للصالح العام الأشمل. حيث "إذا كانت فكرة التطور مستندة إلى نظرية محققة ولو نسبياً، أي إلى فرضية اجرائية علمية مدعمة، فإنّ فكرة التقدم هي فكرة أخلاقية وأيديولوجية محضة. فالتطور يمس الأشياء بشكل عام في استقلاليه عن الذات، أما التقدم فيتعلق مباشرة بالذات وبالمعايير الأخلاقية الاجتماعية. وتكمن الحركة الأيديولوجية هنا بسحب فكرة التقدم على التطور، وإظهار كل تطور كتقدم بحد ذاته"[14].

وفي هذا السياق يقترن التطور الذي تريده الدول الاستعمارية للعالم النامي، في ظل الخوف من نهضة الضحية، وتحت وطأة خلط المفاهيم الذي ينتابها، بتأجيج الصراعات

العرقية والطائفية وتناطحات الأنظمة الحاكمة، والتواطؤ في فرض الخطايا الدستورية التي تكرس الحكام في السلطة مدى الحياة[15]، وتنصيب الجواسيس والمتعاونين حكاماً بالنيابة على أوطان خانوها وشعوب قهروها، وإفشاء آفات الفوضى والفقر والظلم والمرض، في ظل اختلال ميزان العدل، واستقواء البعض على الأهل والوطن باليد الأجنبية المتربصة، واستبدال الطغيان المحلي بالاحتلال الأجنبي، وغيرها من مكونات مفهوم التخلف الذي هو نوع من أنواع التطور، بمعناه السلبي أو العدمي، كما هو الحال في التطور "التنموي والإعماري والديمقراطي!" المزعوم الذي يتشدق به الغرب التكنولوجي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان.

ولهذا أحدث تطور التكنولوجيا المتسارع في جزء من هذا العالم دون آخر، في ظل خوفين هما نتيجة حتمية لاختلال موازين القوى وما قد يترتب عليه من اختلال ميزان العدل، مفاجأة في المجتمعات النامية، والتقليدية ذات الثقافة العريقة منها بخاصة، وآثار إحساسها بعدم الاستقرار وفقدان الأمان، فلم يكن من السهل عليها تقبل هذا المُعطى التكنولوجي بملحفاته وخصائصه الإيجابية والسلبية في سلة واحدةً مغلقة، مما أدى إلى تأجيج المقاومة حفاظاً على هوية الذات ومكتسباتها. ومع ذلك فليس بمقدور الإنسان، لأسباب ذاتية وموضوعية، أن يعزل نفسه عن التطور العلمي والتقني، ولكن، يظل من حقه الطبيعي، بل ومن واجبه الشخصي والوطني والإنساني، أن يحصِّن نفسه بالاستقلالية والفاعلية ضد الآثار السلبية المدمرة لذلك التطور وما يُدس فيه من سموم، منها تفكيك البنية الأساسية للمجتمع بخلق صراع المسخ والتكرار لإخلال التوازن وإفساد التكامل بين الرجل والمرأة، ومنها أيضاً التلصُّص، أي الإمعان في سرقة الغير، وما قد يحمله من أيديولوجيا التسميم الثقافي والاجتماعي والسياسي[16] والاقتصادي والبيئي، وتصدير اللحوم الفاسدة وغيرها من الأغذية والأدوية منتهية الصلاحية للآخر، وحتى اقتلاعه من وطنه واستباحة حياضه، وتجريده من مقومات الحياة الكريمة[17] ومن حق الدفاع عن النفس[18]، إذ صيَّر الاحتلال الغربي، بقيادة واشنطن، بلداً نامياً كأفغانستان نهباً للنزاعات العرقية والطائفية وحقل تجارب لسموم التكنولوجيا الحربية التدميرية والتجسسية، ومزرعةً للمخدرات التي يمثل نتاجها 60% من الدخل الوطني للبلاد. كما صيَّر الاحتلال والعدوان اليانكي بلداً آخر نامياً كفيتنام عصفاً تفترس تكنولوجيا السموم الكيماوية والإشعاعية والوبائية إنسانه وبيئته، وما زال يخنق كوبا النامية، منذ أكثر من

نصف قرن بحصار شامل قاتل، ويدمِّر العراق ويمزّق لبنان ويبث الدسائس والفتن والضغائن فيه، لتحقيق هيمنته الكاملة عليه عبر أداته إسرائيل[19] وعملائه المحليين.

فمرد علاقة الغرب المتعثرة مع الشرق[20] هو وباء الخوف المتجذر في نفسيته القلقة الخرفة وعجزه عن استيعاب مبدأ الندية وتكافؤ الفرص في السلوكيات الإنسانية، فبينما انضوى المغول، بعد جيل أو جيلين، تحت راية الإسلام حماة وبناة ودعاة، عجز الأوروبيون، رغم التجربتين الأندلسية والشامية اللتين تمثلان حقبة من تاريخهم، عن اكتساب روح الإسلام وأخلاقه أو استيعاب رسالته النبيلة، وتوقف الخوف والحقد بهم عند الاستعداء عليه وتجريح رموزه، والأخذ بماديات من حضارته، أقاموا عليها نهضة أوروبا التي نراها، فبلغ تطورهم المادي مبلغه، سطوةً ووحشية، دون أساس أخلاقي، أو وازع قيمي، حتى غدا على شفا حالة من التفكك والانحلال، دون أن يعير أدنى قدر من الانتباه إلى حقيقة "أنَّ العالم يحتاج فعلاً إلى ثورة أخلاقية غير مسبوقة تنظم إيقاعه الإنساني وتحرره من جوقة الطامعين بتحويله إلى مجرد شركة كبيرة تلتهم كل ما هو أدنى منها، وتدحض منظومة القيم المتفشية في المجتمعات والحكومات وتحاول تأهيل الإنسانية لأن تكون أكثر تقبلاً لوجودها ومعناها، وأن لا تبدو التشريعات والنصوص الحقوقية التي تتعلق بالإنسان مفرغة من محتواها أو مجردة من فحواها أو خارجة على ما نصت عليه"[21].

وأياً كان موقع الإنسان، في هذا العالم، وأيما بلغ تجبره وجبروته، فالدول تدول، والبلدان مالكة التكنولوجيا وغاصبة حقوق الآخرين، وبخاصة الغربية منها، ومثالها الأبرز "إسرائيل"، مهددة، كما تشهد الصفوة من أصحاب العلم والرأي فيها وتتنبأ، على هدى النظرية الخلدونية في نشأة الممالك وزوالها، بانهيار تلك الدول من داخلها وأفول نجمها واندثار أثرها، وأنَّ الحضارة الشرقية، وموطنها العالم النامي، وجلها عربية وإسلامية ستشهد انبعاثاً يضع الأمور في نصابها الحضاري[22]، كما في الحديث الشريف: "ما آمن مَنْ بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم".

– لقد طوَّر الإنسان بعمله وابتكاره الأداة والآلة، بانياً على خبرات من سبقه بناءً ارتفع صرحه وعرفناه اليوم، في أحد مظاهرة، باسم التكنولوجيا المعاصرة، وقد غدا ريعها حكراً على حفنة من الأسر والأفراد التلموديين المتناحرين على امتصاص دم الشعوب، لمضاعفة رؤوس أموالهم الطائلة، وإحكام قبضتهم، في هذا العالم، على رغيف

خبز الإنسان وجرعة مائه، دون رادع من ضمير أو أخلاق، فقد حذر تيد ترنـو، أحـد **أباطرة التكنولوجيا المعلوماتية وصاحب محطة CNN المعروفة، العالمَ من امبراطـور آخر، من أولئك الأباطرة هو روبرت مردوخ، اليهودي الاسترالي الذي يحمل جنـسيات عديدة، من بينها "الاسرائيلية"، ويسيطر علـى مئـات الـصحف وعـشرات القنـوات التلفزيونية**، بقوله: **"لا تسمحوا بدخول هذا الرجل إلى بلادكم، فهو يريد السيطرة علـى جميع محطات التلفزيون في العالم، ويريد التأثير في كـل الحكومـات".**[23] فبـامتلاك الإعلام والسيطرة عليه، تمكنت حفنة من الشركات الخاصة عابرة القوميات من السيطرة على العالم، فهي التي تصنع السياسيين وتحطمهم، وتضع الحكومـات وتـسقطها، بـل وتصنع الدول وتشطبها[24]. وبذلك يمكن التأكيد على أنّ ظاهرة نفـاذ التكنولوجيـا، أو إنفاذها، لا تخلو في مضمونها عند حكومات البلدان المتطورة، مـن مقومـات ربحيـة واستغلالية، لا تعرف القناعة، وأخرى أيديولوجية موروثة، لا مكان فيها للآخر. وهـي مقومات تعويقية مضافة تقف حائلاً عنيداً دون توطين التكنولوجيا في العـالم النـامي أو نفاذها إليه، وبخاصة إلى أقاليمه العربية والإسلامية، مما يضع الإنسان في هذه الأقاليم، إذا أراد نقل التكنولوجيا الحديثة إلى بلاده وتوطينها واستيعابها، ومسايرة العصر في هذا المجال، أمام تحديات لا سبيل إلى تحييدها أو تجاوزها إلاّ بمضاعفة الجهد، والاعتمـاد على النفس، لبناء مجتمع حر سليم متكافل، يثق بنفسه، ويعي مسئوليته، ويـدرك أبعـاد المكيدة التي تُدبَّر له، من الخارج والداخل على حد سواء، قبل أن تضيق عليـه الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه.

فعالم اليوم التكنولوجي والاقتصادي والعسكري يهيمن عليه اليهـود والمتهـودون، على اختلاف قومياتهم وأعراقهم، ويحركونه بمفاهيم تلمودية جاحدة جلبت النقمـة عبـر التاريخ على حامليها ومتبنيها، فارتد عليهم، بين الحين والآخر، بعضُ ما اقترفت أيديهم، ولكنهم لم يتعلموا دروسَ التاريخ تعلمَهم السيطرة على تكنولوجيا وسائل الإعلام وجبايـة رأس المال لتسميم أفكار الآخر/الغوييم وإفساده واستعباده والسطو على إنسانيته وتراثـه وثرواته ومعاناته، كما لم يؤهلوا أنفسهم للتعايش مع شـعوبهم فـي أوطـانهم تأهيلَهـا لتكنولوجيات الدسيسة والتجسس، والابتزاز والحقد، والتخريب والتزييف، والغـدر بمـن آواهم من عرب ومسلمين، منذ الأندلس حتى فلسطين. ، وبهذا يمكن تفسير دور الخوف في دفع القاتل إلى مربع الذعر والإمعان في جريمته لمجرد رؤية ضحيتَه ماثلة أمامـه

تنبض بالحياة والتحدي. فأخطر ما يهدد وجود الشعب الفلسطيني ومصيره، على سبيل المثال، هو دخول جلاديه حالة الإدمان المزمن، على الولوغ في دمه ونهش لحمه نيّئاً، متحسّسين عواقب ما تقترف أيديهم، مما يدفعهم إلى محاولة التخلص مادياً من الضحية، بكل ما تحمله، على جسدها وفي أعماقها وذاكرتها الشخصية والوطنية، من علامات إدانة لهم، وشواهد على بشاعة جرائمهم المتناسخة[25]. وما نصب آلات التصوير المشمعة ذات التكنولوجيا المعقدة، في صالات منافذ هذا البلد الحدودية أو ذاك، تنقل همسات أهله العابرين منه وإلية وتعابير وجوههم، على مدار الساعة إلى شاشات مركزية منصوبة في أوكار هذا الغرب المحفورة في أراضينا العربية والإسلامية والنامية المحتلة أو في بلاده هو، إلاّ واحد من أعراض هذا الخوف الذي يسكن القتلة والغاصبين.

إنّ انتقال التكنولوجيا الحديثة، أو نفاذها، على أيٍّ من مستوييه الأفقي أو الرأسي، يعني انتقال المعرفة العملية والنظرية اللازمة لتصنيع منتج أو تطويره أو لتطبيق وسيلة أو طريقة، أو لتقديم خدمة إنتاجية. وليس من ذلك في شيء مجرد بيع السلع أو ابتياعها، أو تأجيرها أو استئجارها، أو جلبها وتخزينها إلى أن يتطفل عليها العفن أو ينخرها الصدأ أو تنتهي صلاحيتها. وربما كان الانتقال أو الجلب المرحلي بما يناسب القدرات والحاجات المحلية، في حالة اختفاء أسباب ثقافة الخوف القادمة من الخارج أو النابعة من الداخل أو بقائها، هو الأنسب، للبلدان النامية التي لا تزال في بداية الطريق إلى امتلاك أسباب التكنولوجيا وتوطينها.

فقد سعت الأمم المتحدة ومنظمات السلام غير الحكومية إلى تسهيل نقل المعارف التقنية وتطبيقاتها إلى الدول النامية،[26] ومنع انتشار الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والإشعاعية والهندسة الوراثية واستنساخ البشر، إلا أن سيطرة الدول الاستكبارية، وهي نفسها المستأثرة بالتكنولوجيا الحديثة، على المنظمة الدولية، عبر مجلس الأمن فيها أو غيره من هيئاتها، قد احتوت المحاولة وهمشتها، وجعلت منها أمراً انتقائياً بيد الغزاة والغاصبين، لا تحكمه أخلاق ولا يردعه رادع، حتى غدت للكيان الصهيوني القائم بالقوة على أرض فلسطين، بعون الدول الاستعمارية المتطورة ودعمها التكنولوجي والسياسي والاقتصادي، ترسانة نووية فتاكة، تهدد الأمة العربية الإسلامية والجوار بالفناء والدمار.

فالبحث العلمي المعني فقط بتفتيت الذرّة وفك شفرة الجينات الوراثية على المستويين الحيواني والنباتي، كما هو الحال في الطفرة التكنولوجية الغربية، ومثالها الصارخ والفاضح ذلك الكيان الصهيوني غاصب فلسطين، دون الارتقاء بالأهداف الإنسانية النبيلة هو بلا شك بحث نابع من ثقافة الخوف ومحكوم بالروح الشريرة الجزعة التي تسكن الإنسان غير السوي. وفي هذا الإطار وظف الغرب الفرنجي ورأسه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فيما انفضح أمره، التكنولوجيا المتطورة لتسميم البيئة وتدمير الحضارة وإبادة الحياة، وتكريس سياسة الأرض المحروقة، وإجراء تجارب تكنولوجيا الحرب الوبائية والكيماوية والإشعاعية على الأغيار وأوطانهم وقوّتهم، والمتاجرة بأعضائهم الجسدية، في اليابان وفيتنام والعراق وفلسطين ومصر وأفغانستان وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وغيرها.

بعقدة الخوف حكم غرب النخبة الدموي العالم، مدةَ ثلاثة قرون تقريباً بالحديد والنار، فقتل من قتل ونهب ما نهب، وبالخوف أباد مسلمي الأندلس وهنود أمريكا الحمر وملايين السود الأفريقيين، وقتل مليون جزائري وأربعة ملايين فيتنامي وثلاثة أرباع مليون من الشعب السلبادوري الذي لا يتجاوز عدد سكانه الخمسة ملايين نسمة، حتى أصبح توهم الخوف واختلاق أساطير الخوف والتخويف مثل "أسطورة خوف أمريكا البيضاء من الإنسان الأسود" و"أسطورة النحل الأفريقي القاتل" و "أسطورة بناء الهيكل المزعوم" ثقافة وحاجةً، ومخدراً واستثماراً، يمتص دماء الناس، ليصبها أموالاً وسطوةً في جيوب النخبة المهيمنة الحاكمة في مجتمعات غربية كمجتمع الولايات المتحدة الأمريكية، المسكون بفزع وهلع مختلَقين يقتلان من أبنائه سنوياً 11.127 شخصاً[27].

الوصف التشخيصي لخوف الغرب القابض على معظم أسباب التكنولوجيا الحديثة يقول أنه حالة مرضية مستعصية تفاقمت من تراكم مكونات تاريخه الدموي ونزوعه الإجرمي الذي فجّر في أقل من نصف قرن حربين عالميتين مفزعتين وعشرات من حروب الإبادة الإقليمية والاغتيالات الفردية والجماعية التي قطعت أوصال بلدان العالم وفتتت شعوبه بتوافقات سايكسبيكوية وبالطية استعمارية غادرة، وقتلت عشرات الملايين، ومزقت فلسطين وشردت شعبها لتغرز فيها وعلى أشلائه رأس حربة تكنولوجية

صهيوفرنجية مسمومة ينقض بها ذلك الغرب، وقتما شاء وكيفما شاء، على بلدان العالم الإسلامي وأكنافها لتكريس تفوقه وهيمنته على المنطقة، بأقل قدر من الخسائر.

إنّ أحدث تقنيات نقلتها تلك الدول المتقدمة للعالم النامي، تتمثل في سجن غوانتنمو وكفاءة تجهيزاته في الفتك بالانسان وتدنيس القرآن، كما تتمثل في المعتقلات السرية اليانكية التي يغوص بعضها كالقبور في باطن الأرض في العالم الإسلامي وأوروبا الشرقية[28] أو يجوب بعضُها الآخر المحيطات والبحار، منذ أحداث البرجين الغامضة، على ظهور السفن الحربية اليانكية، وفي زنازينها التابوتية اثنا عشر ألف مخطوف عربي ومسلم، ترسلهم، بين الحين والآخر إلى أنظمة حكم عربية وإسلامية وشرق أوروبية معلومة، ليُصار إلى انتزاع الاعترافات الظالمة المطلوبة منهم، بأبشع وسائل التعذيب وأشدها همجية وسادية. ومن منا لم يجرب في لحمه الحي أحدث صيحات تكنولوجيا التعذيب الجسدي والقهر النفسي، ذات العلامة الصهيوفرنجية الفارقة التي يستخدمها الغرب بيده مباشرة أو بيد إسرائيل الغاصبة أو بيد أنظمة الحكم المستبدة في عالمنا الإسلامي لإذلال المواطن العربي والمسلم وكسر إرادته.

العالم النامي مرهون بالوكالة رغم إرادة شعوبه، حاضراً ومستقبلاً، حكومات وثروات، إرادات وحريات، لدى غرب النخبة المهيمنة على مقدرات هذا العالم، وإلاَّ فما معنى أن يستطيع المواطن في واشنطن ولندن و باريس وروما وطوكيو ومدريد التظاهر بالملايين في الشوارع ضد مجازر بوش وشارون في العراق وفلسطين ولبنان، وإرغام حكوماته على معارضة تلك الجرائم، ولا يتمكن مواطن عربي واحد في القاهرة وعمان وتونس والرباط وطرابلس والرياض، من التوجع بصوت مسموع مما تتركه تلك المجازر نفسها على جسده وفي نفسه من كدمات مؤلمة وجراح نازفة، دون أن يكون طالباً الشهادة لنفسه، والصبر على تحمل الأذى لكل من، وما تربطه به من صلة، قريبة كانت أم بعيدة.

فتلازم التنمية التكنولوجية، في كل مكان وزمان، مع التنمية البشرية القادرة على تملك ناصية التفكير البحثي وجعله نهجاً للحياة اليومية، في ظل النواميس الأخلاقية والقيم الإنسانية، لا يتأتى بالاستسلام لمعطيات ثقافة الخوف وعقد حامليها، وإنما ببناء مجتمع حر يملك قراره في تقرير مصيره على الصعيدين الداخلي والخارجي ويتخلص، بالبناء المدروس والثقة المتبصرة، من العقد التعويقية، ففي مجتمع حر كهذا يسهل استيعاب

التكنولوجيا المجلوبة، ويسهل توطينها واستنباط مثيل لها، يستفيد من المعطيات المتوفرة عالمياً ومحلياً، لتطويرها في موطنها الجديد وإيصالها إلى مستوى منافس، ولو في الحد الأدنى، يجنِّب المجتمعات الموطِّنة، الأقل تطوراً السقوطَ في التبعية الأبدية[29] للعولمة التكنولوجية المستكبرة وسلبياتها.

وقد يكون خير نموذج يُحتذى في نقل التكنولوجيا وتوطينها في العالم النامي، الذي يعاني في مجمله، في ظل ثقافة الخوف، من الهيمنة الأجنبية المقيتة وضعف الحريات السياسية، هو ما قدمته، إثر هزيمة ماحقة، **ألمانيا واليابان**، ومن بعدها، في ظروف أخرى، **نمور شرق آسيا**، ويبدأ بتنمية القدرات المحلية في تقييم التكنولوجيا واختيارها، ونقلها واستيعابها، وتطويرها وإدارة تنميتها، على ركيزة نهضة تعليمية حقيقية وتدريب راق فعال، وتكثيف إرسال البعثات الوطنية إلى الخارج المأمون جانبه[30] حفاظاً على مصالحه، وتوفير الإرادة الواعية والإدارة المتميزة، على المستويين السياسي والتكنولوجي، للوصول إلى أعلى مستوى في المهارات والخبرات الابتكارية اللازمة لتحقيق مبدأ النفاذ الشامل للتكنولوجيا من مسقط رأسها إلى حيث يراد نقلها وإعادة توطينها بعيداً عن الخوف وثقافته، كما قد تكون التجربة الهندية ذات النفس الطويل، وقد بدأت بخطوة تسليم المفتاح، في توطين التكنولوجيا النووية لأغراض سلمية ومن ثمة لأغراض عسكرية، لتشابه الظروف والإمكانيات، درساً يستفيد منه سائر البلدان النامية، في التغلب على معوقات توطين التكنولوجيا واستخدامها لتطوير المجتمع والانطلاق نحو التكنولوجيا المتطورة، في ظل أخلاقيات تطوير الثقافة والعلوم والتقنية.

أما **التجربة الصينية** في إقامة تكنولوجيا نووية متكاملة، بالاعتماد الكامل على النفس، منذ القطيعة مع الاتحاد السوفيتي في سنة 1960، فيكاد يستحيل احتذاؤها في الدول النامية، في ظل المعطيات الدولية الحالية، وهيمنة القطب الواحد عليها. وفي **التجربة الإيرانية**، وما تعانيه من عدوان غربي وحصار الدليلُ والشاهد، فقد استهجن الغرب خوفاً وحقداً على إيران الإسلامية النامية تمسكها بحقها في استخدام الطاقة النووية استخداماً سلمياً تنموياً، وسعى أنانية واستكباراً وتوجساً من توفر ظروف مساءلته عن جرائمه، لتسييس المسألة، بالضغط، في سبتمبر 2005، على مجلس أمناء الوكالة الدولية للطاقة النووية، في فيينا، فخضعت دول مثل الهند وقلبت موقفها في آخر لحظة. فسياسات الدول، وفي ذلك درس للبلدان النامية المتطلعة إلى اقتناء التكنولوجيا

الحديثة، لا تحكمها الصداقات والمجاملات بقدر ما تحكمها المصالح والأطماع، في ظل الخوف من سطوة القوة.

ويمكننا القول بإنَّ بلدان العالم النامي لا تزال ، في جلها، تتخبط في البحث عن مخرج من التخلف الذي فرضته عليها إفرازات ثقافة الخوف والتخوف، ولم تعمل هي الكثير للخروج منه، فراحت بالإجمال، تراوح، بين خوفين، خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، نتيجة الارتجال وعدم التخطيط، الناجم، في الأساس، عن اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المفروضة من الخارج على الداخل، وضعف الوعي بالمصالح القومية لدى الطبقة الحاكمة غير المستقرة، التي يكاد دورها يقتصر على الدوران في فلك أقوياء هذا العالم، من إغراق بلدانها في الديون والتبعية والإفلاس والتخلف، وهي سنّة في التاريخ لم يخرج عنها إلاَّ أُولِي العزم[31].

ونتيجة خوف رأس الذات من سوادها ومن الآخر، ظلت محاولات نقل التكنولوجيا، وهي حصيلة المعرفة البشرية المعاصرة في مختلف العلوم والمعارف، إلى كثير من بلدان العالم النامي خجولةً ارتجالية، تراوح جزعاً أو ضياعاً في غياب سياسات محلية للعلوم وللتكنولوجيا، ولا تحقق أهدافاً وطنية معلومة ومدروسة، كما ظلت تلك المحاولات تراوح، في غير بلد، رهينة الفساد الإداري والعبث الحكومي، وإقصاء الكفاءات عن مواقعها، بدون أن تخدم أولويات التنمية الوطنية المتوازنة، في أيٍّ من مجالاتها.

ومع ذلك يمكننا أن نزعم أنَّ بإمكان البلدان النامية الراغبة في جلب التكنولوجيا إليها توطين هذه الأخيرة بتجاوز معطيات الخوف من نهضة الآخر ومن سطوة القوة، تجاوزاً لا يتحقق إلاَّ بتوفير شروط الأهلية واحتياجات التوطين المناسبة لها ومنها: الاهتمام بالتخطيط القومي الجدي والتطوير المدروس لخلق فرق من الباحثين القادرين على استيعاب العلم وتوظيفه لصالح المجتمع توظيفاً يستثمر البيئة ولا يفسدها. وتحرير تلك الفرق الباحثة المبدعة من المعوقات الإدارية والشكلية ومن الانتماءات السياسية والحزبية المفروضة، وتحفيز نوابغ المجربين والباحثين ورعايتهم وحمايتهم[32] حتى يتفرغوا لمواكبة التطورات البحثية والتكنولوجية العالمية، يضاف إلى ذلك تشجيع النقابات والجمعيات المهنية والبحثية والإنسانية الوطنية المستقلة، وتفعيل مؤسسات المجتمع المدني، وبخاصة العاملة منها في هذا النهج، كدعامة للتنمية السياسية والثقافية والفكرية والتربوية والسلوكية، ومن ثم البحثية التكنولوجية والمعلوماتية، على أسس لا

تتعارض مع هوية الذات وكينونتها ومصالحها المشروعة، ليغدو من المسلمات المنطقية، في حالنا نحن العرب والمسلمين مثلاً، تفوقُ المجتمع الإسلامي، وهو جزء من المجتمع النامي، في ظروف طبيعية، على غيره في شتى مجالات البحث العلمي والتطبيقي وذلك لأن التجريبية التي تجمع البحث النظري وتطبيقاته هي واحدة من عطاءات العقل المسلم الذي يجعل السبق والتفوق البحثي والتقني في المجتمع ضرورة حتمية وفريضة تنطلق من دوافع إيمانية تطبيقية وقناعات أخلاقية راسخة في أمة وسط في موقعها الجغرافي والحضاري وفكرها الثقافي ومنهجها العقيدي والحياتي.

وهي دعوة أكد عليها، في غير مناسبة، وفي غير عصر، مفكرون ومصلحون ومبدعون، جاعلين من العلم والثقافة الوطنية وسيلة لإصلاح الواقع، دون تعمد هدم الذات أو التراث، بل الأخذ بصالحه. وفيما يخصنا نحن العرب والمسلمين، في هذا السياق، كجزء من هذا العالم النامي، رأى الفلسطيني نجاتي صدقي، في ظروف مشابهة لظروفنا، أنّ "من العار علينا أن نجهل أن عندنا فيلسوفاً عظيماً كعبد الرحمن ابن خلدون، من العار أن لا نعمل على إحياء نظرياته وتدريسها في المدارس العربية"(33). فقد مثلت العودة إلى الجذور الثقافية والتمسك بالهوية الوطنية محركاً أساساً لحركات تحرر في العالم النامي، قادها مجاهدون مثل عبد القادر الجزائري ضد الفرنسيين في الجزائر، والمهدي ضد الانجليز في السودان وعمر المختار ضد الايطاليين في ليبيا، وعز الدين القسام ضد الإنجليز في فلسطين، وغاندي ضد الانجليز أيضاً في الهند، وهوشي منة ضد اليانكيين في فيتنام.

غير ان عوامل من هنا، وأخرى من هناك، أصابت الأمة العربية الإسلامية، منذ ما لا يزيد على قرنين أو ثلاثة، بما هي فيه، وراح الغرب يبني على ما وصل إليه المسلمون حتى بلغ ما هو عليه اليوم من ثورة تقنية وعلمية، فاحتكر، بنسبة 85%، الخبرات التقنية والعلمية العالمية واستبد بالرأسمال العالمي، وبأسلحة التدمير الشامل، وأمعن في التضييق على من سواه، ليظل مستهلكاً للتكنولوجيا وغيرها من السلع الغربية دون تمكينه، بأي حال من الأحوال، من امتلاكها أو توظيفها في مجتمعه وبلاده توظيفاً سوياً، ويظل إنساناً ووطناً وموارد وإمكانيات مادة أولية مستباحة لذلك الغرب القابض على أسرار التكنولوجيا وانتشارها، ويظل عداؤه ذو الدوافع الفرنجية الصهيونية غير المبرَّر للإسلام والعرب منبعاً لخوفه من نهضة الآخر وأساساً لمنع نقل التكنولوجيا

إليهم. فبعد اعترافها بإسرائيل سمح البنك الدولي للهند، بمعونة صهيونية، بنقل تكنولوجيا في مجال الذرة والطيران والصواريخ بعيدة المدى، بينما لم يسمح لباكستان الإسلامية بذلك، كما سعى البنك ذاته، وعمل بدسيسة يهودية، كما أكد على ذلك، في حينه، الرئيس الماليزي مهاتير محمد، إلى تعقيد أزمة 1997 المالية في دول جنوب شرقي آسيا، وها هو يضع كل ثقله في المشروع الاستعماري لقناة البحرين الأحمر والميت، لتثبيت الكيان الغاصب في قلب الوطن العربي، بتبريد محركات **مفاعل ديمونة الذري**، وجلب المزيد من المهاجرين المتهودين إلى النقب المغصوب، ودس الذراع الصهيوفرنجية في البحر الأحمر عبر الأنابيب وأمنها، وفي شبه جزيرة العرب، بالتحكم في استقرارها وجرعة مائها.

فمن تجاربنا نحن العرب والمسلمين، على وجه الخصوص، لم نعرف من تكنولوجيا الدول المتطورة مادياً، وفي جلها غربية، إلاَّ تكنولوجيا التسميم الجسدي والفكري، والإفساد الأخلاقي والخلقي، والتلويث البيئي، واليورانيوم المنضد، والفوسفور الأبيض، يحرق الزرع والضرع في العراق وفلسطين ولبنان وأفغانستان والبوسنة، كما لم نر منها إلاَّ البذور المسممة وراثياً التي تهربها إسرائيل إلى مصر وبلدان عربية أخرى، لتصحير أراضيها، كما لم نر منها إلاَّ مقابر النفايات النووية السامة التي دفنتها في لبنان، وتدفنها في موريتانيا والعراق وأفغانستان، كما لم نر منها إلاَّ أسلحة الدمار الجرثومية والكيماوية والاشعاعية والفوسفورية[34] وطائرات التجسس القاتلة والهواتف النقالة المتفجرة التي يستخدمها الكيان الغاصب للفتك بالشعب الفلسطيني، على ترابه الوطني، بذريعة الانتقام أو بذريعة تجريب أسلحته المحرمة دولياً، وما حرب حكومات العالم المتطور، بقيادة واشنطن، على ما تسميه إرهاباً إلاَّ حصاراً تكنولوجياً وحرباً أيديولوجية صهيوفرنجية على العرب والمسلمين، أوطاناً وعقيدة وقومية. وما طقوس الردة التي يفرضها الغرب على حكومات العالم النامي الملحقة بسياساته، من خلال وباء ما يُسمى بالتطبيع ومؤتمرات أكذوبة إعمار البلدان العربية والإسلامية والنامية التي تدمرها الجيوش الغربية المحتلة، ومنتديات الدوحة والرباط والمنامة والبحر الميت وتونس وبرشلونة الموصوفة تضليلاً بالاقتصادية والإصلاحية العالمية!! ومناطق التجارة البينية المفتوحة مع الكيان الإسرائيلي الغاصب، علناً أو تحت العباءَة الغربية الخانقة إلاَّ وسيلة لتفكيك العرى وتقطيع الأوصال وغسل أدمغة الشعوب وتسميمها وتزييف وعيها القومي،

وفرض مظالم سياسية واقتصادية وتكنولوجية، وحتى ثقافية واجتماعية، على هذا العالم النامي، وبخاصة ما كان منه عربياً أو إسلامياً، وترسيخ الخوف من سطوة القوة في كيانه وكينونته ليغدو وباءً لا يزول ولا حتى بزوال الموبوء نفسه. فالتكنولوجيا، في ظل ازدواجية المكاييل والمعايير في سياسات الدول المتطورة المتخوفة من نهضة الآخر، حلال زلال لنظام حكم جنوب كوريا حاضن القواعد اليانكية، وحرام مطلق على شمالها. والتكنولوجيا، وجلّها حربية قاتلة (**أربعمئة رأس نووية**)، هبة فرنسية يكفلها الغرب لدولة اسرائيل الغاصبة، وجرم مشهود وذريعة للاعتداء على البلدان العربية والإسلامية لمجرد التفكير في استخدامها، حتى للأغراض السلمية، وتحت رقابة دولية.

فالتحدي المفروض على العالم النامي، من قبل الدول الممسكة بخناق التقنيات الحديثة، ويطغى فيها النفوذ الصهيوني، هو من أعقد المشاكل التي يعاني منها العالم الثالث، إذ تحتكر الدول المتطورة التكنولوجيا وتقنياتها ولا تصدرها إلى البلدان النامية إلا بشروط تكرس التبعية والهيمنة والإلحاق ومحو الهوية الوطنية وتكريس التغريب والانسلاخ عن الذات، كما لا تصدر إلى المجتمعات المستوردة، وجلها نامية، إلاّ شكليات تلك التكنولوجيا دون حيثياتها، في إطار شروط وقروض وأحقاد[35]، تحمل في طياتها فيروسات نظريات عولمة الهيمنة الشرسة، ونظريات التصادم والتصارع وإفناء الآخر التي نعق بها فرانسيس فوكوياما في نهاية التاريخ وصموئيل هنتنغتون في صراع الحضارات، مما يؤدي إلى اتساع الفجوة المتسعة أصلاً، على هذا المستوى، من العلاقات، بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، وبين العالم النامي والعالم المتطور مادياً، وتكريس التبعية التكنولوجية، كوجه آخر من وجوه الاستعمار القبيحة.

وبهذا المعنى، تتجذر عقد الخوفين المعيقة للتواصل الإنساني والحضاري، وحتى المصالحي، ومنه التكنولوجي، بين العالمين المتطور والنامي، في تكريس ازدواجية المعايير القائمة على أنانية مستعصية، منبعها نفس خطاءّة مدمنة على الاستحواذ على حقوق الآخرين وعلى الخلاص الشخصي في عالم جمعوي السيرورة والمصير.

نتيجة لاختلال موازين القوة والثروة بين البلدان المتطورة، التي تستأثر لنفسها بنسبة 95% من تكنولوجيا المعلوماتية الحديثة، وبين البلدان النامية التي لا يتبقى لها إلاّ نسبة 5% من فتات تلك التكنولوجيا، توحشت الرأسمالية العالمية، واتسعت فجوة الاقتصاد والغذاء[36] والدواء في العالم النامي، وتخلفت فيه الزراعة والصناعة

وتدهورت الخدمات العامة والبنى التحتية واشتدت أزمات السكن والحياة اليومية، وغدت الطبقة الحاكمة وبطانتها الملحقة بماديات العالم المتطور وانحرافاته، في معزل عن أوجاع الشعوب وقضايا الأوطان. **وما عجز منتدى برشلونة العاشر للشراكة الأروبية البحرمتوسطية في 27 و 2005/11/28، عن الخروج بتوافق بين شمال دوله وجنوبها، يردم الهوة بينهما إلاّ دليلاً أخر على خوف غرب النخبة من نهضة الآخر،** وعلى عبثية البحث عن حلول بالقفز عن المشاكل الحقيقية المطروحة على هذا العالم، متطوراً كان أم نامياً. ولما كانت العلة تكمن في المعلول، فمنتدى برشلونة، كغيره من المنتديات التي ينشئها الغرب لحاجة في نفس يعقوب، لم يُنشأ أصلاً للأخذ بيد بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشرقية نحو الحرية والتقدم، بقدر إنشائه لإقحام الكيان الصهيوني في الوطن العربي والتمكين له من التوغل في خصوصياته الثقافية وتدميرها من الداخل، وأهم ما حققتة هذه الدورة العاشرة، بهذا الشأن وسط الفشل الشامل في كل ما طرحته، هو التقاء الكيان الصهيوني وثماني أنظمة حكم عربية، منها سلطة أسلو، على إدانة الإرهاب بمعناه الغامض الفضفاض الذي يضمره الغرب وصنيعته للمقاومة الشعبية العربية والإسلامية.

وقد يتيسر فهم كنه التكنولوجيا الحديثة، باعتبارها مجموعة المعارف والمهارات والخبرات الحادثة المستعملة أداة ووسيلة لإنتاج السلع والخدمات وتسويقها وتوزيعها، بالدخول إليها مباشرة من باب مكوّنَيها الأساسين: الفني لمعرفة كيف هذه التكنولوجيا وماهيتها، والمنطقي لفهم علة آدائها وتطبيقها.

وتتمثل مسالك نفوذ التكنولوجيا الحديثة من منتجيها إلى الدول النامية في الاستيراد المادي المباشر، وفي حيازة عقود الاختراع ورخصه وبراءاته، كما تتمثل في تأجير العلامات التجارية بين شركات خارجية طاغية وشركات محلية تابعة، وتتمثل أيضاً في إقامة المعارض وسطوة الإعلام ونفوذ الشركات متعددة الجنسيات التي لا يحركها غير الربح والاستغلال محرك. وتكون تكنولوجيا المفتاح المنقولة، عبر هذه المسالك، في جلها زائرةً أو مستعارة، مُشتراة أو مُتعاقَد عليها.

وتتسع تلك المسالك، في مجملها، وتضيق بمزاج الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات، وجل القابضين عليها هم من الجبابرة المسيطرين على القرار في الدول المتطورة التي يمثل تعداد سكانها أقل من خمس تعداد سكان المعمورة، حيث تصبح

العملية في مجملها أرباحاً صافية، بل كسباً غير مشروع، لذلك الخُمس المتطورة بـلاده مادياً، أو على الأرجح لشريحة منه، وخسارة تكاد تكون كاملة وقاتلة للعالم النامي الـذي يتوقف نصيبه من تلك القسمة الضيزى، أو العلاقة الظالمة على رغيف خبز جاف يتوفر يوما ويغيب أياماً، إذ أنّ **90% من الأربعين مليوناً المصابين بمرض فقـدان المناعـة الطبيعية، حسب إحصائيات 2005/12/1، هم من العالم النامي**، لأنّ 90% من سكانه لا ينالهم إلاّ 10% من مجموع الانفاق الصحي عالمياً، بينما تستأثر العشرة في المئة الباقية بالتسعين في المئة المصادرة سلفاً من ذلك الإنفاق العالمي العام، مـع أنّ كثيـرين مـن مواطنيها يستهلكون ولا ينتجون. **ولا يخفى على أحد رفض الولايات المتحدة الأمريكية القاطع لأي حديث يمسها عن التلويث البيئي أو التخريب النووي، وهي أكبـر مقتـرف لمثل هذه الجرائم الشنيعة ضد البشرية والبيئة معاً.**

فالغرب المتطور ذو اليد العليا في أيامنا المدلهمة، وقد تملكه الخوف مـن هـاجس يقظة الآخر،لا يسمح في مجمل الحالات بنقل مظاهر التقنيات إلـى البلـدان الناميـة إلا بشروط لا تسهم في توطين هذه التقنية هناك بل وتحول دون عوامل توطينهـا بـالحجر على أسباب ذلك من تنمية للخبرات المحلية أو إقرانها بحركة بحث علمـي تطبيقـي أو تطوير الكفاءات المحلية واستنباط تقنيات وطنية تتمشى مع الواقع الثقافي والاجتمـاعي والقيمي للمجتمع المحلي، كما لا يعير ذلك الغرب انتباهاً إلى ما قد تسببه تلك التقنيـات المرحّلة، بهذه الطريقة المسمومة، من بطالة في اليد العاملـة وتـدمير للبيئـة المحليـة المستورِدة، وتراكم ديون وأرباح تتجاوز، في أغلب الأحيان، الدخل الفردي للمواطن في البلد المضيف. وبهذا يقوم ربط المشروعات الوطنية التكنولوجية في الدول الناميـة، إذا قدر له أن يتحقق بالشركات متعددة الجنسيات في الدول المتطورة، على أساليب مـاكرة وخادعة مثل أسلوب تسليم المفتاح بمعنى إيصال تلك التقنيات مغلقة الأسرار، لا يستطيع المحليون التعامل معها إلا بمساعدة المَصدر المُصدِّر. ومن تلك الأساليب أيضاً أسـلوب اتفاقيات الترخيص الذي يستنفذ مكاسب تلك التقنيات ويجعل مآلها المَـصدر المرحِّـل، ومنها أيضاً أسلوب عقود الإدارة الذي يقوم بدور شبيه بدور اتفاقيات الترخيص، وثمـة أسلوب آخر يتمثل في الاستثمار المشترك، الذي مهما قيل فيه، فهو في نهاية الأمـر لا يختلف في أهدافه عن الأساليب السابقة من حيث كونه عبءً ينوء به المستثمر المحلـي وبلاده، ومنفعة خالصة للمستثمر الأجنبي.

والحال هي هذه، يغدو من الطبيعي والمنطقي والضروري، في حال تجاوز عقدة الخوف، أن توجه التقنيات المستورَدة نحو ما يحقق إشباع حاجات أبناء المجتمع المحلي الأساسية، ويحل أزماتهم وفق نمط أولويات وطنية، يضعه مسؤولون وطنيون عن التخطيط والتنمية في هذا المجتمع، لآن استيراد التكنولوجيا المعلبة بأحقاد الأيديولوجيا وسمومها، قد تسوم المجتمع المستورِد، مشاكل لا يُكشف النقاب عنها إلاّ بعد استفحالها استفحالاً يصعب معالجته كما هو الحال في مشكلة استنفاذ موارده الطبيعية، أو تلويث البيئة المحلية، أو تدنيس قيمه الثقافية وإفشاء التفكك الإجتماعي فيه، أو التمكين للتبعية التي تجعل من التكنولوجيا في الدول النامية حلماً في الخيال لا وجود له على أرض الواقع، نتيجة اختلال موازين القوى لصالح المورِّد على حساب المستورِد.

ومن سلبيات نقل مظاهر التقنية، وبخاصة الاستهلاكية منها، في ظل الخوف من سطوة القوة، كما تريده، وتجهد في فرضه، الدول المتطورة إلى الدول النامية ظهور البطالة التقنية، والإنتقال المعاكس للمهارات والإمكانيات والثروات، وهو ما يعرف بهجرة الأدمغة وهروب المقدرات المادية من الدول النامية إلى الدول المتطورة.

فالدول المتطورة، بشكل عام، وبتعاملها الانتقائي والأناني غير المسئول مع مشاكل العالم النامي وقضاياه، لا تنقل إلى بلدانه إلا التقنيات الاستهلاكية أو المنتهية صلاحيتها أو الممعنة في استهلاك الطاقة البشرية والطبيعية، والأكثر تلويثاً للبيئة، نقلاً مغلقاً، لتتضخم أرباحها العائدة إلى دول المنشأ المتطورة، مغموسة بدم شعوب العالم النامي وسوء تغذيتها وتدمير مواردها الطبيعية وانتهاك خصوصياتها الثقافية، في عملية سطو ونهب تتذرع، في ممارستها القوى الاستعمارية المتطورة، بأكاذيب عنصرية وطائفية جاهزة، أسست لها في العصر الحديث، بعد الحملات الفرنجية ومحاكم التفتيش، كتاباتُ الرحالة والمستشرقين الأروبيين مدفوعي الأجر.

ومن هنا تتأتى ضرورة تقويض تلك الأكاذيب العنصرية التي رسخت الكراهية والتخوف من الآخر في الوعي الغربي، والعمل على التخفيف من وطأة عقدة الخوف من سطوة القوة على النفوس عندنا، بتوجيه التعليم المحلي، في البلدان النامية الساعية لامتلاك تكنولوجيا وطنية نافعة، بل والساعية قبل ذلك إلى بناء نفسها، على أسس تربوية وتعليمية وأخلاقية متينة وسليمة، باتجاه التفكير العلمي المنهجي الذي يزرع في النشئ، ونسبته 60% من تعداد سكانها، مقدرةً على الابتكار والنقد والتمحيص، ومقدرةً على

مواجهة المشكلات المطروحة وتجاوزها، وغرس الإيمان بقيمة العلم، كما الإيمان بقيمة الأخلاق وخصوصيات الذات والوعي بسيرورة التاريخ، في نفوس الأجيال الصاعدة، وتحصينها ضد الغواية النفاثة، وإطلاعها على آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا من تطور، والشروع في استيعاب نتائجها وتوطينها، في حدود الحاجات المحلية دون المبالغة فيما هو فوق ذلك، ومن هنا أيضاً تتأتى الحاجة إلى تنمية مؤسسات البحث العلمي والتدريب الوطنية لتقوم على أساس متين نعوذ به من الوقوع في دائرة الذوبان ونستطيع به مواجهة عدوانية العولمة اليانكية ومقاصدها التدميرية[38]، بل ومقاومتها عند الضرورة بشتى الوسائل المتاحة ودفع شرها عن النفس والنحن[39]. ولا يتحقق ذلك إلاّ بإبراز الحس الإبداعي والجمالي الوطني لدى المواطن واختيار موفق لنوع التكنولوجيا المنقولة، وزمن نقلها، وبراعة في التفاوض على اقتنائها، دون تلهف أو تهافت أو تفريط بالثوابت الوطنية أو التهاون في إعداد القوة الذاتية، وإنما بمقدرة محلية كافية لاستيعاب التكنولوجيا وتطويعها وتطويرها، في ظل شروط تنموية محلية، تعم فوائدها سائر شرائح المجتمع، وقبل ذلك كله أن يكون البناء وفق ظوابط تحافظ على الهوية الوطنية وثقافتها ومكتسباتها، وتحذر من التورط في الاقتراض من البنك الدولي، أو من الدول المستكبرة وكلاهما يرهن بقروضه القارضة مستقبل الأوطان والشعوب، كما هو الحال في "المساعدات" اليانكية US.AID، التي لا تستفيد منها إلاّ القلة الحاكمة، في هذا البلد المغلوب على أمره أو ذاك، عندما تَفرض عليه تلك القروض تفشّيَ الرأسمالية الجشعة في أوصاله، لتفتك بتعاضده الاجتماعي وقيمه الأخلاقية، وتستنزف موارده الطبيعية، لصالح فئة، ترجو استفادةً لا تُرجى منها، لكون ولائها للعالم الرأسمالي الاستعماري المتطور أشد من ولائها لأوطانها وشعوبها وثقافتها. فالفساد في الدول النامية هو من صنع الدول المتطورة، عندما صمتت هذه على فساد الحكام في تلك، مقابل أثمان سياسية واقتصادية تقاضتها منهم مسبقاً. فقد نهبت الدول المتطورة البلدان النامية وأفسدت فيها وأفسدتها، ثم فرضت عليها محاربة الفساد! ومع ذلك يبدو أنه لم يتبلور لدى العالم النامي إحساس بقدوم الخطر، مما أبقى الأحوال والأشياء تراوح مكانها.

فالتنمية التكنولوجية، بمفهومها الإنساني الأشمل، إذا نأينا بها عن حلقة التخوف والتخويف المغلقة، تتجاوز كونها أجهزة وأدوات تتطور باطراد لاختراق كيان الآخر الأضعف وكينونته، ثم الهيمنة عليه لمحو ذاته وتصييره وقوداً لآلة الربح الرأسمالية،

إلى كونها تطوراً معرفياً بشرياً قائماً على فكر وقيم وسلوكيات محسوبة لبناء الذات، غايتها خدمة الإنسان وقيمه الأخلاقية والثقافية لتحريره من العبودية والتبعية والهيمنة والاستضعاف، وحماية البيئة من جشع المستكبرين، دون معايير عنصرية أو تمييزية، عرقية كانت أم طائفية، شعوبية أم فئوية، لبلوغ الهدف المنشود في إقامة صرح مجتمع عالمي متعايش ومتجدد، تتجذر فيه القيم السامية والأخلاق الراقية، ويحترم خصوصيات الأمم والشعوب الثقافية، بدون خوف أو تخويف، ويستثمر كلَّ إيجابية للصالح الإنساني العام، انطلاقاً من إدراك حقيقة "أنَّ نظام العولمة المفروض بقوة النفوذ السياسي والاقتصادي للقوى الدولية المهيمنة على السياسة الدولية في المرحلة الحالية، يشكل في حد ذاته تحدياً بالغ الضراوة، شديد الشراسة، يخرُج التصدي له عن قدرة الدول التي لا تمتلك شروط المناعة الصناعية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، وتفتقر إلى أسباب القوة التي تجعلها في مأمن من الآثار السلبية والمضاعفات الخطيرة والتداعيات التي لا تتوقف عند حد، نتيجة العولمة ذات الطابع الاستغلالي والبعد الاستبدادي مما يفقدها القدرة على الفكاك من هيمنة هذا النظام".(40)

فالعولمة التي يتطلع إليها الإنسان السويّ في عالمنا، ومنها عولمة التكنولوجيا، هي عولمة تتأتى من إدراك الإنسان وحدةَ المصيرِ البشري على كوكب الأرض وضرورة نبذ ثقافة الخوف والتخويف، وحفظ التوازن القائم على المشاركة والتكامل والتقارب بين الإنسان وأخيه الإنسان، في ظل أخلاقيات "نحن" شمولية جامعة، وغير انتقائية وغير مانعة، لا تستثني أحداً من المساءلة عن جرائمة أمام محاكم الجزاء الدولية، كما لا تستثني أحداً من تطبيق القرارات الأممية. إنَّها عولمة العدل والحق والحرية والإخاء والقوة المادية والإيمانية معاً، وهي، بهذا الفهم، عولمة محببة لا كره فيها ولا إكراه، تعتق الإنسان من براثن عولمة الخوف والإرهاب النفاثة القائمة على الاحتلال والهيمنة والتدافع والأنانية والتصارع، وإنكار الآخر وتدمير القيم وتفشّي الإذلال والاستعباد والظلم والقهر والفساد والجرائم التي ترتكب، باسم الحرية والسلام والأمن والحضارة والديمقراطية، في حق شعوب آمنة مغلوبة على أمرها، وعلى ترابها الوطني، تئن تحت سياط الاستهداف الاستعماري الأجنبي الانتقائي، من فلسطين إلى العراق، ومن أفغانستان ولبنان إلى البوسنة والشيشان، ومن غوانتنمو وبانغرام وأبو غريب إلى السجن الأظلم

الذي يقيمه الكيان الصهيوفرنجي الغاصب، للشعب الفلسطيني بأكمله، على تراب وطنه فلسطين.

الخوف في علم النفس ركن أساس من أركان اختلال الجزع أو القلق الذي هو ردة فعل طارئة تتطلبها حالة من الإحساس بخطر داهم، حيث تمثل السلوكيات الاندفاعية أو التراجعيةالمصاحبة لهذا الاختلال ضرباً من النجاة بالنفس عند الأحياء. ولهذا يظل الخوف في حدوده الطبيعية سلوكاً نذيراً قد تترتب عليه بعض الإيجابيات مثل اليقظة واتخاذ الحيطة اتجاه القادم المجهول والاستعداد للتعايش معه أو كفّ شره عن الذات والنحن أو مقاومته، حتى إذا تجاوز ذلك واستبد بالنفس وتفاقمت دوافعه وأعراضه نحا بمسكونه، فرداً كان أم جماعة، نحواً عشوائياً هائجاً قد تترتب علية سلوكيات سلبية قاتلة ومدمرة.

فخوف البلدان النامية من سطوة القوة خوف حقيقي لا يكون علاجه إلاَّ حقيقياً ملموساً متمثلاً في إعداد القوة الذاتية والتأهل لمعطياتها في عالم لا يعرف غير القوة لغةً، وفي علاج هذا الخوف الحقيقي أيضاً يكمن قدر وافر من علاج خوف الآخر الذي هو خوف وهمي مصدره نفوس ضعيفة متخلخلة من الداخل، ولا بكون علاجه إلاَّ نفسياً بصدمة قد تكون وسائلها مادية أو تربوية تخلصه من عناصر جشع وأنانية وحقد امتزجت في نفسيته لتغدو حالة من الاسكيزوفرينيا التي هي درجة متقدمة من البارانويا المستعصية(41) تتحكم في كل سلوكياته التي اتسمت بالعنف والإرهاب والقتل والاغتصاب، ولا يكون ذلك إلاَّ بتحقيق واقع يمكّن الضحية من الدفاع عن نفسها. وهنا يعود الحل بأكمله ليكمن في ضرورة امتلاك العالم النامي القوة المادية وامتلاكه أيضاً وسائل توازن الرعب المتبادل مع الآخر، كما كان الحال بين الاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة الأمريكية، أو كما هو الحال بين المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان وبين إسرائيل، إذ أنَّ العلة لا تزول إلاَّ بزوال مسبباتها. وإن كان الضعف المادي هو علة العالم النامي ومصدر شلله، فانفصام العقل هو علة الغرب ومهيّجة.

إنَّ خوف المستحوذ على أسباب القوة بأيٍّ شكل من أشكالها من فقدان تلك الأسباب جزئياً أو كلياً وظهور مستحوذ جديد قد ينافسه على ما بيده أو ما بيد الغير يوقعه فريسة حالات نفسية مرضية تصيب الشخصية باختلالات مثل جنون العظمة أو الانفصام العقلي أو غيرهما من أمراض نفسية تصيّره مخلوقاً غريب الأطوار ذا سلوكيات عدوانية ضارة

غير محمودة العواقب، وهي حالة أو حالات مرضية بشرية، لا تعرف عرقاً إو جنساً أو لوناً أو جغرافيا، وقد شخصها القرآن الكريم، قبل أن يشخصها علم النفس بقرون، وعرفها بالاستغناء. نقول هذا دون أن نتجاهل تماماً دور ثقافة المستحوذ وأيديولوجيته، فرداً كان أم جماعة، في تفاقم الحالة المرضية أو التخفيف من وطأتها. وتؤكد كتابات الكاتبين الأمريكيين غريس هالسل ومايكل مور[42]، عن إدارة المحافظين الجدد ورئيسها جورج بوش، على هذه الحقيقة. والتشخيص الطبي الحديث لحالة (غرب النخبة المهيمنة) المريض بأوهام الخوف من يقظة الآخر أو باختلال جنون العظمة أو الاضطهاد (البارانويا) هو ميله إلى انتحال صفات وخصال لا يملكها والانطواء والارتياب وسوء الظن والشك في الآخرين وإلى تجاهل مسؤولياته وإنكار أخطائه وسلوكياته العدوانية وإلصاقها بالآخرين، كما يفسر سلوكيات الغير على أنها تهديدية ومهينة أو سيئة النية، مما يؤدي إلى اضمحلال علاقة هذا الغرب المريض بغيره ويجعله قليل الألفة غيوراً غيرة مرضية هلى ما استحوذ، شكاكاً في ولاء الأصدقاء والمقربين، وتغلب عليه حدة الطبع وسرعة الغضب، مما يجعله يتوهم الآخرين أعداءً وعنصر تهديد له شديدي الخطر، فيتملكه الرعب ويدفعه مذعوراً إلى إفشاء عدوى وباء الخوف بين ذويه وغيرهم من الناس وإثارة المشاكل وتأجيج الصراعات لإجبارهم على التساهل مع اعتداءاته على ذلك العدو الوهمي بذريعة توجيه ضربة استباقية له تجنب الذات عدوانه الموهوم. ومع ذلك فالمريض لا يعاني من هذيان جنوني محدد وهذا ما يميزه عن مريض الاختلال الجنوني المزمن، كما لا يعاني ما يعانيه المصاب بالانفصام العقلي من شطحات وهلوسات واضطرابات جدية في التفكير. فالانفصام العقلي، الذي تبدو أعراضه على غرب النخبة المهيمنة، في صورة فوضى عقلية واختلال في الشخصية، هو مرض أو مجموعة أمراض نفسية تظهر فجأة أو بعد تطور عرضي لمجموعة اضطرابات محددة تؤثر أساساً على الفكر واللغة والانفعالات والأهلية الاجتماعية، وهي أعراض مرضية نفسية تظهر غالباً، في حالات المرض المتقدمة، مصحوبة بهلوسات وهذيان وسلوكيات غريبة الأطوار. ويعاني المصاب بالانفصام العقلي، ولو بعد حين، من ضعف المدارك العقلية ومنها مرض فقدان الذاكرة (الزهيمر)[43]. ويتوهم منفصم العقل أنّ أفكاره ومشاعره وسلوكياته الداخلية مكشوفة يتدخل فيها الآخرون، وتتلاعب بها قوى خارجية عاتية حقيقية وخيالية، تسبب انفصاماً في وحدة الأنا قد تبدو أعراضه على المريض في

صورة أفكار جنونية ضارة كالشعور بالاضطهاد أو التهديد الخارجي أو المس العقلي، كما الشعور بأنه مُستهدَف، وتتواتر عنده بانتظام هلوسات السمع[44]، ثم الرؤية والحس والشم والذوق، وقد تظهر أعراض المرض في سن المراهقة أو الشباب، وتعلن عن نفسها بسلوكيات غريبة وهزات نفسية واضحة المعالم[45]. وتطرح المعطيات التشخيصية السابقة ضرورة إعادة النظر في مفهوم عقدة الخوف التي تتملك الغرب من مجرد التفكير في نهضه الآخر، وعدم قصرها على الأسباب المفتعلة أو الذرائع المادية، وإنما يجب النظر بجدية إلى أسباب حقيقية أخرى تتمثل في الحالة النفسية المرَضية التي تسكن غرب النخبة المهيمنة، وتحيل تهيؤاته وهلوساته سلوكياتٍ وقناعات أو مكابرات، يصعب عليه التخلي عنها إلاَّ بصدمة تهزه من الداخل وتعيده إلى رشده وتريه الحقيقة والواقع، من خلال النظر إلى طغيانه على أنه ضعف بشري أمام عبثية الأنانية والجشع اللذين يضعفان الشعور بالنحن والقبول بالآخر، أو كما يقول الفيلسوف الإسباني أورتيغا إي غاسيت: "أنا هو أنا وظروفي". فقد أدى العبث بالفطرة الإنسانية وتراجع القيم في مجتمعات غرب النخبة التكنولوجي المتطور إلى إحلال الحيوان محل الإنسان ابناً وصديقاً، وأخاً ورفيقا، سلوى وتعويضاً، حتى اشتبهت الأضداد في ذات انغلقت على نفسها ولم تعد ترى أبعد مما بين قدميها.

وفي ظل هذا الواقع البشري المدلهم قد يغدو الحوار والتلاقي بين الإنسان وأخيه الإنسان، كما تغدو الأنسنة، على كل المستويات، ضرورة حتمية للتخلص من الخوف، ثقافة كان أم مرضاً، حقيقةً أم وهماً، كما تغدو ضرورةً حتمية أيضاً للخروج من المأزق الذي نعيشه جميعاً، "نامون ومتطورون"، وهو مأزق لا تحله التكنولوجيا الحديثة مهما تعقدت وانتشرت، لأن العلة لا تكمن فيها، وهي وسيلة جامدة، وأداة حادثة، ومنتهية الصلاحية ذاهبة، بقدر كمونها في غيبة تربية النفس الأمارة بالسوء على الأثرة والفضيلة، وفي الحاجة إلى إصلاح النفوس البشرية الباقية التي أصابها تراكم رأس المال واستكبار الطغاة وشطط الأيديولوجيات الأسطورية القاتلة، بعطب مميت، لا سبيل إلى الشفاء منه إلاَّ بأنسنة "الإنسان"، وتحريره من براثن ثقافة الخوف، ردة فعل كانت أم أنانية، وتبصيره بقيم الحق والعدل والخير ووحدة المصير البشري، قبل أن نسعى إلى أنسنة استخدام التكنولوجيا الحديثة، التي هي حصيلة محصلة لأنسنة "الإنسان"، وإعادة تأهيله لما خلقه الله له. ولما كان الإنسان يطغى إذا استغنى، بكل ما لهذا المفهوم القرآني

من معان تربوية و سلوكية و نفسية، في التكنولوجيا أم في غيرها، ولا يعقله، في هـذه الدنيا الفانية في الأقل، إلاّ عقال الربح والخسارة وأمكانية أن يرتد عليه بعض ما تقترف يداه، فإنه يصبح واجباً علينا نحن المستضعفين في الأرض إعداد ما نستطيع إعداده مـن قوة مادية ومعنوية، تخلصنا من خوف ماثل أمام أعيننا وتقذف رهبـة الحـق والعـدل والمساواة في قلوب المستكبرين في الأرض، فتطهرها من وباء وهم الخوف وأسـبابه، وتجعلهم يعيدون حساباتهم ويصلحون ما بأنفسهم من نزوع أناني عادٍ للتفرد والتميز على حساب الآخر، خشية آت حقيقي بالحق قريب، يداهمهم بما لا طاقة لهم به، ولا مفر.

الهوامش:

1. من ذيول الغرب حكومات اليابان ذات الإرث الاستعماري الكريه في شرق آسيا، وقد عرض سفيرها في طهران على موظفين كبار في وزارة الخارجية الإيرانية استثماراً يابانياً كبيراً في حقل مجنـون النفطي الإيراني مقابل أيّ معلومات عن الطيار الإسرائيلي جون أراد المفقود في إحدى جرائم كيانه ضد لبنان، وكان الجواب الإيراني رفضاً قاطعاً للصفقة. وإثر صدور قرار مجلـس الأمـن 1559 القاضي بسحب القوات السورية تدريجياً من لبنان، عرض الغرب على سورية البقاء فـي لبنـان إذا أرادت مقابل الالتزام بتجريد حزب الله من سلاحه، فرفضت سورية الصفقة وواصـلت انـسحابها، الأمر الذي دفع الغرب في محاولة فاشلة في 2005/11/9، لابتزاز لؤي السقا المعتقل السوري فـي تركيا المتهم بالتخطيط لمهاجمة مدمرة إسرائيلية. بشهادة ملفقة، كما شهادة المجند الـسوري محمـد زهير الصديق المسجون في فرنسا وشهادة الشاهد السوري المقنَّع حسام حسام، عن تورط سورية في اغتيال الحريري.
2. كما حدث للمرجعيات الدينية التي دخلت العراق على ظهور دبابات الاحتلال الأجنبي لتحقق، تحـت مظلته، مصالح شخصية وطائفية بائسة.
3. جاك شيراك وهو ابن مهاجر هنغاري حارب عسكرياً في صفوف الجيش الفرنسي أثنـاء احتلالـه الجزائر.
4. كما بدا ذلك جلياً في منتدى المعلوماتية في تونس الذي حضره يوم 2005/11/16 خمسون رئيـساً والأمين العام للأمم المتحدة الذي اقتصر دوره في المؤتمر على شكر المشاركين وقراءة السلام عليهم باللغة العربية. وفي هذا المنتدى تشبثت الولايات المتحدة الأمريكية بهيمنتها واسـتئثارها بقطـاعي الحاسوب والشبكة العنكبوتية العالمية. أما إسرائيل فصالت في المؤتمر وجالت، بوفد قوامـه مئـة وخمسون غاصباً يترأسهم التونسي القابسي اليهودي ووزير الخارجية سلبان شالوم المهـاجر إلـى فلسطين غاصباً قبل أربعين عاماً، تتكرم على بعض العرب والمسلمين برضاها لانطـوائهم تحـت جنحها، وتهدد بعضهم الآخر وتتوعده لرفضه الانصياع لأطماعها.

5. استعان الرحالة البرتغالي فاسكو دي غاما بالرحالة العربي المسلم ابن ماجد صاحب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد"، في تحقيق رحلته من البرتغال إلى جزر الهند الشرقية، مروراً برأس الرجاء الصالح، ولما وصل الجزر المذكورة قال: "الآن طوّقنا الإسلام ولم يبق علينا إلاّ شد الحبل حول عنقه ليختنق". وفكرة تطويق الإسلام والمسلمين، عند حمَلة الصليب، وحصرهما بين نارين، هي التي دفعت ملوك إسبانيا إلى تمويل رحلة الإيطالي كولون التي أدت إلى اكتشاف أمريكا، ودفعت ملوك البرتغال لتمويل رحلة داغاما حول رأس الرجاء الصالح! وقد رفض وزير الحرب الأمريكي دونالد رامسفيلد في 2003/10/16 الإجابة على سؤال صحفي عن حقيقة أنّ قائد قوات الاحتلال الأمريكي في العراق، يقول للعراقيين وهو ينكل بهم ويقتلهم أنّه يفعل ذلك لأن إلهه أكبر من إلههم، كما لم يبال رامسفيلد بالاحتجاجات على نائبه الجنرال وليم جي بويكين، لتهجمه على الإسلام مراراً، وتحريض أتباعه في الكنيسة الإنجيلية على معاداة الأسلام والمسلمين والفتك بهم. وفي إطار هذه الحملة على العرب والمسلمين، يندرج اعتقال السلطات الإسبانية المحافظة، في بداية خريف 2003، الصحفي السوري تيسير علوني، لدوره في كشف حقيقة العدوان الصهيوفرنجي على أفغانستان والعراق، عبر فضائية الجزيرة، كما يندرج فيها محاولات منع بث فضائية المنار، وتدمير مكاتب فضائية الجزيرة في كابول (2001) وبغداد (2003) وقتل مراسليها، ثم تخطيط بوش نفسه في 16/أبريل 2004 ، كما كشفت عن ذلك في 2005/11/20 صحيفة الديلي ميرور البريطانية، لتدمير مقار للجزيرة ومنها المقر الرئيسي في الدوحة.

6. أدت ازدواجية السياسات الفرنسية الصامتة على جرائم إسرائيل وابتزاز الجماعات اليهودية، وفي الوقت نفسه استهداف العرب والمسلمين في خصوصياتهم الثقافية والجذورية، في مواطنهم ومهجرهم الفرنسي إلى استقواء العنصريين المتهودين في فرنسا عليهم بتهميشهم وحرق بيوتهم وصعقهم بالكهرباء، وهم أحفاد أولئك الذين خاضوا حربين عالميتين تحت العلم الفرنسي، من أجل فرنسا وسيادتها ومصالحها واستعمارها، مما أدى إلى تفجير احتجاجاتهم العنيفة التي اجتاحت، في مطلع نوفمبر 2005، العاصمة وثلاثين مدينة فرنسية أخرى، وهددت بتحويل هذا الخريف الفرنسي الغاضب إلى شتاء أروبي مدمر، باعتبار أن تراكم شعور خمسة وعشرين مليون مسلم في أروبا الغربية بالمهانة والتفرقة العنصرية، والتجريد من الخصوصيات الثقافية، والتذويب دون الدمج، نتيجة العزل الاجتماعي والسياسي والطائفي والشعوري يجعل تفجر الوضع مسألة وقت، إن لم تستدرك الأمور قبل فوات الأوان.

7. محمد الجعيدي: فلسطين في الشعر الهسباني المعاصر.

8. Tzvetan Todorov: Le Nouveau Désordre Mondial, reflexions d,un Européen, Préface de Stanley Hoffmann, Editions. Robert Laffont, Paris 2003.

9. قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، في 2005/11/2، أي في الذكرى الثامنة والثمانين بالتمام والكمال لوعد بلفور المشئوم، بتخصيص السابع والعشرين من كل عام يوماً للتذكير بهذه الأكذوبة هو خير دليل على رعاية الغرب للدولة العنصرية القائمة على الاغتصاب في بلادنا فلسطين.

10. حتى بقرارات الأمم المتحدة التي أوجدتها، ومنها قرار إقامتها المشروطة الذي يحمل رقم 273، وقرارها لسنة 1960 الذي يقضي بتصفية الاستعمار بكل أشكاله من العالم تصفية نهائية،
11. إنّ إحلال جنود أوروبيين، في مطلع سنة 2006، محل الجنود الاسرائيليين الممسكين بخناق معابر قطاع غزة البرية والبحرية والجوية، وعدم تمكين الفلسطينيين والمصريين، رغم فساد سلطاتهم وقهرها المواطنين مجتازي الحدود بالإذلال والمحسوبية والرشوة التي قدرت في جانب سلطة أُسلو وحده بمئة دولار يانكي للمجتاز الواحد، من إدارة حدودهم المشتركة بحرية، هو من باب تغيير وجه الصنيعة القبيح بوجه الصانع الأشد قبحاً، ومقدمة لتطبيق التجربة على سائر بلدان العالم الإسلامي، إن ظلت الأمور على حالها.
12. تنتسخ صفة أمريكي الغامضة بهذا التوصيف الأيديولوجي لكل ما له علاقة بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي الأقرب لوصف الواقع المعيش، لأنّ كلمة أمريكا تشمل قارة العالم الجديد بشمالها وجنوبها، وفي ذلك تعميم لإيجابيات أو سلبيات لا توجد إلاّ في مكان بعينه، كما أنّ هذه التسمية غدت مألوفة لدى دارسي الثقافة الهسبانية وقرائها، لخصوصية دلالتها ودقتها في التعبير عن مدلولها المشخص لسلوكيات هذه الدولة الاستعمارية ونتائجها كما يلخصها الشاعر العراقي أحمد مطر: "منها وإليها/ لو تطلب أميركا قلبي/ فسأطرحه بين يديها/ وأمرغه في شفتيها/وأقطره في عينيها/ وسأغدو أسعد مخلوق/ لو ظل مدى العمر لديها/ ماذا أصنع في كيس دم/ ممتلئ بالحقد عليها؟"
13. فهمي جدعان: الطريق إلى المستقبل، صفحة: 174، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1996.
14. برهان غليون: الوعي الذاتي، صفحة:29،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1992.
15. كالمادة 176 التي فرضت باستفتاء شكلي على ما سمي بالاصلاحات السياسية في مصر، في سنة 2004.
16. حامد ربيع: الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي، صفحة: 90، دار الموقف العربي، القاهرة 1982.
17. لا يزال ماثلاً في الأذهان تدمير الأسطول اليانكي، من بوارجه في البحر الأحمر مصنع أدوية المضادات الحيوية بالخرطوم بحجة أنه مصنع أسلحة دمار شامل، وعلى ذلك قس.
18. عمد الغرب الاستعماري من خلال الاتفاقيات المفروضة على العرب في كامب ديفد والناقورة وأُسلو ووادي عربة وغيرها إلى تجريدهم من مقومات الكرامة والدفاع عن النفس، وتركهم ضحية لمزاج سادية القتل الغربية المباشرة أو الاسرائيلية بالنيابة.
19. يتجلى ذلك في اتفاقية الناقورة في 1984/5/17 التي فرضها الغرب على لبنان، عبر اليد المحلية العميلة، وألزمه فيها بالاستكانة تحت الوصاية الاسرائيلية، لولا لطف الله بهذا البلد وتسخيره المقاومة الأسلامية، بما تملك من رصيد شعبي وسياسي ومصداقية، للدفاع عن إنسانه وترابه ومقاومته وإنقاذه من سموم تلك الاتفاقية وطرد الغزاة اليانكيين والفرنسيين ثم الاسرائيليين منه.

20. محمد عابد الجابري: مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب، ط:2، مركز دراسات الوحدة العربيو، بيروت، بيروت 1997.
21. غازي الذيبة: ثورة أخلاقية، مجلة عمان، صفحة 23، العدد 123، أيلول 2005.
22. هذه هي خلاصة رأي أستاذ التاريخ الاستراتيجي والتاريخ المعاصر بجامعة بال في الولايات المتحدة الأمريكية الأستاذ الدكتور بول كندي في كتابه "نشوء الدول الكبرى وسقوطها"، وهو من أكثر الكتب الصادرة في القرن العشرين رواجاً. أما نظرية العمران البشري التي يهتدي بهديها بول كندي في تحليلاته المنطقية، فهي من ابداعات العقل العربي المسلم، وصاحبها هو الفيلسوف والمؤرخ الاحتماعي مؤسس علم فلسفة التاريخ والاجتماع ورائده، بلا منازع، العبقري التونسي الفذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (تونس 1332– القاهرة 1406).
23. صباح ياسين: الإعلام والعولمة، صفحة: 32، بيت الحكمة، بغداد 1991.
24. يحيى اليحياوي: في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، صفحة: 8، دار الطليعة، بيروت 2002.
25. أنظر في ذلك كتاب خليل السواحري وسمير سمعان: التوجهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005.
26. Alain Langlois: Le Nations Unies et le Transfert de Teachnologie, Economica, Paris 1980.
27. Michael Moore: Bowling for Colombine (documental) …….
28. عن صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية في 2005/11/3. وقد أثار إفشاء هذه الفضيحة وبخاصة استخدام وكالة الخابرات المركزية الأمريكية المطارات الأروبية محطات إمداد لطائراتها التي كانت تحمل على متنها المخطوفين العرب والمسلمين في طريقها إلى سجونها السرية في دول أروبا الشرقية غضب الدول الأروبية واستنكارها. وقد غدا التجسس على المثقفين المناهضين للسياسات الصهيوفرنجية الهوجاء والاعتداء على ممتلكاتهم لترهيبهم وسرقة حواسيبهم من مكاتبهم الرسمية في الجامعات، والسطو على محتوياتها، واختطافهم عند الحاجة سراً، لاستجوابهم بالقوة، سياسة رسمية لإدارة واشنطن، لا تحسب حساباً لأحد.
29. إبراهيم العيسوي: قياس التبعية في الوطن العربي،، صفحة: 13، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1989.
30. لكي لا تتكررحادثة الطائرة المصرية المدنية التي أسقطتها المخابرات الأمريكية، في أكتوبر 1999، وعلى متنها جيل كامل من أمهر العسكريين المصريين، بعد أدائهم دورة تدريبية في الولايات المتحدة الأمريكية.
31. إن ما لاقاه "كليم الله!" الرئيس جورج دبليو بوش من معارضة واحتقار وسخرية رسمية ورفض وغضب وممانعة شعبية أرغمته على الهروب صامتاً مطأطئ الرأس من مؤتمر لا بلاتا الأرجنتينية للأمريكتين في 2005/11/5 قبل انتهائه، وما لاقاه عند توقفه في العاصمة البرازيلية من دخوله قصر الرئاسة فيها من بابه الخلفي خشية غضب آلاف المتظاهرين الذين استشعروا وجوده فهبوا لطرده خلافاً لما يلقاه هو وموظفيه، وحتى شارون وموظفيه من طقوس تذلل وخضوع ومراءاة

وطاعة عمياء رسمية ومراسم تكميم الأصوات الشعبية في بلداننا العربية والإسلامية يبعث المرارة في النفوس الأبية.حزناً على واقعنا العربي والإسلامي وتحسراً على قيادة وطنية ديمقراطية كقيادة الرئيس الفنزويلي هوغو تشابث.

32. حتى لا تتكرر عملية اغتيال الموساد الاسرائيلي لعالم الذرة المصري الدكتور يحيى المشد المشرف على مفاعل تموز النووي العراقي في باريس قبل عام واحد من تدمير الطيران الحربي الاسرائيلي المفاعل نفسه في 1981/6/7، ثم اغتيال العالم الكندي جيرالد بول في بروكسل في 1990/3/22، لمجرد الشك في عرضه مشروع تصنيع مدفع بعيد المدى على الحكومة العراقية.

33. نجاتي صدقي: عبد الرحمن بن خلدون، مجلة الطليعة، صفحة127، عدد2، بيروت 1937.

34. قدمت وسائل الإعلام ومنه صحيفة الاندبندنت وتلفزيون RIE الإيطالي، يوم 2005/11/8 شهادة جنود أمريكيين شاركوا في تدمير مدينة الفلوجة العراقية، بعملية الشبح الغاضب في 2004/11/8، تأكيدهم على استخدامهم قنابل الفوسفور الأبيض المضيئة، وهي تطوير تكنولوجي جهنمي للنابالم، تسبب غيوماً إشعاعية تذيب لحم الإنسان وتحيله هيكلاً عظمياً، وكانت سلطات الاحتلال اليانكي، في ظل التعتيم الإعلامي الذي فرضته على عملية التدمير والقتل، قد أنكرت، في حينه، استخدام تلك القنابل في تدمير الفلوجة وقتل آلاف المدنيين من أهلها أطفالاً ونساءً، تركت تلك القنابل آثارها على ما تبقى من جثثهم.

35. مثل تزويدها الكيان الصهيوني غاصب فلسطين بالتكنولوجيا العسكرية المتطورة ليعتدي على البلدان العربية ويحتلها ويدمر مدنها ويقتل مواطنيها، أو مثل تزويدها نظام صدام بأفتك أنواع الأسلحة لإسقاط نظام الثورة الإسلامية في إيران، وتزويدها إيّاه أيضاً بالأسلحة الكيماوية ليقهر بها شعبه في حلبجة.

36. جاء في تقرير لهيأة الأمم المتحدة للزراعة والغذاء بتاريخ 2005/11/22، أنّ ستة ملايين طفل يموتون سنوياً في العالم النامي بسبب سوء التغذية.

37. نحيل القارئ في شأن هذه السموم الأيديولوجية، على سبيل المثال، إلى كتابيّ الصحفية الأمريكية غريس هالسل Grace Halsell، بترجمة من محمد السماك: يد الله، لماذا تضحي الولايات المتحدة الأمريكية بمصالحها من أجل إسرائيل، دار الشروق، القاهرة 2000.

و: النبوءة والسياسة، الانجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية، دار النفائس، بيروت 2003.

38. أحمد مجدي حجازي: العولمة وتهميش الثقافة الوطنية، صفحة: 14، عالم الفكر، مجلد 82، عدد 2، أكتوبر– ديسمبر، الكويت 1999.

39. أدرجت هذه المحاولة على جدول أعمال الدول السبع والسبعين والصين، المجتمعة في الدوحة، في 2005/6/14.

40. عبد العزيز بن عثمان التويجري: العالم الإسلامي في عصر العولمة، المقدمة، دار الشروق، القاهرة 2005.

41. يعرف الطب النفسي جنون العظمة أو الاضطهاد (البارانويا)، بأنها اختلال في الانسجام بين الخلايا العصبية، تتمثل أعراضه في تخيل المريض أموراً لا يراها، أما إذا ساءت حالته وأصبح يتخيل أنه يرى ما يتخيله وراح الشذوذ يغلب على سلوكياته من حيث تضخيم المخاوف التي يتخيلها وتضخيم خطرها على خصوصياته ومصالحه الشخصية، بحيث يغدو مطارداً بلا مطارد، ومكشوف أسـرار لا يعلم بها أحد، فتعرف حالته حينئذن بالانفصام العقلي (اسكيزوفرينيا).

42. Michael. Moore: Bush is Stupid.

43. كما حدث لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق رونالد ريغان.

44. يبدو أنّ الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش قد بلغ هذه الحالة عندما زعم أنّه سـمع الله يتحـدث إليه.

45. Joaquin Santo-Domingo y otros: Manual de Psiquiatria, pp.: 161-162 y 226-228, Psiquiatria Editores, Ars Medica, Barcelona 2002.

77 Shaw,*Saint Joan,*(London:Longmans,Green ,1966),P 95
78 Ibid 102
79 Ibid, P 102
80 Ibid,P 103
81 ibid,P 103.
82 Bohemian reformer(1369-1416)who came under the influence of Wycliffe's writings.He was summoned to a General Church Council At Constance in 1414 to answer a charge of heresy and was given safe conduct, but the terms were violated and was seized and thrown into prison after a travesty of a trial he was burnt at the stake in 1416.
83 English reformer (1320-1384) whose teachings insisted that religion was an affair of the heart and not a matter of observance of routine Church ceremonies. His influence was wide-spread and, through persecution sei it back, continued strong until the reformation.
84 Shaw, Saint Joan, P 103.
85 Ibid, P 103.
86 Ibid, P 103
87 Shaw, "Preface", *Saint Joan*, P37.
88 Ibid, P 104.
89

34 Ibid,P 259.
35 Brodies Notes on Saint Joan, P 8.
36 Ibid, P 8.
37 Ibid, P 21.
38 Ibid, P 22.
39 Stanley Weintraub.
40 "The Playwright in spite of Himself: George Bernard Shaw, Man, Superman, and Vegetarian?"
41 Shaw, "Preface", *Saint Joan* ,(London: Penguin Books, 1961), P 10.
42 P.S. Avasthi & V. K Maheshwari, eds. *Saint Joan*, (New Delhi: Lakshmi narain Agarwal, n.d.), P 102.
43 Norman T. Carrington, *Brodie's Notes on Saint Joan*,(London: Pan Books Ltd, 1976), P 10
44 Ibid ,P 10.
45 Shaw, "Preface", *Back To Methuselah*, (New Delhi: Lakswari Norain Agarwal, n.d.), P 27.
46 Ibid ,P 28
47 Ibid,P 29.
48 Ibid,P 29.
49 Carrington, *Brodie's Notes*, P 10.
50 Avasthi & Mahesheari (eds), P 30.
51 Ibid, P 28.
52 Maurice Valency,The Cart and the Trumpet:The Plays of George Bernard Shaw,(New York:Dodd, & Co,1981),P 30.
53 Shaw, "Preface", *Saint Joan, P 12.*
54 Ibid, P 36.
55 Ibid, pp 36-37.
56 Avasthi & Maheshwari (eds.) *Saint Joan*
57 Brodies Notes, P 9.
58 Eric Bently, Bernard Shaw, (New York: New Directions, 1957), P 168.
59 Ibid,P 168
60 Shaw, Saint Joan, (London: Longman, 1966), PP 49-50
61 Louis L. Martz, "The Saint as Tragic Hero", Tragic Themes in Western Literature, Cleanth Brook, (ed) (New Haven: Yale University Press, 1960) P160.
63 Maurice Valency, The Cart and the Trumpet: The Plays of George Bernard Shaw, (New York Oxford UP., 1973), P 384.
64 David Daiches, A Critical History of English Literature.Vol.2, (London: Secker & Warbury, 1960), P 1108.
65 Martz, P 162.
66 Ibid , P 162.
67 Shaw, *Saint Joan: Selected Plays*, ed. Dan H. Laurence (New York: Dodd, Mead & Co.,1981),P 813.
68 Ibid P 829.
69 Ibid P 829
70 Ibid, P 827
71 Ibid,P 823
72 A. C. Ward,P 180.
73 Avasthi and Maheshawari,P 109.
74 *Brodies Notes*,P 27.
75 A. C. Ward, P 181.
76 *Brodies Notes*,P 27.

elementary school,or any of the others who cross
the line we have to draw,rightly or wrongly,
between the tolerable and the intolerable.

Notes & References:

1. Joan Bell Henneman, "Hundred Year's War", Encarta Encyclopedia, Microsoft corporation, 2004.
2 www.joan-of-arc.org/joanofarc-footnote-113.html.
3 ibed
4 Norman T. Carrington, Brodie's Notes on Shaw's Saint Joan, (London: Pan Book Ltd, 1976), p16
5 Two early Christian martyrs.
6 identified in the Bible as the commander of Heaven's armies who led the war against Satan.
7 ibid.p 16.
8 William James Adams, "France", Encarta Encyclopedia, Microsoft Corporation 2004.
9 A military commander.
10 www.joan-of-arc/joanofarc/biography.
11 Idid.
12 Brodies Notes,p 16.
13 This was an arrangement which was occasionally given to religious visionaries during the medieval period.
14 www.joan-of-arc/joanofarc/Biography.
15 Jeremy Roberts. *Saint Joan of Arc*, (Minneapolis: Lerner Publication Co.2000), p25.
16 www.joan-of-arc.org/joanofarc/Biography.
17 Brodies Notes, p17.
18 Joan Arnold, "Saint Joan of Arc, A modern Day Hero For All", www.stjoan-centre.com
19 Christopher Russell. "The Creativity of Joan of Arc", www.therussell.net/papers/joan.
20 Ibid.
21 Ibid.
22 Edward luic Smith.*Joan Of Arc(*
23 "Joan of Arc" The Columbia Encyclopedia, 6th edition, 2001, www.bartleby.com/65/jo/joannabib.html.
24 Charles W. Colby,ed. "Medieval Sourcebook: The Trial of joan of Arc ,1431" Selections from the sources of English History, 55BC-AD 1832 (London: Longman, Green,1920), p 113.
25 www.joan-of-arc.org/joanofarc/Biograhy.
26 Ibid.
27 Louis Kossuth, "Legends of Joan of Arc", www.thedividingnation.com/comlegends-of-JoanofArc.
28 Encarta Encyclopedia.
29 Stanley Weintraub, "George Bernard Shaw", Encarta Encyclopedia, Microsoft Corporation 2004.
30 Norman T. Carrington,*Brodie's Notes on Shaw's Saint Joan,* p 8.
31 Ibid, P 8.
32 John Burgess Wilson. *Survey of English Literature* (London: Longman, Green and Co Ltd,1969), P 251.
33 Ibid, P 261.

can do to mitigat the danger of persecution is, first,to be very careful what we persecute,and second,to be bear in mind that unless there is a large liberty to shock conventional people, and a well informed sense of the value of original individuality,and eccentricity,the result will be apparent stagnation covering a repression of evolutionary forces which will eventually explode with extravagant and probably destructive violence.[89]

This passage reveals a very important issue,not only in medieval times but also of the modern times especially the twenty first century.It is The Global Terrorism which till now represents an accusation against those who struggle for freedom and justice.And it is a justified act when it serves to pave the way for the otherwise reasons.Shaw,in this passage,defines the horrible acts of the Inquisition Courts,or any behaviour in any time,as"apparent stagnation covering a repression of evolutionary forces."So to over come the fear from such agents of transformation and revolution,there exists the need to perscute,kill,burn,and to destruct all evolutionary forces.First,they will be accused of heresy or sometimes terrorism.This is to minimizes their importance by deforming their reputation,and above all,so as not to patronize them.Second,they must be destructed for their mere existence is a threat .For this reason saint Joan was burnt.History narrates that thousands of martyrs were persecuted or burned for they bring new ideas or for they revolt to reform.Shaw justifies this by saying"that all evolution in thought and conduct must at first appear as heresy and misconduct."If joan was accused of heresy at her times,this still to occur in modern times but with some modifications.Shaw explains this further:

Joan was persecuted today.The change from Burning to hanging or shooting may strike us as a change for the better.The change from careful trial under ordinary law to recklessly summary military terrorism may strike us a change for the worse.But as far as toleration is concerned the trial and excution in Rouen in 1431 might have been an event of today;and we may charge our consciences accordingly. If Joan had to be dealt with by us in London she would be treated with no more toleration than Miss Sylvia Pankhurst,or the peculiar people, or the parents who keep their children from the

And as the law of God in any sense of the word
which can now command a faith proof against
science is a law of evolution,it follows that the
law of God is a law of change,and when
the Churches set themselves against change
as such,they are setting themselves against
the law of God .[87]

The fear from such reforming change,makes persons,authorities,or ruling systems to stop it by any efficient aid.Shaw reflects in Saint Joan how this fear is working inside the minds of stasus rulers or religious leaders.Morover,he shows why there was horrible acts and doctrines against reforming or revolution.The Inquisition Courts,as Shaw analyzes,was only a means to stop these reformations.Heresay was the normal accusation that is pasted on every reformer.Anyone adopting a belief against the church was considered a dissenter.And as a punishment for all these,they were burned.To those who sentenced such acts against reformers, "it is a painful duty" in comparison with "the horror of heresy"Their fear from reformation is transformed into a tool to terrify the nation as a whole.This tool was The Inquisition Courts with all its horrible acts.

The fear from Islam is intensified through this scene especially the conversation between Cauchon and Warwick.Shaw reveals through them how the western world instill a bad picture about Islam and the followers of prophet Mohammed.He also describes why the churchmen fears from Islam and Muslims:

Warwick:I am a soldier, not a churchman.As
a pilgrim I saw something of the
Mohametans.They were not so ill-
bred as I had been led to believe.
In some respects their conduct compared
favorably with ours.
Cauchon(displeased)I have noticed this before.Men
go to the East to convert the infidels.And
the infidels prevent them.The crusader
comes back more than half a Sarcen.Not
mention that all Englishmen are born
heretics .[88]

Thus revolutionaries and reformists were and still to be considered terrorist,for they terrify and threat the tyranny of stasus intiquity and injustice.No wonder Saint Jaon was considered a terrorist.Shaw in the Preface affirms this fact however:

We must persecute,even to the death;and all we

messenger of God ,and wrote in God's name to the
kings of the earth.Her letters to them are going
forth daily.[80]

This speech reveals the fear of Cauchon,who is an extremist Church man,from Islam.He fears from it for it spread so rapidly and also because it stir a trend of reforming among pious Christians.To Cauchon,Prophet Mohammed and the Christian reformists are only followers of Satan who "is spreading this heresy everywhere."[81] According to Cauchon these heretics include Mohammed,Saint Joan and the following:

The man Hus[82],burnt only thirteen years ago at
Constance ,infected all Bohemia with it.A man
named Wcleef[83],himself an anointed priest,spread
the pestilence in England...We have such people
here in France too:I know the breed.[84]

The success of these reformers makes this man,Cauchon,feel afraid about his religious rank." It is cancerous:if it be not cut out,stamped out ,burnt out,it will not stop until it has brought the whole body of human society into sin and corruption,into waste and ruin,"[85]says Cauchon justifying his fear from reformation.Shaw enters more deep inside the mind of this man revealing why he fears from Reformation:

What will the world be like when the Church's
Accumulated wisdom and knowledge and experience,
its councils of learned,venerable pious men,are thrust
into the kennel by every ignorant laborer or dairymaid
whom the devil can puff up with the monstrous self-
conceit of being directly inspired from heaven?It will
be a world of blood,of fury,of devastation,of each
man striving for his own hand:in the end a world
wrecked back into barbarism...What will be when
every girl thinks herself a Joan and every man a
Mohomet ?I shudder to the very marrow of my bones
when I think of it.I have fought it all my life;and I will
fight it to the end.[86]

So this man is against reforming and change.Shaw describes the law of change as that of God.And those against change are against God.The church is thus is anti-God if it refuse change. Saint joan or any reformers are agents of change,reform,and progress that is necessary for the continuation of life.They are agents of the Life Force.They evolove upon the stasus of the hierarchy of state and church.this change revitlises life and turns its cycle.Shaw affirms this fact in the Preface to Saint Joan as follows:

and Bretons and Picards and Gascons
are beginning to call themselves Frenchmen,
just as our fellows are beginning to call
themselves Englishmen?They actually talk of
France and England as their countries.theirs,
if you please!What is to become of me and
you if that way of thinking comes into fashion?[77]

The fear from national revolution makes the authorities (represented by statemen,religious leaders ,or invaders) divide the nation so as to rule easily.The reformers' only way to defeat the tyranny is to unite the nation so as to triumph.Shaw reveals the fact that nationalism is the banner that embrace all different factions into one united army that is undefeatable.A mechaism for defeating the national reformers is sectarianism.In the preceding dialogue,Shaw reflects how these forces divide and lable people into factions.Moreover,Shaw sheds the light on The Inquisition.

Then through the dilogue between Cauchon and Warwick,another fear is described.It is the religious reforming.To them Saint Joan resmbles a threat since she never mentions the church but"it is always God and herself."[78]Cauchon compares her to prophet Mohammed:

Cauchon:A faithful daughter of The Church!The
Pope himself at his proudest dare not to
presume as this woman presumes.She acts
as if she herself were The Church...She
acts as if she herself were The Church...She
sends letters to the king of England giving
him God's command through her to return
to his island on pain of God's vengeance...
Let me tell you that the writing of such letters
was the practice of the accursed Mohamet,the
anti-Christ.[79]

To these Church men,Prophet Mohammed's message is also a threat.This is because his religon was spreading more and more everywhere.Consequently,their church is at risk:

Cauchon: ...by it an Arab camel driver drove Christ and
His Church out of Jerusalem and ravaged his way
west like a wild beast until at last there stood only
the Pyrenees and God's mercy between France and
damnation.Yet what did the camel driver do at the
beginning more than this shepherd girl is doing?He
had his voices from the angel Gabriel:she has her
voices from the St.Catherine and St Margaret and
the Blessed Michael.He declared himself the

Even in the Epilogue, Shaw uses again the discussion between characters to evoke the ideas that cannot be narrated so easily. By letting, a martyr comes to the earthly life and talk to those who persecuted her, Shaw is able to show the reader what a martyr means. He lets us feel what a martyr has to say to his/ her killers. Being a martyr is a bless that saint Joan will own "nothing to any man", who in a way or another participated in making her a martyr by killing her. But she owes "everything to the spirit of God".

The use of irony in this scene is employed so as to let the reader think of the cruelty, old and new, that lets people slain others for only earthly interests. It lets us imagine "if she were able to come back amongst us none of us would be ready to receive her, we should all make excuses to carry on in the same old way"[74]. As mentioned earlier, Shaw wrote this play after the Roman Catholic Church had announced Joan of Arc's canonization in 1920. Perhaps Shaw's reply to this so late canonization, comes within the Epilogue and especially the laughter that satirically springs from the martyr and her killers:

> A gentleman dressed in the fashion of the year 1920 suddenly appears before them. They all burst into uncontrollable laughter at his fancy dress... He has been sent to announce that Joan of Arc, having been admitted by the Church successively to the ranks of Venerable and blessed has now been called to the communion of the Church Triumphant as Saint Joan[75].

The laughter at this man symbolizes the answer to the hypocrisy of earthly institutions that once have condemned her and then, after centuries, and for political reasons, these same institutions considered her as saint. So in 1920 the heroine is as disillusioned as she was in 1431 and the curtain comes down on her cry of despair- "O God that madest this beautiful earth, when will it be ready to receive thy saints? How long? O Lord, how long?"[76]

6. Fear As Reflected in *Saint Joan*

In scene IV discussion between The chaplain and The Nobleman reveals key issue that is of nationalism. These two characters represent symbols .The Chaplain refers to religion and Church while The Nobleman refers to state authority. To them nationalism is a threat to their existence. Shaw also sheds the light on sectarianism as a tool to get rid of the nationals who revolt for the sake of their country.

The Chaplain:He is only a Frenchman, my lord.

The Nobleman:A Frenchman!Where did you pick
up that expression? Are these Burgundians

disregard for the authority of the Church as signs of diabolical interference. This does not make her a witch as de Stogumber asserts, but a heretic. "All these things you [de Stogumber] call witchcraft are capable of a natural explanation. The woman's miracles would not impose on a rabbit: she does not claim them as miracles herself"[68].Her crime then is not witchcraft, but pride. She sets her country above the Holy Catholic Church and refuses the wisdom and sovereignty of God's anointed priests. All of them find excuses for burning her. She resembles the agent of transformation while they resemble the static cycle of life.

"The trial scene (vi) is the most romantic and emotional part of the play and it has done most to make *Saint Joan* popular"[69] This scene presents Joan as a martyr. It shows the dramatic brilliance of Shaw. He made use of the records of the trial as a resource of the trial scene. It is an impressive scene. In it Shaw reflects how Joan bravely choose martyrdom and never fear from burning. "Shaw has invented an impressive human motive for Joan's ultimate decision: to die rather than surrender personal liberty, which is only another name for happiness"[70].

Shaw identifies Joan as a pioneer of change. Her ideas ushered in the age of Protestantism. She embodied the Renaissance spirit that was beginning to sweep Europe. In the Crucial moment before she was burnt at the stake, she faced death bravely and "death is transfigured into triumph by a soul made great, and refusal to surrender freedom of conscience becomes the jewel of her martyr's crown"[71].

Shaw through the Epilogue considers this triumph of Saint Joan's martyrdom. Joan and her persecutors may not have been aware of the social and historical implications of their actions, but Shaw was. His carefully crafted narration of the events leading up to the trial and the comically ironic epilogue demonstrate the power of the evolutionary Life Force. The final scene or the Epilogue is as essential part of the play. Shaw's aim behind it is "to show that although Joan was killed and (as it seemed then) finally defeated, she was in truth victorious, not only because she helped in the liberation of France, but also because the ideas which centered in her went marching on through the centuries."[72] The Epilogue is the product of Shaw's creative imagination and genius. It serves to show the victory of martyrdom of Saint Joan.

> In the Epilogue the centuries run into each other in a series of dreams or visions in which all kinds of things can be introduced, however impossible they might seen in ordinary waking life. This scene is in some respects the best in the play. Shaw gets free from the confining framework of fact and becomes a genuine creator[73].

Dunois's reactions to Joan in scene 3 fall between the extremes of unquestioning faith and tempered disbelief. The stage directions describe him as "a good- natured and capable man who has no affectations and no foolish illusions". To this commander, who is her "comrade in arms", Joan's youth and innocence represent hope. On the riverbanks outside Orleans, Dunois asks Joan to pray for a west wind to carry his troop into the city, when the east wind suddenly changes at Joan's blessing, Dounis at once hands over to her the command of his army. In spite of this, he remains skeptical, and ever frightened of the reality of Joan's voices. He supports Joan as long as her advice is reasonable and brings success.

The discussion between Cauchon, Warwick and de Stogumber in scene 4 exemplifies the significance of the radical differences in what Joan's foes choose to believe. To the English clergy her military success and popularity represent witchery and sorcery. Chaplain de Stogumber's ignorance and simplicity cause him to fear what he cannot understand. He admits that she was inspired not from God but from Satan.

> The Chaplain... I do not understand what your lordship means by protestant and Nationalist... I know as a matter of commonsense that the woman is a rebel; and that is enough for me. She rebels against Nature by wearing man's clothes, and fighting. She rebels against the Church by usurping the divine authority of the pope. She rebels against God by her damnable league with Satan and his evil spirits against our army. And all these rebellions are only excuses for her great rebellion against England... Let her perish. Let her burn[66].

He felt that her rebellion would kindle many other revolutions because people began to trust her. So his solution to avoid any change that her revolution would make is to burn her. "Let her burn. Let her not infect the whole flock."[54] For Warwick and Cauchon Joan is not a witch, but a heretic. They disagree, however, on the nature of her heresy. Warwick accuses her of a secular heresy that threatens the feudalistic order. By unifying the Burgundians, Bretons, Picards and Gascons as Frenchmen against Englishmen, she incites disobedience to the feudal lords. To Warwick she resembles a threat against the "whole social structure of Christendom"[67].

Cauchon pays attention to Joan's nationalistic threat against the sovereignty of the Church. He fears that the division of God's kingdom into nations will dethrone Christ and thrust the world into chaos. The Inquisitor Lemaitre echoes Cauchon's abject fear of spiritual chaos at Joan's trial in Scene four. They describe her French nationalism and her

and anguish of Joan as she resists the temptation to doubt her voices, in the rather unconvincing screams at Stogumber at the close, and in the quiet, controlled sympathy of Ladvenu[61].

The critic Maurice Vallency calls *Saint Joan* a thesis play, which demonstrates a conflict of ideas. The characters symbolize abstract conceptions of religion and politics subject to unavoidable shift in historical perspective, which change the nature of their authority. The difference between Joan and her persecutors is mainly a matter of perception[63]. While critic David Daiches does not consider this play as a tragedy but as comedy:

> Saint Joan is in many ways a brilliant play; it not a tragedy, but a comedy with one tragic scene, and the comedy lies in the way in which Shaw interprets his historical characters in the light of his own modern understanding and preoccupations. He never really comes to terms with the miraculous in this play: he uses it for comic effect and to implement his view that sainthood is merely inspired common sense[64].

Each of the six scenes of *Saint Joan* explores the differences between the character's perceptions of miracle and coincidence, faith and reason, death and martyrdom, and divine inspiration and demonic possession." As he and Ibsen had to write, within the conventions of the modern realistic theatre"[51], Shaw tried to make the concept of miracle and sainthood approachable to modern reader. This is further explained by Martz:

> ...That on this stage facts matter- or at least the appearance of facts- and in this need for dramatic realism lies the basic justifications for Shaw's elaborately argued presentation of Joan as a Protestant and Nationalist martyr killed by the combined institutional forces of feudalism and the Church. Through the body of the play, Joan is represented as the agent of a transformation in the actual world[65].

In the first scenes, Joan appeals to a doubter for the authority to lead the French troop to victory over the invading English. An apparent miracle at the close of scenes enables Joan to acquire authority over the feudal lords, the court, and the military. Her doubters interpret the nature of the miracle differently. Baudricourt in scene 1 and Charles in scene 2 are easily convinced of Joan's veracity. Shaw characterizes both as simple and foolish blowhards eager to entrust the fate of France to a supernatural power. Their simplicity and narrow- mindedness allow them to see divine inspiration in reason and coincidence.

5. *Saint Joan* the Shavian Tragedy

Saint Joan is considered by many critics to be Shaw's masterpiece. "It strikes every chord from happy laughter to poignant tragedy."[57] The character of Saint Joan represents one of the new heroines in English drama. In almost all of Shaw's plays, he treats the new woman as an isolated phenomenon, exclusively Shavian. The emergence of the new woman was a noteworthy feature in the late Victorian and twentieth century drama. For the first time significant stage roles were created for women. New women in drama eschewed their traditional roles of submissiveness and seized the roles of the protagonist. The American critic, Eric Bentley describes Shaw's portrayal of Joan of Arc as the culmination of his girl heroines. "Saint Joan is an attempt at several kinds of synthesis. In it Shaw unites the practical and the ideal and carries as far as he can take it the spirituality of the girl heroines."[58] To Shaw Saint Joan is a good example of his Life Force theory. She is a vehicle for him to present a woman in her active, true roles as a mover of the evolutionary process. And as Bently points out, if history had not produced Saint Joan, Shaw would have had to invent her[59].

Joan's story is a Shavian tragedy, not because so young and pious a girl was burned at the stake, but because she was burned by learned and pious men. Or as Shaw says: "The tragedy of such murders is that they are not committed by murderers. They are judicial murders, pious murders; and this contradiction at once brings an element of comedy into the tragedy; the angels may weep at the murder, but the gods laugh at the murderers."[60]

The Church Militant becomes a sort of tragic hero because of Joan's tragic flaws. Her influence upon people, her arrogance, frankness, and pride threaten to disorder the tradition and dominion of the church and state. Saint Joan is fit to be an Aristotelian hero by Shaw's view but critic Luis L. Martz considers her as Shavian:

> ...Joan's apparent resemblance to the Aristotelian hero: her extreme self- confidence, her brashness, her appearance of rash impetuosity- all this becomes in the end a piece of Shavian irony, for her only real error in the play the one point where her superb self-confidence breaks down in the panic recantation. And so the hubris is not Joan's but Every- man's. The characters who accuse Joan of pride and error are in those accusations convicting themselves of the self-righteousness and the errors of human certitude. It is true that the suffering that results from this pride and error remains in Shaw's play rather theoretical and remote; and yet we feel it in some degree: in the pallor

God becomes a co- operative enterprise conducted on modern lines, with the workers as part-owners. The kingdom of God is theirs as well as God's[50].

Behind Shaw's theory of Creative Evolution there is his faith in mans power for progress. "By virtue of his intellectual and spiritual force man must evolve to a higher and higher state of living irrespective of God's will or permission."[51] Shaw calls this spiritual power for progress in the universe as Life Force. In *Saint Joan*, Shaw practiced his new religion. This play is an expression of his theory of Life Force. Critic Maurice Valency identifies Joan as a symbol of progress dialectictically opposed to the preservers of order, Warwick and Cauchon. They represent the equal and opposite force of reaction to her action. And as Valency says:

The play in these terms fitted admirably into Shaw's philosophic scheme... Joan, in her sacred aspect is... a spectacular realization of the Life Force, a genius precariously balanced on the threshold of the future, and therefore especially vulnerable to the forces of reaction[52].

Shaw describes the Life Force as an evolutionary appetite, which uses individuals like Joan to effect social change[53]. The forces of stasis, the feudalists and the Catholic priests in *Saint Joan*, are never ready to accept the evaluation of civilization, so they must destroy the revolutionary. They all persecuted Joan because in Shaw's view, "all evolution in thought and conduct must at first appear as heresy and misconduct"[54]. Shaw as if was saying that martyrs like Joan gave their life for the sake of life's progress. They thus renew life by allowing the change to occur. He considers the law of change as the law of God. Shaw further explains this:

...Though all society is founded on intolerance, all improvement is founded on tolerance, or the recognition of the fact that the law of evolution is Ibsen's law of change. And as the law of God in any sense of the word which can now command a faith proof against science is a law of evolution, it follows that the law of God is a law of change, and that when the Churches set themselves against change as such, they are setting themselves against the law of God[55].

Thus Joan's martyrdom is explained as one agent of Life force. Consequently, "Life Force is the sustained will to progress, to rise on the hierarchal ladder of life."[56] And Joan as a saint and as a martyr represents the power of this progress.

and not that of a historian, who gives only facts and neglects the unrecorded motives and evidences that lie behind the facts.[42]

4. Life Force

In Shaw's earlier plays the theme generally is about economic affairs, but in the later plays, especially *Saint Joan*, the focus is on a religious one. Shaw's constant beliefs on anything are difficult to state, because whatever statement is made can be contradicted somewhere in his work.[43]His attitude to religion is that of a rationalist. He understood and interpreted Christianity rationally. He propounded his own religion of Creative Evolution[44]. Thus he replaced the orthodox and conventional Christianity with his modern scientific religion of Creative Evolution. Show says that it had "newly arisen from the ashes of pseudo- Christianity, of mere skepticism, and the soulless affirmations and blind negations of the mechanists and the Neo- Darwinians."[45] There is not much difference between Darwin's theory of evolution and Shaw's theory. Darwin approached the law of evolution from the physical side of nature, and his law covers not only human beings but all animals. Whereas Shaw's law of Creative Evolution can be applied to human beings only[46]. Through this theory, he focuses upon glorifying intellectuality. "Shaw's theory of life force exposes a fantastic, imaginative and semi- mystical strain in Shaw's personality."[47] What really interested him was man's social welfare and as a solution to its perplexties, he suggested the life Force[48]. Show said: "I say that life force is God." This saying is best discussed by St. John Ervin's summary of Shaw's religious point of view:

> God, or the life force, is an Imperfect power striving to become Perfect...The whole of time has been occupied by God in experiments with instruments invented to help Him in His attempts to perfect Himself. God created a new instrument, Man, who is still on probation. Shaw warns the world that if we, too, fail to achieve God's purpose, He will become impatient and scrap mankind as He scrapped the mammoth beasts.[49]

What appeals strongly to Shaw is the idea of being an active partner in establishing the kingdom of God. This is one of the main pillars of Shaw's new religion or life Force theory. This is further interpreted by the critic Maurice Calbourne in his book *The Real Bernard Shaw* as:

> For Shaw the most acceptable way of establishing the kingdom of God is to labor with God (or Whatever you like to call Him- Life Force, etc.) and help to build it, instead of dawdling in the courts of ritualistic praise and indulging the emotions...Thus, the kingdom of

external aspects of life. This influence by Ibsen made Shaw follow his notions of new drama, and put them into practice[34].

It was the intellectual drama that Shaw and his contemporaries were interested to write. They used the theatre as a social force by raising questions as to the sanity of the conventions of the well- made plays. Shaw intended to use the theatre for propaganda. To him the man who believed in art for arts sake is a fool."[35] He considered art as too great to be understood in such doctrine. "The life and spirit of art, that glorious thing in us which makes us feel the beautiful, the true and the good, is not propaganda, but may be it is the spirit which prompts that propaganda."[36] Shaw explained the theme of his plays in the Prefaces. In all of Shaw's plays, the drive of a thesis argued in the Preface is the mainspring of the play. Shaw himself acknowledges this and declares that all his plays have a message for mankind:

> My chief contribution to my generation has been my great success in stimulating the thoughts of men and women. With each new play I have brought a message to mankind. Indeed, in the realm of ideas I may be called the messenger boy of my time ... each play is a testament of my convictions ... *Saint Joan*: on heroism and saintliness[37].

Shaw has declared the theme of *Saint Joan* in the preface, in which he calls "a sober essay on the bare facts"[38]. He is the only modern dramatist who started to write plays which were read and not acted. All his plays are problem plays and are read as much as for the prefaces as for the plays themselves[39]. It is recognized that as a means of expanding Shaw's influence was to print his plays with detailed introductions and stage directions. He articulated his views by fusing two genres, the polemical essay with the drama[40].

The preface to *Saint Joan* gives an accurate account of Joan of Arc's martyrdom and her persecutors devoid of sentimentality, romanticism, or slander. He intends to "get rid of the mud that is being thrown at her judges, and the whitewash which disfigures her."[41] For Shaw Joan emerges from history as neither angel nor devil, but as a genius with an active imagination. The Inquisitor rises from the mist of cruelty, and appears as compassionate men who operate only within the scope of their medieval world- view. In fact, Shaw did not take the side of any of his characters. He lets us see not only her point of view but also her opponent's reasons for persecuting and destroying her. Both sides declared their own evidences and thus Shaw leaves the reader to conclude his/ her own judgment. To do this, Shaw employs the methods and techniques of his artistic imagination

Calixtus III, Joan was pronounced innocent. Since then she has been considered one of the most famous French national heroines[25]. And within the 20th century, she has been exalted to sainthood and then was declared Venerable in 1904. She was beatified in 1909 and canonized as a full saint in the Catholic calendar by Pope Benedict XV in 1920[26]. The writer Louis Kossuth says of her: "Consider the unique and imposing distinction that since the writing of human history began, Joan of Arc is the only person, of either sex, who has ever held supreme command of the military forces of a nation at the age of seventeen."[27]

Although she was killed hundreds years ago, yet still her story and martyrdom throbs in the pulse of poets, writers and generation to come. And as critic A.C. Ward says:

> The story of Joan of Arc, the French girl who won back her country from the English invaders is one of the world's greatest stories. Though it all happened in France more than five hundred years ago it is not simply an old story. It will continue to be new and important until there are no longer men who set out to conquer and rule over others[28]

3.Shaw The Revolutionist

George Bernard Shaw is one of the important and most provocative controversialists of the first half of the twentieth century[29]. He was born in Dublin on 26th July 1856, in a very ordinary home. From his childhood he had his own love of reading. He read anything and everything that came his way[30]. He studied Karl Marx and made himself prominent in the early Socialist movement. In 1884 he became one of the founders of the Fabian Society. All his life he called himself a Socialist[31].

Shaw made many contributions to the modern theatre. He was revolutionary in the themes of his plays and in the style he used to convey his ideas. The rules to construct his plays were his own[32]. "Shaw was fascinated by ideas of all kinds, and he use his outstanding dramatic skill to publicize all sort of notions- from the importance of the science of Phonetics (*Pygmalion*) to the 'Protestantism' of Joan of Arc."[33] The Edwardian era (1892-1913) was rich in revolutionary ideas. A new theatrical renaissance was ushered in with the publication of Shaw's *Widowers House* (1892) under the influence of the Norwegian dramatist Henrik Ibsen. Shaw was influenced by Ibsen's works. He defended Ibsen against the attacks of the critics. He praised Ibsen's way of revolutionizing drama stating that this was the way the new drama should go. It should concentrate on ideas, and it should focus on inner life rather than on

> Joan of Arc, became the hero France needed to save their desperate country she led the French army to a glorious victory at Orleans. Joan's brilliant leadership during the Battle of Orleans boosted her countrymen's self-esteem, enabling them to end the hundred years' war in their favor[18].

Napoleon Bonaparte even noted that Joan helped to revitalize the French during important battles: "The illustrious Joan of Arc proved that there is no miracle which French genius cannot work in circumstances where national independence is threatened"[19]. She instilled loyalty within the French to unite France under a French king. They steadfastly supported her and followed her field decisions and guidance. "She stirred the sense of nationalist within the French and thus she became the heroine of the Hundred Years' war and the inspiration of many people to come"[20]. Through her self-confidence, determination, and courage, she had the ability to get soldiers and captains to listen to her and do as she wanted them to do concerning military tactics."[21] Her leadership provided spirit and moral more than military prowess.

Even after Charles's coronation, she continued to lead the French troops. In September 1429, Joan unsuccessfully besieged Paris. But she failed and was wounded. After she recovered she went back to the field again with her French armies. In 25th May, 1430, when she was with some men going to Compiegne, she was captured by the Burgundians and sold to the English who were eager to destroy her influence by putting her to death. Charles VII made no effort to secure her freedom. Then the English turned her over to a court of Inquisition in Rouen at the instigation of the Bishop of Beauvais, who was a tool of the English. After a long and disgraceful trial, she was tried for heresy, witchcraft and disobedience to the Church before Pierre Cauchon and other French clerics who supported the English[22]. "Probably her most serious crime was the claim of direct inspiration from God"[23]. And the court considered the refusal to accept the church hierarchy as heresy. "Those whom she led to victory believed that she was inspired of God, and the English, not denying her inspiration believed that it was of the Devil."[24] On the charge of a relapsed heretic, she was brought to the stake and burnt on 30th May 1431.

She was only nineteen but she accomplished her holy mission successfully. She showed a great bravery and heroism during her trial and she faced death with unshaken courage. After that her ashes were thrown into the Seine as a remark of disgrace. But historical records narrate that although she was burned and turned to ashes, yet her heart remained safe. Her family did not give up and kept on pressing for a rehabilitation trial. After twenty-five years in 1456, at a court specially constituted by Pope

with soldiers, for safety and modesty's sake. She would call herself "La Pucelle" (The Maiden or Virgin), explaining that she had promised her saints to keep her virginity for as it pleases God. It is by this nickname that she is usually described in the documents[10]. Eventually, when she was brought into Charles's presence and his counselors at Chinon on 23rd February 1429, she presented herself before him with great humility and simplicity, a poor shepherd girl. She said to him: "Most illustrious Lord Dauphin (i.e., heir to the throne), I have come and am sent in the name of God to bring aid to yourself and to the kingdom"[11]. They were convinced of her and they gave her their approval of the command of an army to march to the aid of Dunois in the relief of Orleans.

Historical accounts indicate that she convinced Charles to take her seriously and to grant her the leadership of an army by telling him about a private prayer he had made the previous November 1st. In it he had asked God to aid him in his cause if he was the rightful heir to the throne. And to punish himself alone rather than his people if his sins were responsible for their suffering and for his failure to liberate his country[12]. After hearing this Charles was convinced because nobody knew of this prayer except himself and God. Moreover, he made her be examined by a group of the theologians in order to test her orthodoxy[13]. She succeeded in this test and she earned a reputation as "another saint Catherine come down to earth"[14]. The French became inclined to believe her and put their trust in her because she fitted to the old legend about the maid who will save them. "The citizens of France knew of an old legend about a maid that would come and save France in their time of need. It was communicated to the people that a young maid would come from Lorraine Valley"[15]. Joan came from Domre'my which rests in the Lorraine Valley. Consequently, their trust in her grew.

She then sent letters to the English commanders in Orleans telling them to go back to England. She began those letters with "Jesus- Mary" slogan she also informed those commanders that son of Saint Mary (i.e. Jesus Christ) supports Charles VII's claim to the throne[16]. So in male dress and a suit of white armour, mounted on a charger, she bore the sword and the sacred banner, as the signal of victory; at the head of army of four thousand men and joined forces with Dunois. She led this army against the English besieging Orleans. This expedition successfully broke the siege. The maid followed this victory with another over the English at Patay, and then led Charles to Reims, deep in the enemy held territory, where he was crowned king of France[17].

Joan acted as a figurehead rather than a field commander. She succeeded because of her military prowess and the support of her fellow citizens whom she united so that they worked together to triumph together:

Orleans, La Pucelle, Jeanne (Jehanned'Arc). Her exploits are thought by many to have changed the course of European history. She is one of most famous and best document of all historical figures.

Joan of Arc was born on the dawn of the Feast of the Epiphany January 6^{th}, in 1412 to Jacques and Isabelle Arc in the village of Domre-my, on the border of Champagne and Lorraine[2]. Her birth seemed as if announced a new type of dawn to Europe and to Christianity. The events in France during the years of her childhood set the stage to Joan's later life and the circumstances surrounding her martyrdom.

The time she was born there was a shaky truce between France and England. But then a civil war erupted between two factions of the French Royal family which would allow the English to re-invade France. The first faction called the "Orleanists", was led by Count Bernard VII of Armagnac and Duke Charles of Orleans; the second faction, their rivals, known as the "Burgundians", were led by Duke John-the-Fearless of Burgundy. Thus, the French were divided into warring parties and this helped king Henry V invade France in August 1415[3]. "From girlhood she had a deep religious faith, and as she grew up and began to take an interest in things she sorrowed more and more for the afflictions of her country, much of which was over-run by the English."[4]

It was around 1424, when she was twelve, that Joan said she began to have vision of Saint Catherine, Margaret[5] and St. Michael the Archangel[6]. In 1428 the situation became critical, as the English prepare to attack the city of Orleans and thereby gain control over the crucial valley of the Loire River, the northern side of Charles' dwindling domain. It was at this time, as Joan later said, that she finally obeyed the orders of her saints to lead an army against the English and Burgundians. And "she declared she had seen visions and heard voices calling upon her to take up arms for king Charles VII, to raise the siege of Orleans and to lead him to Rheim to be crowned."[7] She explained this mission as that God had taken pity on the French for the suffering they had endured. "She was dismayed by the hardships her people had suffered in the war and sought an end to the conflict."[8]

Being the last major city defending the heart of Charles territory, Orleans was placed under the siege of an English army led by the Earl of Salisbury. This was a difficult and hopless situation facing Charles government. Joan was finally granted Baudricourt's[9] permission after her third attempt, to go with an escort to speak with Charles. Baudricourt arranged for an armed escort to bring Joan to Chinon. He escorts her in male clothing, as a disguise in case the group was captured and thus the enemy would not identify her as a woman. The eyewitnesses said she always kept this clothing on and laced tightly when camped in the fields

The Idea of Fear
As Reflected In Shaw's *Saint Joan*

Khawla Muzahim Ali Alkareem

1.Introduction

The idea of fear is one of the important themes that Shaw reflects in his works. The fear from revolution or reformation towers above all kinds of fear reflected in his plays. Revolution and reformation are the essence of our changing human world. And for this reason there are also anti-reformation forces that fear from such revolutionary people. The reformists do their best and sometimes sacrifice their life for the sake of truth and for the social reformation. On the other hand, those who fear from such people do their best to stop that sacred right of revolting against tyranny and injustice. The best of Shaw's works that talks about the fear from reformation is *Saint Joan*.In it Shaw takes the historical figure of Joan of Arc as a symbol for the reformation and revolution.

Saint Joan (1923) **is one of the most outstanding dramas of the twentieth century. For it, Shaw received the 1925 Nobel Prize in literature. He wrote it shortly after the Roman Catholic Church had canonized Joan of Arc in 1920.This play is a dramatization based on the records of her trial made public by the church in 1920.**

Shaw through this play introduces his theory of Life Force or, sometimes is called, Creative Evolution. It gives an analysis of his view about transformational agents exemplified by saint Joan or any other martyrs. He gives a deep description of the fear that is rooted in the western world from religious reformation or even Islam.

This play is not a historical dramatization of an event that is no more. But it is a dramatization of a sacred phenomenon that has been present throughout the history of humanity. It is the revolution that springs from free and brave men.

Shaw best defines the fear from revolution through this play. He describes its causes and its results which can be seen in any time and place in our human world. But before discussing how Shaw reflects the idea of fear in this play, it is more important to know something about Joan of Arc and Shaw the revolutionary write

2. Saint Joan, The Maid, the leader, and the Martyr

Joan of Arc is the French saint and national heroine who united the nation at a critical hour and decisively turned the Hundred Years' War in France's favor[1]. She is known by different names such as The Maid of



Philadelphia University
Faculty of Arts

Culture of Fear

The 11th Philadelphia International Conference

2007



Philadelphia University
Faculty of Arts

Culture of Fear

11th Philadelphia
International Conference





منشورات جامعة فيلادلفيا
2007